

اللُّوَرْجَمَ وَالرِّبْنَ خَدِيل

# الإِمَارَاتُ الْأَرْقَيَّةُ

فِي الْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ

(٤٦٥ - ١٧٢ / ٥٨١) مـ

أَضْرَادُ جَمِيعِهَا

عَلَى الْمَقَاوِمَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلصَّالِبِيِّينَ وَالنَّوَّارِ

مَوْلَى سَلَةُ الرِّسَالَةِ



الإمامات الارتفاعية

في الحجاز ودمشق

أضفوا جديداً

(على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتران)





مكتبة لسان العرب

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

[lisanerab.com](http://lisanerab.com) رابط بديل

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٠ - ١٩٨٠ م

مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع سوريا - بناية صهدي وصالحة  
هاتف: ٢٩٩٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً؛ بيروت





اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْعَمْتَنِي بِخَلِيلٍ

الإِمَارَاتُ الْأَرْقَيَّةُ  
فِي الْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ  
(٤٦٥ - ٨١٢ / ١٠٧٢ - ١٤٠٩ م)  
أَضْرَابُ جَدِيدَةٍ  
(عَلَى الْمَقَاوِمَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلصَّالِبِيِّينَ وَالثَّتَّارِ)

مَوْلَانَسَةُ الرِّسَالَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قدم هذا البحث عن ( الامارات الارترقية )  
كتراولة للاحتفاظ على (الدكتوراه) في التاريخ  
الاسلامي من جامعة عين شمس في القاهرة ،  
نوقشت بتاريخ ٦/٣/١٩٦٨ من قبل اللجنة  
المؤلفة من : الأستاذ الدكتور حسن جبشي :  
رئيساً، وعضوية كل من : الأستاذ الدكتور محمد  
عبد الهادي شعيرة والأستاذ الدكتور ابراهيم  
أحمد العدوبي، ومنحت مرتبة الشرف الأولى.

# المَدِّه

نطاق البحث - تحليل المصادر والمراجع

## ١- نُطْقَ الْبَحْث

لم تحظ الجهات الشهالية من المنطقة التي تضم اليوم إيران والعراق وبلاد الشام باهتمام كبير في الدراسات التاريخية طيلة العصور الإسلامية ، فقد وجه معظم المعنيين بتلك الدراسات جهودهم لدراسة مناطق معينة كبصر والشام وبغداد وببلاد فارس وما وراء النهر ، في الوقت الذي بقيت فيه منطقة الموصل والجزيرة والجهات الشهالية من بلاد الشام وجنوبي آسيا الصغرى وأذربيجان دون اهتمام كبير ، وهكذا بينما أشاعت المناطق الأولى بحثاً ودراسة ، نجد أن المناطق الأخرى ظلت تعاني فجواتٍ واسعة من الناحتين السياسية والحضارية ، رغم أن هذه المناطق تتميز في بعض الفترات بحيوية كبيرة في هاتين الناحيتين كان لها نتائجها الخطيرة في التاريخ الإسلامي ، نظراً للموقع الذي كانت تحتله ، والذي أتاح لها أن تكون مناطق اتصال وتفاعل بين العالم الإسلامي والشعوب الأخرى في الحرب والسلام .

وتعد منطقة الجزيرة ، وبضمنها الموصل ، مجالاً واسعاً لقيام دراسات عديدة توضح الدور الذي لعبته هذه المنطقة في سير الأحداث وتطور الحضارة وفي تحديد علاقات المسلمين بعضهم ببعض ومع غيرهم ، فضلاً عن أن هذه المنطقة كانت مسرحاً لظهور عدد من الإمارات الإسلامية التي عاشت فترات

طويلة من الزمن وتميزت بفعالية وحيوية بالغتين ( كالإمارة الحمدانية ، العقيلية ، المرداشية ، المروانية الكردية ، الأنابيكية في الموصل ، الأرتقية ، الخروف الأسود والأبيض ) . واذحظي الحمدانيون باهتمام لا يُنسى به ، لفيت بعض الإمارات الأخرى إهمالاً يكاد يكون تاماً في بعض الأحيان ، فضلاً عن أن المنطقة فقدت الاهتمام نفسه طيلة الفترة السابقة التي خضعت فيها للحكم المركزي في المدينة والковفة في عهد الراشدين ، وفي دمشق في عصر الأمويين ، وفي بغداد في العصور العباسية الأولى .

وقد ازدادت أهمية المنطقة بمرور الزمن ، وبخاصة في الفترات التي كان العالم الإسلامي يتعرض خلالها للتغيرات سياسية وحضارية وبشرية ، إذ التحرّكات التي كانت تقوم بها القبائل الكبرى في آسيا الوسطى صوب الغرب كالدبلة والغز والسلاجقة والخوارزميين والتتر والقوى التي تفرعّت عنهم . إذ كانت الجزيرة تمدو - خلال ذلك - هدفاً سياسياً واستراتيجياً لتنشيط نفوذ تلك القوى في المنطقة ، فضلاً عن اتخاذها مجالاً للاستقرار ، وما كان يتبع ذلك كله من تغيرات بشرية وحضارية واسعة النطاق ، لم يشهد العالم الإسلامي لها مثيلاً في كثير من الجهات الأخرى .

فإذا ما التفتنا صوب الغرب لنرى أهمية المنطقة بالنسبة لعلاقات العالم الإسلامي بالشعوب المسيحية ، اتضح لنا الدور الهام الذي لعبته هذه المنطقة ، كحدٍّ حاجز إزاء هذه المسألة التي لا تقل أهمية عمّا تختضن عنه الهجرات الكبرى من الشرق . ذلك أن منطقة الجزيرة كانت تقع على تخوم المناطق المسيحية البيزنطية والأرمنية ، فضلاً عن وجود عدد كبير من المسيحيين في الداخل ، وقد أدت هذه ( الوضعية ) بطبيعة الحال إلى قيام سلسلة متصلة من العلاقات السلمية والمحرّبة بين الطرفين . ويمكن - على سبيل المثال -

أن تجد طرفاً منها في الدراسات التي قامت حول علاقات المسلمين بالبيزنطيين منذ عهد الراشدين وحتى قيام الإمارة الحمدانية، ومن ثم جاء تاريخ هذه الإمارة ليعطي صورة مرئية كثيفة عن علاقات المنطقة بالبيزنطيين والأرمن والمسيحيين الداخلين على السواء .

وقد قالت الحروب الصليبية، وكانت الواقع الجزرية إحدى الأهداف المتقدمة للحرب الصليبية الأولى ، نظراً لقربها من المنفذ المسيحية الشهابية من جهة ، ولو قعها الحيوى المشرف على ناصية العراق والشام من جهة أخرى . وقد تكون الصليبيون بالفعل من إنشاء أولى إماراتهم الأربع الكبرى في الجزيرة ، حيث غدت إمارة الراها لا تقل خطورة عن شقيقاتها الثلاث في أنطاكية وبيت المقدس وطرابلس اللوائي أستان بعدها . وهكذا وضعت الجزيرة ، وبضمها الموصل ، وجهاً لوجه أمام مسؤولياتها العقائدية والتاريخية بشكل أشد خطورة من السابق ، مما كان له نتائجه الهامة في المجال المحلي والإسلامي والعالمي على السواء ، نظراً للدور الذي لعبته هذه المنطقة طيلة أدوار الحركة الصليبية عامة ، والأدوار الأولى منها بشكل خاص .

ونظراً لما تعرّض له العالم الإسلامي من ازدواج في السلطة ، وبخاصة منذ قيام الخلافة الفاطمية في مصر كقوة مجاهدة للخلافة العباسية ، وما رافق ذلك وأعقبه من صراع بين القوى السنوية والشيعية في المنطقة ، فإن الجزيرة غدت عرضة لهذا الصراع أسوة بالمناطق المجاورة الأخرى ، وفاقت غيرها ، أحياناً ، في تحسّسها لنتائج ومستلزمات ذلك الصراع ، إذ قيام تشكيّلات سياسية مذهبية متطرفة فيها مالات هذا الجانب دون ذاك ، مما كان له نتائجه على تطور الأحداث في المنطقة ، وعلى صبغتها الفكرية والاجتماعية والحضارية .

ولم ينج العالم الإسلامي من ازدواج السلطة التي حكمته ، بسقوط الخلافة الفاطمية ، بل استمر فيما بعد وتمثل بالمنافسة والاحتلال والصراع بين الأيوبيين والخوارزميين ، ثم بين المماليك والتر بعد ذلك ، وكانت الجزيرة ، خلال ذلك كله ، تمثل إحدى نقاط التلاس والاحتلال والصدام بين هذه السلطات جميعاً ، مما كان له أثره الخطير على مجريات الأحداث السياسية والحضارية في المنطقة .

وكانَتِ الجُزِيرَةُ، طبِيلَةٌ عَهُودُهَا، تَتَمَتَّعُ بِإِمْكَانِيَّاتٍ اقْتَصَادِيَّةٍ وَاسِعَةٌ النَّطَاقِ، تَشَهِّدُ بِذَلِكَ كُلَّاً الْمَصَادِرِ الْجَغْرَافِيَّةِ وَالرَّحَالَةِ الَّذِينَ زَارُوا الْمَنْطَقَةَ فِي فَتَرَاتِ مِتْفَاقَوْتَهُ. وَكَانَتِ تَلْكَ إِمْكَانِيَّاتٍ، تَنْصَبُ عَلَى كُلَّ النَّوَاحِي الزَّرَاعِيَّةِ وَالصَّنَاعِيَّةِ وَالْمَوَادِ الْخَامِ، فَضْلًا عَمَّا كَانَتِ تَتَمَتَّعُ بِهِ نَشَاطٌ تِجَارِيٌّ، أَثَابَهُ لَهَا مَوْقِعُهَا الْمُمْتَازُ عَلَى خَطُوطِ الْمَوَاصِلَاتِ، بَيْنَ جَهَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنَ الْعَالَمِ إِلَسْلَامِيِّ وَالْبِيزَنْطِيِّ. كَأَنَّ تَعْرُضَ الْمَنْطَقَةَ لِاحْتِكَاكٍ وَنَفْوَذِ دُولٍ وَحُكُومَاتٍ عَدِيدَةٍ، هِيَ لَهَا نَمَوْأٌ مَطْرَدًا فِي أَجْزَاهَا الإِدارِيَّةِ وَأَنْظَمَةِ حُكُومَهَا. أَمَّا النَّوَاحِي الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعِقِيدِيَّةِ وَالْتَّقَافِيَّةِ، فَلَمْ تَكُنْ بِأَقْلَى نَمَوْأٌ وَحِيُوبَةٌ عَنِ النَّوَاحِي السَّالِفَةِ، بِفَضْلِ الْعَوَامِلِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ وَالْبَشَرِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ الْأَنْفَفَةِ الذِّكْرِ. وَبِهِذَا هِيَّاتُ الْمَنْطَقَةِ كُلَّةِ الْمُسْتَلِزَمَاتِ الَّتِي مَكَنَتُهَا مِنْ صُنْعِ حَضَارَةٍ عَلَى درَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ النَّضْجِ، وَمِنَ التَّفَاعُلِ الإِيجَابِيِّ مَعَ سَائِرِ النَّظَمِ وَإِمْكَانِيَّاتِ الْحَضَارِيَّةِ الْمُحاوِرَةِ.

وَهَكُذا نَجِدُ أَنَّ بِإِمْكَانِ الجُزِيرَةِ أَنْ تَقْدِمَ مُجَالَاتٍ وَاسِعَةً لِلدارِسِينِ، لِتَقْطُطِيَّةِ نَوَاحٍ وَاسِعَةٍ مِنْ تَأْرِيخِهَا السِّيَاسِيِّ وَالْحَضَارِيِّ، لَمْ تَكُنْ قَدْ لَقِيتْ اهْتَاماً كَبِيراً. وَمِنْ هَذَا انصَبَّ اهْتَاماً - وَبِفَضْلِ التَّوْجِيهَاتِ القيِّمةِ لِأَسَاتِذَتِي الْمُشْرِفِينَ - عَلَى

تقديم بعض الدراسات في هذا المجال ، كانت أولاهما عن ( عماد الدين زنكي ) ، مؤسس إماراة أتابكية الموصل  $521 - 541 = 1127 - 1146$  م ) والتي لم أنفع فيها منحى الترجمة الشخصية محدودة الأبعاد ، وإنما حاولت أن أحديد ظروف قيام تلك الإمارة وعلاقاتها الخارجية ونظمها العسكرية والمدنية والدور الذي لعبته تجاه الصليبيين ، مما تم على يد مؤسسها زنكي ، الذي قام – بمحقق – بتشكيل نواة دولة إسلامية موحدة ، امتدت فيما بعد فشملت مناطق واسعة من قلب العالم الإسلامي وقامت بدور حاسم في الحركة الصليبية ، وكان نور الدين محمود والناصر صلاح الدين من أبرز قادتها.

ثم كانت هذه الدراسة عن إمارات بني أرتق ( ٤٦٥ - ٨١٢ = ١٠٧٢ - ١٤٠٩ ) والتي غطت فترة زمنية تبدأ مع مطلع الدولة السلاجوقية وتنتهي بإضمحلال إمبراطورية تيمورلنك ، وظهور إمارتي الخروف الأبيض والأسود ، بمثابة فترة عاصرت فيها الخلافتين العباسية والفاطمية . والسلاجقة والأيوبيين والصليبيين والماليك والتتر والجلاثيريين ، فضلاً عن عدد كبير من الإمارات المحلية الصغيرة المنتشرة في المنطقة والجهات الحبيطة . وهكذا فقد عاصرت هذه الإمارات – طويلة النفس – فترة من أهم فترات التاريخ الإسلامي ، وأعطت مثالاً ( نموذجياً ) لدور الإمارات الإسلامية ، في تلك الفترة ، وسياستها المتناقضة تجاه القوى والأحداث ، تارة بالحضور ، وتارة بالتمرد والعصيان ، وتارة بالتأمر ، وتارة بتشكيل الأحلاف أو الانضمام إلى التكتلات ، لتعظيم منافس أو للحصول على مكاسب معينة ، وأحياناً أخرى بتسلّم مركز القيادة في بعض الفترات التي كان يُدهم فيها المنطقة عدو جديد .

عاصر الأراتقة الفترة التي تعرض فيها العالم الإسلامي لغزو مشترك ، على تباعيـهـ الزـمنـيـ ، من الغرب والشـرقـ ، وهي فـترةـ قـلقـ سيـاميـ وـعـسـكريـ

وحضارى ، بدا واضحًا بشكل خاص في المنطقة التي كانت إمارات الأرادة تحتل إحدى جوانبها . فقد كانت هناك تغيرات سريعة على مستوى القيادة السياسية والقوى العسكرية والقاعدة البشرية والتشكيلات الدينية . وكانت المنطقة تنشد حيناً إلى قيادة واحدة ، وتدخل حيناً آخر تحت حماية دولة كبرى ، وتعود أحياناً إلى ما كانت عليه : إمارات صغيرة متناحرة تستهلك القوى السياسية والعسكرية والبشرية والاقتصادية ، وتتمكن للخطر القادم من الغرب والشرق على السواء . كما كانت هذه الفترة مرحلة نمو للنظم والمؤسسات الإدارية والعسكرية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والثقافية ، بلغت قمة تطورها وتعقيدها في العصر المملوكي الذي أعقب الأيوبيين ، وكانت جذوره تنتد إلى الاصدارات التي حققها السلاجقة منذ عهد ( نظام الملك ) في هذه الحالات . ولا شك أن نظم الأرادة كانت ، أسوة بغيرها من الإمارات المجاورة ، عرضة لهذا النمو والتعقيد الذي كانت تستمد منه من مراكز التقل في بلاد فارس وبغداد أولاً ، وفي القاهرة ودمشق بعد ذلك . وهكذا فإن دراسة الأرادة تعطي صورة واضحة عن التيارات التي شهدتها الفترة ، والتي تخضت عن أحداث ونتائج أثرت في سير تاريخ العالم بشكل عام ، والعالم الإسلامي بشكل خاص .



يشمل نطاق البحث ، الذي تتضمنه هذه الرسالة ، دراسة لظروف نشوء الإمارات الأردنية وعوامل سقوطها ، وتحديد طبيعة علاقاتها الخارجية بالدول والإمارات التي عاصرتها ، وتحليل حضارتها ونظمها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ويعود الفضل في ظهور الأرادة على المسرح السياسي

والمسكري جدهم أرتقى بن أكسل الذي لعب دوراً هاماً في المراحل الأولى من قيام الدولة السلجوقية ، وقد أهله هذا الدور للحصول على مناصب قيادية ، وإقطاعيات عديدة في العراق والشام وفلسطين تعد النواة الأولى لكيان الأراثقة السياسي ، وما أن توفي أرتق حتى تعرض أبناؤه ، بعد فترة قصيرة ، لفقدان إقطاعاتهم في القدس ، وفروا في البلاد . ولكنهم تمكنوا بطموحهم ومهارتهم الفردية ورغبتهم في المغامرة ، فضلاً عن ولاء عدد كبير من مقاتلي التركان لهم ، من تحقيق مكاسب عديدة للعائلة الأراثقية ، وتأسيس أولى إماراتهم في ديار بكر ، والتي شملت عدداً من أهم حصون المنطقة . ولكن هذه الإمارة صرعن ما تعرّفت للانقسام إثر وفاة مؤسسها سقمان بن أرتق عام ( ٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م ) ، ومن ثم تبلور الكيان السياسي للأراثقة في إمارتين ، إحداهما في مardin والأخرى في حصن كيما . وقد كان للأراثقة ، طيلة هذه المرحلة من حياتهم السياسية ، علاقات فضلية ورسمية بالسلاجقة ، إذ كانوا مدينيين لهؤلاء إلى حد كبير في فترة نشوئهم ، التي استغرقت عدة عقود ، بما أتاحوا لهم من فرص واسعة للحصول على مزيد من الواقع والإقطاعيات ، فضلاً عن قيام إيلغازي بن أرتق بتولي منصب الشحنةكية للسلاجقة في بغداد ( ٤٩٥ - ٤٩٨ هـ = ١١٠١ - ١١٠٤ م ) ، الأمر الذي أتاح له أن يلعب دوراً هاماً في الأحداث التي شهدتها منطقة العراق وبلاد فارس ، خلال أزمة الصراع بين السلطانين السلوقيين محمد وبركياروق ، والتي تمخضت عن نتائج خطيرة في كيان الدولة السلجوقية .

وما أن أسس عماد الدين زنكي إمارته في الموصل عام ( ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م ) ، حتى انصبت اهتمامات الأراثقة الخارجية على تحديد موقفهم من مشاريعه التوحيدية في المنطقة ، فانتقلوا بذلك إلى مرحلة جديدة من حياتهم السياسية

وعلاقتهم الخارجية ونشاطهم العسكري ، تختلف إلى حد كبير عن مرحلة التأسيس التي سبقتها . إذ غدا مركز الأرادة في وضع خطر إزاء مشاريع زنكي في العمل على توحيد الواقع الجزرية ، عن طريق الاستيلاء عليها أو كسب طاعتها ولائها ، لفرض مجاهدة الصليبيين بإمارة موحدة . وهكذا كان على الأرادة ، خلال هذه الفترة ، أن يتخدوا في معظم الأحيان موقفاً دفاعياً إزاء هذه المشاريع ، وأن يهدوا من مطاعهم الهجومية لتوسيع إمارتهم كالذي حدث في مرحلة التأسيس . وقد حاول عدد من أمراء الأرادة التصدي لهذه المشاريع ، مما أدى إلى انقسام خطير في سياسة الإمارات الأردنية ، كان له أكبر الأثر على إضعافها ، ومن ثم سقوط عدد من مواقعها في يد زنكي .

والروايات في هذا المجال محدودة ، يعتريها التناقض في كثير من الأحيان ، وقد حاولت أن توفّق بينهما قدر الإمكان ، لاستخراج صورة واضحة عن العلاقات الخارجية للأرادة مع زنكي ، والتي تميزت بقيام سلسلة من الحالات ، استهدف زنكي من جراحتها تزييق الأرادة ، وإثارة الشحنة بينهم ، ومن ثم إضعافهم لكي يسهل توجيه الضربات إليهم . أما نور الدين محمود ، الذي أعقب أباه في حكم الجهات الشامية من إمارته ، فلم تكن سياسته تختلف عن سياسة أبيه في الهدف ، ولكنها اختلفت معه في الأسلوب ، إذ اتبع سياسة أكثر ليناً وتسامحاً إزاء الأرادة ، مما أدى إلى خروج هؤلاء من العزلة التي فرضها عليهم زنكي ، وتحالفهم معه في عملياته ضد الصليبيين ، أو ضد الأمراء المحليين ؟ وبالرغم من أن موقف إمارة ماردين لم يكن ودياً من نور الدين ، إلا أنه لم يصل إلى درجة العداء يوماً .

وعندما قامت الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين ، كان على الأرادة أن يحددو

موقفهم من سياساته ومشاريعه التوحيدية المشابهة لتلك التي عمل زنكي ونور الدين على تحقيقها ، ومن ثم كان القسم التالي من علاقات الأرانتقة بالزنكيين والأيوبيين ، ينصب على استعراض وتحليل المواقف التي جملت الأرانتقة بمحالفون الأيوبيين حيناً ، فتقدو إمارتهم أشبه بولايات شبه مستقلة ، في نظام ( المحادي ) ، تتركز سياسته الخارجية والعسكرية في تجميع القوى الإسلامية لقتال الصليبيين ، ويتردون عليهم حيناً آخر ، حيث كانوا ينضمون إلى أحلاف وتكلبات معادية للأيوبيين ، كانت تستهدف القضاء على أطماعهم ، بعد وفاة صلاح الدين ، في منطقة الموصل والجزيرة وأرمينية . ولم يكن موقف الإمارات الأرانتية خلال هذه الفترة متشابهاً ، بل كان يتميز بالتناقض في معظم الأحيان ، فعندما تتخذ بعض إماراتهم موقفاً ودياً من الأيوبيين ، تكون الأخرى قد نجحت منعى عدائياً . وقد عمل الأيوبيون على توسيع هذا الشقاق لإضعاف قوى الأرانتقة واستئصال بعضهم على حساب البعض الآخر . ولذا ما لبثت الأرانتقة أن فقدوا خلال هذه المرحلة اثنتين من إمارتهم الرئيسية الثلاث وهما : إماراة حصن كيفا وإماراة خربرت .

وتشكل علاقات الأرانتقة بالصليبيين أخطر حلقة في تاريخهم السياسي والعسكري ، بما تيزت به من تنوع خلال المراحل المختلفة ، وقد اتضح ، بعد التمييز الدقيق للروايات المختلفة في هذا المجال ، عربيها وغربيها ، قد يهمها وحديثها ، أن هذه العلاقات اجتازت خمس مراحل كانت تنبثق وتتحدد بناء على طبيعة الظروف الخارجية والداخلية للأرانتقة . وقد أطلقت<sup>١</sup> على المرحلة الأولى اسم ( مرحلة الحالفات مع القوى الإسلامية ) ، حيث كان قادة الأرانتقة يعملون على الانضمام إلى الأحلاف والتكتلات الإسلامية ، التي كان السلاجقة يقومون بالإشراف على تنظيمها وتجيئها لقتال الصليبيين . وأطلقت على المرحلة

الثانية اسم ( مرحلة التحالف مع الصليبيين ) ، حيث اضطر الأرaqueة إزاء ضغط السلاجقة وبعض الأمراء المحليين ، إلى اللجوء إلى الصليبيين والتحالف معهم ضد الخطر المشترك . والمرحلة الثالثة هي ( مرحلة القيادة ) ، حيث تولى بعض أمراء الأرaqueة قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين . أما المرحلة الرابعة ، وهي مرحلة ( الانزال ) ، فقد انكشف الأرaqueة خلاتها على أنفسهم ، بسبب ظهور زنكي وتوليه أمر العمليات ضد الصليبيين ، مما أدى إلى عزلة الأرaqueة ، وقد أوضحت بالتفصيل العوامل التي دفعت هؤلاء إلى التخلّي عن مركز القيادة واللجوء إلى العزلة . ومن ثم جاءت المرحلة الأخيرة من علاقتهم بالصلبيين ، إثر مقتل زنكي ، وطيلة الفترة التي أعقبت ذلك ، وقد أطلقت عليهم اسم ( مرحلة الإمدادات ) ، حيث سعى الأرaqueة خلاتها إلى إمداد نور الدين ، والأيوبيين من بعده ، بما لديهم من قوات في عملياتهم ضد الصليبيين . ذلك أن الإمارات المحلية ، وبضمها الأرaqueية ، كانت قد تحولت إلى ما يشبه النظام الاتحادي ( الفدرالي ) لمحاباة الصليبيين . وقد تحقق ذلك بفضل ظهور شخصيتين قويتين ، هما نور الدين محمود وصلاح الدين ، حيث تكنا من إقامة هذا النوع من النظام بالقوة حيناً ، وبالإقناع والمداراة حيناً آخر ، وغداً بإمكانها - بوجبه - أن يطلب المعونات العسكرية والمادية من مختلف الإمارات الإسلامية ليقوما بدور توجيههما وجهة قيادية موحدة ضد الخطر المشترك .

وقد تبين بعد دراسة هذه المراحل جميعاً ، أن الأراثة حققوا في عدد منها نتائج مهمة في ميدان الصراع الإسلامي الصليبي في الجزيرة والشام ، ما كان يمكن أن تصل إلى ما وصلت إليه ، لو لا الدور الذي لعبه الأراثة في هذا المجال . فقد كان هؤلاء في مرحلة التحالف مع الأمراء المحليين ، يشكلون إحدى

القوى الرئيسية في تلك الحالات ، التي مثلت طلائع التجمع الإسلامي ضد الفزو الصليبي ، والتي حققت في بعض المعارك نتائج حاسمة ضد الصليبيين ، كالذى حدث في معركة البليخ عام (١١٠٣ = ٤٩٧ م ) ، على يد سقمان وحليفه جكرمش أمير الموصل . وفي مرحلة القيادة لعب الأرادة الدور الرئيسي في الصراع ضد الصليبيين ، حيث قادوا قواتهم التركانية الخاشدة ، وقوات حلفائهم ، في عدد كبير من المعارك ضد الصليبيين كان لبعضها نتائج حاسمة على الوجود الصليبي في الجزيرة والشام كذلك الذي حدث في معركة ساحة الدم عام (١١١٩ = ٥١٣ م ) ، على يد إيلغازي وفي معارك سروج (١١٢٢ = ٥١٦ م ) وكركر وخربت (١١٢٣ = ٥١٧ م ) ومنبج (١١٢٤ = ٥١٨ م ) ، على يد بلبك بن بهرام . وقد مثل الأرادة في هذه المرحلة ، حلقة من أهم حلقات القيادة الإسلامية الموحدة ضد الصليبيين ، والتي بدأت بولود أمير الموصل عام (١١٠٩ = ٥٠٣ م ) ، وانتهت بصلاح الدين . أما في مرحلة الإمدادات التي قدمها الأرادة لنور الدين وصلاح الدين في جهادها للصليبيين ، فقد لعبوا خلاها دوراً هاماً في تكوين الجيوش الإسلامية ، التي حقق بها هذان القائدان انتصارات حاسمة ضد الصليبيين كالذى حدث في معركة حارم (١١٦٣ = ٥٥٩ م ) ، على يد نور الدين ، وفي معركة خطين عام (١١٨٧ = ٥٨٣ م ) ، على يد صلاح الدين . وقد شهد للأرادة بهذا الدور كل من نور الدين وصلاح الدين ، فضلاً عن عدد من المؤرخين المعاصرین كالعماد الأصفهاني وابن شداد .

ومع ذلك ، فقد كان للأرادة آثار سلبية على مجرى الصراع بين المسلمين والصلبيين ، خلال المراحل التي اتخذوا فيها موقفاً سلبياً إزاء هذا الصراع ، وبخاصة ذلك التحالف الذي تم بين إيلفارزي وصلبيي أنطاكية عام ٥٠٨ هـ

= ١١٤ م ) ، والذي مكن هؤلاء من تحقيق انتصار حاسم في معركة تل دانت على آخر محاولة مباشرة ، قام بها سلاجقة العراق وببلاد فارس ضد الصليبيين . وربما كانت هذه المعركة سبباً من أسباب توقف السلاجقة عن القيام بمحاولات جديدة لتوجيهه أمراء المسلمين إلى الشام لقتال الصليبيين ، الأمر الذي هيأ للإمارات والقوى المحلية القرية من موقع الصليبيين كالأرaqueة ، والزنكيين والأيوبيين فيما بعد ، أن تتحمل مسؤوليتها كاملة في هذا الصراع ، وأن تتولىقيادة حركات الجهاد بما تمتلكه من إمكانيات بشرية وعسكرية واستراتيجية ومن قيادة موحدة ، لم تتهيأ للسلاجقة ، وأن تحقق نتائج خطيرة ضد الوجود الصليبي في المنطقة .

وما أن أخذ الأيوبيون طريقةهم إلى الزوال ، حق كان على الأرaqueة أن يحددوا موقفهم إزاء القوى الجديدة ، التي أخذت تتحكم بصير المنطقة وهما التتر والماليلك . فلقد تعرضت ديار بكر ، في مطلع هذه المرحلة ، إلى هجمات شديدة من قبل التتر اضطرتها إلى الخضوع والدخول في طاعتهم ، ومن ثم غدت هذه المنطقة مجالاً دائماً للاحتكاك والصدام بين التتر والماليلك الذين لم يتوقف العداء والقتال بينها إلا في القليل النادر . وكان على الأرaqueة أن يتخدوا ، في البدء ، جانب التتر ضد الماليك والإمارات الإسلامية المحلية المستقلة ، وتطورت علاقاتهم بعد ذلك ، إثر توازن قوى التتر والماليلك في المنطقة ، فالتزموا سياسة الولاء المزدوج تجاه الطرفين ، في سبيل الحفاظ على استقلالهم الداخلي ومصالحهم الذاتية . وما أن أخذ الكيان التترى يتعرض للتدهور حتى استغل الأرaqueة الفرصة وأنهوا ما تبقى من ولاء تقليدي لهم وبلغوا صوب الماليك . ولكن ظهور تيمورلنك ، كقوة جديدة في المنطقة ، أدى إلى تغيير ميزان القوى فيها ، إلا أن الأرaqueة تكروا بالرغم من ذلك ، من الصمود إزاء الهجوم الجديد ،

والحافظة على استقلالهم. ولكن إمارتهم الأخيرة كانت – آنذاك – قد أنهكت تماماً، وضفت إمكانياتها العسكرية والاقتصادية والبشرية ، في الوقت الذي كان حلفاء تيمورلنك يكيلون لها الضربات ، مما أدى بها أخيراً إلى السقوط . ولذا فقد شمل هذا القسم من البحث فضلاً عما سبق ، دراسة الظروف والعوامل التي أدت إلى سقوط آخر إمارة أرتقية في ديار بكر بعد صراع طويل إزاء قوى تفوقها بكثير .

وكاأسهم الأراثقة بدور خطير في النواحي السياسية والعسكرية ، طيلة الفترة بين منتصف القرن الخامس ومطلع القرن التاسع الهجري ، فإنهم قدموها كذلك معطيات حضارية ، في شتى المجالات مما لا يمكن الاستغناء عن دراستها وتحليلها ، إذا ما أريد إعطاء صورة متكاملة عن الدور التاريخي لبني أرتق . وهكذا كان لا بد من دراسة مستفيضة لنظم الأراثقة الإدارية والاقتصادية ، ولطبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية في عهدهم . وتبدو أهمية هذه الدراسة بتوضيعها للجانب السلبي من حياة الأراثقة ، وفعاليات الأقوام العديدة التي حكموها . وقد جايهتهني صعوبات عديدة في ذلك ، أبرزها قلة الروايات في هذا المجال إلى حد كبير ، بسبب نأكيد المصادر على الجانب العسكري والسياسي فحسب ، فضلاً عن تفرق هذه الروايات في عدد كبير من المصادر ، مما دفعني إلى تتبع هذه المصادر واحداً إثر واحداً لاصطياد تلك النصوص . كما أن عدداً من تلك النصوص والروايات لا يخص الأراثقة بقدر ما يخص الدول الكبرى التي عاصرها هؤلاء كالسلاجقة والأيوبيين والتركمان والمالينك ، والتي كان لها تأثير مباشر ، أو غير مباشر ، على الحضارة والنظم الأرتقية . ولذا كان من الضروري – كذلك – دراسة الخطوط الأساسية لتلك النظم ومقارنتها بالإشارات الواردة عن الأراثقة، لاستخلاص بعض النتائج المهمة في هذا المجال . كما كان من الضروري

تبني جذور النظم الأرترقية في المنطقة ، والتي تتدلى إلى الفترات التي سبقتهم ، حيث اتضح أنهم اعتمدوا ، إلى حد كبير ، على النظم التي كانت سائدة في المنطقة قبيل قيام إماراتهم فيها .

تبعد الدراسة آنفة الذكر باستعراض الاعتبارات التي يجب استيعابها لدى التطرق لموضوع كهذا ، والتي تؤكد ضرورة تناول الحضارة الأرترقية كوحدة صغيرة متجانسة ضمن وحدة حضارية أكبر ، تعود في جذورها إلى العهد السلاجوي وتتدلى لتؤتي أوضح ثمارها في العصر المملوكي . كما تؤكد ضرورة اعتبار النظم الأرترقية استمراراً لما كان سائداً من قبل ، وامتداداً للنظم المعاصرة لدى الأيوبيين والمالوك . ثم تأتي بعد ذلك دراسة النظم الإدارية والاقتصادية ، بخواصها الزراعية والصناعية والتجارية والمواد الخام ، وموارد الإمارات الأرترقية وأوجه مصارفها ، والأجهزة التي تقوم بالإشراف على هذه الأمور . ويتلو ذلك استعراض للحياة الاجتماعية ، مما يتعلق بدراسة الأقوام والمذاهب والأديان التي كانت منتشرة في ديار بكر طيلة عهد الأرترقة ، فضلاً عن الجوانب الاجتماعية الأخرى ، كالاحتفالات ووسائل اللامو....الخ . ثم تختتم باستعراض وتحليل الجوانب الثقافية التي بلغت شأواً بعيداً في عهد الأرترقة ، بفضل تشجيع هؤلاء للعلوم والآداب ، مما أدى إلى أن تندو ديار بكر مدرسة كبيرة لتخريج واستقبال عدد من كبار العلماء والأدباء والملفkin . وقد اتضح - خلال ذلك - أن طابع الثقافة الأرترقية كان عربياً ، بدليل الازدهار الكبير الذي لقيته الآداب والتقاليد العربية الأصلية هناك .

وقد حاولت أن أتجنب كل ما ليس له علاقة ب موضوع البحث ، مما يخرج به عن نطاقه العام ، كما تعمدت أن أتجنب حشر تراجم غير مجده لسلسلة

طويلة من أمراء الأرادة لاستعراض أخلاقهم وسيرهم ، مما لا يخدم الهدف العام لل موضوع . كما أني اعتمدـت -- إلى حد ما -- على أسلوبـه وحدة الحديث وتطوره ليـكي أعطي صورة واضحة -- قدر الإمكان -- عن حدودـه وأبعادـه ، مما دفعـني في كثير من الأحيـان إلى تجاهـل الإشارة إلى عدد كبير من أمراء الأرادة الذين استقرـقـهم ذلك الحديث الذي يـعد أكثر عـمومـية وشمولاً من دورـ الأفراد . ولـكـنـي لم أغـفل ، من جهةـ أخرى ، التركيز على دورـ بعض أولـئـكـ الأمراءـ منـ كانت أدوارـهمـ التـارـيـخـيـةـ تـقـسـمـ بالـتأـثـيرـ الفـرـديـ فيـ تـوجـيهـ الأـحـدـاثـ .



## ٢- تحليل المصادر والمراجع

عاشت الإمارات الأرترية عهداً طويلاً من الزمن بلغ ما يقرب من ثلاثة قرون ونصف (٤٦٥ - ٨١٢ = ١٤٠٩ م ) ، وعاصرت الفترة التي شهدت ازدهاراً في الكتابات التاريخية المحلية وال العامة ، وتلك التي تناولت دولاً وإمارات ظهرت خلال هذه الفترة ، فضلاً عن المؤلفات الكثيرة التي تناول أصحابها الخطوط والمسائل الحضارية والجغرافية والرحلات ، والترجمات التي قدمت ، المكتبة التاريخية عشرات الآلاف من رجال الفكر والسياسة والثقافة الإسلامية .

وكان على ، إزاء طول الفترة التي عاشها الأرترقة ، وعدم وجود توارييخ خاصة بهم ، أن أعتمد على جل هذه المصادر المنشورة منها والخطوطة ، والتي تناولت الفترة بين منتصف القرن الخامس ومطلع القرن التاسع الهجري ، حيث ظهر عدد كبير من النايف عن السلاحة والعباسيين والفاطميين والصلبيين والزنكيين والأيوبيين والتتر والماليك ، فضلاً عن العدد الكبير من الإمارات المحلية التي شهدتها هذه الفترة ، والتأثيرات الحضارية بين جميع هذه الدول والإمارات التي كان للأرترقة معها علاقات مختلفة ، مما حتم الرجوع إلى معظم هذه المصادر لمعرفة ابعاد تلك العلاقات وتحديد طبيعتها ، وأسباب تطورها بالشكل الذي صارت إليه .

ولست هنا بقصد تحليل العلاقات بين هذه المراجع من الناحية الموضوعية ، وأيها أعتمدت على الآخر ، ومن منها قدم بصورة عامة روایات أصلية ؟ فقد أثبتت هذه الناحية درساً وتحليلاً<sup>(١)</sup>، وإنما بقصد معرفة أصل هذه المراجع فيما يتعلق بمدى ما قدمته من روایات عن بني أرتق في الفترات وال المجالات المختلفة ، فهي محاولة لفحص الموارد الأساسية لمدة هذه الرسالة .

## ١ - المخطوطات :

هناك عدد من المخطوطات قدمت روایات أساسية<sup>(٢)</sup> مفصلة عن بعض

(١) يمكن الرجوع في هذا المجال إلى :

The Historians of the Middle East, ed. by  
B. Lewis, oxford-1962:

- 1 — The Historiography of the seljuqide period, c. cahen, p. 59.
- 2 — Some notes on Arabic Historiograph during the Zengid and Ayyubid periods (521—648) , M. Hilmy M. Ahmad, p. 79.
- 3 — The origin and Development of the locat Histories of Surya, S. Dahan, p. 108.

والفصل التحليلي القيم الذي كتبه كاهن في كتابه  
La Syrie do Nord    عنوان :

las Sources Arabes, pp. 33—73.

وكتاب جب بعنوان :  
The Arabic sources for the life of Saladin.  
A History of the Crousades    والتحليل الذي كتبه وسمان لمصادر كتابه :  
ورسالة محمد حلي محمد أحد التي قدمها للدكتوراه بعنوان :

Studies on the works of Abu Shama, 1951.

ومقدمته لكتاب ( الروضتين في أخبار الدولتين ) لأبي شامة ( ١٩٥٦ م ) . وكذلك مقدمة جمال الدين الشيشاني لكتاب ( مفرج الكروب في أخباربني أبوب ) لابن واصل ( ١٩٥٣ م ) ، ودراسات عبد القادر أحد طلبيات لكتابي الباهر والتكامل لابن الأثير .

( ٢ ) أعني بالروایات الأساسية أو الأولية تلك التي قدمها المؤرخ لأول مرة وسبق بها غيره من المؤرخين ، اعتماداً على المشاهدة أو المصادر التي لم يتثن الآخرين الاطلاع عليها ، ولذا عول مؤلّه عليه في هذه الروایات .

جوانب البحث ، و مما يزيد في قيمة هذه المخطوطات ، أن بعضها يكاد يكمل البعض الآخر في المادة التي قدمتها عن بنى أرتق . في بينما يلقي بعضها ضوءاً على ظهور الأرادة و علاقتهم بالسلاجقة ، نجد البعض الآخر يركز على علاقتهم بالصلبيين أو الزنكيين والأيوبيين ، وهنالك مخطوطات أخرى قدمت معلومات لا يأس بها عن علاقات الأرادة بالماليك والتر ، وعن عوامل وظروف سقوط إمارتهم ، كما نجد في بعضها الآخر معلومات عن الجوانب الحضارية للأرادة .

ففي القسم الذي لم ينشر من كتاب ( تاريخ آمد و ميافارقين ) لابن الأزرق الفارقي ( ت ٥٧٢ هـ<sup>(١)</sup> ) ، روايات أولية مفصلة عن علاقات الأرادة بالزنكيين في الفترة التي عاصر المؤلف أحدهما ، أو كان قريباً منها ، وهي روايات تتسم بتقديم تفاصيل دقيقة على درجة كبيرة من الأهمية<sup>(٢)</sup> ، تلقي ضوءاً على العوامل التي أدت إلى عدم الاستقرار في العلاقات السياسية بين الأرادة والزنكيين . فضلاً عن أن المؤلف يقدم ، باعتباره أحد الرجال الرسميين في حكومة الأرادة ، عدداً من الروايات عن التواهي الحضارية لدى هؤلاء ، وبخاصة الجوانب الإدارية . وقد اعتمد على الفارقي ، فيما يتعلق بالأرادة ، عدد من المؤرخين الذين أعقبوه ، وعلى رأسهم ابن الأثير ( ت ٦٣٠ هـ ) في الكامل والباهر ، وعز الدين

(١) تحاشياً للتكرار سأكتفي هنا بإيراد اسم المؤلف وكتابه مختصرين ، وأحييل القارئ ، إلى قائمة المراجع للاطلاع على الاسم الكامل للمؤلف والكتاب ، وموضعه إن كان مخطوطاً ، وناشره ومكان طبعه وعدد أجزاءه إن كان مطبوعاً ،

(٢) تحاشياً للتكرار والإطناب ، أعرضت عن إيراد شواهد من النصوص في هذا المجال ، و يمكن للقارئ أن يجد تلك الشواهد بوضوح ، لدى قراءته فصول رسالة واطلاعه على موامثها .

ابن شداد في الأعلاق الخطيرة ( قسم الجزيرة ) . واذ يتصرف ابن الأثير في الروايات التي قدمها الفارقي ويذهب فيها ويضيف إليها مصادر أخرى ، نجد ابن شداد ، على العكس ، يكاد ينقل نقلًا حرفيًّا عن الفارقي . ولكن قيمة ابن شداد تبدو فيما قدمه من روايات مفصلة عن الأرادة في الفترة التي أعقبت نهاية ( تاريخ آمد وميافارقين ) ، فما قدمه المؤرخ المذكور منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) وحق الربع الثالث من القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) يكاد يتفرد به ، حيث يعطي مادة أساسية عن عدد من المواريثات ، ولا سيما علاقات الأرادة بالأيوبيين والتر ، وتزداد أهمية هذه الروايات في الفترة التي عاصر ابن شداد أحدهما ولعب فيها دوراً مباشراً ، باعتباره أحد موظفي صاحب حلب الأيوبي ، وواحداً من كبار سفرائه إلى التر والأمراء المحليين في الجزيرة . وهكذا ، فإن ما قدمه ابن شداد عن الظروف التي مكنته للتر في الجزيرة وعلاقات الأرادة بهم وما جنح لهم ماردين ودخولها تحت طاعتهم ، لم يتطرق إليه أي مصدر آخر . وقد نشرت لأن ابن شداد أقسام أخرى من مخطوطته هذه تتلخص ببلاد الشام ، تتضاءل أهميتها بالنسبة لموضوع الأرادة إزاء قسم الجزيرة الذي لم ينشر . ويشبه ابن شداد زميله الفارقي في إلقاء الضوء على الجوانب الحضارية للأرادة .

ويقدم سبط ابن الجوزي ( ت ٦٥٤ هـ ) ، في القسم الذي لم ينشر من مخطوطته ( مرآة الزمان ) ، عدداً من الروايات الأولية التي يتفرد بها دون غيره ، عن ظهور الأرادة وعلاقتها بالسلاجقة والفاطميين وأمراء الجزيرة في الفترة بين ( ٤٧٧ - ٤٩٥ = ١٠٨٤ - ١١٠١ م ) . وتبدو أهمية هذه الروايات ، فضلاً عن تفردها ، في أنها تلقى ضوءاً على طموح أرتدق وأسباب

انفصاله عن سلاجقة العراق ، والمحاولة التي قرر القيام بها ، بالتعاون مع الفاطميين والمعليين ، لضرب النفوذ السلاجقي في الجزيرة والشام والعراق وإحلال النفوذ الفاطمي محله .

وتبدو أهمية الأقسام التي لم تنشر من تاريخ ابن الفرات (ت ٩٠٧ هـ) ، في أنه يقدم روایات أولية عن علاقات الأراثة بالصلبيين ، في الفترة بين (٤٩٨ - ٥١٨ هـ ١١٢٤ م) ، وهي من أكثر الفترات حيوية في تاريخ العلاقات الأراثية الصليبية ، فضلاً عن أنه يلقي ، في عدد من روایاته ، ضوءاً على الجوانب الحضارية للأراثة وبخاصة فيما يتعلق بفترة حكمهم لحلب . ويعتمد ابن الفرات في روایاته السالفة على عدد من المؤرخين وعلى رأسهم ابن أبي طيء الحلبي . أما الماردیني (ت ١٢٥٩) فيقدم ، في (تاريخ ماردين) ، روایات مفصلة واسعة عن ظهور الأراثة وعلاقتهم بسلاجقة ، والأحداث التي مرت ببني أرتق إثر وفاة جدهم . وتتميز هذه الروایات جميعاً بالطبع القصصي ، الذي يعتمد على الخيال ، دون أية محاولة للقيام بتمحيص جدي للحقائق . فما أورده المؤلف المذكور لا يؤيده أي مصدر موثوق آخر على الإطلاق ، وما وقع فيه من أخطاء لا يحتاج إلى نقاش لشدة بعده عن الحقائق الأساسية والسلمات في تاريخ الأراثة ، فضلاً عن أنه حور في بعض الأسماء ، وحشر أسماء جديدة لا نصيب لها من الواقع<sup>(١)</sup> .

---

(١) يقدم الماردیني - على سبيل المثال - روایة مطولة عن ظهور الأراثة ودور جدهم أرتق جاء فيها : «أرثم أرتق بن إيلفازى بن داود ، وكان جندياً من أوفي جنود السلطان ألب أرسلان ، فشاهد منه هذا شجاعة في بعض غزواته فأعجبته شجاعته ورفع منزلته وجعله رئيساً على بعض الجندي . وكان كلما أرسله لغزوة عاد منها مؤيداً منصوراً . فوقع عند السلطان موقعاً حسناً ، ولم يزل مرتقياً من رتبة الى رتبة حتى جعله من أهضم وزرائه وفرض اليه أكثر الأمور ، =

وتعد مخطوطة ابن شاهنشاه الأيوبي (توفي أواخر ق ٦٠) ، المسماة (مضمار المقانق) ، ذات أهمية فيما يخص علاقات الأراثقة بالأيوبيين ، بسبب كون المؤلف أحد كبار الأمراء الأيوبيين ومعاصرًا للأحداث التي أرّخها ، مما أتاح له تقديم روايات مهمة في هذا المجال . ولا يقل أهمية عنه القسم غير المنشور لابن واصل (ت ٦٩٧) من (مفرج الكروب) ، إذ أنه يتفرد أحياناً بتقديم روايات مفصلة عن علاقات الأراثقة بالأيوبيين والقوى المجاورة ، التي كانت تقف إلى جانب الأيوبيين أو تعمل ضدتهم ، كالخوارزميين وحكام الموصل والإمارات المحلية المجاورة للأراثقة .

★ ★ ★

**فإذا ما انتقلنا إلى علاقات الأراثقة بالمالك والتر ، وظروف وملابسات**

ثم زوجه بابنته ونصب له عرساً فاخراً، وأظهر جييع زينته سبع ليال ب أيامها. وولد لأرتق من ابنة السلطان ثلاثة أولاد : نجم الدين وأمين الدين وسنقرور ... وأبو أرتق كان راعي غنم ، وقبل كان من أمراء الدولة السلجوقية ، وولد سنة ٤٠٠ هـ . وعاش من العمر ٧٨ سنة » . وبعد أن يكيل الماردینی صفات المدح لأرتق يقول بأن سبب مجئه إلى ديار بكير هو أن السلطان ألب أرسلان أرسله لاستخلاص ممالك ديار بكير من بيربرد بن بيرموس (؟) صاحب أكتل (؟) ، الذي عصى على السلاجقة في عهد ألب أرسلان ، فأرسلوا للتأديبه أرتق ، فانهزم بيربرد إلى ميافارقين ، فحاصره أرتق وتمكن من فتح المدينة بالسيف وقتل بير بدر وأولاده واستولى على ميافارقين سنة ٤٦٩ هـ (؟) . ولما شاهد السلطان ألب أرسلان منه هذه الفتوح ، فوض إليه حكومة هذه البلاد بأسرها ، ولم تزل دولته ترتفق حتى استولى على ماردين وممالك ديار بكير بأسرها ... واستولى أولاده من بعده على ممالك أذربيجان و العراق العرب وحلب وبعض مدائن الشام ، ثم إن أرتق توجه لافتتاح بعض ممالك أذربيجان ، فافتتح بعضها وأدركه الموت سنة ٤٧٨ ... ( تاريخ ماردين ص ١٢٠ - ١٢١ ) . واضح أن رغبة المؤلف في تمجيد حكام ماردين عامة والأراثقة خاصة ، دفعته إلى هذا الإغراق في مدح هذه العائلة . وانظر نفس المصدر ، الصفحتان ١٢٢ - ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

سقوط آخر إمارة أرتقية ، نجد أمامنا أربع مخطوطات مهمة ، قدم أصحابها معلومات أساسية مهمة عن هذا الموضوع ، بسبب معاصرتهم للأحداث التي ذكروها أو قربهم منها على الأقل . فالمقريزي ( ت ٨٤٥ ) يقدم ، في القسم الذي لم ينشر من ( السلوك ) ، عدداً لا يأس به من الروايات عن علاقات الأرادة بالمالية في القرن الثامن الهجري . وابن تفري بردبي ( ت ٨٧٤ ) يقدم ، في القسم الذي لم ينشر من ( المنهل الصافي ) ، عدداً من التراجم تناول فيها أمراء ماردين المتأخرین ، الذين تعرضت الإمارة في عهدهم للانهيار والسقوط ، ويوضح طبيعة علاقتهم بتيمورلنك والقوى التركانية ، التي ظهرت في المنطقة كدولتين الشروف الأسود والأبيض . أما الغيث ( حوالي ٨٩٠ هـ ) والجزري ( ت ٧٣٩ ) فيتوسعان في تأريخها في هذا الموضوع ، فيقدم الأول رواية مطولة عن سقوط ماردين ، ويقدم الثاني عدداً من الروايات عن علاقات الأرادة الخارجية طيلة القرن الثامن الهجري ، فضلاً عن أنه يلقي ضوءاً جديداً على ظهور الأرادة وأصلهم ، لم يرد لدى غيره من المؤرخين .

أما الأقسام التي لم تنشر من مخطوطتي العمري ( ت ٧٤٩ ) ( مسالك الأبصار ) والنويري ( ت ٧٣٣ هـ ) ( نهاية الأرب ) ، فتتضمن تواريختاً عاممة تميزت بالسرعة والإيجاز ومحاولة إعطاء الخطوط الأساسية فحسب لأحداث التاريخ الإسلامي . وبسبب انها كتمها في إخراج موسوعات تتناول شق جوانب المعرفة في عصرهما ، لم يهتما اهتماماً كبيراً في القسم التاريخي من تأليفهم ، ويظهر أنها اعتمداً في كتابته ، إلى حد كبير ، على من سبقهم من المؤرخين ، ولذا لم ترد فيما كتبوه أية رواية أصيلة عن الأرادة .

هذا وقد اعتمدت ، بشكل ثانوي ، على عدد من المخطوطات الأخرى تناول بعضها تواريختاً عاممة كعقد الجمان للعياني ( ت ٨٥٥ ) ونزهة الأنام في

تأريخ الإسلام والأعلام بتاريخ أهل الإسلام لابن قاضي شهبة (ت ٨٥١)، ودول الإسلام للقدسي (ت ٨٩٣)، وتناول بعضها الآخر جوانب من تاريخ الشام، وأهمها الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبة (ت ٨٧٤)، ولا يكاد مؤلفه يقدم فيه شيئاً جديداً عن علاقات الأرانتقة بالزنكيين، إذ أنه ينقل عنم سبقوه في هذا المجال وبخاصة أبي شامة. وهناك عدد من المخطوطات قليلة الأهمية، تناولت جوانب من تاريخ مصر في الفترات المتأخرة، كالجواهر الشمين لابن دقاق (ت ٨٠٩)، وفتح النصر لابن هــادر (ت ٨٧٧). وجميع هذه المخطوطات لا تقدم أية مادة جديدة عن الأرانتقة، لأنها تنقل أساساً عمما سبقها من تواريخ.

وتعد مخطوطة تاج الترجم لابن قططوبينا (ت ٦٢٦) وإنسان العيون في مشاهير سادس القرن ملطف مجهول، ذات أهمية في تقديم بعض الترجم التي تلقي ضوءاً على جوانب الحياة الثقافية في ديار بكر، في عهد الأرانتقة شأن معظم كتب الترجم.

## ٢ - المصادر المطبوعة :

آ - كتب التاريخ : تختلف المراجع التاريخية من حيث الشكل الذي قدم به مؤلفوها مادتهم التاريخية. وما نحن نستعرض أهنم تلك الأشكال بالنسبة لموضوع البحث :

(١) التواريغ العامة : تناولت هذه التواريغ أحداث العالم كلها، واقتصرت في كثير من الأحيان على التاريخ الإسلامي أو بعض جوانبه فحسب. وقد اتبع بعضها طريقة العرض الزمني للأحداث (أي (الموليات) كالكامل لابن الأنبار، واتبع البعض الآخر طريقة العرض الموضوعي، أي تقسيم التاريخ

الإسلامي إلى عدد من الدول والإمارات ، ومن ثم عرض كل مجموعة منها في إطار زمني ومكان واحد ، كما فعل ابن خلدون في تأريخه ( العبر ) . وهناك من مزج بين الأحداث والترجم كفعل ابن الجوزي في ( المنتظم )

يقف كتاب الكامل لابن الأثير ( ت ٦٣٠ ) على رأس المصادر التأريخية العامة ، بما قدمه من عدد كبير من الروايات الأصلية منذ ظهور الأراثة وحق تعرض إماراتهم في ديار بكر لطلاع المجهات التترية في عشرينات القرن السابع الهجري . وتميز روايات الكامل بأنها تسبّب الحادث الذي تناوله بالتفاصيل الدقيقة ، بسبب إحاطة ابن الأثير بمعظم المواضيع التي كان يعالجها ، هذا إلا أنه انفرد أحياناً بتقديم روايات مطولة لم يشر إليها أي مصدر آخر ، أو ، على الأقل ، تناولها باختصار . وكما أن ابن الأثير يدين في عمده من رواياته لفارقي وابن القلانسي وابن الجوزي ، والمهاد الأصفهاني إلى حد ما ، فإن عدداً كبيراً من المؤرخين الذين أعقبوه يدينون له بمعظم ما كتبوه عن الأراثة ، لا سيما أبو الفدا وابن الوردي وابن كثير وابن خلدون فضلاً عن أبي شامة وابن واصل .

وتکاد روايات « الكامل » عن الأراثة تقطي معظم فصول الرسالة ، فيما عدا فصل النظم والحضارة ، بما عرف عن ابن الأثير من تأكيد على النواحي السياسية وال العسكرية فحسب ، فضلاً عن الفصل الذي تناولت فيه علاقات الأراثة بالملك والتتر ، مما يخرج معظم زمانياً عن نهاية الكامل ( ٦٢٦ هـ ) . وهكذا نجد روايات الكامل تلقي ضوءاً على ظهور الأراثة ، ودور أرتق وعلاقاته مع السلاجقة وحربه في ديار بكر ، وانتقاله إلى الشام واقطاعه القدس وحربه مع تتش ووفاته ، ودور ابنه سقمان وإيلفازي في الصراع الذي شهدته بلاد الشام آنذاك ، وسقوط القدس وذهاب إيلفازي إلى بغداد

وقوله ( شحنتكيتها ) ودوره في الأحداث التي شهدتها العراق آنذاك . ودور سقمان في تأسيس الإمارة الأرترقية في ديار بكر ووفاته وانقسام الإمارة التي أنشأها ، ثم دور إيلفازي في توسيع ممتلكات الأرترقة . ومن ثم يستمر ابن الأثير في الكامل بتغطية أحداث الفصل الثاني حول علاقات الأرترقة بالزنكيين والأيوبيين ، فيقدم روايات دقيقة مفصلة عن معظم جوانبها . كا أن ما يقدمه عن علاقات الأرترقة بالصليبيين لا يقل أهمية عمـا قدمه ابن العديم في ( زبدة الحلب ) ، بسبب ما اتصفـت به روايات الكامل في هذا المجال ، من طول نفس وإحاطة بكل أبعاد العلاقات الصليبية . أما الروايات الأخيرة التي يقدمها ابن الأثير عن علاقات الأرترقة بالتر و الموارزمـين والأيوبيـين ، فتعـد ذات أهمية بالغـة بسبب معاصرته للأحداث واطلاعـه على بعض الوثائق التي مكتـبه من سبر أغوار الظروف القلقة التي كانت تسود المنطقة آنذاك .

وإذا كانت الروايات التي قدمتها التـواريـخ الـخـليلـية عن الأرترـقة تمـيزـتـ بـكـثـرة التـفـاصـيلـ التي تـتناولـ منـطـقةـ معـيـنةـ أوـ فـتـرةـ مـعـيـنةـ ، فإنـ أـهمـيـةـ روـاـيـاتـ الكـامـلـ تـبـدوـ ، فـضـلـاـ عـنـ ذـلـكـ ، بـتـغـطـيـتهاـ لـكـافـةـ الـمنـاطـقـ وـالـفـترـاتـ بـجـيـثـ لمـ تـدعـ حـادـثـ رـئـيـسـياـ إـلـاـ أـورـدـتـهـ . وهـكـذاـ سـاعـدـتـ عـلـىـ مـلـءـ مـعـظـمـ الـفـجـوـاتـ الـتـيـ مـاـ كـانـ يـكـنـ مـلـؤـهـاـ لـوـلـاـ الـكـامـلـ .

أما المنـظـمـ لـابـنـ الجـوزـيـ ( تـ ٥٩٧ـ ) ، فإنـ أـهمـيـةـ تـبـدوـ ، فـيـاـ قـدـمـهـ من روـاـيـاتـ مـفـصـلـةـ ، عنـ دورـ إـيلـفـازـيـ الشـحـنةـ فيـ بـغـدـادـ وـظـرـوفـ تـوـلـيـهـ هـذـاـ المـنـصبـ الـمـهـمـ ، وـالـأـعـمـالـ الـتـيـ قـامـ بـهـاـ هـنـاكـ ، وـالـدـورـ الـذـيـ لـعـبـهـ خـلـالـ الـصـرـاعـ الـذـيـ شـهـدـهـ الـعـرـاقـ وـبـلـادـ فـارـسـ بـيـنـ سـلاـطـينـ الـسـلاـجـقـةـ فيـ أـوـاـخـرـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ الـهـجـريـ .

ويـعتمدـ سـبـطـ اـبـنـ الجـوزـيـ ( تـ ٦٥٤ـ ) ، عـلـىـ جـدـهـ اـبـنـ الجـوزـيـ ، وـغـيرـهـ

من التوارييخ العامة ، في الأقسام الأولى من كتابه ( مرآة الزمان ) ولكن ، منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، يقدم روایات أصلية لا تجد لها في المصادر الأخرى . والقسم الذي نشر من كتابه يتناول الفترة بين ٥٦٥ - ٥١٠ هـ = ( ١١١٦ - ١٢٥٦ م ) ، وفيه عدد من الروایات المهمة التي ينفرد بها سبط ابن الجوزي والتي تلقي ضوءاً على علاقات الأرانتقة بالأيوبيين والصلبيين والتتر . وقد قام اليونيني ( ت ٧٢٦ ) بالتدليل على مرآة الزمان ، وغطي الفترة بين ٦٤٦ - ٦٨٦ هـ = ( ١٢٥٦ - ١٢٨٧ م ) بروایات أساسية مفصلة عن علاقات الأرانتقة بالتتر والماليلك في مصر والشام . هذا إلى أن كلاً من ابن الجوزي وبسطه واليونيني أعطوا بعض اللمحات عن الجوانب الحضارية للأرانتقة .

وبالرغم من قيام كل من ابن العبرى ( ٦٨٥ ) في تاريخ مختصر الدول ، وابن الفوطى ( ت ٧٢٣ ) في الحوادث الجامدة ، بتقديم روایات أساسية في مواضيع شتى ، إلا أنها لا يتطرقان للأرانتقة إلا عرضياً . أما أبو الفدا ( ت ٧٣٢ ) فإنه اختصر في كتابه المختصر في أخبار البشر ما جاء به ابن الأثير في الكامل ، ونقل عنه حرفيأ في كثير من الأحيان ، إلا أنه قدم إثنا هماية ( الكامل ) عدداً من الروایات الأساسية عن علاقات الأرانتقة بالتتر والماليلك . وقد كتب ابن الوردي ( ت ٧٤٩ ) تتمة لتأريخ أبي الفدا ، إلا أنه اعتمد على ابن الأثير وأبي الفدا إلى حد كبير وتيزّت روایاته بالإيجاز الشديد . وما يقال عن ابن الوردي يمكن أن يقال عن ابن كثير ( ت ٧٧٤ ) في البداية والنهاية وابن العماد ( ت ١٠٨٩ ) في شذرات الذهب .

أما ابن خلدون ( ت ٨٠٨ ) فبالرغم من طول نفسه في الروایات التي قدمها في ( العبر ) وتفظيعه لمعظم تاريخ الأرانتقة ، وإفراده أبواباً خاصة بهم ، إلا أنه لم يأت بجديد ، لأنّه اعتمد إلى حد كبير على غيره من المؤرخين ، ونقل في

كثير من الأحيان عن الكامل نقلًا حرفياً.

وتبدو أهمية النجوم الظاهرة لابن تغري بردي (ت ٨٧٤) ، في أنه قدم بعض الروايات الأساسية عن الأراتقة لم يذكرها أحد سواه ، ولعله اعتمد على مصادر لم تتبادر لغيره من المؤرخين ، فقد أورد رواية عن دور أرتق في القضاء على قرامطة البحرين (٤٧٠ = ١٠٧٧ م) ، كما قدم رواية أخرى عن سقوط القدس بيد الأفضل وزير الفاطميين ، فضلاً عن أنه أسمى في إلقاء الضوء على علاقات الأراتقة بالملك ، مما أتاح له وجوده في حلب وتوليه منصب خطيراً هناك ، لا ريب ، وأنه يسر لابن تغري بردي الاطلاع على عدد من الوثائق الرسمية . وبالرغم من أن كتابه الآخر (المنهل الصافي) يعد من كتب التراجم ، إلا أنه قدم فيه سير بعض أمراء الأراتقة في فترة السقوط ، مما أوضح بعض الأحداث التي شهدتها الأراتقة قبيل سقوطهم . وما يقال عن (المنهل الصافي) يمكن أن يقال عن ( الدرر الكامنة ) لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢) الذي قدم بعض المعلومات عن علاقة الأراتقة بالملك . أما الأقسام المنشورة من تاريخ ابن الفرات (ت ٩٠٧) ، فإنها تقدم عدداً من الروايات المهمة عن علاقات الأراتقة بالتر والملك ، إلا أن بعضها مشابه لما أورده ابن تغري بردي والمقرizi ، مما يقطع بأن ابن الفرات نقل هذه الروايات عنها .

وهناك عدد من التوارييخ العامة ، ذات أهمية ثانوية ، لأنها اعتمدت إلى حد كبير على المراجع آنفة الذكر ، لذا كان اعتماده عليها محدوداً ، وأهمها: الجامع والختصر لابن الساعي (ت ٦٧٤) ، ودول الإسلام والعبور في خبر من غير للذهبي (ت ٧٤٨) والفارسي لابن الطقطقي (ت ٧٠٩) ، ومرآة الجنان للبافعي (ت ٧٦٨) وآثار الاناقة للقلقشندى ، (ت ٨٢١) ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى (ت ٩١١) ، وأخبار الدول للقرمانى (ت ١٠١٩) ، والخمس

للدبار بكري (ت ٩٨٢) ، والفتوحات الإسلامية لزيني دحلان (ت ١٣٠٤).

(٢) تواریخ الدول والإمارات : تناولت هذه التواریخ الدول والإمارات التي ظهرت خلال هذه الفترة كالسلاجقة والأیوبیین والمالیک والتتر وأتابکة الموصل وغيرها ، وقد اقتصرت هذه التواریخ في تقديم مادتها ، في معظم الأحيان ، على الإطار التأریخي لتلك الدول والإمارات ، وقدمت عدداً من الروایات المهمة عن علاقات الأرادة بعضها مما ساعد على إيضاح طبيعة تلك العلاقات .

من أهم هذه التواریخ تلك التي تناولت الدولة السلاجوقية ، كزبدة النصرة للهاد الأصفهانی (ت ٥٩٧) ، وتأریخ دولة آل سلیوق الذي اخترعه البنداري (ت ٦٤٣) عن الأصفهانی ، وأخبار الدولة السلاجوقية للحسیني (ت ٦٢٢) . وقد ورد في هذه التواریخ عدد من الروایات عن دور أرتق كفائد خطير من قواد السلاجقة ، والخدمات التي قدمها لهم ، والمحروب التي خاضها في ديار بكر والشام تحت قيادتهم ، وهذه الروایات ، على قلتها ، تعد ذات أهمية خاصة بسبب ترس المؤرخین المذکورین بتاریخ السلاجقة واطلاعهم على دقائقه وتفاصيله .

ويقدم ابن الأثير في الباهر تاریخاً لأتابکة الموصل وحلب حق عام ٦١٤ فيه الكثير من التفاصيل مما لم يرد في السکامل . وعلى الرغم مما فيه من تحيز لحكام الموصل باعتباره مقدماً من المؤرخ كھدية لأحد أمراءها ، فضلاً عن عدم تحیص ابن الأثير في هذا الكتاب لتواریخ الأحداث ، إلا أن فيه عدداً من الروایات الأساسية عن علاقات الأرادة بالزنکین والأیوبیین لم ترد في المصادر الأخرى . وقد اعتمد أبو شامة (ت ٦٦٥) في كتاب الروضتين على السکامل

والباهer إلى حد كبير ، إلا انه نقل في الوقت نفسه عن عدد آخر من المصادر كابن أبي طي الحلبي والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل ( ت ٥٩٦ ) مما أتاح له تقديم روایات أساسية ، لم ترد في التكامل أو الباهer ، عن علاقات الأراثة بالزنكيين والأيوبيين ، وبخاصة في عهد صلاح الدين . وقد ذيل أبو شامة على الروضتين بكتاب ( تراجم رجال القرنين السادس والسابع ) ، استعرض فيه الأحداث والوفيات خلال هذه الفترة ، وهو لا يقل أهمية عن سابقه لاعتماده على نفس المصادر ، فضلاً عن مشاهدات أبي شامة نفسه التي تعد مادة أساسية في كتابه المذكور . وما يقال عن أبي شامة يمكن أن يقال عن ابن واصل في ( مفرج الكروب ) إذ أنه اعتمد هو الآخر على ابن الأثير إلى حد كبير ، إلا أن اطلاعه على مصادر أخرى ، ومشاهداته ، مكتنته من تقديم روایات جديدة عن علاقات الأراثة بالأيوبيين



فإذا ما انتقلنا إلى دولة المماليك في مصر والشام ، فسوف نجد عدداً كبيراً من التواريخ كتبت عن هذا الموضوع ، يقف على رأسها كتاب السلوك للمقريزى ( ت ٨٤٥ ) ، بتقادمه عدداً لا يأس به من الروایات الأساسية عن علاقات الأراثة بالممالیک ، والتى إلى حد ما . ولا شك أن هذه الروایات توضح وحمة النظر المملوکية تجاه علاقات الأراثة بالتر و الممالیک ، والتي كان يسودها الازدواج حينما والانضمام إلى هذا الجانب دون ذاك حينما آخر ، وتبدو أهمية روایات المقريزى بمقارنتها بالروایات التي قدمها مؤرخو التر الذين كانوا يؤرخون للعلاقات الأراثية ، من وجهة النظر التترية الخلافة للاتجاه السابق . ويعتمد المقريزى في الأقسام الأولى من كتابه ، والتي تطرق فيها للأيوبيين ، على المصادر التي سبقته ولا يقدم جديداً في هذا المجال . ولا يقل القسم المنشور من كتاب

( كنز الدرر ) للدواداري ( ت حوالي ٧٣٩ ) أهمية عن ( السلوك ) ، لأنه يكشف عن علاقات الأراقة بالمالية والتتر في فترة مهمة وهي أواخر القرن السابع ومطلع القرن الثامن الهجري ، حيث شهدت العلاقات الأرaqueية الخارجية نشاطاً ملحوظاً إزاء التتر والمالية ، وقد قدم الدواداري عدداً من الروايات المفصلة في هذا المجال لم ترد في المصادر الأخرى .

أما العدد الكبير الآخر من المصادر التي تناولت تاريخ المالك ، وترجم بعض سلاطينهم ، فتلي المصدران السابقين في الأهمية ، وما تقدمه من روايات أساسية عن علاقات الأراقة في هذه الفترة لا يكاد يذكر ، وأهم هذه المصادر : أخبار مصر لابن ميسير ( ت ٦٧٧ھ ) ، وتشريف الأيام والمصور والروض الظاهر والألطاف الحقيقة لابن عبد الظاهر ( ت ٦٩٢ھ ) ، والدرة المضنية لابن صصري ( ت ٨٠٠ھ ) ، والروض الظاهر للعيني ( ت ٨٥٥ھ ) ، ومورد الطاففة لابن تغري بردي ( ت ٨٧٤ھ ) وبذائع الزهور لابن إياس ( ت ٩٣٠ھ ) .

ويعد كتاب (جامع التواريخت) لرشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨) ، ذات أهمية كبيرة لسبعين رئيسين ، أو لها أنه يقدم روايات أساسية مفصلة عن علاقات الأراقة بالتتر وعن التطورات الخارجية والداخلية ، الحربية والسلبية ، التي شهدتها ديار بكر خلال الفزو والتترى وفي أعقابه ، تلك الروايات التي لم ترد في المصادر الأخرى . وثانيها أن هذه الروايات تمثل وجهة النظر الرسمية للتربية لهذه الأحداث ، مما يعطي الباحث مجالاً للمقارنة بين وجهة النظر المملوکية والتترية إزاء موقف الأراقة من الطرفين ، يمكن بواسطتها استخلاص الحقائق الأساسية في هذا المجال . ويعد كتاب ( حبيب السير ) مؤلفه الفارسي خواندمير ( ت ٩٤٢ھ ) ، أقل أهمية من جامع التواريخت لأنه لم يقدم روايات

أساسية عن الأراثة ، حيث أعاد ذكر ما جاء به من سبقه من المؤرخين .

أما كتاب ( عجائب المقدور في أخبار تيمور ) لابن عربشاه ( ت ٨٥٤ ) فلا يقلّ أهمية عن ( جامع التوارييخ ) ، لانه يغطي فترة من أهم الفترات بالنسبة لعلاقات الأراثة الخارجية ، وهي الفترة التي شهدت فيها ديار بكر غزواً جديداً بقيادة تيمورلنك ، و تعرضت إمارة ماردين خلالها لهجمات شديدة من قواه أفرت على سقوطها ، فيما بعد ، إلى حد كبير . ويقدم ابن عربشاه عن هذه الأحداث روايات مفصلة لم ترد في المصادر الأخرى بهذه السعة ، و مما يزيد في قيمتها معاصرة المؤرخ لها ، لو لا أنه جانب الاعتدال أحياناً وتحامل على تيمورلنك ، وهو تحامل يمكن أن يكون في موضعه إزاء أعمال العنف والتغريب والإرهاب التي مارسها هذا القائد خلال غزواته ، وإزاء إطراه المؤرخ في بعض الأحيان له والاعتراف ببعض مزاياه .

( ٣ ) توارييخ المدن : ازدهرت التوارييخ المحليّة خلال هذه الفترة ، وتناولت عرضاً لتاريخ بعض المدن في الجزيرة والشام وغيرها من مناطق العالم الإسلامي . ولا نقلّ هذه التوارييخ أهمية مما سبقها ، بل على العكس ، نجد هنا تقدماً أحياناً تفاصيل دقيقة لا نجدها في غيرها من التوارييخ ، بسبب تركيز المؤرخ المحلي على وحدة مكانية صغيرة ، مما يدفعه إلى محاولة البحث عن كل التفاصيل . وتبدو أهمية هذه التوارييخ ، كذلك ، في أن أصحابها لم يقتصروا في كثير من الأحيان على تاريخ مدنهم فحسب ، بل تطرقوا - بحكم تشابك الأحداث و العلاقات - إلى سرد تفاصيل الأحداث التي شهدتها الجهات المجاورة أيضاً . فضلاً عن قيام المؤرخين المذكورين بإعطاء صورة عن خطط المدن التي أرتوها ، قلما نجدها في سائر التوارييخ ، بسبب اهتمام الأخيرة بالعلاقات العسكرية والسياسية العامة .

يقدم ابن القلansi (ت ٥٥٥) في (ذيل تاريخ دمشق)، بعض الروايات الأساسية عن الاراتقة، وبخاصة فيما يتعلق بعمالياتهم السياسية والخربية في الشام منذ عهد أرتقى إلى مطلع عهد تمراثش في نهاية العقد الثاني من القرن السادس الهجري، كما يلقى ضوءاً على علاقات إيلغازي بطفتكين حاكم دمشق وسعيها لتنسيق خططها إزاء الصليبيين. وبالرغم من أن روايات ابن القلansi تميز بالإيجاز، إلا أنها، بتفردها وأسبقيتها الزمنية وتركيزها، تعد ذات أهمية كبيرة، خاصة وأن المؤرخ تولى منصباً رسماً في دمشق وعاصر معظم الأحداث التي دونها في الأقسام الأخيرة من كتابه.

أما القسم المنشور من (تاريخ آمد وميافارقين) لابن الأزرق الفارق (ت ٥٧٢) فيقدم تفاصيل مفيدة عن خطط ديار بكر قبيل ظهور الاراتقة، وبخاصة ما يتعلق بالإدارة والاقتصاد، وقد مكنتني هذه الروايات من تتبع بعض جوانب التطور الحضاري في ديار بكر، وعقد مقارنة بين النظم الارترقية وتلك التي سبقتهم لمعرفة ما أتوا به من جديد في هذا المجال.

ويعد كتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) لابن العديم (ت ٦٦٠) من أهم المصادر عن الاراتقة، بل أهمها على الإطلاق، فيما قدمه من تفاصيل عن علاقتهم بالصليبيين وأعمالهم في حلب والجهات المجاورة. وقد غطي ابن العديم برواياته هذه فترة من أهم فترات العلاقات الارترقية الصليبية، تبدأ مع مهاجمة الصليبيين لأنطاكية عام (٩١ = ١٠٩٧ م)، وتنتهي بوفاة نور الدين محمود عام (٥٦٩ = ١١٧٣ م)، وألقى صوراً على دور الاراتقة في قيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين في عهود إيلغازي وبلك، وقدم تفاصيل دقيقة عن الحروب الجانبية بين الحلبيين والصليبيين المجاورين، مما لم تأبه له المصادر الأخرى، فضلاً عن أنه أعطى صورة لا بأس بها لخطط حلب وتطوراتها

الإدارية والاقتصادية في عهد الارانقة .

والجانب الآخر الذي أسمى فيه ابن العديم بروايات مهمة، هو دور الارانقة في الشام في عهد أرتق ، ومن بعده سقمان وإيلفازاري . في الصراع الذي دار هناك بين عدد من الامراء لأغراض توسيعية، كما أنه ألقى ، في إحدى الروايات، ضوءاً على تصميم سقمان على اتخاذ ديار بكر قاعدة للأرانتقة . وقد حاول عدد من المؤرخين الذين اعقبوا ابن العديم ، كتابة توارييخ محلية لحلب ، على غرار ما كتبه ابن العديم ، إلا أن تركيزهم على خطط حلب في المهد المختلفة واعتمادهم في الجانب السياسي والعسكري على ابن العديم إلى درجة كبيرة ، قلل من أهمية ما كتبوه . وأشار هذه التوارييخ ( قسم حلب ) من كتاب (الاعلاق) لابن شداد ، والدر المتنخب لابن الشحنة (ت ٩٢١ هـ) ، ونهر الذهب للغزوي (ت ١٢٧١ هـ) وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أن هناك عدداً من توارييخ المدن التي لم تصلنا بنصوصها الأصلية ، فيما عدا تأريخ العظيمي (ت ٥٥٦) ، وإنما وردت رواياتها متفرقة في المصادر التالية التي اعتمدت عليها وبخاصة زبدة الحلب لابن العديم ، وهذه الروايات تشكل المادة الأساسية الأولى عن المواقع آنفة الذكر ، وأهم تلك المصادر : تأريخ ابن أبي طي الحلي وابن أبي جراده .

(٤) السير والذكريات ، وهي المؤلفات التاريخية التي كتبها المؤرخون عن أنفسهم ، كلاعتعبار لأسامة بن منقذ ، أو عن غيره من كبار المسؤولين كسيرة صلاح الدين لبهاء الدين بن شداد . وتبدو أهمية هذه التوارييخ في أن مؤلفيها عاصروا الاحداث التي أرخوا لها وشهدوا بعضها بأعينهم ، مما يجعلها أشد وثوقاً من التوارييخ الأخرى ، رغم وجوب الحذر إزاء بعض رواياتها وعدم

التسليم المطلق لها ، بسبب وعود الدافع الشخصي الذي يدفع المؤرخ أحياناً إلى التحيز وعدم الموضوعية لكونه أسهم في الأحداث واتخذ موقفاً ما إزاءها .

ولكن ما يجعل هذه التوارييخ ذات أهمية خاصة ، فضلاً عما سبق ، هو كثرة التفاصيل التي تقدمها وإلقاءها ضوءاً على بعض الجوانب الحضارية كالذي نجده لدى ابن منقذ بسبب اضطلاع كتابها ببعض المسؤوليات الرسمية .

يقدم ابن منقذ ( ت ٥٨٤ ) في كتابه ( الاعتبار ) عدداً من الروايات عن الاراثقة شهد أحدهما بنفسه ، ألقن ضوءاً على بعض الجوانب التي لم يتطرق إليها غيره من المؤرخين . وقد شملت رواياته هذه بعض جوانب العلة في الارتفاعية بالصلبيين ، والصراع الذي كان يدور في ديار بكر بين الاراثقة وبقية أمراء المنطقة لاغراض توسيعة ، كما أنه قدم بعض اللمحات عن الخطط . وقد ساعده على ذلك بقاوئه فترة طويلة في حصن كييف ، تحت رعاية أميرها الارتفاعي ، دامت حوالي العشر سنوات ( ١١٦٤ - ٥٧٠ = ١١٧٤ م ) .

أما ( النوادر السلطانية ) لبهاء الدين بن شداد ( ت ٦٣٢ ) ، فتبعدو قيمتها فيما يقدمه مؤلفها من أخبار أساسية ومشاهدات عن دور الاراثقة في الإمدادات العسكرية والبشرية ، التي كان صلاح الدين يعتمد عليها في قتاله للصلبيين ، وعما كان يجري داخل معسكرات صلاح الدين من تقالييد عسكرية واحتفالات ، أكدت مدى طاعة الاراثقة ، وبخاصة أمراء حصن كييف ، لصلاح الدين ، ومدى عطف هذا عليهم وتقديره لخدماتهم . هذا فضلاً عن أن ابن شداد يقدم في كتابه هذا بعض الروايات الأساسية عن علاقات الاراثقة بالابوبيين داخل منطقة ديار بكر ، مما يلقي ضوءاً جديداً على الموضوع . وما يقال عن ( النوادر

السلطانية ) لابن شداد ، يمكن أن يقال عن ( الفتح القدسي ) للعماد الاصفهاني ، ولكنه يزيد على ابن شداد بتقديمه لنصوص بعض الرسائل التي وجهها صلاح الدين لأمراء ديار بكر يدعوهم فيها للجهاد . وقد اعتمد على كل من ابن شداد والاصفهاني عدد من المؤرخين الذين أعقبوهم وبخاصة أبو شامة وابن واصل .

وتعد ( سيرة جلال الدين منكيرتي ) النسوية ( ت حوالي ٦٣٩ ) ذات أهمية بالغة ، بتوضيحيها لمساحة واسعة من علاقات الارانقة بالخوارزميين إبان تراجع هؤلاء أمام التتر في أرمينية وديار بكر ، ومحاولات سلطانهم خوارزم شاه إعادة تنظيمهم ، وتعزيز موقفه بعقد مصالفات مع أمراء المنطقة من الارانقة والايوبيين . وقد أوضح النسوبي في إحدى رواياته اقتراحًا قدمه أمير كيما وآمد للتحالف مع خوارزم شاه ضد سلاجقة الروم ، من أجل الاستعداد لقتال التتر بعد القضاء على أولئك السلاجقة ، وكيف أنه نكل بعد ذلك بالتزاماته تجاه الخوارزميين ، مما أدى إلى مصرع سلطانهم ، وبالتالي إلى تغيير ميزان القوى في المنطقة . وما يزيد من قيمة الكتاب المذكور أنه غطى أحداث الفترة التي أعقبت نهاية تاريخ ( الكامل ) لابن الأثير فيما بعد عام ( ٦٢٦ هـ = ١٢٢٨ م ) وهي فترة مهمة ، فضلاً عن أن المؤلف نفسه كان شاهد عيان لتلك الأحداث .

#### ب - كتب التراجم :

تبعد أهمية كتب التراجم في أنها تلقي ضوءاً على الجوانب الفكرية والثقافية في ديار بكر عهد الارانقة ، وتتطرق أحياناً ، خلال ترجمتها للأشخاص ، إلى تقديم بعض اللمحات عن النواحي الحضارية الأخرى ، الإدارية والاقتصادية

والاجتماعية ، فضلاً عن الجوانب السياسية ، لدى ترجمتها لأمراء الارانقة أو كبار المسؤولين في إماراتهم . وما يزيد في قيمة كتب الترالجم ، أنها تكاد تقطع كل الفترة التي عاشها الارانقة ، فهي تتكمال من الناحية الزمنية ، فبعضها يتناول ترالجم القرن الخامس وبعضاً الآخر القرن السادس أو السابع وهكذا.. كما أن هناك تكمال شبه موضوعي بين هذه الكتب بسبب تناول كل منها لصنف معين من الرجال ، وبعضاً يختص بترابط الساسة والقادة العسكريين ، وبعضاً الآخر بالعلماء أو الأدباء والشعراء ، وثالث يختص بالقضاة أو الأطباء أو الحدثين ، وهكذا تقدم صورة واضحة عن النشاط الثقافي في ديار بكر ، بعرضها لعدد كبير من العلماء والأدباء الذين أنجبوهم هذه المنطقة فتفرقوا في أنحاء العالم الإسلامي ، أو الذين جاؤوها من الخارج فاحتضنوه . كما تبرز دور الارانقة أنفسهم في تشجيع الحركة العلمية والأدبية برعاية العلماء والأدباء وتشجيعهم المادي والأدبي . هذا إلى أن هذه الكتب تقدم روایات مفصلة عن عدد من قضاة الارانقة وإدارييهم ، مما يساعد على توضيح التواهي الإدارية لدى الارانقة ، ثم إن هناك عدداً من كتب الترالجم تناولت سير بعض أمراء الارانقة وقدمت روایات أساسية عنهم قلما نجدوها في كتب التواریخ کوفیات الاعیان لابن خلکان ، (ت ٦٨١) وذیل الروضتين لابی شامة ، وفوات الوفیات للكتی (ت ٧٦٤) ، والواقی بالوفیات للصفدي (ت ٧٦٤) ، والدرر السکامنة لابن حجر (ت ٨٥٢) ، والمنهل الصافی لابن تغرنی بردي . وقد ساعدت هذه الروایات على سد بعض الثغرات التي لم تعالجهما كتب التأریخ .

وأهم كتب الترالجم التي اعتمدت عليهما ، فضلاً عما سبق : الانساب للسمعاني (ت ٥٧٢ هـ) ، والتأریخ الكبير لابن عساکر (ت ٥٧١ هـ) ، واللباب لابن

الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، والختصر لابن الدبيشي (ت ٦٣٧ هـ) ، وأخبار  
 العلماء للقفطي (ت ٦٤٦ هـ) ، وعيون الانباء لابن أبي أصيبيعة (ت ٦٦٨ هـ)  
 ونكت الهميـان للصفدي (ت ٧٦٤ هـ) ، وطبقات الشافعـية للسبكي  
 (ت ٧٧١ هـ) ، والجواهر المضـية للقرشـي (ت ٧٧٥ هـ) ، وقصـة دمشق لابن  
 طـولـون (ت ٩٥٣ هـ) ، والقلائد الجوهرـية للصالـحي (ت ٩٥٣ هـ) والبـدر  
 الطـالـع للـشـوـكـاني (ت ١٢٥٠ هـ) . ويـقـف على رـأـس هـذـه التـرـاجـم كـتـابـاـ الخـرـيدـة  
 للـأـصـفـهـانـيـ وـمـعـجمـ الـأـدـبـاءـ لـيـاقـوتـ (ت ٦٢٦ هـ) ، بـمـا يـقـدـمـاهـ من تـرـاجـمـ مـفـصـلـةـ  
 لـعـدـدـ مـنـ مـاـهـيـرـ الـأـدـبـاءـ وـالـشـعـرـاءـ ، الـذـينـ شـهـدـتـهـمـ دـيـارـ بـكـرـ فـيـ عـهـدـ الـأـرـاقـةـ .  
 وـيـحـدـرـ أـشـيـرـ هـنـاـ إـلـىـ بـعـضـ الـمـاصـادـرـ الـأـدـبـيـةـ الـقـيـ اـعـتـمـدـ عـلـيـهـاـ لـأـنـمـاـ تـشـرـكـ  
 مـعـ كـتـبـ التـرـاجـمـ فـيـ تـوـضـيـعـ النـشـاطـ الـثـقـافـيـ لـدـىـ الـأـرـاقـةـ ، وـأـخـصـ بـالـذـكـرـ  
 مـنـهـاـ رـسـائـلـ ضـيـاءـ الدـيـنـ بـنـ الـأـثـيرـ (٦٣٧) ، وـدـيـوـانـ صـفـيـ الـدـيـنـ الـحـلـيـ (٧٥٢)  
 الـذـيـ عـاـشـ مـؤـلـفـهـ رـدـحـاـ مـنـ الزـمـنـ تـحـتـ رـعـاـيـةـ الـأـرـاقـةـ وـتـشـجـعـهـمـ ، فـكـتـبـ  
 عـدـدـاـ مـنـ الـقـصـائـدـ فـيـ مـدـحـهـمـ وـنـظـمـ بـدـيـعـيـةـ سـهـاـ (ـالـأـرـاقـيـاتـ)ـ نـسـبـةـ  
 إـلـيـهـمـ .

### ج - كتب الجغرافيا والرحلات :

قدمـتـ كـتـبـ الجـغـرـافـيـاـ وـالـرـحـلـاتـ مـعـلـومـاتـ قـيمـةـ عـنـ الـجـوـانـبـ الـحـضـارـيـةـ  
 لـهـذـاـ بـحـثـ ، فـضـلـاـ عـنـ بـعـضـ الـمـمحـاتـ الـمـتـعـلـقـةـ بـالـنـوـاحـيـ السـيـاسـيـةـ وـالـمـسـكـرـيـةـ .  
 وـتـكـادـ الـمـعـلـومـاتـ الـتـيـ تـقـدـمـهـاـ هـذـهـ الـكـتـبـ أـنـ تـكـوـنـ مـكـلـةـ لـمـاـ قـدـمـهـ كـتـبـ  
 الـتـارـيـخـ وـالـتـرـاجـمـ .ـ فـيـنـاـ تـرـكـ زـاـلـيـاـ عـلـىـ الـنـوـاحـيـ السـيـاسـيـةـ وـالـمـسـكـرـيـةـ ،  
 وـبـيـنـاـ تـرـكـ الثـانـيـةـ عـلـىـ الـنـوـاحـيـ الـقـاـفـيـةـ وـالـدـيـنـيـةـ ،ـ نـجـدـ الـأـخـيـرـةـ تـرـكـ عـلـىـ  
 الـنـوـاحـيـ الـإـدـارـيـةـ وـالـاـقـصـادـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ وـالـمـذـهـبـيـةـ وـالـعـمـرـانـيـةـ فـضـلـاـ عـنـ  
 الـنـوـاحـيـ الـجـغـرـافـيـةـ .ـ وـمـاـ يـزـيدـ فـيـ قـيمـةـ هـذـهـ الـكـتـبـ أـنـ عـدـدـاـ مـنـ مـؤـلـفـيـهــاـ ،

وبخاصة الرحالة ، كتبوا عما شاهدوه فجاءت كتاباتهم صورة صادقة لما كانت عليه الجوانب التي وصفوها . هنا إلى أن هذه الكتب لم تسلط أضواؤها جيئاً على زاوية واحدة ، وإنما اهتم كل منها بناحية من النواحي . فالتطيلي ( ٥٦١ - ٥٦٩ م ) مثلاً ، يقدم في رحلته إحصائيات عن عدد اليهود في ديار بكر في عهد الراقة ، وابن جبير ( ت ٦١٤ ) يعطي صورة حية عن الأسواق والنشاط التجاري في المنطقة وإمكانيات الزراعية ، وابن بطوطة ( ت ٧٧٩ ) يقدم وصفاً للنشاط الثقافي والأدبي في بلاد الراقة ، والعمري ( ت ٧٤٩ ) يتكلم في مسالك الأبرصار عن المنتجات الزراعية لمنطقة ، وعن النصارى والمناطق التي يتركزون فيها ، ونشاطهم الاقتصادي والاجتماعي ، وابن حوقل ( ت ٣٦٧ ) ، الذي أضاف إليه ناسخ كتابه ( صورة الأرض ) ، تعليقات قيمة عن مشاهداته في عصر الراقة ، يقدم روایات مفصلة عن التجارة والصناعة واهتمام الراقة بالنواحي العمرانية ، وشيخ الروبة ( ت ٧٢٧ ) يقدم في ( نخبة الدهر ) وصفاً لأحد قصور الراقة يعطي مثلاً على مدى ما بلغه الفن المعماري والإمكانيات المادية لدى هؤلاء ، ويقوّت في ( مجمع البلدان ) يقدم روایات شق عن هذه النواحي جيئاً ، فضلاً عن أنه يفيد الباحث بتحديد لمعظم الواقع الصغير على خارطة ديار بكر والمناطق الأخرى ، مما لا تتعنى به المصادر الجغرافية الأخرى .

أما بقية الكتب الجغرافية التي اعتمدت عليها في هذا المجال ، والتي لا تقل أهمية عما سبقها ، فأشهرها المسالك والممالك لابن خردابه ( ت ٣٠٠ م ) ، ومسالك المالك للأصطخرى ( ت ٣٤٦ ) ، وختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ( ت ٣٦٥ م ) ، وأحسن التقاسم للبشاري ( ت ٣٧٥ م ) ، وأثار البلاد للقرزياني ( ت ٦٨٢ م ) ، وتقويم البلدان لأبي الفدا ( ت ٧٣٢ م ) ، وخريدة العجائب لابن الوردي ( ت ٧٤٩ م ) . وبالرغم من أن عدداً من المصادر

السابقة يعود في تأليفه إلى فترة سبقت ظهور الاراقنة ، إلا أن ما تقدمه من معلومات عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، يعد ضرورياً لمعرفة التطورات التي حدثت في المنطقة في عهد الاراقنة ، هذا إلى أن كثيراً من الجوانب الحضارية لا تتعرض لمؤثرات الزمن السريع كالجوانب السياسية والعسكرية ، بل تستمر لفترات طويلة تحمل نفس السمات وتحفظ ذات الثمار ، مما يجعل روایات تلك المصادر تحافظ على أهميتها في هذا المجال .

وتجدر الإشارة هنا إلى كتاب ( نزهة الأذمان في تاريخ دير الزعفران ) ، للأب أفرام برصوم ، وبالرغم من أنه ألف في مطلع هذا القرن ، إلا أن مؤلفه أورد فيه روایات هامة عن تاريخ المسيحيين الديني والاجتماعي والثقافي في ديار بكر في عهد الاراقنة ، وعن تطور التنظيمات الكنسية هناك ، اعتمد فيها على ما توفر له من مصادر سريانية ولاتينية أفادت له تقديم تفاصيل دقيقة عن هذا الموضوع .

#### د - كتب الخطط :

إن ما يلاحظ على معظم كتب الخطط اهتمامها بالإمارات والدول الكبرى فحسب ، وعدم الالتفات ، ولو بمحات موجزة ، إلى الإمارات الصغيرة ، ولذا نجدها تقدم تفاصيل كثيرة وروایات لا يخصها العدد عن خطط الفاطميين والسلاحقة والابوبين والماليك ، ولا تنطرق ، إلا نادراً ، إلى خطط إمارات محدودة كإمارات الارقية . ولكن أهمية هذه الكتب تبدو في نواحي عديدة ، منها أنها تقدم تحليلاً موسعاً لمعظم المصطلحات الإدارية والعمانية والاقتصادية والاجتماعية ، مما يمكن الاعتماد عليه في إيضاح ما ورد من تلك المصطلحات لدى الاراقنة . كما أن معظم هذه الكتب يتكلم عن خطط دول معاصرة للاراقنة ، ونحن نعلم أن هناك تأثيرات حضارية متبادلة في نطاق المصر

الواحد ، وأن الخطط التي تسود دولة من الدول في عصر ما لا بد وأن تكون مشابهة ، على الأقل في خطوطها الرئيسية ، لتلك التي تعمل بها إمارة معاصرة لتلك الدولة . وهذا ما يبدو واضحًا في وجود عدد كبير من المصطلحات المشابهة بين الأرادة والسلامقة والابوين والماليك ، وقد أكد القلقشندي على هذا التأثير الحضاري المتداول بين دول وإمارات ذلك العصر . وهكذا أتيح لي الاعتداد على ما أوردته كتب الخطط هذه ، والقيام بعقد مقارنة بينها وبين الإشارات المقتضبة عن خطط الأرادة ، ومن ثم تكنت من الوصول إلى بعض النتائج الدقيقة في هذا المجال .

ومن أهم كتب الخطط التي اعتمدت عليها : قوانين الدواوين لابن هماني (ت ٦٠٦ھ ) ، ولسع القوانين للنابلسي (ت حوالي سنة ٦٣٢ھ ) ، ونهاية الإرب للنويري (ت ٧٣٣ھ ) ، والتعريف بالمصطلح الشريف للعمري (ت ٧٤٩ھ ) ومعيد النعس للسبكي (ت ٧٧١ھ ) وزبدة كشف المالك للظاهري (ت ٨٧٣ھ ) ، والدارس في أبناء المدارس للنعمي (ت ٩٢٢ھ ) . ويقف على رأس هذه الكتب كتاباً صبح الأعشى للقلقشندي (ت ٨٢١ھ ) ، والمواعظ والاعتبار للمقرizi ، بما يقدمه من تحليل واسع النطاق لخطط مصر والشام في العصر الذي تتكلم عنه .

### ٣ - المراجع الأجنبية والعربية والدوريات :

لم يحظ الأرادة بأية دراسة حديثة فيما عدا المقالين اللذين كتبهما C. cahen في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة ) وفي مجلة (1935) J. A. Ostronofsky التي كتبها في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى ) ، والبحث الموجز S. Lane-poole في كتاب The Mohammadan Dynasties ، والجدول الذي وضعه زامباور في كتاب معجم الأنساب والأسرات الحاكمة . وفيما عدا ذلك لا

نجد أي اهتمام محدث خاص بالاراقنة ، بل ترد نتفاً من أخبارهم وعلاقتهم عرضاً ، في ثنايا الابحاث الحديثة العربية والاجنبية . وقد كان الدافع الاساسي لرجوعي إلى هذه المراجع ، هو الرغبة في الاطلاع على وجهات النظر في الاحداث التي كان الاراقنة طرفاً فيها ، أو الوصول ، بصورة غير مباشرة ، إلى المصادر الاساسية التي اعتمد عليها مؤلّاه المحدثون ، والتي لم يتيسر لي الاطلاع عليها . وهكذا رجعت إلى أهم الابحاث الحديثة عن السلاجقة والصلبيين والايوبيين والماليك والاكراد والاتراك والتتر ، والإمارات التركانية المتأخرة كإماماري الحروف الاسود والابيض ، كما رجعت إلى بعض المقالات والابحاث التي تناولت جوانب حضارية من الفترة التي عاصرها الاراقنة ، فضلاً عن معاجم المؤلفين والمورخين والاسر الحاكمة وبعض المراجع الجغرافية الحديثة .

وأحب أن أشير هنا إلى بعض المراجع ، التي اعتمدت عليها بشكل واسع النطاق وبخاصة فيما يتعلق بعلاقات الاراقنة بالصلبيين ، لما ذلك من أهمية في تحصص وجهات النظر المختلفة حول هذا الموضوع الهام ، وأهم هذه المراجع :

La Syrie du Nord, by C. cahen.

The Damascus chronicle of the Crusades, by Gibb.

Histoire des Croisades, by R. Grousset.

A History of the crusades, by S. Runciman.

A History of the crusades, by setton.

والكتاب الأخير يتضمن عدداً من المقالات القيمة حول هذا الموضوع

بأقلام كبار المتخصصين ، ثم كتاب The crusades in the East, by stevenson. فضلاً عن مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (R. H. C. Occ.) التي تقدم عرضاً لوجهة النظر اللاتينية في الحروب الصليبية ، والتي يمكن بقارتها بالروايات الإسلامية ، التزام الموضوعية وتجنب التطرف . وأحب ان أشير هنا ، كذلك ، إلى كتاب ( أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ) الذي ترجمه حسن حبشي عن

مؤرخ افرنجي مجھول ويعرف الكتاب باسم الجستا (Gesta) ، ويشير إلى دور الاراتقة في معارك أنطاكية ، وإلى كتابي "الشرق الاوسط والخروب الصليبية للعربي" ، والحركة الصليبية لعاشر ، اللذين يمدان أوسع المؤلفات العربية عن الحروب الصليبية ، وقد اعتمد مؤلفاهما على عدد كبير من المصادر الفرنسية والإنكليزية ، وقدمما ملاحظات قيمة وغنية عن دور الاراتقة إزاء الصليبيين ، أعادتني إلى حد كبير في هذا البحث . هذا فضلاً عن عدد آخر من المراجع التي رجعت إليها عن هذا الموضوع مما هو مثبت في قائمة المصادر والمراجع .

وليس لي – قبل الدخول في الموضوع – إلا أن أرفع حمي العميق لله ..  
 فهو وحده صاحب المنّة ، وإليه وحده يصعد الكلم الطيب ويرفع الثناء .

جامعة الموصل  
عماد الدين خليل



## شكر وتقدير

ما أفتخر به أن أسجل شكري وتقديري العميقين لأستاذي الدكتور حسن جبشي رئيس قسم التاريخ في كلية أداب جامعة عين شمس ، الذي تمت هذه الرسالة تحت إشرافه ، وأخذت سماتها الأخيرة بتوجيهه وإرشاده . ولقد كان تتبعه وملاحظاته وما أنفق من جهد ووقت كبيرين الأثر الواضح في إخراجها .

كما أتقدم بشكري إلى كل من الأساتذين : الدكتور شعيرة والدكتور العدوبي ، لما قدماه خالدان المناقشة من آراء قيمة وتوجيهات سديدة ، وإلى الأخ الدكتور عبد القادر طليمات ، الذي اطلع على بعض فصول الرسالة وأبدى ملاحظاته حولها ، وإلى الأخوة الذين قرأوا مسوداتها وصححوا أخطاءها اللغوية .

ولا يفوتي أن أقدم خالص امتناني للمعاملة الطيبة ، التي لمستها من موظفي المكتبة العامة ومكتبة المتحف في الموصل ودار الكتب في القاهرة .

والحمد - أولاً وأخيراً - لله القدير الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .



# الفصل الأول

ظهور بي أرق وعلاقتهم بالسلالة الجعفية  
٤٦٥-٥٢١ هـ ( = ١٠٧٣ - ١١٢٧ م )



## أصل الأرaqueة ودور أرتق :

ينتمي أرتق بن أكسك<sup>(١)</sup> ويلقب بظهير الدين<sup>(٢)</sup>، إلى قبيلة الدقر (Doger) التركانية<sup>(٣)</sup>، وهي إحدى البيوت الكبيرة التي تنتهي إلى الفز<sup>(٤)</sup>، والتي كانت زعامتها قد انتهت إلى أرتق . وكانت هذه القبيلة من جملة القبائل التركانية ، التي انتظمت في صفوف القوات السلجوقية ، التي عمل سلاطينها على استئثار

(١) يشير ابن خلkan ( وقيات الأعيان ٦١/١ ) ، إلى أن آبا أرتق هو أكب وأنه يدعى أحياناً أكسك ، ويشير ابن خلدون ( العبر ٤٦١/٥ ) ، إلى أن أكسك هو الأرجح ، وكذلك يؤكّد كل من العيني ( عقد الجمان ، مخطوطة ٤٤٠/٤٥ ) ، وابن حجر العسقلاني ( الدرر الكامنة ٩٦/٢ ) . ويسميه ابن تغري بردي ( النجوم الزاهرة ١٠٦/٥ ) ( أرتق بك ) ، وكذلك يفعل كل من سبط ابن الجوزي ( مرآة الزمان ، مخطوطة ١٨٣/٢ - ١٨٤ ) ، وابن الفرات ( تاريخ ، مخطوطة ٨/٢ ) ، والمرجح أن كلسة ( بك ) تحريف لأكسك . وانظر ابن تغري بردي ( التهل الصافي ، مخطوطة ٤٩٦/٢ ) . وعما يؤكّد اسم ( أكسك ) ما أورده الماردیني ( تاريخ ماردين : مخطوطة ، ورقة ١٢٠ ) ، من أن آبا أرتق يدعى أكسوك ومعنى الناقص . ويجمع عدد آخر من المؤرخين على تسميته بأكب ، على الرغم من خطأ هذه التسمية . انظر ابن الأثير ( الكامل ٤٨/١٠ - ٤٩ ) ، ابن الفرات ( تاريخ ، مخطوطة ٨/٢ ) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الطلب من تاريخ حلب ٩٩/٢ .

C. cahen, the turkish invasion, in setton: A

(٣)

History of the crusades, vol, 1, P. 158.

Enc. Isl. art: Artukids, by c. cahen ( New ed.),

Tamara Rice, the seljuks in Asia Minor, P. 54.

(٤)

المجزري ، تاريخ ( مخطوطة ٢٩/٢ )

زعماً هذه القبائل ، بمنحهم الإقطاعات والاستقلال الذاتي داخل نطاقها ، كما سعوا إلى جذبهم إلى مختلف الوسائل كتفويضهم قيادة بعض الميلات العسكرية ، وتعليم أبنائهم الاضطلاع بالوظائف العسكرية والإدارية<sup>(١)</sup> . ومن المؤكد إذاً أن قبيلة ( الدقر ) كانت من ضمن القبائل التركانية العديدة التي اشتراك في الزحف إلى لجوبي وبناء كيان الدولة السلجوقية<sup>(٢)</sup> .

كان أرتق من ممالئك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ، ثالث سلاطين السلجوقية ، والذي حكم بين سنتي ( ٤٦٥ - ٤٨٥ = ١٠٧٢ - ١٠٩٢ )<sup>(٣)</sup> ، وقد قدم أرتق لسلطانه خدمات عسكرية جليلة في فجر حياته السياسية ، كان لها أثر كبير في إبرازه على المسرح السياسي والعسكري . ففي عام ٤٦٥ م حارب في آسيا الصغرى ضد البيزنطيين ، ثم عمل طيلة السنوات التالية في مهام إدارية لدى حكومة السلطان ملكشاه<sup>(٤)</sup> . وفي عام ٤٧٠ م ( ١٠٧٧ ) ، أرسل على رأس حملة عسكرية لقتال قراملة البحرين والمناطق المجاورة ، وإخضاعهم للسلجوقية ، فتم له النجاح في ذلك وأرسل كتاباً إلى بغداد ، في نفس العام ، باستيلائه على بلادهم<sup>(٥)</sup> . وبعد عامين من

Cahen, the turkish invasion, 1/158.

(١)

حسين أمين ، نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر ، المجلد العشرون سنة

١٩٦٢ .

(٢) انظر ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٨ ) Enc. Isl. art : Doger by F. Sumer.

(٣) ابن خلدون ، العبر ٥/٤٦١ ، ابن حجر ، الدرر ٢/٩٦ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ( مخطوطة ٢/٩٦ ) .

Enc. Isl. art : Artukids, by C. cahen ( New ed.)

(٤)

C. cahen, the Turkish Invasion, 1/158.

(٥) انظر المأمور السابق وابن تغري بردي ، النجوم الظاهرة ٥/١٠٦ .

ذلك ، أي في عام (٤٧٢ = ١٠٧٩ م ) جعله ملكشاه تحت إمرة أخيه تاج الدولة تتش في الحملة السلاجوقية التي توجهت إلى بلاد الشام<sup>(١)</sup> . وكان أرتق خلال هذه الفترة قد قام بالاستيلاء على منطقة (حلوان والجبل)<sup>(٢)</sup>، وضمها إلى أملاك الدولة السلاجوقية<sup>(٣)</sup> . وقد أدت هذه الجهود التي بذلها أرتق للسلاجقة إلى توليته على « حلوان وما إليها من أعمال العراق »<sup>(٤)</sup> .

بقي أرتق عاملًا على حلوان والمناطق المجاورة ، من قبل السلاجقة حتى عام (٤٧٧ = ١٠٨٤ م ) . وقد خلت المصادر من الإشارة إلى الدور الذي قام به خلال ولائته على هذه المنطقة وما حققه من أسمال ، سوى أن السلطان ملکشاه أرسله في عام (٤٧٧ = ١٠٨٤ م ) على رأس عدد كبير من التركان ، لمساعدة فخر الدولة بن جهير في حلته العسكرية على ديار بكر حين طلب من السلطان إنجاده لاستكمال مهمته<sup>(٥)</sup> . وكان ابن مروان الكردي صاحب الإمارة

(١) Enc. Isl. art: Artukids, by C. cahen (New ed.)

(٢)إقليم يقع جنوب كردستان على الحدود بين العراق وبلاد فارس ، وحلوان مدينة عامرة تتوسط الإقليم . انظر ياقوت ، معجم البلدان ٢/٣١٧ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات ١/٦١ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، البنداري ، تاريخ الدولة السلاجوقية ، ص ٧٠ ، ابن خلدون ، العبر ٤/٦٢ ، القرماني ، تاريخ ص ٢٧٨ ، ابن تغري بردي ، النهل الصافى (مخطوطه Cahen, Turkish Invasion, 1/158 ) ٤٩٦/٢

(٥) وهناك رواية مطولة يقدمها الماردیني (تاريخ ماردين ، مخطوطة ، ورقة ١٢٠ - ١٢٢ ) عن أصل الأرانتة ودور أرتق ترسم بالطبع المتأخر القصصي ، وما ذكرته من احداث لا يؤيده أي مصدر موثوق على الإطلاق . لذا أعرضنا عنها .

(٦) ابن الأزرق الفارسي ، تاريخ آمد وميافارقين ، القسم المنشور ص ١١٠ ، ابن الاثير ، الكامل ٤٨/١٠ - ٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني أیوب ١١/١ - ١٤

الرواية في ديار بكر قد مضى إلى شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل (٤٥٣ هـ - ١٠٦١ م ) ، وطلب نجده مقابل إعطائه آمد . فتم الاتفاق بينهما على ذلك وسارا إلى آمد ، وكان ابن جهير قد نزل بنواحيها فلما رأى تحالفها مال إلى الصلح ، إلا أن أرتق أصر على القتال وقال « أنا لا أرد ريات السلطان على عقبهَا »<sup>(١)</sup> ، وعندما علم أتباعه من التركان بقيام ابن جهير بخواضة أعدائه لعقد الصلح قرروا الإسراع بإشعال نار الحرب للحصول على الفتائم قبل أن يتم الصلح ، فقاموا بهجوم مباغت في ربيع الأول من السنة على قوات شرف الدولة العربية ، دون علم أرتق ، وكان التركان أضعاف العرب فهزموهم وغنموا أسلابهم وبالغوا في إهانتهم<sup>(٢)</sup> .

تراجع شرف الدولة العقيلي إثر هذه المعركة واحتوى بسور آمد ، أما حليفه المرواني فيظهر أنه ابتعد عن ميدان القتال خوفاً من المهزيمة ومن تعرض إمارته للخطر . وإذا أدرك شرف الدولة عدم جدواي المقاومة وخاف على نفسه ، راسل الأمير أرتق - الذي كان مكلفاً بحفظ الطرق ومراقبة الحصار - وبذل له مالاً وسألته أن ينْ عليه بنفسه ويكتنه من الخروج من آمد ، فقبل أرتق العرض

= أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ٢٠٥ - ٢٠٥ البنداري ، الدولة السلجوقية ص ٧٠ ،  
الاصفهاني ، زبدة النصرة ص ٧٥ - ٧٦ ، ابن خلدون ، العبر ١٣٥ ، العيني ، عقد الجان  
( مخطوطة جزء ٤٥ ورقة ٣٧١ - ٣٧٢ ) ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطة  
G. cahen The Turkish ٨ / ٢ ) ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٨ ) ،  
Invation ١/١٨٣

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ( مخطوطة ١٨٤ / ٢ / ١ ) .

(٢) المصدر السابق ١٨٣ / ٢ - ١٨٤ ، العيني ، عقد الجان ( مخطوطة ٤٥ - ٣٧١ / ٤ )  
، الاصفهاني ، زبدة النصرة ص ٧٥ - ٧٦ . وينفرد ابن خلدون ( العبر ١٣٥ ) في  
الإشارة إلى أن أرتق اشتراك في هذه المعركة فهزم العرب والاكراد وغنم معسكراً . وهي رواية  
ضعيفة .

طعماً في المال وأذن لشرف الدولة في الخروج ، فتسلل هذا من آمد في الحادي والعشرين من ربیع الاول واتجه إلى الرقة<sup>(١)</sup> ، وأرسل إلى أرتق - فيما بعد - ما كان قد اتفقا عليه<sup>(٢)</sup> وحدثت في الوقت نفسه بعض الخلافات بين أرتق وابن جهير ، حيث رفض أرتق تسليمي الاسرى العرب الذين هزمهم جنده من التركان وقال « هذا أمر ما إليك منه قليل » ، وأنا صاحب الحرب ، وكانت نية أرتق مع السلطان - ملكشاھ - غير مستقيمة<sup>(٣)</sup> الامر الذي دفعه إلى مغادرة معسكر ابن جهير بعد ثلاثة أيام من الموقعة آنفة الذكر ، حيث تبعه أكثر التركان<sup>(٤)</sup> . وعند ذلك اتجه فخر الدولة ابن جهير لحصار ميافارقين في ديار بکر ، ولكنه سرعان ما غادرها إلى خلاط بسبب عدم تمكنه من الصمود بوجه أعدائه دون مساعدة أرتق الذي قرر التوجه لمقابلة السلطان والقيام بما يراه ، وربما استهدف طلب رضاه عنه بسبب تأمره مع شرف الدولة ، والشكوى التي قام ابن جهير بتقديمها إلى السلطان ضده<sup>(٥)</sup> .

(١) الرقة : مدينة على الفرات من الجانب الشرقي ، بينها وبين حران ثلاثة أيام . ( ياقوت مجمع البلدان ٨٠٢/٢ ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ - ٤٩ - ٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١١/١ - ١٤ ، ابن البنداري . الدولة السلاجوقية ص ٧٠ - ٧١ ، الأصفهاني ، زبدة النصرة ص ٧٥ - ٧٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٨/٢ ) ، المعيني ، عقد الجان ( مخطوطة ٤٥ - ٣٧١ ) ، ابن تفري بردي ، التهليل الصافي ( مخطوطة ٤٩٦/٢ ) ، أبو الفدا : الختصر ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ابن خلدون . العبر ٦٣ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطة ١٨٣/٢ - ١٨٤ ) ، Cahen , Turkish Invasion , 1/158

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطة ١٨٣/٢ - ١٨٤ ) .

(٤) المصدر السابق ، نفس الأوراق .

(٥) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطة ١٨٤/٢ و ١٨٨/٢ ) بـ ( ١٨٩ ) .

ولكن أرتق ما لبث أن تلقى من السلطان أمراً بمساعدة قوة ثالثة كان ملوكشاه قد أرسلها بقيادة عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير ، وعدد من كبار القيادة للاستيلاء على الموصل ، فانضم أرتق بقواته التركانية الكبيرة إليهم واتجهوا جميعاً إلى الموصل حيث فرضوا عليها الحصار ، وأرسل أرتق إلى أصحابهـ يشير عليهم بالتخلي عن العصيان والدخول في طاعة السلطان ، وخوّفهم عاقبة إصرارهم على المقاومة<sup>(١)</sup> ، كما أرسل إليـم عميد الدولة كذلك يخوضهم على الاستسلام ، فأذعن حكام الموصل للقوات السلجوقية ووافقوـ على تسليم بلدـم بشرط حضور السلطان بنفسـه ، فلما حضر هذا سلمـتـ إليهـ المدينة<sup>(٢)</sup> .

ومن ثم تقدم أرتق وقواته بصحبة السلطان ملوكشاه إلى مرو الروذ – في بلاد فارس – للقضاء على تمرد تكش أخي السلطان ملوكشاه هناك عام ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م ، حيث لعب أرتق دوراً رئيسـياً في معاـدة ملوكشاه في هذا المجال ، بحيث تكونـ من القـضاـء على هذا التـمرـد<sup>(٣)</sup> .

إلا أن أرتق ، رغم دورـه في فتحـ الموصلـ وفيـ قـتـالـ تـكـشـ ، كانـ خـائـفـاًـ منـ

(١) ابن الأثيرـ البـاهـرـ صـ ٥ـ .

(٢) ابن الأثيرـ ، الكاملـ ٤٩/١٠ـ - ٥ـ ، البـاهـرـ صـ ٥ـ ، ابنـ واـصـلـ ، مـفـرجـ الـكـرـوبـ ١١/١ـ - ١٤ـ ، أبوـ شـامـةـ ، الرـوـضـتـينـ فيـ أـخـبـارـ الدـوـلـتـيـنـ ٤/١ـ ، الـبـنـدـارـيـ ، الدـوـلـةـ السـلـجـوـقـيـةـ صـ ٧٠ـ - ٧١ـ ، أبوـ الفـسـادـ ، المـخـتـصـ ٢٠٤/٢ـ - ٣٠٥ـ ، ابنـ خـلـدونـ ، العـبـرـ ١٤/٥ـ ، الأـصـفـهـانـيـ ، زـبـدةـ النـصـرـةـ ٧٦ـ - ٧٧ـ ، سـبـطـ ابنـ الجـوزـيـ ، مـرـآـةـ الزـمـانـ ، ( مـخـطـوـطـةـ ١٨٤/٢ـ ) وـانـظـرـ ابنـ الـفـرـاتـ ، تـأـريـخـ ( مـخـطـوـطـةـ ٨/٢ـ ) ، الـعـيـنـيـ ، عـقـدـ الـجـانـ ( مـخـطـوـطـةـ ٢/٤ـ - ٤٥ـ ) ، ابنـ تـغـرـيـ برـديـ ، الـمـنـهـلـ الصـافـيـ ( مـخـطـوـطـةـ ٤٩٦/٢ـ ) .

(٣) سـبـطـ ابنـ الجـوزـيـ ، مـرـآـةـ الزـمـانـ ، ( مـخـطـوـطـةـ ٢/١ـ - ١٨٥ـ ) . وـانـظـرـ ابنـ الأـثـيرـ ، الكاملـ ١٣٦/٨ـ ( مـطبـعـةـ الـاسـقـامـةـ بـالـقـاهـرـةـ ) .

انتقام السلطان ملكتشاه منه بسبب تواطئه مع شرف الدولة العقيلي وخلافه مع ابن جهير ، وكان السلطان قد حقد عليه فعلاً بسبب ذلك ، وقيل إنه أرسل إليه يتوعده ، مما اضطره إلى مفارقته والتوجه صوب الجزيرة ، حيث قام في طريقه بنهب السواد والضياع العائدة للسلطان ، ثم عطف إلى الموصل وأعمل في أطرافها النهب والسلب ، وما لبث أن اخند طريقه إلى الجزيرة ، فاضطر ابن جهير إلى التحصن بأسوار آمد خوفاً منه<sup>(١)</sup> .

كان أرتقى ، خلال هذه الفترة ، قد أجرى اتصالات مع شرف الدولة العقيلي وتم الاتفاق بينهما على التوجه معاً إلى حلب ومراسلة الفاطميين للانتقام إليهم ، ومحاولة إقناع تاج الدولة تتش السلاجقى سلطان الشام بالانضمام إلى حركتهم .

وكان شرف الدولة قد أرسل ، إثر خروجه من آمد ، عمده مقبل بن بدران إلى مصر ليعلن انتقامه إليهم ، وسيعه للاستيلاء على بعض المناطق في العراق والجزيرة والشام وانتزاعها من السلاجقة ، ويلتزم منهم بإرسال قواتهم للاتفاق معاً على خطة عسكرية مشتركة . فأرسل بدر الجيالي - الوزير الفاطمي - وفداً مصرياً بصحبة مقبل بن بدران للتفاهم مع مسلم بهذا الصدد ، فوصلوا إلى دمشق وتوجه مقبل من هناك ليعلم شرف الدولة وأرتق بوصولهم ، ولكنكما ما أرن اقترب من حلب حتى علم بقتل شرف الدولة في المعركة التي دارت بينه وبين قاتلش سلطان سلاجقة الروم ( ٤٧٠ م - ٤٧٩ م = ١٠٨٦ م ) ، في مطلع عام ( ٤٧٨ م = ١٠٨٥ م ) ، بالقرب من أنطاكية ، فاضطر إلى التوجه إلى قرقيسيا<sup>(٢)</sup> حيث اجتمع بأرتق ، فوعده هذا ببيث جنده من التركان

(١) ابن الفرات ، تاريخ ، ( مخطوطه ٨/٢ ) .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطة ١/٢٨٨ ب - ١٨٩ آ ) . وتقع قرقيسيا على نهر الخابور قرب الرحبة ( ياقوت ، بلدان ٤/٦٦ ) .

للإفساد والتغريب في المناطق التابعة للسلطان ملکشاه ، والتوجه بعد ذلك إلى الشام<sup>(١)</sup> .

ولكن أرتفق ما لبث أن وجد نفسه مضطراً على البقاء في الجزيرة ، إذ أن مقتل شرف الدولة فت<sup>(٢)</sup> في عضده . وقام السلطان ملکشاه بمحاولة استرضائه إزاء ما بلغه عنه من اتصالات سياسية وعمليات تخريبية ، فأرسل إليه خلماً وذهبأ رفض أرتفق قبولها ، كما قام جماعة من قواد السلطان ملکشاه في ديار بكر براسلته ومحاولة استئثاره ثارة بالإغراء وثارة أخرى بالوعيد وقالوا له إن كنت عاصيأ سرنا إليك ، وإن كنت طائعاً فيجب أن تجتمع معنا على خدمة السلطان<sup>(٣)</sup> ، فاضطر أرتفق إزاء ذلك ، وبعد أن انقض<sup>(٤)</sup> عنه عدد من أتباعه التركان ، إلى الاستجابة لنداء قادة السلطان بالكف عن النهب والتغريب ، ولكنه أعلمهم بأنه لا يستطيع الانضمام إلى السلطان ملکشاه ، بسبب ما قام به ابن جهير من إفساد نيته عليه ، وأنه لهذا السبب لا يأمن على نفسه منه ، كما أعلمهم بأنه قد عزم على التوجه صوب حلب وأنه سيعمل هناك على الحد من أطعام أعداء السلطان ملکشاه ، وبخاصة سليمان بن قتمش الذي كان على وشك الاستيلاء على حلب<sup>(٥)</sup> .

تكون أرتفق بهذه الوسيلة من التخلص من ضفت قادة السلطان ، وانفتح الطريق أمامه للتوجه صوب الشام . ولم تتمكن عن حاولات الاتصال مع الفاطميين – بعد ذلك – أية نتيجة تذكر ، بسبب مقتل شرف الدولة مسلم

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطه ١٨٨/٢ ب - ١٨٩ ) .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطه ١٨٨/٢ ب - ١٨٩ ) .

(٣) المصدر السابق ، نفس الوراق .

الذي يمثل رأس تلك الاتصالات ، ويسبب انهاك أرتق - لدى دخوله الشام - بمساعدة تتش السلاجقى في عملياته ضد أعدائه ، كي يحصل من ثم على عطفه وحمايته بعد أن قطع صلته بالسلطان ملکشاه . وبذلك أخفقت حماولة التعاون مع الفاطميين ما كان سيؤدي إلى نتائج خطيرة في منطقة العراق والشام ، وفي تغيير ميزان القوى السياسية هناك .

### الأراقة في القدس :

تنقلت الأحوال بأرتق لدى انضمامه إلى تتش ، وما لبث هذا أن أقطعه القدس عام (٤٧٩ = ١٠٨٦ م)<sup>(١)</sup> ، تمهدأً للاعتماد على مقدراته العسكرية ، إذ كان « منصوراً لم يشهد حرباً إلا وكان الظفر له »<sup>(٢)</sup> ، وللاستفادة كذلك من العدد الكبير من التركان الذين كانوا تحت إمرته والذين عرفوا بإجلالهم له

(١) يذكر كل من كلود كافن في Enc. Isl. art. Artukids, (New ed.) A History of the crusades 1/265 ولكن أياً من المصادر العربية لم تشر إلى ذلك وإنما ذكرت أن القدس هي التي أقطعت لأرتق وهو ما يذهب إليه كافن نفسه في The Turkish Invasion, 1/158 The caliphate and the Arabstates in, setton, 1/95 The seljuks, p. 54 وبسط بن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطه ١٩٣/٢ آ ب ) . وانظر ابن تغري بردي ، النهل الصافي ، ( مخطوطة ٤٩٦/٢ ) . كأنه لم يرد في تفاصيل الروايات ما يشير إلى أن أرتق وأبناؤه من بعده كانوا يتمتعون بأية سلطنة خارج القدس ، مما يرجح بأن الأخيرة فقط كانت اقطاعهم . ولا بد من الإشارة إلى الخطأ الذي وقعت فيه (قارا رايس) (المصدر السابق) في القول بأن إقطاع القدس لأرتق جاء بسبب تقدير تتش له على الشهامة التي اظهرها قبل عامين ، لدى مساعدته ملکشاه في حصاره آمد . وهذا الخطأ ، يتضح من سياق الأحداث .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ٥٤/١٠ .

واعتدادهم به<sup>(١)</sup> فضلاً عن إمكان الخواذه حاجزاً بينه وبين الفاطميين في مصر<sup>(٢)</sup>.

وكانت أولى المعارك التي اشترك فيها أرتق إلى جانب تتش ، تلك التي خاضها الأخير ضد سليمان بن قتلش حاكم سلاجقة الروم ، الذي كان قد انتصر على شرف الدولة العقيلية صاحب حلب ، وأخذ يعمل على الاستيلاء عليها وبلغ على أهاليها بتسليم مدينتهم ، فأرسل مقدمهم ابن الحتيف العباسي إلى تتش يدهه بتسلیم حلب إليه ويطلب منه الحضور . فسار هذا إلى هناك والتقي بسليمان بن قتلش في الثامن عشر من صفر عام (٤٧٩ = ١٠٨٦ م ) ، حيث دارت معركة « أبل فيها أرتق بلاءً حسناً وحرضاً العرب على القتال »<sup>(٣)</sup> ، فانهزم أصحاب سليمان وقاتل هو حق قتل ، ومن ثم تقدم تتش إلى حلب وطلب من ابن الحتيف تسليمها له فأجابه هذا بأنه سيكتب السلطان ملكشاه ويتلقى أوامره في هذا الشأن فما كان من تتش إلا أن هاجم حلب وضيق على أهله ، فاستجبار ابن الحتيف بأرتق وطلب الأمان فشفع ثبيه هذا وآمنه<sup>(٤)</sup> ثم ما لبث أن أرسله عماله وأهله إلى القدس حيث أقام هناك<sup>(٥)</sup> .

استمرت قلعة حلب على المقاومة بقيادة سالم بن مالك بن بدران العقيلية ، واستمر تتش محاصراً لها سبعة عشر يوماً ، ثم ما لبث أن رجع عنها ، حين

(١) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٨٢ ) .

(٢) ذكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ص ١٦ - ١٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٤٠ / ١٠ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٧٦ .

(٥) ابن العدين ، زبدة الحلب ٢/٩٩ .

بلغه خبر وصول أخيه ملكشاه<sup>(١)</sup> . وقد أشار عليه أرتق بمحاجة قوات السلطان وهون الأمر عليه بأن التعب قد أنهكهم وأن الظفر بهم يسير ، إلا أن تتش لم يشاً مجاهدة أخيه ملكشاه خوفاً من عواقب الأمور ، ووقف عائدًا إلى دمشق<sup>(٢)</sup> . وما لبث السلطان أن وصل إلى حلب واستولى عليها بعد قتال قصير<sup>(٣)</sup>

ويظهر أن أرتق حاول بعد ذلك بقليل التقرب من السلطان ملكشاه وكسب رضاه ، إذ أنه سافر إلى بغداد في المحرم من عام (٤٨٧ = ١٠٨٧ م) ، واشترك مع شحنة السلاجقة هناك وعدد من الأمراء في المسير ، بين يدي جهاز ابنه ملكشاه إلى الخليفة العباسي (المقتدي)<sup>(٤)</sup> .

ومنذ عام (٤٨٤ = ١٠٨٦) وحق وفاة أرتق عام (٤٨٥ = ١٠٩١)، لم يرد أي خبر عنه . والمرجح أنه استقر خلال سنوات الأخيرة في إقطاعه في القدس ؟ وابتعد عن التدخل في المنازعات والمحروب التوسعية . ومع ذلك فيظهر أن علاقته بسلطانه تتش ، خلال هذه الفترة ، كانت طيبة ، إذ لم يرد ما يشير إلى خلاف ذلك .

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٤٥ - ٥٥ ، الباهر ص ٧ - ٨ ، ابن العدم ، زبدة الحلب ٢٠٦/٢ - ٩٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/١٦ - ١٧ ، أبو النداء ، الختصر ٤٦٣ - ٤٦١ ، ابن الشعنة ، المنتخب من القرمانى ، تاريخ ص ٢٧٨ ، العيني ، عقد الجان (مخطوطه ٤٥/٣٨٩) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٥٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/١٨ .

(٣) ابن الأثير ، الباهر ص ٨ .

(٤) ابن خلدون ، العبر ٥/١٨ - ١٩ .

## وفاة أرتق ودور أبنائه في الصراع بين سلاجقة الشام :

وفي عام (٤٨٤ = ١٠٩١ م ) ، توفي أرتق في القدس<sup>(١)</sup> مخلفاً إياها ولديه سقمان<sup>(٢)</sup> وإيلفازي<sup>(٣)</sup> ، بعد أن قدم للسلاجقة خدمات عسكرية كبيرة في جهات عديدة خلال حركتهم التوسعية في عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ = ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م ) . فقد حارب في الأنضول ، كما استطاع أن يضيف إلى دولة السلاجقة بخلوان وماجاورها شرق العراق ، والبحرين وما يحيطها ، وأن يشارك في حملة السلاجقة الثانية على بلاد الشام وديار بكر ، وأن يلعب دوراً مهماً في فتح الموصل . ومن ثم نقل خدماته إلى الشام تحت ولاية السلطان تاج الدولة تتش الذي أقطعه القدس ، لما لها من أهمية لوقوعها على الخطوط الأمامية في الصراع بين السلاجقة والفالطينيين .

ومن الممكن اعتبار أرتق واضع الكيان السياسي للأرادة ، فعلى الرغم من أن القدس لم تبق بأيدي أبنائه مدة طويلة بعد وفاته ، وأنهم أسروا إماراتهم

(١) يشير كلود كافن في Enc. Isl. art: Artukids, New ed. إلا أن تاريخ وفاة أرتق يبقى مجهولاً ، في الوقت الذي تذكر فيه المصادر بوضوح أنه توفي عام ٤٨٤ م . وانظر سامي ، قاموس الأعلام النزكي ، ٨٢٣ / ٨٢٣ ، أما القرماني فيذكر أنه توفي عام ٤٨٣ م (١٠٩٠ م ) (تأريخ ص ٢٢٨) ، وكذلك يشير ابن خلدون ، المبر ٤٦٣ / ٥ .

(٢) يرد اسم سقمان في مختلف المصادر ، وأحياناً في المصدر الواحد ، ثارة بالكلاف وأخرى بالقالف ، إلا أنه يرسم في الغالب بالحرف الأخير . انظر العيني ، عقد الجحان ، حوادث سنة ٤٠٤ من المخطوطة .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ٢١٢ / ٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر في تاريخ البشر ٥ / ٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣٨ / ١٢ ، ابن خلدون ، المبر ٤٦٣ / ٥ ، ابن الشحنة ، روضة المناظر ١٨١ / ٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ، (مخطوطة ٨ / ٢) ، ابن تغري بردي ، النهل الصافي (مخطوطة ٤٩٦ / ٢) ، T. Rice: the seljuks, p. 54.

— بعد ذلك — في ديار بكر بعيداً عن موطنهم الأول ، إلا أن القدس ، تعتبر ولا شك مركز تجمع الأرادة وحجر الراوية لنشاطهم السياسي وال العسكري ك أصحاب إمارة لها شخصيتها المستقلة . فبعد وفاة أرتق بقي أبناؤه في القدس طيلة سبع سنوات ( ٤٨٤ - ٥٤٩١ = ١٠٩١ - ١٠٩٧ م ) لعبوا خلالها دوراً أساسياً في الصراع الذي شهدته بلاد الشام ، وحصلوا خلال ذلك على بعض المكاسب .

ذلك أن منافسة سديدة حدثت على السلطة ، إثر وفاة ملكشاه عام ٤٨٥ = ١٠٩٢ م بين تتش وابن أخيه بركياروق ، الذي خلف أبوه ملكشاه والذي أيداه كل من آق سنقر وبزان — وهما من كبار الأمراء المعتمدين لدى السلجقة في الشام — ولكن تتش استطاع القضاء عام ( ٤٨٦ = ١٠٩٣ م ) على هذين الأميرين ، واسترد منها ما كان بأيديهما من المدن والقلعات وأقطع إحدى أملاكها وهي سروج<sup>(١)</sup> لسقمان بن أرتق . وهذا يشير إلى أن أبناء أرتق قد اتبعوا سياسة أبيهم في تأييد تتش ضد السلاطين السلجقة ، ولهذا كافأهم الأخير بهذا

(١) عز الدين بن شداد ، الأعلاق الخطية ، ( مخطوطة ورقة ٢٤ ) . وهناك خطأ يقع فيه ابن الأثير ( الكامل ١٠٥ / ١٠ ) والذين نقلوا عنه كابن شداد ، ( المصدر السابق ، نفس الورقة ) وهو أن الرها أقطعت هي الأخرى لسقمان ، فضلاً عن سروج . ذلك أن الرها كانت حتى عام ٤٨٧ = ١٠٩٤ م ، تحت سيطرة الأمير التركي بوزان ، ثم استولى عليهما تتش في هذا العام وأقر في حكمها الأمير الأرمني توروس الذي كان بوزان يعتمد عليه في إدارتها انظر Chalandon , Histoire de La Premiere croisade , P. 175

Runciman , The crusades , 1/75.

ويذكر ابن الأثير ( الكامل ٩٢ / ١٠ ) أن رضوان استولى — بعد ذلك — على الرها عام ٤٨٨ = ١٠٩٥ م ، من هذا الأمير الأرمني الذي سماه ( الفارقليط ) ، وويمها لياغسيات أمير أنطاكيه ، فسلمها هذا وحصنتها . وربما كان سبب خلط ابن الأثير ومن نقل عنه ، أن كل من الرها وسروج كانتا تحت إمرة بوزان ، قبل أن يقتله تتش . كما أنه لم ترد في المصادر الموثوقة الأخرى ، إشارة إلى أن الرها أقطعت لسقمان .

القطاع . وما يؤيد ذلك أن تتش خلال زحفه على بلاد فارس لقتال ابن أخيه السلطان بركياروق ، كتب إلى ابنه الملك رضوان في حلب يأمره بالسير إلى العراق فيمن بقي من الاجناد في الشام ، وأن يقيم في دار الملكة في بغداد للتمهيد له فيها . فاتجه رضوان إلى بغداد وسار معه بعض الامراء وعلى رأسهم الامير إيلفاري بن أرتق<sup>(١)</sup> . وكان هذا قد توجه قبيل ذلك لمعاضدة تتش فتركه عند ابنه رضوان في حلب<sup>(٢)</sup> للاعتماد عليه عند الحاجة .

و قبل أن يصل رضوان وإيلفاري بغداد ، أتاهما الخبر بانكسار تتش في حربه مع بركياروق ومقتله (٤٨٨ = ١٠٩٥ م ) ، فاضطر رضوان وخاف من ملاحقة أنصار بركياروق له ، فأسرع عائداً إلى حلب ودخلها بعد صعوبة بالغة<sup>(٣)</sup> ، وخطب فيها لبركياروق . وقد أشار عليه ياغيسيان بن محمد التركاني صاحب أنطاكية ، بالتوجه إلى حصون ديار بكر لعدم وجود من يدافع عنها ، فاستجاب رضوان لرأيه وتقدم صوب المنطقة يصحبه عدد من أمراء الاطراف من كان تتش قد استعملهم عليها . ويظهر أن إيلفاري كان قد انسحب من قوات رضوان ، بدليل أن الهدف الأول لزحف الأخير على ديار بكر كانت سروج ، التي كان تتش قد أقطعها سقمان . فلما سمع هذا بذلك سبقهم إليها وقوى دفاعها ، واستبسّل في صدّ قوات رضوان عنها حين بلوغهم إليها ،

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ ، ابن الأثير ، الكامل ٩١/١٠ ، أبو الفدا ، المختصر ٢١٦ - ٢١٧ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٧/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ( مخطوطه ٢٢/٣/١ آ ).

(٢) ابن الأثير ، الكامل ٩١/١٠ .

(٣) ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ٩١/١٠ - ٩٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢١٦ - ٢١٧ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٧/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٢ -

واتبع خطة ملية حكيمية ، إذ أمر أهل البلد بالخروج إلى رضوان والتظلم إليه من جنده وإفسادهم في غلامتهم وأن يتلمسوا منه الرحيل ، فأجأهم رضوان إلى ذلك وغادر سروج<sup>(١)</sup> .

وأغلب الظن أن سبب استجابة رضوان لهذا الطلب يعود إلى موقف الأراثقة المساند له ولأبيه من قبل ، وإلى محاولته كسب الزمن والاستلاء على ما يمكنه من مدن ديار بكر وقلاعها ، قبل أن يبرز أمامه منافس جديد في المنطقة . وقد استطاع رضوان أن يضم إلى أملاكه مدينة الرهاشم حاول الاستلاء على حران<sup>(٢)</sup> ، لو لا حدوث انشقاق بين أمرائه اضطره للعودة إلى حلب<sup>(٣)</sup> .

ما لبث سقمان وإيلغازي أن وجدا نفسيهما مدفوعين ، دفعاً إلى الأسماء في أحداث الصراع الذي نشب بين رضوان ودقاق أبناء تتش السلاجوق<sup>(٤)</sup> ، ذلك الصراع الذي بدأ في أواخر عام (٤٨٨ = ١٠٩٥ م) ، إثر المحاولة التي قام بها رضوان للاستلاء على دمشق ، التي كان شديد الرغبة في ضمها إلى إمارته ، ربما لأنه أدرك أهمية موقعها الاستراتيجي بالنسبة للشام . فجمع قواه واستنجد

(١) ابن الأثير ، الكامل ٩١/١٠ - ٩٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢١٦ - ٢١٧ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٧/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٢ - ٣١٤ .

(٢) حران : قصبة ديار مضر على طريق الموصل والشام والروم (ياقوت البلدان ٢/٢٣٠ - ٢٣١) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٩١/١٠ - ٩٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٢ - ٣١٤ .

(٤) يشير كاهن في Enc. Isl. art: Artukids, New ed. إلى أن كلاً من سقمان وإيلغازي اشتراكاً ، بعد وفاة تتش ، في مساندة رضوان ضد أخيه دقاق . وهذا كاًسيتضخ مخالف لما أجمع عليه المؤرخون كابن حذيفي ونسوان في A history of the Crusades 11/11 في القول بأن الأراثقة ساندوا دقاق في صراعه ضد أخيه رضوان .

بالأمير سقمان ليسير معه إلى دمشق متسلحاً فرصة غياب دقادق وقواته وكبار أمرائه مثل إيلغازي وياغسيان عنها<sup>(١)</sup>. ومن أجل أن يعزز رضوان تحالفه مع سقمان ، أقطعه معرة النعمان<sup>(٢)</sup> وأعمالها ، ومن ثم توجهها صوب دمشق<sup>(٣)</sup> .

نزل رضوان وحليفه في ظاهر البلد ( ٤٨٩ = ١٠٩٥ ) ، وزحفاً من هناك للقتال ، فأغلق أهالي دمشق الأبواب وصدها<sup>(٤)</sup> . وسرعان ما بلغها أن دقادقاً قبض على إيلغازي واعتقله لتهمة نسبت إليه<sup>(٥)</sup> ، وأنه عائد إلى دمشق على رأس قواته . ففادر رضوان المنطقه بعد أن قام بأعمال تخريبية في جهات حوران<sup>(٦)</sup> أما سقمان فقد انفصل عنه واتجه إلى القدس واستقر هناك<sup>(٧)</sup> .

(١) ابن القلانيسي ، دمشق ص ١٣١ - ١٣٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطة ١/٢٢٢ آب ) .

(٢) معرة النعمان : مدينة مشهورة من أعمال حصن بين حلب وحمة ( ياقوت البدان ٤/٥٧٥ ) .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٣ / ١٢٤ ، بغية الطلب في تاريخ حلب ( مخطوطة ٨٨/٨ ظ ) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ( مخطوطة ١/٢٢٢ آب ) .

(٤) ابن القلانيسي ، دمشق ص ١٣١ - ١٣٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان مخطوطة ١/٢٢٢ آب ) .

(٥) ابن العديم ، زبدة حلب ١٢٤ / ٢ ، بغية الطلب ( مخطوطة ٨٨/٨ ظ ) . ولم يوضح ابن العديم طبيعة هذه التهمة ، وربما كانت بسبب قيام إيلغازي كعادته في إثارة المشاغبات والانقسامات في صفوف قوات دقادق .

(٦) ابن القلانيسي ، دمشق ص ١٣٢ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ( مخطوطة ١/٢٢٢ آب ) . وحوران: كورة واسعة من أعمال دمشق ذات قرى ومزارع كثيرة ( ياقوت بلدان ٢/٣٥٨ ) .

(٧) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٤ / ٢ ، بغية الطلب ( مخطوطة ٨٨/٨ ظ ) .

لم يتمكن رضوان من المعادة مباشرة الى حلب<sup>(١)</sup> ، خوفاً من أن يتصدى له دقاد وحلفاؤه في الطريق فرحل إلى نابلس على نية التوجه إلى القدس<sup>(٢)</sup> ليحتمي بحليفه سقمان . ولكن تخلي المساكير عنه<sup>(٣)</sup> ، وملاحقة دقاد وأنصاره له<sup>(٤)</sup> وإشراف جيشه على التلف ، اضطره للمعادة إلى حلب رغم ما في ذلك من مغامرة ، فوصلها في آخر ذي الحجة عام ( ٤٩٠ = ١٠٩٦ م )<sup>(٥)</sup> .

غادر سقمان القدس ، بعد فترة قصيرة ، عائداً إلى حلب عن طريق الصحراء خوفاً من مجاهدة قوات دقاد ، فوصلها في المحرم سنة ( ٤٩٠ = ١٠٩٦ م ) واجتمع بجناح الدولة ، مدير شؤون حلب ، واتفقا على مهاجنة بلاد ياغيسيان صاحب أنطاكية وحليفه دقاد<sup>(٦)</sup> . وكان ياغيسيان قد حسن للأخير حاصرة أخيه في حلب كرداً على مهاجنته لدمشق ، فأخذ دقاد يجمع قواته للتوجه إلى هناك مما اضطر رضوان إلى الاستنجاد بسقمان ، الذي سرعان ما قدم على رأس

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٥/٢ .

(٢) يذكر ابن الأثير في (الكامل ١٠٠/١٠٠) أن قصد رضوان من التوجه إلى القدس هو الاستيلاء عليها . وهذا الرأي خاطئ لأن القدس كانت آنذاك قاعدة لحليفه سقمان ، فضلاً عن أن رضوان كان في حالة هروب من أعدائه اضطره إلى التوجه إلى منطقة حليفه للاحتماء بها لا مهاجتها . كما أن المؤرخين الأكثر ثوثقاً في أحداث الشام كان القلافني (دمشق ص ١٣٢) وابن العديم (زبدة الحلب ١٢٥/٢) يخالفان ابن الأثير في وجهة نظره ولا يذهبان إلى ما ذهب إليه .

(٣) ابن الأثير الكامل ١٠٠/١٠ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٥/٢ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ابن القلافني ، دمشق ص ١٣٢ ، ابن الأثير الكامل ١٠٠/١٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٥ - ٣١٦ .

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٥/٢ .

عدد كبير من التركان<sup>(١)</sup> .

خرج دقاد من دمشق والتلى بمحليه ياغيسيان عند حماه في ربيع الأول عام ٤٩٠ م (١٠٩٧ م) وما أن توجه صوب المعركة حتى هرب منها أتباع سقمان ، فتقدم إليها ياغيسيان واستولى عليها . ومن ثم توجه ودقاد صوب حلب وأغارا على أعمالها . ويظهر أن رضوان لم يكفه ما لديه ولدى حلفائه - وبخاصة سقمان - من حشود كبيرة من التركان ، ولذا استنجد بسلیمان بن إيلفاري الذي كان مقيناً آنذاك في إقطاعه بسميساط<sup>(٢)</sup> ، فوصل إلى حلب على رأس جيش كبير . ومن ثم توجه رضوان وحلفاؤه للقاء دقاد ، فنزلوا في قنسرين<sup>(٣)</sup> ، وتم الاتفاق بين الطرفين على الاجتماع على نهر قويق ، وإجراء محادثات هناك للوصول إلى حل سلمي يحيط بهم القتال . إلا أن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة . وقال ياغيسيان لسقمان « هؤلاء الملوك يقتلون على ملوكهم .. أنت دخولك معهم لأي صفة؟ » فأجاب سقمان : « غالباً تبصر إيش أنا»<sup>(٤)</sup> ! وكان اللقاء في صبيحة اليوم التالي ، الخامس من ربيع الآخر ، حيث أبلى سقمان بلاء حسناً واستمرت المعركة إلى آخر النهار . وأسفرت عن هزيمة قوات أنطاكية ودمشق وهروب قادتها<sup>(٥)</sup> وعودة رضوان وحلفائه إلى حلب . ولم

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠٠/١٠ ، ابن خلدون ، العبر ٣١٥/٥ - ٣١٦ .

(٢) سميساط : مدينة على شاطئ الفرات الغربي في طرف بلاد الروم ولها قلعة يسكنها الأرمن (ياقوت ، بلدان ١٥١/٣ - ١٥٢ ) .

(٣) قنسرين : مدينة قريبة من حلب على الطريق إلى حمص (ياقوت ، بلدان ٤/١٨٥ ) .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٢٥/٢ - ١٢٦ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن الأثير ، الكامل ١٠٠/١٠ (اكتفى بالإشارة) ، التوبيري ، نهاية الإرب ، (خطوطة جزء ٢٥ ورقة ٢٤) .

بعض طويل وقت حتى تم عقد اتفاق بين الأخرين، ينص على أن يخطب لرضوان  
بدمشق وأنطاكية قبل دقائق<sup>(١)</sup>.

★ ★ \*

بعد الدور المهم الذي لعبه سقمان في معركة القويق ، أصبحت له الكلمة  
نافذة في سياسة رضوان ، حق فيما يتعلق بالأمور المهمة كالخطبة . إذ ورد إلى  
رضوان عام (٤٩٠ = ١٠٩٦ م) كتاب من المستعلي الفاطمي ، يلتمس فيه  
الدخول في طاعته ، فأجابه رضوان إلى ذلك وأقام الخطبة له ، على أمل  
التحالف مع الجيش الفاطمي ومهاجمة دمشق وانتزاعها من دقاد<sup>(٢)</sup> . وقد  
استمرت خطبة رضوان للفاطميين أربعة أسابيع<sup>(٣)</sup> وعند ذلك حضر لديه عدد  
من الأمراء على رأسهم سقمان وأنكروا عليه ذلك واستعظاموه ، فاستجاب لهم  
وأعاد الخطبة لل الخليفة العباسي<sup>(٤)</sup> ، وأرسل إلى بغداد يقتذر عما صدر منه<sup>(٥)</sup>  
وبهذا لم يعد الفاطميون ملزمين بتنفيذ التهديدات المالية وال العسكرية لرضوان .

ظل سقمان سندًا قوياً لرضوان ، وحليفاً من أبرز حلفائه ، وقد سار معه

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠٠/١٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٦ - ٣١٥ .

(٢) ابن القلانيسي ، دمشق ص ١٣٣ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١/٣٧٨ ، سبط ابن الجوزي ،  
مرآة الزمان ، (مخطوطه ٣٢٧/٢) ، التويري ، نهاية الإرب ، (مخطوطه ٢٤/٢٥) .  
ابن ميسير ، أخبار مصر ص ٣٨ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠٠/١٠ ، التويري نهاية الإرب ، (مخطوطه ٢٤/٢٥) .

(٤) ابن القلانيسي ، دمشق ص ١٣٣ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠٠/١٠ ، ابن ميسير ،  
أخبار مصر ص ٣٨ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١/٣٧٨ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ،  
(مخطوطه ٣٢٧/٢) . التويري ، نهاية الإرب ، (مخطوطه ٢٤/٢٥) .  
Gibb, Damascus chronicle, P. 25.

(٥) ابن الأثير ، الكامل ١٠٠/١٠ .

عندما توجه إلى حصن لقتال جناح الدولة الذي انشقَّ عن رضوان وخالقه . إلا أنهم ما أن اقتربوا منها حتى وردت الأخبار بتقدم قوة من الصليبيين إلى أنطاكية ، فطلب ياغيسيان الذي كان قد تحالف مع رضوان أخيراً ، أن يتوجهوا إلى هناك للقاء الصليبيين ، لكن سقمان عارضه في ذلك وقال : مسيراً إلى ديار بكر وأخذها من المقلبين عليها ، ونتقوى بها وأنزل أهلي بها ونعود إلى حصن ، أولى<sup>(١)</sup> فاختلفوا وعاد رضوان إلى حلب مغاضباً لها ( = ٤٩١ م ) ، وكان ذلك سبباً في انشقاق سقمان عن الأخير وانضمامه إلى دقادق<sup>(٢)</sup> .

وهكذا أعرب سقمان لخلفائه عن رغبته الملحة في الاستيلاء على ديار بكر ، والتخاذلها قاعدة عسكرية له في حروبه ضد أعدائه من جهة ، ومكاناً أميناً لاستقرار بنى أرتق من جهة أخرى . وتتمثل هذه الرغبة البدارة الأولى في سياسة بنى أرتق تجاه ديار بكر ، من حيث التخاذلها قاعدة لهم ومركاً لعملياتهم الحربية في المستقبل ، الأمر الذي تحقق لهم في مدة وجيبة . وربما أدرك سقمان ، وهو كبير العائلة ، عدم جدوى الاعتماد على القدس كمقر ثابت ، نظراً لوقعها قريباً من أطماع الفاطميين ، وقد تبين ذلك بوضوح بعد أشهر قلائل .

وبعد موقعة أنطاكية ضد الصليبيين عام ( = ٤٩١ م ) واندحار الأمراء المسلمين<sup>(٣)</sup> ، عاد سقمان إلى القدس ولحق بأخيه إيلفازي هناك ، ويظهر أن

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب / ١٢٩ - ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحات ، الطيابخ ، تاريخ حلب / ١ - ٣٧٧ .

(٣) انظر الفصل الثالث .

هذا كان قد أطلق سراحه من قبل دقاد الذي كان قد اعتقله في العام الماضي ، وأنه توجه إلى القدس إثر ذلك .

### مقطوٌ القديس :

لم تبق القدس بيدبني أرتق ، بعد ذلك ، سوى أشهر معدودات ، إذ كان الفاطميون في مصر يطمعون لإعادة الاستيلاء عليها باعتبارها قاعدة فلسطين ونقطة ارتكاز لمحاولة استرداد ما افتقدهم السلاجقة إياه . وسرعان ما استغلوا فرصة ضعف الأتراك وتخاذل أمرائهم ، إثر انحدارهم أمام الصليبيين عند انطاكية ومقتل عدد كبير منهم فسار أمير الجيوش المصرية ، الأفضل بن بدر الجمالي في شعبان (٤٩١ = ١٠٩٨ م ) ، على رأس قواته إلى القدس . وأدرك الأرثوذكسة أنه ليس بإمكان حليفهم دقاد تقديم المساعدة الفورية لهم ، ولكنهم اعتقدوا بأن تحصينات القدس العظيمة ، والمقدرة الحربية لقبائلهم التركمانية ، ستتمكنهم من الصمود حق تأييدهم النجدة من دقاد<sup>(١)</sup> ، أو أي من أمراء الشام السلاجقة أو الأتراك .

كان في القدس آنذاك معظم أمراءبني أرتق : سقمان وإيلغازي وابن عمها سونسج وابن أخيه ياقوتي<sup>(٢)</sup> ، وجماعة من أقاربهما ورجالهما وخلق كثير من الأتراك . وحاول الأفضل ، في البداية ، أن يتبع الأساليب السامية لتحقيق غرضه فراسل كلًا من سقمان وإيلغازي يلتمس منها تسليم القدس من غير

(١) Runciman, Crusades, 1/265—267.

(٢) ابن الأثير، الكامل ١٠٥/١٠ ، ابن العربي مختصر أخبار البشر ص ٤٢ ، أبو الفدا، المختصر ٤/٤٢١ ، ابن الوردي، تتمة المختصر ٤/١١ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٣ - ٤٤ ،

حرب ولا سفك دماء ، فلم يحييأه<sup>(١)</sup> . وعند ذلك بدأ بقتال البلد ونصب عليه عدداً كبيراً من المنجنيقات تكنت من هدم مواضع من سوره<sup>(٢)</sup> ، واستمر الحصار نيفا وأربعين يوماً<sup>(٣)</sup> ويظهر أن التركان قرروا الاستمرار في القتال ، لولا أن أهل القدس لم يكونوا يحيانهم ، إذ أرسلوا إلى الأفضل وواطئوه على فتح الباب وطلبو منه الأمان ، فاستجاب لهم<sup>(٤)</sup> ومن ثم دخل وقواته القدس بالأمان حيث أحسن إلى سكان وإيلغازي وأصحابها وأجزل لهم العطاء وأطلقهم ، فساروا إلى دمشق في العاشر من شوال سنة (٥٤٩١ م = ١٠٩٨ م)<sup>(٥)</sup> ،

(١) ابن القلافي ، دمشق ص ١٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن الأثير ، الكامل ١٠٥/١٠ ،

Runciman, Op. cit., 1/267.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠٥/١٠ ، Runciman, Op. cit., 1/267 .

(٤) ابن تفريبردي ، النجوم الزاهرة ٥/١٥٩ .

(٥) ابن القلافي ، دمشق ص ١٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠٥ / ١٠ ، ابن العبرى ، المختصر ص ٣٤٢ أبو الفدا ، المختصر ٢٢١/٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ١١/٢ ، ابن خلkan ( وفيات ٦١ ) ، الذهبي ، دول الإسلام ١٥/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤٣/٥ - ٣٨٨٠٤٤ ، ٤٦٣ - ٤٦٤ ، ابن ميسير ، أخبار مصر ٣٨ ، القرماني ، تاريخ ص ٢٧٨ ، ابن الشحنة ، روضة ١٨١/٨ ، سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ، ( مخطوطة ٢٢٧/٣ ) ، التوربي ، نهاية الأربع ، ( مخطوطة ٧٣/٢٦ ) ، ابن تفريبردي ، النهل الصافى ( مخطوطة ٤٩/٢ ) ، العيني ، عقد الجمان ( مخطوطة ٤٦/٥٠٥ - ٥٠٦ ) Inc, Isl. art: Sukman

Ibn ortok, by Zett ersteen, setton, A History of the crusades 1/31, Gibb, the caliphate, in setton 1/95, Grousset, Histoires des croisades 1/83-85.

بركلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ٢/٤٠٧ ، ( ترجمة البعلبكي وفارس ) ، حسن جبني. الحرب الصليبية الأولى ص ٣٨ . ويخطئ ابن الأثير والذين نقلوا عنه ، في إبراد هذه الحادثة عام ٩٤٨ م ، ذلك أنها حدثت بعد معركة أنطاكية عام ١٠٩٧ م = ٥٤٩١ م . وابن الأثير نفسه يشير إلى أن الفاطميين طمعوا في القدس بعد اندحار الأتراك على انطاكية ، وكذلك يخطئ ابن العبرى في جمل الحادثة عام ٩٤٢ م . ويدرك ابن تفريبردي ، ( النجوم الزاهرة ٥/١٥٩ ) أن سكان وإيلغازي خرجا بعد استسلام القدس ، من باب آخر واتجه كل منها إلى جهة . وهذا يخالف ما أجمع عليه المؤرخون من لقاء الأفضل لها وإحسانه إليها .

ثم ما لبثوا أن غادروا واتجها شرقاً ، فسار إيلغازي إلى بغداد<sup>(١)</sup> وأقام سقمان بصحبة أبناء عمومته في سروج والمقاطعات الحبيطة بديار بكر<sup>(٢)</sup> ، حيث يشكل التركان القوة التي انبثقت عنها العائلة الأرتقية<sup>(٣)</sup> .

### إيلغازي في بغداد :

غادر إيلغازي دمشق إلى بغداد ، ويظهر أنه كأمير م GAMER ، فقد سائر بقطاعه ، كان يطمح في ذهابه إلى هناك للحصول على بعض المكافآت لقاء خدمته لسلطين السلاجقة وكبار أمرائهم ، ومساندته بعضهم ضد البعض الآخر . وما أن وصل بغداد حتى كان الصراع بين السلطانين السلاجقويين المنافسين : محمد وبركياروق ، ابني ملكشاه ، قد بلغ حدّاً بعيداً ، وظل يتسع ويزداد تعقيداً حتى صفر عام (٤٩٣ = ١٠٩٩م) حينما تمكن بركياروق من دخول بغداد وإعادة الخطبة له في أنحاء العراق . وهنا كان على إيلغازي أن يحدد موقفه إزاء هذا الصراع ، سيما بعد أن كان السلطان محمد قد أعاد إليه عام ٤٩٢ هـ إقطاع أبيه السابق في حلوان شرقي العراق ، فرأى أن يقف إلى جانب السلطان الذي أنعم عليه ، وأعلن اندضامه إلى كوهريين شحنة<sup>(٤)</sup> محمد

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠٥/١٠ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ( مخطوطة ١/٢٢٧ آ ) ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ( مخطوطة ٤٩٦/٢ ) .

Runciman, Op. cit. 1/267.

(٢)

Inc. Isl art: Artukids, by c. cahen (New ed.)

(٣)

(٤) الشحنة : وظيفة استحدثها السلاجقة وهي أشبه ما تكون بالحاكمدار ( أو المحافظ ) في عصرنا الحاضر ، يعين صاحبها من قبل السلطان مباشرة ، ويتمتع بسلطات بوليسية وإدارية ، وهو المسؤول عن إدارة البلد وملائحة الخارجيين على النظام ( حسين أمين : نظام الحكم في المدرسة السلاجقية ، مجلة سومر ، مجلد ٢٠ ، سنة ١٩٦٤ ) .

في العراق ، وما لبث أن انضم إلى هذا التحالف عدد من كبار أمراء الدولة السلاجوقية ، وأرسلوا إلى محمد يستحقونه على التوجه صوب بغداد ، لكنه يعملوا سوية على استعادة سلطنته على العراق ، فأسرع هذا بتعزيزهم بعدد من ولاته في شمال العراق ، وعلى رأسهم كريوقا حاكم الموصل . إلا أن تأخر محمد عن التقدم إلى بغداد ، وتسويقه في الاستجابة لنداء أنصاره دفع هؤلاء إلى أن يقبلوا له ظهر الجن وأن يعلنوا طاعتهم للسلطان بركياروق ، وتم الاتفاق بين كوهريين وإيلفازي وبقية الأمراء على أن يصدروا في مواقفهم وانتفاء اتهم السياسية عن رأي واحد وألا يختلفوا ، وكتبوا إلى بركياروق أن يخرج إليهم ، فليس ثمة من يقاتله منهم بعد إذ لم يظفروا من أخيه بطائل . وكان بركياروق ينتظر فرصة كهذه فأسرع بالتوجه إليهم حيث ترجلوا أمامه ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وعادوا سوية إلى مقر السلطنة في بغداد<sup>(١)</sup> . وقد تكون إيلفازي ، بعد وقت قصير ، من إنقاذ وزير بركياروق من محاولة لاغتياله قام بها أحد أنصار السلطان محمد<sup>(٢)</sup> .

استمر الصراع بين الأخوين ، ولم يمض سوى وقت قصير على استتباب الأمر في العراق لبركياروق ، حتى بدأت الكفة ترجح لصالح أخيه ، وكان إيلفازي كان ينتظر أن تأخذ الأحداث هذا الاتجاه ، بعد إذ لم يحصل من بركياروق على أي مكاسب نتيجة انتصاره إليه وطاعته له ، ولذلك فإنه سرعان ما عاد ثانية إلى تأييد السلطان محمد ، وخرج من إقطاعه في حلوان في ذي الحجة من عام (٥٤٩٤=١١٠١ م ) ، على رأس قواته لاستقبال السلطان وعمه سنجر لدى مرورهما في المنطقة في طريقهما إلى بغداد ، حيث أحسن خدمتها

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠٩/١٠ ، الغارقي ، تاريخ مغارقين ( مخطوطة ١٥١ أ ب ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١١/١٠ .

وأكَدَ لهما طاعته. وفي بغداد جرت مناوشات بين الطرفين المتنازعين ، أُسْفِرَت عن انسحاب بر كياروق إلى واسط ودخول محمد وأنصاره بغداد حيث رحب به الخليفة وخطب له فيها بعد أن كان قد عانى الامرين من سوء سيرة بر كياروق<sup>(١)</sup> .

وَمَا لَبِثَ الْأَخْوَانُ أَنْ وَقَعَا صَلْحًا – بِحُضُورِ عَهْمَاهَا – يَقْضِيُّ أَنْ يَكُونُ الْعَرَاقُ ضَمِّنَ سُلْطَنَةِ بر كياروق ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُمُ الدَّرْجَةُ الْمُعْلَى فَارسًا وَأَذْرَبِيجَانَ وَالْمُوَصَّلَ وَالْمَغْرِبَةَ ، وَأَنْ يَمْدُهُ بر كياروق بِالْعَساَكِرِ كَلْمًا احْتَاجَ إِلَيْهَا ، وَمِنْ ثُمَّ غَادَرَ مُحَمَّدٌ وَعَمِّهِ بَغْدَادَ فِي مَطْلَعِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ عَامٍ (٤٩٥ هـ = ١١٠٢ م) ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ عَيْنَ إِيلْفَازِي شَحْنَةً عَلَى الْعَرَاقِ<sup>(٢)</sup> .

لَمْ يَقْمِ إِيلْفَازِي بِعَهْمَاهِ مَنْصَبِهِ الْجَدِيدِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ ، وَبِدَلَّا مِنْ أَنْ يَسْعَى إِلَى نَسْرِ الْآمِنِ وَالْاسْتِقْرَارِ فِي مَنَاطِقِ شَحْنَكِيَّةِ ، وَاجْتِنَاثِ أَسْبَابِ الْفَتْنَةِ وَالْفَسَادِ فِي الْمَحَافَئَةِ ، صَرَّنَا بِنَجْدِهِ يَبْذِلُ جَهْدَهُ لِاستِقْلَالِ هَذِهِ الْفَتْنَ وَذَلِكَ الْفَسَادُ مِنْ أَجْلِ مَصَالِهِ وَرَغْبَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ ، الْأَمْرُ الَّذِي زَادَ مِنْ تَدْهُورِ الْأَوْضَاعِ ، وَعَرَضَ بَغْدَادَ وَالْمَنَاطِقِ الْوَسْطَى مِنَ الْعَرَاقِ إِلَى سَلْسَلَةِ طَوِيلَةِ مِنِ الْمَشَاكِلِ وَالْأَنْسَرَابَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ وَالْاَقْتَصَادِيَّةِ وَالْطَّائِفَيَّةِ ، وَافْتَقَدَ الْآمِنَ ، وَغَدَتِ الْمَنْطَقَةُ بِجَاهِهِ لِتَجُولِ وَاسْتِغْلَالِ الْقَوْيِ وَالْجَمَاعَاتِ الْقَادِرَةِ عَلَى حَمْلِ السَّلَاحِ وَاسْتِخْدَامِهِ .

وَابْرَزَ تِلْكَ الْفَتْنَ تِلْكَ الْقِيَ شَهِدَتْهَا بَغْدَادُ فِي رَجَبِ مِنْ نَفْسِ الْعَامِ ، أَيْ بَعْدِ أَشْهَرِ

(١) المَصْدُرُ السَّابِقُ ، ١١٥/١٠ ، أَبْنَ خَلْدُونَ ، الْعِبْرُ ٥/٥٣ - ٥٤ .

(٢) أَبْنُ الْأَثِيرِ ، الْكَاملُ ، ١٠/١٢٢ - ١٢٣ ، وَيُشَيرُ أَبْنُ خَلْدُونَ ، (الْعِبْرُ ٥/٥٦ - ٥٧) خَطَا إِلَى أَنْ بر كياروق عين أبا المعالي شحنة في بغداد .

قلائل من قولي إيلغازي منصب الشحنكية ، والتي نشبت بين قوات إيلغازي وبين أهالي بغداد إثر مقتل أحدهم ، وذهب ضحيتها عدد كبير من القتلى ، حتى إن الرغبة بالانتقام دفعت إيلغازي إلى أن يجمع أنصاره من التركان ، ويقدم لنذهب الجانب الغربي من بغداد ، لولا توسط الخليفة وكياروقي<sup>(١)</sup> ، الامر الذي دفع هذا إلى إرسال كمشتكين القيصري ، أحد اتباعه ، في مطلع عام (٤٩٦ م = ١١٠٢ ) ، ليحل محل إيلغازي في منصب الشحنكية ، فلما سمع هذا بذلك أرسل إلى أخيه سقمان بديار بكر يستدعيه وقواته ليتصدّى به في مجاهدة الشحنة الجديد ، ثم ما لبث أن توجه إلى الحلة ، جنوب بغداد ، والتقي بأميرها المزيدي سيف الدولة صدقة حيث عقد معه حلفاً ثائياً ، غرضه العمل المشترك في مقاومة كل من يسعى إلى دخول بغداد . وقف إيلغازي عائدًا بعد نجاح مهمته<sup>(٢)</sup> .

تقدّم سقمان على رأس قواته وعسكر في منطقة الرملة شمالي بغداد ، أما كمشتكين (الشحنة الجديد) فقد وصل قرطيسين ، جنوب بغداد ، في مطلع ربیع الاول (٤٩٦ هـ) وأرسل من هناك إلى أنصار برکياروقي يعلمهم بقرب وصوله ، فتوجه إليه جماعة منهم واطلعوه على أوضاع بغداد وأشاروا عليه بضرورة الإسراع ، فأغذى السير وتمكن من دخول بغداد في منتصف الشهر نفسه ، وكرد انتقامي على ذلك قام إيلغازي وأخوه سقمان بنذهب المناطق الشمالية من بغداد ، فتعقبهما قوات كمشتكين ثم قفلت عائدة دون حدوث

(١) الكامل ١٢٦/١٠ .

(٢) الكامل ١٣١/١٠ .

(٣) الكامل ١٣٢/١٠ - ١٣٣ .

أي اشتباك بين الطرفين . وأرسل كمشتكين إلى أمير الحلة يطلب منه الدخول في طاعة بركياروق ، فرفض هذا طلبه ، وأمرع بالتقدم صوب بغداد على رأس قواته ، تنفيذاً لما نصّ عليه تحالفه مع إيلغازي ، وأرسل إلى هذا وأخيه يعلمها بتقدمه لنصرتها ، وما أن تم اجتماع الطرفين حتى قاما بعمليات نهب وتخريب شملت مناطق واسعة من بغداد ، وألقت الرعب في قلوب أنصار بركياروق وشحنته الجديد ، « وبطلت معيش الناس وارتقت الأسعار إلى ثلاثة أضعافها » ، الأمر الذي دفع الخليفة إلى أن يرسل كبار رجالاته إلى أمير الحلة يأمره بالكف عن عبته ويطلعه على مدى تدمير الأهالي من انتشار الفتنة والخراب ، فاستجاب لهذا لطلب الخليفة شرط أن يتم إبعاد كمشتكين عن بغداد « وإلا فليس غير السيف » !!<sup>(١)</sup>

وفي الثاني عشر من ربیع الآخر غادر كمشتكين بغداد ، فعاد أمير الحلة إلى بلده ، وأعيدت الخطبة للسلطان محمد ، بعد أن كانت قد اوقفت طيلة أيام الفتنة ، وما لبث إيلغازي وحليفه المزيدي أن قضيا على محاولة قام بها كمشتكين ، لدى انسحابه للسيطرة على واسط ، وأعادا الخطبة فيما للسلطان محمد ، وأناب كل منها أحد ابنائه فيها ثم قفل عائدين ، حيث وجه أمير الحلة ابنه الأصغر بصحبة إيلغازي كي يسأل الخليفة الرضا عنه بعد الفتنة التي كانت قد أثارها في بغداد ، فأجابه الخليفة إلى سؤاله<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

بعد جولة أخرى من الصراع على السلطة بين السلطانين بركياروق ومحمد ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٣٢ - ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

تم عقد صلح بينها في ربيع الآخر عام (٤٩٧ م = ١١٠٤ ) ، وكانت بنوده شبيهة بتلك التي تم الاتفاق عليها قبل سنتين . وما أن وصلت رسائل بركياروق إلى الخليفة (المستظهر) لتخبره بالصلح وبنوده ، حتى حضر إيلفازى إلى ديوان الخلافة وطالب بضرورة الإسراع باقامة الخطبة لبركياروق ، الذي تأكّدت سلطنته على العراق بوجب الصلح الأخير ، فأجّب إلى ذلك وأعلنت الخطبة للسلطان المذكور في التاسع عشر من جمادى الأولى ؟ وعندما علم أمير الحلة بذلك أرسل إلى الخليفة يقول « كان أمير المؤمنين ينسب إلى كل ما يتجدد من إيلفازى ، من إخلال بواجب الخدمة وشرط الطاعة » ، ومن إطراح المراقبة ، والآن فقد أبدى صفتـه لسلطاني (محمد) الذي استنابه ، وأنا غير صابر على ذلك ، بل سأسيء لإخراجـه عن بغداد ». فلما سمع إيلفازى ذلك شرع في جمع أتباعـه من التركان ، وما أن وصلـ أميرـ الحلةـ بـ بغدادـ وأعلنـ طاعـتهـ للـ الخليـفةـ ، حقـ فـارـقـ إـيلـفـازـيـ بـبغـدادـ شـرقـاـ ، خـوفـاـ منـ حدـوثـ صـدامـ بـيـنـ الـ طـرـفـيـنـ ، وأـرـسلـ مـنـ هـنـاكـ يـعـتـذرـ لـأـمـيرـ الـ حـلـةـ عـنـ طـاعـتـهـ لـبرـكـيـارـوـقـ ، وـيـعـلـمـ بـأـنـ الصـلـحـ قـدـ تـمـ بـيـنـ هـذـاـ وـأـخـيـهـ وـأـنـ اـقـطـاعـهـ فـيـ حـلـوانـ هـوـ ضـمـنـ أـمـلاـكـ بـرـكـيـارـوـقـ ، هـذـاـ فـضـلـاـ عـنـ أـنـهـ كـشـحـنـةـ فـيـ بـغـداـدـ حـتـّـمـ عـلـيـهـ اـتـخـاذـ هـذـاـ الـمـوـقـفـ ، فـاقـتـنـعـ أـمـيرـ الـ حـلـةـ بـوجـهـ نـظـرـ حـلـيقـ وـقـفـلـ عـائـدـاـ إـلـىـ مـقـرـ إـمـارـتـهـ<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

حدثـتـ ، خـلالـ فـتـرةـ شـحنـكـيـةـ إـيلـفـازـيـ ، فـتـنـ وـمـشاـكـلـ دـاخـلـيـةـ عـدـيدـةـ ، دونـ أـنـ يـتـخـذـ إـزـامـهـ أـيـ إـجـرـاءـ صـارـمـ . وـأـبـرـزـهـ ذـلـكـ الـحـرـيقـ الـذـيـ شـهـدـهـ

(١) المـصـدرـ السـابـقـ ١٣٨/١٠ - ١٣٩ـ ، ابنـ خـلـدنـ ، الـعـبـرـ ٥ـ /ـ ٦٩ـ - ٦٩ـ .

بغداد عام (٤٩٥ = ١١٠١ م ) ، والذي أتى على أسواق عديدة وأتلف  
أموالاً عظيمة<sup>(١)</sup> والغلاء الذي عم بغداد من جراء الاضطرابات التي شهدتها في  
العام التالي<sup>(٢)</sup> ، وأعمال السلب والنهب التي قام بها أهالي العاصمة للزارع  
والبيوت ، بحيث اضطرب عدد من السكان إلى الانتقال من الجانب الغربي إلى  
الجانب الآخر ، والاتجاه إلى دار الخلافة<sup>(٣)</sup> ، والفتنة التي أثارها ينال بن  
أنوشكين ، أحد أمراء التركان (٤٩٦ = ١١٠٢ م ) ، حيث أفسد القرى  
وفرض عليها أنواعاً إجبارية ، واحتجز سفراً تابعاً لل الخليفة وفرض عليهم  
الضرائب ، وهدم عدداً من الأسواق التي كان السلاجقة قد عمروها وأنفقوا  
عليها الأموال الجمة<sup>(٤)</sup> .

وفي العام التالي اضطرت الشرطة إلى الانسحاب من الجانب الغربي لبغداد ،  
بسبب استيلاء العيارين عليه ، ولم يتمكن الشحنة من إيقاف هؤلاء عند حدودهم ،  
فكأنوا يدهون الضعفاء فيسلبونهم ويحرقون بيوتهم . ولم يكتف إيلغازى  
الشحنة بالتخاذل موقف سلي تجاه هذه الفتنة ، بل قرر استغلال ما أحدثته من  
اضطرابات في القيام بنهب الناس والحصول على الثروة ، ولما علم أغنياء بغداد  
بما يبيته إيلغازى ، تقدموا بشكوى إلى ديوان الخليفة وتم الاتفاق على تقسيط  
مبلغ من المال على الأهالي يدفع للشحنة « فأهلك ذلك الضعفاء وقصدوا الأماكن  
يستحبون الناس »<sup>(٥)</sup> .

(١) المصدر السابق ١٣١/٩ - ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ١٣٤/٩ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ١٣٥/٩ .

(٥) المصدر السابق ١٣٧/٩ - ١٣٨ ، ابن الأثير ، الكامل ١٤١/١٠ .

وهكذا نجد أن إيلغازي لم يقم بتنفيذ الالتزامات التي ألقها على عاته وظيفته كشحنة ، وراح يشارك في إثارة الفتنة ونشر الظلم حتى أن الناس « تأذوا به » ، كما ذكر ابن الجوزي <sup>(١)</sup> .

ويظهر أن إيلغازي غير سياسه السلبية هذه منذ أن أعلن ولاده للسلطان بركياروق ، الذي غدا العراق ضمن سلطنته ، وبهذا عادت وظيفة إيلغازي إلى وضعها الطبيعي . ففي عام ( ٤٩٨ = ١١٠٤ م ) ، عظم فساد الترکان في جهات العراق الشرقية ، وكانوا قد اعتادوا نهب الأموال وقطع الطريق . وما أن دخلت السنة المذكورة حتى جاوزوا في أعمالهم كل حد ، فقام إيلغازي بإجراء صارم لإيقافهم عند حدم ، إذ عين ابن أخيه القوي ( بلک بن بهرام ) على تلك المنطقة وأمره « بمحفظتها وحياطتها ومنع الفساد عنها » ، فأدى بذلك واجبه على أحسن ما يمكن وحمى المنطقة وكف عنها الأيدي المتطاولة <sup>(٢)</sup> .



بذل إيلغازي جهده في مساندة سلطانه بركياروق ، وتوجه في مطلع عام ( ٤٩٨ = ١١٠٤ م ) إلى أصفهان ، لمقابلته وحثه على التوجه إلى بغداد ، رجاءً لأنه شعر بأن هنالك من يدبر شيئاً ضدك ، واستجواب السلطان له وتوجه بصحبته إلى هناك ، ولكنه ما لبث أن توفي في الطريق ، فظل إيلغازي بعد ذلك ملخصاً لولده ملكشاھ ، حيث سار معه حق قدموا بغداد ، على رأس خمسة آلاف فارس ، وخرج لاستقبالهم الوزير أبو القاسم بن جهير ، وما لبث إيلغازي أن توجه إلى ديوان الخلافة وطلب إقامة الخطبة لملكشاھ بن بركياروق ،

(١) المنظم ١٣٧/٩ - ١٣٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٤٨/١٠ .

فأجيب إلى ذلك وخطب للأمير السلجولي المذكور<sup>(١)</sup> .

ولكن السلطان محمد سرعان ما تقدم على رأس قواته إلى بغداد ، وبعده مقاومة غير مجده من أمرائها تم عقد الصلح وخطب له بوجبه هناك<sup>(٢)</sup> ، ثم ما لبث أن غادر بغداد بعد أن عزل إيلفازي عن شخنكتيتها وعيّن بدلها آق سنقر البرسقي<sup>(٣)</sup> ، فترك إيلفازي العراق متوجهًا صوب ديار بكر . وبهذا أنهى مرحلة مهمة من حياته السياسية والعسكرية ، أوضحت إلى حد كبير طبيعة التكوين النفسي لكثير من أمراء ذلك العهد ، الذين كانوا يخوضون الفتن ويقودون المغامرات بالحق والباطل ، للحصول على مكاسب سياسية وعسكرية ، أو لتوسيع أملاكهم وإقطاعاتهم . وعلى أية حال فمن الإنصاف لإيلفازي القول بأنه بقي مخلصاً منذ بداية عمله في بغداد للسلطان محمد رغم المخاطر التي تعرض لها منصبه ، وأنه عندما أعلن ولاده لبركياروق ، أخلص له هو الآخر ولابنه من بعده ، وقد كلفه ذلك منصبه في بغداد وإقطاعاته في العراق كحلوان وغيرها فور إقالته ومفادرته العراق إلى ديار بكر .

ـ سقمان مؤسس أولى الامارات الأرتقية في ديار بكر :

أما سقمان بن أرتق - أخو إيلفازي - الذي كان قد اتجه إلى سروج بعد احتلال الفاطميين للقدس عام (٤٩١ = ١٠٩٧ م) ، فقد بدأ من هناك نشاطاً عسكرياً وسياسياً واسع النطاق استطاع بواسطته أن يحقق هدفه الرئيسي ، وهو اتخاذ بعض المراكز الرئيسية في ديار بكر نقاطاً للاستقرار والتجمع ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٤٢/١٠ - ١٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ٧١ - ٧٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٤٤/١٠ - ١٤٥ .

(٣) ابن الجوزي ، المنظم ١٤٣/٩ ، ابن خلدون ، العبر ٤٦٨/٥ - ٤٦٩ .

وتوجيهه الضربات ضد منافسيه ، فضلاً عن أنه استطاع بهذه النشاط أن يسمم في تشكيل أحلاف وتكلفات إسلامية تهدى بحق المواجهات المنظمة الأولى للصلبيين<sup>(١)</sup> . وكان سقمان يعتمد في كل ذلك على قابليته الشخصية ومهارته العسكرية الفائقة ، إذ كان « حازماً داهياً ذا رأي »<sup>(٢)</sup> ، كما كان يعتمد على العدد الضخم من أتباعه الترکان ، هذا العدد الذي كانت تونه دائماً القوى الترکانية ، في مناطق ديار بكر والفرات وشمال الشام وجنوبي الأناضول ، باعتبار أن سقمان - وأباه من قبله - كانا زعيدين كبيرين من زعماء الترکان في هذه المناطق .

حاول سقمان منذ البدء أن يؤمن ظهره ويستند إلى حليف قوي كي يتفرغ لتوجيهه ضرباته في ديار بكر ، فحالفاً حكام دمشق وقدم لهم خدماته<sup>(٣)</sup> طيلة السنين التي أعقبت خروجه من القدس ( ٤٩١ - ٥٤٩٥ = ١٠٩٧ - ١١٠١ م ) ، وكان خلال هذه الفترة ينتهز الفرص للتتدخل في أحداث ديار بكر . وفي عام ( ٤٩٥ = ١١٠١ م ) ، توفي كربوقا حاكم الموصل في ( خوى ) في بلاد فارس ، بعيداً عن إماراته ، فسار ( سنقرجة ) كبير أمرائه على رأس القسم الأكبر من قواته إلى الموصل لتسليمها ، ولكن أعيان البلد كاتبوا موسى الترکاني ، وكان آنذاك نائباً عن كربوقا في حصن كيفا ، ودعوه ليسلموا إليه البلد ، وسرعان ما تمكن هذا من القضاء على سنقرجة ودخول الموصل . وما أن سمع شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر بذلك ، حتى زحف على نصبيين واستولى عليهما ففقد موسى إليه لكي يضطره إلى الانسحاب ، فلما تقارب

(١) انظر الفصل الثالث .

(٢) ابن الأثير الكامل ، ١٤٦/١٠ ،

(٣) ابن شداد ، الأعلاق ، ( مخطوطة ، ورقة ١٠٠ ) .

العسكران غدر جنده به وانضموا الى جكرمش فهرب موسى الى الموصل وتحصن بها ، وهنالك حاصره جكرمش فترة طويلة ، فاضطر الى الاستعوانة بسقمان الذي كان حينذاك في ديار بكر وعرض عليه إعطاءه حصن « كيفا » وعشرة آلاف دينار مقابل إنجاده فأجابه سقمان وتوجه إليه ، مما اضطر جكرمش الى الانسحاب عن الموصل ، فخرج موسى لاستقبال سقمان ولكن بعض علمائه ما لبثوا أن اغتالوه في الطريق فتشتت أصحابه ، وانقلب سقمان مسرعاً إلى حصن « كيفا » فاستولى عليه ، بينما تقدم جكرمش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب أهاليها<sup>(١)</sup> ، وهكذا تم لسقمان الحصول على أحد المراكز الحصينة في ديار بكر لاتخاذها قاعدة لتوسيع ممتلكاته هناك ، وما لبث أن أضاف إليها بعد قليل حصن دارا القريب منها<sup>(٢)</sup> وسيطر على بعض المقاطعات في أقصى الشمال<sup>(٣)</sup> .

في السنة التالية ( ٤٩٦ = ١١٠٢ م ) ، ساعدت الظروف سقمان على الاستيلاء على مدينة أخرى من أهم مدن ديار بكر وهي : ماردين ، إذ كان كربوقا حاكماً للموصل قد قصد آمد - قبيل وفاته - وحارب صاحبها ينان التركاني ، فاستنجد هذا بسقمان فأنجده ، والتقى بكربوقا حيث أُسفر القتال عن هزيمة سقمان وأسر ابن أخيه ( ياقوتي ) الذي اعتقله كربوقا بقلعة ماردين ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢٧ / ١٠ - ١٢٨ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ١٣ / ٢ - ١٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٦١ - ٦٢ و ٤٦٣ - ٤٦٤ ، ابن شداد ، الأعلاق ( ورقة ١٢٧ ب - ١٢٨ ) ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٢٦ ، ( باختصار ) ، الصانع ، تاريخ الموصل ص ١٥٥ .

(٢) ابن شداد ورقة ٤ ب .

وكان صاحبها ( ويدعى بلا كسرى ) مفنياً للسلطان بركياروق فطلب منه ماردين وأعمالها فأقطعه إياها ، وبقي يأقونى في حبسه فترة من الوقت ، فمضت زوجة أرتق إلى كربوقا وسألته إطلاقه فأجابها إلى ذلك ، ورأى يأقونى أن ينزل قريباً من ماردين ، إذ كانت قد استوطنه ، ويسعى من هناك وبشق الطرق للاستيلاء عليها بما عنده من الترکان .

وكان الأكراد المنتشرون في أطراف ماردين ، قد طمعوا في صاحبها المفقى وأغاروا على أعمالها مراراً عديدة ، فراسله يأقونى يقول : « قد صار بيننا مودة وصداقة ، وأريد أن أعمل بذلك بأن أمنع عنه الأكراد وأغير على الأماكن ، وآخذ الأموال وأنفقها في بلدك ، وأقيم في الريض » فأذن له المفقى في ذلك ، ومن ثم أخذ يأقونى يقوم بإغارات مستمرة في أماكن واسعة من ديار بكر ، وراح ينضم إليه بعض أجناد قلعة ماردين طلباً للغنيمة فأخذ هو يكرهم وينهيم ولا يعترضهم شيء ، فاطمأنوا إليه . واتفق في إحدى الفارات أن انضم إليه عدد من جند القلعة ، فلما عادوا أمر يأقونى بالقبض عليهم وتقييدهم ، ثم سبقهم إلى القلعة ونادي أهلهم أن يفتحوا له الأبواب وإلا ضرب عنانهم ، فلم يحببوه ، فقتل أحدهم ، وحينذاك خافوا تتنفيذ تهديده وفتحوا له الأبواب ، فدخلها واستولى عليها ، وأخذ من هناك يجمع الجموع وينغير على المناطق المجاورة ، إلا أنه لم يلبث أن قتل في إحدى غاراته على جزيرة ابن عمر التابعة لجكermesh ، فمضت زوجة أرتق إلى ابنها سقمان وجنت الترکان وطالبت بثأر حفيدها ، فتوجه سقمان إلى نصبيين التابعة لجكermesh وحاصرها ، فبعث إليه هذا سراً مبلغاً ضخماً من المال ليرحل عن نصبيين ، فاستلمه سقمان وغادر المكان مبرراً ذلك بأن يأقونى قتل في الحرب ولا يعرف قاتله . وكان ( علي ) أخو يأقونى قد تولى ماردين بعد مقتل شقيقه ، وأعلن طاعته لجكermesh ، وما لبث أن غادرها

مستخلفاً فيها أميراً اسمه (علي) أيضاً ، فارسل هذا الى سقمان يقول له : « إن ابن أخيك يريد أن يسلم ماردین الى جكرمش ». فأسرع سقمان بالتوجه اليها وتعكن بسمولة من الاستيلاء عليها عام (٤٩٦ = ١١٠٢ م ) ، وحينذاك تقدم اليه (علي) ; ابن أخيه طالباً إعادة القلعة ، فأجابه سقمان بأنه استولى عليها تقوية للإماراة الأرتقية ، وأقطعه إقليم جبل الجور الذي كان قد استولى عليه قبيل ذلك ، ونقله إليه <sup>(١)</sup> .

وكان ياقوت قد استولى على رأس العين <sup>(٢)</sup> خلال غاراته على بلاد جكرمش عام (٤٩٦ = ١١٠٢ م ) ، وبقيت في يده إلى أن قتل فانتقلت إلى سقمان <sup>(٣)</sup> .



وهكذا استطاع سقمان خلال ستين فقط ، أن يستولي على عدد من أهم المراكز العسكرية والاقتصادية في ديار بكر وبخاصة حصن (كيفا وماردين) اللذين أصبحا فيما بعد قاعدتين لإماراتي ماردین وحصن كيفا ، حيث حكم كلا منها فرع من فروع البيت الأرتقي . وعلى ذلك يعتبر سقمان مؤسس الكيان

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٤٦/١٠ - ١٤٧ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٢/١٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٧٥ - ٤٦٦ ، ابن شداد ، الأعلان (قسم الجزيرة ، مخطوطة ، ورقة ٤٣ ب ) .

Cahen. Syrie du Nord 1/237.

وجبل جور : كورة كبيرة بين ديار بكر وأرمينيا (ياقوت ، بلدان ٢٠/٢) .

(٢) رأس العين : مدينة كبيرة في ديار بكر قربة من نصبيين ، تكثر فيها مياه العيون (ياقوت ، بلدان ٧٣١/٢) .

(٣) ابن شداد ، الأعلان (مخطوطة ٤٣ ب ) .

الأرتقي في ديار بكر ، بما بذلكه من نشاط في هذا المجال ، وباعتباره أول من أكد على أهمية هذه المنطقة كقاعدة لاستقرار بني أرتق<sup>(١)</sup> فضلاً عن أن الأرانتقة لم يشهدوا وحدة إماراتهم في ديار بكر إلا في الفترة القصيرة التي حكم فيها سقمان (٤٩٦ - ٥٤٩٨ = ١١٠٢ - ١١٠٤ م ) ، وما أن توفي حتى انقسمت ممتلكاتهم هناك إلى إمارتي ماردين وحصن كيما كما يتضح عما قليل .

وبعد أن ضم سقمان عدداً من أهم مدن ديار بكر ، رأى أن يتبع سياسة ودية تجاه الأمراء هناك كي يثبت مركزه في المنطقة ، فجربنا استولى قلعة أرسلان ، سلطان سلاجقة الروم ، على ميافارقين عام (٥٤٩٨ = ١١٠٥ م ) ، بدعوة من أهاليها ، حضر لديه ، لتقديم الطاعة ، معظم أمراء ديار بكر وكان سقمان من بينهم<sup>(٢)</sup> .

لم يستمر سقمان في الحكم ، بعد ذلك طويلاً ، إذ توفي في صفر من نفس العام (٥٤٩٨ = ١١٠٤ م ) ، في القرىتين على طريق دمشق ، وكان على رأس حملة اتجه بها لنجدة صاحب طرابلس ضد الصليبيين ، فمرض في الطريق وأشار أصحابه عليه مراراً ، بالعودة إلى حصن كيما - مقر إمارته - ولكن رفض طلبهم ، وبعد وفاته حمله ابنه إبراهيم وعاد به بصحبة قواته ، إلى كيما<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر ابن العديم ، زينة الحلب ١٢٩/٢ - ١٣٣ ،

(٢) الفارقي ، تاريخ ميافارقين (القسم المنشور ص ٢٧٢) ، ابن شداد ، الأعلاق (خطوطة ٢٠٠ - ب) .

(٣) ابن القلاني ، دمشق ص ١٤٦ - ١٤٧ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٤٥ - ١٤٦ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٢٩/٢ - ٢٣٠ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ٢ / ١٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٧٥ - ٧٧ و ٤٦٨ ، وانظر سامي ، قاموس الأعلام التركي ٤/٢٢٨٥ - ٢٢٨٦ ، القرماني ، تاريخ ص ٢٧٨ ، سبط ، (خطوطة ٢٥٣/٣/١ ب) .

## انقسام الأرادة ودور إيلغازي :

وكان إيلغازي – الذي خلع ذلك العام من شحنة ببغداد – قد وصل إلى ديار بكر في هذه الفترة، واستطاع أن يضع يده على ماردين<sup>(١)</sup> وبعض الحصون الأخرى الأخرى كرأس العين<sup>(٢)</sup>، أما حصن كيما فصار لإبراهيم بن سقمان ، وما لبث هذا أن توفي فعليكه بعده آخره داود<sup>(٣)</sup> .

ومنذ هذه الفترة انقسمت إمارة الأرادة في ديار بكر إلى قسمين ، غدت ماردين قاعدة أولاهما حيث حكم إيلغازي بن أرتق وأبناؤه من بعده ، وغدا حصن كيما قاعدة آخرها وحكم فيه أبناء سقمان بن أرتق ، وكان يتبع كلًا من هاتين الإمارتين عدد من الحصون والقرى ، التي كانت تتسع وتتقلص حسب قوة الأرادة وضعفهم من جهة ، وحسب الظروف العامة في المنطقة من جهة أخرى . ولم يحاول أي من الطرفين في البداية أن يسعى للتوحيد الإمارتين في إمارة واحدة بجاهة الأخطار المحدقة بها ، وللقيام بمحاولات توسيعية ، بل على العكس كثيراً ما كانت العلاقات بين الإمارتين تبلغ حدًا كبيرًا من التدهور يصل إلى درجة الحرب والتخريب . ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه لو لا خلع إيلغازي من شحنة ببغداد في هذه السنة بالذات ، ومغادرته العراق إلى ديار بكر ، لكان من المحتمل أن تبقى الإمارة التي أنشأها سقمان موحدة بأيدي أبنائه .

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ٢٣٠/٢ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ٤٠ ب ) .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٢٨ ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٢٠ ، القرماني ، تاريخ

وقد سار إيلفازي أمير ماردین على سياسة أخيه سقمان ، في استغلال الأحداث السياسية والعسكرية في ديار بكر ، وفي الانضمام إلى بعض الأمراء ضد البعض الآخر ، وتشكيل الأحلاف والتكتلات من أجل توسيع ممتلكاته في المنطقة ، فاجتمع في رمضان من السنة التالية (٤٩٩ هـ = ١١٠٦ م ) بالملك رضوان بن تتش صاحب حلب وانضم إليهما عدد من كبار الأمراء ، كألي بن أرسلان تاش صاحب سنجر ، والأصبهن صباوه أحد أمراء فارس وغيرهما بنية محاربة الصليبيين . وقد عرض إيلفازي عليهم أو يقوموا أولًا بهاجمة بلاد جكermish صاحب الموصل في محاولة للاستيلاء عليها ، وتقوية أنفسهم بقواتها وأموالها ، ومن ثم يتوجهون لقتال الصليبيين ، فافق حلفاؤه على ذلك ، وتقدموا في رمضان على رأس عشرة آلاف فارس إلى نصبين التابعة لجكermish . وكان هذا قد أناب فيها أميرين من أصحابه مع بعض القوات ، فتحصنا بالبلد وقاتلوا المهاجمين ، وما لبث صاحب سنجر أن عاد إلى بلده إثر جرح أصحابه في القتال . وعندما علم جكermish بالهجوم الذي قام به رضوان وحلفاؤه على نصبين ، قرر التوجه لقتالهم ، إلا أنه حاول أن يستخدم أولاً أسلوب الخداع ، فأرسل إلى قواد رضوان واستهالم وأفسدهم ضد أميرهم ومن جهة أخرى طلب من قواته في نصبين أن يظروا الطاعة لرضوان ويقدموا ما يحتاج إليه - مع اتخاذ الحيلة - كما أرسل إلى رضوان نفسه يبذل له الطاعة لقاء انسحابه وعقد الصلح معه . ويقول : « إن قبضت على إيلفازي ، الذي عرفت أنت وغيرك فساده وشره ، فأنا معك ومعينك بالرجال والأموال والسلاح »<sup>(١)</sup> . وقد جاء هذا في الوقت الذي كانت فيه العلاقات بين رضوان وإيلفازي قد سادها الشك والتوتر ، فأمر جماعة من أتباعه فقبضوا على إيلفازي ، ولكن الأخير ما لبث

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٥١/١٠ - ١٥٢ .

أن هرب - بعد قليل - من معتقله في قلعة نصبيين بمعاونة جندهما ، وقام أتباعه التركان إثر ذلك بنهب معسكرات رضوان ، فاضطر هذا إلى الانسحاب والعودة إلى حلب<sup>(١)</sup> .

وبهذا يكون إيلغازي قد أخفق في محاولته الأولى للتوسيع اعتقاداً على عقد أحلاف وإقامة تكتلات في المنطقة . ولكن هذا الفشل لم يثنه عن عزمه ، إذ ما لبث في العام التالي ( ١١٠٧ = ٥٥٠٠ م ) أن أدلّ بذله في مجرى الأحداث السياسية والعسكرية هناك .

ففي ذلك العام توفي جكيرمش صاحب الموصل ، فطبع فيها عدد من الأمراه على رؤسهم جاوي سقاو . فأرسل أهلها إلى قلوج أرسلان سلطان سلاجقة الروم يستدعونه ليسلموا إليه البلد ، فسار هذا على رأس قواته حتى وصل نصبيين ، فأقام هناك ريثما يتم تعزيز قواته ، حيث اتصل به إيلغازي وعدّد من الأمراه وبعض قوات جكيرمش . وما ان سمع جاوي بذلك حتى رحل إلى سنجار ليكون على أبهة الاستعداد ضد تحركات قلوج أرسلان وحلفائه . وإزاء إلحاح أهل الموصل على قلوج أرسلان بالإسراع لتسليم مدينتهم ، توجه هذا إليها ودخلها في أواخر رجب حيث أعاد الأمور إلى نصابها ، ثم مالبث أن غادرها على رأس قواته للقاء جاوي ، وما أن سمع هؤلاء بقوة عدوهم حتى اختلفوا ، ففارقه صاحب آمد عائداً إلى بلده ، وكذلك فعل آخرون ، وكان جاوي قد عقد حلفاً مع رضوان ضد أعدائه فزاده ذلك قوة . وكان اللقاء في العشرين من ذي القعدة حيث أسرى عن انهزام قلوج ومقتله ، ثم مالبث جاوي أن تقدم إلى

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن خلدون . العبر ٥ / ٣١٩ - ٣٢٠ ،  
Cahen, Syrie du Nord P. 247.

الموصل وملكها ، وأعاد خطبة السلطان محمد السلجوقى فيها <sup>(١)</sup> .

وكان إيلغازي قد سار بعيد المعركة إلى نصبين واستولى عليها ، مستغلاً فرصة انهماك الأمير جاوي بالاستيلاء على الموصل ، ثم أذاب فيها ابنه <sup>(٢)</sup> .

غداً إيلغازي منذ ذلك الوقت حليفاً لجاوي ، وحاول الانسان ان يثير الفتنة والمشاكل بوجه السلطان السلجوقى محمد كما ساند ( صدقه بن مزيد ) أمير الحلة في صراعه مع السلطان ، وأرسل إليه يخبرانه عن موافقتهما له على موقفه ذاك ، وأنهما مستعدان للوصول إليه على رأس قواتهما متى طلبها ، مما أدى بالسلطان إلى أن يسرع في القضاء على مصدر الفتنة قبل أن يتسع ، فأعلن الحرب على صدقه وتمكن من قتله في رجب <sup>(٣)</sup> . وربما اتخذ إيلغازي وحليفه جاوي هذا الموقف من السلطان ليتخلصا من نفوذه عليهم فيما يتعلق بإطاعة أوامرها ، التي كان يصدرها إلى الأمراء المحليين ، بالتوجه لقتال الصليبيين <sup>(٤)</sup> ، وما يؤيد هذا أن السلطان محمد اضطر في العام التالي ( ٥٠٢ = ١١٠٨ م ) إلى إرسال أحد أمرائه ، وهو مودود بن التوتكتين ، إلى الموصل ليحصل في ولايتها بدل جاوي الذي كان يعصي السلطان في أحياناً كثيرة ، فانسحب جاوي دون مقاومة تذكر واتجه إلى نصبين التابعة لإيلغازي ، وأرسل أميرها من هناك وطلب الاجتماع به ، وأعلم أنه خوفهما من السلطان وعداهما له ينبغي أن يجمعهما على الاحتفاء منه ، فلم يحبه إيلغازي إلى ذلك وغادر نصبين ، بعد أن

(١) ابن الأثير ، الكامل / ١٠ - ١٦١ ، ابن القلansi ، دمشق ص ١٥٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٧٩ - ٨١ . سبط ، مرآة الزمان ، (مخطوطة ٢٥٧/٣٢ ب - ٢٥٨ ب) .

(٢) ابن شداد ، الأعلان ( مخطوطة ٢٣٩ ) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل / ١٠ - ١٦٩ .

(٤) سرد تفاصيل ذلك في فصل ( الأراثة والصليبيون ) .

أوصى ابنه بالدفاع عنها ضد جاوي ، واتجه الى ماردين . فلما عرف جاوي ذلك عدل عن نصيبيين وأرسل الى إيلغازي ثانية يطلب منه ما طلبه في المرة الأولى ، وسار بنفسه على اثر الرسول ، فما أن وصل هذا واجتمع به إيلغازي في ماردين حتى فوجيء الأخير بدخول جاوي الى القلعة وحده ، مستهدفاً من وراء ذلك استئثاره به وتأليف قلبه ، فلما رأه إيلغازي قام إليه وخدمه وحين رأى أن حليفه محسن الظن فيه ، غير متوجس منه ، ولم يجد الى دفعه سبيلاً ، نزل معه وعسكر في ظاهر نصيبيين وزحفاً من هناك على سنجار وحاصرها فترة من الوقت ، فلم يجدها صاحبها إلى الصلح ، فتركاها وسارا نحو الرحمة ، وكان إيلغازي خلال ذلك يظهر لجاوي المساعدة ويبطن له الخلاف ويتعين الفرصة لينصرف عنه . وما ان وصل عرابان من أعمال الحابر حتى هرب إيلغازي ليلاً واتجه الى نصيبيين ثانية ، الأمر الذي اضطر جاوي الى إطلاق ما في يده من أسرى الصليبيين ومحالفتهم لحياته<sup>(١)</sup> .

و واضح أن الدافع الذي أدى بإيلغازي الى اتخاذ هذا الموقف المتردد تجاه حليفه السابق جاوي ، هو عدم رغبته في زج نفسه في مزيد من المشاكل مع نواب السلاغقة في الموصل ، وعدم التأدي في مخاصمة السلطان خوفاً من أن ينزل به عقابه ، فضلاً عن أن جاوي لم يكن يملّك من الواقع والمحصون ما يغري إيلغازي بالتضحيّة في سبيله ، من أجل الحصول على مزيد من المكاسب ، لذا حاول التهرب من السياسة العدائية التي حاول جاوي أن يجره إليها . وقد نجح في ذلك فعلاً ولو الى فترة محدودة من الزمن .

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٧٣/١٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٨٤ و ٤٠٤ - ٤٠٥ و ٤٨٣ .  
وانظر الفصل الثالث .

وما ان استقر مودود في الموصل حتى عمل على الاستيلاء على كل ما كان تابعاً لولاتها السابقين في المنطقة وكانت نصيبين من جملة ذلك<sup>(١)</sup> . وهكذا خسر إيلفازى هذه المدينة الهامة التي لم تبق في يده سوى أقل من سنتين. وقد حاول مودود بعد ذلك مباشرة استئثاره إيلفازى بأن أقطعه حران (٥٠٢ = ١١٠٨م)<sup>(٢)</sup>، تحقيقاً لهدفه الأساسي في تجميع الأمراء المحليين لمحاباه الصليبيين.

وفي السنوات التي أعقبت عام (٥٠٢ = ١١٠٨م) ، وحق عام (٥٠٩ = ١١١٥م) كادت محاولات إيلفازى لتوسيع إمارته في ديار بكر أن تتوقف ، حيث وجه معظم نشاطه خلال هذه الفترة في ميدان العلاقات الإسلامية الصليبية في الجزيرة والشام ، سواء كان هذا النشاط ضد الصليبيين أو لصالحهم كما سيتضح في فصل آخر . ولذا بقيت إمارته – طيلة هذه الفترة – على حدودها السابقة دونما توسيع . ولكنها ما لبثت أن عادت في عامي (٥١٠ = ١١١٦م) ، وبعد أن أتيح له بعض الوقت للعمل في ديار بكر ثانية على توسيع إمارته على حساب جيرانه ، واستطاع في هذه الفترة أن يقطع من مدينة ميافارقين التي كان يحكمها آنذاك أحد نواب السلالقة ، حوالي ثمانين ضبعة خصبة الإنتاج مستغلاً في ذلك اختلاف ولاية السلالقة على ميافارقين ، وسرعة تبدلهم وضعف المدينة وعجز زريليهما . وقله المدافعين عنها<sup>(٣)</sup> .

وفي السنة التالية ٥١١ هـ ساعدت الظروف إيلفازى على أن يسive إلى إمارته مدينة من أهم مدن شمالي الشام ألا وهي حلب ، فضلاً عن المناطق

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطه ١٣٩) .

(٢) المصدر السابق ورقة ١٧ أ .

(٣) الفارق ، تاريخ ميافارقين ، القسم المنشور ص ٢٨٤ - ٢٨٣ ، ابن شداد ، ورقة ١٠١ أ - ب .

والمحصون الملحقة بها إذ راسله أهلها وكتاب أمرائها طالبين منه توليهما ، بعد أن أيقنوا عجز أمرائها من أحفاد رضوان بن تتش وأوصيائهم عن حمايتها ضد الطامعين فيها من الصليبيين والأمراء الذين كانت يرسلهم السلاجقة إلى المنطقة لتشييت نفوذهم المباشر فيها<sup>(١)</sup> ، فأجاههم إيلفارزي إلى دعوتهم وتقدم بسرعة إلى حلب ، وبعده مفاوضات قصيرة الأمد بين الطرفين تم الانفاق على تسليمها المدينة لقاء تعويض بعض أمرائها عدداً من الواقع والمحصون المجاورة كبالس والقلية<sup>(٢)</sup> . ولكن إيلفارزي ما أن استقر في حلب حتى اتبع سياسة القسر والاغتصاب ، مما أدى إلى تنفيه أهاليها منه ، حيث قبض على بعض أمرائها ، وإذ لم يجد فيها المال الذي كان يتغيه قصر ما كان يدفعه الحلبيون من ضرائب عليه شخصياً وعلى أتباعه من التركان « ولم ينتظم له حال واستوحش من أهل حلب وجندها »<sup>(٣)</sup> ، هذا فضلاً عن أن خوفه على بلاده من الطامعين<sup>(٤)</sup> ، جاء دافعاً آخر على الإسراع بمقادرة البلد ، بعد شهر واحد من دخوله ، والمودة إلى ماردين ، بعد أن أثار في حلب ابنه حسام الدين ترقاش<sup>(٥)</sup> . ويظهر أن

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٧٩ ، ابن الأنبار ، الكامل ١٠/٢٠٠ أبو الفدا ، المختصر ٢٤١/٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٤ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة قسم حلب ) ، ورقة ٣٢٦ - ٣٢٧ ، ابن خلدون ، المبر ٥/٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٢) ابن سداد ، قسم حلب ، ورقة ١٣٠ ب .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٨٠ .

(٤) ابن شداد ، قسم حلب ( ورقة ١٣٠ ب ) .

(٥) ابن القلاني ، دمشق ١٩٩ ، الكامل ١٠/٢٠٠ ، أبو الفدا - المختصر ٢٤١/٢ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٦٩ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٤٢ ، ابن خلدون ، المبر ٥/٣٢٦ - ٣٢٧ و ٤٨٦ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١/٤٢٣ - ٤٢٨ ، القرماتي ، تاريخ ص ٤٢٨ - ٤٢٧ ، القلقشندي ، مؤثر الأذفاف ٢٠/٢ .

يدرك ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢/٣٢ ) أن أول من استتابه إيلفارزي على حلب هو ابنه الآخر صارم الدين قزل ، وأنه أحسن السيرة في الحلبيين ثم توفي عام ٥١٣ هـ . فحزن عليه الحلبيون حزناً شديداً ، وأعقبه في الحكم أخيه حسام الدين ترقاش .

إيلغازي أدرك عدم جدواه تشبثه بحلب في هذه الفترة بالذات ، لعدم تثبيت أقدامه في ديار بكر من جهة ، ولأن حلب كانت عرضة آنذاك لهجمات الصليبيين القوية المتكررة من جهة أخرى ، لذا نجده يغادرها بعد أسابيع فحسب دون أن يتخذ الإجراءات العسكرية والإدارية الكفيلة بتقوية مركزها ضد الأعداء .

وقد حاول في الفترة التي أعقبت ذلك أن يعمل على توسيع إمارته وضم مدن جديدة إليها ، واستطاع ، خلال عام واحد (١١١٨ = ٥١٢ م ) ، أن يعيد السيطرة على مدينة حران ، بعد أن كان البرسقي – أمير الموصل – قد انتزعها من الأراقة عام (١١٠٤ = ٥٠٨ م ) . فما كان هذا العام ، استغل إيلغازي فرصة انشغال أمراء الموصل بالفتنة والمؤامرات ضد السلاجقة ، فتقدم إليها واستولى عليها وقبض على رئيس البلد (جعفر بن أبي الفهم) ، واعطاه مالاً ثم حمله إلى ماردين ، وعين نوابه في حران وقفل عائداً إلى مقر إمارته<sup>(١)</sup> . وفي نفس العام استطاع أن يستعيد من البرسقي مدينة نصيبين<sup>(٢)</sup> ، وهي واحدة من أهم مدن ديار بكر .

★ ★ ★

وطيلة هذه الفترة ظلت علاقة إيلغازي بالسلطان الساجوفي ، وكذا بالخليفة ، غير ودية بسبب موقفه المعادي للسلطان عام (١١١٤ = ٥٠٨ م)<sup>(٣)</sup> ، لذا نجده يستقبل عام (١١٢٠ = ٥١٤ م ) أمير الحلة دبيس بن صدقة ، الذي

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخترطة ١٧ ب) .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ٣٩ ب ، وفي رواية أخرى (ورقة ١٠٢ أ) يشير ابن شداد إلى أن استيلاء إيلغازي على نصيبين دُن سنة (١١٢٠ = ٥١٤ م) .. وأن جماعة من أكابر ميافارقين قاتلوه وهنؤوه بفتحها . ولكن سياق الأحداث يرجح الرواية الأولى وإن لم تستطع الجزم بذلك .

(٣) انظر التفاصيل في الفصل الثالث .

كان قد هرب من العراق ذلك العام خوفاً من السلطان والخليفة بعد فتن طوبيلة أثارها ضدهما ، والتوجه إلى ماردین فأجراه أميرها وقدم له كل ما يحتاجه<sup>(١)</sup> . وكان دبیس قد تزوج في مطلع هذا العام بابنة إيلغازي<sup>(٢)</sup> ، فكان ذلك عاملاً آخر في تقوية العلاقات بينهما . وقد تولت على إيلغازي كتب السلطان ورسلها يأمرانه بإبعاد دبیس<sup>(٣)</sup> ، خوفاً من أن يتقوى بالترکان ويثير ضدهما مشاكل جديدة ، فوجد إيلغازي حينذاك أن الفرصة قد سنت للإعراب عن رغبته في العودة إلى طاعة السلطان والخليفة فأرسل ابنه (ترفاش) إلى السلطان ( محمود ) ليشفع في دبیس وينذر عنه الطاعة ويلتمس السماح له بالعودة إلى إمارته في الحال مقابل ألف دینار يدفعها للسلطان يومياً . وقد سیر إيلغازي مع ابنه الأموال والهدایا للسلطان ، وجعل القاضي بهاء الدين الشهري زوری المتحدث بلسانه . وقد قام الوفد بمقابلة السلطان (٥١٥ - ١١٢١ م ) وحل له وللخليفة على طاعة إيلغازي<sup>(٤)</sup> ، وجرت مفاوضات – بشأن دبیس – لم تسفر عن اتفاق ، إلا أن السلطان أعلن عن إقطاعه مدينة میافارقین لإيلغازي استقالة له وتقديرأً لوقفه الودي منه<sup>(٥)</sup> . وبذلك أضاف هذا الأمير الأرتقي إلى إمارته مدينة أخرى من أهم مدن ديار بكر . ثم ما لبث دبیس أن غادر ماردین عائداً إلى العراق في العام نفسه بعد أن تصالح

(١) ابن العمیم ، زبدة الخطب ١٩٧/٢ - ١٩٨ .

(٢) ابن الأثیر ، الكامل ٢١٢/١٠ - ٢١٣ ، ابن الجوزی ، المنتظم ٩/٩ سبط ابن الجوزی ، مرآة الزمان ٨/٩ .

(٣) ابن الأثیر ، الكامل ٢١٥/١٠ ، ابن الجوزی ، المنتظم ٩/٢٢٧ ، ابن تغري بردي ، التجوم الظاهرة ٥/٢٢١ - ٢٢٥ ، ابن خلدون ، العبر ٤٨٧/٥ - ٤٨٨ ، ابن الفرات ، تأریخ (خطوطه ٣٨/٢) .

(٤) ابن الجوزی ، المنتظم ٩/٢٢٧ .

(٥) ابن الأثیر ، الكامل ١٠/٢٢٥ ، ابن خلدون ، العبر ٤٨٩/٥ ، وهناك رواية أوردها ابن شداد ، الأعلاق (خطوطه ورقه ص ١٠١ ب - ١٠٢)، يسودها الاضطراب وتکثر

مع السلطان وال الخليفة<sup>(١)</sup> . ويظهر أن تسوية هذه المشكلة حسنت العلاقات بين إيلغازي والسلطان بعد التوتر الذي سادها طيلة السنوات السابقة ، سياً بعد أن أقطعه الأخير مدينة ميافارقين المهمة في ديار بكر<sup>(٢)</sup> .



وما أن أنهى إيلغازي مشكلته مع السلطان حتى جابه عصياناً قام به ابنه سليمان بحلب (٥١٥ هـ = ١١٢١ م ) ، ويظهر أن هذا كان قد حل محل ترقاش هناك بدليل أن الأخير تولى في العام نفسه رئاسة الوفد الأرتقي إلى بغداد للتتوسط في قضية دبيس . وكان سبب عصيان سليمان أن والده طلب منه أموراً لم تطب نفسه لتنفيذها ، ربما كانت تتعلق بقضايا مالية ، فضلاً عن تشجع بعض الأمراء الحبيطين به على العصيان . وما أن أعلن اتفاقه عن أبيه حق قام بإبعاد أحفاد رضوان بن تنس وبعض الأمراء عن حلب ، واتبع أساليب الظلم والمصادرة ضد أهاليها ، ونشر الفساد ، كما قام بـ القبض على حجاب أبيه وإهانتهم . وعندما بلغ إيلغازي إصرار ولده على العصيان « ضاقت عليه الأرض » ، وتجهز للتقدم إلى حلب ، فكتبه أنصاره وأبلغوه عن استعداد المتمردين لقتاله ، لكنه لم يأبه لذلك وتقدم حتى وصل قلمة جعبر على

---

= فيما الأخطاء إذ يذكر أن إيلغازي يقي في شحنة بغداد حتى عام ١٢٥ هـ ثم وقع له السلطان محمد ميافارقين وكتب إلى زنكي ( يقصد الرزيبي ) أن يسلها إليه ، فسار إيلغازي في منتصف جمادي الآخرة من ذلك العام واستولى عليها ، وخرج زنكي ( يقصد الرزيبي ) عامل السلاجقة على المدينة ) فأقام قريباً منها ، فلما كان اليوم الرابع وصله رسول من السلطان محمد يأمره أن لا يسلها فوجد عامله أن الامر قد فات واستقر إيلغازي ميافارقين ، ويخطئه كاهن في القول بأن إيلغازي استولى على ميافارقين عام ١٢٥ هـ إثر وفاة السلطان محمد Enc, Isl, Art : Artukids.

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ٩/٢٢٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢/١٨٥ ، ابن خلدون ،

العبر ٥/٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ٩/٢٢٧ .

الفرات<sup>(١)</sup> ، وحينذاك ضعفت نفس ابنه عن العصيان وأرسل إليه يستحلفه على العفو عنه والإحسان إليه وإلى أنصاره من أمراء حلب فأجابه إيلغازي إلى ذلك ، وما لبث أن دخل البلد في أول رمضان (٥١٥ = ١١٢٢ م) وسط مظاهر الحفاوة والإكرام ، حيث أحسن إلى أهل حلب وسامحهم بشيء من الضرائب وأقال الشحنة الذي كان يمارس الظلم عليهم<sup>(٢)</sup> ، كما قام بمعاقبة الأمراء الذين حسروا لابنه العصيان وأعاد جسم العبيد إلى حلب ، وولي رئاستها سلمان بن عبد الرزاق العجلاني البالسي ، كما أتى فيها ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، ثم غادرها في المحرم (٥١٦ = ١١٢٢ م) عائداً إلى ماردين<sup>(٣)</sup> .

ويظهر أن البرسقي نائب السلاجقة في الموصل ، استغل فرصة انشغال إيلغازي في إخاد عصيان ابنه ترشاش فاستولى على نصيبيين<sup>(٤)</sup> ، وهكذا خسر

(١) يشير ابن الأثير في الكامل ٢٢٥/١٠ ، والذين ذلوا عنه كابن العربي ، مختصر ص ٣٥١ ، وأبي الفدا ، المختصر ٢/٢٤٦ ، ابن خلدون ، العبر ٤٨٨/٥ - ٤٨٩ ، وغيرهم أن إيلغازي سار مباشرة إلى حلب فلم يشعر سليمان إلا وقد هوجم على حين غرة ، فخرج متذرراً فمعفي أبوه عنه . والروايات تلتقيان عند هدف واحد غير أن ابن العديم أكثر وثوقاً في الاخبار المتعلقة بحرب .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٢٠٣ - ٢٠٠ ، ويورد المؤرخ المذكور رواية أخرى عن ظروف العصيان مفادها أن دبيس بن صدقة لما سار مع إيلغازي لقتال الكرج سأله أن يهبه حلب مقابل أن يحمل إليه مائة ألف دينار وأن يعاضده لفتح أنطاكية ، فأجابه إيلغازي إلى ذلك ، فلما وقعت الهزيمة ، كرر دبيس طلبه فأتفق إيلغازي إلى ولده سليمان وقال له : « أظُر أنك قد عصيت حق يبطل ما بيني وبين دبيس » ، فحمله الجهل على أن عصى وخالف أباه ورافقه على ذلك جماعة من الأمراء ، ولكن منها حدث من خلاف بين الروايات فإنها تجتمع عند هدف واحد هو العصيان .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٠٣ - ٢٠٠ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٢٥ ، ابن العربي ، مختصر ص ٣٥١ ، أبو الفدا ، المختصر ٢/٢٤٦ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٨٩ - ٤٨٨ ، التویری ، (مخطوطة ٢٦/٢٥) .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ، ٣٩ ب .

إيلغازي في خضم مشاكله هذه المدينة المهمة التي كان قد استعادها قبل أقل من ثلاثة سنين .

ما لبث المرض أن ألم بإيلغازي في رمضان من العام نفسه وهو في طريقه إلى ميافارقين ، وأخذ يزداد حدة ، وقيل كان سببه ما أصابه في معركة الكرج (١٤٥٥ = ١١٢٠ م )<sup>(١)</sup> ، وسرعان ما توفي في إحدى قرى ميافارقين يوم الخميس السابع عشر من رمضان<sup>(٢)</sup> ، فحمل ليلاً إلى هناك بصحبة ولده شمس الدولة سليمان ، وعندما اقتربوا من القلعة سألهم واليها عن الأمر فأجابوه بأن السلطان (أي إيلغازي) مريض ، وكانوا قد أركبوه على فرس وأمسك به أحدهم ، وما أن فتحت الأبواب ودخل شمس الدولة القصر واستتب الأمر له حتى كشف عن حقيقة وفاة أبيه الذي تم دفنه في ميافارقين<sup>(٣)</sup> .

### انقسام إمارة ماردین وإعادة توحيدها :

استقرَّ شمس الدولة سليمان بـميافارقين ، وكان أخوه حسام الدين ترثاش في ماردین آنذاك ، ففرض سيطرته عليها وعلى المدن القرية منها كرأس عين<sup>(٤)</sup> .

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٨/١٠٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الظاهرة / ٥٢٣ وانظر التفاصيل في الفصل الثالث .

(٢) ابن القلائني ، دمشق ص ٢٠٨ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٢ ب ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/١٠٢ - ١٠٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢٠٦ . ابن تغري بردي ، النجوم الظاهرة / ٥٢٣ - ٢٢٤ ، وتحتختلف المصادر في تحديد يوم وفاة إيلغازي والأصح ما أورده ابن شداد وسبط ابن الجوزي .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطه ١٠٢ ب) ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/١٠٣ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٦٦/٢) . وانظر سامي ، قاموس الأعلام التركي ٢/١١٥٩ . ويختفي ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٢/٤٩٦) في القول بأن وفاة إيلغازي كانت سنة ١١٠ هـ ولعل ذلك جاء خطأ من الناشر .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٤٣ ب) .

ويذكر ابن الفرات أن كلام من سليمان وتراثش اتفقا في البدء على الاشتراك في حكم إمارة أبيها وأنهما بقيا في ماردین يديران دفة الحكم ، ولكن الخلافات ما لبثت أن فرقت بينهما ودفعتهما إلى الانفصال<sup>(١)</sup> . أما في حلب فقد بقي بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق<sup>(٢)</sup> وقام بتحليف وجوه الحلبين لنفسه<sup>(٣)</sup> ، وتقدم بذلك بن هرام بن أرتق إلى حران فاستولى عليها في ربیع الأول من العام نفسه<sup>(٤)</sup> .

وهكذا تعرضت لخطر الانقسام ، الإمارة التي وجدها إيلغازي جل مه للحفاظ عليها وتوسيع رقعتها ، إذ أنه ما أن توفي حتى اقسم أبناؤه وأقرباؤه البلاد الواسعة الموحدة التي كان يحكمها ، وغدت تحت سيطرة أربعة أمراء اتخذوا مراكزهم في كل من ماردین وميافارقين وحلب وخربرت<sup>(٥)</sup> ( المقر الرئيسي لبلدك ) . ولما كان أميراً حلب وخربرت بعيدين نسبياً عن مركز الإمارة في ديار بكر ، فإن مسكن الخطر على وحدتها تمثل بوجود أميرين في المنطقة هما سليمان وتراثش .

ولكي يقوّي سليمان مركزه ، أسرع في تنظيم شؤون إمارته وخطب ابنه

(١) تاريخ ( مخطوطة ٦٦/٢ ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل / ١٠ ، ابن العدم ، زبدة الحلب ٢٠٩ / ٢ ، ابن العبرى ، مختصر ص ٣٥١ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ١٠٣ / ٨ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٤٧ / ٢ - ٢٤٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ٣١ ، الذهي ، دول ٣١ / ٢ ، ابن تفري بودي ، النجوم الزاهرية ٤ / ٢٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢ / ١٩١ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٨٩ -

Cahen. Syrie du Nord. P. 295. ٤٩٠

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٦٦/٢ ) .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٧ ب ) ويدرك ابن الأثير ( الكامل ١٠ / ٢٣٢ ) أن ذلك حدث عام ٥١٧ ، وانظر Cahen. Syrie, P. 295.

(٥) خربرت : وتسمى أيضاً ( حصن زياد ) في أقصى ديار بكر يفصلها الفرات عن مدينة ملطية ( ياقوت ، بلدان ٤١٧ / ٢ ) .

قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، وأرسل أحد قضاطه إلى ماطية لإحضارها<sup>(١)</sup> كما قام ترتاش هو الآخر بتنظيم شؤون إمارته<sup>(٢)</sup> وقد كانت العلاقات بين الأخوين ودية في البداية ولكن الخلاف سرعان ما دب بينهما ، واستمر<sup>(٣)</sup> حتى وفاة سليمان عام ( ٥١٨ = ١١٢٤ م ) .

وفي صفر من عام ( ٥١٨ = ١١٢٤ م ) قتل بلك بن بهرام أثناء حصاره لقلعة منبج ، وكان قد ملك حلب قبيل ذلك<sup>(٤)</sup> ، فاستغل ترتاش الموقف وتوجه إلى حلب وسيطر عليها في ربيع الأول ، كما تمكن من وضع يده على حران ، التي كانت هي الأخرى من ممتلكات بلك إلا أن البرسيقي ، حاكم الموصل ، ما لبث أن انتزعها منه في نفس العام<sup>(٥)</sup> وتقدم سليمان بن إيلغازي من ميافارقين فاستولى على خربت وبعض ما يحيط بها من حصون بلك بن بهرام ، كما استولى سلاجقة الروم على بعضها الآخر<sup>(٦)</sup> .

أما داود بن سقمان أمير حصن كيما ، فقد حصل هو الآخر على حصته من أسلاب بلك وسيطر على حصن بالو<sup>(٧)</sup> التابع للأمير المذكور<sup>(٨)</sup> .

وهكذا انحصر الصراع ، بالنسبة لأبناء إيلغازي ، بين ترتاش في مارددين

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٣٠١ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ابن القلافي ، دمشق ص ٢٠٨ .

(٤) انظر التفاصيل في الفصل الثالث .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ١٧ ب ) .

(٦) T. Riss, the Seljuks, P. 60.

(٧) حصن بالو : قلعة من نواحي أرمينية بين أرزن وخلاط ( ياقوت ، بدان ١/٤٨٠ ) .

(٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٢٠ .

وليمان في ميافارقين ، وأصبح تحت حكم كل منها عسد كبير من الحسون والقرى والضياع ، وكان هذا فضلاً عن تجاور إمارتيها ، سبباً في إثارة المنافسة والخلاف بينهما<sup>(١)</sup> . إلا أن سليمان مالبث أن توفي بعد ذلك بفترة قصيرة (رمضان عام ٥١٨ = ١١٢٤ م) ، فانتهت بذلك المشاكل ، وأتيح لإمارة ماردين أن تعيد وحدتها كما كانت على عهد إيلغازي . إذ ما أن سمع تراثش بوفاة أخيه حق اتجه إلى ميافارقين وتزل عليها وراسل إليها وأفهمه الحال وسرعان ما تم الاتفاق بينهما وسلم إليه البلد في شوال<sup>(٢)</sup> . وأعاد تراثش تنظيم أمورها الداخلية واستمال أهلها بـإحسانه إليهم<sup>(٣)</sup> ، ومن ثم سيطر على بقية الحصون التابعة لها<sup>(٤)</sup> . وبهذا أصبح تراثش الحاكم الوحيد في إمارة ماردين ، واستطاع في عام (٥٢٠ = ١١٢٦ م) ، أن يعيد السيطرة على نصبيين مستغلًا فرصة وفاة البرسقي صاحب الموصل الذي كان قد أخذها من الأراثقة عام (٥١٥ = ١١٢١ م)<sup>(٥)</sup> .

وليس بين يدينا ما يلقي ضوءاً على طبيعة العلاقات بين إمارة ماردين وإمارة حصن كييفاً ، منذ انفصالهما عن بعضهما إثر وفاة سقمان بن أرتق مؤسس الإمارة عام (٤٩٨ = ١١٠٤ م) ، وحق عام (٥٢١ = ١١٢٧ م) حيث

(١) ابن القلانيسي ، دمشق ص ٢٠٨ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، مخطوطة ورقة ١٠٣ آ ، ابن الأثير ، الكامل ٢٣٨/١٠ ، ويختفي كل من سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ١١٧/٨ ، وابن تغري بردي ، النجوم الظاهرة ٥/٢٣٠ ، في جمل وفاة سليمان عام ٥١٩ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ١١٧ ، وابن تغري بردي ، النجوم الظاهرة ٥/٢٣٠ .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٣ آ .

(٥) المصدر السابق ، ورقة ٣٩ ب .

تنهي المرحلة الأولى من تاريخ الأراثقة السياسي . ولا نستطيع الجزم بما إذا كانت العلاقة بينهما قد سادتهما المنافسة والعداء أم التعاون والتكافف ضد الأخطار المشتركة ، وأغلبظن أن اتباع الأمير داود بن سعوان صاحب إمارة كييفا سياسة انعزالية ، وعدم إسهامه في الأحداث العامة سواء في ديار بكير أم في شمالي الشام ، كانا من العوامل الأساسية في عدم ورود ما يوضح طبيعة علاقاته بإمارة أعمامه في ماردين . وعلى أية حال فلم يحدث بين الإمارتين ما يشير إلى وقوع صدام بينهما سوى قيام داود بالسيطرة على أحد حصون بلك إثر وفاة الأخير عام (١١٢٤ هـ = ٥١٨ م )<sup>(١)</sup> دون أن يعترضه أصحاب ماردين .

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن علاقات الأراثقة الرسمية بالخلافة العباسية والسلطة السلجوقية ، طيلة هذه الفترة ، أي منذ تأسيس الإمارة عام (٩٤٩ هـ = ١١٠١ م ) وحتى عام (١١٢٧ هـ = ٥٢١ م )، كانت ودية طيبة فيما عدا الفترات القصيرة التي عصى فيها إيلغازي على السلاجقة والخلفاء<sup>(٢)</sup> ، إذ كان أمراء الأراثقة يخطبون للخلفاء العباسيين وللسلطانين السلاجقة معهم ويضربون السكّة باسمهم ويعملون لهم الطاعة والخضوع الاسمي<sup>(٣)</sup> ، فضلاً عن وضع قواهم – ولو اسمياً – تحت تصرف السلاجقة<sup>(٤)</sup> وربما دفعوا لهم ضريبة سنوية كا هو

(١) ابن العديم ٢٢٠/٢ وهو حصن بالشمالية ديار بكير .

(٢) سترد تفاصيل ذلك في فصل ( الأراثقة والصلبيون ) .

(٣) الحسيني ، آل سلجوقي ص ٩٢ - ٩٣ - ١١١ - ١١٠ ، البنداري ، الدولة السلجوقية ص ١٢١ ، ابن القلافي ، دمشق ص ١٤٧ ، ابن تفري بردبي ، النجوم الظاهرة ١٨٧/٥ -

١٨٨ ، ابن الجوزي ، المنتظم ١٣١/٩ .

(٤) البنداري ، الدولة السلجوقية ص ١٢١ .

السائل في النظام الاقطاعي في تلك الفترة<sup>(١)</sup> .

وبتسلم عماد الدين زنكي إمارة الموصل عام (٥٢١ = ١١٢٧ م) تغير ميزان القوى في الموصل وديار بكر والشام ، سواء من ناحية الصلات الداخلية بين الأمراء المحليين أو من حيث علاقات القوى الإسلامية بالصليبيين ولذا دخل الأرaqueة مرحلة جديدة من حياتهم السياسية وعلاقتهم الخارجية ونشاطهم العسكري ، مرحلة تختلف في ميزاتها واتجاهاتها وسياسة أمرائها عن مرحلة (التأسيس) التي سبقتها .

---

(١) انظر ابن الجوزي ، المنتظم ٩/١٣١ حيث يشير الى أنه عندما تم الصلح بين السلطانين محمد وبركياروق ، غدت ديار بكر ضمن حكم محمد ، وأنها كانت تؤدي ، مع بقية البلاد التي خضعت له مليون وثلاثمائة وبضعة عشر ألف دينار .



## **الفصل الثاني**

**عَلَاقَاتُ بَنِي أَرْقَبِ الْزَّيْكَيْنِ وَالْأَيُوبَيْنِ**  
**(م ٥٦٥٣ - ١١٣٧ م = ١٢٥٥ م)**



## أهداف زنكي في ديار بكر :

في سنة (٥٢١ = ١١٢٧ م ) ، ولـي عمـاد الدـين زـنـكـي حـكـمـ المـوـصـلـ منـ قـبـلـ السـلـطـانـ السـلـجـوـقـيـ مـحـمـودـ بـنـ مـلـكـشاـهـ . وـقـدـ وـضـعـ هـذـاـ الـأـمـيرـ الطـمـوحـ نـصـبـ عـيـنـيهـ مـنـذـ الـبـداـيـةـ تـحـقـيقـ بـرـنـامـجـ عـلـىـ مـرـحلـتـيـنـ ، تـسـتـهـدـفـ أـوـلـاهـاـ الـاستـيـلاءـ عـلـىـ الـمـدـنـ وـالـإـمـارـاتـ الـخـلـيـةـ فـيـ الـجـزـيـرـةـ وـالـشـامـ وـتـوـحـيـدـهـاـ مـعـ إـمـارـةـ الـمـوـصـلـ ، وـقـتـهـدـفـ ثـانـيـهـاـ مـجـاهـيـةـ الـصـلـيـبيـيـنـ فـيـ الـجـزـيـرـةـ وـالـشـامـ ، اـعـتـادـأـاـ عـلـىـ قـاعـدـةـ عـسـكـرـيـةـ وـسـيـاسـيـةـ وـبـشـرـيـةـ وـاسـعـةـ النـطـاقـ ، تـتـمـثـلـ فـيـ إـمـارـةـ الـمـوـحدـةـ الـتـيـ قـرـرـ اـنـشـاءـهـاـ<sup>(١)</sup> . وـقـدـ تـكـنـ زـنـكـيـ فـيـ السـنـةـ التـالـيـةـ لـكـهـ مـنـ الـاستـيـلاءـ عـلـىـ حـلـبـ وـبـذـاـ حـصـلـ عـلـىـ مـوـقـعـ اـسـتـرـاتـيـجيـ هـامـ لـإـنـجـاحـ بـرـنـاجـهـ ، إـلـاـ أـنـهـ كـانـ عـلـىـ آـنـذاـكـ أـنـ يـؤـمـنـ الجـسـرـ الـوـاصـلـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـمـوـصـلـ ، وـكـانـ إـمـارـاتـ الـأـرـاقـةـ فـيـ مـنـطـقـةـ دـيـارـ بـكـرـ تـمـثـلـ قـلـبـ ذـلـكـ الجـسـرـ وـعـانـقـأـرـئـيـسـاـ فـيـ مـوـاصـلـاتـ زـنـكـيـ مـعـ الشـامـ فـيـ حـالـاتـ اـصـطـدامـهـ مـعـ الـصـلـيـبيـيـنـ<sup>(٢)</sup> . وـهـكـذـاـ غـدـاـ مـرـكـزـ الـأـرـاقـةـ فـيـ وضعـ خـطـرـ وـكـانـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـتـخـذـوـاـ مـوـقـعـاـ دـفـاعـيـاـ إـزـاءـ هـذـاـ خـطـرـ الـمـشـرـكـ ، وـأـنـ يـمـدـوـاـ مـنـ مـطـاعـمـهـ وـخـطـطـهـمـ الـهـجـومـيـةـ لـتوـسيـعـ إـمـارـاتـهـمـ كـاـ حـدـثـ فـيـ مـرـحـلـةـ التـأـسـيسـ<sup>(٣)</sup> .

(١) في الفصل الثالث تحليل أوسع لخطط زنكي ونتائجها على الأرaqueة .

(٢) انظر ابن الأثير ، الباهر ص ٣٩ .

(٣) انظر الفصل السابق .

كانت نصبيين<sup>(١)</sup> التابعة لإماراة ماردين الهدف الأول لهجوم زنكي ، لكونها أقرب الواقع الأرتقية إلى الجهات التي سيطر عليها ، فتوجه إليها عام (٥٢٣ هـ = ١١٢٨ م ) وحاصرها . وعندئذ استنجد حسام الدين ترثاش أمير ماردين بابن عمه ركن الدولة داود أمير حصن كيما لصد زنكي عن نصبيين وحمله على فك الحصار عنها ، ثم ما لبث أن أرسل رسالة مستعجلة على جناح طائر إلى أهالي نصبيين ونواهيه وأجناده فيها يطلب منهم الثبات في الدفاع مدة لا تتجاوز الحسنة أيام حيث ستصلهم النجدة قبل هذه المدة . إلا أن هذه الرسالة سقطت بيد زنكي واطلع على ما فيها ، ومن ثم قام بتدبیر خدعة للاستيلاء على نصبيين بأيسر طريق فأمر بكتابة رسالة أخرى إلى أهاليها جاء فيها : ( من حسام الدين ترثاش : إني قد قصدت ابن عمي داود وقد وعدني بالنجدة والتوجه على رأس قواته لهذا الغرض وسوف لا يتاخر وصوله إلينا بأكثر من عشرين يوماً ، وأطلب منكم الثبات طيلة هذه المدة ! ) ثم أرسل الرسالة إلى نصبيين على جناح طائر آخر ، فلما اطلع النصبيون عليهما أخافوا على نفوسهم وأيقنوا بعجزهم عن الدفاع عن البلد طيلة هذه المدة فأرسلوا إلى زنكي وصادموه وسلموا إليه القامة . وبذلك بطل على حسام الدين داود ما كان قد عزم عليه<sup>(٢)</sup> .

وبفتح نصبيين تمهد لزنكي الطريق لتهبيق أهدافه ضد إمارات ديار بكر ،

(١) نصبيين : مدينة عاصرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام ، قرية من منجر ( ياقوت ، بلدان ٤/٧٨٧ ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠/٤٦ - ٤٧ ، الباهر ص ٣٦ - ٣٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/٣٦ - ٣٥ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٥٦ - ٥٥ ، وقد أشار إلى الحدث باختصار كل من أبي شامة ، الروضتين ١/٧٧ ، ( الطبعة الجديدة ) ، وابن شداد ، الأعلان ( مخطبته ٣٩ ب ، ٤٨ آ ) وانظر ، Lane — pool , Saladin , P. 49.

إذ غدا هذا الموقع قاعدته العسكرية في المنطقة. وأدرك أمراء ديار بكر وعلى رأسهم الأراقة مدى خطورة زنكي على ممتلكاتهم فعقدوا تحالفًا بينهم في العام التالي (١١٢٩ = ٥٢٤ هـ) للقضاء عليه ، اشترك فيه أمراء بني أرتق : حسام الدين تمرقاش وابن عمده ركن الدولة داود ، وانضم إليه سعد الدولة أبو منصور إيكليدي صاحب آمد ، فضلاً عن عدد كبير من التركان الذين كانوا يكتون الطاعة والإخلاص لداود ، وكان هذا بعيد الصوت فيهم وبخاصة القادرين منهم على حمل السلاح<sup>(١)</sup> ، إذ ما أن استدعاهم مستنجداً بهم حتى جاؤوه بأعداد كبيرة ، فشكل الحلفاء جيشاً قوامه عشرون ألف مقاتل . وعندما سمع زنكي بذلك اتجه إليهم على رأس أربعة آلاف فارس<sup>(٢)</sup> ، والتقي بهم بالقرب من دارا<sup>(٣)</sup> ، التابعة لتمرقاش وهناك اشتباك الطرفان في قتال شديد صبر فيه الفريقيان واستبسّل جند زنكي وانتهت المعركة بهزيمة قوات ديار بكر ، واستيلاء زنكي على بلدي سرجي<sup>(٤)</sup> ودارا<sup>(٥)</sup> .

اتجه داود عقب المعركة ، على رأس عدد كبير من التركان ، إلى جزيرة ابن عمر التابعة لزنكي ، فنهب المنطقة وخر بها كإجراء انتقامي ضد عدوه وكمحاولة منه لصرفه عن تحقيق انتصارات أخرى في ديار بكر وجسره إلى

(١) ابن الأثير . الباهر ص ٨١ .

(٢) ربما كان في هذين الرقعين شيء من المبالغة لأن دارا قدرة زنكي على التقلب على أقوى الأعداء . والذي يدعو إلى الشك ورود إبرادة ، لسان ابن الأثير .

(٣) دارا : بلدة تقع على سفح جبل بين نصيبين وماردين ( ياقوت ، بلدان ٢/٥١٦ ) .

(٤) سرجي : حصن يقع بين نصيبين ودارا ( ياقوت ، بلدان ٣/٧٠ ) .

(٥) ابن الأثير ، السكام ، ١٠٦١ ، تأثر ص ٣٨ - ٣٩ أبو شامة ، الروضتين ١/٧٨ ( ط . جديدة ) ، ابن الفرات ، تأ . يتح ( مخطوطة ٤/٣ ) ، Grousset, croisades, 1/670.

القتال في مناطق بعيدة . وقد حاول زنكي ملاحقة داود في منطقة جزيرة ابن عمر إلا أنه لم يستطع ذلك بسبب ضيق المآلـك ووعورة الطريق ، وانتشار أتباع داود من الترکان في المنطقة ، ومن ثم اكتفى باستالة سكان الجهـات التي تكون من الوصول إليها ثم قفل عائداً<sup>(١)</sup> .

### سياسة الاحلاف بين زنكي والارaque :

وحين أدرك زنكي مدى خطورة التحالف بين أمراء الأراقة لجأ إلى الأساليب السياسية كي يحدث الانشقاق في صفوف أولئك الأمراء ليسهل عليه من ثم اقتحام ممتلكاتهم ، وأدرك أن خير وسيلة لتحقيق أغراضه هي إيجاد تحالف متين مع أحد هؤلاء الأمراء والاستعانة به ضد الآخرين . ولم يكن هنالك مجال للتحالف مع داود أمير حصن كيمـا الذي كان يتصف بالصلابة والمرقد على زنكي وكان يتحين الفرص لضربه بدليل أنه ما أن سمع بتوجه زنكي إلى بغداد عام (١١٣٦ م = ٥٢٦ هـ) ، لمساندة السلطان ضد الخليفة المسترشد حتى خرج من حصن كيمـا وأغار على نصبيـن<sup>(٢)</sup> ، ولذلك كان من الصعب على زنكي التحالف معه ، فلجأ إلى ترفاش الذي كان أكثر مرulence ورغبة في المسالمة من ابن عمـه داود ، وراح يعمل على التقرب منه وأوقف مهاجته لممتلكاته ، وإذا أحس ترفاش باتجاه زنكي الودي منه رأى هو الآخر أن التحالف معه يخلصه من الأخطار التي تحيـق بإمارته من جهة زنكي نفسه ، وأن التضحية بابن عمـه لا بد منها في سبيل كسب حليفـه الجديد وائـمانـه

---

(١) انظر المأمور السابق ،

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ٥٧١ ( وهو يطلق على داود اسم إبراهيم وال صحيح داود ) .

جانبه<sup>(١)</sup>.

كان أول عمل مشترك قام به زنكي وحليفه هو محاولة الاستيلاء على مدينة آمد ، فتوجها إليها وضررا عليها الحصار ، فأرسل صاحبها سعد الدولة إيكلدي (٥٣٦ - ١١٤١ م ) ، إلى داود يطلب منه النجدة ، فجمع هذا جيشه ومتظوعيه من التركان واتجه إلى آمد لرفع الحصار عنها ، فالتقى الطرفان على باب آمد في آخر جمادى الآخرة عام (٥٢٨ = ١١٣٤ م )<sup>(٢)</sup> ، وتقى داود إلى زنكي يطلب تأجيل القتال بعض الوقت فأجابه الأخير إلى ذلك . وكان داود يؤمل أن يتمكن خلال ذلك من إجراء مفاوضات لعقد الصلح ، إلا أن زنكي ما لبث أن أمر قواته بعباغته معسكر داود ، وكان أتباعه قد اطمأنوا إلى السلم ، فأطبق عليهم جند زنكي من كل جانب وشتموهم وقتلوهم عدداً كبيراً وأسرموا معظم أمرائهم ، وغنموا معسكرهم ، وفر داود والآخرون عبر المرتفعات<sup>(٣)</sup> .

استمر حصار زنكي وحليفه تراث لآمد ، وقاما خلال ذلك بعمليات تخريبية في المنطقة فقطعا الأشجار وخرقا بعض الجهات المكشوفة ، ولكن المدينة صمدت لما كانت تتمتع به من حصانة ، إذ كان يحيط بها سوران<sup>(٤)</sup> الأمر الذي اضطرها إلى رفع الحصار عنها بعد أن صالح صاحبها زنكي ، لقاء

(١) انظر الفارق ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٢١ ) .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ١٢٠ ب - ١٢١ ، ابن القلansi ، دمشق ص ٢٤٣ ، ابن الآثير ، الكامل ١١ / ٥ ، ابن العديم ، زينة الحلب - ٢٥٣ / ٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ، مخطوطة ٥٥ / ٣ - ٥٦ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٣ / ٥٥ - ٥٦ ) .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٦٦ - ١٢٢ ب ) .

مبلغ من المال دفع له<sup>(١)</sup> . ومن ثم اتجه زنكي وحليقه إلى قلعة الصور العائدة لداود والتي تقع في نفس المنطقة من ديار بكر وحاصرها وشدا عليها . وفي رجب من عام (١١٣٤ = ٥٢٨ م) تم الاستيلاء على القلعة بعد دفاع شديد من قبل حاميتها<sup>(٢)</sup> التي كان يقودها الأمير فخر الدين قرا ارسلان بن داود ثائباً عن أبيه<sup>(٣)</sup> وقد قتل في هذه المعركة الأمير حمدان بن أسلم والي القلعة<sup>(٤)</sup> .

سلم زنكي قلعة الصور وسلم مفاتيحها لحسام الدين واهباً إياها له<sup>(٥)</sup> ، تقديرأً لمساعداته لهوتاً كيداً لتحالفها الذي كان لا بد له من وسائل تقويه وتقيمه على أساس من المصالح المتبادلة ، حق يضمن بقاءه ليواجه أعداءه في المنطقة ويحقق مكاسب أخرى ويعيد الكفة على إمارقى آمد وحصن كيفاً .

وفي عام (١١٣٥ = ٥٣٠ م) ، اتسعت شقة الخلاف بين حسام الدين

(١) ينفرد ابن منقد ، الاعتبار (ص ١٥٥) ، بالقول بأن زنكي وحليقه انسحبوا إلى هزتتهم عند أسوار آمد ، والراجح ما أوردته بقية الروايات . انظر المامش التالي .

(٢) ابن القلانسي ، دمشق ص ٢٤٣ . الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٠ ب - ١٢١) . ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٥ ، الباهر ص ٤٨ (يشير إلى آمد فقط) ، أبو شامة ، الروضين ٧٩/١ (ط. جديدة) مكتفياً بالإشارة ، جاعلاً الحادثة عام ٥٢٩ وهو خطأ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٥٣/٢ - ٢٥٤ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ) جاعلاً الحادثة عام ٥٢٧ وهو خطأ ، والأصح عام ٥٢٨ كما هو واضح من سياق الأحداث ، ابن الفرات ، تاريخ ٥٥٣/٥ - ٥٦ (مخطوطة ٥٥٣ آ) .

(٣) ابن منقد ، الاعتبار ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ) .

(٥) ابن منقد ، الاعتبار ص ١٥٥ - ١٥٦ ، الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٠ ب - ١٢١ آ) ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٥٣/٢ - ٢٥٤ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ - ١٠٣ ب و ١٣٤ آ) .

وابن عمه وهدت بالحرب بحيث اضطر حسام الدين إلى نقض بعض الأجزاء التي لا تحتمل المقاومة من عاصمته ماردین ، وأمر سكانها بالانسحاب في الوقت الذي ازداد فيه تحالفه مع زنكي قوة عن ذي قبل وقاما بشن هجماتها على جبل جور والسيوان واستوليا عليها حيث وهبها زنكي خليفه<sup>(١)</sup> وعلى إثر هذه المساواة هرب قرا أرسلان بن داود إلى أبيه معرضاً مناطق ولايته للخطر<sup>(٢)</sup> ، وحاول حسام الدين الإفاداة من تحالفه مع زنكي في توسيع إمارته بضم بعض المواقع القريبة ، وتتمكن عام ( ١١٣٥ = ٥٣٠ ) من الاستيلاء على قلعة المتناخ<sup>(٣)</sup> وهي آخر حصون الإمارة المروانية في ديار بكر ، وكانت على غاية من الحصانة ، إلا أن ظروف المروانيين ساعدت حسام الدين على الاستيلاء عليها والقضاء نهائياً على بقايا الإمارة المروانية في المنطقة . وذلك أن ابن أحمد المرواني ( أمير الحصن ) تردد على أبيه أثناء تقبيله عن المتناخ عام ( ١١٣٣ = ٥٢٨ ) ، فلجأ الأمير أحمد إلى حسام الدين وأقام في خدمته فترة من الزمن ، استطاع خلالها ابن الأحمد ( وهو عيسى ) ، أن يطرد أخيه بهرام في مطلع عام ( ١١٣٤ = ٥٢٩ ) ، ويستولي على مقاييس الحكم في القلعة ، فأرسل إليه أبوه يطلب منه أن يسلم ( المتناخ ) إليه فرفض هذا طلبه ، وعند ذلك تقدم الأمير أحمد إلى حسام الدين وأعلن تنازله عن

(١) وربما فتحت البارعية أيضاً في هذه الجهة وأعطيت لحسام الدين ، كما يشير ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٥٤/٢ ، وهو المصدر الوحيد الذي يذكر ذلك ، كما أنه ينفرد ( ٢٧١/٢ ) بالإشارة إلى استيلاء زنكي على رأس العين وجبل جور أثناء تآزم العلاقة بينه وبين حسام الدين عام ٥٣٣ هـ . ويشير الفارقي ( مخطوطة ١٢٠ ب ) إلى أن زنكي وحليفه استوليا هذا العام كذلك على بالمرقتين في ديار بكر .

(٢) الفارقي ، ( مخطوطة ١٢٠ ب - ١٢١ أ ) ، ابن شداد ، ورقة ١٠٣ ب ،

(٣) المتناخ : قلعة حصينة قرب ميافارقين ( ياقوت ، بلدان ٩٥٢/٤ ) .

القلمة له وطلب منه أن يهاجمها ، فهاجمها هذا عام ٥٣٠ ، على اختلاف في المصادر ، وتكون من الاستيلاء عليها وضها إلى إمارته<sup>(١)</sup> . وبالرغم من استيلاه الأراقة على معظم حصن المروانيين ، فإن أبناءه هؤلاء وأحفادهم وأمراءهم اتخذوا من بلدان الأراقة مجالاً لنشاطهم الاعتيادي وأماكن لسكنهم ، وقد رحب بهم الأراقة وأعدّوهم مناصب إدارية عالية<sup>(٢)</sup> .

لم يلبث التحالف ، الذي كان قائماً بين حسام الدين وزنكي ، أن بدأ يضعف ، وكان السبب الرئيسي لذلك هو قيام الأمير أبي بكر ثائب زنكي في نصيبين بالالتجاء إلى حسام الدين ، فلم يقم هذا بتسليمه إلى زنكي ، فألح الأخير على تسليمه إليه فرفض ، وجرت بينهما منازعات طويلة بسببه اضطر حسام الدين ، على إثرها ، إلى تسليم أبي بكر إلى السلطان مسعود الذي سمه بدوره إلى زنكي لينال عقابه<sup>(٣)</sup> .

(١) الفارقي ، القسم المنشور ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، وتحتله بقية المصادر في تحديد تاريخ استيلاء حسام الدين على هذه القلعة ، فيجعلها كل من ابن القلافني ، دمشق ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، وسبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ١٦١/٨ ، عام ٥٣١ هـ . ويجعلها كل من ابن الاثير ، الكامل ١١/٢٧ ، وأبو الفدا ، الخنصر ٣/١٤ ، وابن خلدون ، المبر ٥/٤٩١ ، وابن العبري ، الخنصر ص ٣٥٨ عام ٥٣٢ ولا شك أن الفارقي يرجع غيره في هذا المجال لشخصه في تاريخ المنطقة .

(٢) الفارقي ، القسم المنشور ص ٢٥٢ - ٢٦٣ .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٣٦٢، ب) . ولم يشر الفارقي - ولا غيره من المؤرخين - إلى السبب الذي دفع ثائب نصيبين إلى الالتجاء إلى حسام الدين . وربما كان ذلك يرجع لقضايا إدارية ، أما سبب تشتت حسام الدين بهذا الامير رغم طلب حليقه زنكي تسليمه إياه فينبغي الفارقي إلى صفات حسام الدين في الكرم والجسود « وأنه كان له من النعة وحسن الجوار ما لم يكن للعرب » ، ورقه ١٣٦ آ ، ب.

غير أنه لم يحدث أي اصطدام بين الطرفين<sup>(١)</sup> ، لأن زنكي رأى أن من مصلحته الحافظة على هذا الحلف وتأسكه ليعينه على فرض سيطرته التدريجية على المنطقة ، ولكن لا يتوجه حسام الدين إلى التحالف مع ابن عمه وصاحب آمد فيبدو منزلاً بالتالي ، كما حدثت في العام نفسه حادثة أدت إلى تدهور العلاقات بين حسام الدين وابن عمه داود وزادت من تهلك الحلف بين زنكي وصاحب الأرتقي . حيث يشير الفارقى إلى أن داود أغزا أرزن<sup>(٢)</sup> وسبأ أهلها واستباح عسكره الناس ، ففر أميرها حسام الدولة قرقى بن الأحدب إلى ميافارقين ملتجأاً لدى تمرشash<sup>(٣)</sup> .

وهكذا بدا أن الظروف حتمت التقارب بين الطرفين من جديد ، فأرسل زنكي حاببه صلاح الدين الباغيسياني إلى ماردين للتفاوض مع تمرشash حول عقد الصلح (٥٣٨ = ١١٣٨م) ، ونجح الباغيسياني في مهمته بعد أن سلم حصن ذاراً إلى تمرشash ، ورحب زنكي في توثيق عرى هذا التحالف ، ووجد الزواج خير وسيلة ، فخطب لنفسه (صفية خاتون) ابنة حسام الدين تمرشash<sup>(٤)</sup> .

أدّت هذه الظروف الجديدة إلى اتساع شقة الخلاف بين تمرشash وابن عمه ، وبالتالي إلى اتساع نطاق العمليات الحربية والنشاط التخريبي بينهما فأغار داود

(١) يذكر ابن واصل ، مفرج الكروب ١/٨٣ أن زنكي نازل في هذا العام ٥٣٣ قلعة دارا التابعة لحسام الدين فلم ينزل منها طائلاً فرحل عنها إلى حران ، ولم تؤيد المصادر الأخرى هذه الرواية .

(٢) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط من فواحسي أرمينية (ياقوت ، بلدان ١/٢٠٥ - ٢٠٦) .

(٣) تاريخ آمد (مخطوطه ١٢١ ب).

(٤) المصدر السابق ، نفس الورقة ، ابن شداد ، الاعلاق (مخطوطه ١٠٣ ب) .

في عام (١٤٥٥هـ = ١١٤٠ م) على ميافارقين ونهب أطراها وحاصر المدينة طيلة ثانية أيام ثم رحل إلى (تل شيج) القرية منها فاستولى عليها ، وأقطع ما استولى عليه لأمرائه ، وقام بشن هجمات يومية منتظمة على ميافارقين ، وفرض سيطرته على المنطقة كما أخذ يقوم باختطاف السكان الذين كانوا يغادرون المدينة لقضاء حاجياتهم<sup>(١)</sup> . وكان ميافارقين آنذاك كل من شرف الدين حبشي وزير ترتاش والحاچب يوسف بن ينال « فدبرا الأمر وساسا البلد » واستطاع أن يصمد ميافارقين أمام ضغط وهجمات داود<sup>(٢)</sup> .

أسرع زنكى خلال ذلك بهاجة ممتلكات داود ليشغله عن التضييق على ميافارقين ، وليستغل الفرصة للحصول على بعض المغانم ، فتصدت له قوات الأخير بقيادة ابنه قرا أرسلان بالقرب من قلعة بهمرد<sup>(٣)</sup> ودارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها زنكى وانهزم قرا أرسلان تاركاً قلعة بهمرد تحت رحمة عدوه فاتجه هذا إليها واستولى عليها دون مقاومة تذكر ، واكتفى بهذه الفتحية<sup>(٤)</sup> لدخول الشتاء واستئداد البرد في المنطقة ووقف عائداً إلى الموصل<sup>(٥)</sup> .



(١) الفارقى ، قاریخ آمد (مخطوطه ١٢٢ آ)، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ ب).

(٢) المصادر السابقة ، نفس الاوراق .

(٣) بهمرد : يرجح أنها قرية من حصن كيفا في ديار بكر لكونها من ممتلكات الامير داود.

(٤) يذكر ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ورقه ١٢١ ب)، أن زنكى أخذ من الاراقية هذا العام حصن الموزر ، ولم يحدد تبعية هذا الحصن لأى من الإمارتين . ولا شك – إن صح الخبر – أنه كان ضمن إمارة داود التي تعرضت لهجمات زنكى هذا العام .

(٥) ابن الأثير ، السكامل ١١/٣٢ ويحمل ابن الأثير هنا داوداً نفسه قائداً لجيوش كيفا .

والواضح أن القيادة كانت لابنه كما ذكر ابن العديم ، زبدة الخلب ٢/٢٧٦ ، إذ إن الاب كان مشغولاً في هذه الفترة بشن الهجمات على ميافارقين . ويختفي ابن الأثير في الباهر من ٤٧ في جمل المحدثة عام ٥٢٦ وهذا شأن (الباهر) في ضبط التواريخ ، ابن واصل ، مفرج الكروب

أدرك كل من حسام الدين وداود أن هذا الخلاف الذي اشتد بينها واتسع إلى درجة الحرب والتخريب ، لن يفيد أحداً منها بقدر ما يفيد زنكي الذي قد يستغله بصورة دائمة من أجل الحصول على مكاسب أخرى في المنطقة وإخضاع الأرادة لطاعته . وفي بداية عام ( ١١٤١ = ٥٣٦ م ) تبادل الطرفان الرسل ودارت بينهما المفاوضات التي انتهت باقرار الصلح ، واتجه داود إلى ميافارقين حيث اجتمع بابن عمّه بعد سنوات من العداء<sup>(١)</sup> .

وأدرك زنكي أن الصلح الذي تم بين الاميرين الارتقين سيكون على حسابه للحد من مطامعه في المنطقة ، فاتخذ إجراءات سياسية تكفل عدم انزalه من جهة واكتساب حليف جديد يهدى به دائماً حليفه السابق حسام الدين إذا ما حاول التراجع أو معاداة زنكي من جهة أخرى ، كما يكفل له عزل صاحب آمد ومن ثم يسهل عليه تحقيق أهدافه في ديار بكر . وقد استطاع زنكي أن يحقق هذه الخطوات الثلاث في أقل من عام ، إذ تم الصلح بينه وبين داود الذي سرعان ما بعث أولاده لتقديم الطاعة لغريمه القديم<sup>(٢)</sup> . وبذلك ضمن زنكي لنفسه حليفاً جديداً قوي الشكيمة ، كان من قبل أشد أعدائه في المنطقة ، وكان زنكي - خلال ذلك - قد أرسل إلى صاحب آمد يطلب منه الانفصال عن موافقة داود والسير في فلك سياساته ، ويدعوه إلى الدخول في طاعته والخطبة له ، وهددته ، إذا لم يستجب له ، بالتوجه إلى آمد وحصارها ، فاضطر صاحب آمد إلى إيجابة مطالبه وأعلن الطاعة والخطبة له<sup>(٣)</sup> . وكان

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ورقة ١٢٢ آ ، ب ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٤ آ .

(٢) ابن العدين ، زبدة الطلب ٢٧٦/٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١/٣٦ - ٣٧ ، الباهمر ص ٦٤ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين

٩٢/١ (ط. جديدة) ، وابن واصل ، مفرج الكروب ١/٩٠ .

صاحب آمد من قبل حليفاً لداود ضد زنكي ، والراجح أن إجابته لمطالب الأخير كانت نتيجة لعقد الصلح بين زنكي وداود ، فهذا هو منعزاً وأضطر إلى إعلان الطاعة ، هذا فضلاً عن تخوفه من قوة زنكي العسكرية<sup>(١)</sup> .

### التمهيد للقضاء على الأراثة :

راح زنكي إثر ذلك يهد العدة للاستيلاء على ميافارقين التابعة لتمراثش ، فقرر التواطؤ مع شرف الدين حبشي ووزير حسام الدين الذي كانت علاقته قد ساءت مع صاحبه تمراثش<sup>(٢)</sup> ، فأرسل في أواخر عام (٥٣٦ = ١١٤٢ م) ، يطلب من تمراثش إرسال وفد للمفاوضة إلى الموصل برئاسة شرف الدين حبشي ، وأعلمه بأن هذا يمكن دون غيره من التفاهم معه والتوصل إلى اتفاق لصالح الطرفين ، فأجابه حسام الدين تمراثش وأرسل وفداً برئاسة حبشي إلى الموصل ، فاستقبلهم زنكي بـ إكرام بالغ وأبقاه عنده ثلاثة أيام عاد أعضاء الوفد بعدها وبقي حبشي في الموصل<sup>(٣)</sup> ، فقدم إليه زنكي هدايا ثمينة لاستئنته وجرت بينها مباحثات سرية انتهت بعزم حبشي على خيانة صاحبه ، حيث اتفق مع زنكي على تسليميه ميافارقين ، وحلف له على ذلك<sup>(٤)</sup> .

ويظهر أن السياسة الإدارية الظالمية التي اتبعتها حبشي إزاء الأهالي أثبتت عليه تمراثش فأخذ يتحين الفرص لضرب وزيره الذي غدا يتمتع بمركز قوي في الحكم ، لهذا فما أن غادر حبشي إمارة ماردين هذا العام إلى الموصل حتى اتخذ

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٣٧ .

(٢) انظر الفصل الخامس .

(٣) الفارق ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٢٢ ب) .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١٢٢ ب - ١٢٣ آ ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٤ أ) .

تمرتاش بعض الإجراءات الإدارية ضده وأطلق أحد مناوئيه من المعتقل ورد إليه جميع الأمور<sup>(١)</sup> وربما كان هذا هو الدافع الأساسي للمؤامرة التي دبرها جبشي مع زنكي . وكان استيلاء الأخير على مسيافارقين يعد ذا أهمية كبيرة لأنه يعطيه المجال للحصول على قاعدة للهجوم على بقية ممتلكات تمرتاش .

وإذاء هذه الخطوات السياسية التي اتخذتها زنكي خلال عامي (٥٣٦ - ٥٣٧ = ١١٤١ - ١١٤٢ م ) استطاع أن يحصل على مركز قوي في المنطقة ، وأن يستغل هذا المركز لمد نفوذه في ديار بكر ، والسيطرة على عدد آخر من الواقع يكفيه بعد ذلك ، من القيام بخطوته الحاسمة ، وهي الانقضاض على إسقاط حكم بني أرتق .

وفي أواخر عام ( ١١٤٣ م = ٥٣٧ ) وأوائل العام التالي قام زنكي بمهمة واسعة على حصن ديار بكر الشالية ، مستغلًا صلحه مع داود وخضوع صاحب آمد لسلطته رسمياً ، وانزعال تمرتاش وعدم استطاعته القيام بعمل ضدّه ، وقد تكون زنكي من الاستيلاء في هذه الجولة على عدد من القلاع والمحصون الواقعة في أقصى شمالي ديار بكر ضمن ولاية أمير محللي يدعى ( يعقوب بن السبع الأحمر<sup>(٢)</sup> ) ، فضلاً عن فرض سيطرته على حصن جملين التابع للأرانتقة ، ومن ثم قام بترتيب أوضاع هذه الحصون ووضع في كل منها حامية عسكرية لتحميها من هجمات الأعداء<sup>(٣)</sup> . وقد أدت هذه العمليات إلى

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ( خطوطه ورقه ١٢٢ ب - ١٢٣ ) ، وانظر الفصل الخامس.

(٢) واهم تلك الحصون الدوق وقطليس وباتسا وذى القرنين وطنزة واسمرد وحيزان ( انظر المأمور التالي ) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٣٩ ، الباهر ص ٦٦ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين =

تخفف تعرّثاً من نوايا زنكي فقام بهدم قلعة الأمراة القربيّة من ماردين وعدد من المواقع الحبيطة بها كي لا تكون أهدافاً سهلاً للنال لزنكي<sup>(١)</sup> ربما استغلها كموقع للهجوم على ماردين .

اتجه زنكي إثر ذلك مباشرةً لتصفية الإمارات الأرتقية ، فرأى أن يتقدّم أولًا إلى ميافارقين لتنفيذ الخطة التي رسّمها مع شرف الدين حبشي ، فزحف إليها على رأس قواته ونزل في إحدى ضواحيها القربيّة المسماة ( تل بسمى ) أملاً في أن يقوم حبشي المقيم في ميافارقين بتنفيذ ما اتفقا عليه من تسليم البلد إليه . ولكن المؤامرة اكتشفت واتفق رجالان من كبار أعيان البلد والمسؤولين فيها وهم ( مؤمل الشاقصي ) و ( محمد بن أبي المكارم الحلبي ) على اغتيال حبشي ليلاً وإنها الخطط الذي تعرضت له ميافارقين<sup>(٢)</sup> ، فدخلتا إلى مخدعه وضرّاه بالسيوف وأخذوا رأسه واتجّها بها إلى حسام الدين تعرّثاً في

---

= ٩٣/١ - ٩٤ ( ط. جديدة ) ، وابن واصل ، مفرج الكروب ١/٩٢ ، وأبو الفدا ، المختصر ٥/٢٥ ، وابن الوردي ، تتمة ٤٤/٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٧٧ ، العظيمي تاريخ مخطوطه ، حاشية ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٧٧ ، الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ٢١٢٩ ) ، وينقل عنه ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٤ ) ، وانظر ورقة ٢١ ب ) ، ابن قاضي شهبة ، السيرة التورية ( مخطوطة ٨٠-٨١ ) ، العمري تاريخ الموصل ، ص ٥٧ .

( ١ ) الأب أفرام برصوم ، نزهة الذهان في تاريخ دير الزعمران ، هامش رقم ١ صفحة ١٣ - ١٤ .

( ٢ ) كانت ميافارقين في هذه الفترة تحت ولاية يوسف بن ينال ، ولم تشر المصادر إلى الدور الذي لعبه هذا الوالي تجاه هذه الأحداث سوى أنه استمر في منصبه إلى رجب سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ م ) حيث توفي ودفن بها ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٤ - آمد ١٠٥ ) ، والراجح أن ابن ينال هو الذي أشرف على عملية اغتيال حبشي ولذا استمر في منصبه كوال على ميافارقين بعد فشل المؤامرة التي دبرها الأخير .

ماردين . وسرعان ما انتشر خبر الاغتيال فاضطراب جيش زنكي وعنه الفوضى ، مما اضطره للانسحاب والعودة إلى نصبيين ، إذ أن مقتل حبشي غير المتوقع جعل من الصعوبة عليه السيطرة على ميافارقين<sup>(١)</sup> .

وفي مطلع العام التالي (١١٤٤ = ٥٣٩ م ) ، توفي داود بن سقمان أمير حصن كيما خلفة ابنه فخر الدين قرا أرسلان<sup>(٢)</sup> ورأى منذ أن خير وسيلة للحد من أطماع زنكي وإيقاف خطره على الوجود الأرثقي في ديار بكر ، هي إنهاء الخلافات التي أحدهما زنكي بين إمارتي حصن كيما وماردين وإعادة التحالف النديم بينهما ، وقام بالخطوة الأولى في هذا السبيل وذلك بتصاهراته لعم راش في نفس العام<sup>(٣)</sup> .

إلا أن ما اتصف به قرا أرسلان من ضعف في تسيير شؤون إمارته هيأ لزنكي الفرصة لاستغلال هذا الضعف فاتجه إلى بلاده واستولى على مدينة حاني بعد حصار قصير الأمد<sup>(٤)</sup> ثم ما لبث أن استولى على أرقطين وحيرموك وبالموقتين ، وبذلك استطاع أن يفرض سيطرته على مناطق مهمة من إمارة

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٢٣ آ ، ب ) ، ونقل عن ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٤ آ ) . ويدرك ابن الأثير في الباهام ص ٦٦ أن زنكي استولى في هذه الجولة على عدة مواضع من أعمال ماردين ، ولم تؤيد ذلك المصادر الأخرى وبضمها الكامل مما يضعف هذه الرواية ويرجع عدم الأخذ بها .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٢٣ ب - ١٢٤ آ ، ١٣٠ ب ) ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٤ آ - ١٠٥ آ ) .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٢٣ ب - ١٢٤ آ ) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ٣٩/١١ ، الباهام ص ٦٦ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين / ٩٤ - ٩٣ ( ط . جديدة ) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٤ آ ) .

حصن كيما<sup>(١)</sup> .

أدت هذه العمليات العسكرية التي قام بها زنكي سواء مؤامرة في ميافارقين أم في مهاجمة أملاك قرا أرسلان، إلى عودة الخلاف بينه وبين حسام الدين خاصة بعد مهاجنته لبور والسيوان واستيلائه عليها بعد أن كان قد وهبها للأخير عام (١١٣٥ هـ = م ٥٣٠) <sup>(٢)</sup> .

لم يأبه زنكي لضياع حلفه القديم مع حسام الدين لأنّه كان قد ثبت مركره في ديار بكر وسيطر على مناطق استراتيجية هامة فيها واستولى على قلاع حصينة في شتى جهاتها ، كما كان داود بن سقمان قد توفي وخلفه ابنه الضعيف ، فلم تعد لزنكي حاجة إلى قيام المحالفات العدائية ضد أبناء العم من بني أرتق ، ولكن انهاكه في نفس العام (١١٤٤ هـ = م ٥٣٩) بفتح الرها الصليبية ، أنقذ حسام الدين من قيامه بهجوم جديد ضد ممتلكاته .

وراح حسام الدين خلال السنوات التالية يوثق علاقاته بالإمارات الحلبية المجاورة كخلط وأرزن وبدلليس وأمد عن طريق سلسلة من المصادرات بين أفراد العائلة الأرتقية وبين حكام هذه الإمارات <sup>(٣)</sup> ، فقوى بذلك مركره في المنطقة ، كما حاول استغلال وفاة داود أمير كيما عام (١١٤٤ هـ = م ٥٣٩) ،

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطه ١٢٨ ب - آ ١٢٩ ، ب ١٢٣) . وينقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطه ٤١٠ - ١٠٤ ب) . وتقع البلاد آنفة الذكر في الجهات الشمالية من ديار بكر .

(٢) المصادر السابقة ، نفس الاوراق .

(٣) انظر الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطه ١٢٣ ب - آ ١٢٤ ، ب ١٢٦ آ - ب ، آ ١٣١ - ب ، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة آ ١٢٢) .

فقام في العام التالي (١٤٥٥ م = ١١٤٥ هـ) بهاجمة ممتلكات فخر الدين قرا  
أرسلان بن داود وهزم قواته عند رأس عين<sup>(١)</sup>.

وعندما توجه زنكي عام (١٤٦٥ م = ١١٤٦ هـ) لحصار قلعة جعبر العائدية  
لسامي بن مالك العقيلي ، كان جمال الدين بن حسام الدين في خدمته . والراجح أن  
حسام الدين كان قد بعث ابنه استلة لزنكي ، ولكن ما لبث هذا أن قبض  
عليه واعتقله في معسکره<sup>(٢)</sup> . وربما كان هذا الإجراء استعداداً من زنكي  
لمهاجمة حسام الدين نفسه ، ولكن مقتله أثناء حصار جعبر سنة (١٤٦٥ م = ١١٤٦ هـ)  
أنقذ الأرaqueة من خطره بشكل نهائي .

### هجوم الأرaqueة إثر مقتل زنكي :

وما أن سمع الأرaqueة بمقتله عام (١٤٦٥ م = ١١٤٦ هـ) حتى هاجموا الواقع  
التي كان قد استولى عليها في ديار بكر وتمكنوا من استرداد معظمها ، أما  
حسام الدين فإنه ركب من ليلته وتوجه إلى حاني فنازلاها واستولى عليها يوم  
الأربعاء الثالث عشر ربيع الآخر سنة (١٤٦٥ م = ١١٤٦ هـ) ، ثم ما لبث أن  
استولى بعدها على جبل جور والسيوان والمرقتين ، ثم انحدر جنوباً واستولى على  
إقليم شمختان في ديار بكر وعلى الموزر وتل موزن وجملين ورأس عين ،  
واكفى بهذه الفتوحات وقفل عائداً إلى بلاده . وسار فخر الدين قرا أرسلان  
فاستولى على أرقتين وحيرموك وجميع البلاد التي كان زنكي قد استولى عليها  
بعيد وفاة داود أمير كيما ، كما تمكّن من الاستيلاء على حصن الدوق وفطليس

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٢٥ آ - ب ) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٢٧ آ ) .

وبلد صاف وقلعة الهيثم واسمرد ويامرد وطنزى وباتاسا<sup>(١)</sup> . وقد استفز ذلك سيف الدين غازي ، أمير الموصل ، الذي ورث هذه المناطق عن أبيه زنكى ، فضلاً عما بلغه عن تمراثش من أنه أظهر سروراً وفرحاً بقتل أبيه<sup>(٢)</sup> ، فتقدّم على رأس قواته لاستعادة ما استولى عليه الأرaqueة إثر مقتل زنكى. والانتقام منهم ، وتعكن من الاستيلاء على قلعة دارا وعدد من المواقع القريبة من ماردين ، ثم سار صوب إقليم شيختان<sup>(٣)</sup> التابع لتمراثش فنهب وسبى عدداً من سكانه<sup>(٤)</sup> ، وتقدّم – بعد ذلك – إلى ماردين نفسها فحاصرها وخرب بلداتها ونهبها « وفعل به الأفاعيل العظيمة »<sup>(٥)</sup> . فلما رأى تمراثش ما فعل سيف الدين غازي ببلده قال : « كنا نشكو من زنكى . وأين أيامه ؟ لقد كانت أعياداً ، وقد قصدها غير مرة فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره مخلافة ثبن بغير ثبن ، ولا تعدى هو وعسكره حاصل السلطان ، وأرى هذا ينهب البلاد ويخربها »<sup>(٦)</sup> .

(١) المصدر السابق ، ورقة ١٢٨ ب - ١٢٩ آ ، وتناول هذه الاحداث باختصار كل من ابن الاثير الباهر ص ٨٦ وأبو شامة ، الروضتين ١/٤٧ ، وابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٢١ ب ) . وينظر ابن الاثير وأبو شامة في الاشارة الى ان الارaqueة استولوا في هذه الجولة – كذلك – على موقعى المعدن وحيزان .

فالواقع ان هذين الواقعين ، وما جاورهما من ممتلكات ولآلية يعقوب بن السبع الاحمر في ديار بكر ، كان قد تم الاستيلاء عليها من قبل صاحب خلط الذي استغل هو الآخر فرصة مقتل زنكى . انظر الفارقى ، ورقة ١٢٩ أ .

وانظر Gibb, zengi and the full of Edessa, P. 513.

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٤/٦٣ - ٦٤ ) .

(٣) شيختان : كورة تند الى الجنوب من ديار بكر ، تضم عدداً من المواقع مثل تل بسمى ياقوت ، بلدان ١/٨٦٤ ) وتل قراد ( المصدر السابق ١/٨٦٩ ) وغيرها .

(٤) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٣/٦٣ - ٦٤ ) .

(٥) ابن الاثير الكامل ١١/٥٠ .

(٦) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، الباهر ص ٩١ ، أبو شامة ، الروضتين ١/٤٧ .

اضطر ترثاش إلى مراسلة سيف الدين غازي ، يطلب منه الصلح ويعده بتزويمه ابنته ، فأجابه سيف الدين إلى ذلك وقفل عائداً إلى الموصل . ومن ثم جرت مراسم تجهيز ابنته ترثاش <sup>(١)</sup> ، حيث حضر الشيخ ابن عصرون إلى ميافارقين وعقد عليها على عشرين ألف دينار ، وكان بصحبته جماعة من أمراء الموصل <sup>(٢)</sup> .

بعد أن أطمأن حسام الدين ترثاش من جانب حكام الموصل ، قام بهاجة ممتلكات إمارة حصن كيما ، مستغلًا صرف حاكمها قرا أرسلان ، فنانزل أسرعه عام (٥٤٣ = ١١٤٨ م) ، واستولى عليها ، ثم استولى على باتاسا ، وقد صحبه في هذه الحملة جمال الدين صاحب آمد وابن نيسان كبير أمرائها <sup>(٣)</sup> . وقد تكون قرا أرسلان من التعويض عن خسائره في نفس العام ، بأن ضم قلعة ملازكرد إلى إمارته ، بعد أن كانت مستقلة عنها تحت حكم أخيه أرسلان تغمش <sup>(٤)</sup> .

وعندما توفي سيف الدين غازي أمير الموصل عام (٥٤٤ = ١١٤٩ م) ،

(١) المصادر السابقة ، نفس الصفحات ، وسبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان / ٨ - ٢٠٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية / ١٢ - ٢٢٢ ، ابن خلدون . العبر / ٥٣٣ - ٥٣٤ . ويحيطه ابن الأثير في الباهار (ص ٩١) في جعل هذه الأحداث عام ٥٤٤ ، كعادته في عدم فضيحة التاريخ ، وينقل عنه ذلك ابن واصل ، مفرج الكروب / ١١٥ .

(٢) الفارقي : تاريخ آمد (خطوطة ١٢٩ ب) .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٣٠ آ . وقد بقيت هذه المواقع بيد ترثاش فترة من الوقت ثم ما أبى أن أعادها إلى أمير حصن كيما (المصدر السابق ، نفس الورقة) ربما لرغبتها في استئلة ابن عمه ، أو لتخوفه منه بعد انضمامه إلى نور الدين محمود .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد (خطوطة ١٣٠ آ) ،

وخلفه أخوه قطب الدين مودود ، أرسل إلى ترتراش في قضية ابنته التي لم يدخل بها سيف الدين ، فتم الاتفاق بين الطرفين على ترويجها قطب الدين على أن تكون مدينة دارا التابعة للموصل مهرآ لها . وعندما تم الزواج لم يف أمير الموصى بتعهده فاضطر ترتراش إلى منازلة دارا والاستيلاء عليها في ذي الحجة سنة (١١٥٠ = ٥٤٤ هـ) <sup>(١)</sup> .

### موقف الراشقة من سياسة نور الدين :

اتضح في نفس العام (١١٥٠ = ٥٤٤ هـ) موقف كل من إمارتي ماردین وحصن كيما الأرتقيتين من سياسة نور الدين محمود تجاه الموصى ، فعندما تقدم هذا إلى سنجر التابعة للموصى واستولى عليها ، أرسل من هناك إلى قرا أرسلان أمير حصن كيما يستدعيه إليه ، تقوية له على أخيه قطب الدين مودود ، لما بين الطرفين من علاقة ودية ، فاستجاب له قرا أرسلان وسار على رأس قواته إلى سنجر . فلما سمع قطب الدين – أمير الموصى – بذلك جمع قواته وتوجه إلى سنجر وترددت الرسل – إثر ذلك – بينه وبين أخيه وانتهى الأمر بعد صلح بينهما نص على احتفاظ نور الدين بالجهات الشامية من إماراة زنكي ، بينما بقيت الجهات الجزئية في حوزة قطب الدين <sup>(٢)</sup> .

وقف أمير ماردین إزاء هذه الأحداث موقفاً محابيداً ، التزاماً بالصلح الذي عقده مع الموصى عام (١١٤٧ = ٥٤٢ هـ) ، وقد أفاد من خلو الجهة امامه من

(١) المصدر السابق ورقة ١٣٢ آ ب .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١/٥٧ ، الباهر ص ٩٥ - ٩٧ ، أبو شامة ، الروضتين ١/٦٧ - ٦٨ ، ابن راصل ، مفرج الكروب ١/١١٨ - ١٢٠ ، وابن شداد ، الأعلاق (خطوطة ٤٦٨ آ) ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطة ٥/١٠ - ١٢) .

المشاكل ، فتمكن في العام التالي (١١٥٠ = ٥٤٥ م ) ، من انتزاع سيساط من أيدي الروم وضمها إلى إمارته<sup>(١)</sup> .

بلغ مركز ماردين السياسي في هذه الفترة درجة كبيرة من القوة ، بفضل سياسة حسام الدين إزاء الأمراء المحليين ، الذين غدوا يصدرون عن رأيه في تصريف أمورهم<sup>(٢)</sup> ، واستغل حسام الدين مركزه القوي هذا وقام في العام التالي ١١٥١ = ٥٤٦ بمحاولة للاستيلاء على آمد ، بحججة مطالبة أميرها بصدقاب ابنته ، فتوجه إليها ونازلها وسيطر على المناطق المحيطة بها واقطعها لأتباعه ، كما استولى على غلال ذلك الموسم ، فعالج أميرها جمال الدين محمود الأمور بحكمة وأرسل أولاده ومؤيد الدين بن نيسان ، كبير المتنفذين في إمارته ، لإعلان الطاعة لحسام الدين كما قدموا إليه مبلغاً من المال وأصلحوا أمرهم معه ، ومن ثم رحل حسام الدين عن آمد عائداً إلى ماردين<sup>(٣)</sup> . واتفق إن ذلك أن اغتيل زين الدين وزير حسام الدين واتهم ابن نيسان باغتياله ، مما دفع حسام الدين إلى منازلة آمد ثانية فضرب عليها الحصار وضايقها ، فتوسط لديه إبراهيم بهاء الدين وزير خلط ، واجتمع به عند أسوار آمد وتحدث معه في شأن الصلح ، ثم دخل إلى آمد واجتمع بابن نيسان وبحث الموضوع معه ، ومن ثم خرج إلى حسام الدين وتم على يديه عقد الصلح بين الطرفين ، وفي اليوم التالي خرج إلى حسام الدين كل من

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٣٣ آ ) ، ابن الشحنة ، المنتخب من ١٩٩ . وقد بقيت سيساط ضمن ممتلكات ماردين إلى أن استولى عليها مظفر الدين كوكبوري خلال إمارته على حران ( انظر المصادر السابقة ) . ولم تحدد هذه المصادر السنة التي تم فيها ذلك ( من العقد السابع من القرن المذكور ) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٣٢ ب - ١٣٣ آ ) .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٣٤ ب - ١٣٥ آ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٤٢ آ ) .

أمير آمد وزوجته وأولاده وأولاد ابن نيسان ، فقرر حسام الدين معهم قواعد الصلح ووقف عائداً إلى بلاده<sup>(١)</sup> .

وفي عام (٥٤٧ = ١١٥٢ م) توفي حسام الدين ترثاش بماردين<sup>(٢)</sup> وتولى الإمارة بعده ابنه نجم الدين أبي<sup>(٣)</sup> دون أن تنفسخ عليه حال ، وملك جميع ولاية أبيه ولم يختلف عليه أحد من إخوته ولا غيرهم ، ولم يعص عليه موضع ، وراسل جميع الجوانب واستحلفهم ، وراسلوه وعزوه في أبيه<sup>(٤)</sup> . ولم يطرأ على سياسة ماردين الخارجية في عهده أي تغير ، إذ التزم بالحياد الذي سار عليه أبوه تجاه الصراع بين نور الدين والإمارات المحلية المجاورة ، في الوقت الذي استمر فيه حكام كيما على مساندتهم لنور الدين ، وحصلوا مقابل ذلك على مكاسب عديدة .

وقد استغل أمير حصن كيما قوة مركزه ، بحالقته لنور الدين ، وقام بعدة محاولات لتوسيع إماراته ، وتتمكن عام (٥٥٦ = ١١٦٠ م) من الاستيلاء على قلعة شافان<sup>(٥)</sup> العائدۀ لطائفة من الأمراء تدعى (الجوبية) وقد

(١) الفارقي ، المصدر السابق ، ورقة ١٣٥ آ - ب .

(٢) يذكر ابن شداد ، المصدر السابق ورقة ٣٦ ب أن نور الدين محمود انتزع من ممتلكات ماردين - قبل وفاة ترثاش - قلعة البيره وسلمها لشہاب الدين محمد بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق . ولم يحدد ابن شداد ولا غيره من المؤرخين السنة التي تم فيها ذلك ، وهي على أية حال فيما بين ٥٤١ - ٥٤٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١/٧١ ، ابن شداد ١٠٥ آ ، أبو الفدا ، المختصر ٣/٢٧ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٥٣ .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٥ آ) .

(٥) لم تحدد المصادر الجغرافية موقعها في ديار بكر .

خر بها بعد استيلائه عليها وأضاف ولابتها إلى حصن طالب<sup>(١)</sup> كما قسام بعدها محاولات للاستيلاء على آمد ، وكانت المحاولة الأخيرة تلك التي راسل فيها جماعة من الأمراء الأكراد في آمد ، واتفق معهم على أن يقوم بتوجيه قواته إلى آمد ليلاً ليسلقوا بالحرب ويستولوا على آمد بمساعدة هؤلاء الأكراد ، وقد عين أمير حصن كيما لقيادة ذلك الجيش خادماً له ، كان الجندي يقتلونه لسوء أخلاقه ، فتقدم هذا الخادم على رأس قوات كيما ، وإذا تواني في سيره سبقه بقية الأمراء إلى آمد ، حيث مد لهم الأكراد الحبال وطلبوا منهم الصعود فرفض هؤلاء نداءهم ، فكسر الأكراد الأبواب وعرضوا عليهم الدخول فتذوفوا ، كل ذلك لاعتقاد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار ، وعندما علم أمراء آمد وجندتها بما يدور عند الأسوار باغتوا المهاجمين وقتلوا بعضهم ولاذ الآخرون بالفرار ، ومن ثم قبض صاحب آمد على المتآمرين وأعدمهم<sup>(٢)</sup> .

وفي عام (٥٦٠ = ١١٦٤ م ) ، قبل نور الدين محمود شفاعة حليفه فخر الدين في أخيه (أمير ميران) الذي استجار بأمير كيما إثر انهزامه من نور الدين في إحدى المعارك التي جرت بينهما<sup>(٣)</sup> .

وعندما اشتد مرض قرا أرسلان عام (٥٦٢ = ١١٦٦ م ) ، أرسل إلى حليفه نور الدين محمود يقول له « بيننا صحبة في جهاد الكفار - يقصد الصليبيين

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ١١٣ ، أبو الفدا ، المختصر ٤١ / ٢ ، ابن الوردي ، ترجمة ٦٤ / ٢.

(٢) ابن منقد ، الاعتبار ص ٨٤ - ٨٣ ، ولم يحدد هذا المصدر الفترة التي وقعت فيها الأحداث المذكورة .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٢٥٢ / ٨ .

— أربد أن ترعى بها ولدي<sup>(١)</sup> » وما لبث أن توفي وخلفه ابنه محمد ، فقام نور الدين بنصرته والدفاع عنه . وعندما حاول قطب الدين مودود ، أمير الموصل ، مهاجمة إمارة حصن كيما ليثار من موقفها المعادي للموصل ، أرسل إليه نور الدين يمنعه من ذلك ويقول له : إن قصده أو تعرضت لبلاده منعتك فهرأ ، فاضطر قطب الدين إلى التراجع عن محاولته<sup>(٢)</sup> .

وقف أراتقة حصن كيما إلى جانب نور الدين عندما توجه في سنة (٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م ) ، لتصفية مشاكل الموصل وإخضاعها لطاعته . حيث تقدم في مطلع ذلك العام ، فاستولى على الرقة والخابور ونصيبين وأقام هناك جيشاً له من أبناء المنطقة لأن معظم قواته كانت مرابطة في الشام لمحاربة الصليبيين ، ووعد أمير حصن كيما بأن يهب قلعة الهيثم<sup>(٣)</sup> لقاء مساعداته<sup>(٤)</sup> ، فتوجه إليه هذا على رأس قواته ، فاضطر أمراؤها إلى طلب الصلح وإعلان الطاعة ، ووقف نور الحصار عليها ، فاضطر أمراؤها إلى طلب الصلح وإعلان الطاعة ، ووقف نور الدين عائداً إلى حلب في شعبان ، واتجه حليفه أمير حصن كيما إلى بلاده<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن الأثير ، الكامل / ١١ / ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن واصل ، مفرج الكروب / ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) لم تحدد المصادر الجغرافية موقعها في ديار بكر .

(٤) أبو شامة ، الروضتين / ٣٨ / ٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب / ٢ / ١٣٢ - ١٣٣ ، وكلها نقل هذه الرواية عن العياد الأصفهاني ، وينظر ، ابن الأثير ، في الباهر ( ص ٩٦ - ٩٧ ) في القول بأن وعد نور الدين لأمير حصن كيما ينبعه الموقع المذكور حدث عام ٥٤٤ هـ . لدى توجيه نور الدين إلى الموصل لأول مرة .

(٥) ابن الأثير ، الكامل / ١١ / ١٤٦ - ١٤٧ ، الباهر ص ١٥٤ - ١٥٥ ، أبو شامة ، الروضتين / ١٨٧ - ١٨٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢ / ٣٣١ - ٣٣٣ .

ومن ثم وفي له نور الدين بوعده وسلمه قلمة الهيثم<sup>(١)</sup> .

وعند وفاة نور الدين محمود عام (٥٦٩ = ١١٧٣ م ) ، تمرضت المواقع القريبة من ماردين لجهات أمير الموصل إلا أنه لم يتعرض لممتلكات ماردين نفسها<sup>(٢)</sup> ، بسبب الموقف الحايد الذي التزمته هذه الإمارة إزاء الصراع بين نور الدين والموصل .

وبالرغم من اختلاف موقف كل من إمارتي ماردين وحصن كيما من تحركات نور الدين تجاه الإمارات المحلية في المنطقة ، فإن كلاً منها دخلتا في طاعته من الناحية الرسمية ، أي من ناحية الخطبة وانسكة ، وقد تأكّد ذلك بشكل نهائي عام (٥٦٨ = ١١٧٢ م ) ، عندما أرسل نور الدين محمود إلى الخليفة العباسى رسالة يطلب منه فيها تقليداً بما بيده من البلاد ... وما في طاعته كديار بكر فأجابه الخليفة إلى طلبه<sup>(٣)</sup> . هذا بينما استمرت خطبة الأرادة لسلطانين السلابقة ، وضررت السكّة باسمهم ، طيلة الفترة التي حكم فيها زنكي نور الدين<sup>(٤)</sup> .

\* \* \*

تضاءلت العلاقات بين الأرادة والزنكيين إلى حد كبير إثر وفاة نور الدين

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ٣٨/٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٤٢ ، وكلها نقل الرواية عن العميد الاصفهاني .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٦٥/١١ ، الباهر ص ١٧٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٥ - ٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٥٦٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٦٠/١١ ، الباهر ص ١٦٢ ، أبو شامة ، الروضتين ٢٢٩/١ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٠ - ٥٦٢ - ٥٦٣ .

(٤) الحسيني ، الدولة السلجوقية ص ١١١ - ١١٠ ، ١٦٤ ، ١٦٤ ، ابن خلkan ، وفيات الاعيان ١/٢١٧ .

محمود . ففي الشام ومصر وبعض أنحاء الجزيرة وأرمينية حلّت الدولة الأيوبية محل الدولة التي أنشأها نور الدين محمود ، وفي الموصل انشغل الزنكيون في الصراع ضد الأيوبيين . واتخذ الأراثقة تجاه الأيوبيين بصورة عامة أحد موقفين ، أولهما مساندة الأيوبيين ضد الإمارات المحلية وبضمنها الموصل ، وثانيهما التحالف مع الإمارات المحلية ، وبضمنها الموصل ، للخلص من النفوذ الأيوبي في الجزيرة ، وهكذا أغدت علاقات الأراثقة بالزنكيين أمراً ثانويًا إزاء علاقتهم مع الأيوبيين .

### الأراثقة وصلاح الدين :

ما إن تولى صلاح الدين بن أيوب مقاليد الأمور في مصر والشام بعد وفاة نور الدين محمود عام ( ٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م ) ، حتى بدأ العمل في تنفيذ خطة تستهدف توحيد الإمارات الإسلامية في الجزيرة والشام ، في نظام اتحادي ليتسنى له بعد ذلك إعلان الجهاد ضد الصليبيين ، بعد أن يكون قد أمن الخطوط الخلفية لنشاطه العسكري وضمن موارد عسكرية ، بشرية وتمويلية ، في قتاله لهؤلاء الأعداء .

وقد وقف الأراثقة في البدء إلى جانب الأمراء المحليين في المنطقة لإيقاف نشاط صلاح الدين وتقدمه هناك ، إلا أن ما أحرزه هذا من انتصارات ميدانية على أمراء المنطقة ، اضطر معظم الأراثقة إلى التخلي عن موقفهم العدائى منه حيث جاؤوا إلى مداراته وإعلان الطاعة له لينقذوا إماراتهم من هجوماته ، وليحصلوا من ناحية أخرى على بعض المكاسب لقاء وقوفهم إلى جانبه .

بدأ صلاح الدين خطته بمحاولة الاستيلاء على أهم معلم في شمالي الشام وهو حلب ، فتقدّم إليها عام ( ٥٧١ هـ = ١١٧٥ م ) ، ومنذ ذلك الوقت بدأ يتضاع

موقف الأرaqueة ، إذ سرعان ما أعلنا تأييدهم لأمراء الموصل والجزيرة وشمال الشام الذين شكلوا فيما بينهم تحالفاً عسكرياً وسياسياً للدفاع عن همتلكاتهم ضد صلاح الدين . وانضوى أميراً حصن كيما وماردين تحت قيادة سيف الدين غازي صاحب الموصل ، والتحق بهذا التحالف عدد آخر من أمراء المنطقة ، وقد بلغ عدد قواتهم ستة آلاف فارس <sup>(١)</sup> بدأوا تحركهم في ربيع الأول ، وعسكروا في نصبيين متظرين خروج الشتاء ، ولكن هذا الانتظار أدى إلى نفاذ أقواتهم وانتشار الملل بينهم فقدت العودة إلى بيوتهم مع الهزيمة أحـبـ إليـهمـ منـ الـظـفـرـ <sup>(٢)</sup> ، ثم اتجهوا إلى حلب وتقدم صلاح الدين بقواته دون جندهم عدداً ، وكان اللقاء في شوال عند تل السلطان قرب حلب حيث أسفـرـ عن هـزـيـةـ سـيفـ الدـيـنـ وـحـلـفـائـهـ ، وافتـحـ الطـرـيقـ أـمـامـ صـلاـحـ الدـيـنـ فـيـطـرـ عـدـدـ منـ الـحـصـونـ الـمـحيـطـ بـحـلـبـ ، ثم حـاـصـرـ حـلـبـ نـفـسـهـاـ وـجـرـتـ مـفـاـوضـاتـ بـيـنـ الـطـرـفـيـنـ ، أـسـفـرـتـ عـنـ عـقـدـ الصـلـحـ فـيـ الـعـشـرـينـ مـنـ مـحـرـمـ سـنـةـ (٥٧٦=١١٧٦م) وـقـدـ دـخـلـ فـيـهـ جـمـيعـ أـمـرـاءـ الـمـنـطـقـةـ وـبـضـعـنـمـهـمـ أـمـرـاءـ مـارـدـينـ وـكـيـماـ ، وـأـنـفـقـواـ عـلـىـ أـنـ يـكـوـنـواـ جـمـيعـاـ يـدـأـ وـاحـدـةـ عـلـىـ النـاكـثـ الـفـادـرـ <sup>(٣)</sup> .

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٧٤ - ١٧٥ . ويضيف قائلاً أن العياد الأصفهاني ذكر بأن قوات سيف الدين وحلفائه بلغت عشرين ألف فارس ، ولم يكن الأمر كذلك ، « إنما كانوا على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس بقليل . فإني وقفت على جريدة العرض ورتيب العسكر للصالف ميمونة وميسرة وقلبا .. وكان التولى لذلك والكاتب له مجد الدين بن الأثير » .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٧٤ .

(٣) المصدر السابق ١١/١٧٥ - ١٧٦ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣١ - ٣٤ ، أبو شامة ، الروضتين ١/٢٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٣٧ - ٤٦ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٤/٣٤ - ٣٢ ، أبو الفدا ، اختصار ٣/٦١ - ٦٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٢/٨٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٥٧١ - ٥٧٢ ، العمري ، تاريخ الموصل ص ٦٢ - ٦٣ =

وربما كان الدافع الأساسي لانضمام الأرادة إلى أمراء المنطقة ضد صلاح الدين ، هو رغبتهم في الخروج من العزلة التي فرضت عليهم طيلة حكم زنكي وبعض فترات حكم نور الدين ، وبخاصة أمير ماردين ، ومحاولة منهم للحصول على مزيد من المكاسب عن طريق التحالف مع الأمراء الجاوريين ، فضلاً عن أنهم ربما اضطروا إلى هذا التحالف لوقوعهم في قلب المنطقة المعادية لصلاح الدين . وعلى أية حال فإن هذه المبادرة العدائية سرعان ما أوقفت عند حدها بعد معركة تل السلطان ، واتخذ موقف الأرادة من صلاح الدين اتجاهًا آخر .

وتؤكدًا للصلح الذي تم في المحرم سنة (١١٧٦ م = ٥٧٢ هـ ) ، اتجه وفد مكون من رسل صاحب الموصل وأميري ماردين وكيفا إلى دمشق ، واستوئقاً بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، وقدموا هدايا عديدة ثم غادروا دمشق إلى مصر للجتماع بصلاح الدين<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

لم يحدث طيلة السنوات التي تلت ذلك ما يؤدي إلى نقض هذا الصلح من قبل الأرادة ، بل ظلوا على العهد مستفيدين منه في الحفاظ على ممتلكاتهم والحصول على معونة صلاح الدين ضد أعدائهم . وفي عام (١١٨٠ م = ٥٧٦ هـ ) ، ساءت العلاقات بين نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب إمارة كيفا وبين قلج أرسلان بن مسعود سلطان سلاجقة الروم . وكان سبب ذلك أن نور الدين كان

= ابن بهادر ، فتوح النصر ( مخطوطة ١ / ١٨ ) ، الميري ، مسالك الابصار ( مخطوطة ١ / ٦٦ - ٤٢ )

Gibb, The Rise of saladin, in setton 1/570.

Lane — Poole, saladin, P. 146.

(١) أبو شامة ، الروضتين ١/٢٦٩ ، ابن واصل ، مفرج الكردوب ٢/٥٧ .

قد تزوج ابنة قلج أرسلان، وبعد مضي فترة من الوقت أحب أمير كيما إحدى المغنيات فتزوجها ومال إليها وحকها في بلاده وخزانته وأعرض عن ابنة قلج أرسلان وأهلها، فبلغ أباها الخبر فعم على إعلان الحرب ضد نور الدين محمود والاستيلاء على بلاده، فأرسل الأخير إلى صلاح الدين يستجد به ويسأله كف قلچ أرسلان عنه<sup>(١)</sup>. وكان صلاح الدين بانتظار فرص من هذا النوع، إذ كان عليه أن يقوم بعزل كبار الأمراء الموالين للموصل ليتسنى له بعد ذلك فرض سيطرته عليها<sup>(٢)</sup> ومن ثم أرسل إلى قلچ أرسلان يطلب منه التخلّي عن محاولته ضد إمارة كيما، فأجابه هذا بأنه كان قد أعطى نور الدين محمد عدة حصون مجاورة لبلاده عندما زوجه ابنته، وبما أن صهره قد سلك مع ابنته هذا السلوك، فإنه قد قرر استعادة ما أعطاها إياه من الحصون. ومن ثم ترددت الرسل بين صلاح الدين وقلچ أرسلان دون أن تسفر عن نتيجة. فاضطر صلاح الدين إلى التوجه على رأس قواته لإيقاف قلچ أرسلان عند حدّه، والتحق به نور الدين محمد فلما سمع قلچ أرسلان بقرب قوات صلاح الدين منه أرسل إليه أحد كبار أمرائه لطلب الصلح. وانتهت المفاوضات بين الأطراف الثلاثة بعقد اتفاقٍ كان على أمير كيما بموجبه أن يخرج المغنية من بلده خلال مدة لا تزيد عن سنة، فإن لم يفعل يتخلّي صلاح الدين عن مساعدته ويتفق مع قلچ أرسلان ضده، ومن ثم عاد صلاح الدين إلى بلاده، وقام نور الدين محمد بإخراج المغنية من بلاده حيث اتجهت إلى بغداد<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٩٦/٢ - ٩٨ .

(٢) Gibb, The Rise of saladin, in setton 1/574 - 575.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٩٦/٢ - ٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين ١٦/٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٤/٣٦٠ - ٣٦١ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥١ - ٣٥٢ .

Gibb, op. cit. 1/574 - 575.

ما لبث قلح أرسلان أن أرسل إلى صلاح الدين يتمنى عقد صلح بين أمراء المنطقة جمعاً، فتم ذلك في العاشر من جمادى الأولى سنة (٥٧٦هـ = ١١٨٠م)، ودخل فيه جميع أمراء الموصل وديار بكر والأرادة<sup>(١)</sup> وهكذا جاء هذا الصلح ليؤكد الصلح السابق الذي عقد عام (٥٧٢هـ = ١١٧٦م)، وغدا الأرادة بوجبه في سلام تام مع جميع الأمراء المحليين في المناطق المحيطة بهم، فضلاً عن تعميمه بال Majority الكاملة من قبل صلاح الدين الذي كان يضطر أحياناً إلى استخدام القوة في فض المشاكل القائمة بين الأرادة وجيرانهم<sup>(٢)</sup>.

#### الخلاف بين الارادة:

ولكن إذا كان الأرادة قد أمنوا جانب صلاح الدين وجيرانهم من أمراء المنطقة، إلا أن النزاعات الأسرية التي نشبت بينهم بسبب الرغبة في التوسيع الإقليمي كل على حساب قريبه قد أوهنت من قوتهم. ذلك أن قطب الدين إيلفازاري بن أبي صاحب ماردين طمع في الاستيلاء على قلعة البيرة<sup>(٣)</sup>، التابعة لأحد أبناء عمده، وكان هذا تحت حماية عز الدين مسعود صاحب الموصل. فأرسل صاحب ماردين إلى صاحب الموصل عام (٥٧٧هـ = ١١٨١م)، يطلب منه أن يأذن له في حصار البيرة والاستيلاء عليها فأذن له، فتوجه على رأس قواته إلى قلعة سميساط التابعة له ونزل بها ووجه عسكره إلى البيرة لحصارها، وقد استمر الحصار دون الحصول على نتيجة فأرسل صاحب البيرة

(١) ابن شداد، سيرة صلاح الدين ص ٣٥-٣٦، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ٢/١٧.

Gibb, op. cit, 1/574 — 575. Runciman, A History of the crusades 11/422, Grousset, Histoire des croisés 11/683.

(٢) أبو شامة، الروضتين ٢/٢٤.

(٣) البيرة: قرب سميساط على الفرات بين حلب والثغور الرومية (ياقوت، بلدان ١/٧٨٧).

إلى صلاح الدين يطلب منه إنجاده وإجلاء قوات ماردين عن مدینته لقاء الدخول في خدمته والاستظلال بحمایته ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وبعث رسولاً إلى صاحب ماردين يشفع فيه ويطلب منه أن يسحب قواته عن البيرة ، فلم يقبل صاحب ماردين شفاعته واستغل انشغال صلاح الدين مع الصليبيين فأمر عسكره أن يطيل الحصار . وإذا لم يحصلوا على غرضهم أمرهم بالرحيل عنها ووقف عائدًا إلى ماردين ، ومن ثم اتجه صاحب البيرة للاتصال بصلاح الدين خلال تحركاته في المنطقة تنفيذًا للاتفاق الذي تم بينهما<sup>(١)</sup> .

ومنذ هذه الحادثة وطيلة السنوات التالية ، دب الشقاق بين الإمارات الأرتقية بسبب تضارب المصالح والأهداف ، فقد اتبعت إمارة حصن كيما سياسة متعارضة مع سياسة ماردين تجاه خطط صلاح الدين في المنطقة ، إذ استمر أمير حصن كيما على ولائه له ، وحصل من جراء ذلك على مكاسب هامة ، بينما حاول صاحب ماردين الانضمام إلى الأحلاف المعادية لصلاح الدين .

ففي عام (٥٧٨ = ١١٨٢ م ) ، توجه صلاح الدين إلى الجزيرة بدعاوة من بعض الأمراء الموالين له للاستيلاء على المناطق التي لم تخضع لنفوذه . فتقدم إلى البيرة حيث يقيم حليفه شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقي ، فنزل إليه وأعلن طاعته له ، وسألته الدخول إلى قلعة البيرة وقدم له مفاتيحها تأكيدًا لولائه المطلق له ، فردها صلاح الدين إليه ووعده باسترداد المناطق التي انتزعها منه صاحب ماردين وإعادتها إليه ، وما لبث أن أرسل إلى الأخير يأمره

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٩٣ - ١٩٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٦١ - ٦١٧ ، أبو شامة ، الروضتين ٢٠/٣٠ - ٣١ .

بالتنازل عن تلك المناطق فاضطر هذا إلى إجابة طلبه<sup>(١)</sup> .

عبر صلاح الدين وخلفاؤه الجسر القريب من البيرة صوب الشرق . وكان صاحب الموصل قد سار - إثر ذلك - إلى نصبيين على رأس قواته استعداداً لتحرّكات صلاح الدين ، فكَاتَبَ هذا أصحاب الأطراف وبذل لهم الوعود على نصرته<sup>(٢)</sup> ، وأعلن أن من قدم الطاعة منهم سلت بلاده ومن أبى عرض نفسه للهجوم<sup>(٣)</sup> ، فأجابه نور الدين محمد صاحب كيما بوجب اتفاق تم بينهما سابقاً ، وهو أن يقوم صلاح الدين بالاستيلاء على آمد وتسليمها إليه<sup>(٤)</sup> ، فضلاً عما كان صاحب كيما يكتنه من ولاء لصلاح الدين لوقفة إلى جانبه في صراعه ضد سلطان سلاجقة الروم<sup>(٥)</sup> .

وبعد أن استولى صلاح الدين على عدد من المدن الجزرية ، تقدم إلى الموصل وثارها في رجب ، ولعب أمير كيما دوراً مهماً في حصارها إذ كلف بالمرابطة على باب الجسر ، إلى الجهة الجنوبية الشرقية من الموصل ، وجرت مناورات بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة . ولم تفلح الجهود التي بذلها الخليفة العباسي وأمراء أذربيجان وأرمينية من أجل الصلح ، وإذ رأى صلاح الدين حصانة

(١) أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٠ - ٣١ . ولم يحدد هذا المصدر الواقع الذي تم التنازل عنها ، وفي رواية ابن شاهنشاه ( مضمار الحقائق مخطوطة ص ١٢١ ) إن جند صاحب ماردين انهزموا من تلك الموضع إثر تقدم صلاح الدين إلى المنطقة ومن ثم أعادها الأخير إلى حليفه شاه الدين الأرتقي .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٩٧ - ١٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٠ - ٣٣ .

(٣) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ١٢١ ) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٩٧ - ١٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٠ - ٣٣ .

(٥) ابن شاهنشاه ؛ مضمار الحقائق ( مخطوطة ١٢٢ ) .

الموصل وعدم جدوى الاستمرار في حصارها غادرها إلى سنجار واستولى عليها في شعبان<sup>(١)</sup>، ثم اتجه إلى نصيبين ومنها إلى دارا ، حيث تقدم أميرها صماصم الدين بهرام الأرتقي للقائه والترحيب به ، فأكرمه صلاح الدين ولم يمترضه وغادر دارا إلى حران عائداً إلى بلاده في مطلع ذي القعده<sup>(٢)</sup> وقد استطاع أمير كيما أن يحصل لقاء موقفه هذا على عدد من المchosون المهمة في ديار بكر وهبها إياه صلاح الدين كقلعة الهيثم وقلعة الجديدة القرية من نصيبين ، فضلاً عن وعد الأخير بالاستيلاء على آمد وتسليمها إليه<sup>(٣)</sup> .

وخلال هذه الفترة كانت قد جرت مراسلات بين الأمراء المعادين لصلاح الدين شكلاً على إثرها تحالفًا ضم صاحب الموصل وصاحب خلاط وتبعها أصحابه بدلليس وإرزن وحلب وماردين . وقد استهدف هذا التحالف مجاهبة صلاح الدين بالطرق السلمية أولاً ، فأرسلوا إليه وهو على حصار سنجار يطلبون منه الانسحاب وإلا أعلنوا عليه الحرب فلم يحبهم إلى ذلك ، فتقدمن كل من أميري خلاط وبدلليس إلى ماردين حيث اجتمعا بقطب الدين بن نجم الدين إلى

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ١٩٧ - ١٩٨ ، أبو شامة ، الروضتين ٢ / ٣٠ - ٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ١١٧ - ١٢٤ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ١٣٠ - ١٣١ ) ، ابن يهادر ، فتوح النصر ( مخطوطة ٢١/١ ) ، العمري ، مسالك الابصار Lane — Poole, saladin, P. 171, Gibb, The ( مخطوطة ١ / ٢٧ - ٢٧ ) Rise of saladin, in setton 1/576 - 77.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٣٢/٢ ( عن العياد ) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ ( عن العياد ) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ١٣١ ) ، Gibb, op. ep. cit, 1/577.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ٣٨-٣٧/٢ ( عن العياد ) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ ( عن العياد ) .

الأرتقي ، كما تقدم عز الدين صاحب الموصل بقواته على جناح السرعة للجتماع بهم ، وكانت تربط صاحب ماردين بكل من أميري خسلاط والموصل صلات قرابة ساعدت على وقوفه إلى جانبهم ، وكان صلاح الدين آنذاك قد استولى على سنجار وسار إلى حران وفرق عساكره هناك فلما سمع بجاتع هؤلاء الأمراء ، أرسل إلى تقى الدين ابن أخيه بجهة يستدعيه ، فوصل إليه مسرعاً وأشار على صلاح الدين بالتقدم لجاهة المتحالفين ، بينما حذر من التسرع آخرؤن ، واستقررأي صلاح الدين على التقدم فتوجه إلى رأس عين ، فلما سمع المتحالفون بتقدمه تفرقوا ، فعاد شاه أرمن إلى خلاط محتاجاً بالعمل على جمع قواته هناك ورجع عز الدين إلى الموصل ، بينما بقي قطب الدين بماردين ، فتقدم صلاح الدين إليها وعسكر بقرية حرم التابعة لها ، بعد أن فرض سيطرته عليها ، ولما لم يسفر بقاءه هناك عن نتيجة تقدم إلى آمد ، بعد أن استأذن الخليفة الناصر بمجاجتها فأذن له ، وكان نور الدين محمد صاحب كيما يكرر طلبه على صلاح الدين دائماً بمجاجتها والاستيلاء عليها وتسليمها إليه ، وفقاً للاتفاق الذي تم بينهما . فوصل الأخير إلى آمد في السابع عشر من ذي الحجة (١١٨٣ = ٥٧٨ ) ، وضرب عليها الحصار ، وكان حاكماً الفعلي آنذاك بهاء الدين بن نيسان ، ولم يكن لصاحبها محمد بن إيكليدي أية سلطة ، فلما حاصرها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ، ولم يعط الناس شيئاً من الذخائر أو النقود ، وقال لأهل البلد « قاتلوا عن نفوسكم » ف قال له بعض أصحابه « ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم » !! وببدأ صلاح الدين بقتالهم ونصب المناجيق وشدد ضرباته لشدة حصانة القلعة . ولكن سوء سيرة ابن نيسان في أهالي آمد ، وكراهية هؤلاء لحكمة ورغبتهم في زواله ، فضلاً عن قيام صلاح الدين بإرسال الرسائل إلى كبار أمرائهم يعدهم وينيهم ، ويتهدم إن أصرروا على القتال ، أدى إلى انتشار التخاذل بينهم وعدم الجد في الدفاع مما اضطر ابن نيسان إلى طلب الأمان له

ولأمهه وأن يوجله صلاح الدين ثلاثة أيام لنقل الأموال العظيمة التي يتلكها فأجابه السلطان إلى ذلك ، وانقضت الأيام الثلاث قبل أن يفرغ ابن نيسان من نقل أمواله ، فمنع من نقل الباقي ، وكانت أبراج المدينة مليئة بأنواع الذخائر فاضطر ابن نيسان إلى تركها فتسليها صلاح الدين في العاشر من محرم سنة ٥٧٩<sup>١</sup> وسلها وأعمالها إلى نور الدين صاحب كيما ، فقيل له قبل تسليمها « إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو أخذت ذلك وأعطيته لجندك وسلمت البلد إلى نور الدين فارغاً لكان راضياً » ، فإنه لا يطمئن في غيره » فقال : « لا أضن عليه بما فيها من الأموال فإنه قد صار من أصحابنا وأتباعنا »<sup>٢</sup> وقال : « ما كنت لأعطيه الأصل وأدخل بالفرع » ، فلما تسلم نور الدين البلد ، أقام دعوة عظيمة لصلاح الدين وأمراته وقدم لهم الكثير من التحف والهدايا<sup>٣</sup> أما محمود بن إيكلاعي أمير آمد ، فقد كان شيخاً كبيراً ،

(١) أبو شامة ، الروضتين ٣٩/٢ (عن العجاد) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ١٦٩ ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١/٤٠٠ - ٢٠١ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/٣٧ - ٤٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٣٩ - ١٣٩ ، ابن شداد ، سيرة ص ٣٨ ، ابن البري ، مختصر ٣٨٠ - ٣٨١ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٢١٢ - ١٢٣ ب ) . ( نقلًا عن الكامل ) ، سبط ، مرآة الزمان ٨ / ٣٧٥ ، وأبو الفدا ، المختصر ٣/٦٩ ، ابن الوردي ، تنمية ٩٣/٢ ، ابن كثير ، البداية ١٢/٣١٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٣٧٤ - ٥٧٨ ، ٣٧٥ ، المقرizi ، السلوك ٨٠/١ - ٨١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦ / ٩٤ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ( مخطوطة ١/٢٢ باختصار ) ، العمري ، مسالك الأ بصار ( مخطوطة ٢٧/١ - ٧٩ ) ، التوبيري ، نهاية الإرب ( مخطوطة ١١٦/٢٦ ) ، عيون الأخبار ( مخطوطة ١٦١ ) ، ابن الشحنة ، روضة ٢٠/٩ ، تقى الدين عمر ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ١٣٢ - ١٦٦ ) ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ١٨٨ ، ١٦٦ - ١٧٠ ، Gibb, The Rise of Saladin, in setton, 1/577.

M. W Baldwin, The Decline and Fall of Jerusalem, setton 1/599, Lane - poole, Saladin, p.172.

ولذا أكرمه صلاح الدين وأحسن إليه وأمر نور الدين أن لا يسيء إليه وأن يقدم له ولأصحابهسائر ما يحتاجونه ، فأجابه نور الدين إلى ذلك ولم يزل إيكليدي عنده حق وفاته<sup>(١)</sup> . ودخل صلاح الدين مدينة آمد وجلس في دار الإمارة واستحلل نور الدين على إقامة العدل وقع الجور وأن يكون « ساماً مطيناً للسلطان من معاداة الأعداء ومصافحة الخلان في كل وقت وأنه متى استمند من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقطن »<sup>(٢)</sup> . ومنذ ذلك الحين - فا بعد - أصبحت آمد - بدلاً من كيما - مركزاً لهذه الأسرة الأرتقية<sup>(٣)</sup> ، بسبب المكانة التي كانت تتمتع بها .

-

وبعد هذا النجاح الذي حققه صلاح الدين في ديار بكر ، والمقاسب التي حصل عليها أمير كيما نتيجة موقفه الودي منه ، أدرك أمير ماردين عدم جدوى المقاومة أو اتخاذ موقف سليبي تجاه صلاح الدين ، خوفاً من نتائج عدائه ورغبة في الحصول على مكاسب كالمقاسب التي حصل عليها صاحب كيما ، فأرسل رسوله إلى صلاح الدين بعید عودته يطلب لصاحب الأمان ويعلن دخوله تحت طاعته وحماية فاجابه السلطان إلى ذلك ، واقتدى بصاحب ماردين عدد من أمراء المنطقة<sup>(٤)</sup> . ومن المرجح أن الأرتقية اشتراكوا مع صلاح الدين - إثر

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ١٣٣/٢ - ١٣٥ ، أما سبط ( مرآة الزمان ٣٧٥/٨ ) فيذكر أن إيكليدي غادر آمد إلى الموصل بمساعدة صلاح الدين .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٢ / ٤١ - ٤٢ ( عن العياد ) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١٦٩ - ١٣٣/٢ ، ابن شاهنشاه ضمار الحقائق ( مخطوطه ١٧٠ ) .

Enc. Isl. art: Artukids, By c. Cahen (New Ed). (٣)

(٤) أبو شامة ، الروضتين ٤٢ ( عن العياد ) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ١٣٩ ( عن العياد ) المقرizi ، السلوك ١/١٨٠ وانظر :

ذلك - في فتح حلب ، إذ تشير المصادر إلى أنه عند توجهه إليها استدعي العساكر من الأطراف فاجتمع لديه خلق عظيم واستطاع أن يدخل حلب في الثالث من ربيع الأول (١١٨٣ هـ = ٥٧٩ م) ، ومن ثم أعطى العساكر الإذن في العودة إلى بلادهم<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

بقي الأرaque طيلة ستين على عهدهم مع صلاح الدين ، ولكن الأحداث التي شهدتها الجزيرة في مطلع عام (١١٨٥ هـ = ٥٨١ م) ، أثرت إلى حد كبير على هذه العلاقات ، ذلك أن زين الدين يوسف ، صاحب إربل استنجد بصلاح الدين بسبب قيام صاحب الموصل وبعض حلفائه في أذربيجان بهاجمة إربل<sup>(٢)</sup> ، فقاد رجل الدين دمشق على رأس قواته وتقىدم إلى حران فوصلها في الثاني عشر من محرم (١١٨٥ هـ = ٥٨١ م) ، وغادرها إلى ديار بكر فوصلها في ربيع الأول ، واجتمع به هناك رسول قلوج أرسلان سلطان سلاجقة الروم وأخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصده إن لم يبعد عن الموصل وماردين وأنهم على عزم مقاتلته إن أصر على ذلك<sup>(٣)</sup> فلم يأبه صلاح الدين لذلك وواصل تقدمه إلى رأس عين ثم دينسبر فدارا ، حيث استقبله أمراؤها بالحفاوة والإكرام ، وقدم إليه هناك عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان على رأس قواته نيابة عن أخيه نور الدين أمير كيما وآمد الذي كان مريضاً آنذاك ، ومن ثم تقدم السلطان إلى نصيبيين بعد أن كثرت جموعه حيث لحق به هناك صاحب جزيرة

(١) ابن شداد ، سيرة ص ٣٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١٤١/٢ - ١٤٢ ، ١٤٧ ،

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ١٦٥/٢ - ١٦٦ ، المقرizi ، السلوك ٨٩/١١ .

ابن عمر ، فسار إلى الموصل \* وحاصرها - بعد استئذان الخليفة - وجرت مفاوضات بين الطرفين لم تسفر عن شيء ، فاضطر الطرفان إلى إجراء مفاوضات استمرت طيلة ربيع الآخر ، انسحب صلاح الدين بعدهما عن الموصل بسبب وفاة شاه أرمن صاحب خلط في التاسع من ربيع الآخر ، ورغبتة في استغلال هذه الفرصة للسيطرة على بلاده ، فتقدم إلى ميافارقين العائد لأمير ماردين ، وجرت من هناك مفاوضات بينه وبين أهالي خلط انتهت بالصلح<sup>(١)</sup> .

أحسن الأرادة بالخوف إزاء تحركات صلاح الدين في ديار بكر ، وكانت قطب الدين إيلغازي بن أبي أمير ماردين قد توفي في جمادى الآخرة (٥٨٠ هـ = ١١٨٥ م ) ، وخلفه حسام الدين يولق أكبر أولاده وله من العمر عشر سنين ، كما توفي أيضاً نور الدين محمد بن قرا أرسلان أمير كييفاً وأمد في منتصف ربيع الأول (٥٨١ هـ = ١١٨٥ م ) ، وخلفه ابنه قطب الدين سقمان ، فخاف هذا أن يسترد صلاح الدين منه مدينة آمد . وكان السلطان قد أرسل من جهته أحد رسليه ليتأكد من موقفهم تجاهه ، فوجدهم لا زالوا على الطاعة له والرغبة في الإنقاء إليه<sup>(٢)</sup> . وعندما رأى عدم خروج أمراء ميافارقين للقاءه بسبب دخول أسد الدين يرنقش أحد أمراء صاحب ماردين إليها وعصيائه فيها ، اضطر إلى حصار المدينة<sup>(٣)</sup> وضررها بالمجانيق ، وحين أدرك عدم جدوى القتال راسل أسد

(١) ابن الأثير ، الكامل ٢٠٩ / ١١ - ٢٠٨ / ١١ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة

Lane — pool, saladin, PP. 192 — 193, ( ٢٨٠ - ٢٨١ )

Gibb, The Rise of saladin, in setton 1/580.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٦٢ / ٢ ( عن العياد ) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ) ( ٢٨٨ )

(٣) كان حكم ميافارقين قد غدا لشاه أرمن أمير خلط بسبب قرابتة من أرادة ماردين ، وكان قد وضع قوانبه فيها ( ابن الأثير ، الكامل ٢٠٩ / ١١ - ٢١٠ ) .

الدين ورغبه في الاستسلام ونهاه عن الاستمرار على المصيان . وكان في المدينة آنذاك خاتون ابنة قرا أرسلان وأخت نور الدين محمد صاحب حصن كيفا، فأحال أسد الدين الأمر عليها ، فراسلها السلطان ورغبتها وضمن لها كل ما تطلبه منه ، ووعدها أن يزوج بنيه من بناتها<sup>(١)</sup> . ويقال إن صلاح الدين أرسل إلى الخاتون يقول لها : « إن أسد الدين قد مال إلينا في تسلیم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ، ونزيد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادي وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك » ، كما أرسل إلى أسد الدين يعرفه أن الخاتون قد مالت إليه وأذ من بخلاط قد كاتبوا ليسلموا إليه البلد<sup>(٢)</sup> . واتفق أن رسولاً وصل إلى معسکر صلاح الدين من خلاط ، وأعلمه عن بذل أهل خلاط طاعتهم له وأنهم يستدعونه إليهم ليسلموا إليه البلد ، فأمر صلاح الدين الرسول فدخل ميافارقين وأعلم أسد الدين بوقف أهالي خلاط ، فأسقط في يده وضعف معنويته وأرسل إلى صلاح الدين يقترح منعه إقطاعاً وما لقاء تنازله عن ميافارقين فأجبـابه إلى ذلك<sup>(٣)</sup> ، ومنعه جبل جور<sup>(٤)</sup> ، كما منع الخاتون كل ما كانت تلـكه ، فضلاً عن حصن

(١) أبو شامة ، الروضتين ٢ / ٦٣ - ٦٤ ( عن المعاد ) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ٢٨٨ - ٢٩١ ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٢٠٩ - ٢١٠ ، ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٦ - ب ) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ٢٠٩ - ٢١٠ ، أبو الفداء ، المختصر ٣ / ٧٣ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٦ - ب ) ، العمري ، مسالك الأبصار ( مخطوطة ٢٧ / ٨٥ - ٨٥ ) ، ابن بهادر ، فتوح النصر ( مخطوطة ورقة ٢٣ / ١ ) .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٤ / ٣٨٤ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ٢٩٠ - ٢٩١ ) .

المتاخ ليكون مقرأ لها ولأبنائها ، ومن ثم تم إبرام الصلح بين الطرفين<sup>(١)</sup> و وسلم السلطان البلد في مطلع جمادى الأولى ، واجتمع به هناك قطب الدين سقمان بن نور الدين صاحب آمد وكيفا ، فأكرمه وأعاده إلى بلاده دون أن يعترضها بآذى وهو كان قطب الدين خائفاً من أن يسترد صلاح الدين منه مدينة آمد<sup>(٢)</sup> . وقد شرط صلاح الدين على الأرتقاء أن يراجعوه فيما يفعلونه ويصدروا عن أمره ونهيه ، ورتب مع قطب الدين أحد أمرائه<sup>(٣)</sup> ليراقب مدى تنفيذ التزاماته تجاه صلاح الدين ، وولى على منطقة ديار بكر ملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي<sup>(٤)</sup> .

وصل صلاح الدين - آنذاك - كتاب من الخليفة العباسى ، بتقليده النظر في أمر ديار بكر ومصالح أيتام ملوكها ، فخطب له في الولايات الأرتقية وضررت باسمه النقود<sup>(٥)</sup> ، ومن ثم قفل عائداً إلى الموصل وعقد الصلح مع أصحابها بوجوب شروط معينة . وفي الكتاب الذي وجّهه العياد الأصفهاني إلى أخي صلاح الدين في اليمن ، إيضاح للقواعد التي استقرت عليها الأوضاع في المنطقة بين صلاح الدين والأمراء المحليين ، وبضمهم الأرتقاء ، جاء فيه « .... وقد حصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة

(١) أبو شامة ، الروضتين / ٦٣ - ٦٤ ( عن العياد ) ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطه ٢٩١ - ٢٩٢ ) ، النويري ، نهاية الإرب ( مخطوطة ١١٧ / ٢٦ ) .

(٢) أبو شامة ، الروضتين / ٦٣ / ٢ - ٦٤ ( عن العياد ) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل / ١١ . ٢٠٩ . ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٢٣ ب ) .

(٤) أبو شامة ، الروضتين / ٦٣ / ٢ ( عن العياد ) .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ويرد في نفس المصدر ( ٢ / ٦٨ ) أن الخليفة أرسل آنذاك كتاباً يتغويض صلاح الدين ولإيه ماردين وحصن كيفا واظهر :

والسلكة والخطبة ، وعمت الهيبة والرعبه والعزائم ، إلى الجهاد في سبيل الله ، وقد زالت المواتئ وارتقت المواقع<sup>(١)</sup> . وهكذا تكون صلاح الدين من إخضاع كافة أمراء الجزيرة لطاعته ، وغدا بإمكانه الاعتداد على المنطقة كمورد بشري عسكري دائم في حربه ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup> .

### ظهور إمارة خرتبرت :

وفي غرة هذه الأحداث التي اجتاحت ديار بكر ، ظهرت إلى الوجود إمارة أرترقية جديدة في خرتبرت في أقصى شمال ديار بكر ، أسسها أحد أشقاء نور الدين محمد أمير كيما وآمد الذي توفي هذا العام ( ١١٨٥ م ) ، ذلك أن نور الدين محمد كان قد أتى - بسبب مرضه - أخاه عماد الدين بن قرا أرسلان على قوات إمارة كيما في النجدة التي ساندت صلاح الدين خلال تحركاته في المنطقة بناء على التحالف القديم بين الطرفين . وعندما كان عماد الدين يتقدم صوب الموصل بصعبية صلاح الدين ورده نباً وفاة أخيه فطلب الإذن من السلطان بمقادرة عسكره لتدارك الأمر في إمارة كيما ، خاصة وأن أبناء أخيه لم يبلغوا من العمر مرحلة تؤهلهم لتحمل مسؤولية الحكم ، فأذن له صلاح الدين<sup>(٣)</sup> .

تقدّم عماد الدين على رأس قواته إلى إمارة كيما ، فوجد أن الأمر قد استتب

(١) أبو شامة ، الروضتين ٦٤/٢ ، وانظر ابن الأثير ، الكامل ٢٠٨/١١ - ٢١٠ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ١٠٦ آ - ١٠٦ ب ) .

(٢) انظر الفصل الثالث .

(٣) ابن شداد ، سيرة ص ٤٥ ، ويشير ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ٢٨١ ) إلى أن صلاح الدين هو الذي أمره بالعودة إلى إمارة كيما لتدارك أمرها .

لقطب الدين سقمان أكبر أبناء نور الدين ، معتمداً في حكمه على بعض الأمراء ذوي الخبرة ، فتذرع على عماد الدين القيام بعمل ما ضد هؤلاء ، فضلاً عما كانت تتمتع به كل من آمد وحسن كيما من حصانة . ومن ثم قرر اقتطاع المناطق السهلة من إمارة كيما ، فتقسم إلى خربت التابعة لهذه الإمارة<sup>(١)</sup> ، وتكون من الاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر ، وأقام فيها إمارة أرتقية جديدة<sup>(٢)</sup> . وقد ظلت هذه الإمارة تحكم خربت والمناطق المجاورة لها حتى عام (٦٣١ = ١٢٣٣ م) .

بقي الأراتقة على ولائهم لصلاح الدين ، وأخذوا يقدموه إليه الإمدادات العسكرية في جهاده ضد الصليبيين<sup>(٣)</sup> . وفي عام (٥٨٤ = ١١٨٨ م) حاول قطب الدين سقمان أمير كيما أن يطمئن على أملاكه تجاه صلاح الدين ، وبخاصة آمد التي تعتبر أساساً هبة من الأخير لأمير كيما ، فاستغل وسيلة المصاورة لتحقيق ذلك ، إذ أرسل رسوله إلى صلاح الدين ، مع وفد من القضاة والشهداء ، وكان آنذاك في فلسطين إزاء الصليبيين ، ليخطبوا له ابنة الملك العادل شقيق صلاح الدين ، وليوكلوا له من جهة أخرى تصميم أميرهم على الالتزام بالعهد الذي قطعه على نفسه له ، فأجيب الوفد إلى ذلك ، وتم عقد الزواج في حفل حضره كبار الأمراء والأعيان وناب عن العادل فيه العهاد الأصفهاني ، وعاد الوفد إلى دياره بكر بعد أن حصل على تأكيدات بعدم التعرض لإمارة كيما<sup>(٤)</sup> ، فضلاً عن أن أمير كيما غداً - بتأكيد لحماية صلاح الدين -

(١) أبو شامة ، الروضتين ٦٠/٢ .

(٢) ابن الأثير الكامل ٢٠٩/١١ .

(٣) سترد تفاصيل ذلك في فصل (الأراتقة والصلبيون) .

(٤) الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٩٢ - ٩٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢٥٣/٢ .

أقوى من ذي قبل .. وقدم الأصفهاني وصفاً لهذا الحدث جاء فيه : « وسار صاحب كيما - بالمسار مصحوباً ، وعاد وذيله بالفخار مصحوباً ، وقال له - أي السلطان - قد وجدت الحزن فلا تحزن ، واشتهد ركتك فإلى سواه لا تركن ، وما من كبير أو أمير إلا وقد وصل منه أكبر أمرائه لينتظم بعهده السلطان في زمرة أوليائه » <sup>(١)</sup> .

### تجدد الفتنة في ديار بكر :

ولكن هذا السلم الذي تعمت به ديار بكر والمناطق المجاورة كنتيجة لعهدها مع صلاح الدين ، لم يستمر طويلاً . ففي عام (١١٩١ = ٥٨٧ م) جدت أحداث في المنطقة آثارت الفتنة والمحروب وأجرت بعض التغييرات على الخارطة السياسية للإمارات الأرتقية . ذلك أن صلاح الدين أتاب عنه ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر في كل المناطق الواقعة شرق الفرات والتابعة للأيوبيين فرحل تقى الدين في مطلع صفر بعد أن اشترط عليه السلطان الحافظة على عهد أميري كيما وماردين ، وأعلمته أن ليس ثمة سبيل إلى قصد أحد أو انتزاع بلد من ديار بكر « لأن أكثرهم لنا - أي لصلاح الدين - معاهد وفي شفتنا مساعد » ، أما المتقدعد فما هذا أوان معاقبته لانشغالنا بالفرنج وما نريد الانشغال بال المسلم دونهم » ، فوعده تقى الدين بتنفيذ تعليماته والالتزام بشروطه وتوجه إلى هناك . وكان صلاح الدين في الفترة التي سبقت ذلك ، يتخوف من إثابة تقى الدين أو أحد أبنائه على ما وراء الفرات ، لأن هؤلاء كانوا يتطلبون منه مقدماً العمل على ضم ديار بكر <sup>(٢)</sup> ، أما الآن فإن ضرورة الجهاد حتمت عليه إرسال تقى الدين

(١) الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

جمع المساكر من هناك والعودة بها إلى مناطق القتال<sup>(١)</sup> . ولكن ما أن وصل  
 تقى الدين إلى هناك حتى طمع في الاستيلاء على بعض مدن ديار بكر ، فتوجه  
 إلى ميافارقين واستصحب معه عسکر ماردين ، التي كان أمراؤها دائئراً في  
 علاقات قلقة مع صلاح الدين بلغت درجة الحرب في أحياناً كثيرة . تقدم تقى  
 الدين بعد ذلك إلى السويداء واستولى عليها وعلى أملاكها ، ثم حاصر مدينة  
 حانى واستولى عليها ، ومن ثم هاجم إمارة كيما وأمد واستولى على بعض  
 ممتلكاتها وأقطعها لقواته . وبصور العياد الأصفهانى الحالة التي انتابت ديار بكر  
 آنذاك فيقول : « وأربع القلوب - أي تقى الدين - بما ابتدأ به وابتدعه ،  
 وروعها ، وتأخرت بسبب ذلك عساكر ديار بكر وحصلت منه على عذر  
 وذعر وراعت هيبيته .. ودبى إلى الخاطر خافة أخطاره وبليت تلك البلاد  
 ببلائه<sup>(٢)</sup> . اتجه تقى الدين بعد ذلك إلى خلاط فلم يستطع فتحها فتقدم إلى  
 ملازكرب . وحاصرها ولكنه توقي قبل أن يتمكن من الاستيلاء عليها ، فقام  
 ولده ناصر الدين محمد بوضع يده على بلاد الجزيرة وأرسل إلى صلاح الدين  
 يطلب تقريره عليها فرفض تسليمها إليه ، فأعلن هذا المصيان مستغلًا فرصة  
 انشغال صلاح الدين مع الصليبيين . وحينذاك أرسل صلاح الدين ابنه (الأفضل  
 على) إلى تلك المناطق وطلب منه التقدم إلى حلب واحتاذها قاعدة لتجيئه  
 ضربته ضد ناصر الدين ، وكتب إلى حلفائه في ديار بكر والموصى وسنجران  
 والجزيرة بإرسال قواتهم لإسناد ابنه ، فلما رأى ناصر الدين ذلك أدرك أن لا  
 طاقة له بهم فأعلن استسلامه مقابل أن يقطع بعض الأموال في الشام ، فأجيب

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٠ ، ابن الأثير ، الكامل ٤٧/١٢ ، أبو شامة ، الروضتين ١٩٤٢ .

(٢) الأصفهانى ، الفتح القدسى ص ٢٩٠ ، أبو شامة ، الروضتين ٢/١٩ .

إلى ذلك وحل العادل أخوه صلاح الدين محله في حكم المناطق الجزرية وذلك في جمادى الآخرة سنة (١١٩٢ = ٥٨٨ م<sup>١١</sup>). وقد أوضح هذا الحادث الموقف المتناقض الذي اتخذه الأراثقة تجاه صلاح الدين ، فبينما بقي أمير كييفاً وأمده (قطب الدين سقمان) مخلصاً لعهده معه ملتزماً بشروطه مقدماً له القوة والإمدادات في تحركاته ، منفذآ لأوامره ، راح أمير ماردين (حسام الدين يولق أرسلان) يتغين الفرص لنقض العهد وتوجيه الضربات ضد الأيوبيين في المنطقة .

وما أن توفي صلاح الدين في السنة التالية (١١٩٣ = ٥٨٩ م) ، حتى كان صاحب ماردين ، أحد الرؤوس الكبيرة في المؤامرة التي دبرها أمراء الجزيرة وأرمينية للإطاحة بالنفوذ الأيوبي في تلك المناطق. وكان يكتمر صاحب خلاط ، قد استبشر خيراً ، لدى سماعه بنباء وفاة صلاح الدين وراسل أمراء الموصل وسنجر وماردين للاتفاق على قتال العادل ، والعمل على استرداد البلاد التي يحكمها هناك ، فكانت قوات ماردين أول الخارجين ضد العادل ، وعسكت في الموزر<sup>(٢)</sup> ، وتقدم أمير الموصل على رأس قواته إلى نصبيين ، حيث انضم إليه أخوه عماد الدين أمير سنجر . وبعث المتحالفون إلى العادل يطلبون منه الخروج من المنطقة وإعادة البلاد إليهم فاستتجده هذا بأيناء أخيه ، ثم تقدم إلى حران ليراقب الأحداث من هناك ، ولكن مرض صاحب الموصل اضطره إلى العودة إلى إمارته وأعقبه أخوه عائداً إلى سنجر ، فضلاً عن أن العادل أرسل

(١) ابن الأثير، الكامل ٣٥/١٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣٧٩/٣٧٥ ، ابن كثير، البداية والنهاية ١٢ / ٣٤٦ باختصار .

(٢) كانت هذه المنطقة ثانية لإمارة ماردين فأفتقدها صلاح الدين وأضافها إلى نائه في الرها ، أنظر الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٣٣٢ .

إليهم يقول بأن بلاد صلاح الدين قد استقرت لولده الأفضل ، وأنه وجهه إلى ماردين على رأس قوات ضخمة بسبب تعرض صاحبها لبعض القرى العائدة له ، وإزاء ذلك اضطر صاحب ماردين إلى مراسلة العادل طالباً منه الصلح متضمراً إليه أن يرضي عنه<sup>(١)</sup> فدفع العادل عنه وعقد معه صلحاً نص عللي نفس الشروط التي حددت في عهد صلاح الدين ، ثم تقدم العادل فاستولى على عدد من مدن الجزيرة ، وعندما وصل دارا العائدة لأحد الأرادة المشتركين في المؤامرة اعتذر هذا له ، فقبل عذرها ، وبعد فترة قصيرة تم عقد الصلح مع صاحبي الموصل وسنجرار<sup>(٢)</sup> ، كما أن بكثير صاحب خلط كان قد أغتيل خلال هذه الفترة ، فاستتب الأمور للعادل في المنطقة<sup>(٣)</sup> .

★ ★ ★

من خلال استعراض علاقات الأرادة بالأيوبيين في هذه المرحلة ، يتضح أن إمارتي كيما وماردين الأرقاءتين اتخذتا موقفاً متناقضاً تجاه صلاح الدين ، فيبينا كانت الأولى معالفة له داخلة في اتحاد سيامي وعسكري معه ، ظلت الأخرى تعمل ضدّه جهراً<sup>(٤)</sup> وسراً منفردة قارة ، ومشتركة في أختلف معادية تارة

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ١٦/٣ - ٢٠ ، الاصفهاني ، الفتح القدسى ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ٤١/١٢ - ٤٢ ، أبو شامة ، الروضتين ٢ / ٢٢٦ - ٢٢٨ ، أبو الفدا ، المختصر ٩٢/٣ - ٩٣ ، ابن الوردي ، تنمية ٢ / ١٠٨ - ١٠٩ ، سبط ، مرآة الزمان ٤٣٥/٨ - ٤٣٦ ، هذا ويتناول كل من ابن الأثير والذين ذقلوا عنه ، كأبي الفدا وابن خلدون ، هذه الحادثة باختصار .

(٢) الاصفهاني ، الفتح القدسى ص ٣٤٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ١٩/٣ - ٢٠ .

(٤) فيما عدا تقديمها قواهما إلى صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين كما سيرد ذكره في فصل آخر .

أخرى ، وما أدى توفي صلاح الدين حتى كان صاحب ماردين على رأس المتأمرين ضد الأيوبيين في المنطقة كمارأينا . وقد ترتب على هذا الموقف المتناقض للأراتقة نتائج مختلفة ، فبينما حصلت إمارة كيفا على مزيد من المدن والقلاء بفضل مساندتها للأيوبيين ، راحت الأخرى تتعرض لضغطهم وضرباتهم المستمرة حتى تم الصلح عام ( ١١٩٣ م = ٥٩٤ هـ ) بين جميع الأطراف .

### الأراتقة بعد وفاة صلاح الدين :

وطيلة السنوات التالية ( ١١٩٣ م - ٥٩٤ هـ - ١١٩٧ م ) ، انهمك كل من الطرفين - الأراتقة والأيوبيون - بشاكه الداخلية . ولكن ما أن دخل عام ٥٩٤ هـ حتى عاد الصراع من جديد بين الأيوبيين وإمارة ماردين . ويدرك ابن واحد أن (النظام) مدبر مملكة حسام الدين يولق أرسلان صاحب ماردين أرسل إلى الملك العادل كتاباً يستدعيه ليسلم إليه ماردين مقابل تعويضه عنها ، فتقىدم العادل شرقاً ، ولما وصل البلاد لم يف له النظام بوعده وندم على مراسلته السرية له ، فأرسل العادل إلى بعض أقاربه في مصر والشام يستتجدهم ، فوصله عسكراً من مصر يقدر بألفي فارس وآخر من الشام بنفس العدد<sup>(١)</sup> ، كما استطاع أن يكسب مساعدة أصحاب الأطراف حيث أكدوا طاعتهم له<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم بدأ بهاجة أطراف ماردين في رمضان واستطاع الاستيلاء على عدد من مدنها ولائياتها<sup>(٣)</sup> ، وعين ولاته في رأس عين ود نيسر<sup>(٤)</sup> ، كما تذكر ، بمساعدة

(١) ابن واحد ، مفرج الكروب / ٣ / ٨٠ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين / ٤ / ٢٣ ( عن العياد ) .

(٣) المصدر السابق / ٢٣٤ ( عن العياد ) .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ورقة ٤٣ ب ) .

بعض الأهالي ، من السيطرة على ريض ماردين الذي قام عسكره بنبه والإفساد فيه بكل الأساليب<sup>(١)</sup> . وما أن سيطر العادل على الريض حق شدد حصاره على القلعة وقطع التموين عنها<sup>(٢)</sup> ، واستمر الحصار أحد عشر شهراً ، فانعدمت الأقوات فيها ، وأصاب معظم جندها مرض أعمدهم عن الدفاع ، ولم يبق سوى أن تستسلم . وحينذاك ورد الخبر إلى العادل بوفاة العزيز صاحب مصر في العشرين من محرم سنة (٥٩٥ = ١١٩٨ م) ، وتولية الأفضل بن صلاح الدين بعده ، ولم تكن العلاقات طيبة بين هذا وبين عميه العادل ، فأمر قواته ، التي كانت تعمل مع العادل في حصار ماردين ، بالعودة إلى مصر ، فانسحب هؤلاء ، وفت ذلك في عضد العادل ، لولا أن ماردين كانت قد باغت من الضغف درجة كبيرة أطمعت الأخير بالاستمرار على حصارها<sup>(٣)</sup> .

ولكن تقدم الأفضل إلى دمشق لاستردادها من العادل ، وتحالفه مع صاحب الموصل لهذا الغرض ، وقيام أنصار العادل براسلة صاحبهم يدعونه للتوجه إليهم لتسليمهم مصر ، كل هذه العوامل دفعت العادل لمقادرة ماردين إلى دمشق في الخامس والعشرين من رجب عام (٥٩٥ = ١١٩٩ م) ، ثابكاً ابنه الكامل لإتمام العملية<sup>(٤)</sup> . فاستغل نور الدين أمير الموصل فرصة تحالفه مع الأفضل لإنهاء الحصار الأيوبي على ماردين وتخلص المنطقة من نتائجه ، وسرعان ما

(١) ابن الأثير ، الكامل / ١٢ / ٥٨ .

(٢) المصدر السابق / ١٢ / ٥٨ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ( مخطوطة ١ / ٣٨ باختصار ) ، العمري ، مالك الابصار ( مخطوطة ٢ / ٢٧ - ٢٧ / ٢ ) .

(٣) ابن الأثير ، الباهر ص ١٩٤ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل / ١٢ / ٥٨ - ٦٢ ، الباهر ص ١٩٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب / ٣ / ٩٢ - ٩٥ ، أبو شامة ، الروضتين / ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٥ ( عن المسماط ) ، ابن بهادر ، فتوح النصر ( مخطوطة ١ / ٣٩ ) ، العمري ، مالك الابصار ( مخطوطة ٢ / ٢٧ - ٢٧ / ٢ ) .

انضم إليه أصحاب الأطراف لوجود هدف مشترك ، إذ كان « عجزهم عن منع العادل قد حلّ لهم على طاعته »<sup>(١)</sup> .

وما أن انسحب العادل تار كأ ابنه على حصار ماردین ، حتى تقدم صاحب الموصل في الثاني من شعبان ، إلى دنيسر واجتمع به هناك ابن عمه ، فطلب الدين محمد صاحب سنجر وسنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر ، ليكونوا يداً واحدة ضد القوة الأيوبية ، ثم غادروا دنيسر في السادس من شوال وتزلوا بحرزم القريبة من ماردین . وزحف العسكر نحو سفح الجبل للبحث عن موضع للنزول . وكان جند ماردین قبيل ذلك قد بلغوا حداً كبيراً من الإعياء بسبب الجوع والمرض ، مما دفع النظام ، وهو المتندذ في الإمارة ، إلى مراسلة الكامل يعلن موافقته على تسليم الكلمة في أجل معلوم بشرط أن يسمح لهم بإدخال ما يقيتهم من الميرة دون التزود بأي احتياطي منها . فأجابهم الكامل إلى ذلك ، وتم الاتفاق بين الطرفين ، ورفقت أعلام الأيوبيين على الكلمة وكاف الكامل أحد أمرائه بهمة حراسة أبوابها ، وعدم السماح لأهالي ماردین بإدخال ما يزيد عن حاجتهم من الأقوات يوماً بيوم حسب الاتفاق ، ولكن الأمير المذكور قبل رشوة من بعض مسؤولي ماردین وسمح لهم بإدخال الذخائر الكثيرة ، وبينما هم كذلك إذ بلغهم خبر وصول صاحب الموصل وحلفائه لإجلاء الأيوبيين ، فقوىت نفوسهم وقرروا الاستمرار على الدفاع<sup>(٢)</sup> . وما أن تقدمت قوات صاحب الموصل للبحث عن معسكري في سفوح ماردین لقتال قوات الكامل ، حتى أخطأ هذا وغادر ريض ماردین شديد التحصين للقاء عدوه ، ولو أقام هناك لما أمكن لصاحب الموصل وحلفائه الصعود لقتاله أو إجلائه بسبب ارتفاع المنطقة . . وعندما رأى

(١) ابن الأثير ، الكامل ٦٢/١٢ .

(٢) ابن الأثير ، انكامل ٦٢/١٢ .

نور الدين ذلك راح يستدرج قوات عدوه بعيداً عن الجبل ، وكان قطب الدين صاحب سنمار قد واعد قوات الكامل سراً بأنه سيتقهقر عندما يتم اللقاء لإحباط معنويات قوات الموصل ، ولكن ما أن بدأ القتال حق الجبل قطب الدين إلى عدم تنفيذ خطته بسبب كثرة الزحام وعدم وجود منفذ أو طريق للهروب باتجاه قوات الكامل ، فوقف في سفح الجبل بعيداً عن القتال الدائر الذي استمر طيلة ذلك اليوم وانتهى بهزيمة القوات الأيوبية وترابجمها صوب الريض حيث جوبيت بهجوم آخر من حامية ماردين أسفراً عن تشتت هذه القوات وأسر عدد كبير من أفرادها ، فاضطر الكامل إلى الانسحاب من الريض ليلاً ، ومقداره المنطقة في السابع من شوال تاركاً الكثير من آلات القتال . ومن ثم نزل صاحب ماردين للقاء أمير الموصل ، حيث توجه هذا بعدها إلى دنيسر ومنها إلى رأس عين ، عازماً على مهاجمة حران التابعة للعادل ، ولكن مرضه أجلأه إلى العودة إلى الموصل<sup>(١)</sup> .

كان بعض أصحاب أمير الموصل قد عرضوا عليه – إثر انسحاب الكامل – الاستيلاء على ماردين لشدة ضعف قواتها وسهولة السيطرة عليها ، ولكنه أصر عليهم ذلك لئلا يوصف بالغدر في جماعة استنصروه . ومن ثم أرسل إلى صاحب ماردين يطلب منه إعادة نوابه وعماله إلى القرى والأعمال الزراعية التي كانت صاحب الموصل قد وزع قواته فيها ليتمكنوا منها خلال القتال . فتسلم صاحب ماردين بلاده وارسل إليها نوابه<sup>(٢)</sup> .

(١) المصدر السابق ، ٦٢/١٢ ، الباهر ص ١٩٤ - ١٩٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٦٥ / ٨ - ٦٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٥٩٠ - ٥٨٨ ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطة ) ٣/١٠٢ .

(٢) ابن الأثير ، الباهر ص ١٩٥ - ١٩٦ ، ونقل عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ٣/٢٤ - ٢٥ .

وطيلة هذا الصراع بين ماردين والأيوبيين ، وقف أمير كيما على الحياد ولم ينضم إلى أحد الجانبين المتنازعين ، ولعله كان ينتظر ما يتمخض عنه هذا الصراع . وقد كان لرغبته في مهادنة الأيوبيين والتزامه بعهودهم أثر كبير في اتخاذ هذا الموقف . وكان من المحتمل تقديم مساعدته إليهم لو كان الصراع بين طرف واحد منهم وبين ماردين ولكن الأمر لم يكن كذلك إذ اشتركت فيه – كمارأينا – أطرافأيوبية عديدة مما دفع أمير كيما إلى الترثيث حق تتجلى الأمور .

\* \* \*

ظل صاحب ماردين على عدائه للأيوبيين، ينتظر الفرصة للعمل ضد مصالحهم وممتلكاتهم في المنطقة ، ولم ينقض على تخلصه من حصار عام ( ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م ) سوى أقل من سنتين حتى دخل في تكتل جديد يضم بعض الأمراء المحليين وعدداً من الأمراء الأيوبيين المنافسين للعادل الذي كان قد استولى على مقايد الأمور في مصر . فقد انفق أميراً الموصل وماردين والظاهر الأيوبي صاحب حلب وأمراء آخرون على أن يكونوا يداً واحدة بوجه أية محاولة يقوم بها العادل ضد أحدهم . وما لبث أن انضم إليهم الأفضل الذي أزاحه العادل عن الحكم . وتقديم نور الدين أرسلان شاه أميراً الموصل في شعبان سنة ( ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م ) إلى البلاد الجزرية ، حيث انضم إليه هناك ابن عمّه صاحب سنجار ونصيبين ، وكذلك صاحب ماردين ، ومن ثم توجهوا إلى رأس عين ، مستهدفين الاستيلاء على حران التي كان يحكمها الفائز بن العادل نائباً عن أبيه ، فخاف هذا عاقبة الأمر وأرسل إلى المتحالفين يطلب الصلح ، وكان هؤلاء قد تلقوا أنباء عن قرب عقد صلح بين الأمراء الأيوبيين المتنازعين ، فضلاً عن اشتداد الحر وانتشار الأمراض في صفوف قواتهم التي بلغت حداً كبيراً من

الإرهاق فاضطروا إلى إجابة الفائز إلى الصلح، وأكدوا ذلك مع أبيه السلطان العادل «فاستقرت القاعدة وأمنت البلاد» وتفرق الحلفاء في ذي القعدة (٥٩٧ = ١٢٠١ م) <sup>(١)</sup>.

وفي الصلح الذي تم في العام التالي (٥٩٨ = ١٢٠١ م)، بين العادل وبقية الأمراء الأيوبيين المتنافسين في الشام، اتفتح ما يشير إلى مدى رغبة الأيوبيين في إضعاف صاحب ماردين والاستيلاء على أملاكه، بسبب موقفه العدائي منهم، إذ تقرر في ذلك الصلح أن يقوم أحد الأمراء الأيوبيين بانتزاع رأس عين من صاحب ماردين وإضافتها إلى أملاكه هناك <sup>(٢)</sup>.

ثم ما لبث العادل أن سير في الحرم (سنة ٥٩٩ = ١٢٠٢ م) قواته إلى ماردين بقيادة ولده الأشرف موسى، مستغلًا اتفاقه مع بقية الأيوبيين لهاجمة إمارة ماردين والحصول على بعض المكاسب، فقام الأشرف بمحاصرة ماردين، وتمكن من الاستيلاء على بعض المناطق المحيطة بها، وانضمت إلى الاشتراف هناك قوات الموصل وسنجار وغيرهما من البلاد طعمًا في الحصول على المفاسن. وعسكر الأيوبيون وحلفاؤهم في حرم أسفل ماردين، ونزلت قوة من قلعة البارعة التابعة لماردين لقطع المؤونة عن المهاجرين، فقصدت لهم طائفة من القوات الأيوبية وهزمتهم. وثار التركان في المنطقة، وقطعوا الطرق وأكثروا الفساد، مستغلين عدم استباب الأمن، فتعذرتأ بأعمالهم تحركات القوات المهاجمة خلا القادرون منهم على حمل السلاح <sup>(٣)</sup>. وحينذاك توجهت قوة

(١) ابن الأثير، الكامل ١٢/٧٠، ونقل عنه ابن واصل، مفرج الكروب ٣/١٢٦ - ١٢٧ ، وابن خلدون، العبر ٥/٥٩٠، ابن كثير، البداية والنهاية ١٣/٢٧.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب ٣/١٣٢ - ١٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل ١٢/٧٤.

من العسكر الأيوبي إلى رأس عين لإصلاح الطرق وإيقاف الفساد الذي يقوم به التركان . واستمر الأشرف على حصار ماردين دون جدوى بسبب ما كانت تتعمق به من حصانة ، فارتأى الظاهر غازي صاحب حلب أن يسمى في الصلح بينهم ، وأرسل إلى عمه العايل في ذلك ، فأجابه هذا بشرط أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار وأن يخطب له في بلاده ويضرب اسمه على السكة ، وأن تكون قواته في خدمته في أي وقت يتطلبها فيه . فوافق صاحب ماردين على هذه الشروط ، وحصل الظاهر لقاء سعيه في الصلح على جزء من المبلغ قدره عشرون ألف دينار<sup>(١)</sup> ، وضياعة القرادي من أعمال شجتان في ديار بكر ، ومن ثم رحل الأشرف عن ماردين وتفرقـتـ العـساـكـرـ<sup>(٢)</sup> ، ووفـيـ صـاحـبـ مـارـدـينـ بالـشـرـوـطـ<sup>(٣)</sup> .



وخلال ذلك كله كان صاحب كيـفـاـ وـآـمـدـ يـلتـزمـ بـسيـاسـتـهـ الـوـدـيـةـ التـقـلـيدـيـةـ للأـيـوـبـيـنـ ، وـقـدـ تـأـكـدـ هـذـاـ الـالـتـزـامـ فـيـ الأـحـدـاـتـ الـتـيـ جـرـتـ فـيـ الـعـامـ التـالـيـ

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، بينما يجعل ابن واصل ( مفرج الكروب ٣ / ١٤٠ ) المبلغ الذي قبضه الظاهر عشرة آلاف دينار فقط .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٧٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣ / ١٣٩ - ١٤٠ ، ابن الساعي ، المختصر ٩ / ٩٩ - ١٠٠ ، ويدرك هذه الأحداث باختصار كل من أبي الفداء ، المختصر ٣ / ١٠٨ ، وابن العبري ، مختصر ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، وابن الوردي ، تتمة ١٢٠ / ٢ . وابن كثير ، البداية ٣٤ / ١٣ ، المقريزي ، السلوك ١ / ١٦١ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ( خطوطـةـ ٤٢ / ١ ) .

(٣) ابن الساعي ، المختصر ٩ / ٩٩ - ١٠٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطـةـ ٨ / ١٠٠ ) .

( ٦٠٠ = م ١٢٠٣ ) ، حيث انضم إلى الحلف الذي شكله الملك الأشرف موسى بن العادل وبعض الأمراء المحليين، كظفر الدين كوكبوري صاحب أربيل وقطب الدين محمد صاحب سنمار ونصيبين والأوحد أخي الأشرف صاحب ميافارقين وصاحب جزيرة بن عمر وصاحب دارا الأرتقي والملك الظاهر صاحب حلب ، وكان هدف هذا التحالف مساندة صاحب سنمار ونصيبين ضد أطلاع ابن عمه نور الدين أرسلان شاه أمير الموصل بسبب تدهور العلاقات بينها إثر قيام قطب الدين بالخطبة للعادل الأيوبي . وقد بدأ أمير الموصل أعماله ضد ابن عمه بمحاجة نصيبين في مطلع شعبان ، وما كاد أن يستولي عليها حتى أتاه خبر قيام أربيل بمحاجة بلاده ، فاضطر إلى الانسحاب للدفاع عنها ، وكان الأشرف وحلفاؤه قد تقدموا خلال ذلك من حران إلى رأس عين للتصدي لنور الدين ، إلا أن تخوفهم منه منعهم من مجابته ، ولكن ما أن انسحب نور الدين إثر هجوم أربيل حتى اجتمع الحلفاء وتقدموا إلى نصبيبين ، ولكن أمير الموصل ما لبث أن كرّ عائداً ، بعد أن أنهى مهمته ، واستولى على تل أعفر التابعة لابن عمه قطب الدين ومن ثم تقدم إلى منطقة كفر زمار مصمماً على المطاولة لحين تفرق الحلفاء ، فأتاه هناك كتاب من أحد جواسيسه يخبره بقلة عدد جند الحلفاء ويطمعه فيهم ، فتقدم سريعاً إلى نصبيبين فوصلهما في اليوم التالي وخيم بالقرب من أعدائه وتم اللقاء بين الطرفين في التاسع عشر من شعبان لكنه لم يتم طويلاً ، إذ سرعان ما انهزمت قوات أمير الموصل بسبب الإرهاق الذي أصابها خلال تحركاتها السريعة ، وعند ذلك تقدم الأشرف وحلفاؤه إلى كفر زمار<sup>(١)</sup> ، فنهبوا الجبهات المحينة بها ودمروا مزارعهما وانتقلوا إلى بلد

---

(١) كفر زمار : قرية تقع إلى الشمال الغربي من الموصل ( انظر ياقوت ، معجم البلدان ٤/٢٨٨ ) .

القريبة من الموصل ليفعلوا بها ما فعلوه بالأولى ، فترددت الرسل بين الطرفين وانتهت المفاوضات بعقد الصلح ، واشترط على أمير الموصل إعادة كل أuffer إلى صاحب سنمار ، فسلمها إليه ، وتفرق العساكر في أوائل سنة (٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) .<sup>(١)</sup>

وقف صاحب ماردين موقفاً محابياً من هذا الصراع وكان من المرجح أن ينضم ، حسب سياسته التقليدية ، إلى أمير الموصل للعمل على الحسد من نفوذ الأيوبيين في المنطقة ، ولكن انعزاز الأمير المذكور وتكتل معظم الأمراء المحليين والأرقاء إلى جانب الأيوبيين ضده ، منع صاحب ماردين من القيام بساندة أمير الموصل خوفاً من عواقب الأمور .

وقد حاول أمير كيما وآمد ، كمادته ، استغلال خدماته للأيوبيين وطاعته لهم وتحالفه معهم ضد أعدائهم في الحصول على مكاسب جديدة ، إذ اشترط على الأشرف بن العادل ، إثر اشتراكه معه ضد أمير الموصل ، أن يده بقواته للاستيلاء على خربت التابعة لنظام الدين أبي بكر بن عماد الدين الأرتقي ، الذي كان قد التجأ إلى سلاجقة الروم . وكان أمير كيما قد طمع بخربت إثر وفاة ركن الدولة بن قلج أرسلان السلاجقي حامي أميرها ، فلما تم عقد الصلح مع صاحب الموصل عام (٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) ، طلب من الأشرف تنفيذ ما تم الاتفاق عليه مسبقاً . فسار الأشرف معه ، وساندتها قوات من سنمار وجزيرة بن عمر والموصل وغيرها ، ونزلوا على خربت في شعبان وتم لهم

(١) ابن الأثير ، الكامل / ١٢ - ٨٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب / ٣ - ١٥٥ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٥١٨/٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥ - ٥٩٢ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ١٩٧ .

الاستيلاء على ربيضا في الشهر التالي (رمضان) . وكان صاحبها قد اجتمع بكيغسرو سلطان سلاجقة الروم وغدا في طاعته بعد وفاة أخيه ، فلما حوصلت خرتبرت طلب صاحبها من سلطان سلاجقة الروم أن ينجده بقواته ليجلبهم عنها ، فجهز هذا عسكراً ضخماً قوامه ستة آلاف فارس ، وسيرهم مع حليفه الملك الأفضل صاحب سيساط ، فلما وصل هذا إلى ملطية ، ابتعد أمير كيما وحلفاؤه عن خرتبرت وعسكرروا في صحراء قربة ، خوفاً من وقوعهم بين عدوهم ، وحماية لظهورهم في حالة اشتباكهم مع قوات سلاجقة الروم ، ومن ثم تقدموا صوب بحيرة سهين ، التي تضم حصين أحد هما لصاحب كيما والآخر لصاحب خرتبرت ، فحاصر الأخير ونم فتحه في مطلع ذي الحجة سنة (١٢٠٥ هـ = ١٢٠٥ م ) ، وخلال ذلك وصل إلى خرتبرت صاحبها بعية قوات سلاجقة الروم ، وترددت الرسل بين الطرفين ، واشترطت قوات السلاجقة إعادة الحصن المفتوح إلى صاحبه ، فامتنع أمير كيما عن ذلك ، ولما طالت المفاوضات ولم تسفر عن شيء ، انفصل العسكران وعاد كل فريق إلى بلاده وبقي الحصن بيد أمير كيما<sup>(١)</sup> .

### عودة النزاع مع ماردین :

وبعد سنتين من ذلك (١٢٠٦ هـ = ١٢٠٦ م ) ، تهيأت الفرصة لناصر الدين أرتق بن إيلفارزي صاحب ماردین لضم خلاط عاصمة أتابكة أرمينية إلى إمارته ، إذ كتب إليه أهلوها وبعض جندها يستدعونه لتسليمها ، بسبب سيرة أميرها ابن بكتر الذي كان صبياً جاهلاً منهمكاً باللهب واللعب وإدمان الشرب ، وكانت مكاتبته لأرتق بن إيلفارزي دون غيره من الملوك بسبب صلات القربي

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٨٤ .

التي تربطه بالعائلة الحاكمة في خلاط ، وكان شاه أرمن قد حلف رعيته لصاحب ماردین لعدم إنجابه ولداً ، فلما تجددت بعده هذه الأحداث تذكروا الإيungan ، فكتابوه واستدعوه ، ولكن بلبان - أحد مماليك شاه أرمن - كان قد جاهر ابن بكتمر - أمير خلاط - بالعداء والعصيان وسار من خلاط إلى ملازم كرد واستولى عليها ، واجتمع الأجناد عليه وكثُر جمعه ومن ثم توجه إلى خلاط ، وافق آنذاك وصول صاحب ماردین إليها ، ظانًا بأنه لا يوجد من يقاومه وأنهم سيسلمون إليه المدينة .. ونزل قريباً عدة أيام ، فأرسل إليه بلبان يقول : « إن أهل خلاط قد اتهموني بالميل إليك ، والرأي أن ترحل عائداً مرحلة واحدة وتعسّكر هناك »، فإذا تسلمت البلد سلمته إليك لأنه ليس بإمكانني أن أغدو أميراً عليه » ، فخدع صاحب ماردین بجيشه وابتعد عن خلاط . ثم أرسل إليه بلبان يقول : « عد إلى بلدك وإلا جئت إليك وأوقعت بك وبين معك » !! وكان صاحب ماردین في قلة من قواته فاضطر إلى العودة إلى بلده . وفضلاً عن ذلك كان الملك الأشرف بن العادل صاحب حران قد أرسل إليه عندما سمح بتوجهه إلى خلاط يقول له « إن سرت إلى خلاط ، قصدت بلدك » ، وكان الأشرف خائفًا من أن يستولي صاحب ماردین على خلاط فيكون مركزه ، فلما لم يجبه هذا إلى طلبه ، جمع الأشرف قواته وسار إلى ولاية ماردین فاستولى على بعض المناطق المحيطة بها وأقام هناك حتى تجبي الضرائب إليه ، فلما فرغ من ذلك عاد إلى حران ، بعد أن غرم صاحب ماردین لقاء انسحابه مائة ألف دينار ، فكان هذا الهجوم عاملاً آخر دفع صاحب ماردین إلى عدم مقاومة بلبان والرجوع سريعاً إلى بلاده . ويعلق ابن الأثير على محاولة صاحب ماردین هذه ساخرأً « فكان - كما قيل - كالنعامنة خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين »<sup>(١)</sup> .

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ١٠٦ ، ابن خلدون . العبر ٥ / ٣٧٨ - ٣٧٩ . وأشار إلى الحادث باختصار كل من سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٥٢٦ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٨٩٦ ، وابن الساعي ، المختصر ٩ / ٢٠٦ .

وفي عام (١٢٠٦ = ٥٦٠٦ م ) جرت أحداث مهمة في المنطقة ، أكدت تشبث كل من الإمارتين الأرتقيتين بسياستيهما التقليديتين تجاه الأيوبيين ، فكان صاحب كيما وآمد يساندهم بكل قواه للحصول على مزيد من المكاسب ، بينما كان صاحب ماردين يعمل خصدهم مستغلًا كل فرصة للحد من نفوذهم التوسي في المنطقة . ففي هذه السنة أرسل الأوحد الأيوبى صاحب خلاط في أرمينية ( وكانت هذه المدينة قد غدت تحت سيطرة الأيوبيين سنة (١٢٠٧ = ٥٦٠٤ م ) ) إلى السلطان العادل يستصرخه ضد الكرج ، الذين تكررت هجماتهم على المنطقة خلال الستين الأخيرتين ، فقادر العادل دمشق وعبر الفرات وكتب إلى البلاد يستنفر عساكرها معلنًا عزمه على مجاهدة الكرج ، فوصل إليه عدد من الأمراء الأيوبيين بصحبة قواتهم لدى نزوله بحران ، كما وصل إليه الملك الصالح محمود ابن محمد الارتقي صاحب كيما وآمد وعدد من الأمراء الأرتقية الموالين له كصاحب السويداء وصاحب دارا . فلما تكاملت العساكر لدى العادل حاول استغلال الفرصة للحصول على مكاسب جديدة في المنطقة ، خاصة وأنه كان قد اتفق مع أمير الموصل على اقتسام بلاد قطب الدين صاحب سنجار ونصيبين ، فأرسل إلى الأخير يطلب منه تسليمه بلاده مقابل تعويضه عنها بمكان آخر ، لم يجدده ، فلم يحبه هذا إلى ذلك ، فقادر العادل حران ، وكان قد بلغه أن الكرج لما علموا بتقدمه خافوا وتراجعوا إلى بلادهم ، فاستولى على نصيبين والخابور ثم تقدم إلى سنجار وحاصرها ، فاستدرج صاحبها ببعض أمراء الاطراف ، وجرت مراسلات بهذا الصدد تشكل على إثرها حلف صم أميرا الموصل وأربيل والظاهر الأيوبى صاحب حلب وسلطان سلاجقة الروم وأخاه صاحب أرزن الروم وأمير ماردين . وكان غرض هذا الحلف هو إيقاف مطامع العادل في المنطقة ، وفي ذلك تحقيق هدف مشترك لهؤلاء الأمراء جميعاً ، وهو الحفاظ على ممتلكاتهم من أطماع العادل والأمراء الأيوبيين الموالين له .. وبكان للظاهر صاحب

حلب ضيعة من أعمال ماردين تدعى ( القرادي ) ، كان أمير ماردين قد وهبها  
 إليها عندما سعى للصلح بينه وبين العادل عام ( ٥٩٩ = ١٢٠٢ م ) وغدت  
 تحت تصرف الظاهر منذ ذلك الوقت . فلما كانت هذه السنة ( ٦٠٦ =  
 ١٢٠٩ م ) ، وحاصر العادل سنجار ، أمر من هناك بإقطاع القرادي ل الخليفة  
 الصالح محمود صاحب كيما ، فجعل الظاهر ذلك وسيلة في نقض ما بينه وبين  
 العادل ، وأحضر فقهاء حلب عنده واستفتهم قائلاً « ما تقولون في رجل حلف  
 لرجل يميناً على أشياء فخان أحد الرجلين في بعض تلك الأشياء ، أين حل عقد  
 تلك اليمين بتلك الأشياء أم لا ؟ » فأجابوا بأنه ينحل اليمين ويبطل حكمها ،  
 فأظهر لهم صورة الحال فأفتوه بأن اليمين قد بطلت ، وكان ذلك هو السبب  
 في انضمام صاحب حلب إلى الحلف المضاد للعادل . بدأ زعماء هذا الحلف  
 نشاطهم بأن يبعثوا إلى الخليفة يطلبون منه إرسال رسوله ليسمى في الصلح ،  
 ولزيعد العادل عن سنجار ، كما أرسل الظاهر إلى العادل يطلب منه الرحيل عن  
 سنجار ، وقال لرسله : إن لم يقبل الشفاعة فأعلموه أنني خارج إلى بلاده ، وطلب  
 منهم أن يبلغوا عسكر حلب المرافق للعادل بالانسحاب في حالة رفضه ، فلما  
 رفض هذا انسحب هؤلاء ، الأمر الذي أدى إلى إضعاف العادل . وتقدم رسول  
 الخليفة في طلب عقد الصلح بين الطرفين المتسارعين ، وقد رفض العادل في  
 البدء قبول الصلح ، ولكن حين أدرك عدم جدوى الاستمرار في الحصار  
 أجب إليه محتفظاً بحقه في نصيبين والخابور وكل المناطق التي استولى عليها  
 خلال حركته الأخيرة ، ومن ثم غادر المنطقة وتفرق بقية الحلفاء<sup>(١)</sup> . بعد أن

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ٣ / ١٩٠ - ١٩٧ ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ٦٧ ،  
 سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٤١٠ / ٥٤٠ ، أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١١٨ ، ابن الوردي ، تتمة  
 ١٢٧ / ٢ ، ابن بهادر ، فتوح النصر ( مخطوطة ٤ / ٤ ) ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة  
 ٣٤ / ٩ - ٣٨ ) .

دخل في الصلح منهم كل من أمراء ماردين وأربيل والموصل والجزيرة وحلب<sup>(١)</sup>. وفي السنة التالية (٦٠٧ = ١٢١٠ م ) ، نقض هؤلاء الحلفاء وأنصارهم الصلح مع العادل واتفقوا على إعلان العصيان ضده وتحويل الخطة لسلطان سلاجقة الروم ، وخسر و شاه بن قلوج أرسلان كا راسلوا الكرج بالخروج إلى أطراف خلاط ، في الوقت الذي خرج كل أمير من الحلفاء على رأس قواته إلى حدود بلاده للاجتماع بالآخرين ، ومن ثم التقدم لقتال العادل الذي كان مقىماً آنذاك في حران بصحبة صهره صاحب كيما . ونفذ الكرج الاتفاق مستهدفين استغلال هذا التحالف للحصول على مناطق جديدة ، وتقديموا إلى خلاط فتصدى لهم صاحبها الأوحد بن العادل وأسر مقدمهم ، فاضطروا إلى عقد هدنة معه وآثروا الانسحاب . وعندما علم الحلفاء بذلك ضفت هممهم ، وبادر كل منهم إلى مراسلة العادل ملقياً مسؤولية العصيان على غيره باذلاً له الطاعة ، فقبل العادل أعتذارهم وعقد معهم صلحًا في جمادى الأولى<sup>(٢)</sup> .



Sad al-amn wal-hedo' al-siyasi min-nahiyat al-jazirah taliyah al-sawawat al-taliyah ، ولم يحاول أي من الأمراء الأراثة نقض الصلح الذي تم عام (٦٠٧ = ١٢١٠ م ) ، أو العمل على إثارة المشاكل ضد الآيوبيين أو ضد منافسيهم على السواء .

### توحيد سياسة الأراثة :

ولكن هذا الاستقرار السياسي ما لبث أن انتهى عام (٦١٥ = ١٢١٨ م ) ،

(١) ذيل الروضتين ص ٦٧ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٤١/٨ .

(٢) ذيل الروضتين ص ٧٥ ،

وتعتذر تلك السنة نقطة انتقال في سياسة الأراثقة تشير لفترة جديدة ذات سمة تفاير ما سبق حتى ذلك الوقت في مجال العلاقات بين الأراثقة والأيوبيين ، فلأول مرة ، منذ عام ( ١١٧٥ م = ٥٧١ هـ ) يتحدد الموقف السياسي للإماراتين الأرثقيتين في كيما وماردين ضد بعض الأمراء الأيوبيين .

فقد حدثت ، خلال هذا العام منازعات على بعض المدن والقلاع بين بدر الدين لؤلؤ - المتوفى في الموصل باسم حاكمها نور الدين بن القاهر - وبين عماد الدين زنكي صاحب العقر والشوش<sup>(١)</sup> . وانضم مظفر الدين كوكوري صاحب أربيل إلى جانب صهره زنكي ضد حاكم الموصل ، فاضطرر هذا إلى طلب مساندة الأشرف الأيوبي<sup>(٢)</sup> ، مقابل الانتقام إليه والخطبة له . فأجابة الأشرف إلى طلبه وأرسل إلى كوكوري يتهدده ويطلب منه الالتزام بالصلح الذي تم بين جميع الأمراء عام ( ١٢١٠ م = ٥٦٠٧ هـ ) . وكان ناصر الدين محمود أمير كيما وآمد قد أعلن العصيان ضد الأشرف وهاجم بعض بلاده ونهبها واتفق مع صاحب ماردين ، ومن ثم انضما إلى كوكوري وحلفائه ، فلما علم الأشرف بذلك جهز عسكراً وجهه إلى نصبيين ليكون في نجدة حاكم الموصل لدى احتياجاته إليه . ولكن هذه النجدة لم تتحقق غرضاً يذكر ، واستمرت الحروب بين صاحب حاكم وأعدائه ، مما اضطر الحاكم المذكور إلى الاستسلام ثانية بالأشرف ، فعبر هذا الفرات إلى حران تلبية لطلب حليفه ، ولكن الصعوبات التي جاءته منعته من الإسراع بالمسير . ذلك أن صاحب أربيل كان يراسل أمراء

(١) العقر : قلعة حصينة في الجبال الممتدة شرق الموصل ( ياقوت ، بلدان ٣ / ٦٩٦ ) ، والشوش قلعة عظيمة بالقرب من العقر ( المصدر السابق ٣ / ٣٤٤ ) .

(٢) صاحب البلاد الجزوية التابعة للأيوبيين ، وخلط وما جاورها في أرمينية ، انظر الكامل ( طبعة الاستقامة - القاهرة ) ٤٢١/٩ .

الأطراف ، يستعملهم ويحسن لهم الخروج على الأشرف ويغوفهم منه إذا ما خلا لهم وجهه فاكد أميراً كيما وماردين وقوفهم إلى جانبه ، وانضم إليهم عز الدين كيكاووس سلطان سلاجقة الروم ، وتم الاتفاق بينهم على إعلان الطاعة لكيكاوس والخطبة له في بلادهم وضرب السكّة باسمه<sup>(١)</sup> .

ولكن وفاة كيكاووس عام (١٢١٦ = ٦٦٦ م) أنقذت الأشرف وأمراء الموصل من خطر محقق . وكان صاحب أربيل قد راسل جماعة من كبار أمراء الأشرف واستالم لهم فاستجابوا إليه ، وانشقوا على سيدهم وزلوا بدنيسر قريباً من ماردين ليجتمعوا بصاحب آمد وكيفاً وينعوا الأشرف من التقدم إلى الموصل لساندة حليفه . فلما اجتمعوا هناك انقلب صاحب كيفاً وآمد عليهم وعاد إلى سياسته التقليدية في موافقة القوى الأيوبيّة ضد أعدائهم في المنطقة طعماً في الحصول على بعض المكاسب ، فعقد صلحًا مع الأشرف حصل بوجبه على حاني وجبل جور ، كما ضمن له الأخير الاستيلاء على دارا<sup>(٢)</sup>

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٤٣ - ١٤٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطه ) .

(٢) كانت دارا آنذاك تحت حكم عماد الدين الأرتقي ابن عم الملك الصالح صاحب كيفاً وآمد ، فلما انتهت الاحداث المشار إليها شكل صاحب كيفاً للأشرف سوء مجاورة ابن عمه في دارا ، وطالبه بتنفيذ وعده بالاستيلاء عليها وتسليمها إليه . ولم يثأر الأشرف إثارة مشاكل جديدة في المنطقة وقال لصاحب كيفاً : « لا أدخل بينكما » ، وربما كان يلمح بذلك إلى أن لصاحب كيفاً الحرية في مهاجمة دارا والاستيلاء عليها ، إذ ما لبث هذا أن هاجها فعلاً وسيطر عليها عام (١٢٢٠ = ٦٦٧ م) . وبقيت تحت سيطرته إلى أن توفي فانتقلت إلى ولده المسعود ، إلا أن الأشرف سرعان ما استولى عليها لكونها مجاورة لنصيبين ووهيما لم لو كه عز الدين إيليك المعروف بصاحب دارا . انظر ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٢٤ ) .

وتسليمها إليه<sup>(١)</sup>.

كان موقف صاحب كيما وآمد نتائج مهمة ، إذ أنه مما أن فارق أعداء الأشرف حتى اخل أمرهم واضطرب بعضهم إلى العودة إلى طاعة الحاكم الأيوبي ، الأمر الذي مكنته من التقدم إلى دنیسر والاستيلاء على المناطق الخبيطة بماردين وإقطاعها لأصحابه . ومن ثم فرض حصاراً اقتصادياً على ماردين لاضعافها والتمهيد لهاجتها ، وساعدته أمير كيما وآمد على ذلك ، فاضطرب صاحب ماردين إلى طلب الصلح ، فأجابه الأشرف وشرط عليه تسليمه رأس عين التي كان - الأشرف - قد أقطعها إليها في فترة سابقة ، فضلاً عن قيامه بدفع مبلغ ثلاثة ألف دينار والتنازل لصاحب كيما وآمد عن إقليم الموزر<sup>(٢)</sup> .

ما أن تم الصلح حق غادر الأشرف دنیسر إلى نصبيين بصحبة صاحب كيما لإخراج حاكم الموصل ، واستولى في طريقه على سنجار بعد أن تنازل له صاحبها لقاء تعويضه عنها بالرقعة ، ثم تقدم إلى الموصل فوصلهما في جمادى الأولى سنة (٥٦٧ = ١٢٢٠ م ) . وسعى الخليفة وصاحب أربيل في طلب الصلح فلم يجدهم الأشرف إلى ذلك ، إلا أن ما أصاب قواته من إرهاق طيلة هذه المدة وميل صاحب كيما إلى كوكوري وإلحاحه ، وبقية الأمراء ، عليه بقبول الصلح ، دفع الأشرف إلى الاستجابة إليه وتسوية المشاكل المعلقة بين حاكم الموصل وصاحب العقر والشوش اللذين ثارت هذه المنازعات بسبب تنافسهما على المدن والقلاع . ومن ثم غادر الأشرف وحلقاًه الموصل إلى سنجار في مطلع

---

(١) ابن الأثير، الكامل ١٣٨/١٢ - ١٤٣، ١٤٦، ابن خلدون، العبرة/٥٩٧ - ٦٠٣ .  
ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطه ١٠ - ١٠) .

(٢) المصادر السابقة ، نفس الصفحات .

رمضان سنة (٦١٧ م = ١٢٢٠ هـ) <sup>(١)</sup>.

وهكذا عادت إمارة كيما إلى سياستها التقليدية فساندت الأيوبيين ضد أعدائهم بعد فترة قصيرة من التمرد عليهم ، واشتركت معهم في مهاجمة أرادة ماردين ، وكان هدف أمرائها الرئيسي من اتباع هذه السياسة – كما سبق وأن ذكرنا – هو الحصول على مزيد من المكاسب كنتيجة لهذا التأييد والإسناد . واستطاعوا فعلاً أن يحصلوا على موقع دارا والموزر . ويدرك أبو شامة أن الأشرف كان يحب أمير كيما وأن هذا جاء لزيارة الأشرف مراراً عديدة <sup>(٢)</sup> . هذا في الوقت الذي كانت فيه ماردين ملجأ لكتاب الأماء المنشقين على الدولة الأيوبية . وفي عام (٦١٨ م = ١٢٢١ م) كان الأمير مبارز الدين سنقر الصلاحي قد استقر في ماردين بعد اختلافه مع الأيوبيين ، وكان قبيل ذلك مقيناً بحلب فخاف الأشرف من وجوده في ماردين قريباً من ممتلكاته في المنطقة ، وأرسل إلى معظم الأيوي صاحب دمشق قائلاً : ما دام المبارز في الشرق ما آمن على نفسي ، فأرسل معظم إلى المبارز يعده بقطعه ما يشاء في الشام بإعداداً لخطره ، فاستجاب المبارز إليه ، رغم تحذير أمير ماردين إياه من الوقوع في المكيدة التي دربت له ، وأنه لاقى قبل ذلك الذل والهوان على أيدي الأيوبيين ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل / ١٢ - ١٣٨ / ١٤٣ و ١٤٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥٩٧ - ٦٠٣ ، وأشار إلى الحادث باختصار كل من ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ٤٢٥ ب - آ ٤٤ ٥٢ / ب ) ، وسبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٠٨ / ٨ - ٦٠٩ ، واليونيفي ، ذيل المراة ٤٢٦ ، وأبو شامة ، ذيل الروضتين ص ١٢١ . ويشير المقريزي ( السلوك ٢٠٥ / ١١ ) إلى أن الأشرف ملك ماردين هذه السنة (٦١٧) ولم يقصد ريض ماردين وضياعها ، الصانع ، الموصى ص ٤٠٥ - ٢٠٥ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ١٠ - ١٠ ) .

(٢) ذيل الروضتين ص ١٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٩٣ / ١٣ .

وغادر ماردين إلى دمشق ، حيث لم يف المعلم بوعوده<sup>(١)</sup> .

دللت هذه السياسة التي اتبعها صاحب ماردين تجاه الأيوبيين على فشلها من حيث تحقيق نتائج إيجابية ، وأدرك من سياق الأحداث أن لا جدوى من جراء عدائه المستمر للأيوبيين ، بل إن ذلك غدا يعرضه لخسائر فادحة في ممتلكاته ، ويشجع أرانتقة كيما على التعرض لإمارته بمساعدة الأيوبيين ، ومن ثم عزم على تغيير سياسته ، وبخاصة بعد صلح عام (٦١٧ = ١٢٢٠ م ) ، فأرسل في العام التالي إلى الأشرف يطلب منه أن يصعد المعلم – الذي أرسله الأيوبيون لطلب نجدة من الجزيرة ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup> – إلى قلعته في ماردين لكي يؤكد لهم صدق تجاؤبه معهم ، وعمق ثقته بهم ، فأبلغ الأشرف المعلم طلب صاحب ماردين ، فتوجه المعلم إلى هناك ، حيث نزل صاحب ماردين لاستقباله وأصعده إلى القلعة « وخدمه خدمة عظيمة وقدم له التحف والجوائز وتحالفا واتفقا »<sup>(٣)</sup> ، وزوجه المعظم إحدى بناته وقام هو بتزويج ابنته للمعلم وخلع على جميع أصحابه وأعطاهما الأموال ، ومن ثم عاد الامير الأيوبي إلى حران<sup>(٤)</sup> .

إلا أن هذا التجاوب في سياسة الأرانتقة تجاه الأيوبيين لم يكن صادراً عن إخلاص ، فقد حاولت إمارتا ماردين وكيفا – في الحفاء – استغلال أية حركة تستهدف إضعاف نفوذ الأيوبيين المباشر في المنطقة ، فراحوا يسهمون في تعزيز

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٢٦/٨ . ونقل عنه أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ١٣٤ ، الصالحي ، القلائد الجوهرية ص ٢٢١ .  
(٢) انظر التفاصيل في الفصل الثالث .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٦١٨/٨ - ٦١٩ .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحات ، ونقل عنه أبو شامة ، ذيل الروضتين ١٢٨ ، ابن العربي ، المختصر ٤١٢ ، ابن تفري بودي ، النجوم الراهنة ٢٣٩/٦ - ٢٤٠ .

تلك الحركات ومساندتها . ففي عام ( ١١٢٣ = ٦٢٠ م ) ، قام شهاب الدين غازي الأيوبي ، الذي استنابه أخوه الأشرف في خلاط ، بحركة عصيان ضد أخيه ، ولم توضح المصادر دور الأرادة في ذلك الحدث ، إلا أن سبط بن الجوزي يشير إلى العصيان قائلاً « وأعانه عليه قوم آخرون وهم صاحب أربيل والمشاركة ... وقالوا نحن وراءك<sup>(١)</sup> » ، وربما قصد بالمشاركة الأمراء المحليين في الجزيرة وفي جملتهم الأرادة ، ولكننا لا نستطيع الجزم بذلك . وعلى أيّة حال فقد انتهت الحركة بالفشل .

ومن يشير إلى أن تعاون الأرادة مع الأيوبيين وطاعتهم لهم لم تكن صادرة عن حسن نية ما حدث بعد ثلاثة أعوام ( ١٢٢٦ = ٦٢٣ م ) ، إذ اشترك كل من فرعى الأرادة في كيما وماردين في حركة واسعة النطاق استهدفت القضاء على نفوذ الأشرف في الجزيرة واقتسم ممتلكاته هناك . فقد تم الاتفاق بين أميري كيما وماردين ومظفر الدين كوكبوري صاحب أربيل والملك المعظم صاحب دمشق ، فضلاً عن دخول قوة جديدة في الصراع في هذه المنطقة منذ ذلك الوقت ألا وهي الخوارزميون بقيادة السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، بعد الضغوط التي جاهاها في بلادهم الأصلية . وقد تم التفاهم ، مسبقاً ، بين هؤلاء جميعاً على جصة كل منهم في أملاك الأشرف ، وأرسل كل من أميري ماردين وكيفا رسالة إلى جلال الدين خوارزمشاه يعلنان فيها طاعتها له ، فبعثت هذا إليها يأمرها بالخطبة له في بلادهما لاختبار صدق نيتها في هذه الدعوة<sup>(٢)</sup> .

(١) مرآة الزمان ٦٢٥/٨ .

(٢) النسوى ، سيدة جلال الدين منكورتي ص ٣١٠ ، وانظر ابن الأثير ، الكامل

وتحرك صاحب أربيل في جادى الآخرة (١٢٢٦ م = ٦٢٣ هـ) نحو الموصل ، وتقدم خوارزمشاه من تقلisy يريد خلاط ، إلا أن عصيان أحد أمرائه عليه في إحدى مناطق دولته اضطره للعودة إلى هناك بعد أن نهب مناطق خلاط وخرّب كثيراً منها . وقد أثرت عودته في معنويات حلفائه إلى حد كبير « فانفسخ جميع ما كانوا قد عزموا عليه »<sup>(١)</sup> ، إلا أن صاحب أربيل واصل تقدمه إلى الموصل وتزل على جانب الزاب ، شرقهما ، فأرسل بدر الدين لولو يستنجد بالأشرف ، وكان آنذاك في الرقة ، ويطلب منه أن يحضر بنفسه لإجلاء صاحب أربيل عن الموصل ، فسار الأشرف إلى حرمان ثم إلى دنيسر حيث خرب أطراف ماردين ونهبها<sup>(٢)</sup> ، وأرسل من هناك إلى حليفه كيقباذ بن كيخسرو سلطان سلاجقة الروم يطلب أن يتقدم إلى إمارة كييفا ويشن هجومه عليها ، فسار سلطان سلاجقة الروم إلى ملطية وتزل عندها ، وسير العساكر من هناك إلى إمارة كييفا حيث استطاعت أن تفتح قلعه منصور وشيكزاد وعدداً من الحصون الصغيرة الأخرى . فلما رأى أمير كييفا أن ليس من مصلحته الاستمرار في معادة الأشرف وحلفائه أرسل إليه وانضوى تحت لوائه ، فأرسل هذا إلى سلطان سلاجقة الروم يعرفه بذلك ويطلب منه إعادة ما استole ، ذنبه إلى أمير كييفا ، ولكن كيقباذ لم يحبه إلى ذلك وقال « لم أكن نائباً لشريف يأمرني وينهاني »<sup>(٣)</sup> .

قام المعصم - صاحب دمشق - خلال ذلك بالتحرك إلى حمص وحماه وأرسل

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٢/١٨٧ . ويعطيه المقريزي (السلوك ٢١٥/١١) في القول بأن خوارزمشاه ، استولى في هذه الحادثة على ماردين .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٢/١٢ ، وانظر ابن واصل ، بفرج الكروب (القسم المخطوط ٢٤٠/٦) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٢/١٢ - ١٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٨ - ٣٥٩ .

إلى الأشرف من هناك يطلب منه إنتهاء القتال وأن يعود كل طرف إلى بلده ، وقد أدى هذا إلى إنقاذ ماردين من خطر محقق ، إذ استجواب له الأشرف وبقية الأطراف ، ورجع كل إلى بلده بعد أن خربت أعمال الموصل وماردين وبخاصة الأخيرة التي كان الغلاء قد انتابها مدة طويلة وجلى عنها أكثر أهلها ، فصادقتها هذه الحادثة فازدادت خراباً<sup>(١)</sup> . وما أن أنهى الأشرف مهاجته لماردين حتى عاد إلى دمشق للقاء المعلم ، وأمر قواته في الجزيرة بمساعدة أمير كيما في حالة اصرار سلطان سلاجقة الروم على مهاجته . فتقدمت هذه القوات للانضواء تحت لواء أمير كيما الذي كان قد استنفر كل قادر على حل السلاح في بلاده ، ومن ثم توجهوا سوية لمحاجة قوات صاحب الروم التي كانت تحاصر آنذاك قلعة الكيختا ، فالتقوا هناك في شوال حيث انهزم أمير كيما وقواته هزيمة نكراء وجرح وأسر عدد كبير من جنده ومن ثم استولت قوات سلاجقة الروم على قلعة الكيختا التي تعد من أمنع الحصون وانسجبت بعد ذلك إلى بلادها<sup>(٢)</sup> .

وهكذا أخلأ الظروف ، صاحب كيما ، إلى التشتبث بسياسته القديمية القائمة على التنصsel بسرعة من معاداته للأيوبيين والعودة إلى الدخول في طاعتهم

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٨٧/١٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٩ - ٣٥٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢ / ٤٤ - ٤٥) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٨٩/١٢ - ١٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٨ - ٣٥٩ . وأشار إلى الحادثة باختصار كل من أبي الفدا ، المختصر ٤/٣ ، ابن الوردي ، تتمة ١٤٨/٢ ، الذهبي ، دول الإسلام ٢/٩٦ ، الديبا بكري ، الخيس ص ٣٦٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢ / ٤٤ - ٤٥) ، ابن الفرات ، تاريخ (المخطوطة ٨١/١٠) .

وحاليتهم ، في الوقت الذي لحقت الخسائر بصاحب ماردين الذي كان يقف دوماً  
إلى صف أعدائهم في المنطقة .

★ ★ ★

Sad الاستقرار ديار بكر طيلة السنوات التالية ، بعد إذ أدرك الأراثقة  
عدم جدوى الدخول في نزاع مستمر مع نواب الأيوبيين هناك ، وبعد ما لحقهم  
من خسائر من جراء ذلك . لذا فإنهم سرعان ما أعلنوا عن طاعتهم للسلطان  
الكامل الذي غدت الجزيرة ضمن ممتلكاته . وقد تقدم هذا إلى الجزيرة وتوجه  
إلى حران والرها وقوى حامياتها فقدمت عليه هناك رسيل صاحب ماردين وكيفاً  
والموصل وأربيل ، كما حضر عنده عدد من الملوك وأعلن صاحب ماردين الخطبة  
له وضرب السكة باسمه تأكيداً لطاعته للسلطان الأيوبي <sup>(١)</sup> .

وفي الخلف الذي عقده الأشرف - الذي غالاً الآن نائباً لدمشق - وبين  
كيقباذ سلطان سلاجقة الروم عام (٦٢٧ = ١٢٢٩ م ) لاسترداد خلاط من  
الخوارزميين ، يذكر سبط ابن الجوزي أن عساكر الجزيرة لبت نداء الأشرف  
واشتركت في المعركة التي انتهت بهزيمة الخوارزمية واسترداد خلاط <sup>(٢)</sup> ، وربما  
كانت قوات الأراثقة ضمن عساكر الجزيرة المذكورة ، وما يحمل على القول بذلك  
تعرض خرتبرت الأرثيقية لهجوم الخوارزميين ، حيث اتفق جلال الدين  
خوارزمشاه مع حليقه صاحب إرزن على أن يتوجهوا إلى نواحي خرتبرت ليراقباً  
من هناك تحركات القوات المعادية ، وكتب خوارزمشاه حليقه توقيعاً بناحيقى

---

(١) المقرizi ، السلوك ١/١٣٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٦٠ - ٦٦٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية

٣١ / ١٢٧ .

كتعني وخربيشين ( من أعمال خرتبرت ) ومن ثم اتجه خوارزمشاه إلى خرتبرت وهاجم قواتها وهزمها<sup>(١)</sup> ، فاما أن يكون قد استولى سابقاً على ناحيتي كتعين وخربيشين ، وإما أنه قرر أخذهما بعد انتصاره على أعدائه وإعطائهما لخليفه .

### سقوط إماراة كيما وآمد :

وبالرغم من أن صاحب ماردين وكيفا الأرتقيتين اختلفا منذ البدء في سياستها تجاه الأيوبيين ، حيث كان الأول يسعى لتقويض نفوذهم في الجزيرة بينما أخذ الثاني يساندهم ويعلن طاعته لهم ، فإن الذي حدث في أواخر العشرينيات أن إماراة كيما وآمد هي التي تعرضت للضربة الأيوبية القاضية التي أسقطتها نهائياً ، بينما استمرت إماراة ماردين بعد ذلك ما يقرب من القرنين . وعنة أسباب عديدة أدت بالسلطان الكامل إلى توجيه ضربته إلى إماراة كيفا وآمد ، وعلى رأس تلك الأسباب أن حاكم هذه الإمارة الملك المسعود ركّن الدولة مودود الذي تولى الحكم عام ( ٦١٩ = ١٢٢٢ م ) ، كان ظالماً قبيح السيرة شيئاً بابيه ، وكان يسعى لاتباع شهواته وارتكاب ما لا يليق ، فضلاً عن أنه بدرت منه بوادر تشير إلى خروجه عن طاعة الأيوبيين ، منها انتهاه إلى جلال الدين خوارزمشاه وخطبته له في بلاده ، كما أنه أساء جوار المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي نائب ميافارقين وراح يتخطف بلاده ، وجاهر كلام من الكامل الأيوبي وسلطان سلاجقة الروم بالمداء ، وأوْكِد الأسباب - كما يشير ابن شداد - أنه كان كلفاً بالنساء منهمكاً في ذلك<sup>(٢)</sup> ، وكان كما ذكر أبو

(١) النسوى ، سيرة جلال الدين ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٢) الأعلاق ( مخطوطة ورقة ١٢٤ ). وانظر ابن الشحنة ، روضة ٨٩/٩ ، وابن دقاق ، زمرة الأنام ( مخطوطة ص ٤ - ٥ ) .

الفدا ، يتعرض لحريم الناس وكانت له عجوز قوادة يقال لها ( الازا ) كانت تؤلف بينه وبين نساء أكابر الناس والملوك والأمراء<sup>(١)</sup> . وذكر سبط بن الجوزي كيف أن الأيوبيين وجدوا في قصره خسائنة حرة من بنات الناس للفراش<sup>(٢)</sup> . وكان والده متزوجاً بابنة السلطان العادل ، فلما مات أساء إليها مسعود إساءة كثيرة « وبذا منه في حقها أمور لا يليق ذكرها » فخرجت من عنده وقصدت أخيها الملك المظفر شهاب الدين غازي بمنافارقين وشككت إليه ، فكتب إلى أخيه ، الكامل والأشرف وعرفهما بذلك فكتب الكامل إلى الخليفة المستنصر بالله يشكوه إليه ويدرك معایبه وتعرضه لحرم رعيته ، واستأذنه في مهاجمته فأذن له الخليفة<sup>(٣)</sup> ثم إن الكامل استهدف توسيع نفوذه في الجزيرة والعمل على توحيدها للصمود أمام طلائع الضربات التترية ، حيث استغل فرصة خروجه من مصر لدفع التتار ، ثم عرج بعد انسحابهم على آمد<sup>(٤)</sup> وهذا يعد من أشد الأسباب أهمية ، فضلاً عن أن آمد كانت أساساً ، ملكاً للأيوبيين وأن صلاح الدين منحها للأرaqueة عام ( ١١٨٤ = ٥٨٠ م ) ، كهدية منه لأمير كيما .

عسكر الكامل في سلمية واجتمع معه هناك معظم الملوك والأمراء الأيوبيين<sup>(٥)</sup> ومن ثم تقدم إلى آمد ونزل عليهما في العشرين من ذي الحجة ( ١٢٣٢ = ٥٦٢٩ م ) ، فبعث إليه صاحبها يستمطفه وينزل له مائة ألف دينار ،

(١) أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١٥٩ .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٧٦/٨ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٢٤ - ١٢٤ ب ) ، وانظر ابن واصل ، مفرج الكروب ( القسم المخطوط ٢٧٧/٢ - ٢٧٨ ) .

(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٧٣/٨ .

(٥) أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١٥٩ .

واللأشرف عشرين ألف دينار فلم يقبل<sup>(١)</sup> ، وضررها بالمجانين<sup>(٢)</sup> وضيق على أهلها ، وأضففهم بالمقاطعة الاقتصادية ومنع الأقوات من الدخول إليها<sup>(٣)</sup> وأنذر صاحبها وأعلن أنه سينتازل له عن إقطاعات كثيرة إذا سلم آمد فلم يلتقت إليه<sup>(٤)</sup> . وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة رتب الكامل قوله للهجوم ، ثم ما لبثوا أن زحفوا « زحفة رجل واحد » فلما رأهم صاحب آمد هاله ذلك وطلب الأمان فأمنه الكامل على أمواله وأهله وأقطعه إحدى المناطق ببصر ، ومن ثم تسلم آمد<sup>(٥)</sup> ، ودخل البلد وبغض على أولاد مسعود واستولى على ذخائره وأمواله<sup>(٦)</sup> . ووصل إليه آنذاك رسول الخليفة المستنصر ليقلده الملك وهو مسرور بما نال من ملكها<sup>(٧)</sup> ، كما وردت هذه هدية من صاحب مardin<sup>(٨)</sup> مصانعة له وتقرباً إليه ، وقد تكون الكامل بعد قليل من السيطرة على معظم الحصون العائدة لإمارة مسعود دون مقاومة تذكر ، ما عدا حصن

(١) المقريزي ، السلوك /١٣٤٣ ، ابن دقائق ، نزهة الانام ( مخطوطه ٤ - ٥ ) .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان /٨٦٧٥ ، الفهري ، دول الإسلام /٢١٠٢ ، المقريزي ،  
السلوك /١٢٤٣ ، ابن العياد ، شذرات /٥١٣٤ - ١٣٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب  
( القسم المخطوط ٢٧٧ /٢ - ٢٧٩ ) .

(٣) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٤٢ .

(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان /٨٦٧٦ .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ١٢٥ آ ) ، العمري ، مسائل الابصار ( مخطوطه  
٣٢٧ /٢٢٥ - ٢٢٦ ) ، عيون الاخبار ، ( مخطوطه ١٦٤ ) ، ابن دقائق ، الجواهر الثمين  
( مخطوطة ٩٩ ) .

(٦) سبط بن الجوزي ، العمري ، مسائل الابصار ( مخطوطه ٣٢٧ /٣ - ٢٢٥ /٢٢٦ ) ،  
ابن دقائق ، نزهة الانام ( مخطوطه ٤ - ٥ ) .

(٧) ابن كثير ، البداية والنهاية /١٣٥ /١٣ .

(٨) المقريزي ، السلوك /١٣٤٣ .

كيفا حيث إن نائبه أبي تسليمه إيه ، فاتبع الكامل سبيل الخداع للسيطرة عليه ، إذ تقدم بالمسعود إلى أسفل الحصن وطلب منه أن يظهر لهن فيه أنه يعذب بسبب عدم تسليمه ، فاضطر نائبه إلى التنازل عن البلد في المحرم سنة (١٢٣٢ م = ٥٦٣٠ )<sup>(١)</sup> ثم سلت القلمة في صفر<sup>(٢)</sup> وكانت في غاية الحصانة<sup>(٣)</sup> .

رتب الكامل نوابه في آمد وكيفا وببلادها وعين ابنه الصالح أبوب نائب عنه في جميع المنطقة<sup>(٤)</sup> ، وأحسن إلى المسعود واستصحبه معه إلى مصر<sup>(٥)</sup> . ولم يمض وقت قصير حتى بدت من الأخير أمور اعتقاله الكامل بسببه ، إذ كاتب سلاجقة الروم وسمى في هلاك الكامل<sup>(٦)</sup> ولم يزل المسعود معتقلًا إلى أن توفي الكامل سنة (١٢٣٧ م = ٥٦٣٥ ) ، فأطلق من السجن وتوجه إلى حماة حيث أحسن صاحبها إليه ثم سافر إلى الشرق واتصل بالتتر فقتلوه طعمًا في

(١) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ١٢٤ ب ١٢٥ آ ) ، وفي رواية سبط بن الجوزي ، ( مرآة الزمان ٦٧٦/٨ ) إن الكامل بعث الأشرف وشهاب الدين غازي ومعهما المسعود مخفوراً إلى كيفا فلم يسلم اليهم فمذبه الأشرف عذاباً عظيماً « وكان يبغضه » ، وانظر ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣٥/١٣٥ ، وابن العميد ، شذرات الذهب ٥/١٣٥ .

(٢) نزهة الاناء ، ( مخطوطة ٤ - ٥ ) .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ٣/١٥٩ .

(٤) المصدر السابق ١٦٠/٣ ، النهي ، دول الإسلام ٢/١٠٢ ، الديار بكري ، الحinis ص ٤٧١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ( القسم المخطوط ٢٧٨/٢ - ٢٧٩ ) .

(٥) يحيطى ابن العربي ، مختصر ص ٤٣٥ ، في القول بأن الكامل عوضه عن إمارته قرى بالشام .

(٦) ابن تغري بردي ، النجوم الظاهرة ٦/٢٥ ، وانظر ابن واصل ، مفرج الكروب ( القسم المخطوط ٢٧٨/٢ - ٢٧٩ ) .

وهكذا سقطت إحدى إمارتي الأرتقاء بعد أن حكمت ما يقرب من قرن ونصف (٤٩٨ - ١١٠٤ = ٦٣٠ - ١٢٣٢ م ) ، وكان العامل الرئيسي في سقوطها - كرأينا - هو ضعف آخر أمرائها الملك المسعود وانهابه في المذلات ، واتباعه سياسة الاستفزاز للأيوبيين سواء في علاقاته الخارجية أم العائلية ، مما دفع هؤلاء أخيراً إلى توجيه ضربتهم المشتركة ضد هذا الأمير الأرتقي ، مستغلين فرصة تعرض المنطقة لهجمات قوى التتر الدائمة ، وأذن الخليفة العباسي بالهجوم على هذه الإمارة<sup>(٢)</sup> ، وقد هدم الملك المسعود بسلوكه هذا وسياسة تلك ما سعى أسلافه لبنائه طيلة ما يقرب من قرن ونصف باتباعهم سياسة التحالف والطاعة للأيوبيين ، مما أدى إلى حصولهم على ممتلكات جديدة باستمرار بحيث اتسعت إمارتهم فشملت عدداً كبيراً من المدن والقرى والضياع ، بفضل عطف الأيوبيين عليهم . وربما كان بإمكان إمارة كيما وآمد أن تصمد لأقوى الضربات لولا ما اتصف به أميرها المسعود من تهافت في أخلاقه وعدم رغبة في التعرض للمشاكل في حالة إصراره على الوقوف بوجه الحصار الأيوبي ، وبالرغم من أن أكبر مدینتين في إمارته ، وهما كيما وآمد ، تميزتا بمحاصنتها الشديدة واستعدادها للمقاومة طويلة المدى لأي هجوم .

(١) أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١٥٩ - ١٦٠ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ١٥٨ ( نقلًا عن أبي الفدا ، المختصر ٣ / ١٥٩ - ١٦٠ ) ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ١٥٨ ، ( نقلًا عن أبي الفدا ) وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٧٣ - ٦٧٤ ، وأبو شامة ، ذيل الروضتين ص ١٢٤ ، والعمري ، مالك الأبصار ( مخطوطة ٣ / ٢٧٥ - ٢٢٦ ) .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٤ / ١٢٤ - ١٢٤ ب ) .

## سقوط خرتبرت :

لم يؤود سقوط إمارة كيما وآمد إلى إضعاف الإمارة الأرترقية الأخرى في ماردين ، بل على العكس ، ربما أتاح لها المجال للتمكّن في المنطقة وتوسيع نفوذها فيها ، خاصة وأن العلاقات بين الإمارتين لم تكن ودية في معظم الأحيان ولم يحدث بينهما تعاون في سياستها الخارجية ، بل على العكس اتبّع أمراؤها سياستين مختلفتين تماماً – كاً اتّضح من استعراض علاقاتها الخارجية – وكثيراً ما كانتا تتنافسان على الحدود وبعض الممتلكات ويصل التناقض إلى حد القتال واللجوء إلى قوى خارجية لاقتطاع بعض أجزاء إحدى الإمارتين وضمّها إلى الأخرى . وهذا هو الذي جعل إمارة ماردين لا تتأثر البتة بسقوط شقيقها الأرترقية في كيما وآمد ، خاصة وأن الأمير الذي أنابه الكامل في المنطقة ، وهو الملك الصالح أيوب ، كان صبياً بعد ولم يتّصف بالقوة والدرأة . لذا نجد صاحب ماردين يغير سياسته ويقف منهم موقف العداء محاولاً الاستزادة من قوته والتّوسيع الإقليمي على حساب الأملاك الأيوبية سواء عن طريق التحالف مع جيرانه أو بفرده ، ولم يتمهل في تحقيق أهدافه تلك ، وإنما بادر في نفس العام الذي سقطت فيه إمارة كيما إلى التحالف مع كيقباذ سلطان سلاجقة الروم ، وقاما بهجوم شديد على حران والرها والرقّة « وفعلا بالجزيرة مالا تفعله التتر<sup>(١)</sup> » ، فكان رد الكامل على هذا الهجوم ، أن قام في السنة التالية (٦٣١ = ١٢٣٤ م ) بمساعدة الأمراء الأيوبيون ، بالتقدم إلى بلاد سلاجقة الروم لإيقاف كيقباذ عند حده ، بسبب تعرضه لبلاد خلاط العائدة للأشرف الأيولي ، وكان كيقباذ قد حفظ المرات الجبلية بالمقاتلين فلم يتمكّن الكامل

---

(١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٧٧ ، ونقل عنه ابن كثير ، البداية والنهاية

من الدخول إلى بلاد الروم ، واكتفى بإرسال بعض قواته إلى حصن منصور العائد لكيقباذ حيث تكانت من هدمه ، ومن ثم رحل الكامل عائداً وعسكر في السويدا القريبة من آمد<sup>(١)</sup> بسبب الاختلاف والتنازع الذي وقع بينه وبين الأمراء الأيوبيين ، وجاءه هناك صاحب خربت الأرتفقي وأعلمته بأنه يعرف طريقة سهلاً للدخول إلى بلاد الروم ، فجهز الكامل عسكراً بقيادة بعض الأمراء الأيوبيين تقدموا باتجاه خربت ، فالتحق بهم علاء الدين كيقباذ بقواته وهزمهم<sup>(٢)</sup> ووجد المظفر الأيوبي صاحب حماة نفسه محصوراً مع بعض قواته في خربت ، يحيط بهم جند كيقباذ من كل مكان . ولم يتمكن الكامل من التقدم لإنجاده بسبب الاختلافات التي دبت في صفوف أمرائه ، واستمر الحصار على خربت ، واستولى سلاجقة الروم على ربعها عنوة وأسروا أكثر من كان فيه ، ونصبوا على القلعة عدداً من المجانق ، ومن ثم دام الحصار أربعة وعشرين يوماً وأخذ الماء والقوت يتناقصان في قلعة خربت<sup>(٣)</sup> . وأدرك المظفر عدم جدواه المقاومة فطلب الأمان فأمنه كيقباذ وأكرمه ، ومن ثم قسلم خربت يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي القعدة<sup>(٤)</sup> ، ثم ما لبث أن استولى على ست قلاع أخرى كانتتابعة للأرتفقة فاشتد حنق الكامل لما حصل على أمرائه

(١) أبو الفدا ، المختصر / ٣ - ١٦٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٣٦٠ - ٣٦١ ، الصابوني ، تاريخ حماة ص ٦٦

(٢) سبط بن الجوزي / ٨ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١ / ١٣١ - ١٣٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٦ / ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٣٦٠ - ٣٦١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١ / ١٣١ - ١٣٢ .

(٤) أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١٦٢ - ١٦٣ ، ونقل عنه ابن الوردي ، تتمة ١٥٩ / ٢ - ١٦٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٣٦٠ - ٣٦١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١ / ١٣١ - ١٣٢ ، المقرizi ، السلوك ١ / ٢٤٧ - ٢٤٩ .

وعساكره من سلطان سلاجقة الروم في قلاع خرتبرت « ونسب ذلك إلى أهله من الملوك فتنكر ما بينه وبينهم <sup>(١)</sup> .

وهكذا سقطت إمارة أخرى من إمارات الأرaque ، كانت تحكم في خرتبرت والمحصون المجاورة منذ عام ( ١١٨٥ = ٥٨١ م ) ، تلك الإمارة التي أسسها عماد الدين أبو بكر قرا أرسلان شقيق حاكم كيما آنذاك . وبالرغم من أن هذه الإمارة لم تقم بدور يذكر في الأحداث التي جرت في المنطقة طيلة الفترات السابقة بسبب صغراها وتطرف موقعها إلى الشمال ، إلا أنها كانت على أية حال كإمارة حاجزة في أقصى شمال ديار بكر ، ربما أفادت بقية الإمارات الأرaque في الجنوب . ولم يسع صاحب ماردين لمساعدة هذه الإمارة في ساعتها الحرجة ، بل على العكس كان آنذاك حليفاً قوياً لسلطان سلاجقة الروم الذي أسقط هذه الإمارة . وربما كان هدف صاحب ماردين هو التخلص من الإمارات الأرaque في ديار بكر لكي يصفو له الجو ومن ثم يستطيع أن يوسع أملاكه دونما معارض أو قريب من أقربائه . وهكذا سقطت إمارتها كيما وخرتبرت دون أن يتتخذ صاحب ماردين أي إجراء لمساعدتها .

### تحالف ماردين مع سلاجقة الروم والخوارزميين :

وعندما انسحب الكامل وبقية القادة الأيوبيين من المنطقة في مطلع العام التالي ( ١٢٣٤ = ٦٣٢ م ) تاركين نواهبهم هناك ، استغل صاحب سلاجقة الروم هذه الفرصة فتووجه نحو آمد وحاصرها أياماً ثم نازل السويداء القريبة منها واستولى عليها ، ومن ثم تقدم إلى بعض المواقع الأيوبية الأخرى في المنطقة

---

(٢) اليوناني ، ذيل مرآة الزمان ١/١٣١ - ١٣٢ ، المقريزي ، السلوك ١/٢٤٧ -

فاستولى على الرها وحران والرقة ، ونزل إليه صاحب ماردين واشترك معه في بعض عملياته واستطاع أن يحصل وحليفه على أموال لا تمحى<sup>(١)</sup> .

وفي السنة التالية (٦٣٣ هـ = ١٢٣٥ م ) أعاد الكامل ، بصعبه الأشرف ، الكرة على بلاد الجزيرة لاسترجاع ما اغتصبه منه سلطان سلاجقة الروم وحليفه الأرتقي ، وما أن سمعت قوات سلاجقة الروم بذلك حق انسحب من المنطقة تاركة صاحب ماردين وحيداً أمام القوات الأيوبية التي تمكنت من استعادة حران والرها ، ومن ثم نزلت على دينيسير القريبة من ماردين فخربت معظمها واستباحت النهب والفتوك ، ووقفت عائدة إلى دمشق ففسحت بذلك المجال كررة أخرى لحدوث الأضطرابات في المنطقة . فأعادت قوات سلاجقة الروم الكرة ، كما جاء الخوارزمية<sup>(٢)</sup> إلى صاحب ماردين فنزل إليهم واشترك معهم في أعمال التغريب والنهب حيث أحرقوا نصباً وفعلوا فيها أعظم مما فعل الكامل بدينيسير<sup>(٣)</sup> .



(١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٩٤ ، وانظر ابن تفري بودي ، النجوم الظاهرة ٢٨٧ / ٦ .

(٢) وم القوات التي رافقت السلطان جلال الدين خوارزمشاه خلال عملياته العسكرية في منطقة الجزيرة وأرمينية ، بعد تراجعه أمام هجمات التتر على بلاده - خوارزم - وقد ظل هؤلاء في الجزيرة بعد مقتل سلطانهم عام ٦٢٨ هـ. على أيدي التتر ، وأخذنوا « يغبون على البلاد ويعيشون بقائم سيفهم ، وهم أمراء كبار » : النهي ، دول الإسلام ١٠٩ / ٢ . وقد أقطعهم بعض النواب الأيوبيين في المنطقة عدداً من الواقع ليكفوا غاراتهم وإفسادهم . ابن العبري ، مختصر ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٣) سبط ، مرآة الزمان ٨ / ٦٩٥ - ٦٩٦ . ويدرك ابن تفري بودي ، النجوم الظاهرة =

وما أن توفي الكامل عام (١٢٣٥ م = ٦٣٥ هـ) ، حق تمادي صاحب ماردين وحلفاؤه من الخوارزمية في مهاجمة الواقع الأيوبية في المنطقة ونالوا حربان فأجفل أهلها ، وكانت حربان آنذاك تحت إمرة الملك المنفيث بن الملك الصالح صاحب الجزيرة فخاف منهم وهرب خفية إلى قلعة جعبر على الفرات فلحقه الخوارزمية ونهبوا ما معه واستطاع المنفيث أن يفلت في شرذمة من أصحابه عائداً إلى حربان وهناك ورده كتاب أبيه يأمره بموافقة الخوارزمية وإرضائهم بسبب تعرضه للخطر من جهة بدر الدين لولو حاكم الموصل . فاجتمع المنفيث بهم وكتب لهم إقطاعاً بحران والرها وغيرهما من البلاد الجزيرية وكسبهم بذلك إلى جانب أبيه ضد صاحب الموصل الذي كان آنذاك يحاصر الصالح في سنجار<sup>(١)</sup> . وخلال ذلك كان صاحب ماردين قد دخل تحالفًا مع غياث الدين سلطان سلاجقة الروم وبعض الأمراء الأيوبيين كصاحب ميافارقين وصاحب حلب وصاحب حمص ، حيث أقطعهم سلطان سلاجقة الروم بعض بلاد الجزيرة ويرسله صاحب ماردين بإقطاعه سنجار ونصيبين التابعين للصالح وذلك بعد مهاجمتها والاستيلاء عليها ، ولكن تحالف الأخير مع الخوارزمية وقيام هؤلاء بإجلاء قوات سلاجقة الروم عن آمد<sup>(٢)</sup> أدى إلى تفكك هذا الحلف ، ثم ما لبث أن تم الانقسام بين الأطراف المتنازعة في المنطقة<sup>(٣)</sup> ، وخدت الفتنة

= ٢٩٣/٦ . إن صاحب ماردين نزل إلى الخوارزمية وقاتلهم ، وربما هنا الكلمة (وقاتلهم) إلى فض سبط بن الجوزي فافتقدت الفكرة تماماً ، إذ أن صاحب ماردين كان في ... .  
الخوارزمية ضد الأيوبيين . وانتظر ابن دنقلو ، نزهة الآباء (مخطوطة ٢٠) .  
(١) المقريزي ، السلوك ١/٢ - ٢٦٩ ، الزياني ، ذيل مرآة زمان ٢/٢ - ٢٧٢ .  
٣٣٣ .

(٢) المقريزي ، السلوك ١/٢ - ٢٦٩ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٥ آ - ب) ، المقريزي ، السلوك ٢/٢ - ٢٦٩ .

هناك فترة من الزمن حيث استتب الأمن والهدوء طيلة ما يقرب منخمس سنوات .

ولكن قيام الخوارزمية بالتحالف مع صاحب ماردين عام (٦٤٠ م = ١٢٤٢ م ) ، أدى إلى عودة المزبور والاضطرابات في المنطقة من جديد . وقد انضم شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين إلى هذا التحالف وقاموا بتخريب مناطق عديدة في الجزيرة . فتقدمت قوات حلب لقتالهم وكان اللقاء في أواخر حرم وانتهى بهزيمة ساحقة لقوات المتحالفين وقتل وأسر الكثيرين منهم ، ومن ثم تقدمت قوات حلب فنهبت نصيبيين بعد أن كانت هذه قد تعرضت حوالي سبع عشرة مرة للنهب من قبل قوات الخوارزمية وماردين وغيرهم . وتفرق الخوارزمية إثر هذه المعركة ، ولكنهم ما لبثوا أن تجمعوا وأغاروا على رأس عين فقتلوا أهلها ونهبوا الأموال وسبوا النساء ، وفعلوا بالذابور ما فعلوه في البلاد الجزرية الأخرى<sup>(١)</sup> .

#### محاولات التوفيق إزاء الخطر التترى :

ولما رأى صاحب حلب عدم جدوى الاستمرار في النزاع والخطر التترى على الابواب ، قرر الانفاق مع الخوارزمية وصاحب ماردين ، على أن تعطى رأس عين للأخير وتعطى نصيبيين للخوارزمية . ولكن هؤلاء ما لبثوا أن انهزوا أمام التتر تاركين نصيبيين وراءهم ، فأقطعهما الملك الناصر صاحب حلب لكل من أمرئ ماردين وحاكم الموصل والملك المعظم ابن الصالح كيما ،

---

(١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٧٣٨ ، الذهي ، دول الإسلام ٢ / ١٠٩ . ابن كثير ، البداية ١٣ / ١٦١ ، المقريزي ، السلوك ٢ / ١ / ٣١١ ، ابن دفمق ، تزهية الانام (خطوطه ٥٦) .

وولى عليها من قبله<sup>(١)</sup> . وكان هدفه من ذلك استغلال كل الأمراء الحلبين في المنطقة لتشكيل جبهة إسلامية متعددة ضد هجمات التتر على المنطقة . إلأن أمير ماردين سرعان ما استغل فرصة قيام التتر بهجمات مستمرة على المنطقة فتقدم إلى نصبيين عام (١٢٤٥ = ٦٤٣ م) واستولى عليها وبقيت تحت سيطرته حتى عام (١٢٤٧ = ٦٤٥ م) حيث وصل رسول الخليفة المستعصم لعقد الصلح بين أمير ماردين وحاكم الموصل الذي كانت له حصة الثالث في نصبيين . وقد تم الصلح على نفس القاعدة التي قررها صاحب حلب قبل أربعة أعوام . إلا أن بدر الدين لولو حاكم الموصل ما لبث أن نقض بنود الصلح وتقدم إلى نصبيين عام (١٢٤٨ = ٦٤٦ م) ، واستولى عليها وأمر عدداً من قوات أمير ماردين المرابطين هناك . ومن ثم قام ، بالاتفاق مع الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر ، بالتوجه إلى دنیسر ورأس العین العائدتين للأراتقة ونهبها فاستبعد أمير ماردين بالناصر في حلب<sup>(٢)</sup> ، فسير هذا عسكراً بقيادة الملك المظيم صاحب كيما الذي كان مقيناً بحلب آنذاك اجتمع بالأمير الأرتقي وتم لقاوهما بدر الدين لولو في السابع من ربیع الآخر (١٢٤٩ = ٦٤٧ م) ، واستطاعا أن يهزما وأن يتسلما نصبيين من ثائبه فيها . فأثار فيها الناصر أحد أتباعه ، وأقطع صاحب ماردين سبعين قرية من ضياعها مكافأة على جهوده . وما لبث هذا أن ساند المظيم الأيوبي في سعيه لاسترجاع دارا من بدر الدين لولو ، حيث خرب المظيم قلعتها كي لا تصبح موضعًا للتنازع ، ومن ثم سلم

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطه ٤٠ ب).

(٢) المصدر السابق ، ورقة ٤٢ ب . ويدرك ابن الفوطى ، الحوادث الجامدة ص ٢٣٩ أن صاحب الموصل هاجم ماردين واستولى على ريفها ونهبها وأمر جماعة من أهله ، وانظر مفرج الكروب (القسم المخطوط ٣٦٩/٢) .

بـلـهـا إـلـى حـلـيفـه صـاحـبـ مـارـدـين<sup>(١)</sup> . وـما لـبـتـ حـاـكـمـ المـوـصـلـ أـنـ توـسـطـ نـاـخـلـيـفـةـ المـسـعـصـ لـدـىـ الـمـلـكـ النـاصـرـ فـتـنـازـلـ لـهـ هـذـاـ عـنـهـاـ مـقـابـلـ قـيـامـهـ بـتـقـديـمـ مـبـلـغـ سـنـوـيـ مـنـ مـالـ . وـقـدـ قـامـ بـدـرـ الدـينـ بـتـعـوـيـضـ صـاحـبـ مـارـدـينـ عـنـ سـمـهـ الـذـيـ كـانـ لـهـ فـيـ ضـيـاعـهـ بـاـكـسـينـ وـالـمـجـدـلـ وـبـعـضـ قـرـىـ الـخـابـورـ . وـبـقـيـتـ نـصـيـبـينـ فـيـ يـدـ بـدـرـ الدـينـ إـلـىـ أـنـ تـقـدـمـ إـلـيـهـاـ أـمـيـرـ مـارـدـينـ عـامـ (٦٥١ = ١٢٥٣ مـ) ، وـاسـطـاعـ أـنـ يـسـتـوـلـ عـلـيـهـاـ ، وـلـكـنـ رـسـولـ الـخـلـيـفـةـ قـدـمـ بـعـدـ عـامـيـنـ لـإـلـصـالـحـ بـيـنـ الـأـمـيـرـ الـأـرـتـقـيـ وـبـيـنـ حـاـكـمـ المـوـصـلـ عـلـىـ أـنـ تـكـوـنـ نـصـيـبـينـ مـنـ حـصـةـ الـأـخـيـرـ<sup>(٢)</sup> .

وـهـكـذـاـ اـنـخـصـ الـصـرـاعـ طـيـلـةـ مـاـ يـقـرـبـ مـنـ الـعـقـدـ وـالـنـصـفـ لـلـعـصـولـ عـلـىـ نـصـيـبـينـ ، وـكـانـ كـفـتاـ صـاحـبـيـ الـمـوـصـلـ وـمـارـدـينـ مـتـواـزـنـيـنـ ، لـوـلـ تـدـخـلـ صـاحـبـ حـلـبـ وـرـسـلـ الـخـلـيـفـةـ فـيـ هـذـاـ الـصـرـاعـ . وـكـانـ هـدـفـ الـأـخـيـرـيـنـ هـوـ الـقـضـاءـ عـلـىـ الـمـنـازـعـاتـ الـجـانـبـيـةـ بـيـنـ الـأـمـرـاءـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ الـمـوـصـلـ وـالـجـزـيرـةـ ، كـيـ يـسـتـطـيـعـوـاـ بـوـحـدـتـهـمـ أـنـ يـصـمـدـوـاـ أـمـامـ هـجـجـاتـ التـتـرـ الـمـتـكـرـرـةـ عـلـىـ الـمـنـطـقـةـ .

وـلـكـنـ هـذـهـ الـهـاـوـلـاتـ لـمـ تـجـدـ نـفعـاـ إـزـاءـ أـطـيـاعـ أـمـرـاءـ الـمـنـطـقـةـ وـسـعـيـ كلـ مـنـهـمـ إـلـىـ ضـربـ الـأـخـرـ وـالـحـصـولـ عـلـىـ اـسـلـابـهـ ، بـغـضـ النـظـرـ عـمـاـ يـنـتـجـ عـنـ ذـلـكـ مـنـ فـتـحـ الـطـرـيقـ أـمـامـ التـتـرـ . وـبـالـرـغـمـ مـنـ الـصـلـحـ الـذـيـ تـمـ بـيـنـ صـاحـبـ مـارـدـينـ وـحاـكـمـ الـمـوـصـلـ عـامـ (٦٥٣ = ١٢٥٥ مـ) ، إـلـاـ أـنـ الـأـمـيـرـ الـأـرـتـقـيـ ظـلـ يـحـقـدـ عـلـىـ غـرـيـهـ لـحـصـولـهـ عـلـىـ نـصـيـبـينـ بـوـجـبـ ذـلـكـ الـصـلـحـ ، وـأـخـذـ يـنـتـهـزـ الـفـرـصـ لـإـضـعـافـ نـفوـذـهـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ ، فـقـامـ بـعـدـ عـامـيـنـ مـنـ ذـلـكـ (٦٥٥ = ١٢٥٧ مـ) بـتـقـديـمـ مـسـاعـدـتـهـ

(١) ابن شداد ، ورقة ٤٢ ب ، الغزي ، نهر الذهب ٢/٥٥ - ٥٦ . وانظر مجلة بغداد ص ٥٣ (عدد ٢٥ ، سنة ١٩٦٦) .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق (مخطوطه ٤٠ ب) ، وانظر مجلة بغداد ص ٥٣ ، (عدد ٤٥ سنة ١٩٦٦) .

للكامل الأيوبي ساحب ميافارقين ، في محاونته للاستيلاء على آمد من سلطان سلاجقة الروم قبل أن يتمكن حاكم الموصل من أخذها ، إذ كان الأخير قد عزم على الزحف عليها في تلك السنة . واستطاع الكامل بذلك أن يستولي على آمد في ربيع الأول من هذه السنة وأن يقطع الطريق على حاكم الموصل<sup>(١)</sup> .

ولم يستجب صاحب ماردین ، ولا بقية الأمراء الحلبين ، لسياسة الناصر ، الذي غدا سلطاناً على الشام كله ، بتوحيد جيشه ضد التتر ، بالرغم من أن الأمير الأرتقي كان خلال الحسينيات في طاعة الناصر<sup>(٢)</sup> . ولكن طبيعة الظروف في الجزيرة واستمرار التنافس الذي استحوذ على جميع الأمراء هناك ، اضطرت أمير ماردین على الاستمرار في سياسة الانضمام إلى التكتلات والأحلاف لتحقيق أطماعه ، وقد فتح هذا الصراع الباب على مصراعيه لقيام التتر بتشييت أقدامهم في الجزيرة وتغيير الخارطة السياسية هناك .

(١) ابن شداد ، الأعلان ( مخطوطة ١١٣ ب - ١١٤ ) .

(٢) اليوناني ، ذيل مرآة الزمان ٤٦٢ / ١ .

## الفصل الثالث

بنوارتق والصليبيون

(م ٤٩١-١٠٩٧ = م ٦١٨-١٢٢١)





تشكل علاقة الأرادةة بالصلبيين حلقة خطيرة في تأريخهم السياسي، إذ أن أمراءهم قدموا في هذا المجال خاذل مختلفة في موقفهم إزاء الصليبيين، فتارة كانوا يدخلون في أحلاف وتكتلات إسلامية لمحابية خطرهم، وتارة كانوا يقودون حركة الجهاد ضدهم، وتارة ثالثة كانت الظروف تدفعهم إلى الانضمام إليهم والتحالف معهم ضد القوى الإسلامية، ثم يعودون فيدخلون في مرحلة من الانعزال إثر ظهور شخصية إسلامية قوية في جنوب الصليبيين، ويبروزون ثانية ليقدموا قواتهم الخاسدة كي تعمل تحت قيادة نور الدين وصلاح الدين في حر كتها الشاملة ضد الصليبيين.

ولا اعتقاد أن ملة إمارة إسلامية قدمت أساليب شتى من العلاقات المتباعدة في هذا المجال مثما قدم الأرادةة ، لذا فإن دراسة علاقتهم بالصلبيين تقدم صورة واضحة و كاملة عن موقف كافة الإمارات الإسلامية المبعثرة في المنطقة والتي كانت تحدد موقفها إزاء الصليبيين استناداً إلى طبيعة الظروف التي كانت تسود المنطقة ، فتتباين مركز القيادة حيناً والتبعية حيناً آخر ، وتحالف مع المسلمين حيناً وتتجه إلى العزلة والابتعاد عن ميدان الصراع حيناً ثالثاً ...

ومن خلال دراسة النصوص المختلفة في هذا المجال نستطيع أن نقسم علاقات الأرادةة بالصلبيين إلى خمسة أقسام هي :

(١) مرحلة المخالفات مع القوى الإسلامية .

(٢) د د د « الصليبية » .

(٣) د القيادة

(٤) د الانزعال

(٥) د الإمدادات

١ - مرحلة المخالفات مع القوى الإسلامية (٤٩١ - ١٠٩٧ = ٥٥٧) -

(١١١٣)

تتميز هذه المرحلة بانضمام الأرaqueة إلى الأحلاف الإسلامية التي شكلها السلاجقة ، بمحاباة الخطر الصليبي منذ تهديده لأنطاكية وطيبة العقدتين التاليتين ، وكانت هذه الأحلاف تضم عدداً من الأمراء المحليين في الموصل والجزيرة والشام ، وبعض أمراء بلاد فارس ، وكان أمراء الموصل يتولون قيادتها في معظم الأحيان بأمر من السلاجقة . كما شهدت هذه المرحلة محاولات عديدة قام بها الأرaqueة ضد الصليبيين متفردين أو بالاشتراك مع بعض الأمراء دون صدور أوامر إليهم من السلاجقة ، وفي كلتا الحالتين لعب الأرaqueة دوراً مهماً في مقاومة الخطر الصليبي الزاحف .

جاءت الطلائع الصليبية الأولى في الشام والجزيرة ظروفاً محلية فلقت مضطربة ، كان لها الدور الأساسي في انتصار الصليبيين على المسلمين والتمكين لهم هناك ، وتأسيس إمارتهم الأربع في الرها وأنطاكية والقدس وطرابلس في فترة قصيرة من الزمن . ولو أن الصليبيين جاؤوا القوى التي وعدها تتش السلاجوفي في بلاد الشام ، لتغير مجرى الأحداث في المنطقة ، ولكن هذه الوحدة ما لبثت أن تزفت بسبب الصراع الذي نشب بين ولديه رضوان ودقاق

وعدد آخر من الامراء المحليين ، الذين كانوا يتصفون جميعاً بالحسد والتباغض ، واتباع كل الوسائل التي تمكنهم من تحقيق مصالحهم الخاصة<sup>(١)</sup> .

وكان قدوم أعداد كبيرة من التركان الى منطقة الجزيرة ، خلال التوسع السلاجوقى ، من العوامل الأساسية في الاضطراب الذي ساد المنطقة بسبب ما اشتهر به هؤلاء من رغبة في المخاطرات والمالك ، وما عرف عن قواتهم من التهور وعدم الاستقرار والمطامع السياسية . إلا أن شدة ملکشاه وتتش السلاجوقيين كانت كفيلة بإيقاف مطامع هؤلاء فترة من الزمن . ولكن التمزق الذي أصاب الشام بعد مقتل تتش عام ( ٤٨٨ = ١٠٩٥ م ) ، أتاح لزعامة التركان حرية واسعة وأعادهم إلى ما كانوا عليه سابقاً من تناقض وعدم استقرار ، ولم تمض ستة أو ثلاثة حق استطاع الكثيرون منهم تأسيس إمارات مستقلة<sup>(٢)</sup> . وقد أفادوا إلى حد كبير من انشغال سلاطين السلاجقة بصراع لا تنتهي حلقاته ، وبخاصة ذلك الذي حدث بين بركياروق ومحمد ، مما أدى إلى إضعاف سلطتهم الفعلية على الامراء المحليين ، ولم يغب ذلك عن الصليبيين الذين رأوا « انشغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً » إلى الحد الذي « تفرقت - فيه - بال المسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتعزقت الأحوال »<sup>(٣)</sup> . ومن ثم استغل هؤلاء الصليبيون الفرصة لتحقيق أهدافهم .

وكما كان التركان وقادتهم ، وعلى رأسهم الأراغنة ، عاملأ في إثارة الفوضى

---

(١) انظر Gibb, *Damascus chronicle of crusades*, P. 22.

(٢) السيد الباز العريفي ، الشرق الأوسط والمرور الصليبي جـ ١ ص ٢٢ - ٢٣

Ibid, P. 23.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٢٢١/٨ ( طبعة الاستقامة - القاهرة ) .

والانقسام في المنطقة<sup>(١)</sup> ، فإنهم كانوا من جهة أخرى ، من القوى الرئيسية التي سعت لمحاباة الصليبيين والقضاء عليهم ، منذ أن وطأت أقدامهم بلاد الشام ، وذلك باستجابتهم لنداءات بعض الامراء المسلمين والتحالف معهم لمحاباة الخطر الصليبي . وكان سقمان بن أرتق أول من استجاب لياجي سيان صاحب أنطاكية في الايام الاولى من حصار الصليبيين لها . إذ توجه بصحبة قوات حلب صوب أنطاكية ، فلقيتهم قوه من الصليبيين وهزمتهم إلى حارم في أواخر صفر عام (٤٩٨ هـ = ١٠٩٨ م ) ، على الرغم من استبسال كل من رضوان أمير حلب وسقمان ، وبراعتها التي شهد بها أعداؤهم<sup>(٢)</sup> . ومن ثم تراجع هؤلاء إلى حلب إثر سقوط حارم بيد الصليبيين بمساعدة سكان المنطقة من الأرمن ، وهكذا تكون المفiroون من قطويق أنطاكية<sup>(٣)</sup> . وكان ذلك إينداناً للأمراء المحليين بحقيقة الخطر الذي تتعرض له المنطقة ، فشكلوا حلفاً بقيادة كريوقا والي

(١) انظر الفصل الأول .

(٢) حسن جبشي ، الحروب الصليبية الاولى ص ١٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦ . أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، مؤلف مجهول . ترجمة حسن جبشي ، ص ٥٨ - ٥٩ .

R. Grousset, Histoire des croisades, 1/86,  
Stevenson, The crusaders in the East, P. 27.

ويذكر العريفي ، (الحروب الصليبية ٤٣١) أن سقمان اخند في البد، موقفاً سلبياً إزاء الغزو الصليبي لأنطاكية ، إذ كان متوجهًا مع رضوان وباغي سيان لمحاصرة شيزر ، ولكنهم ما أن سمعوا بوصول الصليبيين إلى مشارف أنطاكية حتى دب الاضطراب في صفوفهم وعدلوا عن المضي إلى هدفهم ، فعاد رضوان إلى حلب وباغي سيان إلى أنطاكية للدفاع عنها ، ووجه سقمان أطلاعه للاستيلاء على ديار بكر ، بل أكثر من ذلك ، حاول تحريض رضوان وباغي سيان على أن يصبحا هؤلاء بامر الغيرين من الصليبيين . وقد أوضحت في الفصل الأول ، لماذا سعى سقمان لتحقيق هذا الهدف رغم حرصه على قتال الصليبيين .

الموصل السلاجقى ، ضم سقمان بن أرتق ، ودقاق بن قتش ، وأقاربكة طفتكنين؛ وجناح الدولة حسين صاحب حمص ، وارسلان شاه صاحب سنمار ، فضلاً عن ياغى سيان صاحب أنطاكية . وعندهما وصلت القوات المتحالفة إلى أنطاكية ، كان الصليبيون قد تمكنوا من الاستيلاء عليها ، فحاصرتهم القوات الإسلامية وقاد هذا الحصار أن يُؤتي ثماره إذ قللت الأقوات والاموال لدى الصليبيين ، فأرسلوا إلى كريوفقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد ، فلم يحبهم إلى طلبهم وقال : « لا تخربون إلا بالسيف »<sup>(١)</sup> .

إلا أن سوء سيرة هذا الأمير تجاه حلفائه وتكبره عليهم أدت إلى إغضابهم ، فأضمرروا في انفسهم التخلّي عنه عند بدء القتال<sup>(٢)</sup> . ومن جهة أخرى راج (بوهيموند) يقدم النصائح للقوى الصليبية التي استطاعت بفضل توجيهاته أن تحبط الهجوم الذي قام به المسلمين ، وكذلك المحاولة التي قام بها نائب كريوفقا من داخل أنطاكية لمهاجمة معسكرهم<sup>(٣)</sup> ، وبينما ارتفعت روح الصليبيين المعنوية ، فشل كريوفقا في محاولة الإبقاء على تأسك حلفه وشعر بالحاجة إلى مساعدة رضوان أمير حلب ، فترددت الرسل بينهما بما أدى بدقاق أمير دمشق إلى أن تساوره الشكوك لما كان يكتنه من العداء لأخيه رضوان ، فضلاً عن أن

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠٢ / ١٠٣ - ١٠٤ ، ابن العبرى ، مختصر ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ، أعمال الفرنجة ص ٧١ - ٧٢ .

Cambridge Medieval History, vol. 5, P. 272.

S. Runciman, A. History of the Crusades, Vol. I, P. 238.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠٢ / ١٠٣ - ١٠٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤١ - ٤٢ ، حبشي ، الحروب الصليبية الأولى ص ٣٨٧

(٣) العريفي ، الحروب الصليبية ١ / ٢٤١ عن :

Histoire Anonyme, trad. Brehier, P. 80 -- 86.

أمير حصن (جناح الدولة) كان يكره الأراثقة وأحس أنه ليس بإمكانه التعاون معهم<sup>(١)</sup>، كما رغب دقاق في العودة إلى دمشق ليراقب عن كثب تحركات الفاطميين في فلسطين والتي سببت له قلقاً كبيراً<sup>(٢)</sup>.

وخلال ذلك تمكن الصليبيون من التسلل إلى خارج أسوار أنطاكية حيث تجمعوا هناك والتقوا بالقوات الإسلامية التي سرعان ما انهزم معظم قوادها وبقي سقمان وجناح الدولة وكربولا يقاتلون حتى لم يبق ثمة مجال للمقاومة فأذروا الانسحاب<sup>(٣)</sup>.

ويبعداً أظهر سقمان مدى حرصه على مواجهة الخطر الصليبي قبل استفحاله ورغبتة في الإبقاء على تمسك التحالف الإسلامي باعتباره الوسيلة الوحيدة التي يستطيع المسلمون بها التصدي للخطر الجديد . ولكن فشل قيادة كربولا لهذا التحالف ، وأحقاد الامراء الشخصية ، أصابته بالتمزق وفتحت الطريق أمام

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٣٦/٢ ، Grousset op. cit., 1/104.  
حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ص ١٤٢ .

(٢) Runciman, op. cit., vol. I. P. 246.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠/١٠ - ١٠٣ ، ابن العبرى ، مختصر ص ٣٤١ - ٣٤٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ١٣٣/٢ - ١٣٨ ، ابن شداد ، الأخلاق (القسم المخطوط) ورقة 258 A - 259 B ، ابن القلاني ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ ، ونقل عنه ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٥ - ٢١٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤١ - ٤٢ ، ٣٨٧ ، ٤٦٣ - ٤٦٤ ، ابن تفري بريدي ، النجوم الزاهرة ٥/٤٦ - ١٤٨ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١/ ٣٧٨ - ٣٨٤ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان (مخطوطة ٢٣٢/٣ آ) ، العيني ، عقد الجان (مخطوطة ٥٣/٤٦ - ٥٤ ) ،

Runciman, op. cit., 1/284,

Cambridge Med. Hist., vol. v, PP. 284 — 294.

الصلبيين ليثبتوا نفوذهم في الشام قبل أن يتمكن الامراء المسلمين من تشكيل تحالف جديد لوقف بوجه تقدمهم السريع .

خسر الاراقية في موجة الانتصارات الصليبية الاولى في الشام والجزرية ، إحدى معاقلهم المهمة ، وهي سروج ، التي استولى عليها بلد़وين لي بور وأقام بها حامية عسكرية<sup>(١)</sup> . وكان يحكمها آنذاك بللك بن بهرام الارتقى الذي أسامه التدبير وظلم الرعية ، الامر الذي دفع أهلها إلى مكاتبته أمير الراها وتمكنه من الاستيلاء عليها<sup>(٢)</sup> . ويبدو أن بللك لم يدرك طبيعة الإمارة الصليبية الجديدة التي قامت في الراها واعتقد أن بلدُوين ليس سوى أحد المغامرين ، فأرسل إليه يطلب منه المساعدة ضد حكومته من العرب الذين أبووا دفع الفرائب المفروضة عليهم . ومن ثم زحف بلدُوين على سروج مع عدد الحصار ، فخاف أهلها وأرسلوا إليه يعلمونه عن رغبتهم في تسليم المدينة واستعدادهم لدفع الجزية . وهكذا استولى بلدُوين على هذا الموقع وأضافه إلى إمارته<sup>(٣)</sup> ، ولا شك في أن الاستيلاء على سروج جاء متّماً لفتح الراها ومؤمناً بهذه الإمارة الجديدة<sup>(٤)</sup> .

ثم ما لبث هذا القائد الصليبي أن فرض سيطرته على بعض المchosون المجاورة ، وبذا غدا بإمكانه أن يتصل بالحملة الصليبية الرئيسية التي اتخذت طريقها إلى القدس<sup>(٥)</sup> . ومرر عان ما أخذ الأرمن في الراها يستأوون من حكم الصليبيين الذي

Runciman, op. cit., 1/209, cf. Cahen, la syrie du Nord, P. 230. (١)

ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ٢٣٢ ) . (٢)

Albert d'Aix, Hist. occid. I. v, pp. 356 — 357, 444 — 45, (٣)

سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ١٨٦/١ . (٤)

انظر المنشى السابق .

Runciman, op. cit., 1/209, Cahen, op. cit., P. 230. (٥)  
ويذكر عاشور ( الحركة الصليبية ١ / ١٨٦ ) أن ابن الأثير أورد رواية تختلف عن =

فرض عليهم نظاماً جديدة غير مألوفة لديهم ، مما دفعهم إلى تدبیر مؤامرة للتخليص من ذلك الحكم ، ووجدوا أن الأراقة أقرب إليهم من سائر القوى المعادية الأخرى ، فاتصلوا سرّاً للحصول على المساعدة . ولكن هذه المؤامرة أحبطت وعقب زعماؤها عقاباً قاسياً عام ( ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م )<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

كانت الحملة الصليبية الرئيسية قد اتجهت خلال ذلك إلى القدس وتمكنـت من الاستيلاء عليه في العام التالي ( ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م ) . ولنا أن نتساءل ، هنا ، هل كان لسياسة الأراقة الداخلية إزاء المسيحيين في القدس والمناطق المحيطة بها ، قبيل استردادها من قبل الفاطميين ، تأثيرات مباشرة أو غير مباشرة في سير الحركة الصليبية ، باعتبار أن القدس هي هدف تلك الحركة ؟ الحقيقة أن مسيحيي القدس لم يلاقوا أي اضطهاد في عهد أرتق الذي تمكن ، بمساعدة سلطانه تتش السلاجوفي ، من تشكيل حكومة منتظمة في القدس تجنبت عداء المسيحيين ، وكان المهدوء يسود المنطقة . خلال ذلك كان بطريرك أرثوذكس الروم قد ترك القدس وأخذ يقضي معظم أوقاته في القسطنطينية ،

= الروايات السابقة وهي أن الصراع على سروج لم يكن بين بلدين وبلك ، وإنما بينه وبين سقمان ، وأن هذا حاول غزو الرها بجيش كبير من التركان ولكنه هزم واستولى الصليبيون على ذلك على سروج ... ولكن الواقع أن رواية ابن الأثير هذه تأتي منسجمة مع الروايات السالفة لأنها لم يتعرض فيها إلى المرحلة الأولى من الصراع ، والتي انتهت بانتزاع سروج من بلك ، وإنما يشير إلى أن سقمان حاول أن يسترد سروج – بعدها – من الصليبيين ، دون أن يفكر في مهاجمة الرها ، ولكن محاولته باتت بالفشل . وانظر ص ١٥١ - ١٥٢ .

Albert d' Aix, op. cit., P. 443. (١)

Guillaume de Tyr, (Recueil des Historiens des croisades, occidil) P. 285.

وحل محله رفيقه في أنطاكية<sup>(١)</sup> مما يشير إلى اطمئنان البطريرك على أوضاع المسيحيين في القدس ، بحيث تنسى له الانتقال إلى القسطنطينية . وكذا كان موقف الحكام السلاغقة في الشام عامة ، وأرتق خاصّة ، من الحجاج المسيحيين ، فقد تمنع هؤلاء الحكام بدراءة واسعة أثاحت لهم الاستفادة من الموارد المالية السهلة التي كانت تدرّها عليهم زيارات الحجاج دونما صعوبة ، ولذا لم تبدّ منهم أية رغبة في إيقاف هذه الموارد<sup>(٢)</sup> . ومن ثم فإن القدس لم تشهد إثر الاحتلال الأتراك لها ، وطيلة العقود التالية ، أي استفزاز للمسيحيين ، على العكس مما شهدته أنطاكية لدى الاحتلال الإغريقي لها عام (٤٧٨ م = ١٠٨٥ م)<sup>(٣)</sup> ، وأن ما أصاب مسيحيي الشام وأسيا الصغرى من مشاكل ، في تلك الفترة ، كان بسبب الصراع بين السلاغقة والبيزنطيين ، ولا يوجد أيّا دليلاً على اضطهاد السلاغقة للمسيحيين الخاضعين لهم<sup>(٤)</sup> .

وما أن توفي أرتق ، وتسلّم ابنه سقمان وإيلغازي حكم القدس حتى أحست بوجود مؤامرة يحيّكها المسيحيون من أجل إعادة المدينة إلى الفاطميين ، ولذا ما لبثا أن قاماً بتنفي عدد كبير من القسس خارج القدس<sup>(٥)</sup> ، وحينذاك انسحب سيمون (سمعان) بطريرك الأرثوذكس وبجلسه الأعلى من القدس نهائياً واتخذوا قبرص مقرّاً لهم<sup>(٦)</sup> . وعلى الرغم من أن هذا البطريرك لم يتمّرّف

Runciman, op. cit., 1/76, 78 — 79. (١)

Runciman, The pilgrimages, setton, A. History of the crusades 1/78. (٢)

Cambridge Med. Hist. vol. v, p. 269 (٣)

Thompson, Economic and social history of middle ages, vol, I, p. 391. (٤)

Runciman, The pilgrimages, setton 1/78. (٥)

Runciman, The crusades. 1/78 — 79, 222. (٦)

اعترافاً كاملاً بتقاليد الكنيسة الكاثوليكية ، إلا أنه وافق على التعاون معها ، فبعث بالاشراك مع بعض القادة الصليبيين ، تقريراً عن الحملة الصليبية ، كما أنه ما كاد يسمع بما تعرضت له القوات الصليبية من مجاعة ، حق بعث من قبرص بكل ما يفيض عن حاجتها من المؤن<sup>(١)</sup> . وأغلب الظن أن انسحاب سيمون وب مجلسه الأعلى من القدس ، والتخاذل قبرص مقرأ له بمحنة الاضطهاد الذي لحق باليسوعيين ، لم يكن سوى حيلة لإضفاء الصفة الشرعية الكنسية على التحرّكات الصليبية الأولى . ويجب أن نلاحظ أن الأذى الذي لحق الحجاج المسيحيين ، والذي أخذ ذريعة لإشعال الحروب الصليبية لم يكن مصدره « بالدرجة الأولى » ، سياسة أبناء أرتقى في القدس بقدر ما كان صادرأ عن ظروف الصراع بين الأتراك والبيزنطيين في آسيا الصغرى ، بحيث أن القليل من الحجاج استطاع الوصول إلى الأرض المقدسة . هذا إلى أنه لم يستطع الوصول إلى هذه الأرض – في بعض الفترات – إلا الجماعات المسلحة ، كحملة روبرت الأول (الفلاندري ) عام ( ٤٨٢ = ١٠٨٩ م ) ، وقد اضطر الكثيرون إلى العودة قبل أن يبلغوا غايتهم<sup>(٢)</sup> ، مما يشير إلى أن احتكاك الأراقة بالحجاج المسيحيين لم يكن واسع النطاق ، بل كان أمراً ثانوياً<sup>(٣)</sup> .




---

Runciman, op. cit., 1/222. (١)

Runciman, The pilgrimages, setton 1/78. (٢)

(٣) عن الحجاج بصفة عامة . انظر : قدرى قلمجى ، الناصر صلاح الدين ص ٢٦ – ٢٧ وهو امشها ، وحسن حبشي ، الحروب الصليبية الأولى ص ١٦ – ٣٢ و

H. Hagenmeyer: la vraiet  
le faux sur Pierre l'hermite pp. 64—74.

وستيفنس ، الحروب الصليبية (تاريخ العالم) إعداد ج. م. هامرن ، الجزء الخامس ص ١٨٥ – ١٨٦

ومقالة أعلاه . Runciman

كان الأراثة من أوائل القوى الإسلامية التي تعرضت للخسارة الفادحة بسبب الحركة الصليبية . وذلك أن الفاطميين كانوا يطمحون لاسترداد الأجزاء التي فقدوها في الشام ، وبخاصة فلسطين ، ولذلك استغلوا الهجوم الصليبي على سواحل الشام ، وحاولوا التحالف مع المغرين لتحقيق أهدافهم المشتركة ، فأرسلوا سفارة إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية عام (٤٩٢هـ = ١٠٩٨ م ) ، عرضت عليهم اقتراحًا يتضمن العمل على اقتسام أملاك السلاجقة في الشام ، فيكون للصليبيين أنطاكية وشمال الشام ، ويكون للفاطميين فلسطين وبضمنها القدس . وقد استقبل الوفد الفاطمي بحفاوة بالغة من قبل الصليبيين وأرسل هؤلاء بدورهم وفداً إلى مصر ، إلا أنه لم يتم أي اتفاق رسمي بين الطرفين<sup>(١)</sup> . وعلى أية حال فقد استغل الفاطميون الاضطراب الذي سيشهده الحرب الصليبية وأرسلوا قواتهم ، بقيادة الأفضل ، الذي تمكن من انتزاع القدس من الأراثة<sup>(٢)</sup> . ومن المرجح أنه لو لا الحملة الصليبية الأولى لكان من المستبعد أن يفكرون الفاطميون في الإقدام على استرداد فلسطين ، ذلك أن القوى التركانية في شمال بلاد الشام انشغلت بالغزو الصليبي وبمحاولة إقامة جبهة ضد الفرازة ، ولذا لم يتمكنوا من إرسال نجدة إلى أبناء عمهم في القدس لمحاربة الفاطميين . كما أن الصليبيين استغلوا من جهتهم ما فعله الأفضل في هجومه على القدس ، بسبب

Grousset, op. cit., 1/83 — 85, Runciman, op. cit., 1/230, Stevenson, The crusaders 1/26.

العربي ، الحروب الصليبية ١ / ٢٤٣ - ٢٤٤ ، حبشي ، أعمال الفرنجة ص ٥٩ ، وانظر ابن القلانسي ، دمشق ص ١٣٥ .

Grousset, op. cit., 1/83 — 85, Runciman, op. cit., 1/230, c. Cahen, The Turkish invasion, settan, 1/166.

عاشر ، الحركة الصليبية ١ / ٢٣٦ - ٢٣٧ .  
وانظر الفصل الأول للاطلاع على تفاصيل استرداد القدس .

ما أدى إليه هذا المجموع من إرباك للسلاجقة في أصعب الأوقات وأحرجها<sup>(١)</sup>.

وفي السنوات التالية ، كان الاراثقة أولى القوى الإسلامية التي اشتبت مع الصليبيين شمالي الشام والجزيرة . إذ قام سقمان بن أرتق عام ( ٤٩٤ = ١١٠٠ م ) ، بمحاولة لاسترجاع سروج ، التي كان يحكمها آنذاك ( فوشيه دي شارتر ) أحد فرسان بلدوبين لي بور أمير الراها ، وحشد قواته المنتشرة في ديار بكرا وبدأ هجومه في ربيع الأول ، فتصدى لقتاله بلدوبين وفوشيه دي شارتر بقواتها المؤلفة من الارمن والصليبيين ، فهزمهما سقمان ولقي فوشيه مصرعه ، وانسحب بلدوبين إلى الراها ، واتجه من ثم إلى أنطاكية ليطلب المساعدة من تانكرد ، وخلال ذلك فرض الاراثقة حصارهم على سروج التي احتمى بها مسيحيو المنطقة ، وتولى الدفاع عنها رئيس أساقفة اللاتين فصمدت للحصار فترة طويلة<sup>(٢)</sup> ، استطاع بلدوبين خلاها أن يعود بما حصل عليه من نجدة من أنطاكية ، وأن يلحق الهزيمة بالاراثقة ، بعد أن كاد هؤلاء أن يهزموا الصليبيين ، لو لا هرب جماعة من التركان ، ومن ثم قام بلدوبين بالقضاء على ثورة الأهالي العرب في المدينة<sup>(٣)</sup> ، فقتل كثيراً من أهلها وسبى حريمهم ونهب أموالهم

---

(١) Grousset, op. cit., 1/84—85.

عاشر ، الحركة الصليبية ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) أشار ابن القلاني ( دمشق ص ١٣٨ ) إلى أن سقمان مُكِن من الاستيلاء على سروج ومن ثم هزمه الصليبيون . الواقع أنه لم يستول إلا على المدينة وبقيت القلعة بأيدي أعدائه . واظهر سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ( مخطوطة ٣/١ - ٢٤٢ ) .

(٣) Grousset, op. cit., 1/393, Runciman, op. cit., 11/37.

ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٢١ ، ابن القلاني ، دمشق ص ١٣٨ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٩٤ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ( مخطوطة ٣/١ - ٢٤٣ ) . العريني ، الحروب الصليبية ١/٤١٦ - ٤١٧ .

ولم يسلم إلا من مضى منهزماً<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلك بعامين (٤٩٦ = ١١٠٢ م) أغار بدوين لي بور على إمارة ماردين الأرمنية، وأسر أحد أمرائها، وسبى وغنم عدداً من الماشية والأغنام والخيول والإبل<sup>(٢)</sup>. وأغلب الظن أن هدف بدوين من هذا الهجوم هو إرهاب الأرمنية والحد من نشاطهم وإيجارهم على اتخاذ موقف دفاعي بدلاً من الهجوم، فضلاً عن العمل على تعزيز صلته بالواقع الصليبي في آسيا الصغرى.

ولكن سقمان ما لبث، في العام التالي (٤٩٧ = ١١٠٣ م)، أن اشترك مع شمس الدولة جكرمش حاكم الموصل، بتشكيل حلف قوي لجاهة الصليبيين، وهو التحالف الثاني للأرمنية منذ دخول الصليبيين الشام. وكان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون، وعزمهم الاستيلاء على حران الواقعة على مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين أمراء المسلمين<sup>(٣)</sup>، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على هذا الموقع من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والشام، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتأمين الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة<sup>(٤)</sup>، كان هذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسي كل من سقمان وجكرمش خلافتها القديمة والعمل

---

(١) ابن القلانسي، دمشق ص ١٣٨، ابن الأثير، الكامل ١٢١/١٠، الطباخ، تاريخ حلب ٣٨٩/١

Matthieu D'Edesse, (*Recueil des historiens des croisades*, Doc. Arm.) pp. 53 — 54.

Grousset, op. cit., 1/393. Cahen, la Syrie du Nord, p. 32. (٢)

Matthieu D' Edesse, op. cit., P. 70,

H. S. Fink, The Foundation of the latin states. in section, A. History of the(٤)  
crusades, 1/389.

Runciman, op. cit., 11/40—42. (٤)

سوية لإيقاف تقدم الصليبيين . فأرسل كل منها إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع به « ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه » ، فأجاب كل منها صاحبه وأجتمعوا على الخابور عند رأس العين ، حيث عززا تحالفها ، ومن ثم توجهوا لمهاجمة الراها ، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركان ومع حليفه ثلاثة آلاف فارس<sup>(١)</sup> من الترك والعرب والأكراد<sup>(٢)</sup> . وإذا ذلك دعم الصليبيون وحدتهم وتقدموا صوب حران بقيادة عدد من أمرائهم وعلى رأسهم بوهيمند أمير أنطاكية وابن اخته ( تانكرد ) ، وجوسلين حاكم تل باشر ، وبينهم بطريريك أنطاكية ، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين . وكاد الصليبيون أن يستولوا على حران بعد وقت قصير من حصارها إلا أن الخلاف الذي نشب بين بدوين لي بور - الذي انضم إلى القوات الصليبية - وبوهيمند ، وإصرار كل منها على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها ، ساعده على صمود حران . ومن ثم تم اللقاء بين المسلمين والصليبيين على نهر البلخ في التاسع من شعبان ، حيث أظهر المسلمون الهزيمة ، فتبعدوا الصليبيون نحو فرسخين ، فأعاد المسلمون الكرة عليهم وهزموهم وأبادوا معظم قواتهم وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات<sup>(٣)</sup> .

(١) يلاحظ أن المصادر الصليبية قدرت عدد قوات المسلمين بثلاثين ألف رجل ، وهو رقم مبالغ فيه ، ربما قصد به تبرير الهزيمة التي حللت بالجيوش الصليبية . عاشر ، الحركة الصليبية ، حاشية رقم ١/١ - ٤٠٤ .

وانظر Albert d'Aix , (Hist. occid. 1.v) , p. 615.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٣٩/١٠ - ١٤٠ .

(٣) ابن القلاقي ، دمشق ص ١٤٣ ، ابن الأثير ، الكامل ١٣٩ / ١٠ - ١٤٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ١٤٨/٢ - ١٤٩ ، الفارقي ، تاريخ آمد (القسم المنشور ص ٢٧١)، ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٦ ب ١٧ آ)، أبو الفدا ، المختصر ٢٢٧ - ٢٢٨ ، =

وكان بوهيمند أمير انطاكية وابن اخته تانكرد قد كمنا خلف أحد الجبال ليأتيا المسلمين من وراء ظورهم اذا اشتد القتال ، فلما اخرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب مس克راهم فأقاما إلى الليل حيث تسللا هاربين فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسرموا من أصحابها عدداً كبيراً ، بينما تكوننا ما من الفرار إلى الراها أما بدلوين وجوسلين فأسرنا ، وكان بدلوين قد انهزم مع جماعة من قواه وخاضوا نهر البلطيخ فأعاقتهم الأوحال ، فلتحقهم قائد تركاني من قوات سقمان وأسرهم وحمل بدلوين إلى سقمان . وعندمارأى أصحاب جكرمش أن قوات سقمان قد استولت على حصة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لجكرمش : «أي منزلة تكون لنا عند الناس وعندي التركان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا » وحسنوا له اختطاف بدلوين ، فأرسل جكرمش بعض أصحابه واحتطفوا الأمير الصليبي من مسکر سقمان ، فلما علم هذا بما حدث ، وكان غالباً عن الممسكر خلال ذلك ، شق عليه الأمر وركب أصحابه للقتال ، فردهم وقال لهم : « لا أوث شفاه غيظي بشهادة الأعداء بالمسلمين<sup>(١)</sup> ». ومن ثم رحل بقواته ، وأخذ سلاح الصليبيين ورایاتهم ، وألبس أصحابه ألبستهم وأركبهم خيلهم ، وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر فيخرج الصليبيون منها ظناً منهم أن أصحابهم قد التصروا فيقضي عليهم سقمان ويستولي على حصونهم ، وقد تكون

= ابن خلدون ، العبر ٦٩ / ٥ - ٧٠ ، ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٦٥ - ٤٦٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥ / ١٨٨ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٩ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١ / ٣٩٣ - ٣٩٤ ، العربي ، الحروب الصليبية ١ / ٣٨٥ .

Grousset, op. cit., 1/404—406, Runciman, op. cit., 11/40—43, Albert d'Aix, op. cit., p. 715, Guillaume de Tyr, op. cit., pp. 445—446.

Fink, The Latin states, setton 1/389.

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٣٩ - ١٤٠ .

بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة أما جكرمش فقد سار إلى حران وأثاب فيها أحد أصحابه ومن ثم توجه إلى الرها وحاصرها خمسة عشر يوماً، عاد بعدها إلى الموصل ومعه بلدوين . وبعد فترة من الزمن فاداه جكرمش ببلغ من المال ومائة وستين أسيراً من المسلمين<sup>(١)</sup> .

تختضت معركة (البلينج) عن نتائج على مستوى كبير من الأهمية ، فقد أوقفت زحف الصليبيين صوب الشرق ، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق ، وإقام سيطرتهم على إقليم الجزيرة ، كما خثبت مطامح بوهيموند في السيطرة على حلب وتحويل إمارة أنطاكية إلى دولة كبيرة<sup>(٢)</sup> . كما شجعت – هذه النتيجة – رضوان ، الذي كان على رأس جيشه قرب الفرات يتبع سير المعركة ، على القيام بسلسلة من الهجمات على مراكز الصليبيين الحبيطة بحلب ، استطاع خلالها أن يخلوهم عنها بمساعدة أهاليها من المسلمين الذين انقضوا على حكامهم الصليبيين<sup>(٣)</sup> ، فأمنت أعمال حلب ، وعاد أهلها إليها وقوى جأش رضوان وامتدت غارات قواته إلى أنطاكية<sup>(٤)</sup> .

ولم تقف نتائج هذه المعركة الخامسة عند هذه الحدود، بل تعدتها إلى داخل

(١) المصدر السابق ١٣٩/١٠ - ١٤٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٦٩ - ٧٠ ، ٣٩٨ - ٣٩٩

٣٩٩

Runciman, op. cit., 11/43, Grousset, op. cit., 1/403—409, Fink, op. cit., 1/389, Guillaum de tyr, op. cit., pp. 456 - 9, Cahen, op. cit., 237—238.

Runciman, op. cit., 11/44, Grousset, op. cit., 1/403—407, Fink, op. cit., 1/389. (٢)

Brehier, viet Mort de Byzance, P. 315. (٣)

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٤٨ - ١٤٩ وانظر :

Stevenson, op. cit., P. 78.

التشكيلات السياسية والعسكرية للإمارات الصليبية . فبعد أسر بلدوين غالا  
ثانكرد وصياً على الرها ، كأصبح بوهيمند أقوى الأمراء الصليبيين في الشهال ،  
ولذا أهل كلها مسألة افتداء بلدوين بالرغم من إثارة المسلمين لهذه المسألة ،  
وهكذا بقي بلدوين في الأسر طيلة أربع سنوات<sup>(١)</sup> .

كما أن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس استغل فرصة ضعف مرکز بوهيمند  
إثر تعرسه للانتقاد ، بسبب عدم افتدايه لبلدوين ، فضلاً عن أنه لم يلتزم  
بالمعاهدات التي عقدها مع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس ، فاستغل هذا  
الانتفاضات التي قام بها سكان قلقة ضد (النورمان) والتي حظيت بتشجيع  
البيزنطيين والأرميين<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم قامت القوات البيزنطية بالاستيلاء على عدد من  
المدن التي كان ثانكرد قد استولى عليها من قبل ، كما أسمم الأسطول البيزنطي  
في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وانططروس<sup>(٣)</sup> يضاف إلى  
ذلك أن البيزنطيين تمكناً من استغلال قواصم البحري في قبرص لتقديم  
المساعدات لريوند الصنجيلي – عدو بوهيمند الشديد – الذي كان يسعى  
لتأسيس إمارة حول طرابلس تحدد أنطاكية من الجنوب<sup>(٤)</sup> في الوقت الذي لم  
يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهيمند ومساعده في هذه المخنة .

و كنتيجة للضربات التي تلقاها بوهيمند من المسلمين والبيزنطيين ، ضعف  
مرکزه فضلاً عن أن معركة البليخ أدت إلى فقدانه لعدد كبير من قواته ،

Fink, op. cit., 1/389. (١)

Grousset, op. cit., 1/413 - 414. (٢)

Ibid, 1/413 - 414, Runciman, op. cit., 11/46, Camb. Med. Hist. vol. iv. (٣)  
P. 341. Brehier, op. cit., P. 314, Stevenson, op. cit., pp. 78 - 79.

(٤) العريفي ، الحروب الصليبية ١/٣٨٦ - ٨٧

وانهيار روحهم المعنوية ، ولم يكن باستطاعته إعادة تنظيم جيشه من جديد ، بالسرعة التي يتمكن بها من ملاحقة الأحداث ، فوجب عليه أن يختار أحد طريقين : فهو إما أن يبقى وسط الأخطار الخدقة به من كل جانب ويعرض إمارته للسقوط والتمزق على يد أعدائه وبخاصة البيزنطيين ، وإما أن يعود إلى أوربا للقيام بدعوة صلبيّة جديدة قد تعود عليه بالنصر . وقد اختار اتباع الحل الثاني ، ومن ثم أُناب عنه فانكرد في حكم أنطاكيّة واتجه إلى إيطاليا<sup>(١)</sup> ، واستطاع هناك أن يقنع البابا ( باسكال ) بأن العدو الرئيسي لصلبيّي الشرق إنما هو الإمبراطور البيزنطي ، فأصدر البابا أمره بالدعوة إلى حرب صلبيّة جديدة ضد بيزنطة ، وأعلن أن القضاء عليها هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين في الشام<sup>(٢)</sup> ، مما يعتبر نقطة تحول في تاريخ الحركة الصلبيّة ، إذ ضحى بأهداف ومصالح العالم المسيحي بأجمعه في سبيل المصالح الخاصة لмагامري الفرنج ، وتأكد البيزنطيون من أن مخاوفهم أصبحت حقيقة واقعة ، وذلك بتتحول الحرب الصلبيّة إلى وسيلة لتحقيق أطماع الغربيين الاستعمارية<sup>(٣)</sup> ، وهكذا يمكن اعتبار هذه المحاولة أساساً لحملة الصلبيّة الرابعة التي أُسقطت القدسية فيها بعد ( ١٢٠٤ م )<sup>(٤)</sup> .

وكان لحركة البليخ نتائج خطيرة بالنسبة لإمارة الرها كذلك ، إذ أنها أوضحت احتلال سقوطها على أيدي المسلمين ، نظراً لضعف الذي أصابها إثر

Runciman, op. cit., 11/47, Grousset, op. cit., 1/415 - 416. (١)  
ابن العديم ، زبدة الخطب . ١٤٩/٢

Vasiliev, Byzantine Empire. 11/410 - 411. (٢)

Runciman, op. cit., 11/49, Grousset, op. cit., 1/416, Fink, op. cit., 1/391. (٣)

Ostrogorsky, History of the Byzantine state p. 324. (٤)

تلك المعركة ولتعرضها لكثير من المتاعب الداخلية ، وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تدميرهم من الحكم الصليبي ، ويعمل متى الراهاوي موقف الأرمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمنية وإهالها باضطهاد رجالها في كثير من الأحيان ، مما دفع الأرمن إلى الاتصال سرًا بالأتراك<sup>(١)</sup> .

وأخيرًا فقد أدت معركة البلخ إلى القضاء على حلم الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وأسيا الصغرى ، عن طريق الاستيلاء على حلب<sup>(٢)</sup> فضلاً عن أن الظروف التي مهدت لها هذه المعركة أدت إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك الذي وضع بين شقي الرحمي . وقد أوضح ابن القلانسي خطورة النتائج التي تخضت عنها معركة البلخ قائلاً : « وكان نصرًا حسناً للمسلمين لم يتهم مثله ، وبه ضفت نفوس الإفرنج وقتلت عدتهم وفلت شوكتهم وقويت نفوس المسلمين وأرهقت عزائمهم في نصرة الدين ومجاهدة الملحدين » ، وتبادر الناس بالنصر عليهم وأيقنوا بالنكبة فيه والإدانة منهم »<sup>(٣)</sup> .

وهكذا قدر لسقمان ، بتحالفه مع جكرمش ، أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية ، وأن يقدم ، وحليفه ، للعالم الإسلامي أول نصر

(١) عاشر ، المعركة الصليبية ٤٤٥/١

Mathieu d' Edesse, op. cit., P. 80 - 81.

(٢) Runciman, op. cit.. 11/44.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ . وانظر بشأن النتائج غير المباشرة لهذه المعركة :

Vasiliev, op. cit., 11/410 - 411, Runciman, op. cit.. 11/49 - 51. Chalandon, Alexis Connene, P. 246, Grousset, op. cit., 1/418.

حاصل على الصليبيين ، فتح به الطريق لظهور قيادات وأحلاف إسلامية ، وجهت الضربات المتالية للقوى الصليبية ، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلاجقى وانتهت بصلاح الدين ، عبر إيلغازي وبذلك الأرتقين ، وآق سنقر البرسقى ، وعماد الدين نور الدين الزنكيين .

وقد استطاع سقمان ، في نفس العام ( ٤٩٧ م = ١١٠٣ ) ، أن يسحق قوة صلبيّة خرجت من الرها واستهدفت الرقة . إذ ما أن سمع بتحرك هذه القوة نحو هدفها حتى اتجه إلى رأس العين ، قرب ماردين ، حيث اجتمع بسام ابن بدر العقيلى وقواته من بني عقيل ، واتجهوا جميعاً بقيادة سقمان ، للقاء الصليبيين ، حيث جرى قتال شديد بين الطرفين ، أسر خلاله سالم بن بدر ثم انقلب دائرة السوء على الصليبيين فانهزموا وقتل منهم خلق كثیر<sup>(١)</sup> .

استمر سقمان على سياسة الأحلاف الإسلامية التي حقق بواسطتها انتصارات حاسمة ضد الصليبيين ، ولذا فما أن تلقى دعوة من فخر الملك بن عمار ، صاحب طرابلس ، عام ( ٤٩٨ م = ١١٠٤ ) ، لنجدة ضد الصليبيين ، الذين قاموا بهجوم ضد طرابلس ، حتى خف سقمان ، لمعونته ، وبينما هو يتجهز أتاه كتاب من طفتكتين ، أمير دمشق ، يخبره فيه أنه مريض وقد أشرف على الموت ، وأنه يخاف إن مات وليس في دمشق من يحميها ، أن يستولي عليها الصليبيون ، ويستدعيه ليوصي إليه ، وبما يعتمد في أمر الدفاع عن المدينة . فلما اطلع سقمان على الكتاب أسرع في زحفه عازماً على تسلم دمشق ، ومن ثم التوجه إلى

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ١٠/٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥/١٧٨ - ١٧٩ .

طرابلس لاجلاء الصليبيين عنها . ولكن وفاته في الطريق حالت دون تنفيذ هذه المشاريع التي كان من المرجح أن تحدث تأثيرات بالغة الأهمية في العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، وتعطي لسقمان مركزاً قيادياً هاماً . وعندما مات سقمان في الطريق ، أشار عليه أصحابه بالمودة إلى ديار بكر ، فامتنع وقرر « بل أسير .. فإن عوفيت تمت ما عزمت عليه » ، ولا يراني ان تناقلت عن قتال الكفار خوفاً من الموت ، وإن أدركتني أجلي كت شهيداً سائراً في جهاد<sup>(١)</sup> ، ومن ثم تقدم في سيره وتوفي بعد يومين ، في صفر (٥٤٩٨ = ١١٠٤ م) فحمله ابنه إبراهيم عائداً بصحبة القوات الأرتقية إلى ديار بكر<sup>(٢)</sup> .



انقسمت إمارة الأرتقية بعد وفاة سقمان إلى قسمين تولى أحدهما إيلغازي متخدذاً ماردين قاعدة له ، وتولى داود بن سقمان القسم الآخر متخدذاً حصن كيما قاعدة له<sup>(٣)</sup> . وقد اتباع الأخير سياسة انعزالية تجاه الصليبيين ، أما إيلغازي فكانت له إزمام مواقف خطيرة كان لها أثرها الحاسم على مصير الوجود الصليبي في الشرق . وقد تميزت سياسة هذا الأمير بأنها كانت تتارجح بين النقيضين فتارة كان يقف إلى جانب الأمراء المسلمين في أحلافهم التي شكلوها

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٤٥/١٠ - ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق ١٤٥ / ١٠ - ١٤٦ ، ابن القلانسي ، دمشق ١٤٦ - ١٤٧ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٢٩/٢ - ٢٣٠ ، ابن خلدون ، العبر ٧٥/٥ - ٧٧ ، ٤٦٨ ، القرماني ، تاريخ ص ٢٧٨ ، Cahen, op. cit., pp. 241 - 242 . حيث يشير إلى أن طفتكنين مرعان ما تراجع عن دعوته لسقمان وأرسل إليه يطلب منه الرجوع ، ولكن وفاة سقمان أنهت المشكلة .

(٣) انظر الفصل الأول .

لهملاة الصليبيين ، وتارة أخرى يقف إلى جانب هؤلاء ضد المسلمين بسبب الضغط الذي تعرض له من قبل السلاجقة ، وتارة ثالثة يتولى بنفسه قيادة الأمراء المحليين ضد الصليبيين .

بدأ إيلغازي عام (٤٩٨ - ٥١٦ = ١١٠٤ - ١١٢٢ م ) حكمه بالتزام نفس السياسة التي اتبعها أخوه سقمان تجاه الصليبيين وذلك بالانضمام إلى بقية الأمراء المسلمين في أحلاف جماعية . وشهد رمضان سنة (٤٩٩ - ٥١٠٦ = ١١٠٦ م ) أولى تلك الأحلاف ، إذ اجتمع إيلغازي ورضاون أمر حلب والي بن ترقاش صاحب سنمار والأصبهن صباحاوا ، أحد كبار أمراء فارس ، لفرض إعلان الحرب على الصليبيين ، ولكن وجهة نظر إيلغازي أعادت هذه الخطبة ، إذ طلب من بقية الحلفاء أن يبدؤوا حملتهم ضد جكرمش حاكم الموصل للاستيلاء عليها ومن ثم الاستفادة من قواتها وإمكانياتها المالية ضد الصليبيين . وقد وافقه زملاؤه على ذلك ، ولكن الخلافات التي نشبت بينهم بعد ذلك أعادت هذا الهدف وبالتالي صرفت النظر ، مؤقتاً ، عن قتال الصليبيين<sup>(١)</sup> .

وفي العام التالي (٥٠٠ - ٥٠٦ = ١١٠٦ م ) اتصل إيلغازي بحاولي سقاوة أحد كبار أمراء بلاد فارس ، الذي أرسله السلاجقة للقضاء على جكرمش في الموصل ، والذي اضطر إلى الانسحاب إلى سنمار ، وهناك اتفق مع إيلغازي على طرد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم الذي استولى على الموصل إثر وفاة جكرمش ، ومن ثم التوجه لمهاجمة أنطاكية . ولكن ما أن تم القضاء على قلج أرسلان ودخل جاوي الموصل ، حتى انصرف إلى إعلان العصيان ضد السلاجقة

(١) ابن الأثير ، الكامل ، الكامل ١٥١/١٠ - ١٥٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣١٩ - ٣٢٠ .  
وانظر الفصل الأول .

ونسي اتفاقه مع إيلفازي للعمل على مهاجمة أنطاكية<sup>(١)</sup>.

وفي عام (١١٠٩ = ٥٥٠٣ م) تم تشكيل حلف إسلامي آخر بقيادة مودود بن التوتنكين حاكم الموصل السلاجوقى ، الذي حل محل جاوي ، بناء على أمر من محمد بن ملكشاه سلطان السلاجقة . وقد ضم هذا الحلف ، الأمير إيلفازى الذى تقدم على رأس قواته الضخمة من التركان ، وسكنان القطبي أمير أرمينية ، وعدداً كبيراً من المتطوعين ، وهكذا اجتمع المسلمون في عدد لا يقىء بلقائه جميع الإفرنج ،<sup>(٢)</sup> وافتقت آراؤهم على بده عملياتهم بمهاجمة الراها والاستيلاء عليها ، فاتجعوا إليها ونزلوا عليها في شوال (٥٥٠٣ = ١١٠٩ م) وشددوا عليها الحصار<sup>(٣)</sup> . وما أن وصلت أنباء احتشاد القوات الإسلامية إلى الصليبيين حق أرسل بلد貌ن لي بور ، أمير الراها ، يستتجد بذلك بيت المقدس ، إذ كان يشك بنوايا تانكرد أمير أنطاكية ، وبأنه تأمر مع المسلمين ضد الراها<sup>(٤)</sup> . إلا أن بلد貌ن لم يتوجه لمساعدة أمير الراها إلا بعد الانتهاء من احتلال بيروت . وتوحيد أمراء الصليبيين في جبهة واحدة ، انضم إليها كثير من العناصر المسيحية<sup>(٥)</sup> كما أرسل إلى أنطاكية يستدعي تانكرد وقواته

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٤٩/١٠ (المطبعة الكبرى) ،

Runciman, op. cit., 11/110.

(٢) ابن القلansi ، دمشق ص ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن العديم ، زبدة الحلب ١٥٤/٢ - ١٥٥ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٩٩/٥ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان (خطوطة ٣/١ - ٢٦٥ ب) ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطة ٤٠/١ - ٤١) .

Albert d'Aix, op. cit., P. 670. (٤)

Runciman, op. cit., 11/116, Grousset, op. cit., 1/453, Stevenson, op. cit., (٥) 1/88.

للمشاركة في المعركة الفاصلة ضد المسلمين<sup>(١)</sup> فاضطرر هذا ، حفاظاً على سمعته ، إلى التوجّه على رأس ألف وخمسمائة فارس للجاتع برفاقه<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم شخص الجميع صوب الرها . ووصلت الأخبار إلى طفتكنين أمير دمشق ، فتحرّك من هناك ، على رأس قوات كبيرة نحو الفرات الذي لم يتمكّن الصليبيون من عبوره ، لانتشار طلائع القوات الإسلامية فيسائر المنافي المؤدية إليه . ولما عرف المسلمون قرب الصليبيين منهم ، قرروا فتح الطريق أمامهم ليتمكنوا من لقائهم في السهول المتعددة شرق الفرات . فقادوا الرها في أواخر ذي الحجة سنة (٥٠٣ = ١١١٠ م) ، وعسكروا في أرض حران ، خدعة للصليبيين ، وكانت حران آنذاك تابعة لإيلفازي . وإذا أدرك الصليبيون المدف من هذه الحركة<sup>(٣)</sup> ، ووردتهم أخبار تشير إلى تحرك رضوان لما جعل الواقع التابعة لأنطاكية ، وتحرك المصريين لما جعل فلسطين ، أيقنوا عدم جدواي مهاجمة المسلمين وقرروا الانسحاب من الجهات الواقعة شرق الفرات ، وإخلاءها من المسيحيين (الأرمن واليعاقبة) إلى الجهات الغربية التابعة للصليبيين ، وتقوية الإمكانيات الدفاعية للرها<sup>(٤)</sup> . ولكن ما أن بدأ الصليبيون بالانسحاب ، وإنعام نقل المسيحيين المدنيين<sup>(٥)</sup> ، حتى هض المسلمون في إروم ، وأدركتهم طلائع القوات الإسلامية ففتحوا سوادهم وأنقاذهم وقتلوا وأغرقوا وأسرّوا

(١) Fink, op. cit., 1/399.

(٢) Stevenson, op. cit., 1/88.

(٣) ابن القلاني ، دمشق ص ١٦٩ - ١٧٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٥٤ - ١٥٦

٢٢٢

Mathieu de Edesse, op. cit., p. 93.

Runciman, op. cit., 11/117. Grouset, op. cit., 1/454 — 455, Guillaume de (٤)  
tyr, op. cit., p. 463.

Stevenson, op. cit., 1/88. (٥)

عدهاً كبيراً منهم ، ومن ثم اتجهت القوات الإسلامية ثانية لحصار الرها . إلا أن حصانة هذه المدينة واهتمام الصليبيين بتمويلها أعجزت المسلمين عن فتحها ، فتركوا عليها قوة إسلامية لمراقبتها ، ومن ثم عاد كل إلى بلده<sup>(١)</sup> . وحدثت خلال ذلك مشاحنات بين إيلفاري وسكان القطبي ، أمير أرمينية ، فتخوف إيلفاري من سكان وهرب إلى ماردين ، فقبض الأخير على ابن أخيه بلك بن بهرام وحمله معه إلى بلده مقيداً<sup>(٢)</sup> . وهكذا لم يخل هذا التحالف من إثارة الأحقاد بين إيلفاري وبعض أمراء المسلمين ، مما كان له أثره السوي على سير العمليات الحربية ضد الصليبيين .

وبعد أقل من عامين (١١١٥ = ٥٥٠٥) م قام الأمير مودود حاكم الموصل السلاجقى بتكون حلف إسلامي آخر للجهاد ضد الصليبيين بناء على أمر من السلطان محمد بن ملكشاه . وقد انضم إلى هذا التحالف عدد كبير من الأمراء كان بينهم سكان القطبي وابنا حاكم هذان والأمير أحديل الكردي صاحب مراغة وأبو الحجاج صاحب إربل ، أما إيلفاري فقد أثار عنه ولده الأمير (إياز) لانشغاله بالأمور الداخلية لإمارته . وقد بدأ هذا التحالف عملياته العسكرية بالاستيلاء على عدة مواقع صلبية شرق الفرات ، ومن ثم اتجهوا إلى الرها لحصارها فلما أعيتهم ، بسبب تحصينها السابق ، تحولوا عنها إلى تل باشر<sup>(٣)</sup> ليطمع الصليبيون ويعبروا الفرات فيتمكن المسلمون منهم ، وكان هذا

(١) ابن القلافي . دمشق ص ١٧٠ - ١٧١ ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطة ١ / ٤٠ - ٤١) .

(٢) انظر المأمور السابق .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٨٣/١٠ - ١٨٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٨٧ - ٨٨ ، ٤١٢ - ٤١٣ Stevenson, op. cit., 1/91.

خطاً من المسلمين ، لأن الصليبيين لدى عبورهم الفرات جاؤوا بالمية والقوت للرها ، فقويت بعد ضعف ، وبعد أن كاد المسلمون أن يستولوا عليهم<sup>(١)</sup> . وقد تكون جوسلين صاحب تل باشر من رشوة القائد الكردي أحمديل ، وكانت معظم القوات معه ، فانسحب عن الحصن بالرغم من معارضة بقية الأمراء<sup>(٢)</sup> . وصادف أن مرض سكان القطبي صاحب أرمينيَّة وطمع أحمديل ببلاده ، فاضطر بقية الأمراء إلى ترك تل باشر والتوجه إلى حلب بعد أن استنجد رضوان بهم . وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج إليهم جوسلين على رأس قوة من فرسانه وتمكن من مهاجمة مؤخرة المسلمين وقتل ما يقرب من ألف رجل ، ثم عاد إلى بلده متقدلاً بالفنائم<sup>(٣)</sup> . وعندما وصل المسلمون حلب أُغلِّقَ رضوان أبوابها في وجههم ، وبعد ما يزيد على الأسبوعين اتجه الأمراء المتعارضون لمهاجمة بعض الواقع التي استولى عليها تانكرد في إقليم معرة النعمان ، وهناك اجتمع بهم طفتكنين ، إلا أنهم لم يحققوا نتيجة تذكر بسبب الخلافات . وحمل المرض سكان على العودة ، وتبعه برق وآحمديل ، ولم يبق إلى جانب مودود سوى إياز بن إيلفازي وطفتكين . وإذاء ذلك اجتمعت الجيوش الصليبية بقيادة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس وملك بيت المقدس وعسكروا تجاه المسلمين عند أقاميه ، على الضفة المقابلة لنهر العاصي ، فقام ابن منقذ ، صاحب شيزر ، بالاجتماع بالمسلمين وتحريضهم على الجهاد ، فدارت بين الطرفين مناورات انسحب المسلمون بعدها إلى بلادهم ، وتوفي سكان القطبي في الطريق<sup>(٤)</sup> فحمله

(١) الغزي، نهر الذهب ٨٢/٣ .

(٢) ابن القلانيسي ، دمشق ص ١٧٥ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٥/٨ - ٣٦ ،

Crousset, op. cit., 1/465, Runciman, op. cit., 11/122.

Albert d'Aix, op. cit., P. 681. (٣)

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٨٣ - ١٨٤ ، الباهر ص ١٧ - ١٨ ، سبط ابن =

أصحابه عائدين إلى بلادهم ، فلحقهم إيلغازي ، لدى مرورهم بديار بكر كي يستنقذ ابن أخيه بلك بن بهرام الذي كان سكان قد أسره بسبب خلافه مع إيلغازي . لكن هؤلاء استطاعوا ان يهزموا غريمهم وأن يستولوا على ما معه ، ومن ثم استأنفوا مسيرهم إلى أرمينية<sup>(١)</sup> .

والمرة الثالثة تبدو من إيلغازي بوادر سلبية تجاه الحالات الإسلامية ضد الصليبيين ، فعلى الرغم من أنه أرسل ابنه إياز على رأس قوة من التركان لينوب عنه في قتال هؤلاء ، إلا أن أطهاعه الشخصية دفعته – أخيراً – إلى مهاجمة قوات أرمينية ، مستغلًا وفاة أميرها ، للحصول على الغنائم . وقد كان لهذه البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على عدم إمكان تحقيق نصر

= الجوزي ، مرآة الزمان / ٨ - ٣٥ - ٣٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥ - ٨٧ - ٤١٢ ، ٤١٣ ، ابن تغري بردي ، النجوم الظاهرة / ٥ - ٢٠١ ، الغزي ، نهر الذهب / ٣ - ٨٢ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١ / ٤٠٦ - ٤١٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة / ١ - ٤٠ ) ، Grousset op. cit., 1/469, Fink, op. cit., 1/400.

ويخطيء ابن كثير ، البداية ( ١٧٣/١٢ ) في القول بأن إيلغازي حضر بنفسه العمليات العسكرية لهذا التحالف .

(١) ابن الأثير ، الكامل / ١٠ - ١٨٤ - ١٨٣ ، ابن خلدون . العبر ٥ - ٨٧ - ٨٨ - ٤١٣ - ٤١٤ .

Runciman, op. cit., 11/123, Grousset, op. cit., 1/467, cahen op. cit., pp. 261 – 263.

ويخطيء كل من سبط بن الجوزي ، ( مرآة الزمان ٣٧/٨ ) وابن تغري بردي الذي نقل عنه ( النجوم الظاهرة ٢٠١/٥ ) في إيراد معلومات مضطربة عند التطرق لوفاة سكان القطبي وعرض سيرته ، بسبب عدم تفريقيها بينه وبين سقمان بن ارتق ، فهما يذكرون « ان الذي توقف هذه السنة هو سكان بن ارتق صاحب خلاط وديار بكر وأبوه ارتق مات بالقدس » وواضح أن سقمان توفي عام ٤٩٨ كما سلف .

حاسم ضد الصليبيين كذلك الذي حققه سقان وحليفه جكرمنش في معركة البليخ وقد أظهرت هذه الأحداث تفكك المسلمين وعدم وحدتهم ، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام وجنوبه ، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين<sup>(١)</sup> .

وفي مطلع عام ( ١١١٣ = ٥٠٧ هـ ) تحرك مودود للمرة الثالثة على رأس تحالف إسلامي آخر ، بناء على استنجاد طفتكن أمير دمشق الذي تعرضت إمارته لهجمات شديدة من قبل صليبي بيت المقدس ، ولذا كانت فلسطين هدف الجماد هذه المرة . وقد اشتراك في هذا الحلف أمير منجار وطفتكن ، أما إيلغازي فقد أناب عنه ابنه إياز . وفي الثالث عشر من المحرم كان اللقاء عند طبرية وانتهى بهزيمة الصليبيين بعد قتال شديد ، أعقبته سلسلة من الانتصارات ضدهم ، أسفرت عن مقتل ما يقرب من ألف ومائتين وخمسين منهم . ومن ثم أذن مودود لخلفائه بالعودة إلى بلادهم لحلول الشتاء كي يأخذوا فترة من الراحة ، ويجتمعوا به في الربيع القادم . إلا أن الباطنية ما لبثوا أن اغتالوه إثر دخوله دمشق بصحبة طفتكن<sup>(٢)</sup> .

Fink, op. cit., 1/400. (١)

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٨٦ / ١٠ - ١٨٧ ، ابن القلansi ، دمشق ص ١٨٤ - ١٨٥  
أبو الفدا ، المختصر ٢٣٧ / ٢ - ٢٣٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ٢١ - ٢٢ ، ابن خلدون ،  
العبر ٥ / ٨٨ - ٨٩ ، ٤١٦ - ٤١٥ ، ابن الفرات ، تاريخ ( خطوطه ٦٦ - ٦٧ ) .

Runciman, op. cit., 11/126 — 127.

Grousset, op. cit., 1/484 — 485,

Cahen, op. cit., pp. 266—267,

Guillaume de tyr, op. cit., 1/485—486,

Matthieu D'Edesse, op. cit., pp. 107—108.

ويخطيء ابن كثير ( البداية والنهاية ١٢ / ١٧٦ ) في الإشارة ثانية إلى أن إيلغازي حضر بنفسه هذه المعركة .

## مرحلة التحالف مع الصليبيين (١١١٤ = ٥٠٨ م)

دخل الأرaqueة إثر مقتل مودود مرحلة جديدة في علاقتهم بالصلبيين تميزت بالتحالف معهم والعمل سوية على مقاومة الأمراء المسلمين الذين عملوا على مجاهاة أعدائهم . وعلى الرغم من أن السلطان السلاجوقى محمد بن ملكشاه عين الأمير آق سنقر البرسقى ليتولى قيادة المسلمين في حركة الجهاد ، بعد مقتل مودود ، إلا أن الأرaqueة بزعامة إيلفازى لم يتعاونوا معه كاكان شأنهم في السابق ، بل اتجهوا وجهاً جديداً في موقفهم من الصليبيين ، إذ راحوا يناوئون الأمراء المسلمين في جهادهم ضد هؤلاء ويقفون في طريقهم ، بدل يسعون لسحقهم ، وتطرفوا في موقفهم فانضموا إلى الصليبيين وساندوهم في حروبهم ضد المسلمين. وبالرغم من ظهور بوادر سلبية من إيلفازى في المرحلة السابقة ، إلا أنه – على أية حال – كان يقدم قواته إلى جانب المسلمين ، وينصب عنه ابنه في قيادة هذه القوات .

ويعزى سبب هذا التحول في سياسة إيلفازى إلى العداء الذي نشب بينه وبين البرسقى ، الذي عينه السلاجقة لقيادة حركة الجهاد والذي بدأ عملياته بالتحرش بمتلكات الأرaqueة قبل مهاجمة الواقع الصليبية ، وإلى اتباع هذا القائد سياسة الإرغام تجاه إيلفازى كي يمده بقواته من التركان ، فضلاً عن اعتقاله لإياز ابن إيلفازى ، الذي أنابه أبوه عنه في قتال الصليبيين<sup>(١)</sup> . كما أن إيلفازى وجد سندأ له في سياسته الجديدة ، ألا وهو طفتكين أمير دمشق الذي اتهمه السلاجقة بقتل مودود عام (١١١٣ = ٥٠٧ م) ، فخفاف عاقبة انتقامهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٨٩/١٠ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٢١٧ - ب ) ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٨٩ - ٩٠ .

والتوجه الى الصليبيين<sup>(١)</sup>.

تحرك البرسقي عام (١١١٤ م = ٥٠٨ هـ) على رأس قوات كثيرة ، وكان يصحب الملك مسعود بن السلطان محمد ، وانضم اليهما عدد من أمراء المسلمين . وبعد أن سيطر على الأقاليم التي كانت تابعة للموصل ، هاجم حران فاستنجد نائب إيلفاري بصلبيي الراها يدعوه لمساعدته ضد البرسقي ، فلما أحس أهالي البلد وبعض المسؤولين بذلك ، راسلوا البرسقي واستحثوه على الوصول إليهم ، فتقدما الى حران واستولى عليها بمساعدة الأهالي<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم اتجه الى ماردين فنازلاها حقاً أذعن له أميرها إيلفاري وسير معه عسكراً مع ابنه إياز . وقد حاول إيلفاري في البدء الامتناع عن إرسال قواته مع البرسقي مما اضطر هذا إلى مهاجنته وإرغامه على الاشتراك في قتال الصليبيين<sup>(٣)</sup> . ومن ثم غادر البرسقي ماردين إلى الراها على رأس خمسة عشر ألف رجل ونازلها في ذي الحجة ، وضيق عليها ، إلا أن الدفاع المستميت الذي بذله جندها وتناقض الأقوات في معسكر المسلمين اضطررت البرسقي إلى ترك الراها ، بعد أن قام بتخريب بلدتها ، وبعض الواقع الصليبية القريبة منها<sup>(٤)</sup> ، مما حمل بعض أمراء هذه المناطق على إعلان الطاعة له ، وعلى رأسهم أرملا كواسيل صاحبة مرعش وكيسوم ورعيان ، كما

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٨٩

Grousset, op. cit., 1/494, Guillaume de tyr, op. cit., P. 493.

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٧ آ - ب ) .

(٣) انظر ابن خلدون ، العبر ٤٨٤ / ٥ ، وابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ١ / ٧٩ - ٨٠ ) .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٨٩ - ١٩٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٨٩ - ٩٠ .

Fink, op. cit., 1/403, Runciman, op. cit., 11/128, Grousset, op. cit., 1/491 - 492, Cahen, op. cit., P. 270.

أعلن الأرمن عن رغبتهم في التحالف معه<sup>(١)</sup>.

وبعد أن حقق البرسقي هذه الانتصارات توجه إلى منطقة شبختان جنوبى ديار بكر واعتقل إياز بن إيلفازى انتقاماً منه لعدم حضور أبيه، وأعقب ذلك القيام بنهب المناطق الزراعية المحيطة بماردين . فأسرع إيلفازى في التوجه إلى حصن كيفا للاستنجاد بابن أخيه ركن الدولة داود بن سقمان ، فاستدعاى هذا قوات ضخمة من التركان وسار مع عمه للقاء البرسقي . وفي أواخر السنة التقى الطرفان وجرى قتال شديد صبر فيه الفريقان وانتهى بهزيمة البرسقي وتفرق قواته ونجاة إياز من الاعتقال . فلما علم السلطان السلجوقي بذلك ، أرسل إلى إيلفازى يتهدده ، فخاف هذا عاقبة التهديد وتوجه إلى دمشق للالتقاء بمحليفه وحبيه طفتكين ، الذي كان هو الآخر قد تدهورت علاقته بالسلطان السلجوقي بسبب اتهامه بقتل مودود . وأقام إيلفازى في دمشق عدة أيام اتفق فيها مع طفتكين على إعلان العصيان ضد السلاجقة والاتجاه إلى الصليبيين للاحتماء بهم . فراسلا روجر صاحب أنطاكية وطلبها محالته ، وكان من البدويي أن يستجيب لهذا طلبها ، ومن ثم اجتمع الأمراء الثلاثة بالقرب من حمص ، وأفروا شروط التحالف ، وعاد كل من روجر وطفتكين إلى بلده ، وقرر إيلفازى التوجه إلى ديار بكر لجمع التركان والعودة ثانية للالتقاء بمحليفه . ولكنـ ما أن ابتعد عن حمص مسافة قصيرة حتى لقـه صاحبها ( خير خان بن قراجا ) ، وقد تفرق عن إيلفازى أصحابـه ، فأسرـه وبـعض خواصـ أمرائـه ، وأرسـل إلى السلطـان يـعلمـ

Grousset, op. cit., 1/492, Runciman, op. cit., 11/129, Cahen, op. cit., (1) 270—271, Fink, op. cit., 1/403.

ومرعش وكيسوم وربعيان : من مدن الشعور بين الشام ولـبلاد الروم ( ياقوت ، ٧٩١/٢ - ٤٩٨ - ٣٣٣/٤ ) .

بذلك ويطلب منه الإسراع بإرسال القوات قبل أن يتمكن طفتكيين من تخلص حليفه . ولما بلغ طفتكيين الخبر عاد إلى حمص وأرسل إلى خيرخان يطلب منه إطلاق سراح حليفه ، فرفض خيرخان طلبه وهدد بقتل إيلفاري إن لم يرجع طفتكيين عن حمص ، فأرسل إيلفاري إلى طفتكيين قائلاً : « إن الملاجحة تؤذني وتسفك دمي والمصلحة عودك إلى دمشق<sup>(١)</sup> » . فاضطر طفتكيين إلى الرجوع . وانتظر خيرخان وصول قوات السلطان السلجوقي فتأخرت عن الوصول ، فخاف أن يباغته أصحابه ويسلوا حمص إلى طفتكيين ، فعدل إلى الصلح مع إيلفاري ، وأطلقه ، مقابل أخذ ابنه إياز رهينة ، كما تمت المصادرة بين الطرفين ، والاتفاق على قيام إيلفاري بالدفاع عن خيرخان في حالة مهاجمة طفتكيين له . ومن ثم غادر إيلفاري حمص واتجه شمالاً حيث حشد التركان وقتل راجعاً إلى حمص وطالب خيرخان بإطلاق سراح ولده إياز ، فلما رفض خيرخان طلبه حاصره إيلفاري ليرغمه على تسليم ابنه<sup>(٢)</sup> .

ولما اتصل بالسلطان السلجوقي خبر عصيان إيلفاري وطفتكين وتحالفهما مع الصليبيين للإتحاد بهم ضد السلجوقي ، جهز عسكراً ضخماً وأعطى قيادته لبرسق بن برق حاكم هذان (في بلاد فارس) ، والتحق به بعض كبار أمراء بلاد فارس وقوات الموصل والجزيرة ، وأمرهم السلطان بأن يبدأوا

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٩٠ / ١٠ .

(٢) المصدر السابق ١٨٩ / ١٠ - ١٩٠ ، ابن القلانيسي ، دمشق ص ١٩١ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٥٢ / ٨ ، ابن خلدون ، العبر ٤ / ٨٩ - ٩٠ - ٣٢٤ ، ٤٨٣ - ٤٨٥ ، ابن تفري بودي ، التنجوم الظاهرة ٥ / ٢٠٨ ، ابن كثير ، البداية ١ / ١٧٨ - ١٧٩ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١ / ٤١٩ - ٤٢٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ) ١ / ٨٢ - ٧٩

عملياتهم بالقضاء على إيلغازي وطفتكين ومن ثم التوجه لقتال الصليبيين او مهاجمة مواقعهم . وكان لؤلؤ الخادم ، الوصي على حلب ، قد انضم الى المنشقين للحصول على بعض المكاسب ، وهكذا لم يبق مواليًّا للسلاجقة من أمراء الشام سوى بني منقذ في شيزر وخيرخان صاحب حمص . وقد تحركت قوات برسق الكبيرة في رمضان سنة ( ١١١٤ م ) ، وعبروا الفرات - في اواخر السنة - عند الرقة واتجهوا الى حلب لاتخاذها قاعدة لعملياتهم الحربية ، وأرسل برسق الى لؤلؤ الخادم وشمس الخواص ( مقدم عسكر حلب ) يأمرها بتسلیم حلب بناء على أمر السلطان ، وعرض عليهما كتب السلطان حول هذا الموضوع فرأوا غا في الجواب وأرسلوا الى إيلغازي وطفتكين يستنجدانهما ، فتقدما على رأس ألفي فارس ودخلوا حلب وعززا - بذلك - مقاومتها لقوات السلطان السلجوقي . فاضطر برسق الى ترك حلب والتوجه الى حماة - العائدية لطفتكين وهي مركز توننه وأنقاله - فحاصرها وفتحها عنوة ، ومن ثم سلمها الى الأمير خيرخان بن قراجا صاحب حمص ، بينما كانت أوامر السلطان تقضي بتسلیمه كل مدينة أو موقع يتم إخضاعه من قبل قواته . وقد أدت هذه المخالفة من قبل برسق الى إضعاف معنويات قواته . وبعد أن تسلم خيرخان حماة سلم إياز بن إيلغازي الى قوات برسق ليبقى رهينة لديهـم . وخلال ذلك كان إيلغازي وطفتكين وشمس الخواص قد اتجهوا الى أنطاكية ، واستجروا بصاحبها وطلبو منه مساعدتهم على الدفاع عن مدينة حماة ، فلما بلغهم نبأ الاستيلاء عليها ، واجتمع بهم في أنطاكية بلد貌ن ملك بيت المقدس وبونز كونت طرابلس وبلدوين أمير الراهـا ، اتفق رأيهـم على مناورة قوات برسق وتجنب الاشتباك معها بسبب ضخامة عددهـا ، والانتظار الى الشتاء الذي سيضطرها الى التفرق والعودة كل الى بلاده . ومن ثم اجتمع الصليبيون وحلفاؤهم في قلعة

أفامية بانتظار ما سيحدث ، وكانت قواتهم تضم عشرة آلاف من المسلمين وألفين من الصليبيين ، أما قوات برسق فقد عسكرت في قلعة شيزر متخذه منها قاعدة لعملياتها العسكرية ، بسبب ولاء أصحابها من بني منقد للسلجقة ، وبسبب فشل تلك القوات في اتخاذ حلب قاعدة لها . وقد بقي المسلمون والصليبيون في معسكراتهم هذه طيلة شهرين ، وجرت بين الطرفين بعض المناوشات الخفيفة<sup>(١)</sup> . فلما بدأ فصل الشتاء ، ورأى الصليبيون وخلفاؤهم انسحاب قوات برسق صوب الجزيرة ، تفرقوا ، فعاد إيلفارزي إلى ماردين ، وطفتكين إلى دمشق ، وانسحب الصليبيون إلى بعض الواقع القريبة . ومن ثم تقدمت قوات برسق ، التي كان انسحابها خدعة ناجحة ، إلى كفرطاب العائدة للصليبيين واستولت عليها عنوة ، ثم زحفت إلى أفامية فامتنعت عليها ، فاتجهت إلى المرة ومنها إلى حلب ، فتصدى لها في الطريق صليبيو انطاكية بقيادة روجر ونشب القتال عند تل دانث فحلت الهزيمة بقوات برسق ، وقتل الصليبيون وأسرعوا عددًا كبيراً منهم ، كما أحرقوا ونهبوا ميرتهم ، فاضطر برسق إلى العودة إلى بلاد فارس بينما تفرقت القوات الصليبية<sup>(٢)</sup> . وقد ثار

(١) ابن منقد ، الاعتبار ص ٩٠ - ٩٢ ، ويدرك ابن العديم ( زبدة الحلب ١٧٤ / ٢ ) ١٧٥ أن طفتkickin كان « يريت الفرنج عن اللقاء خوفاً من أن يكسرها الساكن السلطانية فياخذنها الشام جميعه ، أو ينكسر - الفرنج - فتسقط الساكن السلطانية على ما في يده » .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ١٩٢ - ١٩٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٧٤ - ١٧٦ ، ابن منقد ، الاعتبار ص ٩٠ - ٩٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٣٩ / ٢ - ٢٤٠ ، ابن كثير ، البداية ١٢ / ١٧٨ - ١٧٩ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٩٠ - ٤٨٥ ، ٤٨٦ - ٨٣ / ١ - ٨٨ .

Cahen, op. cit., pp. 271—272, Fink, op. cit., 1/404, Grousset, op. cit., 1/506—508, Guillaume de Tyr, op. cit., P. 498.

ويرى Fink أنه بالرغم من المداء والقتال المستمر بين الأتراك والصليبيين في الشام، فإنه كان =

برسق من إيلغازي بقتل ابنه إياز الذي كان محتجزاً عنده<sup>(١)</sup>.

لقدت هذه التجربة كلاًً من إيلغازي وطفتكين درساً قاسياً ، إذ أنها لم تتحقق لأي منها أي مكسب ، في الوقت الذي مكنت فيه صليبيي أنطاكية من توجيه ضربة حاسمة ضد القوات الإسلامية شلتها عن العمل ، وأنهت المخاولة الأخيرة التي قام بها سلاطين السلاجقة لاستعادة الشام<sup>(٢)</sup> . وقوى مركز روجر أو الانتصار الذي أحرزه في قتل دانث<sup>(٣)</sup> ، وتكون به من تخليص الإمارات الصليبية جيماً من خطر أكيد ، وبلفت الإمارات الصليبية الشهالية ، إثر هذه الموقعة قمة مجدها<sup>(٤)</sup> ، وووجدت الفرصة سانحة لتحقيق انتصارات أخرى ضد القوى الإسلامية المفككة<sup>(٥)</sup> وهكذا أدرك طفتkickin وإيلغازي خطأ موقفهما ، فعمل الأول على كسب رضا السلطان محمد بن ملكشاه ، وسافر إلى بغداد فوصلها في رجب من عام (١١١٥ = ٥٠٩ م) ، وسأل الرضا من السلطان فأعلن هذا رضاه وأعاده إلى دمشق<sup>(٦)</sup> . أما إيلغازي فقد بذل جهده – طيلة

---

= يوسعهم أن يتحالفوا لمواجهة الأعداء القادمين من وراء بلاد الشام. إلا أن ما حدث ينفي هذه الفكرة ، ذلك أن القوات الإسلامية التي حالفت صليبي الشام لم تكن من الشام فقط ، فإيلغازي كان يحكم منطقة ديار بكر فيما وراء حدود الشام، كما أن قوات السلطان ضمت عناصر من مسلمي الشام مثل خير خان وبني منقذ. فلم يكن الصراع في هذه التجربة إذاً ذا مسحة إقليمية كما يرى Fink وإنما كان سياسياً محضاً.

(١) ابن الغرات ، تاريخ (مخطوطه ٨٧/١).

Runciman, op. cit., 11/133. (٢)

Grousset, op. cit., 1/510, Fink, op. cit., 1/404. (٣)

Runciman, op. cit., 11/126. (٤)

Stevenson, op. cit., pp. 100-101. (٥)

(٦) ابن الأثير ، الكامل ١٩٤/١٠ ، ابن كثير ، البداية ١٧٩/١٢ . Grousset, op. cit., 1/511.

السنوات القادمة – في توجيه أقسى الضربات للصلبيين بالاشتراك مع حليفه طفتكن ، تلك الضربات التي أهلته لأن يستلم مركز القيادة الإسلامية في حركة الجهاد ضد الصليبيين . كاً أن توقف المحاولات السلاجوقية لقتال الصليبيين في الشام ، أدى إلى أن غدا هؤلاء يواجهون أسرات محلية كالأراثقة والزنكيين ، والأيوبيين فيما بعد ، ركزت جل اهتمامها على أمور الشام ، وفاقت في خطورتها وشدتها سلاطين السلاجقة أنفسهم<sup>(١)</sup> .

مرحلة القيادة (١١٩٥ - ٥١٣ = ١١٢٤ م) :

وهي المرحلة التي تبوا الأراثقة خلاها من مركز الزعامة في قتال الصليبيين في الجزيرة وشمال الشام ، وعمل فيها تحت إمرتهم عدد من أمراء هذه المناطق ، فتمكنوا من توجيه ضربات حاسمة لصليبيي الجزيرة والشام ، وقد ساعدتهم الاستيلاء على حلب الى حد كبير على الانتقال الى هذه المرحلة .

تعتبر حلب ذات أهمية بالغة بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمحاربة الصليبيين ، وذلك لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات ، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين هما الراها وأنطاكية ، في نفس الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية التركانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأنهض وشمال الشام وأواسطه مما بعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين .لذا كان الاستيلاء

(١) العريفي ، الحروب الصليبية /١ ٣٢٩ .

على حلب ، من قبل أبي قائد إسلامي ، بمثابة فتح الطريق أمامه لتبوء مركز القيادة في حركة الجهاد . وذلك ما حدث بالنسبة لإيلغازي وابن أخيه بلك بن بهرام ، أولاً ، والبرسقي وزنكى ونور الدين فيما بعد . فبحصول إيلغازي على حلب عام ( ١١١٦ م = ٥١١ هـ ) ، تغير ميزان القوى في المنطقة ، وتتمكن من توجيه ضربات حاسمة ضد الصليبيين في شمالي الشام ، وعندما توفي عام ( ١١٦٦ م = ١١٢٢ ) تابع ابن أخيه بلك بن بهرام توجيه هذه الضربات حتى مقتله عام ( ١١٢٤ م = ٥١٨ هـ ) . وهكذا تبُوا الأرادة من مركز القيادة في حركة الجهاد طيلة تلك السنوات .

بلغت حلب درجة كبيرة من الضعف منذ أن توفي رضوان بن نتش عام ( ١١١٣ م = ٥٠٧ هـ ) وأعقبه في حكمها أبناءه الضعفاء ، وتحكم فيهم أوصياؤهم وخدماتهم من التركان ، وعند مقتل لولو ، غلام رضوان والحاكم الفعلي في حلب ، على أيدي الجند سنة ( ١٠١٧ م = ٥١١ هـ ) ، تدهورت الأمور فيها ، وأصبحت سهلة المنازل ، فتحالف روجر أمير أنطاكية مع كبار مسؤوليها كي يدفع عنها إيلغازي الذي كان يطمح للاستيلاء عليها<sup>(١)</sup> ، والمرجح أن روجر أدرك خطورة استيلاء إيلغازي على حلب بالنسبة لوجود الصليبيين شمالي الشام ، ولذا قام بمساعدة بعض المسؤولين فيها ، بالاستيلاء على الجهات الشرقية من أعمالها<sup>(٢)</sup> . وعندما سيطر يارقناش الأرمني على مقدرات حلب ، هادن روجر وبذل له الأموال وتنازل له عن بعض الواقع ، كما منحه الحق في استيفاء رسوم

Fink, op. cit., 1/405. (١)

(٢) ابن الصديم ، زينة الحلب ١٧٩/٢ - ١٨٠ .

محددة على القوافل<sup>(١)</sup> ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل غدت حلب تعتمد على روجر في رد الطامعين للاستيلاء عليها ، أمثال طفتكين والبرسقي ، حيث رفض أهالي حلب الاستجابة لها عام (٥١١ = ١١١٧ م ) ، وقالوا « ما نريد أحداً من الشرق »<sup>(٢)</sup> ، واستنجدوا بروجر ، فعاد البرسقي إلى الرحبة ، طفتكين إلى دمشق<sup>(٣)</sup> .

وإذ أدرك الحلبيون عدم جدواه حلب على هذه الأوضاع القلقة ، وضرورة تسليمها لأمير قوي أرسلوا إلى إيلفازي يطلبون منه القodium لتسليمها إليه ، فتقدّم هذا إلى حلب عام (٥١١ = ١١١٧ م ) ، وتولى مقايد الأمور فيها وفرض سيطرته على الواقع التابعة لها كبالس والقلية<sup>(٤)</sup> وعندما وجد خلو خزائن البلد من الأموال ، التي فرقها الحكام السابقون ، اضطر إلى مصادر جماعة من الخدم للحصول على مبلغ من المال هادن به الصليبيين مدة يسيرة تكفله من الاتجاه إلى ماردين وحشد قواته والعودة ثانية . فلما تم له ذلك استخلف ابنه ترثاش في حلب وقفل عائدًا إلى ماردين<sup>(٥)</sup> ولكنّه ما أن غادر

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٧٩/٢ - ١٨٠ ، ابن القلانيسي ، دمشق ص ١٩٩

Runciman, op. cit., 11/138 . Grousset, op. cit., 1/511 - 512.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٠/٢ .

(٣) المصدر السابق ١٨٠/٢ - ١٨١ .

Runciman, op. cit., 11/134, Grousset, op. cit., 1/512.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٠/٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ - ٩ ) . وبالس مدينة بين حلب والرقة ( ياقوت ، ٤٧٧/١ ) .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٠٠ ، ابن شداد ، الأعلاق ( قسم حلب ) ورقة 230B ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٩ ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٤١ ، ابن الوردي ، تتمة ٤٢ / ٤٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٣٢٧ - ٤٨٦ .

المكان ، حتى قام الجندي المقيمون في بالس بالإفساد في أعمال حلب ، بسبب الفلاء الذي عم موقعهم ، كما استدعوا الصليبيين ليسيمروا معمراً في النهب والتخريب وليتسموا بالس من حاميتهما التركانية<sup>(١)</sup> . فخرجت بعض قوات حلب ، تساندها قوة من الصليبيين ، وفرضوا الحصار على بالس ، فاضطر إيلفاري إلى المودة على رأس قوة من التركان ، وحينذاك انسحب الصليبيون وحلقاً عن بالس ، فباعها إيلفاري لابن مالك وعاد إلى ماردين<sup>(٢)</sup> .

غدت حلب ، ثانية ، بدون حماية ، فاشتد طمع الصليبيين بها ونقضوا الهدنة التي عقدوها مع إيلفاري ، وأغاروا على موقع حلب بقوتهم التي حشدتها روجر أمير أنطاكية وحليفه ليوالأرمني ، ونهبوا أمراً كثيرة . فاضطر أهالي حلب إلى الاستجادة بطفتكين ، فتقدّم هذا باتجاه حلب ولكن قوات جوسلين دحرته قبيل وصوله ، فراسل أهالي حلب (جيوش بك) حاكم الموصل ، دون جدو ، كما استدعا خير خان بن فراجا صاحب حمص ، فتقدّم هذا إلى حلب ولكنه لم يستطع أن يقوم بالدور الملقى على عاته بسبب تخوفه من إيلفاري<sup>(٣)</sup> ، وهجوم طفتكن على حمص<sup>(٤)</sup> . وعادت قوات الصليبيين ، بعد هزيمة طفتكن ، إلى عاز وضيقتها ، فأرسل إليهم إيلفاري يعلمهم أنه مستعد لتقديم مبلغ من المال لقاء انسحابهم عنها ، فلم يستجيبوا له « لقوة أطماعهم في أمر الإسلام ... وكان إيلفاري يعجز عن قوت الدواب » ، وحلب

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٠/٢ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ١٠/٢) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٠/٢ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ورقة 130B ،

ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ١٠/٢) ٢٧٧ - ٢٧٨ . Cahen, op. cit., pp. 277 - 278.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨١/٢ .

(٤) ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ١٠/٢ - ١١) .

على حد التلف<sup>(١)</sup> . فلما عرف أهالي عزاز ذلك وينسوا من جلاء الصليبيين تنازلوا لهم عن عزاز وطلبو عقد هدنة معهم ، فاشترط هؤلاء عليهم تسليمهم تل هراق<sup>(٢)</sup> ، والمبلغ التقدي المفروض على حلب منذ أربعة أشهر ، فضلاً عن التنازل عن الجهات الشماليّة والغربيّة من حلب ، فلم يتوصّل الطرفان إلى اتفاق . وقام الصليبيون إثر ذلك بزراعـة أعمال عزاز الغنية واستغـلـاـها لصالـحـهـم ، وـمـنـ ثـمـ عـادـوـاـ إـلـىـ أـنـطـاكـيـةـ بـعـدـ أـنـ استـولـواـ عـلـىـ بـعـضـ المـوـاـقـعـ الأـخـرـىـ مـثـلـ بـزـاعـةـ<sup>(٣)</sup> . هذا بينما أخذـتـ المؤـونةـ الدـاخـلـةـ إـلـىـ حـلـبـ بـالـتـنـاقـصـ ، وـصـارـ لـاـ يـدـخـلـ الـيـهـمـ إـلـاـ مـاـ يـتـبـلـغـونـ بـهـ مـنـ القـوـتـ ، بـسـبـبـ سـيـطـرـةـ الصـلـيـبـيـنـ عـلـىـ مـعـظـمـ الـمـنـاطـقـ الـزـرـاعـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـوـنـ حـلـبـ وـبـخـاصـةـ عـزـازـ ، الـمـرـكـزـ التـمـوـيـلـيـ الرـئـيـسـيـ لـهـاـ ، وـبـسـبـبـ مـاـ أـصـابـ الـجـهـاتـ الـشـرـقـيـةـ مـنـ خـرـابـ وـدـمـارـ نـتـيـجـةـ لـلـعـمـلـيـاتـ الـحـرـبـيـةـ الـمـسـتـمـرـةـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ<sup>(٤)</sup> .

لم يأْلَ الْخَلِيلُونَ جَهْدًا فِي الْبَحْثِ عَنْ وَسِيلَةٍ لِإِنْقَاذِهِمْ مِنْ أَطْعَامِ الصَّلَيْبِيِّينَ وَهَجَاهِهِمْ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى بَغْدَادٍ يَسْتَفْتِهِنَّ وَيَطْلَبُونَ النِّجْدَةَ ، فَلَمْ يَفَافُوا لِانْشَغالِ السَّلَاجِقَةِ بِالْمَنَازِعَاتِ فِيهَا بَيْنَهُمْ<sup>(٥)</sup> . وَهِينَ يَنْسَوْا مِنْ نِجْدَةِ تَصْلِيمِهِمْ مِنْ أَحَدٍ

(١) المصـدرـ السـابـقـ ٢/٦١ ، ابنـ الفـراتـ ، تـأـريـخـ (ـمـخـطـوـطـةـ ٢٥/٢ـ) .

وـانـظـرـ ٥٤٩ - ٥٥٤ـ Grousset, op. cit., P. ١/٥٤٨ .

(٢) تـلـ هـراقـ : مـنـ حـصـونـ حـلـبـ الـفـريـبةـ (ـيـاقـوتـ ، ١/٢٧٢ـ) .

(٣) بـزـاعـةـ : بلـدةـ مـنـ أـعـالـ حـلـبـ فـيـ الطـرـيقـ إـلـىـ مـنـبـجـ وـفـيـ وـادـيـ يـدـعـيـ بـطـنـانـ (ـيـاقـوتـ ، ١/٣٦٦ـ) .

(٤) ابنـ العـديـمـ ، زـيـدةـ الـحـلـبـ ٢/١٨١ - ١٨٦ـ ، ابنـ الـأـثـيرـ ، الـكـامـلـ ١/١٠ ، ابنـ خـلـدونـ ، الـعـبـرـ ٥/٤٢٠ - ٤٤١ـ ، ابنـ الفـراتـ تـأـريـخـ (ـمـخـطـوـطـةـ ٢٥/٢ـ) .

Runciman, op. cit., 11/134, Grousset, op. cit., 1/512 - 513, Cahen op. cit., PP. 278 - 281.

(٥) ابنـ الـأـثـيرـ الـكـامـلـ ١/١٠ ، ابنـ خـلـدونـ ، الـعـبـرـ ٥/٤٨٧ - ٤٨٩ـ

Grousset, op. cit., 1/549.

الأمراء الحليين ، اتفق رأيهم على استدعاء إيلغازي – ثانية – فأرسلوا إليه الأعيان والمقدمين ليطلبوا منه القدوم إلى حلب لدفع الصليبيين عنهم ، وظنوا أنه سيصل إليهم بقوات يتمكن بها من إجلاء الصليبيين ، فضمنوا لهماً يقتضونه على حلب ليصرفه على قواته ، ولكن إيلغازي ما لبث أن قدم إلى حلب يخند بسير لعدم تهيئه لهذا الموقف<sup>(١)</sup> .

كان المدبر لأمر حلب آنذاك جاعنة من الخدم والقاضي أبو الفضل بن الخشاب ، وهو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها<sup>(٢)</sup> وإذا رأى الحليون قلة ما بصحبة إيلغازي من القوات ، أدر كواحد من جدوه دخوله حلب وحاولوا الامتناع عليه ، واختلفت الآراء في قضية السماح له بالدخول فقبل إيلغازي عائداً ، ولكن ابن الخشاب وبعض المقدمين لحقوا به ، وألحوا عليه حق أقنعوه بالرجوع ، فدخل حلب « ونادي الناس بشعاره » ، ولكنه لم يستطع أن ينجز سوى بعض الإجراءات الداخلية حيث أخرج من القلعة سائر جند رضوان واتبعاه ، كما احتجز سلطان شاه بن رضوان وأخواته في إحدى الدور ، وصادر أموال الخدم الذين كانوا قد سيطروا على أمور حلب

(١) يبدو أن إيلغازي لم يعلم – أولاً الأمر – دافعاً شديداً لضم حلب إلى ممتلكاته بسبب المشاكل العسكرية والاقتصادية التي كانت تعانيها حلب من جهة ، وبسبب البوادر السلبية التي عرفت عن هذا الأمير تجاه الصليبيين في السنوات السابقة ، من جهة أخرى . فربما كانت هذه (السلبية) صفة تقسيمة لإيلغازي في المرحلة الأولى من حياته السياسية ، وأن موقفه المتعدد إزاء دعوة الحليين له ، يمثل استمراراً لهذا الدافع النفسي . على الرغم من أهمية حلب الكبرى بالنسبة لإمارة تقع في ديار بكر وتنتظر الفرصة لضرب الصليبيين ، وهذا ما يفسر الرسالة التي بعثها إلى طفتكنين يعلمه فيها أن حلب صارت إليه وأنه إذا رغب فيها سلمها له « فإن نفسه تطيب بذلك » (ابن الفرات ، ١٠/٢ – ١١) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٥/٢ – ١٨٦ .

طيلة الفترة السابقة<sup>(١)</sup> . ويبدو أن هدف إيلفارزي من هذه الإجراءات هو تأمين سيطرته على حلب والقضاء على منافسيه من حكامها القدماء ، فضلاً عن جمع مبلغ من المال يتمكن به من حشد قواته من التركان بمحاجة الصليبيين . وهكذا أدى تضييق هؤلاء على حلب إلى ارتقاءها نهائياً في أحضان الأرaqueة مما كان له أسوأ الأثر على مصير الوجود الصليبي في الشام والجزيرة .

\* \* \*

كانت دمشق قد تعرضت – خلال هذه الفترة – لهجمات الصليبيين مما دفع طفتكون إلى توحيد العمل مع إيلفارзи<sup>(٢)</sup> بمحاجة الخطر الصليبي على كل من حلب ودمشق فقدم إيلفارзи إلى دمشق بصعبة كبار أمرائه واجتمع بطفتكين ، وكان الفرض من هذا الاجتماع – في البدء – مهاجمة صليبيي بيت المقدس الذين تكررت غاراتهم على إقليم حوران<sup>(٣)</sup> ، ولكن ما لبث لقاوهما أن أسر عن عقد اتفاق ثنائي يقضي بمحشد قواتها والبدء بمهاجمة أنطاكية . فعاد إيلفارзи إلى ديار بكر (في رمضان عام ٥١٢ = ١١١٨ م) ، ليحشد قواته ، وسار طفتكون برفقته إلى حلب ليشرف معه على عملية استدعاء التركان ، ومن ثم عاد إلى دمشق على أمل اللقاء بخليفه ، بعد أن يتم كل منها محشد قواته كي يبدأ

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٥/٢ - ١٨٦ ، العظيمي ، تاريخ ورقة ١٩٧ ظ ، (حاشية الزبدة ١٨٥/٢) ، القرماني ، تاريخ ٢٧٧ - ٢٧٨ ، النزري ، نهر الذهب ٨٤/٣ ، الطباخ ، تاريخ حلب ٤٢٣/١ - ٤٢٨ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٩/٢ - ١١) .  
 (٢) Grousset, op. cit., 1/550, Cahen, op. cit., 284, Nicholson, The growth of the Latin States, in setton 1/412.

وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٨٠ - ٨١ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨١/٢ . وحوران كورة واسعة من أعمال دمشق ، (ياقوت بلدان ٣٥٨/٢) .

عملياتها ضد صليبيي أنطاكية ، وحدد شهر صفر ، من عام (١١١٩=٥١٣) ، موعداً للجتماع<sup>(١)</sup> .

حشد إيلغازي ما يزيد على عشرين ألف<sup>(٢)</sup> من مقاتلي التركان ومتظاعهم ، وأرسل رسوله الى بغداد ليطلب إعلان التغیر على الصليبيين ، ولينذكره بما فعلوا بالمسلمين في الديار الجزيرية ، وأنهم ملکوا قلعة عند الراها وقتلوا أميراً ، فسیرت الكتب بذلك الى السلطان محمود<sup>(٣)</sup> . وتوجه إيلغازي من ثم الى الراها ورعي زرعها وما يحيط بها من اراض خصبة لقوية خيله ، خاصة وأن ذلك العام كان شديد الجدب . وقد تخوف صليبيو الراها من تحركات إيلغازي بقواته الضخمة فأرسلوا اليه يتimosون مصالحته ، لقاء تنازفهم عن الأسرى المسلمين الذين بحوزتهم ، فأجاههم إيلغازي الى الصلح وشرط عليهم البقاء في بلدهم وعدم التوجه لمساعدة أمير أنطاكية في حالة حدوث قتال معه<sup>(٤)</sup> وقد كانت هذه خطوة صائبة من إيلغازي تكن بموجبها منعزل إحدى قوى الصليبيين المهمة . ومن ثم عبر الفرات وكان يصحبه أسامة بن مبارك بن شبـل الكلابي والأمير

---

(١) ابن القلاني ، دمشق ص ١٩٩ - ٢٠١ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٠٥ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٧٢/٨ - ٧٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٩/٢ ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٠٩ ، ابن خلدون ، العبر ٤٨٧/٥ ، وينذكر ابن العديم ، (زبدة الحلب ١٨٧/٢) ، أن قوات إيلغازي تجاوزت الأربعين ألفاً ولعل في هذا مبالغة واضحة . وانظر ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢٥/٢ ) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٠٦ . ومن الواضح أن إيلغازي ، بتأكيده على الخطر الحقيق بالجزيرة ، أراد أن يفتح أذهان السلاجقة على أن الزحف الصليبي أخذ يدق أبواب العراق السلوجيق نفسه ، والرسالة ، بناء على ذلك ، توضح بعد نظر إيلغازي .

(٤) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢٥/٢ ) .

طfan أرسلان صاحب بدليس وإرزن<sup>(١)</sup>.

انطلقت قوات إيلغازي وحلفائه في أراضي تل باشر وتل خالد والمناطق المحيطة بها تقتل وتأسر وتهب ، وغنم كل ما قدرت عليه . ووصل إيلغازي آنذاك رسل من حلب يستحقونه على الوصول ، لاستمرار غارات الصليبيين من جهة حصن الآثارب ، واستيلاء اليأس على نفوس أهاليها . فتقدم إيلغازي إلى مرج دابق ثم إلى المسلمين فقسرين في أواخر صفر سنة (٥١٣ هـ = ١١١٩ م ) ، وانتشرت سرایاه في الأعمال الصليبية هناك ، تقتل وتأسر ، وتكتفت من الاستيلاء على حصن قسطون في الروج<sup>(٢)</sup> . وقد اخند إيلغازي من قسرين قاعدة لشن الهجمات على حارم وجبل السماق<sup>(٣)</sup> .

استنجد روجر بيسولين أمير الراها وبونز أمير طرابلس وبلدوبن الثاني ملك بيت المقدس ، وعسکر عند أرثاح على الطريق الرئيسي الذاهب إلى أنطاكية لغاية المدينة من جهة ، ولمراقبة القوات المتوجهة إلى حلب من جهة أخرى ، إلى أن يصل إليه رفقاء الأمراء الصليبيون<sup>(٤)</sup> .

لم يصبر روجر لحين وصول النجذات ، بل تقدم صوب القوات الإسلامية

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ٢٠٩/١٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٧/٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢٥/٢ - ٢٦ ) ، Grousset , op. cit. , 1/550.

(٣) ابن الفرات ٢٥/٢ - ٢٦ .

Ibid , 1/550 Cahen , op. cit. , 284—285 , Nicholson , op. cit. , 1/412.

وانظر خارطة رقم ٢ للاطلاع على أماكن الواقع آنفة الذكر .

Grousset op. cit. , 1/552—553. (٤)

على رأس ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل<sup>(١)</sup> وعسكر في تسل عفرين الواقع في منطقة استراتيجية بالقرب من البلاط<sup>(٢)</sup> ، إذ كان يحده جبلان يجعلان من الصعب على المهاجمين اختراق الموقع ، وكان ذلك يوم الجمعة التاسع من ربيع الأول سنة (٥١٣ هـ = ١١١٩ م) . واعتقد الصليبيون أن حصانة هذا الموقع ستحميهم من هجمات المسلمين لحين وصول ملك بيت المقدس ورفاقه ، إذ لم يكن لذلك الموقع طريق الآمن جهة ضيقة واحدة « فأخلدوا إلى المطاولة ، وكانت هذه عادة لهم إذ رأوا قوة من المسلمين ، وأرسلوا إلى إيلغازي يقولون له : لا تتعب نفسك بالمسير إلينا ، فنحن واصلون إليك »<sup>(٣)</sup> .

قام إيلغازي ببث جواسيسه ، الذين تربوا بزي التجار في المعسكر الصليبي<sup>(٤)</sup> للحصول على المعلومات الازمة . وإذا طال انتظاره لحليفه طفتكتين كي يتلقا على خطة موحدة للهجوم ، ضجر أمراؤه من طول المقام فاجتمعوا وحثوه على قتال العدو ، فجدد إيلغازي الأيمان على الأمراء والقدمين أن ينصحوا في حربهم ويصبروا في قتال العدو ، وألا ينكروا عن القتال ، وأن

(١) ابن الأثير ، الكامل ٢٠٩/١٠ ، الذهبي ، دول الإسلام ٢ / ٢٩ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٤٨٧ ، أما ابن القلانيسي ( دمشق ص ٢٠٠ ) فيذكر أن عدد القوات الصليبية بلغ عشرون ألفاً من الفرسان والرجالات سوى الأتباع وأنهم كانوا في أتم عدة ( ونقل عن ذلك سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٧٩/٨ ) ، ويظهر أن ابن القلانيسي بالغ في عدده قوات الأعداء لكي يضفي على النصر الإسلامي قيمة أكبر ، او انه اضاف الى قوات روجر تلك التي كانت في الطريق ولم تسهم في المعركة .

(٢) البلاط : مدينة عتيقة بين مرعش وانطاكية من أعمال حلب ( ياقوت ، معجم البلدان ١/٢٠٩ ) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٢١٠/١ .

(٤) Guillaume de Tyr op. cit., 1/528—531.

يبدلوا مهجهم في الجهاد ، فحلقوه على ذلك بنفوس طيبة<sup>(١)</sup> .

تقدّم المسلمين على جناح السرعة ، وخلفوا خيامهم في قنسرين ، وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول ، وعسّكروا بالقرب من الصليبيين . وكان مؤلّاه قد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرىن معتقدين أن المسلمين ينزلون آنذاك الأثارب أو زردا ، فما شعروا في الصباح ، إلا ورأيات المسلمين قد أقبلت وأحاطت بهم من ثلاثة جهات . وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرّض الناس على القتال « وخطبهم خطبة بلية استنهض فيها عزائمهم واسترهف همم ... فأبكي الناس وعظم في أعينهم »<sup>(٢)</sup> ومن جهة أخرى راح بطرس رئيس أساقفة أقاميه يلقي مواعظه في روجر وقواته<sup>(٣)</sup> . بدأ هجوم المسلمين الماطرف يوم السبت ظهراً ، بأن دار طنان أرسلان بن دلماج (أمير ارزن) من وراء الصليبيين وهاجم خيامهم وقتل من فيها ونهبها ، بينما أطبقت بقية القوات على الصليبيين من الجهات الأخرى ، فاضطرب الصليبيون لشدة وطأة الهجوم ، وقتل كل من تراجع منهم باتجاه الخيام « وحمل الترك بأسرهم حلة واحدة من جميع الجهات ، صدوم فيها ، وكانت السهام كالجراد ولكتّة ما وقع في الخيل والسودان من السهام عادت منهزمة ، وغلبت فرسانها ، وطاحت الرجال والأتباع والفارمان بالسهام »<sup>(٤)</sup> ، وأسر معظم الصليبيين ، وقتل روجر في المعركة ، ولم يقتل من المسلمين سوى عدد قليل<sup>(٥)</sup> . لذا

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٨/٢ ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطه ٢٦ - ٢٧) .

(٢) المصدر السابق ١٨٨/٢ - ١٨٩ ، وانظر ابن الفرات ٢٧/٢ .

(٣) Guillaume de tyr, op. cit., 1/530—531.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٩/٢ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، العظيمي ، تاريخ ورقة ١٨٩ و (حاشية الزبدة ٢) =

اشتهرت هذه المعركة لدى مؤرخي الصليبيين باسم معركة ( ساحة الدم Ager Sanguinis ) وفضلاً عن القتلى ، فقد وقع في أيدي المسلمين من السيوف والفنائيم والدواب ما يربو عن العدد<sup>(١)</sup> . ويشير المؤرخ وليم الصوري الى « أنه لم يفلت من الألوف الكثيرة التي تبعت سيدها من يروي سيرة القتال » ، ولذلك بسبب ما ارتكبناه من الذنوب على حين لم يلق مصرعه من العدو إلا عدد قليل<sup>(٢)</sup> .

= ١٨٩ ) ، ابن الأثير ، الكامل ٢١٠/١٠ ، ابن القلافي ، دمشق ص ٢٠١ ، ابن شداد ، الأعلاق ( قسم حلب ) ورقه 260B ابن منقذ ، الاعتبار ص ٤٠ - ١١٩ ، النهي ، دول الإسلام ٢٩/٢ ، ابن كثير ، البداية ١٨٤/١٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤٢٠/٥ - ٤٢١ ، ٤٨٧ ، النهي ، العبر ٤/٢٨ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٧ - ٢١٨ ، الغزى ، نهر الذهب ٨٤/٣ ، الطباخ ، تاريخ حلب ٤٢٩/١ - ٤٣٥ ، ابن قاضي شيبة ، السيرة النورية ، ( مخطوطة ٥ - ٥٦ ) ، ابن الفرات ، ( مخطوطة ٢ / ٢٧ ) .

Runciman, op. cit., 11/150, Grousset, op. cit., 1/552—60, Cahen, op. cit., 287—88, Nicholson, op. cit., 1/413, Guillaume de Tyr op. cit., 1/529—530.

Lane-Poole, Saladin, pp. 47—48.

ولا بد من الإشارة هنا إلى التناقض الذي وقع فيه ابن القلافي ، ( دمشق ص ٢٠٠ ) حول اشتراك طفتكنين في هذه المعركة ، فهو من جهة يذكر أن طفتكنين قدم على رأس قواته إلى حلب للالجتماع بـ يالمازي والبدء بالجهاد تنفيذاً للوعد الذي قطعاه على نفسهما في السنة السابقة ، وأن طفتكنين وجد التركان قد اجتمعوا على حليقه « من كل فوج وصوب في الاعداد الدثرة الوافرة » . ويعود ( نفس المصدر ص ٢٠١ ) ليقر أن طفتكنين كان غالباً عن هذه المعركة . وتجمع المصادر اللاتينية والערבية وعلى رأسها ابن العديم على عدم اشتراك طفتكنين في المعركة المذكورة ، مما يجعلنا نشك في أن ابن القلافي ( الموظف الدمشقي ) أورد الرواية الأولى لكي يبرر ذمة طفتكنين من الوعد الذي قطعه على نفسه . وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٧٩ .

( ١ ) Grousset op. cit., 1/558—59, Guillaume de Tyr, op. cit., 1/525—531.

( ٢ ) العريني ، الحروب الصليبية ١ / ٣٣٠ ،

Guillaume de Tyr, op. cit., 1/528—31.

وقد تتجزأ عن تدمير قوة الفرسان الترمان في هذه المعركة أن ضعف النفوذ الترمانى في الشام بينما قوى نفوذ البروفنساليين والفرنجية القادمين من أواسط فرنسا وشرقها<sup>(١)</sup> ، لأنهم حلوا محلهم في القيادات العسكرية والإقطاعات كا أدت هذه المعركة إلى ابتعاد الخطر الصليبي الذي كان يحيق بحلب ، فضلاً عن أن مقتل روجر وتحطيم القوة العسكرية للصلبيين في شمالي الشام يعتبر ذا أهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين<sup>(٢)</sup> ويصف ابن العديم استقبال أهالي حلب لبشرى النصر قائلاً « فوصل البشير الى حلب بالنصر ، والماصاف قائم والناس يصلون صلاة الظهر يجتمعون حلب » ، فسمعوا صيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب ، ولم يصل أحد من المعسكر الى نحو صلاة العصر<sup>(٣)</sup> . أما ابن القلانسي فيصف هذا النصر بأنه « من أحسن الفتوح » ، ولم يتتفق مثله للإسلام في سالف الأعوام<sup>(٤)</sup> .

نزل إيلغازي ، عقب المعركة في خيمة روجر وحمل إليه المسلمون ما اغتنموه فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام ، ورد عليهم ما حلوا به بأسره<sup>(٥)</sup> . وكتب إلى سائر أمراء المسلمين يبشرهم بانتصاراته ، فأرسل إليه الخليفة المسترشد خلعة التشريف<sup>(٦)</sup> . وقام عدد من الشعراء المعاصرين ب مدحه بقصائد تعدد من

(١) Runciman, op. cit., 11/151, Nicholson, op. cit.. pp. 1/413.

(٢) Nicholson, op. cit., 1/414.

(٣) زبدة الحلب ٢/١٨٩ - ١٩٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢٧/٢ ) .

(٤) دمشق ص ٢٠١ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢٩/٢ ) .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢١٥ ، وقد ورد في بعض المراجع الأوربية ( انظر : Runciman, op. cit., 11/151. ) أن الخليفة العباسي منح إيلغازي لقب ( نجم الدين ) ، ولم تذكر المصادر العربية ذلك ، والواقع أن هذا اللقب هو الذي اشتهر به إيلغازي وتكرر ذكره في المصادر العربية . وانظر : العريني ، الحروب الصليبية ، حاشية الجزء الاول ، صفحة ٤٧٤ ، حسن جبشي ، نور الدين والصلبيون ص ١٩ ، وابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٢ .

أروع ما قيل في أدب الحروب الصليبية ، منها قصيدة العظيمي المؤرخ :

قل ما تشاء فقولك المقبول      وعليك بعد الخالق التعویل

وابتنصر القرآن حين نصرته      وبكى لفقد رجاله الإنجيل

أخطأ إيلفاري بعدم التوجّه مباشرةً إلى أنطاكية ، ولم يحاول استغلال قلة جناتها وهزيمة الصليبيين ، وأنها غدت فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش ، في الوقت الذي أخذ فيه المسيحيون المليون - السريان والأرمن والأرثوذكس - يتأمرون للخلاص من حكم الصليبيين الغربيين<sup>(١)</sup> وكان من المرجح أن تسقط أنطاكية بيده دون مقاومة تذكر<sup>(٢)</sup> . ولكن ، كما ذكر ابن القلانسي « وقع التعامل عنها بإحراز الفنائِم »<sup>(٣)</sup> وقام إيلفاري بتفريق قواته في بلاد أنطاكية ، لتحقيق انتصارات جانبية عن طريق القتل والنهب والأسر . وكانت تلك البلاد مطمئنة ، ولم يصلها بعد ، خبر هزيمة الصليبيين ، فأخذهم المسلمون على حين غرة ، وحصلوا من السيي والفنائم والدواب ما يفوق الإحصاء « ولم يبق أحد من الترك إلا امتلاً صدره ويداه بالفنائم والسيي »<sup>(٤)</sup> . ولقيت بعض سريان المسلمين الأمرين بلد़وين الرويس وابن صنجيل على رأس قوة من الفرسان ، في طريقها لنجددة روجر ، فأوقع المسلمون بهما وقتلوا بعض فرسانها وغنموا ما قدروا عليه ، وانهزم بلدُوين وابن صنجيل واعتصما بالجبلـالجاورة<sup>(٥)</sup> وقد

---

(١) Stevenson, op. cit., P. 104.

(٢) ابن العديم ، زينة الحلب ١٩٠/٤ - ١٩١ .

(٣) دمشق ص ٢٠١ .

(٤) ابن العديم ، زينة الحلب ١٩٠/٢ ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢٩/٢ ) .

(٥) المصدر السابق ١٩٠/٤ - ١٩١ ، ابن الفرات ٢٩/٢ .

اشترك أمراء بني شيزر في هذه الهجمات ضد الواقع الصليبي ، فقام أسامه بن منقذ على رأس قوة من التركان والعرب بهاجة مزارع أقاميه<sup>(١)</sup> ونهبها ، فتصدت لهم قوة من الصليبيين اضطرتهم الى الانسحاب ، كما توجه أبو العساكر سلطان أمير شيزر للالجتاع بإيلغازي<sup>(٢)</sup> .

عاد إيلغازي ، إثر هذه العمليات الى ارتاح ، وبادر بلدوبن فدخل أنطاكية لينظم أمورها ، فسلمت أرملاة روجر إليه مقايد الأمور ، فأخذ أموال القتل ، وزوج نساءهم بن بقي ، ونظم قوة عسكرية جديدة ، وزع عليهم الإقطاعات وسيطر بواسطتها على الأوضاع في أنطاكية<sup>(٣)</sup> كما أعاد توزيع إقطاعات الرها وأقر جوسلين على حكمها<sup>(٤)</sup> . وكان البطريرك برنارد ، قد تولى أعباء ادارة أنطاكية إثر مقتل روجر ، فقام بتجريد مواطنى المدينة من المسيحيين من السلاح ، وفرض منع التجول ليلاً ، وزع الأسلحة على رجال الدين والتجار من الصليبيين لحراسة أسوار المدينة وأرسل الى بلدوبن الثاني يستحثه على القدوم<sup>(٥)</sup> .

وهكذا ضيع إيلغازي فرصة نادرة للاستيلاء على أنطاكية<sup>(٦)</sup> ، وإسقاط

(١) أقاميه : مدينة حصينة من إقليم حصن ( ياقوت ٣٢٢/١ ) .

(٢) ابن منقذ ، الاعتبار ص ٤٠ - ٤١ .

(٣) ابن الدديم ، زبدة الطلب ١٩١/٢ .

Runciman, op. cit., 11/152,

Grousset, op. cit., 1/564.

Nicholson, op. cit., 1/414. (٤)

Runciman, op. cit., 11/151, Grousset. op. cit., 1/561. (٥)

(٦) يقدم ابن القلانيسي (دمشق ص ٢٠١) بعض الاسباب التي تبرر عدم مهاجمة أنطاكية، منها غيبة طفتكن عن المعركة ، وتسرب التركان للمعركة السابقة من غير تأهب .

إحدى الإمارات الصليبية الأربع ، التي قدر لها أن تبقى بعد ذلك حوالي القرنين من الزمن . ولو قدر لإيلغازي تحقيق هذا الهدف ، لتغيرت ، تبعاً لذلك ، وجهة الصراع بين المسلمين والصلبيين ، ولاحتل هذا القائد مركزاً أرسع وأكثر شهرة في تاريخ الحروب الصليبية ، كذلك الذي احتله زنكي بإسقاطه الراها ، وصلاح الدين بإسقاطه بيت المقدس . ولكن إيلغازي – على أية حال – حقق في معركة ( ساحة الدم ) نصراً حاسماً على الصليبيين وبه ارتفع إلى مركز القيادة في حركة الجهاد ضد الصليبيين ، كما أنه أعقب ذلك بتحقيق سلسلة من الانتصارات الأخرى هيأت للمسلمين في شمال الشام جواً من المدود والاستقرار والإنتاج .

وفي ارتفاع اجتمع طفتين بحليفه إيلغازي ، فعاد هذا وتقدم إلى الأذارب وهاجم ربضها ونهبها وقتل من قدر عليه . وخرج بعض أحـدـاث<sup>(١)</sup> حلب واشتراكوا في هذه العمليـات ، فاضطـرـ أـهـلـ الأـذـارـبـ إلى طـلـبـ الأمـانـ ، فـأـمـنـهمـ إـيلـغـازـيـ وـسـيرـهـ إـلـىـ مـأـمـنـهـ وـاستـولـىـ عـلـىـ الأـذـارـبـ وـمـنـ ثـمـ رـحـلـ إـلـىـ زـرـدـنـاـ ، وـكـانـ الصـلـيـ比ـيـوـنـ قـدـ حـصـنـوـهـ وـأـحـكـمـواـ عـمـارـتـهـاـ فـهـاجـمـهـ إـيلـغـازـيـ . وـمـاـ أـنـ سـمعـ صـاحـبـهاـ بـذـلـكـ ، وـكـانـ غـائـبـاـ عـنـهـ ، حـقـ أـرـسـلـ إـلـىـ بـلـدـوـنـ الثـانـيـ يـطـلـبـ مـنـهـ الخـروـجـ لـإنـقاـذـهـ ، وـأـنـتـهـاـزـ فـرـصـةـ تـفـرـقـ التـرـكـانـ بـالـفـنـاـمـ وـعـوـدـةـ أـكـثـرـهـ إـلـىـ أـهـلـهـ ، وـأـعـلـمـهـ أـنـ إـيلـغـازـيـ فـيـ عـدـةـ قـلـيـلـةـ . فـلـمـ سـمعـ إـيلـغـازـيـ بـذـلـكـ جـدـ فيـ قـتـالـهـ ، فـاضـطـرـ أـهـلـهـ إـلـىـ طـلـبـ الأمـانـ ، فـأـمـنـهـ وـسـيرـهـ إـلـىـ أـنـطـاكـيـةـ ، وـرـتـبـ أـصـحـابـهـ فـيـ زـرـدـنـاـ ، وـتـوـجـهـ بـنـ بـقـيـ مـعـهـ إـلـىـ دـانـيـتـ ، تـصـحـبـهـ قـوـاتـ طـفـتـكـينـ وـطـفـانـ أـرـسـلـانـ بـنـ دـمـلاـجـ (ـأـمـيرـ إـرـزنـ)ـ ، وـأـعـادـ الـأـنـقـالـ وـالـخـيـامـ إـلـىـ قـنـسـريـنـ ،

---

(١) انظر الفصل الخامس .

ليكونوا أخف حركة وأكثر إفادة من عامل الزمن . وقد وصل إيلغازي وحلفاؤه إلى دانيث في نفس اليوم ، فعلم أن الصليبيين كانوا قد عززواها ، إذ فتحه زرданا ، بعدد كبير من الرجالـة وما يزيد على أربعينـة فارس وتم اللقاء في الرابع من جمادى الأولى ، فحمل صاحب زردانـا ومعظم فرسان الصليبيين على قوات دمشق وحمص فانهز هؤلاء بين أيديهم ، وحاول صاحب زردانـا استغلال الفرصة وانقاد موقعه والاستيلاء على معدات إيلغازي هناك ولكنه سرعان ما علم بخبر الاستيلاء عليها قبلـته ، وأن إيلغازي قد أرسل معداته إلى قنسرين ، فاضطر إلى العودة . وحملت بقية القوات الإسلامية على بلدـين والقوات التي كانت تحت إمرته ، فهزـموهم وقتـلوا عدـداً كـبيرـاً منهم ، وحينـذاك حلـ إيلغازي وحـلفاؤه على قلبـ الصـليـبيـيـن فـكـسـرـوـهـم وقتـلـواـ عـدـداًـ كـبـيرـاًـ مـعـظـمـ رـجـالـهـمـ وـعـدـداًـ مـنـ فـرـسـانـهـ ، وـطـارـدوـهـ حـتـىـ دـخـلـواـ حـصـنـ هـابـ لـلاـحـتـاءـ بـهـ ، فـنـمـ المـسـلـمـونـ أـكـثـرـ ذـخـائـرـهـ<sup>(١)</sup> .

عاد إيلغازي وحـلفـاؤـهـ إلى دـانـيـثـ وـالتـقـواـ فـيـ الطـرـيقـ بـالـكـوـنـتـ روـبـيرـ الأـبـرـصـ صـاحـبـ زـرـدانـاـ<sup>(٢)</sup> ، تـصـحـبـهـ قـوـةـ مـنـ الصـلـيـبـيـيـنـ كـانـتـ قـدـ تـقـلـبـتـ بـقـيـادـتـهـ عـلـىـ جـمـاعـةـ مـنـ الـعـسـاـكـرـ إـلـاسـلـامـيـةـ ، فـهـاجـمـتـهـ قـوـاتـ إـيلـغـازـيـ وـهـزـمـتـهـ وـقـتـلـتـ عـدـداًـ مـنـهـ بـيـنـاـ جـلـ الـبـاقـونـ إـلـىـ حـصـنـ هـابـ ، وـسـقـطـ صـاحـبـ زـرـدانـاـ عـنـ فـرـسـهـ ،

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢ - ١٩٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطـةـ ) ٢٩/٢ .

Cahen, op. cit., pp. 289—290, Grousset, op. cit., 1/565—570, Nicholson, op. cit., 1/414. Guillaume de Tyr, op. cit., 1/532 — 535.

وانظر خارطة رقم (٢) للاطلاع على الواقع آنفة الذكر .

(٢) وكان يحكم . فضلاً عن زردانـاـ ، صـهـيـونـ — بـيـنـ الـلـادـنـيـةـ وـحـمـةـ — ، وبـلـاطـنـسـ — جـنـوـبـيـ صـهـيـونـ — وـالـمـانـاطـقـ الـجـاـوـرـةـ . ابن منـذـدـ ، الـاعـتـارـ صـ ١١٩ـ .

فادر كه قوم من أهل جبل السماق وقبضوا عليه وحملوه الى إيلغازي بظاهر حلب فأنفذه الى طفتكن حيث قتله صبراً<sup>(١)</sup> . ويظهر أنه فعل ذلك مجاملة لخليفه طفتكن بسبب العداء المتعكم بينه وبين الأمير روبيز .

دخل إيلغازي حلب - بعد أن عاد حلفاؤه الى بلادهم - وأحضر الأسرى فاقتدي من كان معه مال مثل بعض أصحاب القلاع وابن بوهيمند صاحب أنطاكية وغيرهم ، وبقي من الأسرى نيف وثلاثون رجلاً لم يكن لديهم المال الكافي لافتداهم ، فقتلهم جميعاً . وتوجه الى ماردين في جهاد الأولى (٥١٣ = ١١٩ م ) ، ليحشد التركان ويعود ثانية الى حلب<sup>(٢)</sup> .

استغل الصليبيون فرصة غياب إيلغازي وتفرق قواته ، ولم تكن في حلب القوة الكافية لردعهم ، فخرجوها الى بلدة المرة وسبوا بعض أهليها ، ولكن تصدي قوة من الترك لهم اضطرتهم الى الانسحاب<sup>(٣)</sup> . وخرج بلد़وين من أنطاكية على رأس قواته واستولى على بعض الواقع العائدة لأمراء شيزر من بني منقد ، واتجه الى سرمين ومعرة مصرین فاستولى عليها بالأمان ، ثم هاجم زردنا ووقف عائدًا الى أنطاكية . واكتملت قوات حلب طيلة هذه الفترة بشن هجمات متقطعة على القوات الصليبية وحققت بعض الانتصارات كما حصلت على بعض الفنائيم . ووصل جوسلين الى خاله بلدَّوين لدى استيلائه على سرمين ، فسيره هذا الى الرها وتل باشر ، فاتجه جوسلين الى وادي بطنان والجهات

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩٢/٢ - ١٩٣ ، ابن منقد ، الاعتبار ص ١١٩ - ١٢٠ ، ابن الفرات تاريخ ، (محضوظة ٢٩/٢) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩٣/٢ .

Cahen, Iasyrie do Nord, pp. 289—290.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٣ .

الواقعة غربي الفرات فقتل وسي ما يقرب من ألف رجل ، كما هاجم النقرة وأعمال حلب الشرقية وغنم ما وجده من الدواب ، وأسر عدداً من الرجال والنساء ، ومن ثم اتجه الى الرواندان ، ليطارد قوة من التركان كانت قد قطعت الفرات ، ولكن هؤلاء تكثروا من هزيمة الصليبيين وقتلوا عدداً منهم<sup>(١)</sup> .

استمر القتال بين المسلمين والصليبيين في شمالي الشام حق مطلع العام التالي (٥١٤ = ١١٢٠ م) وحدثت في صفر من هذا العام مشاجنة بين ( بلاقي ابن اسحق) والي إيلغازي على الأثارب وبين الصليبيين ، فتقدم بلاقي على رأس قوة من عسكر حلب الى أنطاكية ، فلقيتهم قواتها وهزمتهم وظلت تطارد مسافة بعيدة<sup>(٢)</sup> .

جمع إيلغازي ، خلال ذلك ، حشدأً كبيراً من التركان ، وقطع الفرات في الخامس والعشرين من صفر وتوجه الى تل باشر وأقام عليها أياماً دون أن يقاتلها<sup>(٣)</sup> ، ومن ثم رحل الى عاز للاستيلاء عليها ، ولم يسمح لأحد من جنده باستغلال ضياعها أو تخريبها ، ولكنه ما لبث أن ابتعد عنها وراح يتنقل في أعمال الروج ، وهرب كثير من أهالي المواقع التابعة لأنطاكية وأرسلوا الى

(١) المصدر السابق / ٢ - ١٩٤ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٨ ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطة ٢٩ / ٢ - ٣٠ ) .

Cahen, op. cit., pp. 290 - 291.

وانظر الخارطة رقم (٢) للاطلاع على أماكن الواقع آنفة الذكر .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢ - ١٩٤ ، ابن الشحنة المنتخب ص ٢١٨ ،

Runciman, op. cit., 11/158. Cahen op. cit., P. 291.

(٣) في 127 Matthieu D'Edesse, P. 127 انه اجتاح النطقة بين تل باشر وكيسوم حيث قتل عدداً كبيراً من الصليبيين ، وخرب ضياعهم وقرام ، وغنم المقاومة الشديدة التي أبدتها جوسلين . عن عاشر ، الحركة الصليبية ١ / ٥٠٨ .

بلدوين الثاني ملك بيت المقدس يطلبون منه نجدة سريعة ، فخف الملك لنجدتهم<sup>(١)</sup> . فكر إيلغازي عائداً إلى قنسرن وانتشر القلق بين قواته من التركان لعدم حصولهم على ما كانوا يؤملونه من الفنام كتلك التي حصلوا عليها في السنة الماضية ، بسبب عدم اشتباكهم مع الصليبيين . وجرت من إيلغازي إساءة إلى بعض التركان على شيء أنكره عليهم - ربما لإلحاحهم في الحصول على الفنام - حيث عاقبهم وبالغ في إهانتهم مما دفع الكثيرين منهم إلى الانصراف ، وبقي إيلغازي في نفر يسير تفرقوا في أعمال حلب ، فاستقل الصليبيون هذه الفرصة ، وتقدموا من دائنيث للحصول على بعض المكاسب ، رافقين دعوة إيلغازي إلى عقد الصلح معهم . ولكن وصول طفتكن على رأس قواته واجتاعه بجليقه ، عزز مركز الأخير ، فتقدما صوب الصليبيين على رأس ألف فارس وعدد كبير من الرجال ، وقاما بتطويقهم فلم يخرج إليها أحد ، بسبب خوف الصليبيين من العودة على أعقابهم ف تكون بذلك هزيتهم ، وأشار طفتكن بالإفراج عنهم كيلا يحملهم الخوف على مجاهدة المسلمين والاستمرار في القتال حتى النصر ، فوافقه إيلغازي على ذلك وأتاح لهم الطريق والحركة بحرية تامة دون أية مضائق<sup>(٢)</sup> فسار الصليبيون نحو مصرة مصرین مجتمعين لا ينفرد عنهم فارس ولا راجل ، وأشرف المسلمين على أخذهم ، وراحوا يقتلون كل من خرج عن القوات الصليبية أو تختلف عنها ، وعندما وصل هؤلاء مصرة مصرین واستقرروا بها ، عاد المسلمين إلى حلب ، وأعقب ذلك توجه

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩٥/٢ - ١٩٦ ، عاشر ، الحركة الصليبية ١/٥٠٨ ، عن Foucher de chaters, op. cit., pp. 445-446.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢١٥ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٨٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٣٩/٢ ) .

الصليبيين الى أنطاكية<sup>(١)</sup> . وكان لقدم بلدوبن الثاني لنجدته صليبي أنطاكية  
أثر كبير في عدم مهاجمة المسلمين لهم<sup>(٢)</sup> .

ونظراً لعدم استقرار إيلغازي في الشام ، وما أصاب قواته من قلق  
وتذمر ، عقد صلحًا مع بلدوبن الثاني ، أ美的ه نهاية عام (٥١٤ = ١١٢١ م) ،  
تنازل له بوجبه عن موقعه شرق العاصي وهي المرة وكفرطاب والجبل  
والبارة ، وضياع من جبل السهاق وليلون ، ومن بلد عزاز<sup>(٣)</sup> . ومن ثم توجه  
إلى ماردين ليستغل فترة الهدنة في حشد قواته من جديد<sup>(٤)</sup> وأقام بلدوبن الثاني  
في أنطاكية فترة قصيرة نظم خلالها أمورها باعتباره وصيًّا عليها ، وأولاًها  
اهتمامًا بالفأ<sup>(٥)</sup> .

ما لبث إيلغازي أن أمر بهدم زرданا – في شهر ربيع الأول – كي لا يتخذها

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩٥/٢ - ١٩٦ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢١٥ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٤٣/٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٢٦/٢ ، الغزي ، نهر الذهب ٨٤/٣ ، الطباطبائي ، تاريخ حلب ١ / ٤٣٥ - ٤٣٨ ، Grousset, op. cit., 1/576, Cahen op. cit., pp. 291—292.

(٢) Runciman, op. cit., 11/158,

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٣٩ ) ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٨ ، أما ابن القلانيسي ( دمشق ص ٢٠٢ ) وسيط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٩١ ) فيكتفيان بمجرد الإشارة إلى الصلح ، وانظر :

Cahen, op. cit., pp. 291—292. Nicholson, op. cit., 1/415—416, Grousset, op. cit., 1/577.

وانظر خارطة رقم (٢) للاطلاع على أماكن الواقع آفة الذكر .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٣٩ ) .

Grousset, op. cit., 1/577, Guillaume de Tyr, op. cit.. 1/537. (٥)

الصليبيون من كرزاً لتهديد حلب<sup>(١)</sup> ، وكإجراء احتياطي لما قام به الصليبيون من نقض بنود الهدنة ، إذ قبضوا على الفلاحين في المناطق التي آلت اليهم وعاقبواهم وصادروهم وأخذوا منهم من الأموال والغلال ما تقووا به . وكانت الضياع التي بأيدي المسلمين قد عمرت ، لاطمئنان فلاحها بالصلح ، ولكن جوسلين أمير الرها خرج بقواته في شوال ، وأغار على النقرة والأحس ، وبرر ذلك بقيام والي منبع بأسر أحد أتباعه ، وأنه كاتبه في إطلاقه فلم يحبه الوالي . وراح جوسلين يقتل ويسيء ، وأحرق مناطق واسعة من النقرة والأحس ، ونزل وادي بطnan وعادث فيه ، وأسر المشايخ والعجائز والضعفاء ، ونزع عنهم ثيابهم وتركتهم في البرد عراة ، فهللوكوا بأجمعهم . ثم سار إلى تل باشر ووقف من هناك عائداً إلى إمارته ، حيث حشد قواته وخرج من جديد ليفعل ما فعله في المرة الأولى . فاحتاج سليمان بن إيلغازي والي حلب لدى بدلوين الثاني ، وأرسل إليه يقول : « إن إيلغازي لم يترك هذه البلاد خالية من العساكر إلا ثقة بالصلح » فأجابه بدلوين الثاني بأن لا حكم له على جوسلين<sup>(٢)</sup> وأن الأخير لم يدخل في شروط الهدنة<sup>(٣)</sup> . وتتابعت غارات جوسلين ، وخرج صليبيو أنطاكية ، إثر ذلك ، وأغاروا على بلد شيزر وغنموا شيئاً كثيراً وأسروا جماعة من المسلمين ، وطالبو ابن منقد ، أمير شيزر ببعض المناطق ، فاضطر

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩٦/٢ ، ابن القلانسى ، دمشق ص ٢٠٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ) ٣٩ / ٢ .

Nicholson, op. cit., 1/400. 1/415—16, Grousset, op. cit., 1/577.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩٦/٢ — ١٩٧ .

Cahen, op. cit., P. 292.

Grousset, op. cit., 1/577. (٣)

هذا الى مصالحهم يبلغ من المال<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

لم يتمكن إيلفازاري من العودة الى الشام خلال هذه السنة (٥١٤ هـ ١١٢٠ م ) ، بحماية الصليبيين وتحفيظ الضغط عن حلب بسبب انشغاله مع عدد من أمراء المسلمين في قتال الكرج والقفجاق<sup>(٢)</sup> ، وكان هؤلاء قد تقدموا بقوات ضخمة ، عبر أرمينية ، للإغارة على المناطق الإسلامية المتاخمة ، فاضطر الأمير طفرل بن السلطان محمد السلاجوقي ، حاكم شمالي بلاد فارس الى الاتصال مع الأمراء الجاورين وتم الاتفاق على التقدم بحماية المغيرين ، وكان على رأس هؤلاء الأمراء إيلفازاري ودبليس بن صدقة أميربني مزيد الذي كان ملتجأً عنده. وتوجه هؤلاء الأمراء صوب تقليس<sup>(٣)</sup> على رأس قوات ضخمة تزيد على الثلاثين ألفاً ، فلما قاربوا تقليس التقوا بقوات الأعداء ، فتولى إيلفازاري قيادة الميسرة ودبليس الميمنة وتولى طفرل قيادة القلب .

و قبل أن ينشب القتال خرج من الكرج مائةي رجل حيلة ، فظن المسلمون أن هؤلاء مستأمنون فلم يحذروهم فدخلوا في صفوف المسلمين ورموا بالنشاب ، فاضطربت قواتهم وظن من في الصفوف الخلفية أنها الهزيمة فانهزموا ، وتبع الناس بعضهم بعضاً ، واستند الزحام فقتل عدد كبير من المسلمين ، وتبعهم

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٧ .

Grousset, op. cit., 1/578.

ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢/٣٩ ) . وانظر خارطة رقم (٢) .

(٢) الكرج والقفجاق : جماعة من معتنقى النصرانية كانوا يسكنون جبال القبق من بلاد أرمينية ولم ملك ( ياقوت ، بلدان ٤/٢٥١ - ٢٥٢ ) .

(٣) تقليس : بلد بأرمينية وهي قديمة ، تبعد قصبة ناحية جرزان ( ياقوت ١/٨٥٧ ) .

الكرج مسافة طويلة يعملون فيهم القتل والأسر إلى أن أبادوا أكثرهم وأسروا أربعة آلاف رجل ، وتعرض إيلغازي للقتل أو الأسر لو لا استامة دبليس في الدفاع عنه . ومن ثم عاد إيلغازي ودبليس وبقية الأمراء بما تبقى من قواتهم إلى بلادهم ، واتجه الكرج لنهب المناطق المجاورة لتفليس ، وحاصروها وفتحوها عنوة في مطلع العام التالي ( ١١٢١ هـ = ٥١٥ م )<sup>(١)</sup> .

وهكذا أسهم إيلغازي في هذه الحرب التي كادت أن تقضي عليه ، ذلك أنه أدرك أن زحف العدو لم يكن يشكل خطراً على إمارة إسلامية دون الأخرى وإنما هو خطر مشترك على كل الإمارات المتاخمة ، ولذا بادر بالتجدة على رأس قواته مستصعباً معه حليفه دبليس ، وقد كلفه ذلك كثيراً من قواته ، ولكنه أوضح مدى استعداده لتحمل مسؤوليته في الدفاع عن المناطق الإسلامية .

وقدر السلطان السلاجوقى والخليفة العباسي دوره هذا وأرسل إليه يهنئه على سلامته من المعركة<sup>(٢)</sup> .

**تمادي الصليبيون في أعمالهم** ، مستغلين فرصة غياب إيلغازي في ديار بكر ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ٢١٥/١٠ ، ابن العبرى ، مختصر ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، الذمي ، دول الإسلام ٢٩/٢ ، العبر ٣١/٤ ، ابن خلدون ، العبر ٥ ، العبر ١٠٤ - ١٠٥ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٢ ) ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٣٧ - ٣٨ ) ، ويدرك ابن العديم ( زبدة الحلب ٢٠٠ - ١٩٩/٢ ) أن المسلمين انتصروا في البدء ودخلوا المضايق وراء أعدائهم ، وما لبث أن كر عليهم هؤلاء وهزمونهم ، وكذلك يرد في ابن القلانسي ( دمشق ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ) ، وينطوي سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ١٠١ - ١٠٢ ) في جمل هذه الحادثة عام ١٦٥ هـ وانظر :

Cahen, Iasyrie do Nord, pp. 292—293.

(٢) ابن الجوزي ، المنظم ٢٢٧/٩ .

وانها كه في حربه ضد الكرج والقفجات ، فخرروا المناطق المحيطة بحلب واستولوا على معظمها . وأغار جوسلمين على صفين وسبى المسلمين ، ونزل على بزاعة وقاتلها وأحرق بعض جهاتها ، فصونع ببلع من المال وعاد الى بلاده . وفي صفر في العام التالي (١١٢١ م = ٥١٥ هـ ) ، شن هجوماً على الأتارب فقتل عدداً كبيراً من المسلمين ، وأحرق البلد وأسر من لم يستطع اللجوء الى القلعة . وفي ربيع الآخر زحف الصليبيون على الأتارب - ثانية - وأحرقوا الدور والفالل<sup>(١)</sup> . وسار بدلوين وأغار على حلب وغنم أشياء كثيرة من أطراها وأسر نحواً من خمسين أسيراً ، فتصدت له قوة من الحلبين استنقذت ما غنه من مواشي ، واضطرته الى التراجع<sup>(٢)</sup> .

ما أن علم الصليبيون بهزيمة إيلغازي حتى شدوا قبضتهم على حلب ، فشن بدلوين الثاني هجوماً على أطراها مما اضطر إيلغازي إلى أن يكتب الى ابنه سليمان - نائب في حلب - وبقية الأمراء هناك ، يأمرهم بصلح الصليبيين على ما يريدون . فعقد الصلح ، وحصل الصليبيون بموجبه على سرمين والجزر وليلون وأعمال الشمال ونصف الجهات الزراعية المحيطة بحلب ، ونصت بنود الصلح على القيام بهدم تل هراق بحيث لا يبقى للطرفين فيه حكم . وطالب الصليبيون - كذلك - بالأتارب ، فأجابهم إيلغازي الى ذلك ولكن سكانها

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٧ - ١٩٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٣ / ٤٨ - ٤٩ ) .

Cahen, op. cit., p. 292. Grousset, op. cit., 1/578.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ /

Cahen, op. cit., P. 292, . ٤٩ - ٤٨

رفضوا تسليمها لأعدائهم فبقيت بأيدي المسلمين<sup>(١)</sup> وقد تولى جوسلين أمير الراها عقد الصلح من جهة الصليبيين ، أما بدوين الثاني فكان غائباً ، وقد أقر بشروط الصلح لدى وصوله ، وشرع في عمارة دير قديم بالقرب من سرمندا ، كان قد أصابه الخراب ووهبه لسير الان دمسخين<sup>(٢)</sup> .

★ ★ \*

وعندما عصى سليمان على أبيه ( في نفس العام ) ، وأعلن الاستقلال<sup>(٣)</sup> قام بالتقرب من الصليبيين للاحتماء بهم ضد أبيه ، فطمع هؤلاء واستغلو الفرصة ، فعمروا زرданا التابعة لهم ليتخذوها نقطة انطلاق ضد حلب ، ثم تقدموا صوب حلب وهاجوا في طريقهم خيام قبيلة طيء ، فتصدت لهم قوات حلب وهزمتهم وقتلت منهم جماعة . وخرج بدوين في جادى الآخرة فنماذل خناصرة واستولى عليها وخر بها ، وكذلك فعل بعدد من الواقع الأخرى وأحرق ونهب . وعاد فنزل في صلدع على نهر قويق ، فخرج اليه أحد أمراء حلب طالباً منه عقد الصلح مع سليمان بن إيلفازي ، فأجابه بدوين قائلاً : « على شرط أن يعطيوني سليمان الأثارب حق أحفظه ، وأنا أذب عنه وأقاتل دونه ، فقال له مندوب سليمان : ما يجوز أن نسلم ثغراً من ثغور حلب .. بل التمس غير هذا مما يمكن ليوافقك عليه . فقال له : الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها فإني قد عمرت عليهم الحصون من - جميع جهاتها - » . ولم تسفر المفاوضة عن نتيجة لإصرار بدوين علىأخذ الأثارب ، لذلك توجه اليها

(١) ابن العديم ، المصدر السابق ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ ، ابن الفرات ٤٨ / ٤٩ - ٤٩ .  
Runciman, op. cit., 11/159—161 , Grousset, op. cit., 1/578.

(٢) ابن العديم ، المصدر السابق ١٩٩ / ٢ ، وانظر خارطة رقم (٢) .

(٣) انظر التفاصيل في الفصل الأول .

وحاصرها ثلاثة أيام ، ولكن أمر ورأ حدث في أنطاكية أوجبت رحيله عنها<sup>(١)</sup> .

قدم إيلغازي إلى حلب للقضاء على عصيان ابنه ، وبعد أن تم له ذلك ، نظم أمور الإدارة والمالية هناك ، ثم عقد صلحاً جديداً مع الصليبيين ، أ美的 سنة كاملة ، تنازل لهم بمحبته عن عدد من الواقع الإسلامية<sup>(٢)</sup> .

وكان غرض إيلغازي من هذه المدنة هو كسب الوقت كيما يعود إلى ديار بكرا ويحشد قواته ليعيد الكفة على الصليبيين وقد تم له ذلك في مطلع سنة (١١٢٢ م = ٥١٦ هـ)<sup>(٣)</sup> .

لم يلبث إيلغازي أن حشد عدداً كبيراً من القوات التركانية ، واستدعى ابن أخيه ( بلك بن بهرام ) من إمارته في بلاد الروم – خرتبرت وما جاورها دون ما جرت به عادته باستصحابه<sup>(٤)</sup> ، ومن ثم عبر الفرات في السابع عشر من ربيع الآخر سنة (١١٢٢ م = ٥١٦ هـ) ، ونازل زرданا في جمادى الأولى مستغلًا فرصة خروج بونز أمير طرابلس عن طاعة ملك بيت المقدس وتوجه هذا إلى طرابلس لانتزاع عين الولاء من غريمه<sup>(٥)</sup> . واستمر حصار إيلغازي

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب /٢ ٢٠٠ - ٢٠٢ Cahen, op. cit., P. 293.

(٢) زبدة الحلب /٢ ٢٠٣ .

ويختفي عاشر ، الحركة الصليبية ١/٥٠٩ ، في القول بأن سليمان تنازل للصليبيين أنته عصيانه عن زرданا والأثارب لدى عقده الصلح معهم . إذ أن الأولى كانت بيد الصليبيين من قبل والثانية سلمت إليهم بعد وفاة إيلغازي ، وانظر خارطة رقم (٢) .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب /٢ ٢٠٣ .

(٤) المصدر السابق /٢ ٢٠٣ .

Nicholson, op. cit., 1/417. (٥)

لزردنا عدة أيام استولى خلاها على بعض مناطق بلدها ، وكان أميرها قد عرف لدى عبور إيلفازي الفرات ، أن موقعه سيكون الهدف الأول لهذا التحرك . فجتمع أصحابه واستحلفهم على الصبر مدة خمسة عشر يوماً ، وحلف هو لهم على التزامه بمنجذبهم ومفادرة المدينة لخشد الصليبيين « فإن جازت هذه المدة ولم يصلهم فإنه يبتاع دماءهم بكل ما يلكه . وقال لهم : والله لكم علي من الشاهدين لشن لم يخلصكم إلا إسلامي إن قبله – يعني إيلفازي – أسلمت على يديه خلاصكم » ، وخرج حتى التقى ببلدوين ، وهو في أطراف طرابلس يتفاوض مع أصحابها ، فأخبره بقصد إيلفازي لزردنا ، فقال : قد حلتنا له وحلف لنا ، ما نكتشنا ، وحفظنا بلده في غيبته ، ونحن شيوخ ، وما أظنه يغدر ، بل ربما قصد طرابلس أو قصدني في القدس لأنني ما صاحته إلا على أنطاكية وأعمالها ، بل يجب أن تعود إلى أقاميه وكفرطاب وتكتشف ما يتجدد<sup>(١)</sup> . فعاد صاحب زردنا واستطاع تحركات إيلفازي ، ومن ثم أرسل إلى بلدوين وأعلم به بنزول إيلفازي على زردنا ، فاضطرر بلدوين لصالحة أمير طرابلس وشرط عليه الاشتراك معه لدى نشوب القتال ، ومن ثم توجه إلى أنطاكية ، واستدعي جوسلين ، وتقدم من هناك صوب زردنا ، فلما بلغ إيلفازي ذلك ، ترك الحصار وتوجه نحوهم ، فنزل منطقة تدعى نواز وطلب من الصليبيين أن يخرجوا من الضيق الذي عسّكروا فيه إلى الأرض المكشوفة ، فلم يستجيبوا له ، فرحل إلى قل السلطان ، وكان طفتكن قد التحق به ، فخرج الصليبيون وهاجوا ربع الأقارب وأحرقوا بياورها وهدموا جدرانها ، واحتمنى أصحابها يوسف بن ميرخان بقلعتها ، فتركها الصليبيون ، ونزلوا على دانيث وأقاموا هناك ، فلم يتقدم إليهم أحد من المسلمين ، فقادروها إلى أنطاكية ، إذ شعروا بعدم جدوا

---

(١) ابن العديم ، زينة الحلب ، ٢٠٣/٢ - ٢٠٠ .

بقائهم . فعاد إيلغازي ونازل زرداً ثانية وقتل جماعة من جندها ، وإزاء ذلك تجمع الصليبيون ثانية وتوجهوا للقاء إيلغازي ، فرحل إلى نواز وأقام هناك ثلاثة أيام يزاحف الصليبيين دون أن يخرج هؤلاء إلى الصحراء ، وحدث أن أصيب إيلغازي بمرض في معدته آنذاك فاضطر إلى العودة إلى حلب ، بينما عاد كل من بلوك وطفتكين إلى بلادهما . وإذا كان إيلغازي يعالج مرضه في حلب ، خرجت قوة من الحلبين قوامها ألف فارس إلى أعمال عزار ونهبوا المنطقة ثم عادوا « فاجهم صاحب عزار » وبصحبته أربعون فارساً ، على حين غفلة فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة . وفي شعبان خرجت قوة من الصليبيين من تل باشر وهاجت قل قباسين ، فتصدى لها نائب بزاعة وأهاليها ، ولكن المسلمين انهزوا وقتل منهم تسعون رجلاً . وإذا أحس إيلغازي بتحسن صحته غادر حلب عائداً إلى ميافارقين ، لكن المرض ما لبث أن اشتد به في الطريق فتوفي في إحدى قرى ميافارقين في أول رمضان سنة (٥١٦ م) ١٢٢٢ م<sup>(١)</sup> .

فقد المسلمون بوفاة إيلغازي قائداً شديداً المراس وعسكرياً بعيد النظر ، استطاع بإمكاناته الشخصية ، وبالعدد الكبير الذي يواليه من التركان ، أن يقود حركة الجهاد طيلة خمس سنوات ، ويدرك ابن الفرات أن الحلبين عندما علموا بوفاته « عظم عليهم مصابه وأغلقوا الأبواب » وأيقنوا بتولي الشدائد

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٠٣/٢ - ٢٠٦ ، الطباخ ، تاريخ حلب ٤٤٥ - ٤٤٢/١ ، واكتفى ابن القلانسي ( دمشق ص ٢٠٧ ) بالإشارة إلى تحركات إيلغازي .

Guillaume de Tyr, op. cit., 1/537, Cahen, op. cit., pp. 294—95, Crouset, op. cit., 1/581—83, Runciman, op. cit., 11/161, Nicholson, op. cit., 1/417—418. وانظر خارطة رقم (٢) .

عليهم ، لأن إيلغازي كان قد حسم مادة الفرج عن حلب وقطع أطعاعهم فيها ...<sup>(١)</sup> ، ولو لا قيام نور الدولة بذلك بن بهرام بإتمام الدور الذي بدأه إيلغازي لكان من المحتمل أن تنتهي مرحلة قيادة الأرaqueة للجهاد بوفاة إيلغازي ، ولكن بذلك ، الذي كان يمتلك نفس الأسباب الشخصية والعسكرية التي كان يمتلكها سلفه ، استطاع أن يضي في توجيه الفربات للصليبيين . وكان لاصطحاب إيلغازي له في هجومه الأخير على معاقل أعدائه أثر بالغ في تسلمه القيادة العسكرية للأرaqueة بعد وفاته ، إذ كان اصطحابه بمثابة توصية من إيلغازي في أن تكون القيادة لبلك من بعده .

حاول الصليبيون استغلال فرصة وفاة إيلغازي ، وانقسام إمارته بين أبنائه ، وانزوال حلب عن القوى التركانية في ديار بكر ، لتحقيق انتصارات سريعة على المسلمين في شمالي الشام ، فمحشد أمير أنطاكية قواته وجماعة من الأرمن ، ونزل وادي بزاعة شمال شرقى حلب ، وعادت فيه وأفسد ، فقدم إليه أهالىه مبلغاً من المال ، فرحل إلى بالس ، جنوبى شرقى حلب ، وهاجها بالنتائج ، وطلب من أهالها دفع مبلغ من المال إليه وأسرف في الطلب ، فتصدت له قوة مشتركة من التركان وفرسان حلب كانوا مرابطين في بالس أرغنته على الانسحاب ، حيث توجه إلى البيزة وحاصرها واستولى عليها ، بعد أن أمن أهالها ، إلا أنه مالبث أن أخذهم أسرى إلى أنطاكية . وتتابعت غارات الفرنج حول حلب إلى آخر سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م<sup>(٢)</sup> ، وبذلك غدت شبه محاصرة بمتلكات الصليبيين وقواتهم<sup>(٣)</sup> وكانت - حلب - قد انتقلت

(١) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٦٦/٢ ) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٠٩/٢ ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٦٧/٢ ) .

Cahen, op. cit., p. 295, Nicholson, op. cit., 1/418. (٣)

بعد وفاة إيلغازي إلى ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق<sup>(١)</sup>.

استطاع بذلك أن يشن تحركات الصليبيين ويفقدم القدرة على توجيه ضربة حاسمة ضد المسلمين ، وذلك بالانتصار الذي حققه على قوات الرها في رجب سنة (٥١٦ = ١١٢٢ م) - خلال مرض عمه إيلغازي - ، فقد تقدم ، إثر عودته من زرданا إلى الرها وفرض الحصار عليهما ، مستغلاً فرصة انشغال الصليبيين بتحركات إيلغازي في شمال الشام ، ولكنها لقي مقاومة عنيفة من حاميتها الصليبية ، فاضطر إلى الانسحاب بعد فترة طويلة من الحصار<sup>(٢)</sup>. ولكن صليبيي الرها لم يطمأنوا لانسحاب ذلك ، واعتقدوا بأنه لا بد أن يعيد الكثرة عليهم فأرسلوا إلى جوسلين ، الذي كان آنذاك في البيرة يلهمو مع أميرها جاليران لي بوازيه ، يخبرونه بما حدث ، فخاف جاليران من قرب ذلك من حدود أمارته وأخذ يبحث جوسلين على القيام سوية بمحابية عدوهما<sup>(٣)</sup>. وتقدم أحد أتباع ذلك وأخبر سيده بأن جوسلين قد جمع قواته من الصليبيين وهو عازم على هاجمته . وكانت قوات ذلك قد تفرقت عنه ، وبقي هو في أربعينات فارس ، فاستعد للقاءهم بالقرب من سروج<sup>(٤)</sup> ، بعد أن اطلع على خطتهم ، ونصب لهم كميناً في أرض موحلة مشبعة بمياه الأمطار. وما أن تقدم الصليبيون نحوه حتى غاصت قواصم خيولهم في تلك الأرض ، ولم تتمكن من الإسراع

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٠٩/٢ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخضوطة ٦٧/٢).

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٢٥ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٤٦/٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٤٤٢/١ ، ابن خلدون ، العبر ٤٢٤/٤ ، الطباخ ، تاريخ حلب ٢٨/٢.

Grousset, op. cit., 1/583 — 584, Runciman, op. cit., 11/161, Nicholson (٣)  
op. cit., 1/418.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٢٥ - ٢٢٦ .

بسبب نقل الاسلحة والفرسان ، فسلط عليهم بذلك وأبالا من السهام ، فلم يفلت منهم إلا القليل ، وأسر جوسلين . وعرض عليهم بذلك إطلاق سراحهم مقابل التنازل عن الرها وبعض الواقع المجاورة فرفضوا وقالوا : « نحن والبلاد كالمثال والحج - الحمل - مق عقر بغير حوال رحله الى آخر ، والذى بأيدينا قد صار بيد غيرنا <sup>(١)</sup> » . وطلب جوسلين منه افتداء نفسه ببلغ كبير من المال وعد من الأسرى ، فرفض بذلك ، وحمل أسراه الى خربت حيث اعتقلهم هناك <sup>(٢)</sup> ، وغدت الرها تحت وصاية بلدoin الثاني ملك بيت المقدس أسوة بأنطاكية . وقد قام بلدoin بتعيين جفري الراهب صاحب مرعش أميراً على الرها على أن يتضح مصير جوسلين <sup>(٣)</sup> .

شدد بلدoin الثاني هجماته على حلب وأعماها ، وأكثر فيها التحريق والتحريق مما اضطر أميرها سليمان الأرتقي الى طلب الصلح من بلدoin « إذ لم يكن له بالفرنج قوة » <sup>(٤)</sup> ، مقابل التنازل للصليبيين عن حصن الآثارب القريب من حلب ، وتوقف مؤلاء عن مهاجمة بلاده ، فوافق بلدoin الثاني على ذلك وتم عقد الصلح في العاشر من صفر سنة ( ١١٢٣ = ٥١٧ م ) حيث تسلم

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٠٦ / ٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٤٨ / ٢ ) .

(٢) المصدر السابق ٢٠٦ / ٢ ، ابن الأثير ، الكامل ٢٢٥ / ١٠ - ٢٢٦ ، ( وهو يخطيء في جمل هذه الحادثة عام ٥١٥ ، ويكرر هذا الخطأ في ٢٣٤ / ١٠ ) وانظر ابن القلاني ( دمشق ٢٠٨ ) أبو الفدا ، المختصر ٢١٦ / ٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ٢٨ ، ابن خلدون ، العبر ٤٢٢ / ٥ - ٤٨٩ ، ابن كثير ، البداية ١٢ / ١٨٨ .

Runciman, op. cit., 11/161, Grousset, op. cit., 11/583—584, Nicholson, op. ٤، 1/418.

Nicholson, op. cit., 1/418. (٣)

(٤) ابن الأثير ، الكامل ٢٢٢ / ١٠ .

الصلبيون الأثارب<sup>(١)</sup> وعینوا علیها سیر آلان دمسخين<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم استقامت أحوال الرعية بأعمال حلب وجلبت اليها الأقوات<sup>(٣)</sup> .

قوى مركز بلدوبن الثاني إثر الصلح الذي عقده مع أمير حلب والذي مكنته من إعادة حدود إمارة أنطاكية إلى ما كانت عليه قبل عام (٥١٢ = ١١١٨ م) ، فقرر التحرك لقتال بلک وتخلص قلعة كركر<sup>(٤)</sup> التي كان الأخير يحاصرها آنذاك والتابعة لإمارة الرها ، وتقع على نهر الفرات بالقرب من خرتبرت ، ولدى وصول قوات بلدوبن الثاني إلى المنطقة عسكرت على الضفة الشرقية لنهر سنجحة – أحد فروع الفرات – تجاه معسکر بلک ، ودار القتال بين الطرفين ، يوم الأربعاء التاسع عشر من صفر ، (٥١٧ = ١١٢٣ م) ، فانهزم الصليبيون بالرغم من أن عدد قوات بلک كان أقل منهم ، وأسر بلدوبن الثاني ، وقتل عدد كبير من قواته ومقدميه ، كما نهيت خيامه ، ومن ثم تقدم بلک وفتح حصن كركر ، واعتقل بلدوبن في قلعة خرتبرت ، بمعية جوسلين وجاليران وبقيّة الفرسان الصليبيين الذين أسرروا عام (٥١٦ = ١١٢٢ م)<sup>(٥)</sup> .



(١) المصدر السابق ١٠ - ٢٣٢ ، ابن القلansi ، دمشق ص ٢٠٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٠/٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢ / ٢٤٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٣١/٢ ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوظة ٧٦/٢) .

Grousset, op. cit., 1/585.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٠/٢ .

(٣) ابن القلansi ، دمشق ص ٢٠٩ ، ابن الأثير ، الكامل ٢٣٢/١٠ .

(٤) كركر : حصن بين سيساط وخرتبرت (ياقوت ٤/٢٩٢) .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٠/٢ - ٢١١ ، الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٣ - ٢٣٤ .

اضطرب وضع الصليبيين إثر هذه الهزيمة إلى حد كبير ، لأنّ بـلـدوـنـ الثـانـيـ لم يكن ملك القدس فحسب وإنما كان وصيًّا على إمارتـيـ الرـهـاـ وأنـطاـكـيـةـ كذلك ، ومع ذلك فإنـ الكـيـانـ الصـليـبيـ لمـ يـهـوـ عـجـرـدـ أـسـرـهـ ، فاستمر الأمـيرـ جـفـريـ الـراهـبـ قـائـمـ بـإـادـارـةـ شـؤـونـ الرـهـاـ ، وقام البـطـرـيرـكـ برـنـارـدـيـ فالـنـسـ بـتـسيـيرـ أمـورـ أـنـطاـكـيـةـ ، بينما قـامـ الـكـنـدـ سـتـابـلـ يـوـسـتـاسـ جـارـنـيـةـ ، صـاحـبـ طـبـرـيـاـ وـصـيـداـ ، بـتـسيـيرـ أمـورـ بـيـتـ المـقـدـسـ ، وـعـنـدـمـاـ تـوـقـيـ حلـ محلـ وـلـيمـ دـيـ بـورـ<sup>(١)</sup> .

عمل بـلـكـ ، طـبـلـةـ الأـشـهـرـ التـالـيـةـ ، عـلـىـ تـقـوـيـةـ إـمـارـتـهـ وـإـضـافـتـهـ حـصـونـ جـدـيدـةـ إـلـيـهاـ ، كـيـ يـتـمـكـنـ مـنـ مـجاـهـيـةـ الصـلـيـبيـيـنـ وـتـحـوـيلـ المـعـرـكـةـ إـلـىـ الشـامـ . فـتـقـدـمـ إـلـىـ حـرـانـ وـحـاـصـرـهـ وـاستـولـىـ عـلـيـهـاـ فـيـ رـبـيعـ الـأـوـلـ<sup>(٢)</sup> ، وـمـنـ ثـمـ طـمـحـ لـلاـسـتـيـلـاءـ عـلـىـ حـلـبـ . وـكـانـ قـدـ بـلـغـهـ أـنـ صـاحـبـهـ - بـدـرـ الدـوـلـةـ سـلـيـمانـ بـنـ عـبـدـ الـجـبارـ - قـدـ سـلـمـ قـلـعـةـ الـأـتـارـبـ إـلـىـ الـفـرـنـجـ فـعـظـمـ ذـلـكـ عـلـيـهـ وـعـلـمـ عـجـزـهـ - أـيـ سـلـيـمانـ - عـنـ حـفـظـ بـلـادـهـ ، فـاشـتـدـتـ رـغـبـتـهـ فـيـ الـاستـيـلـاءـ عـلـيـهـاـ<sup>(٣)</sup> ، وـتـوـجـهـ إـلـيـهاـ فـيـ رـبـيعـ الـأـوـلـ إـلـىـ

= ابن القلانسي، دمشق ص ٢٠٩، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ١١١/٨، ابن خلدون، العبر  
٤٢٢ / ٤٢٣ .

Runciman, op. cit., 11/165, Grousset, op. cit., 1/587—588, Guillaume de Tyr,  
op. cit., 1/540—4541.

Grousset, op. cit., 1/588, Runciman, op. cit., 11/163, Nicholson, op. (١)  
cit., 1/421.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ٢٣٢/١٠ - ٢٣٤ ، ابن القلانسي دمشق ص ٢٠٩ ، ابن شداد ،  
الاعلاق ( مخطوطـةـ ١٧ـ بـ ) ، ابن العديم ، زـيـدةـ الـحـلـبـ ٢١٢ـ ٢ـ ، ابن خـلـدونـ ، الـعـبرـ  
٥ـ ٤ـ ٢ـ ٢ـ - ٤ـ ٢ـ ٣ـ ، ٤ـ ٩ـ ٠ـ ، ابن الشـعـنةـ ، التـقـيـبـ صـ ٢١٨ـ ، وـهـوـ يـخـطـيـهـ فـيـ اـسـتـبـدـالـ  
امـ بـلـكـ بـسـلـطـانـ شـاهـ ، وـرـبـماـ كـانـ هـذـاـ خـطـأـ مـنـ النـاسـنـ ، إـذـ يـذـكـرـ الـمـؤـلـفـ بـعـدـ ذـلـكـ كـلـ الـأـحـدـاتـ  
الـقـيـ شـهـدـهـاـ بـلـكـ ، ابن الفـراتـ ، تـارـيخـ ( مـخطـوـطـةـ ٢ـ ٧ـ ٦ـ - ٧ـ ٨ـ ) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ٢٣٢/١٠ - ٢٣٣ .

انتهائه من أمر حران . وكان يدرك أن جهاده للصليبيين لن يحقق أية نتيجة حاسمة ، ما لم يضم حلب إلى إمارته كي تكون له قاعدة في بلاد الشام ، كما حدث في عهد إيلغازي ، الذي تمكن بضم حلب إلى إمارته من تحقيق انتصارات عديدة ضد الصليبيين . وبيو كد هذا الرأي ما قاله بذلك لأحد أمراء حلب قبيل استيلائه عليها : « ما غرضي بحلب الملك ، إنما أريد أن أكشف الفرنج عنها » ، وأنا أعطيك عمداً أنني إذا دخلت حلب لا يكون لي هم إلا لقاء الفرنج وكسرتهم<sup>(١)</sup> . لذا جأ بذلك إلى استخدام العنف لتحقيق هذا الهدف في أقصر وقت كي يتفرغ لقتال الصليبيين ، ففرض عليها الحصار وأحرق غلتها واستولى على دوابها ، وقتل عدداً من الموالين لها في المناطق المجاورة ، وسبى نساءها وأولادها كي يلقي الرعب في قلوب الخليبين ، وأدى احراقه للغلال إلى انتشار الفلاء في المنطقة . وفي صباح الثلاثاء غرة جمادى الأولى ، تسلم بذلك مدينة حلب بالأمان بالاتفاق مع بعض أمرائها<sup>(٢)</sup> ، ونودي بشعار بذلك من عدة جهات ، وفي يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى ( ٥١٧ = ١١٢٣ م ) ، تسلم القلعة ونزل بها بعد يوم من مغادرة سليمان بن عبد الجبار ، فنظم أمورها ، وسير سلطان شاه بن رضوان إلى حران خوفاً من أن يثير المشاكل في حلب<sup>(٣)</sup> .

بعد استتباب الأمور بذلك في حلب بدأ بشن سلسلة من الهجمات على الواقع

(١) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٧٧ ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٢٣ - ٢٣٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١١ / ٢ - ٢١٢ ، ابن القلقansi ، دمشق ص ٢٠٩ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٤٨ / ٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٣١ / ٢ ، ابن العربي ، مختصر ص ٣٥١ - ٣٥٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤٩ / ٥ ، الغزي ، نهر الذهب ٨٥ / ٣ ، الطباخ ، تاريخ ٤٤٨ - ٤٤٧ ، ابن الفرات ، ( مخطوطة ٢ / ٧٧ - ٧٨ ) .

(٣) انظر الhamsh السابق .

الصلبيّة القريبة منها ، فتوجه إلى الباردة وهاجمها ، وأسر حاكمها الأسقف الذي كان شديد الأذى على المسلمين ، وقيده ووكل به من يحرسه ، وغادر المكان . إلا أن الأسقف سرعان ما تمكن من الهرب إلى كفر طاب . فقرر بذلك مهاجمة الحصن واسترجاع الأسقف وذلك في الثاني عشر من جمادى الآخرة<sup>(١)</sup> ، إلا أن نباً ورده مفاده أن بدوين الثاني وجولسرين وجاليران وابن أخيته تتكرىد ، وغيرهم من الأسرى المعتقلين يحب خرتبرت ، قد تمكنوا من الهرب بمساعدة الأرمن من أهالي البلد . فقد كان جولسرين محبوبياً من الأرمن ، ليس فقط لزواجه من امرأة أرمينية ، بل لإحسانه إليهم وكرمه في معاملتهم ، على العكس من معاملة سلفه بدوين الثاني التي سادها الاضطهاد والتنكيل ، فضلاً عن أن خرتبرت كانت تقع في منطقة أرمينية ، مما دفع أهلها إلى تدبير مؤامرة للاستيلاء على القلعة وإطلاق سراحه<sup>(٢)</sup> ، فتمكنوا من مbagتتها والسيطرة عليها « وأخذوا كل ما كان لبلك فيه » ، وكان جملة عظيمة . فقال جولسرين : كنا قد أشرفنا على الهلاك ، والآن فقد خلصنا والصواب أن نخفي ونحمل ما قدرنا عليه<sup>(٣)</sup> فرفض بدوين مغادرة الحصن . وأخيراً اتفق رأيهما على خروج جولسرين لطلب النجدة وحلقوه على أن لا يغير ثيابه ولا يأكل لها أو يشرب خمراً ، إلا بعد أن يجمع جموع الفرنج ويصل بهم إلى خرتبرت ويضمن

(١) ابن العديم ، زبدة الطلب ٢١٢ / ٢ - ٢١٣ ، العظيمي ، تاريخ ورقة ٢٠١ ( حاشية الزبدة ٢١٣ / ٢ ) ، ابن القلانسي دمشق ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، ابن الشحنة ، المنتخب من ٢١٨ ، وينطلي سبط بن الجوزي ( مرآة الزمان ١١١ / ٨ ) في الإشارة إلى أن بذلك قتل الأسقف ، إذ لم يرد ذلك في بقية المصادر ، ويشير ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٧٨ ) إلى أن بذلك ثار هروب الأسقف بقتل عدد كبير من أمرى الفرنج .

(٢) Runciman, op. cit., 11/163-164.

(٣) ابن العديم ، زبدة الطلب ٢١٣ / ٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٧٦ - ٧٨ ) .

حشد بذلك ، لدى سماعه بذلك ، قوات ضخمة في سرعة مدهشة<sup>(٢)</sup> وأسرع بالتقدم الى خربت ، فنزل عليها وفتحها عنوة في الثالث والعشرين من رجب (٥١٧ = ١١٢٣ م ) ، وقتل معظم من كان هناك من أصحابه – أي الأرمن – الذين كفروا نعمته ، ومن الصليبيين ، ولم يبق سوى كبار أسراء حيث سيرهم الى حران واعتقلهم هناك<sup>(٣)</sup> .

مضى جوسلين الى القدس وحشد عدداً من القوات الصليبية وتقدم بهم الى تل باشر وهناك سمع خبر فتح خربت عنوة ، فسار صوب حلب ليستغل فرصة غياب ذلك عنها ويدمر ما يستطيع تدميره انتقاماً وتشفيأ ، فاتجه الى بزاعاً وقطع أشجارها وأحرق المنطقة المحيطة بها ، ثم تقدم الى حلب من الجهة الشمالية وخرب المشاهد والبساتين ، وهزم جماعة من سكان المنطقة ، وقتل وسبى حوالي عشرين نمراً ، ثم رحل ونزل في الجانب الغربي وخرب مشاهده وبساتينه ونبش أحد الأضرحة وألقى فيها النار . وكان الحلييون يخرجون يومياً « ويقاتلونه أشد القتال فيخسر معهم في كل حركة »<sup>(٤)</sup> . وما لبث أن ترك

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٣/٢ .

Grousset, op. cit., 1/589—94, Runciman, op. cit., 11/163—65, Nicholson (٢)  
op. cit., 1/419—20.

(٣) ابن القلاني ، دمشق ص ٢٠٩ – ٢١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢١٣ ،  
ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٣ – ٢٣٤ ، ويختلط في القول بأن بلدوين الثاني هو الذي هرب  
إلى بلاد بدلاً من جوسلين ، ابن الوردي ، تتمة ٣١/٢ . ابن خلدون ، العبر ٥ / ٤٢٢ –  
٤٢٣ ، ابن القرات ، تاريخ (خطوطه ٧٦/٢ – ٧٧ ، ٧٨) .

Grousset, op. cit., 1/589—94, Nicholson, op. cit., 1/419—420, Runciman'  
op. cit., 11/163—165.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢١٤ – ٢١٥ .

المكان في مستهل رمضان ونزل منطقة السعدي وقطع أشجارها، وقتل عدداً من أهاليها . ورد القاضي ابن الحشاب ، المسؤول عن حلب ، على هذه الأعمال بأن أصدر أمراً، أفرأه مقدمو حلب ، بهدم حاريب الكنائس العائدة للنصارى وتحويلها إلى مساجد . وكان بذلك خلال ذلك كله غالباً عن حلب في ديار بكر. وخرج جوسلين في التاسع عشر من رمضان إلى الوادي والنقرة والأحص واستولى على ما يزيد عن خمسة فرس من أحد مواضع الخيول جنوب حلب «حق لم يبق في حلب من الخيالة إلا خمسون فارساً لهم خيل» كما استولى على عدد لا يحصى من البقر والغنم والجمال ، وقتل وبسي وخرب ومن ثم عاد إلى تل باشر<sup>(١)</sup> .

وخرج سيراً على دمسيخين - صاحب الأثارب - على رأس قوة من صليبيي أنطاكية واتجه نحو حلب واستولى على ثلاثة فرس ، وهي جل ما تبقى من خيل حلب ، كما نهب قافلة للغلال كانت قادمة من شيرز . وكان جوسلين آنذاك قد قطع الفرات صوب مقاطعة شبختان الواقعة جنوب ديار بكر وأغار على التركان والأكراد في تلك المقاطعة ، ونهب ما يزيد على العشرة آلاف رأس من الأغنام والخيول ، وبسي وقتل ، وخنق الأهالي بالدخان في المفارات ، وفتح المقابر وسلب الموتى أكفانهم . وفي حلب كان بعض جندها ، من سموا على خيولهم ، يخرجون مع اللصوص وبغيرون على معسكرات الصليبيين ويأمرون بعض جندهم ثم يعودون<sup>(٢)</sup> .

حشد بذلك ، خلال هذه الفترة ، عدداً كبيراً من المقاتلين ، ووصله ضفتكتين

(١) ابن العدين ، زبدة الحلب ٢١٤/٢ - ٢١٥ .

(٢) ابن العدين ، المصدر السابق ٢١٥/٢ - ٢١٦ .

والبرسقي – حاكم الموصل – على رأس قواتها ، ومن ثم عبر وحلقاًه الفرات ونزلوا على عزاز وحاصروها وفتحوا فيها بعض الثغرات حق سهل أمر فتحها ، وإذ ذاك تجمع الصليبيون وتوجهوا صوب المسلمين ليجلوهم عنها ، ودار القتال بين القريتين فانهزم المسلمون وتفرقوا بعد أن قتل وأسر عدد من أفرادهم ، فاضطر بذلك إلى إعادة تحصين بعض المواقع ليتخذها مراكز في عملياته ضد الصليبيين . فعم حصن الناعورة<sup>(١)</sup> وحصن المفارعة على شط الفرات . وهي تعزز شرعية حكمه لحلب تزوج بفريخنده خاتون ابنة رضوان في ذي الحجة عام (٥١٧ = ١١٢٤ م ) ، كما قبض فور وصوله ، على نائب بهرام داعي الباطنية في حلب وأمر بإخراجهم منها فباعوا أموالهم ورحالتهم وغادروها<sup>(٢)</sup> . وقام بإصلاحات إدارية شاملة ، وتمكن من القضاء على فوضى قطاع الطرق ، ونشر الأمن «وأقام الهيئة العظيمة » ، وتقدم بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً وحسم مادة أرباب الفساد<sup>(٣)</sup> . وبهذه الخطوات أمن بذلك النشاط الاقتصادي ، في حلب والمناطق المجاورة ، وجعلها عاصمة له في بلاد الشام وقاعدة مستقرة لتوجيه الضربات ضد الصليبيين . وكان قد تقل عنده عودته ببلدوين الثاني وبقية الأسرى الصليبيين من حرانت ، واعتقلهم في قلعة حلب<sup>(٤)</sup> .

وفي صفر من العام التالي (٥١٨ = ١١٢٤ ) ، وجه بذلك قوة من الأتراك إلى ناحية عزاز فاشتبكوا بالصليبيين وهزموهم وقتلوا منهم أربعين فارساً ورجالاً وغنموا أسلفهم ، وتمكن الآخرون من الهروب إلى عزاز وبينهم عدد

(١) الناعورة : موضع بين حلب وبالس ، ينتهى وبين حلب ثانية أميال (ياقوت ، مجمع البلدان ٤/٧٣٢) .

(٢) ابن العديم ، زينة الحلب ٢١٦/٢ .

(٣) المصدر السابق ٢١٧/٢ .

(٤) المصدر السابق ٢١٦/٢ - ٢١٧ .

كبير من الجرحي<sup>(١)</sup> .

وإذ كان بذلك ينتظر - في حلب - نتيجة القتال بين المسلمين والصلبيين ليحدد خطته ، بلغه - في صفر - أشياء عن حسان بن كمشتكين صاحب منبع دفعت بذلك إلى التذكر له ، وإرسال قوة من عسكره بقيادة ابن عمه حسام الدين مرثاش بن إيلغازي ، تذكرت من إلقاء القبض على حسان والاستيلاء على البلد ، إلا أن الحصن عصي عليهما حيث تكون عيسى أخو حسان من دخله وتنظيم أموره الدفاعية . وعوقب حسان على مرأى من أخيه لحمله على تسلیم القلعة ، ولكن هذا رفض قسليمها ، فأرسل حسان ليسجن في أحد الواقع . ورأى عيسى أن خير وسيلة للتخلص من حصار قوات بذلك هي التحالف مع الصلبيين واستدعائهم إليه ، فكتب إلى جوسلين يقول : « إن وصلتني وكشفت عن عسكر بذلك سلمت اليك منبع » ، وقيل إنه نادى بشعار جوسلين هناك<sup>(٢)</sup> . فمضى هذا إلى بيت المقدس وطرابلس وبقية الواقع الصليبية وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل ، وتقدم نحوه منبع ليجلي قوات بذلك عنها . وكان هذا قد التحق للإشراف بنفسه على الحصار ، وما أن اقترب جوسلين من منبع حتى توجه بذلك إليه ، تاركاً بعض قواته على الحصار ، والتقيا يوم الاثنين الثامن عشر من ربیع الأول ، ودار بين الفريقين قتال شديد ، أسر عن هزيمة الصلبيين ، فتباهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار « وحمل فيهم بذلك ذلك اليوم خسین حملة » ، يقتل فيهم ، ويخرج سالماً يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم . وعاد إلى منبع قبات مصلباً مبتلاً إلى الله تعالى لما

---

(١) المصدر السابق ٢١٦ / ٢١٧ - ٢١٨ ، العظيمي ، تاريخ ، ورقة ٢٠١ ظ ( حاشية الزيدة ٢١٨ / ٢ ) .

(٢) ابن العديم ، زيدة الحلب ٢ / ٢١٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٢ / ٨٣ ) .

جده على يده من الظفر بالفرنج »<sup>(١)</sup> .

وفي صباح اليوم التالي قام بذلك بقتل أسرى المعركة، ثم زحف نحو حصن منبع ليختار موضعاً لنصب المنجنيق . وكان قد عزم على استخراج ابن عمه حسام الدين مرتasha على حصار منبع ، والتقدم لإنجاد أهل صور على الساحل. الشامي بسبب مضائق الصليبيين لها واستنجاد طفتكتين به ، وبينما كان بذلك قائماً يأمر وينهي ويستعد للتوجه إلى صور إذ جاءه سهم من الحصن ، وقيل إنه كان من يد عيسى ، فوقع في ترقوته اليسرى ، « فانزعه وبصق عليه وقال: هذا قتل المسلمين كلهم »<sup>(٢)</sup> . ومات إثر ذلك ، ففرق عسكره ، وحمل هو إلى حلب ودفن فيها<sup>(٣)</sup> .



تمكن الصليبيون إثر مقتل بذلك من الاستيلاء على صور - التي كان قد عزم على إنقاذها - وبذلك غدت لهم السيطرة على الجهات الساحلية<sup>(٤)</sup> « فطمعوا

---

(١) زبدة الحلب ٢١٨/٢ - ٢١٩ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ورقه A. B. 247 ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٨٣/٢).

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢١٩/٢ .

(٣) المصدر السابق ٢١٩/٢ ، ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ابن العبري ، مختصر ص ٣٥٢ ، ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ورقه A. B. 247 أبو الفدا ، المختصر ٢٤٨/٢ - ٢٤٩ ، ابن الوردي ، تتمة ٣٢/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤٩٠ / ٥ ، الغزوي ، نهر الذهب ٨٦ / ٣ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١ / ٤٤٨ - ٤٥٥ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٨٣/٢) .

Cahen op. cit., pp. 297—298, Grousset, op. cit., 1/596—597, Ruuciman, op. cit., 11/165.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٧ ، ابن خلدون ، العبر ٤٩٠ / ٥ . Grousset, op. cit., 1/597.

وقدرت نفوذهم وأيقنوا الاستيلاء على بلاد الشام واستكثروا الجموع . وكانت صور أحسن البلاد وأمنها<sup>(١)</sup> . وهكذا أدى فتح هذا الموقع إلى تقوية مركز الصليبيين في الشام وإمدادهم بقاعدة بحرية ذات أهمية كبيرة في الهجوم والدفاع<sup>(٢)</sup> . وكان من الممكن أن يتفادى المسلمون هذه الخسارة لو بقي بذلك على قيد الحياة .

وبقتل بذلك انتهت مرحلة قيادة الأرaqueة لحركة الجماد والتي امتدت منذ سنة (٥١٣ = ١١١٩ م) حتى مطلع عام (٥١٨ = ١١٢٤ م) ، وشملت الفترة الأخيرة من حكم كل من إيلفازي وبلك ، بالرغم من أن الأخير لم تكن تخضع له الإمارات الأرتقية جميعاً ، بل حكم بعض أجزائها الشمالية مضافاً إليها حربان وحلب والمواقع المجاورة لها ، بينما حكم الأجزاء الأخرى أمراء آخرون . وقد أثرت السرعة التي قتل فيها بذلك في تغيير مجرى الأحداث في الجزيرة وببلاد الشام وأعطت الصليبيين الفرصة كي يتاحوا إلى الهجوم من جديد بعد أن اضطرب إيلفازي وبلك ، في أكثر الأحيان ، على اتخاذ مواقف الدفاع . ولو لا قيام البرسقي حاكماً للموصل (٥١٥ = ١١٢١ - ٥٢٠ = ١١٢٦)، ومن بعده زنكي (٥٢١ - ٥٤١ = ١١٢٧ - ١١٤٦ م) ، ببعض الجماد ضد الصليبيين وتحويل القيادة إلى الموصل ، لكان للصراع بين المسلمين والصليبيين وجة أخرى . وهكذا وضعت نهاية بذلك – وبشكل نهائي – حدأ لقيادة الأرaqueة . وقد تميزت هذه المرحلة بقيام كل من إيلفازي وبلك باستقطاب القوى الإسلامية في الجزيرة والشام سواء كانوا من الجندي أو المتطوعة ، التركان

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٧.

(٢) Grousset op. cit., 1/618.

وانظر ابن جبير ، رحلة ص ٢٧٧ .

والعرب ، المنتشرين في الجزيرة والفرات وشمال الشام ، أو من الوحدات السياسية التي يحكمها أمراء مستقلون في المناطق السالفة كحكم إرزن وشير ومحص ودمشق ، دون أن يقدم لهم السلامة أو نواهم في الموصل والمناطق القريبة ، أو حتى أمراء الأرaqueة الآخرون ، ما عدا أمير ماردين ، أية مساعدة مادية أو عسكرية . وفي كل الحالات كانت قوات التركان ذات الولاء العميق للأرaqueة ، هي القسم الأساسي التي اعتمد عليها هؤلاء كما تميزت هذه الفترة بتركيز كل من إيلغازي وبلك جهودهما ضد إمارتي الرها وأنطاكية ، باعتبارهما قريبتين من مركز الإمارة ، بينما كانت إمارتا طرابلس وبيت المقدس بعيدتين عن أهداف القتال . وقد سُنحت الفرصة لإيلغازي إثر معركة ساحة الدم أن يسقط أنطاكية ، ولكن انهاكه في توزيع قواته لتحقيق انتصارات جانبية والحصول على الفنائيم ضيّعت عليه هذه الفرصة ، بالرغم من أنه ظل يعمل على توجيه ضربة مباشرة لتلك الإمارة والاستيلاء عليها ، والتمهيد لذلك بخطوات جديدة كتجمیع المبالغ الازمة والتحالف مع بعض الأمراء في هذا السبيل ، إلا أن الهزيمة التي مني بها على أيدي الكرج عام (١٤٥٠ م = ١١٢٠ م ) ، وتحطم قواته ، أثر إلى حد كبير على تحقيق هذا الهدف <sup>(١)</sup> . أما بلك فقد تكون من توجيه ضربات قوية ضد الرها ، ولكن حصانة هذا الموقع وطبيعة جغرافيته البشرية – حيث يشكل الأرمن معظم سكان المنطقة – أدت إلى إنقاذهما من السقوط . كما استطاع بلك أن يوجه ضربة حاسمة ضد القوات الصليبية بقيادة جوسلين عند منبع ، كانت ستتيح له في الفالب فرض سيطرته على معظم الجهات الشمالية من الشام ، ولكن اهتمامه بفرض إرادته على بعض الواقع الإسلامية وضمه إلى إمارته ، لكي يحابه الصليبيين بإماراة موحدة ذات

---

(١) ابن العديم ، زينة الحلب ٢٠٠/٢ .

إمكانيات واسعة ، هذا الاهتمام ، لم يخلص الصليبيين من ضربات أخرى أشد على يديه فحسب ، بل إنه عجل بمقتله في ظروف مشابهة لتلك التي حدثت لزنكي عام (١١٤٦ = ٥٤١ م ) ، لدى حصاره قلعة جمبر على الفرات ، وانتهت باغتياله .

### مرحلة الانزال (١١٤١ - ١١٢٤ = ٥٤١ - ٥١٦ م ) :

بدخول حلب تحت طاعة حسام الدين تراثش أمير ماردين (٥١٦ - ١١٤٧ = ٥١٨ - ١١٥٢ م ) عام ١١٥٢ ، دخل الأرaqueة مرحلة جديدة في علاقتهم مع الصليبيين بدأت بانسحاب تراثش من ميدان الصراع وتطورت ، بظهور زنكي عام (١١٢٧ = ٥٢١ م ) ، إلى انصراف الأرaqueة التام عن قضية الجهاد وإنها كهم بالأمور الداخلية لإمارتهم ، وبالنزع السلي المستمر ، سواء فيما بينهم أو مع القوى الإسلامية المنافسة وبخاصة زنكي . وبذل نستطيع أن نطلق على هذه المرحلة اسم (مرحلة الانزال) ، وقد استمرت هذه المرحلة حتى مقتل زنكي عام (١١٤٦ = ٥٤١ م ) ، واستغرقت معظم الفترة التي حكم فيها تراثش .

تقدماً تراثش ، الذي كان يصطحب بذلك<sup>(١)</sup> ، إلى حلب حاملاً جثة ابن عمه ، فوصلها في العشرين من ربيع الأول « ودخل القلعة ونصب علمه ونادي الناس بشعاره »<sup>(٢)</sup> ، بينما تقدم سليمان بن إيلغازي أمير ميافارقين إلى خرتبت وفرض

(١) يحيطى سبط بن الجوزي ( مرآة الزمان ٨ / ١٢ ) في الإشارة إلى أن سليمان بن أرتق هو الذي صعب بذلك ، بينما كان سليمان قد توفي عام ٤٩٨ م .

(٢) ابن العديم ، زينة الحلب ٢٢٠/٢ ، الفزوي ، نهر الذهب ٣/٦٨ ، الطباخ ، تاريخ حلب ٤٥٠/١ - ٤٦٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطه ٢/٤٨ - ٨٥ ) .

سيطرته على حصنون بذلك في المنطقة وهي نيف وخمسون موقعاً، كما اتجه داود ابن سقمان أمير كيما فاستولى على حصن بالو العائد لبلك وأطلق حسان بن كمشتكين من الاعتقال حيث عاد إلى منجع<sup>(١)</sup>. وهكذا تم على أيدي أمراءبني أرتق تقويض البناء الذي شيده بذلك بعد صراع شاق.

ويصف ابن العديم كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر دخول ترثاش، فيقول : « فأما ترثاش فإنه لما ملك حلب ، ألهأه الصبا واللعب عن التشيير والجد والنظر في أمور الملك ، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك ، واستوزر أبا محمد بن الموصول ثم عزله في رجب - من نفس العام - ... وسير إلى حران فحمل منها سلطان شاه بن رضوان ، وكان بذلك قد أسكنه بها ، فاعتقله بدار بقلعة ماردين<sup>(٢)</sup> ». ولكن هذا استطاع أن يهرب ويلتجئ إلى داود بن سقمان في حصن كيما . وفي أواخر ربیع الأول خرج ثائب جوسلين من الراها على رأس قوة من الصليبيين أغارت على إقليم شبختان ، في ديار بكر ، ونبته ، فتصدى لها عمر الخاص ثائب ترثاش ، بقوة قوامها ثلاثة فارس وهزماها وقتل قائدها وعدداً كبيراً من أفرادها ، وغنم ما معهم وأرسل رؤوس القتلى والفنائمة إلى ترثاش في حلب<sup>(٣)</sup> .

وفي مطلع جادى الأولى (٥١٨ = ١١٢٤ م ) ، جرت مفاوضات بين ترثاش وجوسلين وحكام بيت المقدس حول إطلاق سراح بلدوبن الثاني ، انتهت

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢٢٠ ، ابن الأثير ، الكامل / ١٠ / ٢٣٦ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان / ٨ / ١١٢ ، أبو الفدا ، المختصر / ٢ / ٢٤٩ - ٢٤٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٣٢ / ٢ .

(٢) زبدة الحلب / ٢٢٠ / ٢ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢٢٠ / ٢ - ٢٢١ .

بموافقة تراثش على إطلاق سراحه مقابل التنازل له عن الآثار و زردا والجزر وكفرطاب وعازز ، وتقديم مبلغ قدره ثمانون ألف دينار ، يسلم عشرون ألفاً منها مقدماً . وحلف بدوين على ذلك ، وكان أبو العساكر سلطان بن منقذ أمير شيزر هو الوسيط في تلك المفاوضات ، وبعث بأولاده وأولاد إخوته إلى حلب رهائن عن بدوين . وقد أضيف إلى بنود الصلح – كذلك – أن يقوم بدوين الثاني بابعاد دبيس بن صدقة ، أميربني مزيد في الحلة ، عن قلعة حلب<sup>(١)</sup> . وكان هذا قد هرب من العراق إثر خلافه مع الخليفة المسترشد العباسي ، واستجبار بصاحب قلعة جعبر فأجراه ، وكاتب من هناك جماعة من أهالي حلب ، وأرسل إليهم مبلغاً من المال ، وطلب منهم تسلیم البلد إليه ، ولكن رئيس حلب ، فضائل بن صاعد بن ربيع ، كشف هذه المؤامرة ، وأطلع تراثش على تفاصيلها ، فقبض عليهم وعددهم وشنق بعضهم وصدر البعض الآخر<sup>(٢)</sup> .

أطلق تراثش بدوين الثاني من معقله ، وأحضره إلى مجلسه « فأكلا وتشاربا وخلع تراثش عليه قباءً ملكياً – وحذاها – وأعيد إليه الحصان الذي كانت أخذته منه بلئ يوم أسره » فركبه بدوين وسار إلى شيزر يوم الأربعاء الرابع من جمادى<sup>(٣)</sup> . وبقي هناك محتجزاً لدى أميرها لحين حضور جماعة من أمراء

(١) المصدر السابق ، ٢٢١/٢ - ٢٢٢ .

Grousset, op. cit., 1/623—25.

Runciman, op. cit., 11/171—173, Nicholson, op. cit., 1/423—25.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٢١/٢ - ٢٢٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٢٢/٢ ، ابن منقذ ، الاعتيار ص ١٠٣ - ١٢١ ، ١٢٠ .

Runciman, op. cit., 11/172,

الصلبيين ليكونوا رهائن على تنفيذ ما التزم به تجاه ترثاش<sup>(١)</sup> ، كما حل العشرين ألف دينار التي تم الاتفاق على تسليمها مقدماً ، ومن ثم أطلقه أمير شizer من السجن في السابع عشر من رجب (٥١٨ = ١١٢٤ م) وأحسن إليه ، ولكن بلهودين الثاني ما لبث أن نقض ميثاقه وأرسل إلى ترثاش يقول « البطريرك الذي لا يمكن خلافه سأني عما بذلت وما الذي استقر » فحين سمع حديث عزاز وسلم حصنها مني ، أبي وأمرني بالدفع عنها ... وقال: إن خطبتيك تلزمني ، ولا أقدر على خلافه<sup>(٢)</sup> وكان بلهودين الثاني مجرد وصي على أنطاكية ولم يكن من حقه التنازل عن شيء من أراضيها التي تعتبر ملكاً لبوهيموند الثاني<sup>(٣)</sup> . إلا أن هذا لم يكن يتعدى النواحي الشكلية التي كان بإمكان بلهودين تجاوزها باعتباره الحاكم الفعلي لأنطاكية ، مما يرجح أن الرسالة التي بعثها لترثاش لم تكن سوى حيلة تذرع بها بلهودين لنقض الميثاق ، كما أوضح ذلك مدى قصر نظر ترثاش وتورطه في إطلاق سراح بلهودين دون ضمانات سياسية ونقدية مؤكدة .

ومن ثم ترددت الرسل بين الطرفين دون جدوى . واتصل دبليس بن صدقة بلهودين وجوسلين بواسطة الأمير سالم بن مالك صاحب قلمة جمبر وأطعمها بمحلب لكون أهلها شيعة وأنهم متى رأوا دبليساً سلموا اليه البلد باعتباره على مذهبهم ، وبذل لهم على مساعدته بذلاً كثيرة ، وقال لهم: « إبني أكون هنا

(١) والرهان هـ إيفيت ابنة بلهودين الثاني وابن جوسلين وعشرة آخرين من أبناء الصليبيين .

انظر Runciman, op. cit., 11/172.

(٢) ابن العديم ، زبدة الخطب ٢٢٢/٢ - ٢٢٣ .

Runciman, op. cit., 11/172. (٣)

— أي في حلب — ثانية عنكم مطیعاً لكم<sup>(١)</sup> . ولم يكن دبیس يرى أي مانع من التحالف مع الصليبيين بما عرف عنه من كره للقوى السنّية وعداء مستمر للخليفة العباسي والسلطان السلاجوقى<sup>(٢)</sup> . وقد تكون من التوصل مع الصليبيين إلى اتفاق تكون حلب بمحبته له ، أما الأموال فتكون لهم فضلاً عن بعض الواقع القريبة من حلب . وما أن تم هذا الاتفاق حق تقدم دبیس إلى مرج دابق فقصدى له ترثاش وهزمه<sup>(٣)</sup> .

غادر ترثاش حلب ، إثر نقض الصليبيين لعهدهم معه ، وتوجه إلى ماردين ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلفازى ويجمع العساكر<sup>(٤)</sup> . وبقي بنو منقد رهائن في قلعة حلب ، وأولاد الصليبيين لدى صاحب شيزر ، وظلت الرسل تتعدد بين ترثاش وبلدوين الثاني ، إلى أن عادت في الثامن عشر من شعبان لتعلن عن

(١) ابن الأثير ، الكامل / ١٠ - ٢٣٧ ، أبو الفدا ، المختصر / ٢٤٩ .

Grousset, op. cit., 1/625.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢ - ٢٢٣ ، ابن منقد ، الاعتبار ص ١٠٣ ، ١٢١ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٨٤/٢ - ٨٥ ) .

Grousset op. cit., 1/625—626, Gibb, Zengi and The Full of Edesse in Setton, op. cit.. 1/452.

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢ - ٢٢٣ . وفي رواية ابن الأثير ، الكامل / ١٠ ، أن ترثاش رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج ، وكان رجلاً يحب الدعوة والرافاهية . وهذا هو الأرجح ، ويؤيدوه Gibb, op. cit., 1/452. حيث يشير إلى أن ترثاش انسحب من حلب بعد أن يشن من الدفاع عنها ، وجعل على حراستها قوة قواماً خمسة فارس ، فضلاً عن سكانها .

والواقع أن عدم رجوع ترثاش ثانية إلى حلب إلى حين استيلاء البرسقي عليها ، يعطي دليلاً واضحًا على ما أورده الكامل . وينسب ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٨٥/٢ - ٨٦ ) ، السبب الرئيسي لعودة ترثاش إلى التخوف من استيلاء أخيه سليمان على البلاد المجزرة .

نقض المهدنة وخروج بلدوبن الى ارتاح قاصداً النزول على حلب<sup>(١)</sup>.

غادر بلدوبن ارتاح ونزل على نهر قويق وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل الى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان. وخرج دبليس وجوسليين من تل باشر وقصدوا ناحية الوادي وأفسدا مزروعاته؛ وقدرت الخسائر بما يقرب من مائة ألف دينار. ومن ثم رحلا فنزلوا مع بلدوبن على حلب واجتمع بهم هنالك الملك سلطان شاه بن رضوان، وكان عيسى بن سالم بن مالك في صحبة دبليس، كما اجتمع بهم ياغي سيان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب بالس، وفرضوا الحصار على حلب من شقي جهاتها<sup>(٢)</sup>، «وطنوا أنفوسهم على المقام الطويل»، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكونها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر<sup>(٣)</sup>، وراحوا يزاحفونها ويقطعون أشجارها، كما خربوا مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور الموتى من المسلمين وسلبواهم أكفانهم، وعذروا الى من لم تقطع أو صالحه منهم، فربطوا في أرجلهم الحال وسبواهم أمام أنظار المسلمين وجعلوا يقولون: «هذا نبيكم محمد»، «وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا: يا مسلم أبصر كتابك؟ وتبه الفرنجي بيده وشهد بخيطين وربطه بأسفل البرذون، فظل هذا يروث عليه، وكلما أبصر - الفرنجي - الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً»<sup>(٤)</sup>. وراح الصليبيون يئلون

(١) ابن العدين، زبدة الحلب ٢٢٣/٢.

(٢) المصدر السابق ٢٢٣/٢ - ٢٢٥، ابن الفرات، المصدر السابق ٨٥/٢ - ٨٦.

(٣) ابن الأثير، الكامل ١٠ / ٢٣٧ - ٢٣٨، ابن القلافسي، دمشق ص ٢١٢، ابن خلدون، العبر ٥ / ١١٢ - ١١٣.

(٤) ابن العدين، زبدة الحلب ٢ / ٢٢٣ - ٢٢٥، ابن شداد، الأعلاق (قسم حلب المنشور) ص ٤٥، ابن الشحنة، المتخب ص ٨٢، ابن الفرات، تاريخ (مخطوطه ٨٥/٢) ٨٦ - .

بكل من يقع بأيديهم من المسلمين ، فاضطرر هؤلاء الى مجاراةهم بالمثل ، وأخذت جماعات من حلب تخرج سراً للتغیر على معسكرات الصليبيين فقتلت وتأسر . وبالرغم من ذلك كله كانت الرسل تتعدد بين الطرفين للتوصل الى اتفاق ولكن دون جدوى . الى أن ضاق الأمر بالمسلمين<sup>(١)</sup> ، وكان المدبر لأمور حلب آنذاك هو بندر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرثقي وجاءة من كبار المسؤولين ، فاتفقوا على إرسال وفد من سادة حلب لاستدعاء تراثش . فخرجوا ليلاً ومضوا الى ماردين ليستفيدوا به ، وعندما وصلوا الى هناك كان تراثش منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان صاحب ميافارقين الذي توفي في رمضان عام (٥١٨ = ١١٢٤ م) ، الأمر الذي دفعه الى إهمال أمر حلب ، وكانت الرسل قبل ذلك ، قد ترددت بينه وبين البرسقي حاكم الموصل لتوحيد جهودهما في قتال الصليبيين وإجلائهم عن حلب ، ولكن وفاة أخيه - كما سبق - ورغبةه في السيطرة على بلاده شغلته عن هذا الأمر . وبقي الحلبيون في ماردين فترة من الوقت يخوضون تراثش على التوالي الى حلب وهو يمددهم وينهيم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء ، فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه ، واللبيون يكفونه أمر الصليبيين<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن العديم ، المصدر السابق ، ٢٢٥/٢ ، ابن القلansi ، دمشق ص ٢١٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٤٩/٢ . ابن الوردي ، تتمة ٣٢/٢ ، ابن خلدون ، العبر ١١٢/٥ - ٤٩٠ ، ١١٣ - ٤٩١ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٢١٨ - ٢١٩ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ) .

Nicholson, op. cit., 1/423—424.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢ / ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ) .

Runciman, op. cit., 11/173, Gibb, op. cit., 1/453, Grousset, op. cit., 1/627—631.

ساءت الأحوال في حلب ، وقلت الأقوات بها وانتشر المرض فيها وضعف  
 جندها عن القتال بسبب الجوع والمرض ، واتبع بعض مسؤولي حلب سياسة  
 ظالمه تجاه الحلبين ، فصادروا أملاكهم وسلطوا الجندي عليهم<sup>(١)</sup> . وظهر  
 للحلبين من تراث الشون والعجز<sup>(٢)</sup> ، فكتب أحدهم إلى الوفد في ماردين  
 يخبره بما آل إليه أمر حلب من الجوع والمرض وأكل الميتات ، فوقع هذا  
 الكتاب بيد ترشاش فغضب وقال : « انظروا إلى هؤلاء يتجلدون على ويقولون :  
 إذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم ، ويفرون بي حتى أصل في قلة » ،  
 وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة<sup>(٣)</sup> ، ثم أمر برراقبة الوفد كي لا يغادر  
 ماردين للاستجاد بأمير آخر ، ولكن أعضاء الوفد تمكنوا من تدبير وسيلة  
 للهرب والاتجاه إلى الموصل للاستجاد بالبرسي<sup>(٤)</sup> ، فوافق على إنجادهم لخده  
 القديم على الأرادة ورغبتة في قتال الصليبيين واعتقاده بضرورة ضم حلب إلى  
 الموصل لتحقيق هذا الفرض . وشرط على الحلبين مسبقاً أن يسلموا قلعة  
 حلب لنوابه ، كي يحتمي بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين ، فأجابوه إلى  
 طلبه . ومن ثم تقدم على رأس قوات ضخمة ، انضم إليها طفتكن وخبرخار  
 أمير حمص ، وما أن اقترب البرسي من حلب حتى أدرك الصليبيون عدم  
 جدواي بقائهم على حصارها ، خوفاً من عاقبة اصطدامهم بقوات البرسي وحلفائه ،  
 ومن ثم تفرقوا إلى بلادهم . فتقىدم البرسي إلى حلب حيث خرج أهلها

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب . ٢٣٠/٢

(٢) ابن الأثير ، الكامل . ٢٣٧/١٠ - ٢٣٨

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب . ٢٢٦/٢ - ٢٢٧

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب . ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ) / ٢ . ٨٥ - ٨٦

لاستقباله<sup>(١)</sup>.

بدأ البرسي في حلب سلسلة من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية، أعادت الاستقرار والرفاية لسكان المنطقة<sup>(٢)</sup>. ومن ثم تسلم من شيزر رهائن الصليبيين الذين احتجزوا هناك لحين تنفيذ بنود المعاهدة، التي تم عقدها بين قرتاش وبلدوين الثاني<sup>(٣)</sup>.

ونظراً لأنهاك قرتاش آنذاك بتوسيع رقعة إمارته في ديار بكر، ورغبة في تجنب الصراع مع القوى المتحركة في شمال الشام، فإنه لم يحرك ساكناً أثر استيلاء البرسي على حلب، مما يشير إلى مدى قصر نظره وعدم رغبته في إعطاء ضمان استراتيجي لإمارته يمكنه من مجاهاة الصليبيين والذي تشكل حلب أحد عناصره الأساسية. أما أرادة حلب، بزعامة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار، فقد أخذوا يستغلون الفرصة لإعادة سيطرتهم على المدينة

---

(١) ابن القلانيسي، دمشق ص ٢١٢ ، ابن الأثير، الكامل ١٠ / ٢٣٧ - ٢٣٨ ، أبو الفدا، المختصر ٤٩٢ / ٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٣٢ / ٢ ، ابن خلدون ، العبرة ١١٢ / ١١٣ - ٤٩٠ ، القرماني ، تاريخ ص ٢٧٨ ، الفزي ، نهر الذهب ٣ / ٨٦ - ٨٧ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١ / ٤٥٥ - ٤٦١ ، ابن الغوات ، ( مخطوطة ٢ / ٨٨ ) .

Runciman, op. cit., 11/173, Gibb, op. cit., 1/453, Grousset, op. cit., 1/627-31.  
ويورد كل من سبط بن الجوزي ( مرآة الزمان مخطوطة ٨ / ١١٣ - ١١٤ ) وابن تفري بردي، الذي ينقل عنه ( النجوم الزاهرة ٥ / ٢٢٨ ) رواية لا أساس لها من الصحة وهي أن سقمان بن أرتق هرب من حلب فور وصول البرسي فبلغه هذا إلى منيذ وقتله هناك . . . وعلمون أن سقمان بن أرتق كان قد توفي منذ عام ٤٩٨ هـ . ولعلها يقصدان بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ابن أرتق ، علماً بأن هذا بقي حياً حتى أحداث عام ٥٢٢ هـ .

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب ٢٣٠ / ٢ ، وانظر المأمور السابق.

Grousset, op. cit., 1/631, (٣)

والمناطق المجاورة، وتمكنوا في الوقت نفسه من إزالة بعض الضربات بالصلبيين بواسطة القوى التركانية التي تدين لهم بالوفاء.

ففي عام (٥٢٠ = ١١٢٦ م)، وبينما كان سليمان وابن عمه شهريار بك متوجهين إلى المعرة على رأس قوة من التركان، التقوا بجيش صليبي بقيادة جفري بلانك، صاحب بسرفوت<sup>(١)</sup>، فهزمه وقتلوا منه مائة وخمسين جندياً وأسرموا قائده جفري الذي أودع في سجن حلب<sup>(٢)</sup>.

وعندما توفي مسعود البرسيقي، الذي خلف أبياه على حكم الموصل وحلب، عام (٥٢١ = ١١٢٧ م)، اضطربت الأمور في حلب لضياع السلطة الشرعية فيها آنذاك واستمر الأمر كذلك، إلى أن قدم إليها الأمير (قتلغ ابنه) بتوصيع من مسعود بن البرسيقي قبيل وفاته يأمر نائبه السابق بتسلیم حلب إليه، فأذعن لهذا للأمر وسلم مقاييس الأمور (لقتلغ ابنه)، ولكن ما أن استقر النائب الجديد في منصبه حتى اتبع سياسة ظالمة، فصادر الناس واستولى على الترکات واعتقل المناوئين. فاستغل سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، الذي كان مقيماً بمدينة حلب آنذاك، هذه الفرصة وأعلن الثورة ضد (قتلغ ابنه)، فانضم إليه عدد كبير من سكان المدينة ونادوا بشعاره وقاموا، ليلة الثلاثاء الثاني من شوال، بالقبض على كل من كان بالبلد من أنصار «قتلغ»، الذين كانوا منهمكين باللهو والعبث صبيحة العيد. وبعد أن أمن سليمان وأنصاره المدينة، زحف إلى القلعة وفرض الحصار عليها، فوصل إلى حلب آنذاك ابن كمشتكين صاحب منبع وحسن صاحب بزاعة للتتوسط في الصلح، فأخفقا في ذلك. ولما علم الصليبيون

---

(١) بسرفوت: حصن من أعمال حلب في جبال بني علم (ياقوت، معجم البلدان ٦٢١/١).

(٢) ابن العديم، زيدة الحلب ٤٣٢/٢.

بما يحدث في حلب تقدم أميراً الراها وأنطاكية على رأس قواتها لاستغلال الفرصة . ولكن تقديم الأموال إليها من قبل سكان المدينة ، فضلاً عما كان سائداً بينها من عداء ومنافسة ، أدى إلى انسحابها وتخلص حلب من خطر محقق . وقام الثوار بحفر خندق حول القلعة ليمعنوا الخارجين منها والداخلين إليها . ظاهر البلد ، كما قاموا بإحراء بعض جوانب القلعة ليتسنى لهم التسلب إليها . وانضم إليهم الملك إبراهيم بن رضوان السلاجوقى . وقد استمر الحصار حتى منتصف ذي الحجة عام (١١٢٨ = ٥٢٢ م ) ، حيث أرسل زنكي - حاكم الموصل الذي كان قد حصل من السلطان السلاجوقى على مرسوم بحكم الموصل والجزيره والشام - وفداً من أمرائه حاملين مرسوم السلطان السلاجوقى ، فتفاوضوا الوفد مع الطرفين المتنازعين ، وتم الاتفاق على ضم حلب إلى ممتلكات زنكي ، ومن ثم قدم هذا إلى حلب فقبض على بعض زعمائها القدامى ، وتكون الآخرون من الفرار<sup>(١)</sup> . وقضى بذلك على بقايا النفوذ الارتقى في حلب بشكل نهائى<sup>(٢)</sup> .



ازدادت عزلة الأرaque عن أحداث الصراع بين المسلمين والصلبيين إثر قيام زنكي بضم حلب إلى الموصل ، وتشكيله إماراة إسلامية ذات إمكانيات

(١) ابن العديم ، زينة الحلب ٢٤٧ / ٢ - ٢٤٣ ، ٢٣٨ - ٢٤١ ، ٢٤٣ . ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ابن القلansi دمشق ص ٢١٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١ / ٣٨ - ٣٩ . الغزي ، نهر الذهب ٣ / ٨٧ - ٨٨ ، الطباخ ، تاريخ حلب ١ / ٤٧١ - ٤٧٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطه ٢ / ١١٤ ) .

Stevenson, op. cit., P. 119. Gibb, op. cit., 1/453, Grousset, op. cit., 1/561.

(٢) انظر الفصل الثاني .

عسكرية واقتصادية وبشرية واستراتيجية ، تكون بها - فضلاً عن كفاءاته الشخصية - من تزعم حركة الجهاد في الوقت الذي خلا فيه الشام للصلبيين « من جميع جهاته من رجال يقوم بنصرة أهله ، فلطف الله بال المسلمين بولادة زنكي »<sup>(١)</sup> . ورغم عزلة الأرaqueة فإنهم حاولوا مساعدة زنكي واستغلال الانتصارات التي حققها ضد الصليبيين ، والاضطراب الذي عم إمارة الراها في بعض الفترات ، وذلك بالحصول على بعض المكاسب في ديار بكر .

في عام (٥٣١ = ١١٣٦ م ) ، اضطربت أحوال الراها إثر مصرع بوهيموند الثاني أمير أنطاكية ، فاستغل تمرّاث ذلك واستولى على بعض ممتلكات الراها<sup>(٢)</sup> . وفي العام التالي قدم أرaqueة حصن كيفاما ساعدتهم العسكرية لزنكي في صراعه مع التحالف البيزنطي الصليبي في شمالي الشام ، حيث تقدم قرا ارسلان بن داود بن أرقق على رأس خمسين ألف من التركان<sup>(٣)</sup> وعبر بهم الفرات لتعزيز قوات زنكي ضد أعدائه ، وكان نبأ تحرك هذه القوات من العوامل التي دفعت القوات البيزنطية المتحالفة مع الصليبيين إلى الجلاء عن الشام<sup>(٤)</sup> ، وكانت هذه هي أول مرة تسنم فيها إمارة حصن كيفا الأرaqueية في الجهاد ضد الصليبيين . وفي عام (٥٣٣ = ١١٣٨ م ) استغل الأرaqueة الفشل

(١) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٤٨ .

Runciman, op. cit, 11/201, Michel le Syrien (chronique) (ed. by Chabot), (٢) 111/244.

(٣) لا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه ، إذ ليس من السهل تجميع هذا العدد ، وربما جاءت هذه المبالغة بسبب صياغة الروايات على شكل نبأ ورد إلى الشام عن تحركات هذه القوات ، وربما قد منه كذلك إرهاب العدو قبل انسحابه .

(٤) القلانسى ، دمشق ٢٦٦ ، الفارقى ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٢١ آ ) ، ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٦٨/٢ ، العظيمى ، تاريخ ورقة ٢١٣ و ، ( حاشية الزبدة ٢١٣/٢ ) .

الذي مني به التحالف البيزنطي الصليبي على يد زنكي ، وقاموا ، بقيادة ترثاش وداود أمير حصن كيفا ، بسلسلة من الغارات على بلاد الرها<sup>(١)</sup> ، واستطاع ترثاش أن يزعم الصليبيين قريباً من الرها ويستولي على بعض ممتلكاته<sup>(٢)</sup> .

وقد اضطر الأرaqueة . إزاء توسيع زنكي وتهديداته ، إلى التحالف مع صليبي الرها . فقام قرا أرسلان ، أمير حصن كيفا ، بعقد تحالف مع جوسلين أمير الرها ، مما عرضه لهجوم قام به زنكي على ممتلكاته في أواخر عام ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م ) . ولكن حرص زنكي على إسقاط الرها ، وعدم تضييع الفرصة في الصراع مع الأرaqueة دفعه إلى عقد صلح معهم والتوجه ، من ثم ، لحصار ذلك الموقع الصليبي الهام<sup>(٣)</sup> .

وبالرغم من أن إسقاط الرها عزز مركز زنكي في ديار بكر إلى حد كبير ، إلا أن ما أفاده الأرaqueة من ذلك لا يقل أهمية عمّا أفاده زنكي . فقد تخلصوا من عدو مجاور توالى تهديدهاته في المنطقة طيلة ما يقرب من نصف قرن ، وكان عاماً مهماً في عدم قيام الأرaqueة بتوسيع ممتلكاته في الجهات الشالية والشالية الغربية من الجزيرة . وقد استطاع صليبيو الرها خلال هذه الفترة أن يسيطرؤا على الجهات المتدة من نواحي ماردين إلى الفرات ،

(١) الفارقي ، ١٢١ ب ، Stevenson, op. cit., P. 142, Gibb, op. cit., 1/459.

(٢) الفارقي ، المصدر السابق ، نفس الورقة .

(٣) ابن العديم ، زبدة الطلب ٢٧٦/٢ - ٢٧٩ .

Gibb, op. cit., 1/466.

Runciman, op. cit., 11/235, Nicholson, op. cit., 1/446, Grousset, op. cit., 11/178.

وخلص لهم في هذه المنطقة عدد من المواقع والمحصون ، كسروج والموزر والبيرة وتل موزن وتل حوران وإقليم شبختان جنوبى ديار بكر ، وأوغلو فى قلب الجزيرة وأضحوا يشكلون حاجزاً يفصل بين مسلمي الشام والجزيرة ، كما سيطروا على الطرق التجارية الممتدة من الموصل الى حلب ومن بغداد الى بلاد سلاجقة آسيا الصغرى<sup>(١)</sup> ، فأضروا بصالح الأراتقة التجارية ، فضلاً عن قيامهم بهجمات مستمرة على مختلف أنحاء الجزيرة بلفت آمد وماردين ونصيبين والرقة<sup>(٢)</sup> .

أعقب سقوط الرها استسلام كل المواقع الصليبية شرقي الفرات على يد زنكى<sup>(٣)</sup> ، تلك المواقع التي كانت تحد إمارات الأراتقة ، وتشكل خطراً مباشراً عليها . وفضلاً عن ذلك حصل الأراتقة على جزء من الفنية وذلك عندما ترك زنكى حصار البيرة ، بسبب عصيان قام في الموصل ضده ، فاعتقد صليبيوها أن زنكى لا بد وأن يعود اليهم ، فأرسلوا إلى ترناش في ماردين يستدعونه ليسلموا إليه الحصن ، فتقدم هذا وتسلم الحصن وأثاب فيه ابنه<sup>(٤)</sup> . وقد شك زنكى بسياسة ترناش وأنه عقد تحالفاً مع حليفه السابق جوسلين ، مما دفعه إلى مهاجمة ترناش والاستيلاء على بعض ممتلكاته ، ومن ثم اتجه لقتال حليف آخر للصليبيين هو سالم بن مالك العقيلي صاحب قلعة جعبر على الفرات

(١) Stevenson, op. cit., P. 153. Grousset, op. cit., 1/394, 11/175.

(٢) ابن الأثير ، الباهر ص ٦٧ .

Grousset, op. cit., 11/175.

Baldwin, The latiu States, in Setton 1/530—531. (٣)

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٣٦ آ ب ) .

Grousset, op. cit., 11/192.

حيث أُغتيل هناك عام (١١٤٦هـ = ١٧٣١م) <sup>(١)</sup>. وهكذا تخلص الأرaqueة من منافس خطير ، كان عاملًا رئيسيًّا في انعزالهم عن حركة الجهاد ضد الصليبيين ، وفتح الطريق أمامهم ثانية لكي يسهموا في هذه الحركة بأسلوب ملائم جديد .

إن أبرز السمات التي تميز مرحلة الانعزال ؛ التي تخلى فيها الأرaqueة عن دورهم القيادي ، هي :

١ - ظهور زنكي كنائب عن السلاجقة في الموصل والجزيرة وشمال الشام وتولية قيادة الجهاد ضد الصليبيين . وقد تميزت قيادته بالفردية إذ لم يعط مجال التحالف المتكافىء مع بقية أمراء المسلمين في الجزيرة والشام مما كان سيتيح للأرaqueة فرصة الإسهام في الجهاد عن طريق التحالف ، كما حدث من قبل ، أو الإمدادات ، كما سيحدث فيما بعد . ولكن زنكي - على العكس من ذلك - كان هدفه الأول ضرب الإمارات الإسلامية في تلك المناطق ثم توحيدها ومن ثم مواجهة الصليبيين . وقد أدت هذه السياسة إلى تأليب أولئك الأمراء ضده وعلى رأسهم بنى أرتق ، وكان هذا عاملًا أساسياً في انسحاب الأرaqueة من مسرح الصراع الإسلامي الصليبي <sup>(٢)</sup> .

٢ - اتباع زنكي سياسة التحالف تجاه الأمراء الأرaqueة وغيرهم مما أدى إلى إشعال نار المنافسة والمداء بين هؤلاء الأمراء أنفسهم وبينهم وبين الأمراء الجاورين ، وبذلك تحول اهتمام الأرaqueة إلى هذا الصراع الجانبي ، وتشتت

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٨١/٢ .

Ibid, 11/196.

(٢) انظر الفصل الثاني .

معظم قوام العسكرية والاقتصادية في هذا الاتجاه<sup>(١)</sup> .

٣ - اضطرار الأرانتقة الى التحالف مع الصليبيين للدفاع عن مصالحهم ضد زنكي ، وقد دفعهم هذا الى مهادنة الصليبيين معظم هذه المرحلة ، وتبادل المساعدات معهم ضد عدوهم المشترك ( زنكي ) .

٤ - اتباع حسام الدين ترتاش ( ٥١٨ - ١١٤٦ م = ٥٤٧ - ١١٢٤ م ) سياسة انهزامية تجاه الصليبيين في الشام فقد وصفه ابن الأثير « بأنه رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج ، وكان رجلاً يحب الدعة والرفاهية »<sup>(٢)</sup> وبأن الحلبين « ظهر لهم من ناحيته الوهن والعجز »<sup>(٣)</sup> ، مما دفعهم الى الاستنجاد بالبرسقي ، حاكم الموصل ، حيث قدم الى حلب وتولى بنفسه حركة الجهاد هناك ويعتبر هذا من العوامل المهمة في انزال الأرانتقة عن حركة الجهاد بسبب ما أصاب إمارتهم من تفكك استراتيجي اثر ضياع حلب .

#### مرحلة الإمدادات ( ٥٤١ - ٦١٨ = ١٢٢١ - ١١٤٦ م ) :

بعد مقتل زنكي ، اتجهت العلاقات بين الأرانتقة والصليبيين وجهة أخرى ، فقد أتيحت لهم الفرصة ثانية لكي يخرجوا من العزلة التي فرضها عليهم زنكي ويسموا من جديد في حركة الجهاد . ولكن الظروف السياسية التي جدت في المنطقة إثر مقتل زنكي فرقت عليهم أسلوباً جديداً في هذا المجال . ذلك أن الإمارة التي أنشأها زنكي انقسمت - الى إمارتين غدت الموصل

(١) انظر الفصل الثاني .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٠ / ٢٣٦ .

(٣) المصدر السابق ١٠ / ٢٣٧ - ٢٣٨ .

قاعدة لإداتها ، وحلب قاعدة للأخرى ، بينما احتلت إمارات الأراثقة الجهات الواقعة بين الإمارتين . وكان على حلب أن تتحمل ضغط الصليبيين المعاورين وأن تقوم بعبء الجهاد ضد مرمى بسبب موقعها وبعدها عن المنازعات مع الأراثقة والسلطان السلاجوفي<sup>(١)</sup> ، فضلاً عن أن شخصية نور الدين محمود أثاحت هذه الإمارة أن تترעם حركة الجهاد ، وبذا ضاعت الفرصة على الأراثقة بتولي مركز القيادة ثانية . وإذا عمل نور الدين محمود على توحيد إمارتي حلب والموصل ، أو على الأقل الحصول على ولاء الأخيرة له ، لكي يتنسف له مجاهدة الصليبيين ، فقد ساد التوتر بين الطرفين فاستغل الأراثقة ذلك وانضموا إلى نور الدين بسبب تدهور العلاقات بينهم وبين أمراء الموصل<sup>(٢)</sup> ، وبذلك تسنى لهم الخروج من عزلتهم<sup>(٣)</sup> . وبالرغم من أن ولاءهم لنور الدين سليمان بعض جوانب استقلالهم إلا أنه أتاح لهم تقديم مساعداتهم المالية والعسكرية خلال قتاله مع الصليبيين كحلفاء مخلصين وليسوا كأتيا خاضعين . وبذا بدأ الأراثقة مرحلة الإمدادات في علاقتهم بالصليبيين ، ومن ثم غدت القوة الأراثقية تشكل جزءاً هاماً في الجيوش الإسلامية التي قادها نور الدين ضد الصليبيين ، وقد استمرت هذه المرحلة طيلة عهد نور الدين ومن ثم صلاح الدين بعد أن انتقلت إليه حركة الجهاد ، وظلت تتقدم بذلك ، في فترات متباudeة ، طيلة حكم الأيوبيين .

وقد استطاع الأراثقة خلال هذه الفترة انتزاع بعض الواقع الصليبية القريبة من إمارتهم ، مستغلين في ذلك ضعف بقايا إماراة الرها والضريرات التي تلقتها

(١) Stevenson, op. cit., P. 154.

(٢) انظر الفصل الثاني .

(٣) انظر ابن القلansi ، دمشق ص ٣٣٢ .

من نور الدين سلاجقة آسيا الصغرى . وشهد عام (١٤٥١ = ٥٤٦ هـ) تصفيية موقع إمارة الراها ، فاستولى نور الدين على تل باشر ، واستولى السلطان مسعود ، سلطان سلاجقة آسيا الصغرى ، على مرعش ورعيان وكيسوم وبهستا<sup>(١)</sup> عدد من المواقع المجاورة الأخرى . وتقدم قرا أرسلان أمير حصن كييفا وخرقبرت فاستولى على بلدة كرك وحصن منصور<sup>(٢)</sup> رغم المساعدة التي قدمها جوسلين الثاني لهذين الموضعين . وبذلك امتدت سيطرة قرا أرسلان فشملت الجهات الأربع في هذه المنطقة والتي كان يحكمها من قبل رينالد أمير مرعش . أما حسام الدين ترتاش أمير ماردین ، فقد استولى على سميساط<sup>(٣)</sup> ، ولم يبق على الفرات موضع ليس لل المسلمين غير قلعة الروم<sup>(٤)</sup> ، ولو عاش حسام الدين ترتاش كان قد ملكها<sup>(٥)</sup> .

\* \* \*

(١) بهستا : قلعة حصينة قرب مرعش وسميساط (ياقوت ، معجم البلدان ١/٧٧٠) ،

(٢) حصن منصور : من أعمال ديار مصر ، غربي الفرات ، قرب سميساط (ياقوت ، معجم البلدان ٢/٢٧٨) .

(٣) ابن القلansi ، دمشق ص ٣١٥ ، الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٣٣٢ ب) .

Michel le Syrien, op. cit., 111/294—297, Guillaume de tyr, op. cit., 11/213, Grousset, op. cit., 11/291 — 292, 306 — 7, Cahen, op. cit., pp. 385, 389, Runciman, op. cit., 11/327, Baldwin, the latin states, in setton, op. cit., 1/534, Gibb, The Career of Nur-ad-Din, in Setton, op. cit., 1/516—517.

(٤) قلعة الروم : قلعة حصينة غربي الفرات ، مقابل البيرة (ياقوت ، معجم البلدان ٤/١٦٤) .

Grousset, op. cit., 11/346—7.

(٥) الفارقي ، تاريخ آمد (مخطوطة ١٣٣٢ ب) ويشير

Runciman, op. cit., 11/337.

إلى أن ترتاش قاد قواته في العام التالي (١١٥٢ = ٥٤٧ هـ) لمهاجمة مملكة بين المقدس،

من المرجح أن إمدادات الأرaqueة لنور الدين بدأت منذ عام (٥٤٣ = ١١٤٩ م ) ، حيث يذكر ابن القلansi أن أحد العوامل المهمة التي مكنت نور الدين والدماشقة من التصدي للحملة الصليبية الثانية عام (٥٤٣ - ٥٤٤ = ١١٤٨ - ١١٤٩ م ) ، هي الإمدادات الكثيرة من تركان الأطراف الذين أسرعوا لإنجاد دمشق إثر استجاد أهلها بهم ، وقيام الخليفة العباسي بإرسال رسائل إلى سائر الأمـراء وطوائف التركان يدعوهـم لقتـال الصليبيـن<sup>(١)</sup> . ولا ريب أن الأرaqueة قدموا قواتـهم ومتـطـوعـيـهم آنذاك باعتبارـهم يـثـلوـن قـيـادـةـ القـوىـ التـركـانـيـةـ فـيـ دـيـارـ بـكـرـ وـالـمـنـاطـقـ الـمـجاـوـرـةـ .

وفي ذي الحجة من عام (٥٥٠ = ١١٥٦ م) قدم قرا أرسلان بن داود أمير حصن كيفـاـ إلى حلب للجتماع بـنـورـ الدـينـ ، فـسـرـ هـذـاـ بـقـدـمـهـ وأـكـرـمـهـ وقدـمـ لهـ «ـ ماـ جـلـ قـدـرـهـ مـنـ التـحـفـ وـالـعـطـاءـ »ـ وـمـنـ ثـمـ قـفـلـ رـاجـمـاـ إـلـىـ بـلـادـهـ<sup>(٢)</sup>ـ .ـ وـكـانـتـ هـذـهـ الـبـادـرـةـ مـنـ جـانـبـ قـرـاـ أـرـسـلـانـ بـثـبـاثـةـ إـعـلـانـ وـضـعـ كـافـةـ قـوـاتـ تـحـتـ تـصـرـفـ نـورـ الدـينـ فـيـ حـرـوبـهـ ضـدـ الصـلـيـبيـنـ ،ـ فـضـلـاـ عـنـ أـنـهـ أـخـرـجـتـ إـمـارـةـ حـصـنـ كـيفـاـ عـنـ عـزـلـتـهـ الطـوـيـلـةـ المـلـأـةـ تـجـاهـ مـاـ كـانـ يـحـرـيـ فـيـ الشـامـ ،ـ الـقـيـ بـسـدـائـ بـدـخـولـ الصـلـيـبيـنـ أـنـطاـكـيـةـ وـاسـتـمـرـتـ إـلـىـ مـنـتـصـفـ الـقـرـنـ السـادـسـ الـهـجـرـيـ .ـ

ومـاـ أـنـ نـقـضـ الصـلـيـبيـونـ هـدـنـتـهـمـ مـعـ نـورـ الدـينـ عـامـ (٥٥٢ = ١١٥٧ م )ـ ،ـ حـقـىـ قـدـمـ إـلـىـ رـسـلـ أـمـراءـ الـأـطـرافـ يـعـلـنـوـنـ اـسـتـعـادـهـمـ بـجـاهـيـةـ الصـلـيـبيـنـ الـدـينـ

= إـلـاـ أـنـهـ اـضـطـرـ إـلـىـ الـانـسـحـابـ تـحـتـ خـفـطـ الـقـوـاتـ الصـلـيـبيـهـ هـنـاكـ .ـ وـلـمـ يـرـدـ هـذـاـ الـخـبـرـ فـيـ الـمـصـادـرـ الـإـسـلـامـيـهـ مـاـ يـعـرـضـهـ لـلـشـكـ ،ـ خـاصـهـ وـأـنـ تـرـاثـ لـمـ يـكـنـ يـعـرـفـ عـنـ اـتـخـاذـ خـطـوـاتـ جـريـثـهـ فـيـ هـذـاـ الـجـالـسـ ،ـ فـضـلـاـ عـنـ أـنـ مـلـكـهـ بـيـتـ الـقـدـسـ بـعـيـدةـ عـنـ مـجـالـ الـاحـتكـاكـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـأـرـاقـةـ .ـ

(١) دمشق ص ٢٩٩ - ٣٠١ - ٣٠٤ .

(٢) ابن القلansi ، دمشق ص ٢٣٣ .

نكتوا عهدهم<sup>(١)</sup> ، فاستعد نور الدين لاستقبال هؤلاء الأمراء حافلاً ، وما أن اجتمع لديه عدد حاشد من القوات حتى تحرك لقتال الصليبيين ، إلا أنه لم يحدث اشتباك حاسم ضد الصليبيين بسبب مرض نور الدين (٥٥٣=١١٥٨م)<sup>(٢)</sup> ، واضطراه إلى وقف العمليات ضدهم<sup>(٣)</sup> . وعندما صمم نور الدين على قتال الصليبيين عام (٥٥٩=١١٦٣م) أرسل إلى قرا أرسلان أمير حصن كيما ونجم الدين إلى بن ترعاش أمير ماردين ، وغيرهما من أمراء الأطراف يطلب منهم إنجاده فأجابه صاحب ماردين وأرسل إليه قواته وتخلف هو لعذر منه من المسير بنفسه ، أما أمير حصن كيما « فقال له خواصه وندماوه : على أي شيء عزمت ؟ فقال : على القعود فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلوة فهو يلقي نفسه ومن معه في المهالك »<sup>(٤)</sup> . وما لبث في صباح اليوم التالي أن عدل عن رأيه وأمر قواته بالتجهز ، فسألته أصحابه عن السبب في تغير موقفه فقال : « إن لم أجد نور الدين خرجت بلادي عن يدي ، فإنه قد كاتب زهادها والمنقطعين عن الدنيا يستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يستحقوا المسلمين على الغزارة ، وقد قعد كل واحد منهم ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ، فأخاف أن يجتمعوا على لعنني والدعاء علي »<sup>(٤)</sup> ثم تجهز وسار بنفسه على رأس قواته .

حقق نور الدين وحلفاؤه في هذا الهجوم نصراً حاسماً على الصليبيين عند حارم ، وقتلو منهم ما يقرب من عشرة آلاف ، وأسرموا كبار أمرائهم

(١) ابن القلانيسي ، دمشق ص ٣٣٨ .

(٢) المصدر السابق ٣٤٨ - ٣٥٨ .

(٣) ابن العديم ، زينة الحلب ٣١٨/٢ - ٣١٩ .

(٤) المصدر السابق ٣١٨/٢ - ٣١٩ .

كبوهيمند الثالث أمير أنطاكية وريوند الثالث كونت طرابلس وجوسelin الثالث وغيرهم. ومن ثم توجه المسلمون للاستيلاء على حارم فدخلوها في رمضان من نفس السنة وتفرق عساكرهم، إثر ذلك، في أعمال أنطاكية تنبع وتأسر. ثم عادت القوات الإسلامية إلى دمشق، وأذن نور الدين لعساكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادها، بعد أن وهب أمير حصن كيما الأموال العظيمة والتحف الثمينة. وقد أثر هذا النصر الحاسم في مصير القتال الذي كان دائراً آنذاك بين الصليبيين والمسلمين بقيادة شير كوه عند يلبيس، في مصر، حيث أسرع الصليبيون بعقد الصلح مع شير كوه خوفاً على ممتلكاتهم في الشام من استيلاء نور الدين عليها بعد سحقه القوات الصليبية في معركة حارم<sup>(١)</sup>.

ساهم أمراء آخرون من الأرaque في القتال الذي خاضه نور الدين ضد الصليبيين ففي عام (٥٦٥ = ١١٦٩ م)، تقدم شهاب الدين الياس بن

(١) ابن العديم، زينة الحلب ٣١٨/٢ - ٣٢٢، ابن الأثير، الكامل ١١ / ١٢٢ - ١٢٣، الباهر ص ١٢٥ - ١٢٦، ونقل عنه أبو شامة، الروضتين ١٣٩/١، وابن واصل، مفرج الكروب ١٤٣/١ - ١٤٥، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ٨ / ٢٤٦ - ٢٤٨، ابن خدون، العبر ٥٤٧/٥ - ٥٤٩، ابن قاضي شهبة، السيرة التورية (مخطوطه ١٢٦ - ١٢٧).

Gibb, The career of Nur-ad-din, op. cit., 1/524, Runciman, op. cit., 11/369, Grousset, op. cit., 11/461—464, Guillaume dy Tyr, op. cit., 11/306—308.

ويتفقون في التأريخ (العبر ٤ / ١٦٦ - ١٦٧)، عن سائر المؤرخين في القول بأن بدء المجموع على حارم تم على يد صاحب ماردين بقيادة عدد من ملوكيهم، فاضطر صاحب ماردين إلى الفرار، وعند ذلك تقدم نور الدين لقتالهم. ويظهر أن صاحب ماردين كان قائداً لأحد أجنحة نور الدين وأنه بدأ المجموع فعلاً وعندم انهزم تقدم القلب بقيادة نور الدين للقتال... ومن المستبعد إذاً أن يكون صاحب ماردين قد بدأ المجموع ارجحأً وبعيداً عن قيادة نور الدين كما يفهم مما أوردته التأريخ.

إيلفاري صاحب قلعة البيره على رأس مائة فارس للجتماع بنور الدين الذي كان معسكراً في عشترا<sup>(١)</sup> فلما اقترب من أعمال بعلبك في شوال ركب متصدداً فصادف ثلاثة من فرسان الصليبيين الاستبارية قد توجهوا من حصن الأكراد للإشارة على الواقع الإسلامية في البقاع . فاشتبك الطرفان واقتلاوا قتالاً شديداً وقع فيه عدد كبير من القتلى من الجانبين ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الصليبيين حيث أوقع المسلمون بهم القتل والأسر ولم يفلت منهم إلا القليل ، ومن ثم سار شهاب الدين بالأسرى إلى نور الدين الذي أحسن استقباله وسر للنصر الذي حققه ضد الأعداء<sup>(٢)</sup> . وفي عام (١١٧١ = ٥٦٧ م) اشتركت قوات ديار بكر إلى جانب نور الدين في الهجوم الذي شنه على الواقع الصليبية إثر نقض الصليبيين للهدنة التي عقدوها معه ، فبث نور الدين السرايا في بلاد الصليبيين ، وتمكن المسلمون في فترة قصيرة من الاستيلاء على بعض الواقع الصليبية وتخريب البعض الآخر ، كما قاموا بنهب وإحرق الجهات المحيطة بأنطاكية وطرابلس مما اضطر الصليبيين إلى تجديد الهدنة<sup>(٣)</sup> .

بعد هذه السلسلة من الانتصارات التي أحرزها نور الدين ضد الصليبيين ، أرسل عام (١١٧٢ = ٥٦٨ م) رسالة إلى الخليفة العباسى الذي أجابه إلى مطلوبه ومضموها « الخدمة للديوان وما هو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ، ويطلب – أي نور الدين – تقليداً بما بيده من البلاد كمصر والشام

(١) عشترا : موضع بحوران من أعمال دمشق ( ياقوت ، معجم البلدان ٦٧٩/٣ ) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١ / ١٤٣ ، الباهر ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ونقل عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ١ / ١٨٨ ، وأبو شامة ، الروضتين ١ / ١٨٦ ، ابن خلدون ، العبر ٥٥٦/٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١٣/٩ ( طبعة الاستقامة ) ، الباهر ١٥٤ - ١٥٥ .

والجزيرة والموصل ، وبها في طاعته كديار بكر<sup>(١)</sup> .. وبهذا غدت الإمارات الأرترية خاضعة لنور الدين من الناحية الرسمية<sup>(٢)</sup> ، وقد عزز جواب الخليفة الخليفة العباسي الإمدادات العسكرية التي كان الأراتقة يقدمونها لنور الدين في قتاله للصليبيين .

وفي العام التالي (٥٦٩ = ١١٧٣ م) أرسل نور الدين الى الأمـ راء الأراتقة وغيرهم يطلب منهم القدوم الى الشام لقتال الصليبيين . وكان نور الدين قد عزم على ترك القوات الخليفة تحت قيادة سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل ، والتوجه الى مصر لتصفية أمورها ، ولكن وفاته ، بعد ذلك بقليل ، حالت دون تحقيق هذا المشروع<sup>(٣)</sup> .



لم يغير الأراتقة موقفهم من الإمدادات ضد الصليبيين ، لدى توقيع صلاح الدين سلطنة الشام بعد وفاة نور الدين محمود . ولكي يضمن صلاح الدين الحصول على هذه الإمدادات من أمراء الأطراف في قتاله للصليبيين ، أرسل ، في مطلع حكمه عام (٥٧١ = ١١٧٥ م) ، كتاباً الى الخليفة العباسي يطلب منه «خروج الأمر بخطاب جميع الأطراف أن يكونوا له - على المشركين أعوازًا ، وأن ينتشروا أمر نبينا محمد ﷺ ، في أن يكونوا بنينانًا فيعتصدوه اذا سعى ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٦٠ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٣٥٠ - ٥٦٣ .

(٢) انظر ابن الأثير ، الكامل ١١/١٦٠ ، أبو شامة ، الروضتين ١/٢٢٩ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١١/١٦٣ ، الباهر ص ١٦١ ، أبو شامة ، الروضتين ١/٤٢٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/٢٥٨ - ٢٥٩ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٣٢٠ - ٣٢١ (عن الكامل) .

ويلبوا اذا دعا ، ولا يقدعوا عن المعاضة في فتح البيت المقدس »<sup>(١)</sup> .

واستجواب الأراثقة لدعوته ، عندما قرر مهاجمة إمارة الموصل عام ٥٧٨ = ١١٨٢ م ) ، لموالاتها للصليبيين ضد صلاح الدين<sup>(٢)</sup> . وكان قرا أرسلات أمير حصن كيما ، أول من استجواب له منهم ، وأعقبه شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقي أمير البيرة ، وكانت استجوابتها في البده ، بقصد الحصول على بعض المكاسب . أما صاحب ماردين فقد رفض تلبية الدعوة بسبب ما تعرضت له أملاكه على يد الأمراء الأراثقة المتعالفين مع صلاح الدين<sup>(٣)</sup> .

لم يستطع صلاح الدين وحلفاؤه الاستيلاء على الموصل ، فبعث إلى الخليفة العباسى يقول : « إنها - أي الموصل - دار الفرقة ... ولو انتظمت في السلك ، لانتظم جميع عسكر الإسلام في دار الشرك ، ولغزى الكفر من مصر ... والشام .. والجزيرة » ، كما ورد في الرسالة أن بقاء الموصل ، هكذا ، بمقدمة عن سيطرته هو السبب في عدم توحيد القوى الإسلامية في الجزيرة بجهاهة الصليبيين .. لأن هذه الجزيرة الصغيرة - أي الموصل - منها تنبع الجزيرة الكبيرة ، وهي دار الفرقة ومدار الشقة »<sup>(٤)</sup> .

وإذ حصل أمير حصن كيما في هذه الملحمة على بعض المكاسب كمدينة آمد هبة من صلاح الدين ، فقد تعهد مقابل ذلك بالطاعة المطلقة للسلطان في موالة

(١) أبو شامة ، الروضتين ٤٠٤/١ ( عن القاضي الفاضل ) .

(٢) المصدر السابق ٢١/٢ - ٣٢ ، ( عن القاضي الفاضل والعاد الأصفهاني ) ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢/٣١١ .

Runciman, op. cit., 11/434.

(٣) انظر الفصل الثاني .

(٤) أبو شامة ، الروضتين ٤١/٢ ( عن القاضي الفاضل ) .

من والاه ومعاداة من عاداه « وحلف له أنه متى استعد لقتال الفرنج وجرده بذلك يقطنان »<sup>(١)</sup> وكان هذا المهد بين أمير حصن كيفا وصلاح الدين ، بمبادرة حجر الزاوية لكل الإمدادات العسكرية التي تقدمت بها هذه الإمارة لصلاح الدين في حروبه مع الصليبيين . كأن قيام بقية أمراء المنطقة بطلب الصلح من صلاح الدين وإعلان طاعتهم له ، وتعهدهم بالحضور بأنفسهم أو بإرسال قواتهم مق استدعاهم<sup>(٢)</sup> ، مهد لاشراك قوات الأرaqueة جميعاً ، فضلاً عن الامارات الأخرى في الجزيرة ، مع صلاح الدين في جهاده للصليبيين .

وشهد عام (٥٧٩ = ١١٨٣ م) أول اجتماع لقوات ديار بكر بقيادة قرا أرسلان مع جيوش صلاح الدين ، حيث انطلقا من دمشق ، وعبروا نهر الأردن في التاسع من جمادي الآخرة ، وقاموا بهجمات موفقة على المواقع الصليبية . وقد تجنب الصليبيون لقاء القوات الإسلامية لذا اكتفت هذه بتلك الهجمات وحصلت على غنائم كثيرة ومن ثم عادت إلى دمشق ، ومنها تفرقت إلى بلادها بعد أن أذن لها صلاح الدين ، فتوجهت القوات الأرaqueة إلى ديار بكر على عزم العودة إلى الغزو في المستقبل القريب<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق ، ٤٢ - ٤١ / ٢ (عن العياد الأصفهاني) .

(٢) انظر الفصل الثاني .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ١/٤٠ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٤٠ - ٤١ ، العياد الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ١٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/٤٨ - ١٥١ .

Gibb, Saladin, in setton, op. cit., 1/579.

وسوف لا أنطرب إلى تفاصيل العمليات الحربية التي قام بها صلاح الدين في المرات التي اشتربت معه فيها القوات الأرaqueة ، لأن ذلك سيخرج بالبحث عن إطاره المحدد إلى نطاق التاريخ الحربي لصلاح الدين ، ولذا سأكتفي بإلصاق الملامات التي أسهم فيها الأرaqueة وقرارتها وأهدافها العسكرية ، والدور الذي أنجزوه خلال تلك العمليات .

وفي مطلع العام التالي تقدم قرا أرسلان على رأس قواته الى حلب ، فوصلها في الثامن عشر من صفر « فأكرمه الملك العادل إكراماً عظيماً وأصعده الى القلعة وباسطه »<sup>(١)</sup> ومن ثم توجها الى دمشق في اواخر الشهر ، وكان صلاح الدين قد مرض ثم أبل من مرضه ، فلما بلغه خبر وصول قرا أرسلان خرج لاستقباله ، فلقيه على عين الجسر بالبقاع في مطلع ربيع الاول ثم عاد الى دمشق ، بعد أن ترك الأمير الأرتقى بصحبة العادل واتفق معهما على أن يلحقاه بعد تقدمه باتجاه الواقع الصليبية . وفي اواخر ربيع الأول وصل العادل وقرا أرسلان الى دمشق ، وغادرها بعد أيام قلائل ليلحقا بصلاح الدين عند رأس الماء ، تهيداً للهجوم على الكرك ، إلا أن تدخل قوات بيت المقدس اضطر صلاح الدين وقواته على الانسحاب والقيام بسلسلة من الهجمات على الواقع الصليبية في نابلس وجنين والساحل . وقد أسمى صاحب دارا الأرتقى وقواته ماردين في تلك الهجمات<sup>(٢)</sup> . ومن ثم عادت القوات الإسلامية الى دمشق فدخلتهم في مطلع جمادى الآخرة ، وكان قرا أرسلان بصحبة صلاح الدين فأكرمه واحترمه وأحسن اليه<sup>(٣)</sup> ، وخلع عليه الخلعة التي وصلته من الخليفة العباسي ، ومن ثم أذن له بالعودة وقواته الى بلاده<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن شداد ، سيرة ص ٤٣ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ٥٤/٢ - ٥٥ ( عن العياد الاصفهاني ) .

(٣) ابن شداد ، سيرة ص ٤٣ - ٤٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٢٠٥ - ٢٠٦ ، أبو شامة ، الروضتين ٥٤/٢ - ٥٥ ، ( عن العياد وابن شداد ) ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٣٨٢/٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١٥٧/٢ - ١٦٣ ، ابن كثير ، البداية ٣١٥/١٢ ، المقريزي ، السلوك ٨٣/١١ - ٨٥ ، ابن شاهنشاه ، مسار الحقائق ( مخطوطة ٢٤٧ - ٢٤٨ ) .

وفي عام (١١٨٥ = ٥٨١ م) تأكّدت طاعة الأراثقة وأمراء الجزيرة والموصى لصلاح الدين إثر العمليات الحربية التي قام بها في المنطقة، وأُرسل إلى أخيه الملك العزيز طفتكن حاكم اليمن كتاباً يقول فيه: «... وقد حصل لنا من صاحب الموصى ومن جيشه من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكن... والخطبة... والعزم إلى الجهاد في سبيل الله، وقد زالت العوانق...»<sup>(١)</sup>.

وفي مطلع عام (١١٨٧ = ٥٨٣ م)، استجابت قوات الأراثقة لدعوة صلاح الدين بالتوجه لقتال الصليبيين، واجتمعوا به في ربيع الآخر فرحب بهم وأكرّهم، واندفع في السابع عشر من ربيع الآخر صوب العدر<sup>(٢)</sup>. وبعد أن حقق المسلمون نصرهم الخامس على الصليبيين في حطين، وعُدد من الواقع الأخرى، اتجهوا إلى صور، وإذا طال حصارها ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فأشاروا على السلطان بالرحيل، لثلاثة الرجال وتقليل الأموال. وكان الشتاء قد دخل واستند للبرد، فقال السلطان: «إن السور قد تهدم فاصبروا ولا تتعجلوا تفلحوا»، فأظهمروا الموافقة ولم يصدقوا القتال وتعللوا بكثرة الجراح وقلة العلوفات، فلم يسع السلطان إلا الرحيل<sup>(٣)</sup>، فأخذ للقوات الخليفة بالعودة، فسار الملك المظفر إلى دمشق مستصعباً معه قوات المشرق، وبقي صلاح الدين مع ثغر من قواته

(١) أبو شامة، الروضتين ٦٤ (عن العياد الاصفهاني). وانظر ابن شاهنشاه، مضمار المقاوم (محطّطة ١٧٩ - ١٨٠، ٢٩٨).

(٢) ابن شداد، سيرة من ٤٨ - ٤٩، ابن الأثير، الكامل ١١/٢١٥، ابن واصل، مفرج الكروب ٢/١٨٦ - ١٨٨.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب ٢/٤٥ - ٤٦.

في جهات عكا<sup>(١)</sup>.

وفي عام (٥٨٤ = ١١٨٨ م) استدعى صلاح الدين القوات الإسلامية للاجتماع به لدى قتاله للصلبيين في ساحل الشام الشمالي، فجاءته جيوش الموصل والجزيرة، وأغلب الظن أن قوات الأرتقاء كانت ضمن جيوش الجزيرة، وإن لم تحدد المصادر ذلك بدقة. وبعد أن عقد صلاح الدين هدنة مع صليبي أنطاكية، عاد إلى حلب وأذن للقوات الإسلامية بالعودة إلى بلادها<sup>(٢)</sup>.

وما أن بدأ الصليبيون حصار عكا عام (٥٨٥ = ١١٨٩ م)، حتى أرسل صلاح الدين إلىسائر الأمراء يطلب منهم التقدم بقواته لوقف إزاء الصليبيين وإنقاذ عكا من الخطر الداهم. وكانت القوات الأرتقية بقيادة قطب الدين بن قرا أرسلان أمير حصن كيما، من جملة القوات التي أسرعت في التقدم إلى هناك، واجتمعت بجيوش صلاح الدين واسترکت معها في بعض العمليات العسكرية طيلة الفترة التي سبقت سقوط عكا عام ٥٨٧ م. ومن جهة أخرى كان وجود هذه القوات من العوامل التي ساهمت في الهزيمة التي لحقت بجيوش الإسلامية عام (٥٨٥ = ١١٨٩ م)، بالقرب من ساحل عكا. فقد كان موضع القوات الأرتقية في ميمنة القلب بالنسبة لتنظيم الجيوش الإسلامية، وقد بدأت المعركة بأن تحركت ميسرة الصليبيين على ميمنة المسلمين، فتراجع، أمامهم، المظفر قائد الميمنة لعلهم يبعدون عن أصحابهم في الحال منهم، فظن

(١) المصدر السابق ٢٤٦/٢، ابن شداد، سيرة ص ٦، العياد الاصفهاني، الفتح القدسي ص ٧٠، ابن الأثير، الكامل ١١/١١ - ٢٢٧، أبو شامة، الروضتين ٢/١٢٠ (عن الاصفهاني).

(٢) ابن شداد، سيرة ص ٥٦ - ٦٥، ابن الأثير، الكامل ١٢/٢ - ٨٠٣، ابن كثير، البداية ١٢/٣٣٠.

صلاح الدين ذلك ضعفًا منه ، وأمده بعده فرق من القلب حتى قوي جانبه وتراجعت أمامه ميسرة الصليبيين ، فاستغل الصليبيون المجهولون لقلب القوات الإسلامية ضعف هذه الجبهة بسبب خروج عدة فرق منها ، وشنوا هجوماً سريعاً عليها ، فجاء هذا الهجوم على القوات الأرaqueية « وكان بهم غرة عن الحرب » ، فتحرّكوا بين يدي العدو ، وانكسرت كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حق انكسر معظم الميمنة<sup>(٢)</sup> وأسرع المنهزمون بالابتعاد عن ميدان المعركة ، ولكن ثبات صلاح الدين وميسرة المسلمين أنقذت القوات الإسلامية من هزيمة حقيقة . وما أن عرف المنهزمون ذلك حتى عاد ، من لم يذهب منهم في حال سبيله ، ليسمّهم في تعزيز ميسرة المسلمين التي استطاعت أن تحيل الهزيمة إلى نصر ، وقتل من الصليبيين عدد كبير<sup>(٣)</sup> .

وبحلول شتاء عام (١١٩٠ = ٥٨٦ م) ، أذن صلاح الدين للجيوش الإسلامية بالعودة إلى بلادها كي تستريح وتتجمع من جديد في الموسم المقبل ، وأقام هو مع نفر يسير إزاء الصليبيين<sup>(٤)</sup> . وما أن حلّ الربع حتى أرسل يستدعي الجيوش من الشرق ، ولم يفده عليه من قوات الأرaqueة سوى قوات عماد الدين محمود بن بهرام صاحب دارا<sup>(٥)</sup> ، إذ لم تشر المصادر إلى أية قوات أرaqueية أخرى ، في الوقت الذي حددت فيه أوقات وصولسائر القوات التي

(١) ابن شداد ، سيرة ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ٧٧ / ٧٦ ، العياد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ١٤٨ ، ابن الاثير ، الكامل ١٢ / ١٥ - ١٧ ، أبو شامة ، الروضتين ١٤٤ / ١٤٥ (عن ابن شداد) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢٥٩ / ٢ - ٣٠٠ (عن ابن شداد) .

(٣) ابن شداد ، سيرة ص ٨٢ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٤٠٥ / ٨ .

(٤) العياد الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ١٨٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣١٣ / ٢ .

قدمت من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصى وإربيل ... الخ<sup>(١)</sup>. وربما كانت ذلك بسبب تشتت هذه الجيوش إثر المهزيمة التي لحقتها في معركة العام السابق عند ساحل عكا<sup>(٢)</sup>، فضلاً عن قيام المظفر تقى الدين عمر الأيوبي باستفزاز الأرادة في ديار بكر ومحاكمة بعض ممتلكاتهم، عندما أرسله صلاح الدين إلى هناك لخشد المساكير للجهاد<sup>(٣)</sup>.

وعندما حل شتاء عام (١١٩١ = ٥٨٧) ، سقطت عكا بأيدي الصليبيين ، تفرق المساكير الإسلامية على أن تعود ثانية في الرياح<sup>(٤)</sup>. وأرسل صلاح الدين خطاباً إلى قطب الدين بن قرا أرسلان الذي خلف أبياه في حكم حصن كيما ، جاء فيه « قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة .. فالإسلام ينشد ظهيره »، ويطلب الدين لكشف غمته من ابن نوره (أبي ابن نور الدين قرا أرسلان) ، وهذه عكا التي كان عنها ندافع ... قد تكون منها الكفر على كره من الإسلام .. وإذا أنكر من خذلها .. وغاب عنها وما حضرها ، علم أنها أسيرة إهماله وأخيذه إغفاله .. وما بقي للفرنج مع استيلائهما على الموضع إلا زائد قوة في المطعم والمطعم . وقد عزمنا على المصاف وصد صولة الكافر بالجدع الكافي .. والله كافل دينه بالنصر ..<sup>(٥)</sup> وتشير بعض الجمل التي وردت في هذا الخطاب إلى مدى أهمية القوات التي كان يقودها أمير

(١) ابن شداد ، سيرة ص ١١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٢٠ .

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ٧٩ ، ونقل عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ٣٠٠ .

(٣) الع vad الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٩٠ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ٢ / ١٨٦ - ١٨٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٢ / ٤٣٥ وانتظر ما يلي .

(٤) ابن شداد ، سيرة ص ١١٢ - ١١٦ - ١٢٤ - ١٢٥ .

(٥) الع vad الاصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٦٤ .

حصن كيما ، وأنه بتوانيه عن الحضور إلى عكا كان سبباً في سقوطها ، ويشير الأصفهاني إلى أنه لم يستمر على مساعدة صلاح الدين « ومؤازرته ومعاقدته إلا صاحب الموصى وسنجار . فهو يحضر تارة بنفسه وأونتة بولده .. ويواظب بعده وعدده ...<sup>(١)</sup> » مما يؤكّد عدم اشتراك أرادة حصن كيما أو ماردين ، في تلك السنة ، للدفاع عن عكا إلى جانب بقية القوات الإسلامية .

وفي شتاء عام (٥٨٨ = ١١٩٢ م ) ، توجه صلاح الدين إلى القدس وفرق القوات الإسلامية ربيئاً يأتي الريبع<sup>(٢)</sup> واستغلّ الصليبيون هذه الفرصة فهاجموا الدارويم واستولوا عليها في جمادى الأولى<sup>(٣)</sup> . وجرى هذا كله وعساكر الموصى وسنجار وديار بكر متباطئة في الإيتان<sup>(٤)</sup> . فأرسل صلاح الدين يطلب إسراع هذه القوات في القدوم<sup>(٥)</sup> وفي جمادى الآخرة وصل إلى دمشق قطب الدين قرا أرسلان على رأس قواته ، وأقام هو وبقية الأمراء الذين وصلوا دمشق ، ينتظرون مغادرة العادل لما ليسروا معه لقتال الصليبيين ، وأدرك هؤلاء أن لا طاقة لهم بهذه القوات ، إذا ما تركوا عكا لمحاجة الواقع الإسلامية ، ولذا اضطروا إلى البقاء هناك<sup>(٦)</sup> . وقد أسممت قوات قطب الدين بن قرا أرسلان في حصار يافا وفتحها في نفس السنة<sup>(٧)</sup> وأصاب قطب الدين في تلك

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٢٨٤ .

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ١٦٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٧ ، ابن الأثير ، الكامل ٣٤/١٢ ، والدارويم : قلمة على طريق غزة للقادس إلى مصر ، قربة من الساحل ( ياقوت ٥٢٥/٢ ) .

(٤) العماد الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٣٠٨ .

(٥) ابن شداد ، سيرة ص ١٦٨ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ٣٥/١٢ .

(٧) العماد الأصفهاني ، الفتح القدسي ص ٣٠٨ .

المعركة جرح في يده يئس من شفائه ، ولكنه سرعان ما اندمل وتماثل للشفاء<sup>(١)</sup> .

وعندما تم عقد الصلح بين صلاح الدين والصلبيين عام (١١٩٢=٥٥٨٨م)<sup>(٢)</sup> ، أذن للقوات الإسلامية بالعودة إلى بلادها ، فقفز قطب الدين عائداً إلى ديار بكر<sup>(٣)</sup> .

★ ★ ★

توفي صلاح الدين في مطلع العام التالي في دمشق ، وانتهت بذلك حلقة خطيرة من حلقات الجماد ضد الصليبيين ، قدم الأرaqueة فيها إمداداتهم العسكرية ، وكان لهم خلاها دور مهم من أدوار علاقتهم بالصلبيين ، إذ مكنوا صلاح الدين ، بتلك الإمدادات ، من تعزيز قواته وتحقيق سلسلة من الانتصارات ضد أعدائه . وما يجدر بالذكر في هذا المجال ، أن تلك الإمدادات لم تكن متكافئة بالنسبة لإمارتي ماردين وحصن كيما الأرتقيتين ، فما قدمته إمارة ماردين لا يكاد يذكر بجانب ما قدمته إمارة حصن كيما . وقد كان الدافع الرئيسي لهذه المبادرة هو تعرض إمارة ماردين لضغط صلاح الدين خلال تحرّكه في منطقة الجزيرة ، وانتزاعه منها بعض الممتلكات التي منحها لأمراء حصن كيما<sup>(٤)</sup> ، لذا توّقت علاقات الأخيرة بصلاح الدين وتزعم أمراؤها معظم الإمدادات التي سيرها الأرaqueة لساندته ، وهكذا نجد أن الأمر انعكس في هذه المرحلة من علاقات الأرaqueة بالصلبيين ، فيينا تضاءل دور

(١) المصدر السابق . ٣١٠ - ٣١١ .

(٢) ابن شداد ، سيرة ص ١٩٤ ، ونقل عنه أبو شامة ، الروضتين ٤/٢ .

(٣) انظر الفصل الثاني .

ماردين ، التي كان لها في السابق قصب السبق في هذا المضمار ، نجد أن إمارة حصن كيما أخذت زمام المبادرة ، والمركز الأول في تلك العلاقات .

لم تقف إمدادات الأرaqueة للأيوبيين ضد الصليبيين بوفاة صلاح الدين ، بل استمرت طيلة السنوات التالية (١٢٢١ - ١١٩٣ = ٥٦١٨) حيث كان الأرaqueة يقدمون ، خلاها ، نجداً لهم العسكرية كلها حزب الأمر بالأيوبيين إثر تعرضهم لضغط الصليبيين . فكانوا يستتجدون بأمراء الحلين في الجزيرة والموصل والشام فيلي هؤلاء دعوتهم كما حدث في الأعوام (١٢٠٨ = ٥٦٠٨)، (١٢٠٧ = ٥٦٠٧)، (١١٩٦ = ٥٥٩٣)، (١١٩٣ = ٥٦١١) .

وحدثت في الأعوام التالية مشاكل وفتن وحروب بين الأرaqueة والأمراء الحلين والأيوبيين أعادت تقديم الإمدادات لهؤلاء ضد الصليبيين<sup>(١)</sup> وقد استئنفت الإمدادات من جديد بعد تصفية تلك المشاكل ، وكان أبرزها ما حدث عام (١٢٢١ = ٥٦١٨) ، لدى استيلاء الصليبيين على دمياط في مصر ، حيث أرسل الكامل الأيوبي يستتجد بأمراء الشام والجزيرة ، فتوجه المظفر الأيوبي إلى ماردين لخشد القوات الخلiffية فتقلاه صاحبها بترحيب بالغ<sup>(٢)</sup> ، وتم

(١) ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ١٢٠٦ - ١٢١ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٥٣ .

(٣) المصدر السابق ١١٤ / ١٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ٣ / ١٧٢ - ١٧٥ ، ابن كثير البداية والنهاية ٤٩ / ١٣ .

(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٥٤٥ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ١٣٨ / ١٢ - ١٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ٥٩٧ - ٦٠٣ ، وانظر الفصل الثاني للاطلاع على تفاصيل الموضوع .

(٦) ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ٦ / ٢٣٩ - ٢٤٠ .

الاتفاق ببنها على قيام صاحب ماردين بتقدیم نجدة للأیوبیین ، وقد توجّهت هذه النجدة إلى مصر ، مع عدد من الأمراء الأیوبیین في الشام ، ولكنها وصلت بعد أن تکن الكامل مع استعادة دمیاط وإخراج الصلیبیین منها بموجب اتفاقية الصلح عقدت في التاسع عشر من رجب سنة (٦١٨ = ١٢٢١ م )<sup>(٣)</sup> .



وهكذا حقق الأراثقة ، في مراحل عديدة من علاقتهم مع الصلیبیین ، نتائج مهمة في ميدان الصراع الإسلامي الصليبي في الجزيرة والشام ، ما كان يمكن أن تصل إلى ما وصلت إليه لو لا الدور الذي لعبه الأراثقة . فقد كان هؤلاء ، في مرحلة التحالف مع الأمراء المحليين ، يشكلون إحدى القوى الرئيسية في تلك الحالات التي مثلت طلائع التجمع الإسلامي ضد الغزو الصليبي والتي حققت في بعض المعارك نتائج حاسمة ضد الصلیبیین كالذى حدث في معركة البليخ عام (٤٩٧ م = ١١٠٣ م ) ، على يد سقمان وحليفه جكرمش أمير الموصل .

وفي مرحلة القيادة لمب الأراثقة الدور الرئيسي في ذلك الصراع ، حيث قادوا قواتهم وقوات حلفائهم في عدد كبير من المعارك ضد الصلیبیین كان بعضها نتائج حاسمة على الوجود الصليبي في الجزيرة والشام كذلك الذي حدث في معركة (ساحة الدم) على يد إيلغازي عام (٥١٣ م = ١١١٩ م ) ، وفي معركة سروج (٥١٦ م = ١١٢٢ م ) ، وكركر وخرتبرت (٥١٧ م =

---

(٣) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦١٨ - ٦٢١ ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ١٢٨ ، ابن العربي ، مختصر ص ٤١٣ ، ابن تغري بودي ، النجوم الزامرة ٢٣٩/٦ - ٢٤٠ .

١١٢٣ م ) ، ومن بعده ( ١١٢٤ م = ٥١٨ ) على يد بلک بن بہرام . وقد مثل الأراثة في هذه المرحلة حلقة من أهم حلقات القيادة الإسلامية الموحدة ضد الصليبيين والتي بدأت بعوده أمير الموصل عام ( ١١٠٩ م = ٥٠٣ ) ، وانتهت الى صلاح الدين .

أما في مرحلة الإمدادات التي قدمها الأراثة لنور الدين وصلاح الدين في جهادها للصليبيين ، فقد لعبوا خلالها دوراً هاماً في تكوين الجيوش الإسلامية التي حقق بها هذان القائدان انتصارات حاسمة ضد أعدائهم ، كالذى حدث عام ( ١١٦٣ م = ٥٥٩ ) في معركة حارم على يد نور الدين ، وعام ( ١١٨٧ م = ٥٨٣ ) في معركة حطين على يد صلاح الدين . وقد شهد للأراثة بهذا الدور كل من نور الدين وصلاح الدين وعدد من المؤرخين المعاصرین كالعماد الأصفهاني وابن شداد .

وبالرغم من أنه كان للأراثة آثار سلطة على مجرى الصراع بين المسلمين والصليبيين خلال المراحل التي انخذوا فيها موقفاً سلبياً إزاء هذا الصراع ، وبخاصة ذلك التحالف الذي تم بين إيلفازي وبين صليبي أنطاكية عام ( ٥٠٨ م = ١١١٤ م ) ، والذي مكن هؤلاء من تحقيق انتصارهم في معركة تل دانث على آخر محاولة مباشرة قام بها سلاجقة العراق وببلاد فارس ضد الصليبيين في الشام ، وبالرغم من أن هذا الانتصار بما كان سبباً من أسباب توقف السلاجقة عن القيام بمحاولات جديدة لتجنيبه أمراء المسلمين إلى الشام لقتال الصليبيين ، إلا أن من الواضح أن توقف السلاجقة عن هذه السياسة لم يكن ذات نتائج سلطة إلى حد كبير ، كما يبدو للوهلة الأولى ، بل على العكس هيأ ذلك للإمارات والقوى المحلية القرية من مواقع الصليبيين كالأراثة ، والزنكيين والأيوبيين فيما بعد ، أن تتحمل مسؤوليتها كاملة في هذا الصراع ، وأن تتول قيادة حركات الجهاد بما تمتلكه من إمكانيات بشرية وعسكرية واستراتيجية ، ومن قيادة موحدة ، لم تتبأ للسلاجقة ، وأن تحقق نتائج خطيرة ضد الوجود الصليبي في المنطقة .



## الفصل الرابع

عَلَاقَاتٌ بَيْنِ آرْقَى الْتَّرَوَّدِ الْمَالِيِّ  
وَسُقُوطِ آخِرِ اِمَارَةِ مَرْمَرَة  
(م ١٤٠٩ - ١٢٣٠ = ٦٢٨ - ٨١٢)



## سعي التتر لاخضاع ديار بكر

كان للصراع الدائري في الجزيرة بين الأمراء المحليين ، بسبب الأطماع الدائمة والفتن والمحروب المستمرة ، ودخول الأيوبيين بعد صلاح الدين كطرف خطير في النزاع وتقتتيل وحدة المنطقة ، أثر كبير في فتح الطريق أمام التتر لشن هجماتهم المستمرة على المنطقة ، ومن ثم الاستيلاء على بعض الواقع الهامة فيها واحتاذها قواعد ليس لفرض سيطرتهم على الجزيرة فحسب ، بل لاتخاذها قاعدة للزحف على الشام ومصر كما حدث في مطلع النصف الثاني من القرن السابع المجري .

وكان الأراثقة كغيرهم من الأمراء قد دخلوا حماة هذا الصراع ، وساهموا في تقتتيل وحدة المنطقة ، بتشكيل الأحلاف والتكتلات لصد محاولات عدائية أو للحصول على أسلاب جديدة . ولم يكتفوا بهذا بل أخذوا يتنازعون فيما بينهم ، ولم يتحرك صاحب ماردين عندما سقطت إماراته حصن كيما ( ٦٣٠ م = ١٢٣٢ م ) وخرتبرت ، ( ٦٣١ = ١٢٣٣ ) ، الأرثقيتين ، وربما ظن أنه بيقائه وحده في الميدان سيجد الفرصة السانحة لتوسيع نفوذه على حساب سقوط أبناء عمومته .

وفي هذه المرحلة الخرجية ، وهي أوائل الربع الثاني من القرن السابع

للهجرة ، دخل الخوارزميون بقيادة سلطانهم جلال الدين منكبتي (٥١٧ - ٦٢٨ = ١٢٣٠ م ) ، كقوة جديدة في تيار الأحداث في الجزيرة وأرمينية . فقد صرف هؤلاء كل طاقتهم من القوة العسكرية والإمكانات البشرية في حمأة هذا الصراع ، بعد أن أجهزهم زحف التتر في بلاد فارس إلى التراجع إلى هذه المناطق . وراح الأراثقة وجيرانهم من الأمراء المحليين ينضمون ثانية إلى جلال الدين وجنده ضد الأيوبيين وأنصارهم ، وثانية إلى الأيوبيين ضد الخوارزميين . وقد نفتت في هذا الصراع قوى هذه الإمارات والدول ، في الوقت الذي كان بإمكانها لو اتحدت أن تحافظ على الجزيرة من أي تسلط تترى ، فضلاً عن أن تلك الوحدة كانت ستؤدي إلى الإبقاء على الدولة الخوارزمية كدرع واق ضد الزحف التترى على الجهات الغربية من العالم الإسلامي . وقد جرت ، بعد فوات الأوان ، محاولات يائسة من قبل السلطان جلال الدين لتشكيل تحالف بينه وبين الأيوبيين وبعض الأمراء المحليين للتتصدى للخطر التترى ، ولكن دون جدوى ، إذ جاء ذلك متاخراً .

هذه هي الظروف التي مكنت للتتر في المنطقة ، وغيّرت خارطتها السياسية في عقود معدودة من الزمن . وكان الأراثقة في طليعة من تعرض لهذا التغيير . ولنا بعد ذلك أن نستعرض بهذه التفاصيل التترى في المنطقة ودور أراثقة مardin في الأحداث التي دارت هناك .

وفي عام (٦٢٨ = ١٢٣٠ م ) ، تراجع السلطان جلال الدين خوارزمشاه إلى أرمينية والجزيرة أمام ضغط التتر ودخولهم أذربيجان في ذلك العام ، وأرسل إلى نائب الأشرف الأيوبى صاحب دمشق في خلاط يعلمه أنه لم يأت إلى المنطقة هذه المرة للحرب والأذى ، كما كان الحال في السنتين السابقتين ، وإنما

ألمأه زحف التتر الى ذلك ، وأنه عازم على قصد أمراء ديار بكر والجزرية والخليفة العباسى وسائر الأمراء المسلمين لاستنجادهم ضد التتر وتحذيرهم عاقبة الإهمال<sup>(١)</sup> . وما لبث أن وصله كتاب من الأشرف يعلمه أنه سوف لن يتقدم الى المنطقة إلا بعد انجلاء نتيجة الصراع بين جلال الدين والتتر ، ولذا فليس غاً داع لانتظار نجده ، وإذ يش جلال الدين من نجدة القوات الأيوبية في مصر والشام ، قرر الاعتداد على الأمراء المحليين في المنطقة فبعث رسوله الى الملك المظفر شهاب الدين غازي ، والى الملك المسعود صاحب حصن كيما وآمد ، والملك المنصور صاحب ماردین يطلب حضورهم اليه لمحاجة التتر ووعدهم لقاء ذلك بمنحهم بعض المدن ، فأجاب صاحب ميافارقين بأنه كان قد أقسم على طاعة علام الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم ، كما أقسم على طاعة جلال الدين ، وأن بين الطرفين عداء مستحكم ، ولذا فهو لا يأمن على نفسه الانصمام الى أحدهما دون الآخر ، فضلاً عن أنه – كنائب أيوبي – مرتبط بالأيوبيين في مصر والشام ولا يستطيع إنجاد الخوارزميين إلا بأمرهم ، إضافة الى هذا فإن عدد قواته ضئيل لا أهمية له ، ثم قال : «وأما صاحبها آمد وماردین فلا يسمعن مني ولا يمثلان أمري ، وليس يخفى علينا أنها كانتا يكابدان السلطان جلال الدين فيختبر – هذا – عقائدتها في الاستحضار ويسير ضمائرها في الإنجاد على التتار ، ليعلم أن زعمهم باطل »<sup>(٢)</sup> ، كما أوضح – صاحب ميافارقين – لرسول جلال الدين أن الملك الأشرف صاحب دمشق مهم بنجدة جلال الدين ، وأنه لم يقصد مصر لاستصحاب قواتها لهذا الغرض . فقال الرسول : « ستذكرون ذلك

(١) ابن الاثير ، الكامل ٢٠٦/١٢

(٢) النسوی ، سيرة جلال الدين منكريتی ص ٣٧٢ - ٣٧٤ ، النويری ، نهاية الإرب

القسم المخطوط ٤٢٥ - ١٠٥ ) .

حين تبلون بمجاورة التتار والأسف لم ينفع «<sup>(١)</sup>».

كان جلال الدين في حاني - بديار بكر - ينتظر جواب الرسالة فلما جاءه رسوله بالرد ، اتفق مع أمرائه على ترك معداتهم في ديار بكر ، والانسحاب بسرعة الى أصفهان في بلاد فارس . وفي اليوم التالي وصلهم رسول صاحب آمد الأرتقى بر رسالة تشتمل على تقديم الخدمة والطاعة . لجلال الدين فيها التوجه الى بلاد سلاجقة الروم ومحاولة الاستيلاء عليها واتخاذها قاعدة للصمود بوجه التتر ، فضلا عن أن انتصاره على هؤلاء السلاجقة سيلقي الرعب <sup>(٢)</sup> في قلوب التتر وسيتيح له الإبقاء على التحالف مع القفجاتي في شمالي أرمينية ، بناء على رغبة هؤلاء في التحالف معه ضد عدوهم المشترك ، وأوضح صاحب آمد في رسالته بأن السلطان إذا عزم على ذلك خرج هو بنفسه على رأس أربعة آلاف فارس ، وأنه سوف لن يفارق خدمته إلا بعد تصفية بلاد سلاجقة الروم وضمها الى أملاك جلال الدين . وكان صاحب الروم قد أوعز صدر صاحب آمد ذلك العام ، بسبب استيلائه على عدد من القلاع التابعة له . فصال السلطان جلال الدين الى كلام صاحب آمد وعسكر عند جسر بالقرب منها « فكان مثله مثل الفريق يتعلق بما تصل إليه يده وقد قصر عن السباحة وكده »<sup>(٣)</sup> . وانصرف جلال الدين تلك الليلة الى الشراب ولم يأخذ حذره من التتر الذين كانوا يلاحقونه آنذاك . وما أن طلع الفجر حتى قاموا بهجوم مباغت على معسكره وفرقوا جنده أيدى سبا ، فانهزم طائفة كبيرة منهم الى بلاد فارس وانهزم السلطان الى أسوار آمد والتتر خلفه . وكانت آمد قد اضطربت ، وظن أهلها أن

---

(١) النسوى ، سيرة منكدرقى ٣٧٤ - ٣٧٥ ، التورى ، نهاية الإرب (القسم المخطوط ١٠٤/٢٥).

(٢) النسوى ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ، التورى (القسم المخطوط ١٠٤/٢٥ - ١٠٥).

الخوارزمية أرادوا الفدر بهم<sup>(١)</sup> فلم يفتحوا لسلطانهم الأبواب بل رموه بالحجارة واضطروه على الابتعاد عنها، فلما يئس من الالتجاء إليهم فرّ هارباً ويرفقته زهاء مائة فارس، فوصل قرينة من قرى ميافارقين .. وهنالك جا به التتر وقتلوا أكثر أصحابه وتكن هؤلئك هو ثانية من الفرار . وجدد التتر في طلبه إلى أن أصارهم اليأس .. وفي إحدى الجبال القريبة من ميافارقين قتله أحد الأكراد<sup>(٢)</sup> . وقد بلغ من شدة انهزامية المسؤولين في آمد أن رسول جلال الدين - الكاتب النسوی المعروف - التجأ إليهم بعد تمكنه من الهروب من التتر ، وعندما حاول مغادرة آمد إلى الشرق للحاق ببقية الخوارزمية منعوه من الخروج طيلة شهرين<sup>(٣)</sup> خوفاً من إثارة المشاكل ضدهم .

وما أن تزقت قوات جلال الدين ، حق انفتح الطريق أمام التتر في ديار بکر ، فراحوا ، خلال مطاردهم للسلطان ، يقتلون وينهبون ويخربون ، فنهبوا سواد آمد وإرزن وميافارقين ، وقصدوا مدينة اسمرد فقاتلهم أهلها ، فبدل

(١) يذكر القزويني (آثار البلاد ص ٤٩٢) أن خوارزمشاه عندما اقترب من آمد وأخبره أحدهم بقرب التتر منه قال : إن هذا المخبر من عند صاحب آمد يريد إبعادنا عن أرضه .

(٢) النسوی ، سيرة ص ٣٧٨ - ٣٨٠ . ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ورقية ٤٣١ - ١٠٨ - ب ) ، ابن الأثير ، الكامل ١٢ / ٢٠٦ ، ابن العبری ، مختصر ص ٤٣٢ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨ / ٦٦٦ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ١٥٣ - ١٥٧ (عن النسوی ) ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ١١١٥ - ١١١٦ (عن النسوی ) ، اليافعي ، مرآة الجنان ٤ / ٦٥ ، القزويني ، آثار البلاد ص ٤٩٢ ، ابن دحلان ، الفتوحات ٢ / ٥٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب (القسم المخطوط ٢ / ٢٧٣ - ٢٧٤ ) ، العموري ، مسائل الأ بصار (القسم المخطوط ٣ / ٢٧٤ - ٢١٦ ) ، التوييري ، نهاية الإرب (القسم المخطوط ٢ / ٤٠٤ - ١٠٥ ) ، ابن دقماق . نزهة الأنام (مخطوطة ٢ / ٤ ) .

(٣) النسوی ، سيرة منكربني ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

التر لهم الأمان ، ولما وثقوا بهم واستسلمو لهم ، أعملوا فيهم السيف وكادوا أن يأتوا على آخرهم ( حوالي خمسة عشر ألف قتيل ) ، ثم توجهوا إلى طنزي ففعلوا بها كذلك « وساروا في البلاد ، لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم » فوصلوا إلى ماردین ونهبوا ما قدروا عليه من بدها ، واحتلوا صاحبها وأهالي المناطق المجاورة بالقلعة . ثم تقدم التتر إلى نصبيين فنهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به ، وإذا استعصت عليهم عادوا عنها إلى سنجار ونهبوا أعمالها ، ودخلوا الخابور فنهبوا وقتلوا ثم ولو وجههم شطر الموصل ، ففعلوا بها ما فعلوه في المناطق الأخرى ، ومن ثم عادوا إلى ديار بكر ثانية ونهبوا القرى الحبيطة بأمد مرة أخرى ، وساروا منها إلى بدلیس فأحرقوا مدینتها ، وتقدموها إلى خلاط - في أرمينية - واستولوا على بعض أعمالها عنوة وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها في ذي الحجه<sup>(١)</sup> ومن ثم عادوا إلى بلادهم .

يدرك ابن الأثير أنه اطلع على كتاب موجه من أحد سكان الري في بلاد فارس إلى بعض أصحابه في الموصل ، يبين فيه أن هدف التتر من عملياتهم هذه لم يكن النهب والتخيير « وإنما أرادوا أن يعلموا ، هل في البلاد من يردهم أم لا ؟ فلما عادوا أخبروا ملوكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع ، وأنها خالية من ملك وعساكر ، فقوى طمعهم ، وسوف يقصدونكم .. فانظروا لأنفسكم<sup>(٢)</sup> »

(١) ابن الأثير ، الكامل / ١٢ / ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ابن خلدون ، العبر / ٥ / ٣٠٦ - ٦٠٧ ، ١١١٥ - ١١١٦ ، وذكرها باختصار كل من سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان / ٨ / ٦٦٦ ، ابن الوردي ، تتمة ١٥٣/٢ - ١٥٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية / ١٣ / ١٢٨ - ١٢٩ - اليافعي ، مرآة الجنان / ٤٥ / ٦٥ ، العمري ، مسائل الابصار ( القسم المخطوط ٢٧/٣ - ٢٢٥ - ٢٢٦ ) ، ابن واصل ، مفرج الكروب ( القسم المخطوط ٢٧٥/٢ ) .

(٢) الكامل / ١٢ / ٢٠٨ .

وهكذا تحقق للتر في هذه الهجمات ضعف الإمكانيات الدفاعية للجزيرة عامة وديار بكر خاصة ، بسبب التناحر الذي شهدته المنطقة آنذاك وعدم استجابة أمرائها للدعوة جلال الدين . ولذا فما أن اطمأن التر إلى هذه الحقيقة وهي « خلو البلاد من مانع » حتى بدؤوا استعدادهم لفرض سيطرتهم عليها .

وبقتل جلال الدين انهارت القوة الإسلامية الأساسية التي وقفت بوجه الخطر التترى عقوداً طويلاً ، ورغم ما أثاره الخوارزميون من انشقاقات ومنافسات في مناطق أرمينية والجزيرة إلا أنهم سعوا أخيراً إلى توحيد الجبهة الإسلامية المقاومة للتر ، وإن لم يفلحوا في ذلك قرروا الانسحاب إلى أصفهان ، ريثما ينظموا قوام من جديد ، ولكن المشروع الذي تقدم به صاحب آمد الأرتقي ، غيرت جرى الأحداث ووجهها باتجاه معاكس تماماً، إذ قرر جلال الدين إجابة طلبه وتقدم إلى آمد للالتقاء بمحليفه ، ولكن التر جاءه هناك وكان بإمكانه أن ينجو منهم لو أن حليفه وفي بما وعد وفتح له أبواب آمد ، ولكنه نكث بوعده خوفاً من العاقبة وترك جلال الدين يلاقى مصيره وحيداً .

وهكذا لعب صاحب كيما وآمد دوراً رئيسياً في الأحداث الخطيرة التي تقررت على أثرها وجهة جديدة لسيرها ، ليس في المنطقة فيحسب بل في العالم الإسلامي كله . وكان صاحب آمد ، بتحريضه جلال الدين على سلاجقة الروم ، في فترة ، كان التر فيها يتهددون كيان المسلمين ، قد لعب دوراً سلبياً في سبيل تحقيق مآربه الشخصية وأعطى مثلاً على العرافقيل التي وضعها الأمراء المحليون ، وعلى رأسهم الأرتقا ، في سبيل اتخاذ إجراء موحد ضد الخطر الجديد .

وفي نفس العام أعاد التر الكرة على الجزيرة وأرمينية ، فقتلوا وأسرموا وسبوا وتصدى لهم عسكر حران « فما رجع منهم إلا القليل » ، وما لبث التر أن

تراجعوا لدى ساعهم بتقدم الكامل لقتاهم<sup>(١)</sup> . وأعقب ذلك قيامهم بهجمات عديدة على مناطق الموصل والجزيرة ، وأرمينية<sup>(٢)</sup> ، وكان هدفهم الأول من ذلك كله هو معرفة مدى مقاومة أمراء هذه المناطق لهم ، ونقاط الضعف التي يمكن أن ينفذوا من خلالها إلى أهدافهم .



وفي عام (٦٣٨ = ١٢٤٠ م ) ، انتقل التتر إلى المرحلة الثانية من مخططهم تجاه المنطقة وهي العمل على إيجاد قواعد دائمة لهم فيما . فأرسل خاقانهم أوغطاي بن جنكيزخان رسالة إلى صاحب ميافارقين الأيوبي مبتدأه بدء من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ، ملك الشرق والغرب خاقان » وقال الرسول التترى لصاحب ميافارقين : « قد جعلك خاقان سلاح داره » وأمرك أن تخرب أسوار بلدك » فأجاب : « أنا من جملة الملوك وبلا دي حقيقة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر فتوجه إليهم وما فعلوه فعلته »<sup>(٣)</sup> . وقد استهدف من ذلك كسب الوقت لكي يستطيع أن يعرف موقف بقية القوى الإسلامية من مطالب التتر في هذه المرحلة الجديدة . ولكن هؤلاء لم يسمحوا لأنفسهم بالانتظار وإنما اتخذوا ذلك التهديد وسيلة لشن هجومهم على المنطقة . وقد تذكروا في عام (٦٤١ = ١٢٤٣ م ) ، من الاستيلاء على أقسام واسعة من

(١) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٧٣/٨ ، ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ٦٢٧/٦ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٩٥/٨ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١١٠ ب ) ، ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ، المقرizi ، السلوك ١ / ١ / ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٧٣٣/٨ ، الذهي ، دول الإسلام ١٠٨/٢ ، المقرizi ، السلوك ١ / ٢ / ٣٠٧ - ٣٠٨ .

بلاد سلاجقة الروم وإخضاعها لحكمهم ، ولكنهم أبقوا سلطانها عبلاً لهم يدفع إليهم كل سنة مبلغاً من المال<sup>(١)</sup> . وأخذوا يستخدمون هذه البلاد كقواعد لشن هجماتهم المستمرة على المناطق المجاورة وتوسيع نفوذهم فيها . وقاموا في العام التالي (١٢٤٢ = ٥٦٤٢ م) ، بهاجمة ميافارقين فاضطر صاحبها شهاب الدين غازي إلى مغادرتها لطلب النجدة تاركاً نائبه فيها . فنازلها التتر وضايقوها وقاموا من هناك بغارات على منطقتي آمد وماردين « وعاثوا في ديار بكر أشد العيث »<sup>(٢)</sup> ، فراسلهم نائب ميافارقين وصانعهم بمال فرحلوا عنها<sup>(٣)</sup> .

وفي عام (١٢٥٢ = ٥٦٥٠ م) ، شهدت الجزيرة وديار بكر بالذات أعنف هجوم تترى بقيادة هولاكو شقيق منكوحان ملك التتر ، نهوا خلاله معظم أعمال ديار بكر وقتلوا وأسرموا ما يزيد على العشرين ألفاً ، وصادفوا قافلة خرجت من حران في طريقها إلى بغداد عند رأس العين فصادروا أموالها وقتلوا تجارها ، وهرب الناس عبر الفرات خوفاً منهم ، ومن ثم عاد التتر إلى خلاط<sup>(٤)</sup> .

(١) المقريزي ، السلوك / ٢ / ٣١٣ ، اليافعي ، مرآة الجنان / ٤ / ١٠٤ .

(٢) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ١٩٤ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١١١ ب ) ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان / ٨ ٧٥١ ، ابن الفوطي ، الحوادث ص ١٩٤ . وهو يختفي في القول بأن التتر استولوا في هذه الكرة على ماردين صلحًا . واضح أن ماردين حافظت على استقلالها الكامل حتى عام (١٢٥٠ = ٥٦٥٢ م) .

(٤) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان / ٨ ٧٨٧ - ٣٨٤ . المقريزي ، السلوك / ٢ / ٣٨٣ - ٣٨٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية / ١٣ ١٨٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الظاهرة / ٧ ٢٥ ، ابن العماد ، شذرات / ٥ ٢٤٩ .

وازاء هذه الهجمات اضطر أمراء المنطقة الى التوجه الى منكوخان ملك التتر في اواخر عام (١٢٥٢ م ) ، لعلهم يصلون عن طريق المفاوضة الى نتيجة تحفظ ممتلكاتهم لقاء بعض التنازلات لعدوهم ، واجتمع لدى ملك التتر آنذاك كل من صاحب ماردين وصاحب الموصل وصاحب ميافارقين وصاحب سيس الأرمني (ليفون بن هيئوم ) ، وهناك جرى نقاش حاد بين صاحب ماردين الأرتقي وصاحب ميافارقين الأيوبي ، إذ ادعى كل منها أنه أحق بالملك من صاحبه وأكبر بيته منه فقال لها منكوخان : « ليصف كل منكما ملكه » ! فراح كل منها يصف بلاده وممتلكاته وأخيراً أخذ منكوخان بيد الملك العادل صاحب ميافارقين وأجلسه فوق الملك المظفر صاحب ماردين وقال أنت أكبر منه !! ثم أمرها بالصارعة فاصطربا بين يديه فتغلب المظفر صاحب ماردين على الكامل ، فجهزها الملك للعودة ، وكتب معها كتاباً الى أخيه هولاكو المقيم في المنطقة يوصيه بها ، وقال لها عند وداعه : « لا تجتمعا بي بعد ذلك إلا من أطلبه » ، وأمركم عائذ الى هولاكو<sup>(١)</sup> !!



تعتبر تلك المقابلة حدأً فاصلاً في علاقات الاراتقة الخارجية ، إذ أنهم منذ سنة (١٢٥٠ م ) أعلنو طاعتهم للتتر ودخلوا تحت حماتهم . وقد اضطر صاحب ماردين الى قبول هذه التنازلات بعد ما رأى من هجمات التتر على المنطقة ، وتهديد إمارته على أيديهم مراراً عديدة ، وإدراكه أن الاستمرار على الوقوف بوجههم أو على الأقل اتخاذ موقف محابٍ تجاههم ، سوف يؤدي الى اكتساح إمارته ، فأسرع مع بقية الأمراء لمقابلة ملوكهم ، وحاول أن

---

(١) ابن شداد ، الأعلام ( مخطوطه ١١٢ ب - ١١٣ ) .

يستغل هذه المقابلة وقبول حمایة التتر للتتوسع على حساب جاره الأيوبي في ميافارقين ، فراح يتندح ملكه وأنه أكثر عراقة من جاره ، وأدرك الملك التتر أن أمراء المنطقة وخاصة ماردين لم يكونوا من تخشى سطوتهم فراح يسخر منهم ويطلب أن يتصارعوا أمامه ، وربما كان صاحب ماردين قد استهدف من وراء هذه المقابلة أن يكسب الوقت ، ربما يطلع على النتائج النهائية للصراع بين التتر والقوى الإسلامية ، ليقدر بعد ذلك موقفه منهم . أما جاره صاحب ميافارقين ، فقد كان أكثر إخلاصاً وتفانياً في الدفاع عن استقلاله وعن كيان المسلمين ، إذ أنه ما أن عاد من المقابلة حتى خلع طاعتهم واعتقل نوابهم<sup>(١)</sup> .

في السنوات التالية ، وبينما كان الكامل – صاحب ميافارقين – يقوم باتصالات شخصية مستمرة بالناصر الأيوبي صاحب الشام لتوحيد خططها بوجه التتر ، كان صاحب ماردين يتبع سياسة سلبية نحو التتر ، وما أن عاد الكامل من الشام عام ( ٦٥٥ھ = ١٢٥٧ م ) ، بعد مقابلته للناصر ، حتى وصلته الأخبار عن تقدم التتر إلى بلاده لاكتساحها ، فعمل على اتخاذ الإجراءات الدفاعية استعداداً لمحابية الهجوم التترى وذهب إلى آمد ليجرد قوة عسكرية إلى ميافارقين ، وحينذاك انشق عنه ( الأوى ) أحد كبار أمرائه بسبب حقده على سيده في قضية شخصية ، مما دفعه إلى مكاتبنة التتر وإعطائهم وعداً بالعمل على تسليمهم ميافارقين ، ومن ثم اتجه إلى ماردين وأطلع صاحبها الملك السعيد على تحركات التتر ليأخذ حذره منهم ، وبقي الأوى في ماردين إلى أن وصل التتر إلى ميافارقين فتوجه إليهم<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١١٤ ) ، ابن العبري ، مختصر ص ٤٨٣ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١١٥ ) .

ما أن نزل التتر على ميافارقين<sup>(١)</sup> في عام (١٢٥٨ = ٦٥٦ م) ، حتى  
وصلتهم نجدات الأمراء الذين دخلوا تحت حمايتهم منذ عام (١٢٥٠ = ٦٥٣)  
وهم صاحب ماردين وصاحب الموصل<sup>(٢)</sup> . وفي مطلع صفر وصل  
إلى ماردين الوفد الأيوبي لمقاؤضة التتر بشأن ميافارقين ، وكان الوفد برئاسة  
عز الدين بن شداد ، المؤرخ المشهور ، يصحبه الملك المفضل صلاح الدين . وأقام  
الوفد بماردين ليلتين واجتمع بأميرها الملك السعيد ، وأنهى إليه رسالة شفهية من  
الملك الناصر ، تتضمن استشارته في أمر التتر ، فلم يحبهم صاحب ماردين بكلمة  
وقال : « قد ضجرت من نصحي إيه » فقادره الوفد إلى ميافارقين ، وفي  
الطريق صادفوا قوة من التتر بالقرب من مدينة صور كانت بصد الإغارة على  
الجزيرة ، فقدم لهم الوفد الأيوبي هدية واستأنفوا سيرهم بعد أن أرسلوا بطاقة  
إلى ماردين وحران بتحذير أصحابها من العدو . وإذا لم تسفر مقاومات الوفد  
مع التتر عن نتيجة<sup>(٣)</sup> ، عاد ثانية إلى ماردين واجتمع ب أصحابها فقال هذا  
لابن شداد رئيس الوفد : « قد بلغني ما فعلته في حق المسلمين فجزاك الله خيراً »  
ثم قال : « أنا أقرض أصحابكم - أي الناصر - ثلاثة ألف دينار ، ويستتر  
لي ثلاثة آلاف فارس أقتربهم عليه ، ويصل إلى حلب بنفسه ، وله علي أن  
أرحل التتر عن ميافارقين ، فإذا بلغت غرضي من ذلك اتفقت معه على قصد  
الموصل وإخراجها من يد هذا المنافق » - يعني بدر الدين لولو - فاستحلفه  
ابن شداد على ذلك فحلف له . ومن ثم توجه الوفد إلى حران فوافاه هناك

(١) يحيطى ، المقريزى (السلوك ٤١/٤١) في قوله بأن التتر نزلوا أولًا على ماردين فلم ينالوا منها شيئاً فرحلوا عنها إلى ميافارقين وحاصروها ، إذ لم يشر أى من المصادر الأخرى إلى ذلك .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق (مخطوطة ١١٥ ب - ١١٦ آ).

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١١٦ - ١١٧ آ.

كتاب صاحب ماردين يذكر فيه أن التتر ندموا على إقامتهم على ميافارقين وعزموا على ردك اليهم لتوقف بينهم وبين صاحبها ، فلم يلتقط الوفد إلى ذلك واستأنف رحلته إلى حلب وهناك وفاة كتاب آخر من صاحب ماردين يذكر فيه أن اشوط ( القائد التترى ) رحل عن ميافارقين واستخلف عليها ( سباعي ) في ثلاثة آلاف رجل ليمنعوا أصحابها عن الخروج ، وكان السبب في رحيلهم كثرة الأمطار والثلوج وانعدام الأقوات وانتشار الوباء في خيولهم ، وكان رحيلهم في أواخر ربيع الأول ، ورسل الكامل تتواءر خلال ذلك إلى دمشق مستصرخين دون جدوى . وقام ابن شداد بمقابلة الناصر وأطلعه على ما أشار به صاحب ماردين « فلم يحر جواباً »<sup>(١)</sup> ، ومن ثم عاد التتر إلى ميافارقين وهاجوها بقوة وتمكنوا من فتحها ( ٦٥٧ - ٥٢٥ م ) ، بعد أن هلك معظم أهلها دفاعاً عنها ، وبقبض التتر على الكامل وقتلوه وطافوا برأسه في مدن عديدة ... وقاموا بإخراج أسوار ميافارقين<sup>(٢)</sup> .

ومن ثم تقدم هولاكو على رأس قواته إلى آمد ( التي كانت تابعة آنذاك لميافارقين يحكمها نائب الكامل ) ، ونزل عليها في أواخر عام ( ٦٥٧ - ١٢٥٩ م ) ، وبعث رسلاً من هناك إلى الملك السعيد صاحب ماردين يستدعيه إليه فسیر إليه هذا ولده الملك المظفر قرا أرسلان وقاضي القضاة مهذب الدين

(١) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١١٨ آ - ب ) .

(٢) المصدر السابق . ورقة ١٢١ ب ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ٢٠١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٥٩ - ٤٣٢ ، ابن القوطي ، الحوادث من ٣٤٠ ويخطيء باستبداله اسم الكامل بالأشرف ، رشيد الدين ، جامع التواریخ ص ٣١٩ ، ابن دحلات ، فتوحات ٢/٥٧ ، التوریی ، نهاية الارب ( القسم المخطوط ٢٥/١٢٢ - ١٢٤ ) ، خواند میر ، حبیب السیر ، الجلد الثاني ، الجزء الاول ص ٥٦ - ٥٧ .

محمد بن علي والأمير سابق الدين بلبيان وهو من أكابر أمرائه ، وأرسل معهم هدية ورسالة تتضمن الاعتذار عن إبطائه عن المثال والحضور لمرض منعه عن القدرة والحركة ، ووافق وصول رسول صاحب مارددين استيلاء هولاكو على قلعة اليابانية ، العائدية لميافارقين ، وإنزاله من كان بها من حريم الملك الكامل وأولاده وأقاربه . فلما حضر رسول الملك السعيد لدى هولاكو أطلعهم على مصير آل الكامل ليؤثر على معنوتهم ويلقي في قلوبهم الرعب .. فلما قدموا الهدية وأدوا رسالة الاعتذار قال هولاكو : « ليس مرض الملك السعيد صحيح وإنما هو متعارض » ، وقد بدأ ذلك - انتظار - مقابلتي للناصر حتى يرى ما يتم لي معه ، فإن انتصرت عليه اعتذر بزيادة المرض ، وإن انتصر على فتكون له - أي للسعيد - اليد البيضاء ، إذ لم يجتمع بي ، ولكن لو كان للناصر قوة كافية لم يكتفي من دخول هذه البلاد . وقد بلغني أنه بعث حرمه وحريم أمرائه وكباره رعيته إلى مصر وهذا يدل على الهرب فلو نزل الملك السعيد إلي ، لرعيت له ذلك<sup>(١)</sup>. ثم أمر هولاكو برجوع القاضي وحده واحتجز عضوي الوفد الآخرين . فعاد القاضي وأخبر السعيد بما جرى ، وأعلمه بأنه رأى عند هولاكو عز الدين وركن الدين ولديه غياث الدين سلطان سلاجقة الروم ، فتألم السعيد لها وندم على إرسال ولده وبعث رسلاً إلى الملك الناصر يستحثنه على التقدم إلى حلب ، ويبيده أنه متى وصل إليها رحل هو إليه برجاته وماله ، كما أرسل رسول آخر إلى هولاكو ليقدم إليه هدية ثانية - في الظاهر - وليتصل - سراً - بـ ابن السعيد ولدي سلطان سلاجقة الروم ويحرضهم على الهرب فنفذ الرسول هذه المهمة وقال لمعز

(١) ابن شداد ، ورقة ١٣٥ آ - ب . ونقل عنه اليونيفي ٣٤٢/١ - ٣٤٣ ، وابن تفري بودي ، النجوم الظاهرة ٤/٧ ، وابن العياد ، شذرات ٥/٢٨٧ - ٢٨٨ ، السبكي ، طبقات الشافعية ٥/١١٦ - ١١٧ .

الدين بن سلطان سلاجقة الروم : إن هدف هولاكو من الإبقاء عليك هو تهديد الملك الناصر بك ، لاحبة لك ورغبة فيك فأوسع الحيلة في الانفصال عنه والخذل منه ، فشكراً عز الدين على ذلك وقال « والله ما خرجت البلاد من أيدينا إلا بتخاذل بعضاً عن بعض فلو كانت الكلمة مجتمعة لم يجر علينا ما جرى »<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

### المجوم على ماردين وأخضاع الأراثة :

استطاع هولاكو خلال ذلك أن يستولي على آمد وحران وسرورج وعدد آخر من مدن وحصون الجزيرة<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم قرر إرجاء أمر ماردين ، رينا يصفي حسابه مع الشام فعبر الفرات على رأس قواته الضخمة إلى حلب واستطاع أن يستولي عليها في المحرم عام ( ١٢٥٨ = ٥٦٥٩ م ) ، وينشر في ربوعها القتل والفتوك والدمار ، وكان صاحب ماردين ، خلال ذلك ، قد مرض وأشرف على التلف ثم شفي من مرضه وأرسل إلى هولاكو يطلب منه إعادة الأمير سابق الدين بلبيان أحد أعضاء وفده إلى التتر ، فبعث به هولاكو إليه ، وكان قد استأله في مدة احتجاؤه عنده ، فلما اجتمع بصاحب ماردين أخبره بما لقى أهل حلب من القتل والسي و الفتوك ليخوفه ، وأشار عليه بتسيير هدية أخرى ، ثم

(١) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٣٥ - ١٣٦ ) نقل عنه اليونيفي ، ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٤٣ - ٣٤٤ . وانظر السبكي ، طبقات الشافعية ٥ / ١١٦ - ١١٧ .

(٢) ابن شداد ، ورقة ١٢٦ ب ، ابن العربي ، مختصر ص ٤٨٦ ، ابن القوطي ، الحوادث ص ٣٤٠ ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التوارييخ ص ٣٠٦ ، ابن الوردي ، ٢٠٢/٢ ، ابن خلدون ، العبر ٤/١١٥٤ ، القرزي ، السلوك ١/٤١٩ .

فُل عائداً يصحبه رسول آخر بهدية إلى هولاكو ، فلما وصل إليه وجدها على عزاز وقد عاد من حارم ، فاجتمعا به وقدموا له الهدية وأشار عليه سابق الدين أن يستميل الرسول الآخر (عز الدين بن بطة) فاستدعاه هولاكو سرّاً وقال له « اقض لي حاجة اقض لك ألف حاجة » ، قال ما هي ؟ قال : أريد منك أن تعرفي ، هل أن الملك السعيد مريض حقيقة أم متارض ؟ فقال : كان متوعكاً وأزداد مرضه عند أخذك حلب ثم عوفي ، فقال : إذا ألمته بالجحيم فهل تعلم أنه يفعل ؟ قال : ما يفعل أصلاً ، قال لأي سبب ، قال : لأشياء كثيرة منها أنكم لا تفون لأحد ، ولا تتفون عند كلام تقولونه ، وأنكم تهينون الملوك ولا ترعون حقوقهم ، وأنكم تكفوهم ما لا تطيقه نفوسهم ، وقد تحقق أنه مقى نزل اليك قتلتة ، قال : فإن قصتك فهل يقدر أن يمنع نفسه من ؟ قال : نعم ، قال بأي شيء قال : بمحاصنة قلعته ، وبما فيها من الذخائر والأقوات فإنه ادخر فيها قوت أربعين سنة !! فلما فرغما من الكلام قدم له هولاكو هدايا ثمينة استألة له وصرفة ، فلما أصبح استدعاه سابق الدين ، وكتب للسعيد جواباً مضمونه « إني قد أغفتك من النزول فطيب قلبك » ثم اجتمع سراً ب سابق الدين ، واتفق معه على استئلة أكابر أهالي ماردین وأعيانها وأمرائها وأجنادها ، وكتب لهم مراسيم بذلك وألزمهم بتتكلف هذا الأمر ، فأشار عليه سابق الدين أن يرسل معه الملك المظفر بن السعيد ليطمئن قلب أبيه بذلك ، فأجابه إلى ما طلب وسيره مع الرسولين ، فلما وصل أديا الرسالة ، ثم خلا عز الدين بطة بالسعيد وعرفه ميل سابق الدين هولاكو « وأنه عليه لا له » ، وأن التتر سيفيدون من دسائسه ، ففت ذلك في عضد السعيد ، وكان قد سير سابق الدين ببلدان - إثر ذلك - بهدية ثلاثة ورسالة اعتذار إلى هولاكو . وما أن غادر بلدان ماردین حتى اجتمع بعض علمائه بالسعيد وعرفوه بمهله إلى هولاكو وقالوا له ، إنه مقى اجتمع به أفسد عليك الأحوال وأن المصلحة أن تقضي

عليه قبل وصوله الى معسكر التتر ، وجاء ذلك تعزيزاً لما ذكره عز الدين بطة عنه ، فأرسل صاحب ماردين في طلبه يأمره بالعودة ليرسله ثانية الى هولاكو برسالة جديدة لأمر تجدد بعد مغادرته ماردين ، واتخذ ذلك حيلة للقبض عليه ، إلا أن أحد أمراء صاحب ماردين ، من حصلوا على مرسوم من بلبان ، أرسل غلاماً اليه ليطلعه على عزم صاحب ماردين القبض عليه ، فلما حصل ذلك الغلام وهو على دنيسرا وأبلغه الرسالة وأنه متى عاد الى ماردين قبض عليه ، فلما حصل بلبان هولاكو ولم يعد الى ماردين ثانية<sup>(١)</sup> .

تأكد الملك السعيد من أن التتر لا بد وأن يقصدوا ماردين ، فاستعد لقتالهم ونقل ما كان في البلد من الذخائر الى القلعة . وبعد أربعة أيام وصلت رسائل من هولاكو يحملون هدية للملك السعيد ، وعقب ذلك بفترة قصيرة وصلت قوات التتر بقيادة هولاكو فنزلت على ماردين في مطلع جمادى الأولى سنة (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م ) ، ولم يعلن هولاكو القتال طيلة ستة عشر يوماً . ويدرك ابن شداد أن هولاكو كان يقوم خلال هذه الفترة ، مع قواده ، بالاشراف على القلعة ودراسة تحصينها . ثم غادر وبعض قواته ماردين الى خلاط ، وأرسل من هناك رسالة الى صاحب ماردين يتلمس منه أن يفتح أبواب البلد ليدخل عسكره ويتمكنون منها بالآقوات والملعوقات أيامًا قلائل قبل أن يرحل عنها . فأخذ لهم السعيد بذلك فدخلوها وترددوا في الدخول والخروج بحرية تامة فلما كان عصر اليوم الثاني والعشرين من جمادى الأولى تسلق التتر أسوار البلد ودقوا الطبول وجردوا السيوف وهاجوا البلد فقاتلهم أهاليه في الأزقة والشوارع والمنطفات ودام القتال ثلاثة وستين يوماً الى أن فتح لهم بعض مقدمي البلد

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطه ١٣٦ - ١٣٧) .

دربياً فسيطروا عليه ودخلوا منه إلى الجامع وصعدوا المنائر وأخذوا يرمون منها بالنشاب فضعف أهل البلد عن حفظ الدروب ، واستغل التتر الكنائس كنقط للاحتماء « لباطن كان لأصحابها مع التتر » فانسحب أكثر أهالي البلد إلى القلعة ، وتم للتتر الاستيلاء على البلد . ومن ثم بدأوا بهاجمة القلعة ونصبوا عليها ستة مجازيف لم يصل إلى القلعة منها سوى ثلاثة أحجار ، واستمر الحصار إلى أن خلت سنة (٦٥٩ = ١٢٥٩ م ) ودخلت سنة (٦٥٨ = ١٢٦٠ م )<sup>(١)</sup> .

توفي الملك السعيد في السادس عشر من سنة (٦٥٨ = ١٢٦٠ م ) ، وقيل في ذي القعدة وهو الأصح<sup>(٢)</sup> ، بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة وأهله أكثراً ، فتولى ابنه المظفر الحكيم . ووصل الخبر بوفاة السعيد إلى التتر ، فأرسلوا إلى المظفر وطلبوه منه الدخول في الطاعة ، فبعث إليهم رسولًا ليتعرف على ما أضمرته نفوسهم ، فلما اجتمع بقدميهم وما فطنوين وجرمون قالوا له : إن بين الملك المظفر قراً أرسلان وبين هولاكو وعداً أن ولده مقى مات وتسلم الملك بعده دخل في طاعته ، فقال لهم الرسول « هذا صحيح ولكن أنت أخبرت بلاده وقتلت رعيته فبأي شيء يدخل في طاعته حتى يداري عنه ؟ » فقالوا : قد عالمنا ذلك ونحن نضمن له أن هولاكو مقى اتصل به خبر وفاة الملك السعيد وأن ولده المظفر دخل تحت طاعته عمل ما كان تقرر بينهما ، وعوضه عما خرب من بلاده بلاداً عامرة مماجاوره ». فلما عاد الرسول إلى المظفر وأخبره بما دار بينه وبين مقدمي التتر ، أعاده إليهم بر رسالة أخرى مضمونها « إن أردتم أن أسير رسلي إلى هولاكو ، فابعثنا إلى رهائن من جهتكما تكون

(١) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٣٧ - ١٣٨ ) .

(٢) أنظر ابن دقيق . نزهة الأنام ( مخطوطة ص ١٢٨ ) .

عندى حتى يرجع رسلي » وترددت الرسل بين الجانبين إلى أن تم الاتفاق على أن يرسل ( قطزنيون ) ولده ويرسل ( جرمون ) ابن أخيه ، فلما صعد هذان إلى القلعة بعث المظفر اليهم نور الدين محمود بن كاجار ( شقيق السعيد لأمه ) ، فأصحابه قطزنيون بسابق الدين بلبان وأرسلها إلى هولاكو – وكان حينذاك بالمراغة في بلاد فارس – فأدعا مضمون الرسالة إليه كما سبق وأن تم الاتفاق عليه ، فأجاب إلى ما تعهد به قائداته ولكنها احتجز رسل ماردین عنده ثم أصدر أوامره إلى قواده بالجلاء عن ماردین ففأداروا المكان في رجب عام ( ٦٥٩ = ١٢٦١ م ) ، ومن ثم أعاد هولاكو الرسولين إلى ماردین وأصحابهم بكو هدای - أحد كبار أمراء التتر - فتوجهوا إلى ماردین وتم عقد الصلح بين الطرفين . وأعلن كوهدای إسلامه على يد الملك المظفر فزوجه هذا أخته<sup>(١)</sup> .

ما لبث الملك المظفر أن توجه إلى هولاكو في شهر رمضان من نفس السنة ( ٦٥٩ = ١٢٦١ م ) ، واستصحب معه هدايا ثمينة من تحف ادخرها أبوه وأجداده ، فاجتمع به هولاكو وأكرمه « ثم قال له : بلفني أن أولاد صاحب الموصل هربوا إلى مصر وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا سبب ذلك » ، فاترك أصحابك الذين رافقوك عندى فإني لا آمن أن يحرفك عني ويرغبوك في التزوح عن بلادك إلى مصر ، وإذا ما دخلت البلاد فاستصحبهم معى » ، فأجابه المظفر إلى ذلك ثم قفل عائداً إلى بلده ، وفي الطريق لحقه رسل هولاكو وأمروه بالعودة إليه ثانية ، فعاد « وفرائصه ترتجف خوفاً ، والنوم لا يطرق له طرفاً » ، فلما اجتمع

(١) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٣٨ آ - ب ) ونقل عنه اليوناني ، ذيل مرآة الزمان ٤٧٨ / ١ - ٤٧٩ .

به قال له هولاكو ، إن أصحابك أخبروني أن لك باطنًا مع صاحب مصر ، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك من - التسلل - إليه » ثم عين لذلك أميراً يدعى (أحمد بغا) وأعادها إلى ماردين ، بعد أن أضاف إلى المظفر نصيبين والخابور حسب الاتفاق السابق<sup>(١)</sup> ، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر ضمت إلى آمد التي كانت آنذاك في حالة اضمحلال ، وميافارقين ولربما اسمع<sup>(٢)</sup> ، كاً الحق بإمارته بعض المدن التي سيطر عليها التتر في الجزيرة كقرقيسيا ، حيث أبقى فيها التتر قوة لحفظ المعابر<sup>(٣)</sup> . وأمر هولاكو المظفر بهدم أبراج قلعة (ماردين) . وما أن فارقه هذا حتى ضرب هولاكو رقاب أصحابه وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين وبعضهم من العائلة الأرتقية نفسها ، ولم يكن لأي من هؤلاء ذنب يذكر ، ولكنه قصد بقتلهم أن يقص جناح الملك المظفر<sup>(٤)</sup> .

وقد أورد رشيد الدين<sup>(٥)</sup> رواية تختلف في تفاصيلها وخطوطها العامة عما أورده ابن شداد فهو يذكر أن حصار ماردين تم بعد الانتهاء من فتح ميافارقين مباشرة ، أي قبل التوجه إلى الشام ، إذ أشار هولاكو على قواده الذين استولوا على ميافارقين أن يتوجهوا جميعاً لفتح ماردين حسب ما استقر عليه الرأي ،

(١) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٣٨ - ب) ونقل عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان

. ٤٥٧/١ - ٤٥٨ .

Enc. isl. art Artukids, New ed. (٢)

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٤٤٥ آ).

(٤) ابن شداد ، ورقة ١٢٨ آ - ب ، ونقل عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٤٥٧ -

. ٤٥٨ .

(٥) جامع التواريخ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

ولدى محاصرتها عجبوا من ارتفاع قلعتها واستحکامها ، فأرسل القائد التتری ( أرقتو نویان ) الى الملك السعید يطلب منه أن یهبط من القلعة ویعلن ولاده هولاکو « ملك العالم » ويتهدهد إن لم یفعل ، فأرسل اليه السعید يقول « كنت قد عزمت على الطاعة والحضور الى الملك ولكن حيث إنكم قد عاهدتم الآخرين تم قتلتموهم بعد أن اطمأنوا الى عهدمكم وأمانتكم فإني الان لا أثق بكم ، وإن القلعة بحمد الله تعالى مشحونة بالذخائر والأسلحة وملينة برجال الترك وشجعان الکرد » فأمر أرقتو آنذاك بنصب الجانیق ، وبدأ القتال الذي استمر ثمانیة أشهر . ولما عجز التتر عن الاستیلاء عليها ، أغروا على مدن ماردين ودنیسر وإرزن الحیطة بها .. وأخيراً ظهر الغلاء والقطط والوباء في القلعة ، فكان یوت كل يوم خلق کثیر ، ومرض الملك السعید وكان موقف ابنه المظفر من المشكلة مختلفاً له فكان يقول له : « إن من المصلحة النزول من القلعة إذ ليس في الإمكان مقاومة هذا الجيش » فلم یصغ اليه أبوه فاضطر الى ان یستقیه دواء ساماً قضى عليه ، وحينذاك أرسل ابنه الى القائد التتری يقول : « لقد مات من كان يخالفكم ، فلو صدر الأمر بتوقف الجيش عن القتال فإنما سأنزل وأسلم القلعة » فأمر القائد بالکف عن القتال ، ونزل المظفر مع حاشيته وأتباعه ؛ وقبائل هولاکو فاعترضه هذا على قتل أبيه فأجابه « إنما فعلت ذلك لأنني كلما تضرعت إليه وبکيتك أمامه لکيلا یفرط في القلعة وفي دماء الناس لم یستجب لي ، فأقدمت على هذا العمل الخاص من أجل المصلحة العامة ، لأنني عرفت أن القلعة ستفتح بإقبال الملك ، وأنه سوف یقتل عدةآلاف من الأبریاء ، فالحقيقة أن التضحية بدم واحد خیر من التضحية بمائة ألف ، خصوصاً وإنه كان ظالماً معتدياً ، وقد قتل ابنه والناس غير راضین عنه . وأنا العبد معترف بذنبي ، فلو منحني الملك مقام أبي فإن له ما یشاء » فعفا عنه هولاکو وسلمه مملکة ماردين ..

فلم يسلك سبيل البغي والعدوان أبداً ضد ملوك التتر .

يتضح من مقارنة هذه الرواية برواية ابن شداد كثرة نقاط الضعف فيها ، مما يجعلها موضع ثقة . فهي ترد بأسلوب قصصي يتسم بالبالغة ، وتشير إلى أن ابن سم أباه في وقت كان أبوه مريضاً بسبب الوباء الذي عم القلعة ، ولا داعي لتعجيز وفاته بالسم<sup>(١)</sup> من قبل ابنه الذي برأ عمله أمام هولاكو بأنه أراد الحفاظ على أرواح مائة ألف نسمة ، كما تشير الرواية إلى أن هولاكو اعترض على ابن لقتله أباه في الوقت الذي كان هدف ابن من الاغتيال – حسب سياق الرواية – ففتح أبواب القلعة لقوات هولاكو . كما لا يعقل أن يقوم ابن بتسليم القلعة – ذات الإمكانيات الدفاعية الكبيرة – للتر دون آية شرط أو تحفظات يستفيد منها في المستقبل . وقد أجمعت الروايات على أن هولاكو قام باحتجاز ابن فترة من الزمن جرت خلالها اتصالات عديدة بين التتر وصاحب ماردين ، ولا بد وأن هذه الاتصالات قد استغرقت فترة من الوقت ، بينما تشير رواية (رشيد الدين) إلى أن هولاكو أمر قواته بمحصار ماردين وضررها بعد سقوط ميافارقين مباشرة ، وقبل التوجه إلى حلب وذلك مخالف لسير الأحداث<sup>(٢)</sup> وتصف هذه الرواية صاحب ماردين بالظلم كي تبرر قته من قبل ابنه المظفر ، بينما يشير معظم مترجميه إلى أنه كان عاد لأحسن السيرة . كما يشير كل من ابن

---

(١) انظر ابن دقائق ، نزهة الأنام ( مخطوطه ص ١٢٨ ) .

(٢) توجه هولاكو إلى حلب في مطلع عام ٦٥٨ ( السبكي ) . طبقات الشافعية ١١٦ / ٥ - ١١٧ ، وأرسل قواته من هناك لمحاصير ماردين ( ابن دقائق ، نزهة الأنام مخطوطة ص ١٢٠ ) . ابن واصل ، مفرج الكروب ( القسم المخطوط ٣٩٤ / ٢ ) .

العربي<sup>(١)</sup> وابن الفوطي<sup>(٢)</sup> إلى أن الأب حين أحس بميل ابنه لاتباع الطريق السهل والاستسلام للتنر ، أمر باعتقاله . فكيف تسمى للأخير سُمّ أبيه ؟ هذا فضلاً عن أن ما أورده ابن شداد يعتبر أكثر وثوقاً لكونه عاصر هذه الأحداث وكان طرفاً في الاتصالات والمافاوضات الدائرة آنذاك بين مختلف القوى الإسلامية والتنر ، وعلى صلة بمعظم الشخصيات السياسية ، ثم إن حلب كانت مقر عمله ، وهي القريبة من مسرح الأحداث ، فلا يعقل أن يذكر بأنها سقطت قبل ماردين ، ثم يأتي مؤرخ آخر عاش بعده بفترة طويلة فيقرر العكس ، ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن رشيد الدين عاش بعد فترة طويلة من هذه الأحداث ، وأنه كان المؤرخ الرسمي للتنر ، ونجد في كثير من رواياته تحيزاً واضحاً ، مما يجعلنا لا نرکن إلى كل ما يورده .

★ ★ ★

وهكذا أغدت إمارة ماردين ولاية تترية ينفذ أمراؤها ما يأمرهم به سلاطين التتر ونوابهم في ديار بكر ، ويلتزمون بالخطوط العامة لسياستهم

(١) المختصر ص ٤٨٩ / ٤٨٩ . ويدرك أن هولاكو طلب من صاحب ماردين النزول لمقابلته فابى هذا وأرسل ولده المظفر - الذي كان في خدمة هولاكو سابقاً - فقال له هذا : تصمد إلى أبيك وتطلب منه النزول إلينا وعدم المصيان ، فإن عصى لم يصب خيراً ، فلما صعد المظفر إلى أبيه وخاطبه لم يستمع هذا إلى مشورته بل اعتقله خوفاً من أن يستميله التتر . وآنذاك أحاط هولاك بماردين وبدأ القتال ، ولو لا أن وقع فيها الوباء ومات أكثر أهلها وسلطانهم السعيد ، لما استطاع التتر الاستيلاء عليها في مدى ثلات سنين ، ومن ثم نزل المظفر إلى التتر وسلم اليهم القلعة والمزايلن وتحقق عند هولاكو ما جرى عليه من أبيه فلذلك أكرمه وأحسن إليه وملكه موضع أبيه .

(٢) الحوادث الجامدة ص ٣٤١ - ٣٤٢ . ويظهر أنه نقل روايته عن ابن العربي ، باختصار .

الخارجية وتحركاتهم العسكرية ، ويقدمون لهم المال<sup>(١)</sup> والإمدادات العسكرية ويضربون السكة باسمهم ، ويخطبون لهم<sup>(٢)</sup> ، كما هو السائد في مثل هذه الأوضاع ، كما غدت إمارة ماردين ، أسوة بغيرها من الإمارات المجاورة التي استولى عليها التتر أو دخلت تحت حاليتهم ، مركزاً عسكرياً لجمع قوات التتر<sup>(٣)</sup> وقيامهم بالتهديد المستمر للجهات الغربية من العالم الإسلامي ، وشن غاراتهم وحروبهم عليها بين الحين والآخر . كما غدت هذه المنطقة من جهة أخرى بمثابة الخطوط الخلفية التي تحمي قوات التتر في حالة توغلهم في الشام ، وتقdem بالمؤونة والمال والرجال . وهكذا حقق هؤلاء بإدخالهم إمارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم<sup>(٤)</sup> ، هدفهم الذي عملوا من أجله عقوداً عديدة ، وهو السيطرة على منطقة ديار بكر واحتاذها مركزاً لهجوم أوسع على الجهات الغربية من العالم الإسلامي .

### نواب التتر على ديار بكر :

غدت ديار بكر ولاية تترية يحكمها نواب يعينون من قبل سلاطين التتر يقومون بالإشراف المباشر على القضايا العسكرية والسياسية والمالية للولاية<sup>(٥)</sup> .

(١) انظر اليونيني ، ذيل مرآة الرمان ٢٣٦/٢ ، رشيد الدين ، جامع التواریخ ٢/١٧ ، ٢٤٦ - ٢٤٧ .  
 (٢) أبو الفدا ، المختصر ٤/٧٩ ، المقريزي ، السلوك ١/١٤٧ ، الصائغ ، تاريخ  
 الموصل ص ٢٤٦ ، ٧٦ ، ٧٢/٢ .

(٣) القلقشندی . صبح الأعشى ط ٢ ٤٠ ، ٤١٧/٤ .

(٤) رشيد الدين ، جامع التواریخ ٩٩/٢ وانظر ما يلي من الفصل .

(٥) المصدر السابق ٢/١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٣ ، ١٢ ، أبو الفدا ، المختصر ٤/٢ - ٣ ، ٦٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢١٨/٢ .

(٦) انظر ابن تفري بردی ، التحوم الزاهرة ٩٦/٢٧ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/١٧٨ - ١٧٩ ، وما يلي من الفصل .

وتقدم المصادر أسماء عدد من هؤلاء النواب وسنوات حكمهم . وأشهرهم الأمير ( تودان ) الذي عينه هولاكو<sup>(١)</sup> ، وعندما تولى أبو قاخان بن هولاكو سلطنة التتر عام ( ٦٦٣ = ١٢٦٤ م ) ، عين ( دور باي نويان ) ليشرف على الأمور العسكرية في ديار بكر ، كما عين كلاً من ( جلال الدين طرير ) والملك ( رضا الدين بابا ) ليشرفوا عليها من النواحي الإدارية والمالية ، وعهد بديار ربيعة إلى الملك المظفر فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي<sup>(٢)</sup> ، مما يشير إلى أن الهدف الاقتصادي ، فضلاً عن النواحي العسكرية والاستراتيجية ، كانت تشكل العوامل الأساسية في تثبت التتر بديار بكر ، وليس العامل السياسي أو الإداري كما قد يتبدّل إلى الأذهان ، بدليل إعطاءهم ديار ربيعة لقرا أرسلان أمير ديار بكر على سبيل الإقطاع لكي يحيي ما قدره تلك المنطقة لحسابه الخاص ، وهي فقيرة إذا ما قورنت بثروات ديار بكر عامة . ويوضح هذه الحقيقة ما قام به أبو قاخان نفسه في عام ( ٦٦٦ = ١٢٦٧ م ) ، من إقطاع بعض مواضع ديار بكر لأفراد عائلة هولاكو على طريقة ( الضمان ) ، أي أن يقدموا إليه مبلغًا سنويًا من المال . وكانت هذه المواضع تدر عليهم كل سنة مائة ألف دينار<sup>(٣)</sup> . كما يتضح مما سلف أن التتر لم يكتفوا بتعيين نائب واحد على ديار بكر بل كانوا يعينون أحيانًا نائبين أو ثلاثة نواب معاً<sup>(٤)</sup> . وينذكر اليوناني - في أحداث عام ( ٦٧٤ = ١٢٧٥ م ) - أن مقطع ديار بكر آنذاك كان ( بهاء الدين بن حسام الدين بيحار النابري ) وأنه اتفق سرًا مع البروانة ، أحد حكام سلاجقة الروم ، على التحالف مع مماليك الشام وأن يقدموا إليهم ما كانوا يؤدونه

(١) رشيد الدين ، جامع التوارييخ . ٣٣٨

(٢) المصدر السابق . ١٣/٢ .

(٣) رشيد الدين ، جامع التوارييخ . ١٧/٢ .

(٤) الصانع ، تاريخ الموصل ص ٢٤٣ ،

للتتر<sup>(١)</sup> . وكان ذلك بداية حركات التمرد التي قام بها نواب التتر في المنطقة والقى سيرد ذكرها فيما بعد .

وفي عام ( ٦٧٨ = ١٢٧٩ م ) كان ( بيوراجو بن دورباي ) حاكماً على ديار بكر<sup>(٢)</sup> . وعندما تولى أرغون بن هولاكو سلطنة التتر عام ( ٦٨٣ = ١٢٨٤ م ) عين كلاً من جوشكاب وبابيدو وأروق ليحكموا ديار بكر وال العراق<sup>(٣)</sup> . وقد قام الأخير بمؤامرة ضد السلطان التترى فأرسل هذا من قبض عليه وقتله ( ٦٨٨ = ١٢٨٩ م )<sup>(٤)</sup> وقد حاول السلطان أرغون أن يعطف على جوشكاب ويعيده إلى منصبه ولكن حمولة هذا للتوجه إلى الشام أثبتت السلطان ضده فأرسل إليه قوة بقيادة عدد من الأمراء أدر كوه قريباً من ميافارقين فقاتلهم وتمكن من الهروب إلا أنهم استطاعوا القبض عليه بعد ثلاثة أيام وسلموه إلى أرغون فقتله في نفس العام<sup>(٥)</sup> ، وعهد بديار بكر إلى شخص يدعى أمين الدولة<sup>(٦)</sup> . ثم يرد بعد ذلك أن ( اسبينا ) كان يحكم ديار بكر في حدود عام ( ٦٩٥ = ١٢٩٥ م ) ، ويظهر أن هذا لم يستطع القيام بمنصبه على الوجه الأكمل ، فعزله غازان سلطان التتر في تلك السنة وعين بدلـه ( بولي ) ، وطلب منه إلقاء القبض على ( طرغاي ) زعيم إحدى القبائل التترية الكبيرة بسبب تآمره على الملك ، وحدثت بين الطرفين معركة

(١) ذيل مرآة الزمان ١١٦/٣ - ١١٧ .

(٢) وشید الدین ، جامع التواریخ ٨٩/٢ .

(٣) المصدر السابق ١٢٨/٢ .

(٤) المصدر السابق ص ١٤٧/٢ ، ابن الفوطي ، الحوادث الجامدة ص ٤٥٧ .

(٥) وشید الدین ، جامع التواریخ ١٤٨/٢ - ١٤٩ .

(٦) وشید الدین ، جامع التواریخ ١٥٢/٢ .

قتل خلاها عدد كبير من أتباع بولاي وفر طراغي الى دمشق<sup>(١)</sup> . وتشير هذه الأحداث الى أن حكام ديار بكر لم يكونوا على مستوى واحد من حيث طبيعة مسؤولياتهم في المنطقة بل اقتضت الظروف من بعضهم أن تكون مسؤولياتهم عسكرية أكثر مما هي اقتصادية أو إدارية وبالعكس<sup>(٢)</sup> . وقد أعقب بولاي حاكم آخر يدعى جنكيلى بن البابا في حدود عام (٥٦٩٨ = ١٢٩٨ م)<sup>(٣)</sup> ، ويشير المقرizi الى أن حكام الشام استقبلوا في عام (٥٧٠٣ = ١٣٠٣ م) حاكم ديار بكر التري الأمير (بدر الدين جنفيلى بن البابا) الذي فرّ من ديار بكر بأهله وأتباعه ، رجعاً تخوفاً من نوايا السلطان ، وقد عين هذا بدلـه أميراً يدعى (قبرتو)<sup>(٤)</sup> ، ثم أعقبـه على ديار بـكر (النوين بـك) حتى عام (٥٧٠٩ = ١٣٠٩ م)<sup>(٥)</sup> ، حيث توفي ، فقام السلطـان خـربـنـدـا بـتعـينـهـ الأمـيرـ (سيـفـ الدـينـ سـوتـايـ بـنـ عـبدـ اللهـ) وـقدـ حـارـبـ هـذـاـ أـحـدـ المـتـمـرـدـاتـ السـلـطـانـ وـقـتـلـهـ وـمـنـ شـمـ عـزـمـ عـلـيـ التـوـجـهـ إـلـىـ حـلـبـ ، فـاتـخـذـ حـكـامـهاـ الـاسـتـعـدـادـاتـ هـذـاـ الـمـجـوـمـ الـذـيـ لـمـ يـتـحـقـقـ<sup>(٦)</sup> . وـيـعـدـ سـوتـايـ مـنـ أـمـ حـكـامـ الذـينـ اـسـتـأـبـهـمـ التـرـ فيـ دـيـارـ بـكـ لـطـوـلـ فـتـرـةـ حـكـمـهـ (٧٠٩ - ٧٣٢ = ١٣٠٩ - ١٣٣١ م)<sup>(٧)</sup> وـلـمـ كـانـ الـمـكـانـ الـكـبـيرـ الـقـيـ كـانـ يـتـمـنـ بـهـ لـدـىـ جـمـيعـ مـلـوـكـ التـرـ ، وـلـكـونـهـ كـانـ

(١) ابن الفرات ، تاريخ ٨/٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) انظر المقرizi ، السلوك ١/٢٥ - ٥٦ .

(٣) المصدر السابق ٣/١٨٧ .

(٤) المصدر السابق ٣/٩٥٦ - ٩٥٥ .

(٥) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/١٧٨ - ١٧٩ ، الصفدي ، نكت المبيان ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٦) المقرizi ، السلوك ١/٢٥ - ٥٦ .

محبوبًا لدى رعيته ولزمته و سياسته<sup>(١)</sup> ، ولذا يصفه ابن تغري بردي بأنه كان من أجل ملوك ديار بكر ، وأنه كان ذات رياضة و وقار<sup>(٢)</sup> .

توفي سوتاي عام ( ١٣٣٦ = ٧٣٢ هـ ) واعقبه ابنه حاجي توغاي ، وقد حاول سلطان المماليك في عهده ، الناصر محمد ( ٦٩٣ - ٧٤١ = ١٢٩٣ - ١٣٤٠ هـ ) عقد تحالف معه ، سعى إلى تحقيقه عن طريق إقامة علاقة مصاهرة بين الطرفين ، ومن ثم أرسل سفيره إلى توغاي . ولكن هذا لم يستجب لدعوة الناصر الذي كان غرضه من ذلك تقوية مركزه في المنطقة ضد الأمراء المعادين . وقد انتهى حكم توغاي بمقتله<sup>(٣)</sup> .

أعقب توغاي على حكم ديار بكر ابن أخي سوتاي إبراهيم شاه بن بارنباي ابن سوتاي عام ( ١٣٣٥ = ٧٣٦ هـ ) ، واستمر في الحكم حتى عام ( ١٣٥٠ = ٧٥١ هـ )<sup>(٤)</sup> ، ويظهر أن ولاية ديار بكر التترية غدت في تلك الفترة شبه وراثية بدليل ذكر القلقشندى لعبارة « سوتاي وبنيه »<sup>(٥)</sup> ، كما يذكر أن إبراهيم شاه هذا استولى على ديار بكر بعد وفاة السلطان أبي سعيد<sup>(٦)</sup> ، آخر

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ١٧٨/٢ - ١٧٩ ، الصندي ، نكت الهميان ص ١٦١ - ١٦٢ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافى ( مخطوطه ١٣٨/٢ ) .

(٢) النجوم الزاهرة ٩ / ٢٩٦ . وانظر المنهل الصافى ( مخطوطه ١٣٨/٢ ) ، الصندي ، نكت الهميان ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) صرور ، بنى قلادون ص ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

Howorth, History of the Mongols, Vol. 111, pp. 637-38, 641-47.

(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤٢١/٤ ، ابن حجر ، الدرر ١٩/١ ، الفزاوي ، النقود ٦٨ - ٩٦ .

(٥) صبح الأعشى ص ٢٦٣/٧ .

(٦) القلقشندى ، مآثر الأنافة ١٤٠/٢ .

سلطين التتر الأقواء عام (١٣٣٥=٥٧٣٦ م ) ، ويظهر أنه استغل سقوط الدولة التترية في العراق هذه السنة وقيام الدولة الجلائرية<sup>(١)</sup> فجعل حكمه لبعض مناطق ديار بكر شبه مستقل . ومنذ ذلك الوقت لم تعد تربط الأرaque بهؤلاء النواب أية التزامات سياسية أو اقتصادية كما كان الحال في السابق ، لأن هؤلاء النواب غدوا أمراء شبه مستقلين شأنهم بذلك شأن الأرaque أنفسهم الذين قطعوا خطبتهم لحكام العراق سواء من التتر او الجلائريين ، إثر وفاة أبي سعيد<sup>(٢)</sup> .

لم يكن مقر نواب التتر في المنطقة ثابتاً ، فتارة كانوا يحكمون بالقرب من آمد<sup>(٣)</sup> ، وتارة بالقرب من الموصل<sup>(٤)</sup> ، وكانت هذه في كثير من الأحيان تعتبر كرسياً لإقليم ديار بكر أي عاصمة إدارية له<sup>(٥)</sup> وكان هذا الإقليم يضم من الناحية الإدارية مدنًا خارجة عن نطاقه كسنجر وحران وجزيرة بن عمر ، مما جعل الأفضلية في إدارته للموصل<sup>(٦)</sup> ، نظراً ل موقعها الوسط . كما اخزن بعض الحكام مثل سوئي المناطق المجاورة للموصل مقرأ له ، فنجد له يشتّي سنوياً في ( بلد ) جنوبى الموصل ، ويقضى أوقاته الأخرى ( بتومانة ) القريبة

(١) انظر زامباور ، معجم الأمراء ٣٧٧/٢ و ٣٧٧ .

Howorth, op. cit., 111/654—679.

(٢) انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤/٣١٧ وما يليه من هذا الفصل .

(٣) الدواداري ، كتز الدرر ٩/١١٣ .

(٤) ابن حجر ، الدرر ٢/١٧٨ - ١٧٩ .

(٥) ابن دقياق ، نزهة الانام ( مخطوطه ص ١٢٤ ) ، ابن دحلان ، الفتوحات ٢/٧٤ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٣٥ و ٢٥٠ .

(٦) انظر ابن دقياق ، نزهة الانام ( مخطوطه ص ١٢٤ ) .

من الموصل<sup>(١)</sup> . ولم تكن العلاقة الإدارية بين هؤلاء الحكام وأمراء الأرaque في ماردين واضحة تماماً بسبب انهاك معظمهم ، إما يجمع المال وتنمية موارد إقطاعاتهم ، أو بإثارة الفتن والمؤامرات من جهة ، ومحاولة القضاء عليها بأمر من التتر من جهة أخرى ، وهي أمور عسكرية لا علاقة لها بالإدارة .

### دور الأرaque في الصراع بين التتر والماليك :

وما أن غدت ديار بكر ولاية تترية حتى بدأ الصراع الذي استمر عهوداً طويلة بين التتر العسكريين هناك ، وبين القوات الإسلامية في مصر والشام التي كان يحكمها الملاليك آنذاك . وكانت الجزيرة بصورة عامة وديار بكر بشكل خاص المسرح الأساسي لهذا الصراع . وراحت الانتصارات والهزائم تتواли على الطرفين ، دون أن تستقر على أحدهما<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن الصراع بين التتر والماليك كان أمراً طبيعياً بين جارين ، آمن كل منها بفكرة الحرب وببدأ الفزو واتخذ هذا المبدأ محوراً لنشاطه و مجال حياته<sup>(٣)</sup> ، وقد واصل أمراء الأرaque خلال ذلك مساعدتهم وإمداداتهم للتتر بحكم دخولهم تحت حمايتهم ، فضلاً عن أن ماردين غدت مركزاً لجتماع المهاجرين واللاجئين من سكان

(١) الصفدي ، نكت المحيان ص ١٦١ ، ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) انظر اليونيفي ، ذيل مرآة الزمان ٢/٨٩ ، ٨٩ / ٢ ، ١٠٨ ، ١٥٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ - ٤٧١ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ - ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٢٩١ ، ١٧٦ - ١٧٥ ، ٩٨ ، ٤٦ / ٤ ، ٥٧٩ ، ٤٧٣ / ١ / ٢ ، المقريزي ، السلوك ، ابن شداد ، الأعلان (خطوطة ٢٩ ب) ، ابن خلدون ، العبر ٥/٨٣٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ١٣/٤٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية .

(٣) عاشر ، مصر الملاليكي ص ٤٢ عن :

المنطقة ، أولئك الذين شردهم الحروب المتواصلة بين التتر والمسلمين<sup>(١)</sup> .

في أوائل الحرم من عام (٦٦٠ = ١٢٦١ م ) ، اشترك المظفر صاحب ماردين وقواته مع التتر بقيادة ( صندغون ) في حصار الموصل ، ولم يكن مع الملك الصالح بن لولو صاحب الموصل آنذاك سوى قوة ضئيلة ، فنصب التتار المهاجمين عليها وضيقواها مضيقاً شديداً ، فاستجذب صاحبها بشمس الدين البرلي نائب الماليك في حلب فقدم هذا إلى سنجار ، فخافه التتر وقرروا الانسحاب<sup>(٢)</sup> ، لولا أن أحد الأمراء المنشقين على الماليك – وهو الزين الحافظي – كان قد وصل آنذاك إلى ماردين مبعوثاً من قبل هولاكو ، فأرسل إلى التتر يعرفهم أن ( البرلي ) في جماعة قليلة ، وأشار عليهم بالتوجه لقتاله لكيلا يوصفو بالضعف فيطمع فيهم<sup>(٣)</sup> . وحينذاك تقدم صندغون على رأس قوة من التتر قوامها عشرة آلاف فارس والتقي بالبرلي عند سنجار فدارت الدائرة على الأخير ، ومن ثم عاد صندغون إلى الموصل ليشرف على عمليات الحصار التي استمرت حتى مطلع شعبان . وأرسل التتر إلى الصالح يطلبون خروجه للتفاوض معهم ، وإلا فتحوا الموصل عنوة وأعملوا فيها السيف ، فخرج هذا إليهم في الخامس عشر من شعبان بعد استشارة أصحابه ، فقبض عليه التتر ونادوا بالأمان في الموصل ، فلما أمنهم الأهالي دخلوا في الحادي والعشرين من شعبان وأجالوا السيف فيهم وهدموا أسوار المدينة ، وقتلوا ابن الصالح ، ثم قفلوا عائدين

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٢٠ ب ) ، النهي ، دول الإسلام ١٣١/٢ .

(٢) اليريني ، ذيل مرآة الزمان ٤٩٢/١ ، خواند مير ، حبيب السير ٥٧/٢ - ٥٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٧/١١ - ٨ ) .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٥٧ آ ) .

وقتلو الصالح في طريقهم<sup>(١)</sup> .

وهكذا كان لصاحب ماردين - كتابع للتر - دور في هذه النهاية التي لحقت بالموصل وقضت عليها إمارة مستقلة . وكان باستطاعته رغم دخوله في طاعة التر أن يلجم أسلوب أكثر تضحيّة ، للتخلص من الإسهام مهم في إزالة المخازر المسلمين ، وذلك بتجوّنه إلى المالك في مصر أو الشام كما فعل بعض أمراء المنطقة كصاحب جزيرة ابن عمر وصاحب سنمار<sup>(٢)</sup> . ولكن يظهر أنه كان يؤثر السلامة دائمًا والحفاظ على إمارته ولو كلفه ذلك المشاركة في موقف كال موقف السابق إزاء الموصل وكان خصوصه للتر كما قال اليونيني « من جملة سعادته واستمراره في الملكة إلى حيث توفي »<sup>(٣)</sup> سنة ٦٩٣ م = ١٢٩٣ م .

وفي السنوات التي أعقبت ذلك استمر الصراع في المنطقة بين التر والمالك بقواتهم النظامية وغير النظامية ، دون أن يسفر عن نتيجة حاسمة<sup>(٤)</sup> . وكانت بعض الهجمات التي شنتها قوات المالك تصل أحياناً إلى قلب إمارة ماردين كما حدث عام ( ٦٧٣ = ١٢٧٤ م ) ، حيث وصلت هذه القوات ومن يتبعها من المتطوعين إلى رأس عين التابعة لماردين ، فهاجوا وغنموا غنائم كثيرة ، وبوغت التر بهذا الهجوم فولوا منهزمين « وكان قصد السلطان - بيبرس - من

---

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٤٩٢ - ٤٩٥ ، خواند مير ، حبيب السير ٥٧/١/٢ - ٥٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٧/١١ - ٨ ) .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٤٩٥ .

(٣) المصدر السابق ٤٥٨/١ .

(٤) انظر هامش رقم ٧٥ من هذا الفصل .

هذا أن يشغل تلك الجهات ، ومن ثم عاد المهاجون دون أن تلحق بهم خسائر قذكر<sup>(١)</sup> .

وفي عام (٦٧٥ = ١٢٧٦ م) قامت قوة من المغireن ، بقيادة الأمير الملوكى فخر الدين طغاي البحري ، بباغتة دنيسر العائدة لماردين بهجوم خاطف ، فنبت ما تيسر نبه وقتل نحو ثلاثة نفراً وأسرت جماعة من النصارى ، وقد غضب صاحب ماردين لوقوع هذه الفارة على بلاده<sup>(٢)</sup> .

وخلال ذلك كله كان صاحب ماردين يسهم بقواته مع التتر في حروبهم وهجماتهم ، وكان من أبرز تلك الحروب ، الحصار الذي فرضه هؤلاء على البيرة التي كان يحكمها نائب عن المالك . إذ نزلت قوات الأرaqueة والتتر وحلفائهم على الموقع المذكور في الثامن من جادى الآخرة عام (٦٧٤ = ١٢٧٥ م) ، وفرضوا عليها الحصار ، إلا أن حصانة البيرة وكثرة أقواتها ، وما أصاب التتر وحلفائهم من ضعف بسبب انتشار الوباء والفلة في معسكراتهم ، فضلاً عن سماعهم بتقدم بيبرس لقتالهم ، اضطربت إلى الانسحاب في نفس الشهر<sup>(٣)</sup> .

وفي عام (٦٧٩ = ١٢٨٠ م) اشترك صاحب ماردين في الحملة التي جهزها التتر للاستيلاء على الشام ، إذ وصلت إلى السلطان إيفا بن هولاكو رسائل من بعض الأمراء المنشقين على المالك ، يخبرونه فيها عمّا حدث بين المسلمين من اختلاف ، وأن الفرصة سانحة لمهاجمة الشام . فجهز إيفا قواته

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ٣١/٧ .

(٢) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١٨٦/٣ - ١٨٧ .

(٣) المصدر السابق ١١٦/٣ - ١١٧ . ونقل عنه ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٦٩/١٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ٤١/٧ .

بقيادة منكوتربن هولاكو ، وانضم اليها صاحب ماردين بقواته . وما أن وصلت أخبار تحركات التتر الى الشام في أوائل جمادى الآخرة حتى استعدت القوات المصرية والشامية للقتال ، فاكتفت القوات التترية بتخريب بعض الجهات الشهالية في الشام وعادت الى بلادها<sup>(١)</sup> .

وفي العام التالي اشترك صاحب ماردين وقواته في هجوم تترى آخر على بلاد الشام ، وكان سببه تدمير إيفا ، سلطان التتر من قيام الشاميين بهجمات مستمرة على حدود الروم وديار بكر فبكالوا « يدمرون بلاد المسلمين ويأكلون الغلال وينثرون الفتنة<sup>(٢)</sup> ». وقد تقدم التتر ، في جمادى الآخرة ، بأعدادم الضخمة التي أربت على الثنين ألف فارس واتجهت فرقة منهم الى الربحة بقيادة إيفا يصبحه أمير ماردين . واستعد المسلمون للقتال بينما أخذت القوات التترية تتقدم باتجاه حلب ، وراحت تستولي على الجهات الشهالية من الشام ، وتكون إيفا وأمير ماردين من الوصول – سرآ – الى الربحة على رأس ثلاثة آلاف فارس ، ونازلوا قلعتها في اواخر جمادى الآخرة ، وكان الهدف الرئيسي لهذه القوة هو مراقبة التحركات في الشام وانتظار نتيجة اللقاء بين التتر والمسلمين . وقد حدث هذا اللقاء في منتصف رجب وانتهى بهزيمة التتر وما لبث السلطان فلاوون أن جرّد من دمشق عسكراً الى الربحة لاجلاء من عليها من التتر . وكان إيفا قد انسحب الى بغداد لدى سماعه بهزيمة اتباعه<sup>(٣)</sup> ،

(١) ابن الفرات ، تاريخ ١٨٥/٧ - ١٨٦ .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواریخ ٨٢/٢ - ٨٣ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٢١٢ / ٧ - ٢٢١ ، المقريزي ، السلوك ٦٩٠/١٣ - ٦٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ١١٥٦/٥ .

والراجح أن أمير ماردین فارقه آنذاك عائداً إلى إمارته .

★ ★ ★

وفي عام (١٢٨٢ م)، تحول مجرب العلاقات السياسية والعسكرية بين التتر والمالیک على أثر إعلان السلطان التترى الجديد (بكدار بن هولاکو) إسلامه وتسميته نفسه باسم (أحمد)، وتغيرت تبعاً لذلك العلاقات الخارجية لإمارة ماردین . فقد حاول السلطان أحمد الاتصال بسلطان المالیک لإنهاء الخلافات والمحروب بين الطرفين ، وذلك بعقد صلح عام بينهما ، وأرسل في نفس العام وفداً إلى مصر للتفاوض مع المالیک بهذا الشأن وقد ضم ذلك الوفد ثلاثة أعضاء بضمهم الصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب وزير صاحب ماردین . وعندما وصل الوفد إلى البيرة التابعة للمالیک أمر السلطان بالاحتراز عليهم وتسفيرهم بصورة سرية إلى مصر . ولدى وصولهم إليها في أواخر رجب قرؤوا على السلطان قلاوون نص كتاب السلطان أحمد ... من أنه حكم التتار ، وهو مسلم وأنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف وتجهيز الحاج ، وأنه يطلب اجتماع الكلمة وإخراج نار الفتنة والمحروب .. وأن لا حاجة لبث الجوايس من قبل الطرفين ، بعد الاتفاق واجتماع الكلمة .. وأنه كتب كتابه هذا من واسط في العراق في جمادى الأولى . فقوبل ذلك بالترحيب من قبل السلطان ، وكتب رسالة تهنئة إلى السلطان أحمد على إسلامه ، وأنه مستعد لعقد الصلح معه . وقال لأعضاء الوفد «إنني لا أثق إلا بكلام الشيخ عبد الرحمن الشيرازي رئيس الوفد - لما أعلم من دينه ومن حكمه على الملك أحمد وعلى وزير صاحب ماردین » ومن ثم عاد الوفد إلى بلاده في السادس من شوال لتقرير أمر الصلح<sup>(١)</sup> .

---

(١) ابن الفرات تاريخ ٢٤٩ - ٢٤٨/٧، اليوناني، ذيل مرآة الرمان، ١٤٦، ١٤٥/٤ =

وفي عام (٦٨٢ = ١٢٨٣ م) عاد الوفد ثانية إلى الشام يصحبه عدد كبير من أعيان التتر والموصل وماردين<sup>(١)</sup> ، لفرض إكمال المفاوضات وتقرير قواعد الصلح بشكلها النهائي ، واتجه الوفد في ربيع الآخر في طريقه إلى البيرة . ولكن مقتل السلطان أحمد في هذه الفترة وعدم اطلاع الوفد على ذلك ، جعله يلاقي صعوبات بالغة في سفره إلى الشام « فقد استجمعت عليهم الأخبار وبقي كل من يحضر إليهم يمسك وتوخذ كتبه » كما جردوا من السلاح ومنعوا من التحدث مع بعضهم ، وسيراوا شبه مخمورين إلى دمشق<sup>(٢)</sup> وهناك اجتمع السلطان قلاوون بهم في الثاني من جمادى الآخرة عام (٦٨٣ = ١٢٨٤ م) ، فسلموه رسالة أحمد التي حررها قبل مقتله ، فأعلمهم السلطان بمقتله وأنه لا داعي للاستمرار في المفاوضات . ومن ثم عاد إلى القاهرة وبقي أعضاء الوفد في دمشق حيث قلت العناية بهم ، وأعقب ذلك قيام نائب دمشق باعتقالهم في القلمة بسبب بعض الأموال المالية والعينية التي كانت بحوزتهم . وبقوا في الاعتقال حتى وفاة الشيخ عبد الرحمن الشيرازي رئيس الوفد<sup>(٣)</sup> . أما الأعضاء الآخرون

= النويري ، نهاية الإرب (القسم المخطوط ٢٠/٢٠) . وانظر النص الكامل لرسالة أحمد بن هولاكو وجواب المنصور قلاوون عليها في ابن أبي الفضائل ، النهج السديد ص ٣٣٦ - ٣٦١ ، بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة (ملحق رقم ٧ ج ١ من السلوك : المقرizi من ٩٧٧ - ٩٨٤ ) ، عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ٥ - ٦ ، ٦ - ١٠ ، ١٠ - ١٦ - ٦٩ - ٧١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٦٥/٨ - ٦٨ ، ابن خلدون ، المعتبر ٥ / ٨٦٠ ،

١١٥٧ .

(١) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤/٤٢٥ .

(٢) المصدر السابق ٤/٥٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤ / ٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢٠٦ - ٢١٨ ، ابن الفرات ، تاريخ ٧/٢٧٩ - ٢٧٩ ، المقرizi ، السلوك ١/٣ ، ٧١٧ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ - ٧٢٤ ، عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ٤٩ - ٥٠ ، ٦٩ - ٥٠ .

فقد ظلوا في الاعتقال وبضمهم وزير صاحب ماردين ، فكتب نائب دمشق إلى السلطان بشأنهم فأمر بإطلاق سراحهم<sup>(١)</sup> خلا وزير صاحب ماردين وعضوين آخرين برفقته « قيل إن صاحب ماردين أشار بإيقائهم لأمر نقمه عليهم<sup>(٢)</sup> » ثم ما لبث أن نقل الوزير من قلعة دمشق إلى قلعة الجبل بصر ، وظل معتقلاً هناك مدة طريرة حتى أفرج عنه ، وولتني نيابة دار العدل بالديار المصرية<sup>(٣)</sup> .

### ★ ★ ★

واستمرت غارات المسلمين على ديار بكر والمناطق المجاورة فكانوا ينهبون ويقتلون ويسلبون ثم يعودون إلى أماكنهم<sup>(٤)</sup> . وقد استهدفت هذه الغارات الحصول على الفنادم والأسلاب من جهة ، ومن جهة أخرى نشر الرعب والقلق في صفوف قوات التتر المرابطة في هذه المناطق وإسقاها عن التفكير ووضع الخطط المنظمة لغزو الشام<sup>(٥)</sup> ، فهي أشبه بمحروب العصابات التي تشن على القوات النظامية ، فتعيق عمليتها إلى حد كبير .

ومن جهة أخرى كانت ديار بكر خلال هذه السنوات مسرحاً لأطهاع كبار القادة التتر والنواب الذين كان يعينهم السلطان التترى . فقاموا بحركات غرد عديدة ، استهدفت الانفصال عن طاعة السلطان والاستقلال بوارد

(١) ابن الفرات ، تاريخ ٥/٨ - ٧ .

(٢) اليونيفي ، ذيل مرآة الزمان ٤/٢١٧ - ٢١٨ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٥/٨ - ٧ .

(٤) ابن القوطى ، الحوادث الجامحة ص ٤٧٤ ، عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ١١١ - ١١٢ ، ١٣٤ - ١٣٦ ، ابن عبد الظاهر ، الألطاف الخفية ص ٣٥ - ٣٦ .

(٥) انظر ابن الفرات ٧/٣١ . وابن عبد الظاهر ، الألطاف الخفية ص ٣٥ - ٣٦ .

المنطقة وارتباطاتها السياسية والعسكرية والاستعانت بالمالية<sup>(١)</sup> إلا أن سلطان التتر كانوا لهذه الحركات بالمرصاد ، وتمكنوا من القضاء عليها جميعاً . ولم يرد ما يشير إلى دور أرaqueة ماردين تجاه هذه الحركات ، وهل وقفوا إلى جانبها ونفخوا فيها روح العصيان ؟ أم اتخذوا جانب السلاطين وساعدوا على القضاء عليها ؟ أم أنهم التزموا جانب الحيداد حتى تجلي الأمور ؟ يشير رشيد الدين إلى أن الملك المنصور أمير ماردين (٦٩٣ - ١٢٩٣ = ٥٧١٢ م ) ، كان خلصاً للسلطان التتر غازان محمود إلى حد كبير ، فجعله هذا من خواص أقرانه وفوّض إليه الملك في جميع أنحاء ديار بكر وديار ربيعة<sup>(٢)</sup> ، وهذا يؤكّد عدم ملأة حكام ماردين لهذه الحركات الانفصالية ، بالرغم من استمرارهم على مكاتبنة الماليك سراً ليطمئنون بأنهم معهم<sup>(٣)</sup> . أما موقف الماليك من هذه الحركات فقد اتسم بتشجيعها ، كما تؤكّد المصادر ، حيث غدت الشام ملجاً للكثير من التتر المنشقين عن السلطان<sup>(٤)</sup> .

وعلى العكس من ذلك غدت ديار بكر في هذه الفترة ملجاً سياسياً لعدد من كبار الأمراء المنشقين على الماليك في مصر والشام وكان حكام ماردين يتلقونهم بالحفاوة والإكرام تقرباً منهم للتتر ، وخوفاً من أن يقوم هؤلاء المنشقون بالكشف عن مكاتباتهم السرية للماليك<sup>(٥)</sup> . ففي عام (٦٩٨ = ١٢٩٨) عـ

(١) انظر الصفحات السابقة واليوناني ، ذيل مرآة الزمان ١١٧/٣ ، ١٦٤ .

(٢) جامع التوارييخ ص ٣٢٦ .

(٣) الجزري ، تاريخ (خطوطة ١٢١/٢ ، ١٢١ - ١٢٨) .

(٤) رشيد الدين ، جامع التوارييخ ١٤١/٢ - ١٤٧ ، ١٤٨ - ١٤٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٨٠ ، ١٨٥ .

، ابن الفوطي ، الحوادث الجامحة ص ٤٥٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/١١٦٠ - ١١٥٩ .

المقريزي ، السلوك ١/٣ - ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ابن القرات ٨/٢٠٣ - ٢٠٤) .

(٥) الجزري ، تاريخ (خطوطة ١٢١/٢ ، ١٢٧ - ١٢٨) .

( م ) توجه الأمير قبجق نائب دمشق يصحبه عدد من كبار الأمراء يريدون لقاء السلطان غازان . ولدى سماع التتر بذلك توجه جنكيلى بن البابا حاكم ديار بكر التتري لاستقبالهم ، وبالغ في إكرامهم ، كما تلقواهم صاحب ماردين وقام بأمرهم . وكان غازان قد بلغه خبر دخول قبجق ورفاقه ديار بكر ، فبعث إليهم من يدعوهم إليه ، وكان هذا الحادث من العوامل الأساسية في قيام غازان بغزو الشام في العام التالي بسبب التحرير الذي لقيه من قبجق للقيام بهذا الغزو<sup>(١)</sup> .

وفي أواخر عام ( ١٢٩٨ = ٥٦٩٩ ) ، وصل إلى دمشق رسول من البيرة وأخبر المسؤولين أن غازان قد عزم على غزو الشام في سبعين ألفاً من التتر ، وأنه سيَرْ أحد قواه وهو سلامش في خمس وعشرين ألف فارس إلى آسيا الصغرى ليجمع قواتها الموالية للتتر ويتقدم إلى الشام من هناك ، بينما يكون غازان قد تقدم في بقية القوات من ناحية ديار بكر ويكون اللقاء على الفرات ، ومن ثم تتوجه جميع القوات إلى حلب كباء للهجوم على الشام ، ولكن عصيان سلامش وطلب الحكم لنفسه ثنى عزم غازان فوجه قواته لقتاله في آسيا الصغرى ، وعاد هو إلى بلاد فارس بصحبة قبجق ورفاقه . ومن ثم تقدمت القوات التتالية الموجهة إلى آسيا الصغرى لقتال سلامش ، فروا بسنجرار ورأس عين وماردين حيث أنزل إليهم صاحبها كميات كبيرة من الإقامات والعلوفات وقدم إليهم الميرة وكل ما يحتاجونه ، وأمدتهم بقواته ، ولكن لم ينزل للقاءهم خوفاً منهم ، خاصة وأنه كان يشك بإخبار ( قبجق ) إياهم أنه كان يكتب سلطان الماليك . وقد اعتذر عن عدم نزوله بأنه ضعيف عاجز

(١) المقرizi ، السلوك ١/٣ - ٨٧١ - ٨٧٢ .

عن الحركة ، فقبلوا عنده بسبب ما قدمه إليهم من المدايا والتخفف . وكان قد ادخل في ماردين ، قبيل وصول العسكر ، مؤونة سنتين كإجـراء احتياطي لاحتـال قيام تلك القوات بمحاصـرـها ، إـلا أن هـؤـلـاء لم يتعرضوا لمـارـدـينـ بـأـذـىـ وـتـوـجـمـواـ إـلـىـ بلـادـ الرـوـمـ ، وـكـانـ اللـقـاءـ فـيـ أـوـاـخـرـ رـجـبـ ، وـانتـهـىـ بـهـزـيـعـةـ سـلامـشـ وـهـرـوـيـهـ إـلـىـ دـمـشـقـ حـسـبـ اـتـفـاقـهـ السـبـقـ معـ الـمـالـيـكـ<sup>(١)</sup> .

وفي رمضان من العام نفسه قاد سلامـشـ قـوـةـ عـسـكـرـيـةـ ، وجـهـهـاـ (ـ سـيفـ الدينـ بـلـبـانـ ) نـائـبـ الـمـالـيـكـ فـيـ حـلـبـ إـلـىـ مـارـدـينـ ، فـنـهـبـواـ رـبـضـهاـ «ـ وـعـمـلـواـ فـيـهاـ الأـعـالـ الشـنـيـعـةـ »ـ ، وـكـانـ ذـلـكـ سـبـبـاـ مـباـشـراـ فـيـ قـيـامـ غـازـانـ بـغـزوـ الشـامـ دونـ أـنـ يـحـقـقـ نـتـيـجـهـ حـاسـمـةـ<sup>(٢)</sup>ـ ، وـفـيـ التـاسـعـ مـنـ ذـيـ الـقـعـدـةـ (ـ ٥٦٩٩ـ =ـ ١٣٠٠ـ مـ)ـ ، وـوـصـلـ إـلـىـ الـقـاهـرـةـ مـنـ حـلـبـ مـنـ يـخـبـرـ الـمـسـؤـلـيـنـ بـتـحـرـيـكـ الـقـوـاتـ الـتـتـرـيـةـ ثـانـيـةـ ، وـأـنـهـمـ أـرـسـلـواـ أـمـامـهـ رـسـلـ إـلـىـ الـقـاهـرـةـ .ـ فـوـصـلـ هـؤـلـاءـ الرـسـلـ وـهـمـ ثـلـاثـةـ ،ـ فـيـ مـنـتـصـفـ ذـيـ الـحـجـةـ .ـ يـحـمـلـونـ كـتـابـاـ خـتـومـاـ مـنـ غـازـانـ جـاءـ فـيـهـ «ـ إـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ شـرـقـنـاـ بـدـيـنـ الـإـسـلـامـ<sup>(٣)</sup>ـ .ـ وـكـانـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـكـ مـاـ كـانـ بـقـضـاءـ اللهـ وـقـدرـهـ ،ـ وـمـاـ كـانـ ذـلـكـ إـلـاـ بـاـ كـسـبـتـ أـيـديـكـمـ وـمـاـ اللهـ بـظـلـامـ لـلـعـيـدـ .ـ وـسـبـبـ ذـلـكـ أـنـ

(١) الدواداري ، كنز الدرر ٩ / ٨ - ١٠ ،الجزري ، تاريخ ( مخطوطـةـ ٢ / ٢٧٧ - ١٢٨ ) .

(٢) أبو الفدا ، المختصر ٤ / ٤٤ ، المقريزي ، السلوك ٣ / ١ / ٨٧٨ ، ابن الوردي ، تتمة ٢٤٦ - ٢٤٧ ، ابن أبي القضائل ، النهج السديد ٦٢٢ - ٦٣٣ ، زرستين ، تاريخ سلاطين الماليك ص ٥٤ ، مسعود ،بني قلاوون ص ١٧٦ .

(٣) كان غازان قد أعلن إسلامه عام ٦٩٤ هـ وسمي بعمود ، وانتشر الإسلام في التور إثر ذلك ، ( المقريزي ، السلوك ١/٣ / ٩٥٦ ، ابن تفري بردي ، النجوم الظاهرة ٨ / ٧١ ) ، ولكنه لم يبذل محاولات جدية من أجل الصلح مع الماليك أو عقد هدنة معهم كما فعل سلفه أحد عام ( ٥٦٨١ = ١٢٨٢ م ) .

بعض عساكركم أغروا على ماردين وبلادها في شهر رمضان معظم قدره ، الذي لم تزل الأمم يعظمونه فيسائر الأقطار .. فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها ، وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا حرام الله بسرعة من غير مهلة ، وأكلوا الحرام وارتکبوا الآثام وفعلوا ما لم يفعله عباد الأصنام ، فأتونا أهل ماردين صارخين مسارعين ملهوفين مستغفرين بالأطفال والحريم وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم ، فلاذوا بحنابنا وتعلقوا بأسبابنا ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا ، فهزتنا نخوة الكلام وحركتنا حمية الإسلام ، فركبنا على الفور بن كان معنا ... ودخلنا البلاد<sup>(١)</sup> . ثم يستعرض غازان بعد ذلك ما فعلته قواته في الشام لدى دخولها اليه هذا العام ( ١٢٩٩ = ٥٦٩٩ م ) ، وأن قوات المماليك ولت الأدبار أمامها ، وأن غازان اضطسر إلى سحب جيشه بسبب تدمير أهالي الشام منها ورغبتة في استرضائهم ، واستعراض عنها بمحاميات « تمنع تعدي بعضهم على بعض » .. ثم يطلب من الناصر في نهاية الرسالة أن يبعث اليه بهدية رمزاً لقبوله الصلح معه . فأجاب الناصر بكتاب جاء فيه « ... وإن السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين ، وأنهم قتلوا وسبوا وهتكوا الحريم وفعلوا فعل من لا له دين . فالمملوك ( غازان ) يعلم أن غارتنا ما برجت من بلادكم مستمرة من عهد آبائكم وأجدادكم وأن من فعل ما فعل من الفساد لم يكن برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد ، بل من الأطراف الطامنة من لا يؤبه اليه ولا يعول في فعل ولا قول عليه ، وإن معظم جيشنا كان في

(١) انظر نص الرسالة في التويري ، نهاية الإرب ( مخطوطة ٤٩ / ٣٣٠ وما بعدها ) ، الدواداري ، كنز الدرر ٩ / ٥٣ - ٥٦ ، بيبرس المنصوري ، زينة الفكرة ٩ / ٢٢٣ ب ، ٢٢٤ ب ، ٢٢٦ آ - آ ، القلقشmedi . صبح الأعشى ٧ / ٢٤٣ وما بعدها ، ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ٨ / ١٣٦ - ١٣٩ .

تلك الغارة ، إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لثلا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام <sup>(١)</sup> ، ثم يشير الى انسحاب الجيش التترى لدى سماعه بنباً تقدم القوات الإسلامية من مصر .. وأرسل الناصر كتابه هذا مع وفد شكله لهذا الفرض <sup>(٢)</sup> . ولكن هذه المفاوضات لم تجذ نفعاً إزاء أطماع غازان في الشام وخداعه ، فاستمر الصراع بين الطرفين على أشدّه <sup>(٣)</sup> . وقد استغل المسلمين في ديار بكر هذا التأزم في العلاقات بين التتر والمالىك ، فقاموا عام (٦٩٩ = ١٢٩٩ م ) بتتبع التتر هناك وقتلوا منهم خلقاً كثيراً <sup>(٤)</sup> .

وفي عام (٦٧٠٢ = ١٣٠٢ م ) ، أرسل غازان الى الأمير (عز الدين إبيك ) نائب الشام كتاباً يرغبه فيه بالدخول في طاعته وجاء فيه « .. وحيث كان أهل مصر والشام يحبون قوة الإسلام .. كان الواجب إنفاذ الرسل اليها عن الوداد .. فما أبصرنا منهم في عموم الأوقات إلا مالا يحسن من الحركات حق لهم عمّا على ماردين وديار بكر طفياناً وأقدموا على القتل والنهب فيها عدواناً ، فدعتنا الحمية على الإسلام الى الفساد بالانتقام وهمنا بأن نجر اليهم العساكر » . وبعد التطرق الى الإعراب عن عدم رضاه على جواب الماليك عن رسالته الأولى آنفة الذكر يقول « .. ولقد عاودنا إيفاد (السفراء) وأكابر

(١) انظر نص الكتاب في النويري ، نهاية الإرب ( مخطوطه ٢٩ / ٣٣٠ وما بعدها ) ، الدواداري ، كنز الدرر ٩ / ٥٣ - ٣٦ ، بيبرس المنصورى ، زينة الفكره ٩ / ٢٢٣ ب - ٢٢٤ ب ، ٢٢٦ آ - آ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ٧ / ٢٤٣ وما بعدها ، وابن تفري برودي ، النجوم الزاهرة ٨ / ١٣٦ - ١٣٩ .

(٢) ابن تفري برودي ، النجوم الزاهرة ٨ / ١٣٥ - ١٤٧ ، المقرizi ، السلوك ٣ / ٩١٥ .

(٣) ابن تفري برودي ، النجوم الزاهرة ٨ / ١٤٦ - ١٤٧ .

(٤) المقرizi ، السلوك ٣ / ٩٠٣ .

القضاة ليسلکوا مسالك الموافقات ، فوصل الخبر عقیب ( ذلك ) أن القوم  
قصدوا ديار بکر .. فأمرنا برکوب العساکر وإهلاک الباگین .. ففزعوا  
وأخذوا عن ديار بکر جانباً .. لكنهم عمّوا على خرتبرت وملطیة وسيس  
وخرروا أطرافهم .. ولا شبهة لأحد أن خرتبرت وملطیة من ولایتنا وصاحب  
سيس من الداخلين في شریعة طاعتنا ... فكما كانوا يتتصورون أن التغر هو  
العراق وديار بکر فليتصوروا بعد اليوم أنه غزة وحدود الرمل ...<sup>(١)</sup>.

وفي العام التالي ( ١٣٠٣ = ٧٠٣ھ ) ، انشق جنکلی بن البابا حاکم ديار  
بکر التتری في آمد واتجه الى مصر يصبحه عدد من کبار أمراء التتر المنشقين ،  
وكان جنکلی ورفاقه يکاتبون السلطان في مصر باستمرار منذ فترة طويلة<sup>(٢)</sup> .  
ومن المرجح أن صاحب ماردين كان طرفاً في هذه المکاتبات السرية<sup>(٣)</sup> متزأداً  
فرصة قوة المهایلک في هذه الفترة ورجحان كفتهم على التتر من جهة ، وعدم  
استقرار نواب التتر في ديار بکر واستمرار انشقاقهم على سادتهم من جهة  
أخرى . وربما كان صاحب ماردين يهدف بذلك الى إيقاف هجمات المسلمين  
العنيفة على بلاده ، وقد حذا صاحب سيس خطوه في السنوات التالية ( ١٣٠٦ = ٧٠٦ھ ) فراح يقدم الهدایا والبالغ المالي السنوية للمهایلک<sup>(٤)</sup> .

أدى استمرار الأوضاع المضطربة في ديار بکر وتحولها الى منطقة

(١) بیرس النصوري . زبدة الفكرة ٧ / ٢٣٥ - ٢٣٧ ب ، المقریزی ، السلوك ١٠/٣ .

(٢) الدواداری ، کنز الدرر ١١٣/٩ ، المقریزی ، السلوك ٩٥٠/١٣ .

(٣) الدواداری ، کنز الدرر ٨/٩ - ١٠ .

(٤) المصدر السابق ١٤٦/٩ .

احتكاك وصراع بين التتر والماليلك ، الى تشبت أمراء ماردين بسياسة الولاء المزدوج لهاتين الدولتين ، وكان هذا يشير الى رغبة الأرادة في السلامة والحفاظ على أملاكهم ، بقدر ما كان يشير الى توازن القوى التترية والمملوكية في منطقة ديار بكر . فبيتا دفع صاحب ماردين بابنته ( دنيا خاتون ) عام ( ٧٠٩ = ١٣٠٩ م ) ليتزوجها خربندا سلطان التتر<sup>(١)</sup> ، قام في السنة التالية بالخطبة للناصر سلطان الماليك<sup>(٢)</sup> ، وعاد في سنة ( ٧١١ = ١٣١١ م ) ليشترك مع مبعوثي التتر في استقبال الأمراء المنشقين على الماليك والملتختين الى السلطان خربندا<sup>(٣)</sup> . ففي تلك السنة انشق كل من قرا سنقر ثائب الشام والأفروم وما من كبار أمراء الماليك واتجها نحو الفرات في انتظار ما يتجدد ، فوصل اليها هناك رسول من الملك خربندا في البريد « طاير طيران ! وصحبته ابن عم صاحب ماردين » وغيره ونسخة اليمين لها من جهة خربندا . وأخذ الرسول يرغبهما ويستميلهما ، ثم قدم اليها نسخة اليمين التي جاء فيها « إنكم قد عديتم نحو بلادي ودستم أرضي وطلبتم باي فأهلا بكم » ، وقد سيرت اليكم نسخة الأبيان مائة يمين وأنا أعطيك - أي لقرا سنقر - بغداد وللأفروم سنجار وديار بكر ، ومهمها طلبتم عندي ... » ومن ثم وصل اليها الأمير سوتاي على رأس عشرة آلاف فارس من التتر قادماً من مقره في المنطقة وتوجه الجميع الى بغداد ، ماردين في طريقهم بماردين في ربيع الأول ( ٧١٢ = ١٣١٢ م ) ، وكان صاحبها نجم الدين إيلفازى مريضاً فبعث اليهم ولده الملك العادل علام الدين علي وأخرج لهم

(١) ابن بطرطة ، رحلة ١ / ١٨٣ ، أبو الفضـا ، مختصر ٤ / ٦١ ، ابن الوردي ، تتمة ٢٥٩/٢ .

(٢) ابن تفري بريدي ، النجوم الظاهرة ١٧٣/٩ .

(٣) انظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٤٦/٣ - ٢٤٧ .

الإقامات وقدم إليهم تسعين ألف درهم وما يحتاجون إليه ، وكان قد اتفق هو والأفرم وغيره من الأمراء<sup>(١)</sup> . ومن ثم توجه العادل بمعيته في طريقهم إلى بغداد . وفي الطريق وصله البريد يعرفه بموت أبيه فعاد مسرعاً إلى ماردين ليتولى حكمها<sup>(٢)</sup> . وفي بغداد خرج الأهالي لاستقبال الأمراء ، وجرت استعراضات شبيهة ، وترجل في خدمة قرا سنقر عدد كبير من التتر والأمراء وفيهم أخو صاحب سيس وأخو صاحب ماردين ، ومن ثم غادروا ببغداد إلى حاضرة خربندا<sup>(٣)</sup> .

وما أن استقر قرا سنقر ورفيقه في بلاط السلطان خربندا حتى راح يحسن له غزو الشام ، وأن المماليك في حالة ضعف لا تكتنفهم من المقاومة ، فانتهز خربندا هذه الفرصة وقرر مهاجمة الشام مبتداً بالرحبة ، وأمر صاحب ماردين بحير المخانيق إلى الفرات وبالتقدم على رأس قواته إلى الرحبة . وتقدم خربندا وقرأ سنقر على رأس قوات التتر الضخمة إلى الفرات ، وما لبث عسكر الكرج وصاحب سيس أن التحق بهم ، فالتقاهم صاحب ماردين بالإقامات والعلوفات ، وقام بأمر التمرين في سائر مراحيل الطريق نظراً لكون إمارته أقرب قاعدة توينية لتحركات التتر وحلفائهم في هذه المنطقة ، فضلاً عن أنه قدم

(١) راجع ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٤٦/٣ - ٢٤٧ .

(٢) الدواداري ، كنز الدرر ٩/٢٤١ - ٢٤٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٩١٤ .

(٣) الدواداري ، كنز الدرر ٦/٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣/٤٦ - ٤٧ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٩١٤ ، المقريزي ، السلوك ١١٥/٢١ ، وهو يشير إلى أن الأمراء النشئين ساروا مباشرة إلى ماردين وكتبوا إلى خربندا بقدومهم ، فبعث آكابر المفول للقائهم وتقدم إلى ولادة الاعمال بخدمتهم والقيام لهم بما يليق ، وهو اختلاف جزئي عن رواية الدواداري .

خربندا أموالاً وهدايا كثيرة من ماله الشخصي . ومن ثم تحدث الى خربندا على مسمع من قرا سنقر قائلاً « قد جاءني قاصد من مصر وعرفني أن صاحبها دخل من الصيد وطلع القلعة وأنفق في العساكر » وخرجت السلاحدارية ، وطردوا الخيل من على المرابط ، وقد سير البريد الى الشام مع جميع المالك الإسلامية بخروج الجيوش للفزاعة ، وكذلك بتحصيل الإقامات لأجل حركته » فقال خربندا « إيش تقول يا قرا سنقر ؟ » قال « جميع ما قاله صحيح » وجاءتني الأجناد بذلك ، وصاحب مصر ملك جسور ، والأموال عنده كثيرة ، وجيشه مزاحة الأعداء ! » فانكسر قلب خربندا وتحقق أن جيوشه تضعف عن الملتقي ، ولم يكن من أصحاب الحروب ، فقال لصاحب ماردين « ما عندك من الرأي ، نلتقي صاحب مصر وخبل المغول ضعاف ونخسي الغالية ؟ » فعلم صاحب ماردين أنه داخله الهمم فقال « ننزل على الرحبة ونحاصرها ونريح الخيل ، والى أن يحيتنا صاحب مصر ورأي ( الملك ) المصلحة في العود الى البلاد رجعنا ، ويكون ذلك أيضاً ما يضعف المصريين فإن كل حركة عليهم - ينفقو - فيها جل أموال ، فان كلفتهم أكثر من كلفتنا ، وإذا عزم - الملك - في العام القادم تكون نحن أقوى منهم » فاتفق رأي خربندا مع رأي صاحب ماردين ، ومن ثم تقدموا الى الرحبة في رمضان ( ١٣١٢ = ٧١٢ م ) ، وحاصروها طوال الشهر ، بينما كان سلطان المماليك يجهز الجيوش الضخمة لقتال التتر ، ومن ثم انسحب هؤلاء عن الرحبة خوفاً من العساكر المصرية ، دون أن يسوا قلعتها بأذى بفضل حسن تدبير نائبه<sup>(١)</sup> .

(١) الدواداري ، كنز الدرر ٩/٢٥١ - ٢٥٩ ، يخطيء ابن حجر ( الدرر الكاملة ٣/٣٧٨ ) في القول بأن خربندا استولى على الرحبة بالأمان ، ويفسر هذا الخطأ قوله: « ورحل عنها دون سبب ». فكانه لم يطلع على تفاصيل الموضوع .

و واضح أن موقف صاحب ماردين يشير الى مدى رغبته في الحفاظة على الأمن والسلام في المنطقة ، وبذل الجهد لتجنب نشوب أي حرب بين التتر والماليلك لأن ذلك يعني تعريض منطقة إمارته للخراب ، فضلاً عن أن سياسة المزدوحة كانت تحمي سلوك هذا الطريق ، ولذا حاول أن يقنع خربندا بضخامة إمكانيات الماليك لكي يضطروه الى الانسحاب دون دخول أية معركة معهم . ويوضح صاحب الدرر الكامنة في سطور هذا الازدواج في سياسة حكام ماردين عند ذكره لوفاة إيلغازي بن قرا أرسلان في ربیع الأول عام ٢١٢ هـ = (١٣١٢ م ) بقوله ، « قدم دمشق في خدمة غازان ( ٦٩٩ - ٧٠٠ هـ ) ( ١٢٩٩ - ١٣٠٠ م ) ، إلا أنه كان ينصح السلطان قلاوون في السر ، ثم تزوج خربندا ابنته ، ولما انشق قرا سنقر والأفروم مرابه فأكرمهها<sup>(١)</sup> .



وفي السنة التالية اشتراك صاحب ماردين في حملة قام بها خربندا ضد طقطاي ، أحد أمراء التتر المتشقين عليه في الجهات الشمالية من دولته وقد تقدمت قوات التتر بقيادة قرا سنقر وتبعها خربندا على رأس بقية قواته ومن ثم لحقت بهم قوات صاحب ماردين وصاحب الكرج وصاحب سيس . وفي منتصف جمادى الآخرة التقى الجماعان .. وبعد قتال عنيف انتصرت قوات خربندا بفضل دور قرا سنقر في القتال ، وقتل من العدو عدد كبير ، فأرسل طقطاي الى سلطان الماليك يشكوى قرا سنقر ، الذي لواه لتمكن من سحق قوات خربندا ، وطلب منه إمداده بالأسلحة لإعادة الكرة ، فتم الاتفاق بينهما

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢١٧/٣ . وانظر ابن تغري بردي ، المثل الصافي (خطوظة ٥٠٤/٢) حيث يشير الى أن صاحب ماردين تزوج بابنة قلاوون .

على أن يزحفا معاً ليضما خربندا بين شقي الرحي ويقضيا عليه ، ومن ثم يدخلان بغداد ويعيدا الخليفة العباسي إلى كرسي خلافته<sup>(١)</sup> . ولكن هذا المشروع لم يكتب له التنفيذ .

وبعد سنتين (١٣١٥ = ٧١٥ م ) سار صاحب ماردین إلى عاصمة خربندا في بلاد فارس حاملاً معه المبالغ النقدية والعينية التي تقررت بين الطرفين على عادة والده ، فأحسن إليه خربندا ، ومن ثم عاد إلى ماردین في جمادی الآخرة وأرسل رسوله في نفس العام إلى القاهرة حاملاً معه رسالة شخصية إلى السلطان فالتحقى هذا به وسمع رسالته<sup>(٢)</sup> .

ولكن هذا الولاء المزدوج الذي قدمه أمراء ماردین للتر والماليك على السواء لم يعجب الماليك ، سيراً بعد أن بلغوا درجة كبيرة من القوة وبعد أن أخذت عوامل الضعف تعمل في دولة التر ، فضلاً عن أن صاحب ماردین كان يتلکأ في إيجابتهم حول بعض القضايا التي تم الاتفاق بشأنها . ولذا بعث السلطان عام (١٣١٥ = ٧١٥ م ) قوة من حلب قوامها ستائة فارس بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاي لفرض الإغارة على بلاد ماردین ، فتقدم هذا وأغار على تلك البلاد مدة يومين ، وصادف أن قدمت إلى المنطقة آنذاك قوة من التر قوامها ألفاً فارس لفرض جباية القطبيعة<sup>(٣)</sup> كما عادتهم في كل سنة ، فهاجمهم قرطاي وقتل منهم ستائة رجل وأسر ما يزيد على المائتين ، وقدم بالرؤوس

(١) الدواداري ، كنز الدرر ٢٧٢/٩ - ٢٨١ .

(٢) أبو الفدا ، الختصر ٤/٧٩ ، الرزمي ، وقائع قزان ١/٥١٤ - ٥١٥ .

(٣) القطبيعة : ما يفرضه السلطان على ولاية أو ناحية من المال سنويًا ، أو ما يقرره في أحوال

غير عادية كالغرامة الحربية . المقرizi ، السلوك حاشية رقم ١ ، ٢٨٨/١٢ .

Quatremere , Histoire des Sultans mamlouks de L'Egypte , Vol. 2 P. 14 N 85.

والأسرى والفنانم الى حلب ، فلما علم السلطان بذلك « سر سروراً زائداً » وبعث بالتشريف لنائب حلب ولقرطاي<sup>(١)</sup> . وفي شعبان من نفس العام توجهت قوة ضخمة من حلب قوامها خمسة آلاف فارس وأغارت على بلاد آمد ، واستولت على عدد من الواقع ، وقتلت وسبت ، ومن ثم عادت سالمة الى حلب حاملة الفنائيم الكثيرة<sup>(٢)</sup> . وتكررت هذه الهجمات بعد عامين من ذلك في ربيع الآخر عام ( ١٣١٧ = ٥٧١٧ م )<sup>(٣)</sup> .

وقد شهدت ماردین وأطرافها في نفس السنة ( ١٣١٧ = ٥٧١٧ م ) حادثة تشير الى مدى تدمير الأهالي - وخصوصاً التجار - من التسلط التترى على المنطقة ، إذ اجتمع في شوال جماعة من التجار في ماردین وانضم اليهم عدد من الهازبين من الغلام الذي عم المنطقة ، وتوجهوا جميعاً في طريقهم الى الشام ، ولكنهم ما أن ابتعدوا مسافة قصيرة عن رأس عين حتى لحقهم ستون فارساً من التتر من رجال سوتاي حاكم ديار بكر وقتلواهم وأطفالهم ونسائهم ، وبلغ عدد القتلى تسعين ، وقد تكون أحدتهم من المهربون والتوجه الى رأس عين ، حيث أخبر الناس بهذه الجزرة الرهيبة ، فتأملوا بذلك واجتهد سوتاي في مطاردة القتلة وتمكن من القضاء على معظمهم ، كما أعاد بعض الأموال المقتسبة الى مستحقيها بعد تغيرهم بنسبة تتراوح بين النصف والثلث<sup>(٤)</sup> .

(١) المقريزي السلوک ١٤٧/٢١ ، أبو الفدا ، اختصر ٤/٦٦ - ٦٩ ، سرور ، بنی قلاون ص ٢٠٥ .

(٢) ابن كثير ، البداية ١٤/٧٤ ، النهي ، دول الإسلام ٢/١٦٨ ، ابن خلدون ، العبر ٩١٨/٥ .

(٣) ابن كثير ، البداية ١٤/٨٢ ، ابن خلدون ، العبر ٥/٩١٨ - ٩١٩ ، القدسي ، دول الإسلام ( مخطوطة ص ٤٥ ) ، ابن دقائق ، الجوهر الثمين ( مخطوطة ص ١٥٠ ) .

(٤) ابن الوردي ، تتمة ٢/٢٦٦ ، ابن كثير ، البداية ١٤/٨٣ .

ورغم هذه المجهات والأحداث فقد استمرت علاقات الجamaة بين صاحب ماردين والمالیک ، وربما استهدف هؤلاء من وراء ذلك عدم التفريط بصاحب ماردين ، وبالتالي ارتكاؤه في أحضان التتر بشكل نهائي ، ولذا عندما أخبر بريد حلب مسؤولي مصر بقدوم والدة صاحب ماردين في طريقها الى الحج عام (١٣١٥ = ٧١٥ م ) ، أمر السلطان نوابه بخدمتها والقيام بما يليق بها<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

**دخول الأراثة في طاعة المالیک بعد وفاة أبو سعيد (١٣٣٥ = ٧٣٦ م) :**

طيلة السنوات والعقود التالية راحت علاقات أصحاب ماردين بالمالیک وراسلاتهم ومصاہراتهم معهم ومهاداتهم فيما بينهم تزداد قوة ووثوقاً بسبب ازدياد قوة المالیک وتدهور قوة التتر<sup>(٢)</sup> ، وقد بلغت هذه العلاقات مرحلة الخطبة للمالیک في إمارة ماردين وضرب النقود باسمهم واستمر ذلك حتى سقوط الإمارة في مطلع القرن التاسع الهجري ، فيما عدا بعض الفترات<sup>(٣)</sup> .  
ويذكر القلقشندي أنه ما أن توفي أبو سعيد عام (١٣٣٥ = ٧٣٦ م ) ، وهو من بقايا الملوك الھولاكية ، حق قطع صاحب ماردين الخطبة لمفوول العراق وخطب لنفسه ، واستمر الأمر على ذلك إلى الآن (حدود عام ٨٠٠ = ١٣٩٧ م)<sup>(٤)</sup> . وقد أدى ذلك بالضرورة إلى ازدياد العلاقات بين الأراثة

(١) المقريزي ، السلوك ١/٢٤٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ١/٢٤١ ، ٢٥٩ ، ابن تفري بردي ، التهل الصافى (خطوطة ١٩/٢) .

(٣) أبو الفدا ، المختصر ٤/١٣٧ ، ابن الوردي ، تتمة ٢ / ٣٣٠ ، ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ١٢/٩٥ ، ١١٥ .

(٤) صبح الأعشى ط ٢ ، ٤/٣١٧ .

والماليك وثيقاً ، بينما كانت المكاتبات بين الطرفين متواصلة . وقد استمرت هذه المكاتبات فترة طويلة بحيث اتخذت أشكالاً وقوالب معينة من الناحية الرسمية ( الإنسانية ) كما أوردها بعض المؤرخين . فهناك مكاتبات موجهة من سلطان الماليك الى صاحب ماردين ، وكذلك من نواب الماليك في دمشق وحلب ، كما وجدها من قبل هؤلاء مكاتبات أخرى الى نواب صاحب ماردين في المدن التابعة لإمارته ، وكان لكل من صاحب ماردين ونوابه مراتب معينة في دواوين الإنشاء المملوكية يكتب لهم وفق مقتضياتها<sup>(١)</sup> . وساوره فيما يلي صور تلك المكاتبات حسب تدرج مستوياتها بالنسبة للمرسل اليهم ، مع بعض النماذج الموجزة منها :

١ - رسم المكتبة الى صاحب ماردين من قبل السلطان المملوكي « أعز الله تعالى نصرة المقر الكريم العالى الكبير » ، الملكي الفلاني الفلانى ، يعني اللقب المملوكي واللقب المضاف الى الدين مثل ( الصالحي الشمسي ) ، أي الملك الصالح شمس الدين ) وما أشبه ذلك . ثم الدعاء ، ثم يقال ( أصدرناهـا الى المقر الكريم ) و ( تبدي لعلـهـ الكـريم ) ( فيتقدم أمرـهـ الكـريم ) . ويختـمـ بما صورـتـهـ ( فيحيـطـ عـلـهـ الـكـريمـ بـذـلـكـ ) والـدـعـاءـ وـالـعـلـامـةـ وـتـعـرـيفـ ( صـاحـبـ مـارـدـينـ ) وورقة قطع العادة ويتـعـينـ أن تكونـ الـقـابـهـ الىـ آخرـ الـقـبـ الـمـلـوـكـيـ ، سـطـرـينـ سـوـاءـ ، وـأـنـ يـكـونـ لـقـبـ الـعـادـيـ كـالـفـخـرىـ مـثـلـأـ أولـ السـطـرـ الثـالـثـ<sup>(٢)</sup> .

وهذه بعض النماذج المختصرة للمكتبة السابقة ، نسخة كتاب بعافية الملك

(١) انظر العمري ، المصطلح الشريف ص ٣٢ - ٣٣ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٧/٢٦٧ - ٢٦٩ ، ٨/٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٢) العمري ، المصطلح ص ٣٢ . ونقل عنه القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢/٢٦٦ - ٢٦٧ .

الناصر محمد بن قلاوون من مرض ألم به إلى صاحب ماردین ، وهو .. ولا  
 زالت البشائر على سمعه الكريم متواترة ، والمسار إلى مقام ملكه سائرة ،  
 والتهاني ببلوغ الأمانى من كمال شفائنا تجعل ثغور التغور باسمة .. تهدي إليه سلاماً  
 تتأرجح به أرجاء ملكه وثناء تتنظم الأثنية في سلكه ، وتتوضح لعلمه الكريم  
 ما حصل من عافيةنا التي تضاعف بها فرح الإسلام والمسلمين ..<sup>(١)</sup> وهنالك  
 نسخة إلى الملك الصالح شرف الدين محمود جواباً عما ورد به كتابه من وفاة  
 والده الملك المنصور أحمد جاء فيها « أعز الله تعالى نصرة المقر الكريم ... ولا  
 زال الملك باقياً في بيته الكريم .. وبما خصه من إقبالنا الشرييف وإحساننا  
 المستديم .. أن مكتابته الكريمة وردت على أبوابنا الشريفة على يد قلان ، وعلمنا  
 ما تضمنته من استمساك المقر الكريم بأسباب الوداد واقتفائه في ذلك سبيل  
 الإباء والأجداد ... مستمراً على الإخلاص في الطاعة ، الذي لم يكن شابه شيئاً  
 ولا اعتراه ... من أنه إن اقتضت مراسمنا الشريفة أن يقوم مقامه ويرعى في  
 حقوقه ومصالح تلك المملكة ذمامه ، فترسم بإجرائه على السنة المعتمدة من  
 إحسان بيتنا الشريف الذي بدأ به وأعاده ، وإلا فتبذر الأوامر الشريفة بن  
 يسد اختلالها .. وي shields مبانها ويصلح أحواها ليقصد المقام الشريف بأبوابنا  
 الشريفة ، سالكاً سبيل الطاعة المبين ، منتظماً في سلك أوليائنا المقربين ،  
 إلى غير ذلك مما حمله الاستadar من مشافته .. وقد شكرنا محبتـه المأثورة  
 وإخلاصـه في الخدمة الشريفة ، وجيلـ المـوالـةـ الـقـيـ تـكـرـيـهـ وـتـشـريـفـهـ  
 واستمسـاكـهـ بـسـنةـ آـبـائـهـ الـكـرـامـ وـاجـهـادـهـ فيـ الـمـناـصـحةـ وـالـطـاعـةـ الـقـيـ لاـ تـسـامـيـ منـ  
 مـثـلـهـ وـلـاـ تـسـامـ .ـ وـنـحـنـ نـعـرـفـ الـمـقـرـ الـكـرـيمـ أـنـ حـمـلـ وـعـلـ بـيـتـهـ الـكـرـيمـ لـمـ يـزـلـ

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٣٥٧/٨ - ٣٥٨

لدينا رفيعاً مقداره ... وهو الأحق بجعل ملكه .. وقد اقتضت آراؤنا العالية أن يقوم مقام والده المرحوم ، ويحل محله في هذه السلطنة نيلو قدره بإقبالنا الشريف .. وليستنصر على أعدائنا وأعدائه بأنصار الملك وأعوانه ، وليسقرا على ما عليه من المحافظة على الوداد وليقتف في ذلك سبيل سلفه الكريم ، ولواصل بـ كاتباته وأخباره على سنتهم القوية وقد أعدنا استاداره بهذا الجواب الشريف إليه<sup>(١)</sup> .

ويظهر في هذا الكتاب بوضوح أن ولاة الأراثقة للهاليلك كان قد تبلور منذ فترة طويلة ، بدليل ما أوردته الكتاب عن استمساك أمير ماردين « بأسباب الوداد واقتفائه في ذلك سبيل الآباء والأجداد ... » ولا ريب أن هذا الولاء كان ينبع عنـه بالضرورة الالتزام بالخطبة للهاليلك وتقدم المساعدات العسكرية اليـهم وتأييـdem في سياستهم الخارجية ، وإن عدم الوفاء بهذه الالتزامات زبـاً دفعـالسلطان إلى اتخاذـالإجراءاتـالكافـحةـبـإعادـةـالأمورـإـلـىـنصـاصـهاـ لـيـسـقـرـ الأمرـعـلـىـماـهـوـعـلـىـهـمـ منـالـمحافظـةـعـلـىـالـودـادـ ». كما يوضحـالـكتـابـ آـنـفـالـذـكـرـ مـسـأـلةـمـهـمـةـ فـيـعـلـاقـاتـالـأـرـاثـقـةـبـالـهـالـيلـكـ ،ـوـهـيـأـنـتـسـلـمـأـيـحـاـكـأـرـتـقـيـمـهـامـ منـصـبـهـ بـعـدـوـفـاهـ سـلـفـهـ لـاـيـخـذـصـفـتـهـ الرـسـيـمـةـ (ـالـشـرـعـيـةـ)ـ بـمـشـكـلـ نـهـائـيـ إـلـاـ بـعـاـفـةـ وـاقـرـارـ سـلـطـانـ الـهـالـيلـكـ الـذـيـ يـصـدـرـ أـمـرـهـ بـقـيـامـ الـأـمـيرـ الـجـدـيدـ (ـمـقـامـ وـالـدـهـ ...ـ وـيـحلـ محلـهـ فـيـ السـلـطـنةـ)ـ .ـ وـلـاـ رـيـبـ أـنـ هـذـاـ الإـقـرـارـ الرـسـمـيـ لـاـ يـتمـ إـلـاـ بـعـدـ الـاطـمـئـنـانـ عـلـىـ أـنـ الـأـمـيرـ الـجـدـيدـ (ـيـقـنـتـفـيـ)ـ ..ـ سـلـفـهـ ..ـ وـيـواـصـلـ بــ كـاتـبـاتـهـ وـأـخـبـارـهـ عـلـىـ سـنـتـهـمـ الـقـوـيـةـ)ـ ،ـ وـهـذـاـ يـشـيرـ بـوضـوحـ إـلـىـ أـنـ الـأـرـاثـقـةـ غـدوـاـ بـشـكـلـ أـوـ بـآـخـرـ تـحـتـ حـمـاـيـةـ الـهـالـيلـكـ يـأـتـرـونـ بـأـمـرـهـ وـلـاـ حـرـيـةـ لـهـمـ فـيـ

الخروج على توجيهاتهم . وبذلك تتضح في هذا الكتاب أبعاد العلاقات بين الطرفين . وهنالك ثلاثة نماذج لرسائل أخرى وجهت إلى صاحب ماردين ، أوردها العمري في المصطلح<sup>(١)</sup> .

رسم المكاتبية إلى نائب صاحب ماردين عن الأبواب السلطانية ، الاسم والسامي بغير ياء<sup>(٢)</sup> .

٣ - رسم المكاتبية إلى نواب صاحب ماردين في مختلف المدن التابعة لإمارته عن الأبواب السلطانية ، الاسم ومجلس الأمير<sup>(٣)</sup> .

٤ - ونالك مكاتبات تصدر عن نائب الماليك في الشام إلى من هو خارج عن المملكة وهم على مراتب ، ويأتي صاحب ماردين في المرتبة الثالثة حيث يكتب إليه بالرسم الآتي « أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالى المولوى الكبيرى العادلى السلطانى الملكى الفلاني » ، ورفع مقداره وأجزله مباره ، الملوك يحدد الخدمة العالية ويصف أشواقه المتواالية وينهى لعله الكريم<sup>(٤)</sup> .

٥ - ويصدر عن نفس النائب مكاتبات إلى نائب ماردين وخدم صاحب ماردين ونواب المدن التابعة لها وقد وضعوا جميعاً في المرتبة السابعة من مكاتبات نواب الشام<sup>(٥)</sup> .

---

(١) ص ٣٢ - ٣٣ من المصدر المذكور .

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ٢٦٩/٧ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) المصدر السابق ٢٢٣/٨ .

(٥) المصدر السابق ٢٢٥/٨ .

٦ - مكاتبات نائب حلب الى من هو خارج المملكة ، وقد وضع صاحب ماردين في المرتبة الثانية بعد صاحب بغداد . ورسم الكتابة اليه « أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالى المولوى الكبيرى العالمى العادلى السلطانى الملكى الفلانى . ويبدعى له نحو « لا زالت أيامه مسعودة وأبوابه مقصودة .. الملوك يقبلون يد الشريفة ويقومون من الخدمة بأكمل وظيفة » ، وينهى لعله الكريم بعد السلام الزكي كيت وكيت فيحيط بذلك علمه الكريم ويتحف بالشرفات على عادة فضله العظيم »<sup>(١)</sup> .

٧ - مكاتبات نائب حلب الى نواب صاحب ماردين وبعض خدامه ، وقد وضعوا جميعاً في المرتبة السابعة من مكاتبات نائب حلب . ورسم المكاتبات اليهم « أداء الله تعالى نعمة الجناب العالى »<sup>(٢)</sup> .

كاغدت ماردين في هذه الفترة مركزاً لإجراء مفاوضات الصلح بين التتر والماليك ذلك الصلح الذي تم في ربیع الأول عام ( ١٣٢٣ = ٥٧٢٣ م ) ، على يد الأمير ( ایتمش الحمدي ) الذي اتخذ من ماردين مركزاً لنشاطه ، وقد أتعم عليه السلطان التترى أبو سعيد ببالغ طائلة بسبب سعيه من أجل الصلح<sup>(٣)</sup> .

ويشير ( كاهن ) الى أن الأرaqueة - في داخل المنطقة - كانوا يحاولون ، خلال هذه الفترة ، الحفاظ على بقائهم في وجه الأيوبيين في حصن كيما ، حيث أعلن هؤلاء الحرب عليهم عام ( ١٣٣٤ = ٥٧٣٥ م ) ، وقد انتهت بهزيمة

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٢٢٨/٨ .

(٢) المصدر السابق ٢٢٩/٨ .

(٣) المقرizi ، السلوك ٢٤١/٢١ - ٢٤٢ .

الأراثقة وفقدان ممتلكاتهم الواقعة على يسار نهر دجلة<sup>(١)</sup> . ولا ندرى على أي مصدر اعتمد الكاتب في إشارته الى هذا الصراع بين الأراثقة والأيوبيين في حصن كيما ، حيث لم يشر الى ذلك - على ما نعرف - سوى البديليسي صاحب الروايات غير الموثوقة<sup>(٢)</sup> . وهو يورد في هذا المجال رواية طويلة يقول فيها « لما زال سلطان بني أئوب عن مصر والشام سنة (١٢٦٣ = ٥٦٦ م) ، كان آنذاك أحد حفدة أسرة ملكان ( حكام حصن كيما ) قد استقر في حماة وقضى رحمةً من الزمن متكتئاً ثم اتجه الى ماردين ولاذ بمحاكمها<sup>(٣)</sup> ، فعطف عليه وأدخله في سلك أمراء دولته وأعينه ، ثم فاضت شهامته ، وكان عظوفاً على محبيه ، فاهرأ لمعانديه ، فأناط به زمام الحكم في صور ، إلا أن ذلك الأمير الشاب ، لما ألقى فيها عصي الترحال ولبث بها أيامًا ساءت حاله وضاق بها ذرعاً ، فقادها الى أنحاء حصن كيما ، واختار الإقامة فيها وتزوج بها .. وتلامم مع أهلها فاستمال قلوبهم اليه حتى أحبوه جداً جماً .. ونصبوه حاكماً عليهم وشرعوا في تعمير قلعتها وتحصينها . واتفق في هذه الآونة أن تطرق الى أركان بلاط السلطان في ماردين الخلل والتصدع ، ووهنت قوى دولته فأهابتة التحصنت المشرع بها في قلعة حصن كيما ، فأرسل الى القائم بالتحصين من يأتي به اليه ، غير أنه رفض تلبيته والسير اليه وشق عصا طاعته<sup>(٤)</sup> ، فحشد سلطان ماردين جيوشه ، وسار بها الى حصن كيما مزمعاً

Enc. Isl. art. Artukids, New ed. (١)

(٢) انظر بهذا الشأن ، الشرفنامة ص ١٩٧ - ١٩٨ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ .

(٣) من المرجح أنه الملك المنصور أحد الذي تولى حكم الأراثقة حوالي سنة ٦٧٢ هـ . وتوفي سنة ٦٧٩ هـ ، البديليسي . شرفنامة ، حاشية ٥ ، ص ١٧٢ .

(٤) لم يكن أي من حكام حصن كيما الأيوبيين ملزمًا في يوم من الأيام بطاعة أوامر الأراثقة بسبب استقلالهم التام عن هؤلاء .

إخضاع قلعتها ، فنهض اليه معمر القلعة ووقف في وجهه وقاومه بكل بسالة وجدرة فتقهر سلطان ماردین خائباً خاسراً . فمنذ ذلك اليوم طمع هلال لواء الأسرة الأيوبية على أصقاع حصن كيما للمرة الثانية ، وأخذ يبعث بأشعته على تلك الربوع والأصقاع ، ولم يمض وقت طويل حتى احتل تلك البلاد<sup>(١)</sup> . واضح في هذه الرواية نزعتها القصصية وعدم تحيصها للحقائق .

هذا بينما استمرت العلاقات الودية بين الأرانتقة والماليلك ، ففي المحرم من عام (٥٧٢٥ = ١٣٢٤ م ) ، كان رسل صاحب ماردین من جملة الوفود التي حضرت القاهرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، يبنلون لسلطانها الطاعة<sup>(٢)</sup> . وفي عام (٥٧٢٨ = ١٣٢٧ م ) ، أهدى صاحب ماردین الى السلطان الناصر قلاوون أحد مالكيه المشهورين في العزف على العود<sup>(٣)</sup> ، وتكرر ذلك عام (٥٧٤٠ = ١٣٣٩ م ) ، حينما أهدى صاحب ماردین ، أحد مفنيه المشهورين الى الناصر<sup>(٤)</sup> . وفي ذي الحجة من العام التالي (٥٧٤١ = ١٣٤١ م ) ، أهدى السلطان الناصر قبيل وفاته لصاحب ماردین فيلا وزرافه<sup>(٥)</sup> ، تقديرأ للعلاقات الودية بينهما . وفي عام (٥٧٤٨ = ١٣٤٧ م ) ، تم زواج أحد كبار أمراء الماليك على ابنة الصالح صاحب ماردین وحصل على مدينة خرتبرت مهراً على الزواج<sup>(٦)</sup> .

(١) البديسي ، شرفنامة ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) المقرizi ، السلوك ٢٥٩/٢ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٧٧/٣ - ٧٨ .

(٤) المصدر السابق ٢٦٤/٣ - ٢٦٥ .

(٥) أبو الفدا ، الختصر ١٣٨/٤ ، ابن الوردي ، تتمة ٣٣١/٢ ، الفزي ، تاريخ حلب ١٨٠/٣ .

(٦) ابن تغري بردي ، النهل الصافي ( المخطوطة ١٩/٢ ) .

ويظهر أن تقرب أمراء ماردين من المماليك عرضهم لضغط بعض الفروع التالية الحاكمة في بغداد والجهات الشرقية ، ففي عام (١٣٤٥ هـ = ١٢٤٦ م ) ، قام الشيخ حسن الجلائري حاكم بغداد بهاجمة ماردين والاستيلاء على عدد من ضياعها<sup>(١)</sup> . وفي الوقت نفسه اشتد المداء بين الأرانتقة وحكام الموصل وسنجراء ، وجرت بين الطرفين حروب طويلة انتهت بقتل ( بدر الدين حسن بن هندوا ) حاكم الموصل وسنجراء على يد صاحب ماردين بعد أن قبض عليه عام (١٣٥٣ هـ = ١٢٥٤ م )<sup>(٢)</sup> ، وكان بدر الدين هذا يؤوي بعض التركان الذين كانوا يقطعون الطرق على المسلمين في تلك المناطق<sup>(٣)</sup> .

وطيلة السنوات التالية ، وحتى قدوم تيمورلنك في العقد الأخير من هذا القرن ، كانت علاقات أصحاب ماردين بالمماليك تزداد وثوقاً ، إذ راحوا ينفذون ما يأمرون به ويلتزمون بسياستهم العامة ، ويتعاونون معهم في مختلف الحالات ، كما استمروا يخطبون لهم ويضربون السكة باسمهم<sup>(٤)</sup> ، في الوقت الذي وجدوا أنفسهم فيه أحرازاً على أثر تحطيم الدولة المغولية في العراق سنة ٧٣٦ هـ . شأنهم شأن بقية أتباع الإيلخانات<sup>(٥)</sup> ، وبذل تخلصوا من بقايا التزاماتهم تجاه القوى الشرقية ، مما عزز علاقاتهم بمصر والشام ، وجعل إمارتهم أشبه بولاية

(١) ابن تفري بردی ، النجوم الزاهرة ١٠/١٢٢ ، وهو الشيخ حسن بن حسين بن إبيعا .. من أحفاد هولاكو . وكان يحكم بغداد وأذربيجان والجزيره ثم انتقل حكم هذه المناطق لابنه أحد . (ابن خلدون ، العبر ١٠٨١/٥) .

(٢) ابن تفري بردی ، النجوم الزاهرة ١٠/٢٩٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٤٨/٢ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٤٨/٢ .

(٤) ابن تفري بردی ، النجوم الزاهرة ١٢/٩٥ - ١١٥ ، ابن العياد ، شذرات ٦/٧ .

(٥) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

التحادية في دولة المماليك .

وفي ربیع الآخر من عام ( ١٣٨٩ = ٧٩١ م ) ، حضر الى القاهرة رسول الأراتقة يصحبهم رسول الأمير ناصر الدين قرا محمد الترکانی ( أحد قواد المماليك في منطقة الفرات ) وأبلغوا السلطان برقوق أن صاحب ماردين وقرا محمد ، تقدموا الى الخاپور حين بلغها عصيان الأمير ( يبلغنا الناصري ) على السلطان ، « فرد السلطان عليهما رداً جيلاً وشكراً صنيعهما وأنه ادخرهما لما هو ألم من ذلك » ، وأرسل أحد كبار أمرائه مع هؤلاء الرسل لدى عودتهم<sup>(١)</sup> .

وفي عام ( ١٣٩٠ = ٧٩٣ م ) ، قام صاحب ماردين بالقبض على ثلاثة من أنصار الأمير منطاش - أحد المنشقين الهاربين - وذلك لدى هروبهم صوب ماردين وعدد من مماليكهم ، فسرّ السلطان لدى ساعده بذلك وأرسل أحد أمرائه على رأس قوة مصرية الى ماردين لتسلم هؤلاء ، فسار هذاً الى رأس عين وتسلم المقبوض عليهم من صاحب ماردين وعاد بهم الى القاهرة ، وحمل معه كتاباً من صاحب ماردين الى السلطان يعتذر فيه ، ويعد بتحصيل غريم السلطان ( أي منطاش ) وإرساله اليه ، ويكون كما يختاره السلطان<sup>(٢)</sup> .

سادت المنطقة قبیل غزو تیمور لنك ، فترة من السلم بين الدول والإمارات الإسلامية الحاكمة كانت أشبه بالهدنة بين الأطراف المتصارعة . فلم يحدث بين المماليك والترکانيين في العراق ما يؤدي الى نشوب حرب جديدة بين

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ ٩ / ٦٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١١ / ٢٦٤ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ٩ / ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ١٢ / ٣٠ - ٣١ ، ابن خلدون ، العبر ٥ / ١٠٧٤ ، ابن دقياق ، الجوهر الشين ( مخطوطة ص ٢١٢ ) ، العیني ، عقد الجحان ( مخطوطة ٦٥ / ٤٣٢ - ٤٣٣ ) .

الطرفين ، بما أتاح للأرaqueة أن ينعموا بفترة من الهدوء والاستقرار لم تشهدها ديار بكر من قبل .

### موقف الأرaqueة من تيمورلنك وسقوط إمارة ماردين :

ولكن ظهور تيمورلنك القوي على مسرح الأحداث في الشرق وطموحه الشديد للسيطرة على العالم الإسلامي ، وخشوه القوات الهائلة لهذا الغرض ، والانتصارات السريعة التي أحرزها في تقدمه نحو الغرب ، كل هذه العوامل أثرت تأثيراً مباشراً على وجهة الأحداث في منطقة ديار بكر وعلى العلاقات الخارجية للأرaqueة . ولقد بذل هؤلاء لدى اقتراب الخطر جهوداً كبيرة في اطلاع حكومة المماليك على تحركات تيمورلنك وأهدافه العسكرية وتنبيههم إلى مدى الأخطار التي تحيق ، ليس فقط بالإمارات الموالية لهم ، بل بوجود المماليك ذاته ، كما غدت ماردين مركزاً لاستخبارات المماليك في هذا الشأن . ولقد قام الأرaqueة بهذا الدور بسبب قربهم من مسرح الأحداث ، وتعرضهم للخطر قبل غيرهم ، وولائهم للمماليك<sup>(١)</sup> .

في مطلع رجب من عام (١٣٨٩ = ٥٢٨٩ م ) ، عاد إلى مصر من ماردين الأمير طغاي الذي كان قد سافر إلى ماردين لكشف أخبار تيمورلنك ، وأعلم المسؤولين أن (أميران شاه بن تيمورلنك) دحر قوة موالية للمماليك بقيادة قرا محمد أمير التركان ، وأنه توجه بعد ذلك صوب آمد ... ومن ثم تكاثرت الإشاعات عن قرب قيام تيمورلنك بغزو الشام ومصر على رأس

---

(١) انظر ابن الفرات تاريخ ٣٦١/٩ - ٣٧٨ و

Lane — poole, Egypte, pp. 331—32,

وابن إيس ، بدائع الزهور ٢٩٩/١ ، ٣٠١ - ٣٠٠ وما يلي من الفصل .

قوات كبيرة « فحصل للسلطان - الظاهر برقوق - تشویش عظيم بسبب ذلك »<sup>(١)</sup> ، وأمر بالاستعداد لمحاباة الموقف<sup>(٢)</sup> .

أشغل تيمور لنك طيلة السنوات التالية في الجبهة الشرقية ، ولم يوجد له اهتمامه الجاد صوب الجبهة الغربية ( العراق ، الجزيرة ، الشام )<sup>(٣)</sup> إلا في عام ( ٧٩٥ = ١٣٩٣ م ) ، بعد أن ثبت أقدامه في الشرق . ففي التاسع عشر من شوال من ذلك العام حضر إلى مصر رسول الملك الظاهر عيسى أمير ماردين ، وأخبر المسؤولين بأن تيمور لنك استولى على تبريز ، شمالي بلاد فارس ، وأنه أرسل رسوله إلى صاحب ماردين يطلب قدومه إلى هناك فاعتذر هنا له « بأن على يده يداً وهو صاحب مصر » فأرسل تيمور لنك يقول له : إن أسلافك حكوا هذه البلاد منذ مئات السنين وكانت الخطبة والسلكة باسمهم « فإيش كان صاحب مصر »<sup>(٤)</sup>؟ وأوضح له أنه ليس لسلطان مصر حكم بماردين ، ومن ثم أرسل إليه خلعة وطلب منه أن ينقش اسمه على الذهب والدنانير كاعتراف رسمي بسلطنته . ولذا أرسل صاحب ماردين كتاب تيمور لنك هذا وخلعته بصحبة رسوله إلى مصر ليعلم رأي السلطان « فأعيد الجواب إليه بأن يخطب باسم سلطانه إلى أن نرى ما نختاره »<sup>(٥)</sup> ، وقد أكد صاحب ماردين بهذا الموقف مدى ارتباطه بسياسة الملك والتزامه بما يرونـه بشأن هذا

(١) ابن تفري بردی ، النجوم الزاهرة ١١/٤٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ٩/١٠ .

(٢) ابن تفري بردی ، النجوم الزاهرة ١١/٤٧ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٩/٣٤٣ .

(٤) العینی ، عقد الجمان ( مخطوطة ٦٥ / ٤٥٤ ) ، ابن تفري بردی ، النجوم الزاهرة ١٢/٤٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ٩/٤٠٥ . وانظر ابن دقائق ، الجوهر الثمين ( مخطوطة ص

(٥) ٢١٦

الحدث الخطير<sup>(١)</sup>.

قام تيمورلنك في نفس العام (١٣٩٣ = ٧٩٥ م) بهاجمة بغداد، وأجرى فيها مجزرة رهيبة، ومن ثم توجه في مطلع العام التالي نحو الشمال ففتح تكريت عنوة، وتقدم إلى الموصل فصالحه صاحبها وسار في خدمته، ومن ثم تقدم إلى ديار بكر<sup>(٢)</sup> فاستولى على عدد كبير من مدنهما وحصونهما في فترة قصيرة، كرأس عين والرها وميافارقين، وقادت قواته خلال ذلك بنصب وتحريض معظم مناطق ديار بكر، وقدم إلى تيمورلنك حاكم حصن كيفا الأيوبي وحاكم جزيرة ابن عمر وأعلنا طاعتها له، فأعادهما إلى إمارتيهما دون أن يتعرض لها بأذى<sup>(٣)</sup>. وأراد الظاهر عيسى حاكم ماردين أن يحذو حذوها بعد إذ لم يرج جدوى انتظار نجدة من المماليك، الذين لم يتخدوا موقفاً حاسماً إزاء قوات تيمورلنك في ديار بكر، فيما عدا المحاولة التي قام بها نائب حلب بإرسال قوة قوامها ألف فارس هاجمت طلائع قوات تيمورلنك عند الرها وهزمتها إلى رأس العين<sup>(٤)</sup>، وسوى وقوف قوات حلب وبعض القبائل

---

(١) انظر المقريزي، السلوك (القسم المخطوط ٤١٦ / ٤١٦)، عاشر، العصر المماليكي ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) المقريزي، السلوك (القسم المخطوط ٤١٦ - ٤١٧)، ابن العياد، شذرات الذهب ٦ / ٣٣٧ - ٣٣٤ ، الصانع، تاريخ الموصل ص ٢٥٣.

(٣) ابن العياد، شذرات ٦ / ٣٤٤ - ٣٤٥ ، ابن خلدون، العبر ٥ / ١١٧٥ - ١١٧٦ ، ١٠٨٢ - ١٠٨٥ ، البديليسي، شرفنامه ص ١٧٥ ، ابن صوري، الدرة المصيّنة ص ١٤٨، ابن عربشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٤٧ - ٤٨ ، الصانع، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٤) ابن الفرات، تاريخ ٩ / ٣٧٠.

جمع الظاهر عيسى حاشيته وقال : إنني ذاهب إلى هذا الرجل (أبي تيمورلنك) ومظهر له الانقياد ، فإن ردني حسبما أريد فهو المراد ، وإن طالبني بالقلعة فامتنعوا أنتم وإياكم أن تسلموها إليه أو تعتمدوا على كلامه ، وإن خيركم بين تسليم القلعة وبين إتلاف فاختاروا الثانية ، فإنكم إن تسلموها إليه خرجتم من باطنكم وظاهركم وأتي بالهلاك على أولكم وآخركم ، وخسرتم شعاركم ، وغبنتم أنفسكم ودياركم .. ومن ثم توجه إلى تيمورلنك بعد أن استخلف ابن أخيه الملك الصالح شهاب الدين أحمد بن الملك السعيد اسكندر . ونزل يوم الأربعاء منتصف ربيع الأول (١٣٩٤ هـ = ١٣٩٦ م ) ، واجتمع بتيمورلنك في نهاية الشهر بمكان يدعى الملالية . وسرعان ما قبض عليه تيمورلنك وطلب منه تسليم القلعة فأجابه ، « بأن القلعة عند أربابها وبيد أصحابها وأنا لا أملك إلا نفسي فقدتها إليك وقدمت بها عليك فلا تحملني فوق طاقتني » . فأتي به تيمورلنك إلى القلعة وطلب من أهلها تسليمها إليه فأبوا ، فقدمه اليهم ليضرب عنقه أو يستجيبوا لمطلبهم فرفضوا ، فطلب منه كي يطلق سراحه ستة ملايين درهم فضي<sup>٢</sup> ، وعدد من الهدايا يتقارب بها إليه<sup>٣</sup> . ويظهر أن الظاهر لم يتمكن من استجابة طلبه الأخير ، لذا ضيق عليه تيمورلنك في سجنه ومنعه عن الناس « ليذهب عنه ما به من قوة »<sup>(٤)</sup> . ومن ثم راح تيمورلنك يتتردد وقواته في أنحاء ديار بكر والموصى يفسدون ويخربون . وفي جادى الآخرة أمر

(١) ابن خلدون ، العبر / ٥ ١٠٨٥ .

(٢) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٩ .

قواته بالتوجه الى ماردين فتقدموها اليها بسرعة مذهلة ووصلوها على حين غفلة يوم الثلاثاء ، الثاني عشر من الشهر المذكور ، فحاصروها فجراً وأحلوا بها الدمار<sup>(١)</sup> ، وتسلقوا أسوار المدينة من ثلاثة جهات ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها عنوة وراحوا يفسقون ويخربون ، وانسحب أهالي المدينة الى القلعة تحت حماية نبال جند القلعة ، وبقي قسم منهم يقاتلون الأعداء . واستمر القتال حتى امتلأت المدينة بالقتلى والجرحى ، وعندما دخل الليل انسحب جند تيمورلنك وعسكرروا تجاه المدينة ، وأخذوا يعدون أنفسهم لهجوم جديد لدى الفجر<sup>(٢)</sup> . وقام علماء الدين الطنبغا – نائب السلطنة بماردين – وجماعة من النساء بتعزيز التحصينات<sup>(٣)</sup> ، وما أن طلع الفجر حتى قامت قوات تيمورلنك بهجومها الثاني ضد المدينة بشكل أشد وأعنف ، فيخرجوها وهدموا أسوارها وتمكنوا

(١) المصدر السابق ص ٤٩ . وينقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ( مخطوطة ٢ / ٤٩٧ ) . ويدرك الغيث في تاريخه ( ص ٢٠٧ ) أن سبب عودة قوات تيمورلنك الى ماردين هو إعلانها العصيان ، كما يذكر البديسي ( شرفنامه ص ١٥١ ) أنه صدرت من حكام ماردين بحق أصحاب تيمورلنك أمور غير مرغبة . ومن الواضح أن القلعة لجأن وقوع هذه الأحداث لم تخضع لتيمورلنك أو تعلن طاعتها له مما يضعف ما أورده البديسي والغيث ، فضلاً عن أن ما ذكره ابن عربشاه في هذا المجال يعتبر أشد وثوقاً بسبب معاصرته للأحداث ، انظر ابن خلدون ، العبر ١١٧٦ ، وابن صدرى ، الدرة المضية ص ١٤٨ .

(٢) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٤٩ - ٥٠ ، وينقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ٤٩٧/٢ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ ، المعنى . عقد الجлан ( مخطوطة ٦٦ / ١١ - ١٣ ) ، ويشيران الى أن هؤلاء قاموا بتنصيب الملك الصالح ابن أخي الملك الظاهر عيسى سلطاناً في ماردين عوضاً عن الظاهر الذي كان محتجزاً لدى تيمورلنك . ونحن نعلم - حسبما أورده ابن عربشاه - أن الظاهر قام بنفسه باستخلاف ابن أخيه قبيل مغادرته لماردين ،

عقب الظهر من الاستيلاء على البلد<sup>(١)</sup> واستغلو مزارعه وبساتينه للحصول على المؤونة<sup>(٢)</sup> ، ومن ثم شددوا حصارهم على القلعة ، وأبلى الطنبغا نائب ماردين بلاءً حسناً في القتال ، وتمكن وأنصاره من حماية القلعة وقتل عدد كبير من قوات تيمورلنك<sup>(٣)</sup> ، ولما فشل هذا في الاستيلاء على القلعة فكر بسلوك سبيل الحيلة والمصالحة ، فأرسل اليهم مع رسوله يقول : نعلم أهل قلعة ماردين والضعفاء والعجزة والمساكين أننا قد عفونا عنهم وأعطيتهم الأمان على نفوسهم ودمائهم ، فليأمنوا ولি�ضاعفوا لنا الأدعية<sup>(٤)</sup> . ولكن حيلته لم تنجح لشدة يقظة المسؤولين في ماردين . وقد أدى صمود القلعة وتناقص المؤونة واشتداد البرد إلى اضطرار تيمورلنك إلى فك الحصار والتوجه إلى آمد<sup>(٥)</sup> . وما أن فرض الحصار عليها وبدأ في قتالها حق طلب أهلها الأمان فأمنهم ، ثم ما لبث أن أعمل فيهم السيف وأباد معظمهم وقام بتخريب المدينة ، كما تمكن من الاستيلاء على بعض الواقع الأخرى في المنطقة ، خلال شهر شوال ، ومن ثم عاد إلى بلاده في ذي القعدة عام (١٣٩٤ = ٧٩٦ م)<sup>(٦)</sup> مستصحباً معه

(١) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٥٠ ، ويشير ابن صدرى ، (الدرة المضية ص ١٥٨) إلى أن الشائعات وصلت دمشق باستيلاء تيمورلنك على ماردين ، وأن رد الفعل لدى أهالي دمشق كان شديداً حيث عهم الخوف ، مما يشير إلى مدى أهمية ماردين كقاعدة من أهم قواعد المنطقة الدفاعية .

(٢) التاريخ الغياني ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦ - ١٢) .

(٤) ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٥٠ وهو يذكر أنه نقل رسالة تيمورلنك هذه إلى أهالي ماردين بنصها كما وجدها .

(٥) يحيطى بوقا في الإشارة إلى أن تيمورلنك استولى على ماردين خلال هذا الهجوم ( دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ١٦٠/٦ - ١٦١ ) .

(٦) ابن عربشاه ص ٥٠ ، ونقل عنه ابن تغري بردي ، النهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ =

الملك الظاهر « بسوء نية »<sup>(١)</sup> حيث اعتقله في مدينة سلطانية مع أربعة من كبار أمرائه ، وضيق عليه لكي يقطع خبره كلية عن مardin<sup>(٢)</sup> .

وما أن رحل تيمورلنك عن مardin حتى أرسل صاحبها إلى الظاهر سلطان المماليك في مصر يخبره عن إخفاق الهجوم التترى في تحقيق بغيته ، وكان قد أشيع قبل ذلك على أفواه الناس أنه قد تم الاستيلاء على مardin ، ففرح السلطان بذلك وخلع على رسوله<sup>(٣)</sup> .

وهكذا استطاعت مardin بما تتمتع به من حصانة ، وبتضحيه سلطانها الظاهر ، وإخلاص أمرائها أن تصمد أمام هجوم تيمورلنك وأن تحافظ على استقلالها دون معظم مدن الجزيرة ، ودون أن تحصل على مساعدة تذكر من حلفائها المماليك . وقد اتجه رسول صاحب مardin ثانية إلى مصر في جادى

---

= - ٤٩٨ ) ، الغيث ، تاريخ ص ٢٠٦-٢٠٧ ، ابن خلدون ، العبر / ٥ - ١١٧٦-١٠٨٢ ، الرزمي ، وقائع قزان وبلغار / ١٠٥ / ٢ ، البديسي ، الفتوحات / ١٥١ - ١٥٢ ، نقاً عن السمعاني ( المكتبة الشرقية مجلد ٣ جزء ٢ ص ١٣٤ ) أن سبب عودة تيمورلنك إلى مardin والواقع الجلورة في الجزيرة والقيام بأعمال انتقامية ضدها في عامي ٧٩٦ و ٨٠٣ هو عدم وفاء حكامها بالالتزامات المالية السنوية تجاه تيمورلنك فضلًا عن أنهم تغيروا عليه وخلعوا طاعته وصاروا في طاعة السلطان أحد الجنائزي بعد عودته إلى بغداد . وإذا كان هذا ينطبق على مardin في عام ٨٠٣ كاسياني فإنه لا ينطبق في المرة الأولى ( ٧٩٦ ) حيث إن مardin لم تلتزم حينذاك بأي شيء تجاه تيمورلنك .

(١) ابن عربشاه ٥٠ .

(٢) ابن عربشاه ص ٥٠ ، ونقل عنه ابن تفري بردي ، المنهل الصافي ( مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨ ) .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ ٣٧٨/٩ ، العيني ، عقد الجمان ( مخطوطة ٤٦١/٦٥ ) .

الآخرة من العام التالي (١٣٩٥ = ٧٩٧ م) لمقابلة السلطان الظاهر، فخلع  
هذا عليه وأرسل معه خلماً ثميناً للملك الصالح صاحب ماردين<sup>(١)</sup> تأكيداً  
لحسن العلاقات بين الطرفين ولوقف الأخير من هجوم تيمورلنك وعدم تخاذله،  
ومن ثم أعيدت خطبة صاحب ماردين للسلطان الظاهر<sup>(٢)</sup>.

★ ★ ★

حاول تيمورلنك أن يستخدم وسيلة أخرى لإخضاع ماردين بعد أن أخفق  
في الاستيلاء عليها بالقوة، فعمل على الاستفادة من وجود الظاهر عيسى  
محتجزاً لديه منذ عام (١٣٩٣ = ٧٩٦ م). ويصور ابن عربشاه الخطوات  
التي اتبعها تيمورلنك لتحقيق هذا الفرض حيث يقول: مكتظ الظاهر سنة  
معتقلاً لا يدرى أحد خبره، ثم وفت الملكة الكبرى إليه وخافت عنه ما به  
من ضيق، وسمحت له براسلة جماعته وحرضته على طلب الدخول في رضى  
تيمورلنك وطاعته، زاعمة له أنها ناصحة له وطالبة مصلحته، وكان ذلك من  
مكانه تيمورلنك وبإشارته. ثم رجع تيمورلنك بعد أن صفى مشاكله في  
الجهات الشرقية من ملكته إلى هذان في شعبان (١٣٩٦ = ٧٩٨ م)،  
واستدعي الظاهر «بأكرام تام وانشراح صدر وخاطر» ففكوا قيوده وقيود  
أمرائه وعظموه غاية التعظيم مع ذويه ودخل على تيمورلنك في السابع عشر  
من رمضان «قتلاه - هذا - بالاحترام واعتنته وأذهب عنه دهشه وقلقه  
وقبله في وجهه مراراً واعتذر إليه مما فعله معه جهاراً وقبلاً له: إنك والله  
ولي»، ورفع القدر كأبي بكر وعلى، وتحلل منه عما صدر في حقه، وأضافه

(١) ابن الفرات، تاريخ ٤٠٥/٧.

(٢) ابن دقماني، الجوهر الشinin (مخطوطة ص ٢٢١).

ستة أيام ، وخلع عليه خلع الملوك العظام وأحله محلًا جميلاً وأعطاه عطاء  
جزيلاً ، من ذلك مائة فرس وعشرة بغال وستون ألف دينار وستة جمال  
وخلع مزركشة .. وإنعامات وافرة .. ولواء يخفق على رأسه ، كما أعطاه  
ستاً وخمسين منشوراً كل منشور بتولية بلد وأن لا ينزاشه فيه منازع ، وكان  
ما شملته تلك البلاد ، الرها في أقصى ديار بكر إلى حدود أذربيجان وأرمينية  
« وكل ذلك من الدهاء والمكر » ، وأن جميع حكام تلك البلاد يكونون تحت  
طاعته ، معدودين في جملة خدمه وج ساعته ، يحملون إليه الخراج والخدم ولا -  
يصدرون إلا عن أمره - بحيث يكون شخص كل من مجاوريه ، بما أفاء الله  
عليهم ، لظله فيه ، ويعفى هو فلا يحمل إلى تيمورلنك ولا إلى غيره شيء ، وهذا  
وإن كان في الظاهر كإكرام فإنه فيما يُؤول إليه وبال عليه وانتقام ، وفيه كما  
ترى ما فيه ، وإلقاء العداوة بينه وبين مجاوريه »<sup>(١)</sup> .

اشترط تيمورلنك على الظاهر ، لقاء ذلك ، أن يكون تحت حمايته ويعول  
في كل أموره عليه ، وخاصة في النواحي السياسية والعسكرية وأن يلبي دعوته  
بالقدوم إليه كلما طلبها<sup>(٢)</sup> ، ويضرب السكة باسمه . وأن لا يطيع صاحب مصر ،  
وأن يقوم بإلقاء القبض على الأمير علاء الدين الطنبغا فور دخولة ماردين ويرسله  
إليه . فجلف له الظاهر على ذلك<sup>(٣)</sup> . ومن ثم عانقه تيمورلنك وودعه وأمر  
أمراءه بتشييعه ، فخرج من الضيق إلى السعة في رمضان سنة ٧٩٨ هـ

(١) ابن عربشاه ص ٥١ ، وانظر ابن العياد ، شذرات ٦/٣٥٢ - ٣٥٣ .

(٢) ابن عربشاه ص ٥١ ، ونقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (خطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨ ) ، ابن العياد ، شذرات ٦/٣٥٣ .

(٣) ابن العياد ، شذرات ٦/٣٥٣ .

وتجه الى تبريز حيث اجتمع باميران شاه ابن تيمورلنك ، فزاد  
هذا في إكرامه وعطياته وشيشه في أحسن هيئة ، ومن ثم توجه الى ديار بكر  
عن طريق أرمينية . وما أن وصل خبره الى أهالي إمارته حتى ابتهج الناس  
ودقت البشائر يوم الجمعة الحادي عشر من شوال ، وخرج أهالي ماردين  
وأكابرها للاستقبال ، وعلى رأسهم ولی عهده الملك الصالح ، فدخل المدينة  
وتجه الى مدرسة حسام الدين وزار والده وأمواته الماضين وعزم على التنازل  
عن منصبه والتوجه الى الحجاز ، إلا أن الناس خاصتهم وعامتهم لم يتركوه  
« وتراموا عليه » وعند ذلك قرر البقاء في منصبه<sup>(١)</sup> . وبلغ الطنبشا أن  
الظاهر يريد القبض عليه وإرساله الى تيمورلنك فهرب الى مصر في المحرم من عام  
( ٧٩٩ = ١٣٩٦ م ) ، حيث أنعم عليه السلطان الظاهر برقة وعلى من معه  
ورتب لهم الرواتب الضخمة<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

بهذا الأسلوب استطاع تيمورلنك إخضاع الأراثقة في الوقت الذي عجز عن تحقيق ذلك باستخدام القوة . وبتسليم الظاهر عيسى مقاليد الحكم في ماردين في أواخر عام ( ١٣٩٦ م ) ، اتجهت العلاقات الخارجية للإمارة وجهة جديدة مخالفة لما كانت عليه . فقد غدت خاضعة لتيمورلنك وكان عليها أن تخطب له وتضرب السكة باسمه وأن يلي أميرها دعوته كلها دعاء وألا يطبع

(١) ابن عربشاه ص ٥١ - ٥٢ ، ونقل عنه ابن تفري بردی ، النهل الصافی ( مخطوطه ٤٩٧ - ٤٩٨ ) .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ ، ابن دقائق ، الجوهر الشمين ( مخطوطة ص ٢٢٣ ) ،  
العيبي ، عقد الجمان ( مخطوطة ٦٦/١١ - ١٢ ) .

صاحب مصر<sup>(١)</sup> وبهذا انتهت العلاقات الودية بين الأراثقة والماليلك تلك التي استمرت ما يقرب من القرن والتي ظل الأراثقة طوالها موالون للملك في سياستهم الخارجية ومراسيمهم الداخلية ، فضلاً عن أن شك الظاهر يجدوى علاقته مع الملك وإمكان قيام هؤلاء بإنقاذ إمارته من غزو الغزاة ، دفعه إلى مصالحة الأيوبيين المتحمسين لتمورلنك في حصن كيفا ، كما دفع هؤلاء إلى التصالح مع القبائل التركانية التي بدأت تغزو المنطقة وبخاصة الآق قويينلو<sup>(٢)</sup> .

ولكن الأوضاع لم تستمر بهذا الاتجاه سوى فترة قصيرة ، كان الظاهر يتحين خلاها الفرص لإعلان العصيان على السيطرة التترية . والواضح أنه أرغم على قبول شروط تمورلنك بسبب الظروف السيئة التي مرت به خلال فترة اعتقاله ورغبتـه في التخلص من الأسر . وقد أوضح ابن عربشاه أنه حاول التنازل عن منصبه فور وصوله إلى ماردين مما يشير إلى أنه لم يخضع كل الخصوص للغراءات تمورلنك وأنه فضل التنازل عن منصبه على البقاء فيه تابعـاً للتتر يأثر بأوامرهم . وفي الندوة الأدبية التي عقدت إثر تسلمه المنصب وما قيل فيها من أبيات ، إيحاءات بعدي حقدـه على تمورلنك ورغبتـه وحاشيته بزوال ملـكه ، حتى لقد انشد أحدهـم وهو الحسن بن طيفور :

طفى (تمر) واستأصل الناس ظلمـه وشاعت له في الخافقين الكبارـر

لقد زاد بغـيـراً فافرحاوا بزوالـه لأنـا على الباغـي تدور الدوائر<sup>(٣)</sup>

(١) ابن عربشاه ص ٥١ ، ابن العجاج ، شذرات ٦ / ٣٥٣ ، ابن الفرات ، تاريخ ٩ . ٤٥٣

Enc. Isl. art Artukids, New ed. (٢)

(٣) ابن عربشاه ص ٥٢ .

ويظهر أن الظاهر كان يتمتع باستقلال كبير خلال السنوات التي سبقت عصيانه بسبب رغبته في التمرد على السلطة التترية من جهة ، ولانشغال تيمورلنك خلال تلك السنوات « في جهات أخرى وأنه أهل أمر ماردين وتناسها ولم يتعرض إلى ما يتعلق بها من مدنها وقرها<sup>(١)</sup> ». من جهة أخرى ، ومن ثم أعاد الظاهر الخطبة لبررق في مصر<sup>(٢)</sup> . وفي عام (٨٠٢ هـ = ١٣٩٩ م ) ، أثاحت الظروف لتيمورلنك اتخاذ إجراءات شديدة ضد ماردين بسبب موقف صاحبها المتعدد تجاه السلطة التترية . فقد استدعى تيمورلنك في ذلك العام من قبل بعض قواده بسبب عصيان عدد من الأمراء جنويي الأناضول ، فتوجه إلى أرزنجان ومنها إلى ماردين حيث قامت قواته بأعمال انتقامية ضدها من نهب وتخريب<sup>(٣)</sup> . ويظهر أن تيمورلنك طلب من صاحب ماردين خلال ذلك مطاليب عديدة فجاهر بالعصيان<sup>(٤)</sup> . « لما كان قاساه أولًا من طاعة ذلك الغادر – الذي – ندم على إطلاقه أول مرة<sup>(٥)</sup> » .

لم يشاً تيمورلنك الأنشغال فترة طويلة بماردين ، للعمل على إخضاع صاحبها وتأديبه ، لذا غادرها على أن يعود إليها بعد تصفية مشاكله وتنفيذ أهدافه الواسعة في الجهات الشهالية الغربية من العالم الإسلامي . واستطاع في تلك الجولة أن يدمر ويستولي على عدد من المدن الإسلامية في آسيا الصغرى والشام كسيواس وبهنسا وملطية ثم حلب ودمشق . ثم كر عائداً في الثالث من شعبان

(١) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٢) ابن إيس ، بدائع الزهور ٣١٥/١ .

(٣) ابن عربشاه ص ١١٦ .

(٤) انظر الصفحات السابقة من هذا الفصل .

(٥) ابن عربشاه ص ١١٦ .

(١٤٠١ = ٨٠٣ م) الى حلب - قادماً من دمشق - وفعل بها ما فعله في المرة الأولى ، واتجه من هناك الى ماردين بعد أن قوي مركزه اثر تحطيمه الجناح الشمالي لدولة المماليك . ونهبت قواته الراها لدى مرورهم بها ، ومن ثم أرسل رسوله الى ماردين يستدعي الظاهر برسالة رقيقة أعرب فيها عن شوئه الشديد للقائه ، فأبى الظاهر أن ينزل اليه ولم يستمع الى كلامه « ولا التفت اليه ، فإنه كان (قد) آذاه أول مرة فما احتاج الى تجربته آخر مرة » ، وسلك معه برّ السلامة<sup>(١)</sup> ، وأكفى بإرسال خادم له يدعى الحاج محمد بن خاصبك ومعه الهدايا والخدم ، واعتذر لتيمورلنك عن حضوره بعدة أمور منها تخوفه من غدره كما فعل في المرة الأولى عام (١٣٩٣ = ٦٩٦ م) ، فلم يلتفت تيمورلنك الى ذلك وتقدم على رأس قواته صوب ماردين ونزل على دنيسر في العاشر من رمضان ، حيث أخذ يتهيأ لحصار ماردين . وكان سكان المدينة قد استعدوا لذلك فأخلوا المدينة وانتقلوا الى القلعة شديدة الحصانة والتي تتمتع بموارد توينية كثيرة في الجهات الخلفية من جبلها ذي الوادي الكبير الأنبار والذي تنتشر فيه المزارع والمراعي<sup>(٢)</sup> . وشدد تيمورلنك الحصار عليهما من شق جهاتها ، وأخذ يتدارس مع قواده نقاط الضعف في إمكانياتها الدفاعية ، ولم يكن حواليها مكان للقتال ولا لنصب المجانيف ، فمُولَّ تيمورلنك على القيام بمحاولات لثقب بعض جوانب حصونها بالمعاول والفؤوس ، لفتح ثغرات فيها . تمكّن قواته من التسلّب عبرها الى قلب القلعة ، واستمرت عمليات الهدم والتقطيع الى العشرين من رمضان دونما نتيجة . ولما أدرك تيمورلنك عدم جدوى الاستمرار على الحصار قام بتخریب المدينة وتهدم أسوارها ومبانيها

(١) المصدر السابق ص ١١٦ .

(٢) ابن عربشاه ص ١١٦ .

وجوامعها وقلع أشجارها « فجعا آثارها وفك أساسها وأحجارها »<sup>(١)</sup> ، ومن ثم غادر ماردين في العشرين من رمضان ( ٨٠٣ هـ = ١٤٠١ م ) متوجهًا إلى بغداد ، وأخذ يبعث في طريقه في تملك المنطقة ، فخراب نصبيين ورعي مستغلاتها وفعل بها ما فعل بماردين<sup>(٢)</sup> .

ترك تيمورلنك أحد حلفائه التركان وهو فراليوك عثمان أمير قبيلة ( آق قويينلو ) على حصار قلعة ماردين ، بعد أن وlah على آمد وبعض المواقع المجاورة في المنطقة . وقد اضطر هذا إلى الانسحاب هو الآخر بسبب مناعة ماردين من جهة ، وعدم وجود الماء الكافي لإطعام خيول القوات المهاجمة من جهة أخرى<sup>(٣)</sup> .

وهكذا تكنت مازدين من أن تثبت قدرتها العظيمة على المقاومة بعد أن أعلنت العصيان على أقوى دولة في الشرق آنذاك ، واستطاعت أن تقأوم حصارًا تكفيه أن يكتسحوا بقوتهم الضخمة – خلال ذلك العام بالذات – معظم الجهات الغربية الوسطى من العالم الإسلامي . وكان من المتوقع أن تسقط هذه الإمارة أو تعلن استسلامها فور عودة الجيوش التترية المنتصرة لحصارها في رمضان من عام ( ٨٠٣ هـ = ١٤٠١ م ) . ولا ريب أن هنالك عوامل عديدة مكنته مازدين من الثبات بوجه الحصار ، منها أن تيمورلنك

(١) المصدر السابق ١١٧ ، ونقل عنه ابن تفري بريدي ، المنهل الصافي ( مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨ ) ، العيني ، عقد الجлан ( مخطوطة ٦٦/٤٠ ) .

(٢) ابن عربشاه ص ١١٧ - ١١٨ . ونقل عنه ابن تفري بريدي ، المنهل الصافي ٤٩٧/٢ - ٤٩٨ ، وتناول الحادثة باختصار كل من الغيش ، التاريخ الغياني ( مخطوطة ص ٢١١ ) ، ابن تفري بريدي ، النجوم الظاهرة ١٢/٤٦ - ٤٦٦ .

(٣) التاريخ الغياني ( مخطوطة ص ٢١١ ) . وانظر ابن عربشاه ص ١١٨ .

كان منهكًا في الاستعداد للتوجه الى بغداد وإعادة اخضاعها ، ولذا فإنه ما لبث ان ترك احد قواه على الحصار وتوجه هو الى هناك ، وكان من المرجح ، لو اشرف بنفسه وبكل قواه على الحصار ، لاضطرت ماردين على الاستسلام . ومنها ان الخراب الذي لحق بالمناطق المحيطة بماردين من جراء التحرّكات العسكرية المستمرة ، لم يكن قوات قرايلوك عذان من الحصول على الطعام ، سواء لقواته او لخيوله ، ولذا اضطر الى الانسحاب . كما لا ينكر ما كانت تتمتع به قلعة ماردين من حصانة طبيعية وموارد توينية<sup>(١)</sup> ساعدتها على عدم تكين الفزاعة منها قروناً طويلة ، فضلاً عن ان الأرادة كانوا قد ترسوا على الدفاع والتخاذل الاجراءات المناسبة لها بما يمتلكوه من خبرات سابقة في هذا المجال ، وهكذا وجدنا سكان المدينة ينسحبون بسرعة الى القلعة قبل ان تبدأ قوات تيمورلنك الحصار .

ورغم كل ما سبق فإن هذا الحصار كان قد الحق اضراراً بالغة بالامارة ، كما الحق الدمار بمدينة ماردين ولم يسلم منه الا القلعة ، وقد ترك قرايلوك عذان المنطقة وقد تحولت الى خراب<sup>(٢)</sup> . وغادرها عدد كبير من سكانها<sup>(٣)</sup> ، ولم تستطع ماردين ان تنهض من كبوتها هذه المرة او تستعيد ازدهارها وعمريها ، خاصة وانه لم تكن هناك قوة اسلامية تحتمي بها هذه الامارة لتجهيزه بعد ذلك الى الاعمار والبناء كما كانت تفعل في السابق . ذلك ان الماليك كانوا قد تلقوا ضربات قوية حاسمة من قبل تيمورلنك في الشام لم يستطيعوا معها ان يعيدوا تنظيم علاقاتهم الخارجية مع القوى الاسلامية ، وخصوصاً في الشام والجزيرة

(١) ابن عربشاه ص ١١٦ . وانظر مادة (ماردين) في المراجع الجغرافية الاسلامية .

(٢) التاريخ النباتي (ماردين) مخطوطة ص ٢١١ .

(٣) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨) .

والانضول ، طيلة سنوات عديدة . ويظهر ان الاراققة حاولوا ان يلتزموا في هذه الفترة سياسة الحياد وعدم استفزاز اي من تيمورلنك او الماليك ولذلك نجدهم يتخدون دور الوسيط في المفاوضات التي جرت بين الطرفين في عامي (١٤٠١ م = ٨٠٤ هـ) و (١٤٠٢ م = ٨٠٥ هـ) <sup>(١)</sup> .

تعرضت ماردین طيلة السنوات التي سبقت سقوطها الى هجمات مستمرة من قبل القبائل التركانية في المنطقة ، وبخاصة قبيلة الخروف الأبيض التي اعتناد زعيمها قرا ايلوك عثمان الجييء كل سنة الى اطراف ماردین «ليرعى الزرع ويخرّب ويضي» . وقد اضطر الظاهر عيسى الى مصانته وعدم اللجوء الى قتاله <sup>(٢)</sup> بسبب ما لحق ماردین من خراب ودمار اثر حصار تيمورلنك عام (١٤٠١ م = ٨٠٣ هـ) ، فضلاً عن عدم إمكان اللجوء الى حماية الماليك في الشام بسبب ما أصابهم من ضعف اثر الضربة التي تلقوها من تيمورلنك ، ومن ثم وجد الظاهر نفسه مضطراً الى التوصل لدى تيمورلنك ان يكتف قرا ايلوك عثمان عنه ، فطلب هذا من حليفه عثمان التوقف عن مهاجمة ماردین إلا أن الأخير لم يستجب لأمر تيمورلنك واستمر على غاراته <sup>(٣)</sup> . وقد أوقف عثمان

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى / ٧٠٢ - ٣٢٤ .

(٢) التاريخ الثنائي ( مخطوطة ص ٢٣٠ ) . وقرا ايلوك هو ابن قططوبك . كان أبوه أحد أمراء حاشية ملك ماردین ، وقد انتهى ابنه هذا الى تيمورلنك وحارب معه وتمكن من الاستيلاء على آمد وبعض المواقع القريبة منها فأقره تيمورلنك عليها . ويعتبر قرا ايلوك مؤسس دولة الخروف الأبيض ( آق قويينلو ) : انظر ابن تغري بردی ، المنهل الصافی ( مخطوطة ٢ / ٣٧٣ ) والتاريخ الثنائي ( مخطوطة ص ٢١١ - ٣٠٦ ) . وابن عربشاه ص ١١٨ .

(٣) ابن تغري بردی ، المنهل الصافی ( مخطوطة ٢ / ٤٩٧ ) .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

بهجهاته هذه إعادة إعمار ماردين وتحصينها كا ساعد على إضعافها ونشر الخراب في ربوعها مما أدى الى فقدان كل مقوماتها الدفاعية ومكّن بالتالي قرا يوسف أمير دولة الحروف الأسود من إسقاطها بعد فترة قصيرة .

عمل الظاهر جهده لإيقاف هجمات قرا ايلوك عثمان على ماردين ، ورأى أن خير وسيلة لتحقيق ذلك هي التحالف مع أمير قوي للعمل ضد مطامع عثمان ، ووجد فرصة مناسبة في التحالف مع الأمير جكم بن عوض نائب حلب المملوكي الذي انشق على المماليك عام (١٤٠٨ م ) ، وأعلن نفسه سلطاناً في حلب ، وخطب له في أنحاء واسعة من الشام . وقد تم الاتفاق بينه وبين الظاهر عيسى على قتال عثمان ، فتوجها على رأس قواتهما الى آمد في ذي الحجة سنة (١٤٠٦ م ) لاستردادها منه ، فقصدى لها عثمان بقواته وانتصر عليهما بعد قتال قصير ، وأسفرت المعركة عن مقتل جكم ، والظاهر وتشتت قواتها<sup>(١)</sup> ، ولا ريب أن تحالف الظاهر عيسى مع جكم ، ألب المماليك عليه وأعطى المجال للقبائل التركانية في الجزيرة لتوسيع علاقاتها بالمماليك<sup>(٢)</sup> ، وبهذا ازدادت عزلة ماردين وغدت تقف وحدها وجهاً لوجه أمام مصيرها .

تولى حكم ماردين بعد الظاهر ابن أخيه الملك الصالح شهاب الدين أحمد بن إسكندر ، بينما استمر قرا ايلوك في هجهاته على الإمارة مما أدى الى انهاكمـ تمامـاً<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق ٢/٤٩٧ - ٤٩٨ ، وانظر ابن إياـس ، بدائع الزهـور ١/٣٥١ - ٣٥٢ ، صالح بن يحيـيـ ، تاريخ بيـرـوت ص ٢١٦ .

(٢) انظر المقربيـيـ ، السـلـوكـ (القسم المخطوط ٨٠/١) ،

(٣) ابن تفريـيـ برـديـ ، المنـهـلـ الصـافـيـ (القسم المخطوط) ٢/٤٩٧ - ٤٩٨ ، والقسم المـشـورـ ، ٢٢١/١ - ٢٢٢ .

وفي عام (١٤٠٩ = ٨١٢ م) عزم قرا يوسف، أمير دولة الخروف الأسود (قراقوينلو)، التي كانت تشمل آنذاك أذربيجان وإربل والموصل وسنجران وبعض أنحاء العراق، على التوجه إلى ديار بكر في محاولة لضمها إلى إمارته، مستفيداً من فرصة تحالفه مع المماليك<sup>(١)</sup>، فتوجه إلى ماردين وهناك التقى بقرا ايلوك عثمان وجرى قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة الأخير، ومن ثم حاصر قرا يوسف ماردين التي كانت قد فقدت جل طاقتها الدفاعية، وإذا أدرك الملك الصالح أنه عاجز عن مقاومة قرا يوسف طلب إجراء مفاوضات مع خصمه، وعرضت حاشية ماردين على الصالح أن يخطب ابنته قرا يوسف وأن يتنازل له عن ماردين كمهر لذلك لقاءً أن يمنحه قرا يوسف الموصى<sup>(٢)</sup> وأن يدفع له عشرة آلاف دينار وألف فرس وعشرة آلاف رأس من الغنم<sup>(٣)</sup>، فاستحسن الصالح هذه الشروط وعرضها على قرا يوسف فقبلها هو الآخر، ومن ثم تسلم ماردين وزوج ابنته بصاحبها وأرسله إلى الموصى<sup>(٤)</sup>.

فعل قرا يوسف، لدى دخوله ماردين، مما فعله تيمورلنك في البلاد التي استولى عليها<sup>(٥)</sup>. ومن المرجح أن عدداً كبيراً من بقايا البيت الأرتقي قتلوا خلال ذلك، وأن كثيراً من المعالم الحضارية الأرتقية درست، وأن شاهد ثلاثة قرون ونصف من حياة الأرتقة، أصبحت في قبضة قبيلة تركانية جديدة على الحضارة. وبعد أربعين يوماً من دخول الصالح الموصى سماً هناك

(١) المقريزي، السلوك (القسم المخطوط ٨٠/٣)،

(٢) التاريخ الفياني (مخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١).

(٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي (القسم المنشور ٢٢٢/١).

(٤) التاريخ الفياني (مخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١).

(٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، القسم المنشور ٢٢٢/١.

ومات<sup>(١)</sup> مختلفاً أربعة أولاد أخر جهم قرا يوسف من الموصل<sup>(٢)</sup> ، وبذلك قضي على آخر نفوذ سياسي للأرادة ، وغدت إمارة ماردين ضمن دولة الخروف الأسود<sup>(٣)</sup> . وقد أرسل قرا يوسف إلى الماليك في الشام يعلمهم باستيلائه على ماردين ، وأنه على نية التوجه إلى الشام لما بين الطرفين من المودة والمهود<sup>(٤)</sup> .

ولكن ماردين لم تبق بيد قرا يوسف طويلاً ، إذ أعاد قرايلوك عثاث الكررة عليها وهاجها ، مستغلًا فرصة تغيب حاكمها المدعو ناصر الذي أتابه فيها قرا يوسف ، وتكون قرايلوك من الاستيلاء عليها في عام ٨١٣ = ١٤١٠ م<sup>(٥)</sup> .

وهكذا قضى على آخر الأمراء الأرادة ، وسقطت آخر إمارتهم على يد قوات من جنسمهم من التركان<sup>(٦)</sup> ، بعد أن حكمت ما يزيد على ثلاثة قرون

(١) التاريخ الغياني (المخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١) . وينظر ابن تفري بردي (المنهل الصافي ، المنشور ٢٢٢/١) أن ذلك حدث بعد ثلاثة أيام فقط من دخول الصالح الموصل ، وأن زوجته توفيت هي الأخرى ، وأن ذلك تم عام ٨١١ وليس ٨١٢ كما أورد الغياث في تاريخه . ولا ريب أن ما أورده الغياث يعد أكثر دقة بسبب اطلاعه على تفاصيل هذه الأحداث ،

(٢) ابن تفري بردي ، المنهل الصافي (القسم المنصور ١/٢٢٢) .

(٣) المصدر السابق ١/٢٣٩ - ٢٤٠ . وانظر المقرizi ، السلوك (القسم المخطوطة ٣/٨٠/١) . ويختطيء ابن حجر (الدرر الكامنة ٩٦/٢) في القول بأن استيلاء التركان على ماردين تم عام ٨٠٩ هـ . بعد قتل أصحابها الظاهر عيسى في تلك السنة ، كما يختطيء العمري (تاريخ الموصل ص ٦٩) في أن أول ظهور قرا يوسف كان عام ٨١٣ هـ . أما العزاوي (العراق بين احتلالين ٢٧ - ٢٨) فيختطيء في عدم تعييه لتواريخ هذه الفترة .

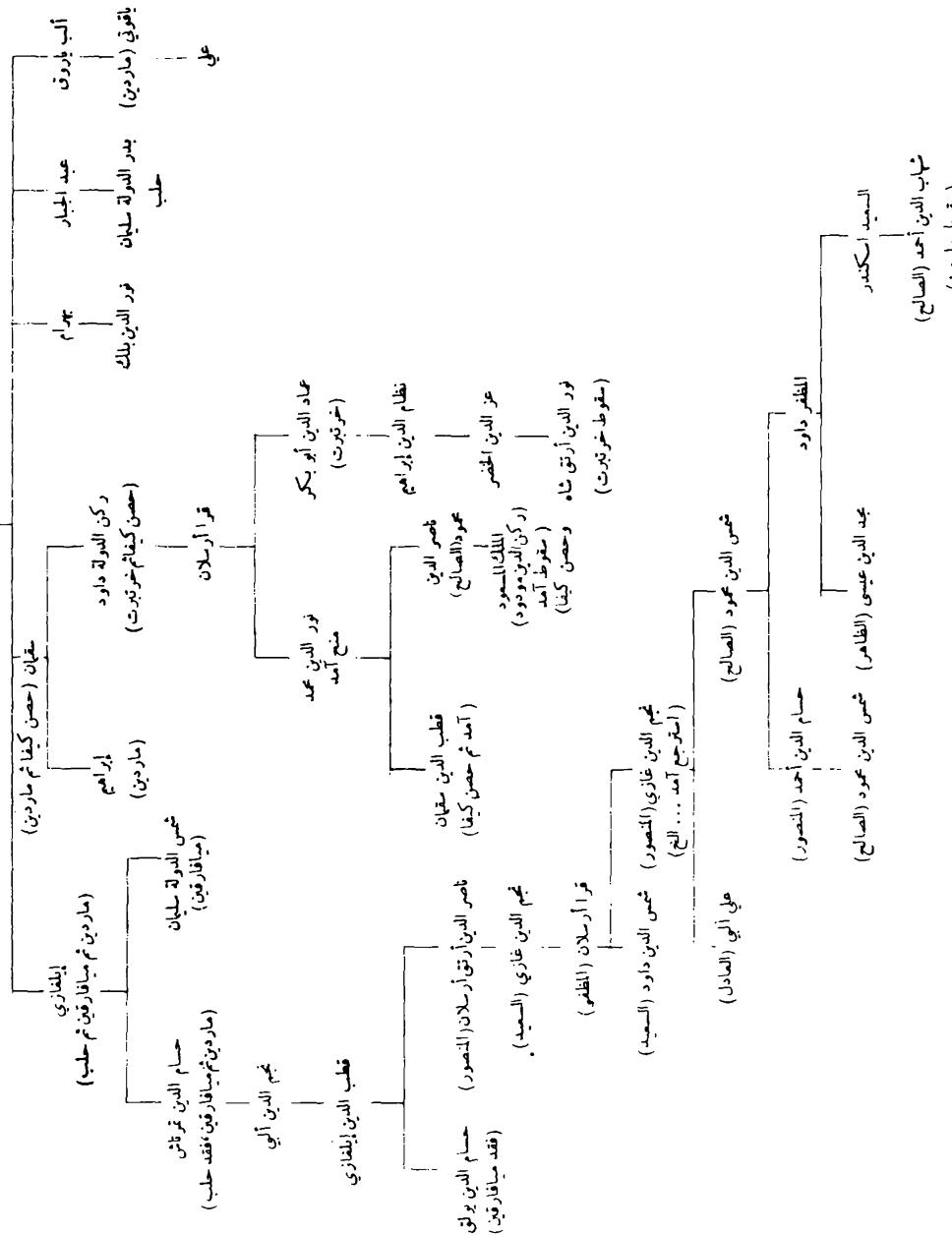
(٤) المقرizi ، السلوك (القسم المخطوطة ٣/٨٠) .

(٥) التاريخ الغياني (مخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١) ، العمري ، تاريخ الموصل ص ٦٩ .

(٦) انظر بشأن نشوء إمارق الآق قونيلو (الخروف الأبيض) والقراقونيلو (الخروف الأسود) ، الغزاوي ، التعريف بالمؤرخين ص ٢٢٨ - ٢٣١ ، ٢٣١ - ٢٤٥ ، ٢٤٥ - ١٢٠ ، العراق بين احتلالين ، الجره الثالث ، طرخان ، دولة الماليك الجراكسة ١١٨ - ١٢٠ ، دوائر المعارف الإسلامية .

تعرضت خلاها لأخطر شق وهجمات مستمرة . وكان الذي يجعلها تصمد داعماً ما تتميز به من إمكانيات دفاعية ، فضلاً عن وجود قوة كبيرة تركن إليها وتدخل في حمايتها إزاء الأخطار والهجمات ، ولكن الإنهاك الذي لحقها بسبب الهجمات المستمرة من قبل تيمورلنك والقبائل التركانية ، والضربات التي وجهت إلى المماليك في الشام على يد تيمورلنك كانت العوامل الأساسية في سقوط الإمارة ، إذ تركت وحدها ، ضعيفة منهكة ، في خضم من الفيلان العسكري ، لتجابه مصيرها على يد قوى تركانية جديدة فتية ظهرت في المنطقة ، واستطاعت بفضل تحالفها مع تيمورلنك وأتباعه أن تبسط نفوذها هناك .

## أرتقى بن إيكك



## الفصل الخامس

النظم والحضارة الأرتقية



تمهيد : -

إن موضوع التنظيمات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ذو علاقة وثيقة بسياسات الإمارات الأرترقية وعلاقتها الخارجية ، إذ أن هذه التنظيمات كانت ، إلى حد ما ، القاعدة التي استند إليها الأرادة في توجيه نشاطهم نحو التوسيع وإنشاء العلاقات مع الدول والإمارات المجاورة . فمن طريق هذه التنظيمات يمكن للأمير من السيطرة على الوضع الداخلي لإمارته وتسويقه وفق نظام معين يمكنه من استغلال الوسائل الاقتصادية والبشرية والحربيّة من أجل توسيع إمارته وتحديد علاقاته مع الآخرين ، كما يمكنه من القضاء على الفوضى الداخلية والسير بإمارته نحو التقدم والنمو في شق الحالات .

وهكذا فإن بحث النظام ، على قلة المعلومات عنها وابتعاد المصادر عن محاولة إبراد تفاصيل حولها ، ضروري لتوضيح الأساس الداخلي الذي استندت إليه علاقات الأرادة الخارجية ، السياسية وال العسكرية ، والتي تشكل القسم الأكبر من هذه الرسالة .

ويظهر أن الأرادة حاولوا تنظيم أوضاعهم الداخلية ، وتمكنوا من تحسين

النظم السائدة في المنطقة في الفترة السابقة ، كما أنهم اقتبسوا كثيراً من النظم التي عاصرتهم . ولكن المشكلة التي تهمنا هي هل أن الأراثة أقاموا تنظيماتهم على أنقاض جهاز سابق ؟ أم أنهم أنشؤوها بالكلية إنشاءً جديداً ؟ ومصدر هذه المشكلة هو عدم تأكيد المصادر على النواحي المتعلقة بالنظام ، وانصرافها إلى التأكيد على العلاقات السياسية والمحروب بالدرجة الأولى ، ليس فقط بالنسبة لديار بكر ، وإنما بصورة عامة ، وهكذا تضيع الإشارات المحدودة عن النظم في خضم من التفاصيل السياسية والعسكرية .

ولإعطاء صورة عن المعالم الأساسية للنظم الأرثوذكسية ، تجدر الإشارة إلى عدد من الاعتبارات أهمها :

١ - هنالك إشارات إلى عدد من التنظيمات الإدارية والاقتصادية في ديار بكر في الفترة التي سبقت تكوين الإمارات الأرثوذكسية مباشرة ، مما يشير إلى أن المنطقة كانت قد بُلْفَت - في تلك الفترة - مرحلة لا يأس بها من النضج الإداري والاقتصادي . وبمقارنة هذه التنظيمات بتلك التي عرفت لدى الأرثوذكس ، يتضح مدى ما أخذوه هؤلاء عن مسبحهم ومدى ما استحدثوه في هذا المجال .

٢ - إن سكوت المصادر عن بعض التنظيمات والأمور الإدارية والاقتصادية والاجتماعية ... في فترات معينة من التاريخ ، لا يعني عدم وجودها ، بل من المحتمل أن المصادر ، بتركيزها على القضايا السياسية والخوبية قد أهملت الأمور الحضارية . وهنا تجدر الإشارة إلى حقيقة هامة في المجال الحضاري ، تلك هي أن حدوث تحول سياسي أو حربي ، والانتقال من عهد إلى آخر وسقوط أمراء وقيام آخرين مكانهم ، لا يعني سقوط التنظيمات القديمة قاطبة وقيام أخرى جديدة لا علاقة لها بسابقتها ، إذ أن ذلك يناقض استمرارية التاسك

الاجتماعي والنظامي والبيروقراطي ( الوظيفي ) بعد حدوث هذه الرجات . فلا بد إذاً من القول بأن التنظيمات ، في خطوطها الأساسية ، لا يصيّرها تغيير كبير إثر تلك الانقلابات ، وبصورة خاصة بالنسبة لطبقة الموظفين الصغار والمسؤولين الثانويين الذين يلعبون دوراً هاماً في استمرارية النظام والقاسك الإداري . وهكذا يمكن القول بأن الأرادة لم يقيموا مؤسسات ونظمًا جديدة بالمرة على المنطقة ، بل إن بعضها كان موجوداً ، واكتفى هؤلاء بإجراء بعض التعديلات عليها ، فضلاً عن إدخالهم نظمًا جديدة مقتبسة عن الدول المعاصرة كالسلاجقة والأيوبيين والماليلك .

٣ - لم تقم الإمارات الأرتقية دفعة واحدة ، بل قامت في فترات زمنية متباينة ، وليس هذا فحسب ، بل إن كلاً من هذه الإمارات بدأت بعدينة أو حصن واحد وأخذت تتسع بالتدريج بضم أماكن جديدة إليها . وهذا يشير ، من ناحية سياسية وحضارية ، إلى عدم حدوث تغيير أساسي إثر قيام الإمارات الأرتقية ، وإن من المؤكد قيام الأرادة ، في كثير من الأحيان ، باقتباس شبه تام لما كان موجوداً سابقاً . ويشير ( كاهين ) إلى أن التنظيم الداخلي للأرادة وحضارتهم بصورة عامة كانت تنقصها الأصالة بحيث لا يستحقان دراسة شاملة خاصة بهما . فالإمارات الأرتقية كانت تشكل ، فيما عدا خربت ، جزءاً من العالم الإسلامي منذ عهد الفتوحات الإسلامية ، وإن المناطق التي حكمها الأرادة استمرت تحكم من قبل نفس السكان وبنفس القوانين التي كان يعمل بها سابقاً ، ويتساءل كاهين فيما إذا كان لنظام حكم الأرادة أي ميزات خاصة سواء أكانت أصلية أم غير أصلية<sup>(١)</sup> . هذا فضلاً عن أن إيران والعراق والشام ، كانت قد

تأثرت جميعاً - كما يشير فيت ، في هذه المرحلة التاريخية ، إلى حد كبير أو صغير بما أنشأه السلاجقة من نظم حربية واقتصادية وما جلّوا إليه من إنشاء المدارس<sup>(١)</sup> . وقد أشار القلقشندي إلى هذه المؤشرات الحضارية للسلاجقة والأتراكبيات التي تفرعت عنها في مختلف أنحاء المنطقة المذكورة ، بمحبته إن أهم الدول والإمارات التي قامت في إنماطها كانت تستمد نظمها من هؤلاء في معظم الأحيان<sup>(٢)</sup> . ويعود كاهين فيشير إلى أن دخول الفتن التركاني - الذي ينتمي إليه الأراثقة - إلى ديار بكر لم يكن له أي تأثير على فعاليات القطر الاقتصادية التقافية ، التي كانت قائمة على الزراعة وتربية الحيوانات ومناجم الحديد والنحاس ، والتجارة مع العراق والأناضول<sup>(٣)</sup> . وهذا يشير بدوره إلى أن ناحية من أهم احدي النظم الأرثوذكسية لم تكن مبتكرة ، وإنما اعتمدت على ما كان سائداً من قبل . هذا فضلاً عن أن السمة العربية الأصلية للحضارة الأرثوذكسية استمرت تحتفظ مكانة كبيرة في ديار بكر متمثلة في الشعر العربي الذي لقى رواجاً لدى الأراثقة ، وفي العدد الكبير من الشعراء الذين خرجتهم أو استقبلتهم ديار بكر في عهد الأراثقة .

٤ - ثمة نتيجة تتمحض عن الاعتبارات السابقة ، وهي أن كل دراسة للنظم التي التزمتها الدولة السلجوقية ، أو الدول والإمارات التي أخذت عنها كالآیوبیین<sup>(٤)</sup> ، تلقي ضوءاً في الوقت ذاته على المعالم الأساسية للنظم الأرثوذكسية ، خاصة وأن الإمارات الأرثوذكسية امتدت ، في بعض الأحيان ، فشملت مدنًا

(١) L'Egypte Arabe, P. 330.

(٢) صبح الأعشى ٥/٤ .

(٣) Enc. Isl. art Artukids, New ed.

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ٥/٤ .

وموقع كانت ذات طابع سلجوقي كحلب والواقع المحيطة بها .

٥ - شكل الأرادة ثلاثة إمارات ضمت كل منها عدداً من المدن والواقع . وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات الثانية في نظم تلك الإمارات فيها بينما أو فيما يتعلق بنظم مدن كل إماراة منها على حدة ، إلا أنها تتشابه جميعاً في خطوطها الأساسية وكبار موظفيها وطبيعة حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولذا سيجيء بحث حضارة ونظم هذه الإمارات والوحدات المدنية كوحدة كاملة دون تحزئة .

٦ - أورد بعض المؤرخين عدداً من الإشارات حول ما كان سائداً من نظم في السنوات التي سبقت ورافقت ظهور أولى الإمارات الأرتقية في ديار بكر ، حيث كانت تحكم الإمارة الرومانية الكردية ( ٣٨٠ - ٤٧٨ = ٩٩٠ ) (١) ، وبعض الأمراء السلاجقة ، مما يلقى ضوءاً على الأسس التي اعتمدها الأرادة في تنظيماتهم . ويتبين من استعراض الروايات التي أوردها الفارقي في هذا المجال ونقلها عنه ابن شداد ، أن ديار بكر كانت قد بلغت خلال الفترة المذكورة درجة لا يأس بها من النمو في نظمها الإدارية ، وظهر فيها عدد من الأجهزة والمناصب التي كان أصحابها يقومون بتسيير شؤون الإدارة كالقضاء ونيابة القضاء (٢) والخطابة (٣) والحساب (٤) والنظر على الوقف (٥)

---

(١) الفارقي ، تاريخ آمد (القسم المنشور) ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ٩٩ - ب) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ص ١٩٧ - ١٩٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ - ٢٧٩ ، ٢٦٧ .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ٢٤٧ - ٢٦٦ ، ٢٦٦ ، الأعلاق (مخطوطة ٩٩ - ب) .

(٥) الفارقي ، تاريخ آمد ص ١٩٧ - ١٩٩ .

والديوان<sup>(١)</sup> والاستيفاء<sup>(٢)</sup> والوزارة<sup>(٣)</sup> والولاية<sup>(٤)</sup> والمحاجبة<sup>(٥)</sup> ومحافظة البلد<sup>(٦)</sup> ودار الضرب<sup>(٧)</sup>. وهنالك من الضرائب ، المؤن والأعشار والأقساط والكاف والخراج<sup>(٨)</sup> ، كما يتضح الدور الهام الذي كان يلعبه القضاة في المجالين السياسيي والعماني حيث كانت الظروف السياسية تلعب دورها في تسليم المناصب القضائية ، لذا لم يكن أحدهم يستقر في منصبه طويلاً . وقد تدخل القضاة في تعيين الحكام وعزلهم<sup>(٩)</sup> . وكان المحتسب يتمتع ، كذلك ، بصلاحيات واسعة فكان يسمم في فرض الضرائب والرسوم على الأهالي ، كما كان يقوم أحياناً بتولى أمور المدينة<sup>(١٠)</sup> . أما الوزير فكان يمثل السلطة العلية في البلاد ، وقد فوض في أحيان كثيرة صلاحيات واسعة شملت تنصيب ولی المعهد إثر وفاة سلفه ، والإشراف على النواحي العمرانية والمالية مما أتاح لبعض الوزراء الحصول على الثروة عن طريق المصادرات وابتزاز الأموال ، وبلغ من صلاحية

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ٢٠١ - ب ) .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ابن شداد ١٠١ - ب .

(٣) الفارقي ، تاريخ أمد ص ١٩٧ - ٢٤٤ ، ٢٣٧ - ٢٣٦ ، ٢٠٠ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ . ابن شداد ٩٧ ب ، ٢٩٩ .

(٤) الفارقى ص ٢٤٤ - ٢٨١ ، ٢٧٩ ، ٢٤٧ ، ابن شداد آ٩٩ ، آ١٠١ ،

الفارقی ص ٢٧١ (٥)

(٦) المصدر السابق ص ٢٣٢/٢٣٠ ، ابن شداد ( مخطوطة ٢٩٧ ) .

٢٧٤ - ٢٧٥ الفارقی ص (٧)

<sup>(٨)</sup> المصدر السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ابن شداد ٩٧.

(٩) الفارق ص ١٩٧ - ٢٠٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ - ٢٣٦ ، ٢٣٧ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ - ٢٤٨ ،

۲۶۶ - ۲۸۴ ، ابن شداد ۲۹۷ - ب ، ۲۹۹ ، ۳۱۰۱ - ب ، ۳۱۰۰ ، ۳۹۹ - ب .

١٠) الفارقى ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ٢٦٩ .

الوزراء أن أحد حكام ميافارقين ردَّ إلى وزيره – المعين – «جميع الأمور»، ويظهر أنَّ الوزير بتمتعه بهذه الصلاحيات حدَّ من أهمية الوالي الذي لم يعد له دور يذكر في تسيير شؤون البلد، اللهم إلا في الحالات التي كان الوزير يغيب خلالها، أو تشرُّف وظيفته<sup>(١)</sup>.

ولم تحدد الروايات الألفية طبيعة العلاقات الإدارية بين مختلف الموظفين بشكل دقيق. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ عدداً من الوظائف السالفَة لم يكن ثابتاً بل كان معرضاً للاستغناء عنه في أحيان كثيرة.

وقد تأثر التقدم الاقتصادي والمعماري لمنطقة بالظروف السياسية تأثراً كبيراً بسبب اختلاف الحكام عليها واتباعهم أساليب مختلفة، فمنهم من كان يعمل على الإصلاح بإسقاط الضرائب المحففة والتَّوسيع في الإِعْمَار<sup>(٢)</sup>، ومنهم من كان يتبع أساليب البطش والتنكيل وزيادة الضرائب مما اضطرَّ عدد من الأهالي إلى الجلاء<sup>(٣)</sup>.

ويُكَلِّن القول بأنَّ المنطقة بلغت درجة كبيرة من التَّقدُّم الإداري والمعماري والاقتصادي في أواخر حكم الإمارة المروانية في ديار بكر، حيث انصرف حكامها إلى الإصلاح والإِعْمَار<sup>(٤)</sup>. ولكن ما أن سقطت تلك الإمارة، حتى غدت ديار بكر عرضة للفتنة والأطماع، حيث تناوَبَتْ الحكام وطمع الأمراء

(١) الفارقي ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٣٦ ، ٢٠٠ - ٢٤٤ ، ٢٣٧ - ٢٤٧ ، ٢٧١ ، ٢٧١ - ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ابن شداد ٩٧ ب ، ابن شداد ٩٧ ، ٢٩٩ ، ٢٩٩ - ٢١٠ ، ٢٩٩ - ب.

(٢) الفارقي ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٣٦ ، ٢٠٠ - ٢٧٤ ، ٢٣٧ - ٢٧٥ ، ٢٧٥ ، ابن شداد ٩٧ ب.

(٣) الفارقي ص ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٧ - ٢٩٩ ، ابن شداد ٩٧ .

(٤) الفارقي ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ٢٠٤ ، ابن شداد ٩٣ - ب.

المحاورين بضياعها وقرارها مما أدى إلى تدهور أوضاعها العامة ، فاستولى عليها ، كما ذكر الفارقي « الظلم والجور والخراب ، وافتقر أهلها » ، وإلى الآن – حوالي منتصف القرن السادس – لم ترجع إلى عشر عشر ما كانت عليه في أيام نظام الدين ( المرواني )<sup>(١)</sup> . وهذا يعطي صورة مقارنة عن الوضع الاقتصادي لديار بكر قبيل الأرادة وفي مطلع حكمهم<sup>(٢)</sup> .

## الإدارة الأردنية :

كان نظام الحكم في الإمارات الأردنية قائماً على الأساس الوراثي ، فلابن يعقب أباه في الحكم ، وأحياناً تنتقل السلطة إلى الأخ في حالة عدم وجود وريث أو عدم تسع ابن بالمؤهلات الكافية<sup>(٣)</sup> . ولكن كثيراً ما كان يحدث أن الوريث يختلف أباه على الحكم حتى لو كان طفلاً ، وهذا هو الذي أتاح لبعض أفراد الحاشية الاستئثار بالحكم الفعلي ، وتوجيه الأمراه الأطفال وفق هواهم<sup>(٤)</sup> .

(١) الفارقي ، تاريخ أمد ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ٩٣ - ب ) .

(٢) انظر ما يلي من الفصل .

(٣) انظر جدول حكام الأرادة .

(٤) قوله حسام الدين يوق أرسلان الحكم بعد أبيه إيلغازي عام ( ١١٨٤ = ٥٨٠ م ) وكان طفلاً فقام بتربيته نظام الدين البخش شلوك أبيه واستأثر بالحكم هو وشلوك آخر يدعى لولو . ولم يزل الأمر كذلك إلى أن توفي الولد عام ( ١١٩٩ = ٥٩٥ م ) ، وكان له أخ أصغر منه هو قطب الدين أرسلان فعينه البخش مكان أخيه في الحكم « وليس له منه إلا الأم » ، والحكم للنظام ولولو » . ولكن قطب الدين مالت به أنأخذ يتعين الفرس للتخلص من نفوذهما ورواطاً على ذلك جماعة من الأمراه والمالية ومن ثم تمكن من اغتيالهما عام ( ١٢٠٤ = ٦٠١ م ) ، وإخراج مناوئيه من ماردین وتعزيز انصاره ، وبذلك تمكن من ممارسة مهام الحكم بشكل فعلي . انظر ابن الأثير ، الكامل / ١١ ، ابن العبرى ، مختصر ٣٨١ - ٣٨٢ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٥ ب ) .

وكان المؤامرات داخل البلاط الأرتقي لا تقف عند حد ، ليس فقط بين الأمراء وكبار رجال الحاشية ، بل بين الأمراء أنفسهم<sup>(١)</sup> .

ولم يشذ الأرتقة عن قاعدة الوراثة في الحكم إلا في عهد قطب الدين سقمان ، أمير آمد وحسن كيما ، حيث إنه عهد بولاية العهد إلى ملوكه يدعى إياز . وعندما توفي قطب الدين عام ( ٥٩٧ = ١٢٠٠ م ) ، تسلم الحكم بعده ملوكه إياز واستمر فيه أيامًا ، تمكن بعدها شقيق قطب الدين ( ناصر الدين محمود بن محمد ) من انتزاع الحكم منه ، ومن ثم ألقى القبض عليه واعتقله<sup>(٢)</sup> .

أما الألقاب التي اتخذها حكام الأرتقة فقد تدرجوا فيما مستغلين الظروف السياسية المحيطة بهم ، فتسموا في البدء باسم الأمراء ثم الملوك<sup>(٣)</sup> ، وأول من تلقب منهم بالملك هو أرتق أرسلان عام ( ٦٠١ = ١٢٠٤ م ) ،

---

(١) في عام ٦٣٦ ( وقيل ٦٣٧ م ) اغتيل الملك المنصور أرتق أمير ماردين على يد ماليكه بسبب الخلاف الذي حدث بينه وبين ابنه الملك سعيد إيلغازى واعتقال الأخير ، مما دفع ابنه إلى تدبيره هذه المؤامرة لاغتيال جده والافراج عن أبيه . وما أن استقر سعيد في الحكم حتى قام باعتقال أكبر أخيه حيث كان يشكل خطراً على نفوذه ، ومن ثم استقام له الأمر . انظر ابن الفروطي ، المروادت الجامعة ص ١١٦ - ١١٧ ، سبط بن الجوزي ، مرآة / ٨ ، ابن شداد ، الأعلاق ( خطوطه ١٣٤ ب ١٣٥ م ) . وفي عام ٦٧١١ م . توفي الملك المنصور إيلغازى ، فقام ولی عهده الملك العادل بمحاولة لاغتيال أخيه شمس الدين الصالح لما كان يعلم من همه وأنه أحق بالملك منه ، فعارضه كبار الأمراء في ذلك للكائن الكبيرة التي كان يتمتع بها الصالح ثم ما لبث العادل أن توفي بعد أيام ، ويقال إنه سُمّ على يد أحد الأمراء ، فانتقل الملك إلى أخيه الصالح . انظر : الدواداري ، كنز الدرر ٩ / ٢٤٢ - ٢٤١ ، ابن حجر ، الدرر ٣ / ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) ابن الساعي ، الجامع المختصر ٩ / ٥٣ .

(٣) غدا لقب الملك ، في العصر السلجوقى ، يطلق على الولاية الفرعون بينما احتفظ رب الأسرة السلوغية بلقب السلطان ( مجلة بغداد ص ٢٦ ، عدد ٢٤ سنة ١٩٦٥ ) .

حيث سمي نفسه الملك المنصور<sup>(١)</sup> . ثم اخذ حكام الأرتقاء بعدئذ لقب السلطنة ، وأول من تلقب منهم بذلك هو نجم الدين المنصور المتوفى عام ٧١٢ = ١٣١٢ م ) ، ثم أبناؤه من بعده<sup>(٢)</sup> ، واستمروا على ذلك حق سقوط إمارة ماردين عام ( ٨١٢ = ١٤٠٩ م ) ، ولكن ذلك لم يمنع من تمسكهم بلقب الملك وخاصة في الفترة الأخيرة كالمملوك الظاهر مجد الدين عيسى<sup>(٣)</sup> . وكان من عادتهم إضافة نعمتين الى اسمهم الأصلي مثل ( المنصور نجم الدين إيلغازي والعادل علاء الدين علي ) ، ومن المرجح أنهم اقتبسوا ذلك من الأيوبيين والماليك<sup>(٤)</sup> .

ولا ريب أن السلطة الرئيسية في الحكم كانت بيده الأمير الأرتقي ، وأنه كان يتمتع بنفس الصلاحيات التي كان يتمتع بها سلاطين وملوك وأمراء تلك الفترة : كمنح الإقطاعات ، ومكافأة الأمراء والأجناد ، والقيادة العليا للجيش ، وتعيين كبار موظفي الدولة وعزلهم وتغييرهم ، والنظر في المظالم أحياناً ومقابلة بعض ذوي الحاجات من الأهالي ، وتحديد سياسة الإمارة ..<sup>(٥)</sup> أما بقية الاختصاصات والأعمال فكانت تقع على عاتق الجهاز الإداري المكلف بتسيير شؤون الإمارة الإدارية والعسكرية والمالية .

(١) ابن تفري بودي ، المنهل الصافي ( القسم المخطوط ٤٩٦/٢ ) .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٣١٦/٤ . ابن تفري بودي ، المنهل الصافي ( القسم المنشور ) حاشية ٣ ، ١٠ / ٢٢١/١ .

(٣) العيني ، الروض الزاهر ص ١٥ .

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤٨٨/٥ . وانظر عن انتشار الالقاب لدى السلامة والذين أعقابهم ( مجلة بغداد ص ٢٤ - ٢٨ ، عدد ٢٤ سنة ٩٦٥ ) .

(٥) انظر : علي ابراهيم حسن ، الماليك البحريدة ص ١٦٠ - ١٦٢ .

يقف الوزير على رأس الجهاز الإداري لدى الأرادة ، وكان يتمتع بصلاحيات واسعة في العهود الأولى من حكمهم ، وربما كان الأرادة متأثرين في ذلك بالنظام السلجوقي الذي كان يعطي للوزير حق الإشراف على جميع الدواوين والمرافق المهمة في الدولة<sup>(١)</sup> . وأول وزير تتطرق الروايات إلى ذكره هو أبو تمام بن عبدون الذي رافق إيلغازي لدى توجهه إلى أرمينية لقتال الكرج عام (٥١٤ هـ = ١١٢٠ م)<sup>(٢)</sup> . ويشير ورداد اسم الوزير في هذه الفترة المبكرة إلى أن الأرادة اخندوا الوزراء منذ فجر حياتهم السياسية ثم تورد الروايات ، بعد ذلك ، اسم عبد الملك الذي استوزره حسام الدين ترتاش عام (٥١٨ هـ = ١١٢٤ م) ، وقد استمر هذا في منصبه حتى عام (٥٢٢ هـ = ١١٣٢ م) ، حيث توفي . وكان يقوم بتعيين بعض كبار الموظفين كالشحنة (الحافظ)<sup>(٣)</sup> ، والشرف على الوقف ، كما قام بصادرة بعض كبار المسؤولين<sup>(٤)</sup> مما يشير إلى سعة الصلاحيات التي كان الوزير الأردني يتمتع بها . وفي العام التالي (٥٢٨ هـ) وصل إلى ماردين حبشي بن محمد بن حبشي قادماً من العراق<sup>(٥)</sup> ليدخل في خدمة ترتاش الذي ولاه الوزارة ومنحه سلطات واسعة « فبلغ من الدولة ما لم يبلغه غيره وتحكم أوفى تحكم »<sup>(٦)</sup> ، وتوجه إلى ميافارقين في مطلع

(١) حسين أمين ، نظام الحكم في مصر السلجوقي (مجلة سومر ، مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤) .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد (المخطوطة ورقة ١٠٣ - ٢٠٤) .

(٣) انظر الفصل الأول .

(٤) الفارقي (المخطوطة ٢٠٩ - ٢٠٧) .

(٥) كان حبشي قد خدم الياغسياني أمير حماة ، ويظهر أنه لم يقم بواجبه على الوجه المطلوب فقبض عليه الياغسياني وعاقبه ، فانهزم وتنقل في البلاد إلى أن انتهى به المطاف في ماردين (الفارقي ، تاريخ آمد ، مخطوطة ١٠٩ بـ - ٢١٠) .

(٦) الفارقي ، تاريخ آمد (المخطوطة ٢١٠) .

العام التالي « فعمل هناك حساب أرباب الأعمال والكتاب ، وسلك بهم أعنف الطرق والخسق والقهر » وما أن وصل إلى هناك حتى أنهزم المستوفى المؤيد أبو الحسن عائداً إلى الجزيرة فقبض جبشي على شقيقه أبي سعيد وكان مستوفياً هو الآخر ، وعلى ابنه ، وصادر أموالها ، فبقي الناصح في الاعتقال حتى وفاته ، وقام جبشي بتولية العميد أبو طاهر بن المحتسب مكانه ، وكان هذا معتقلًا طيلة ست سنوات فأطلقه جبشي<sup>(١)</sup> . وفي عام ( ٥٣١ = ١١٣٦ م ) توجه جبشي إلى ميافارقين ثانية وصادر أهلها « وجرى عليهم منه ما لا يوصف<sup>(٢)</sup> » . وفي عام ( ٥٣٥ = ١١٤٠ م ) لعب جبشي دوراً مهماً في حماية ميافارقين من الخطر الذي دهمها لدى مهاجمة داود الأرتقي أمير حصن كيافا لها ، وكان جبشي آنذاك مقيناً بها فقام هو والحاچب يوسف بن ينال وإلى المدينة ، « بتدبير الناس وسياسة البلد »<sup>(٣)</sup> . ويظهر أن العلاقات ساءت ، بعد ذلك ، بينه وبين حسام الدين تمراثش بسبب طغيانه واستغلال منصبه للكسب الشخصي . ولكن تمراثش لم يستطع أن يقدم على خطوة جريئة ضدّه ، إلى أن استغل فرصة تفيه عن ماردین عام ( ٥٣٦ = ١١٤١ م ) على رأس وفد لماواضة زنككي في الموصل ، فأطلق سراح المؤيد أبي الحسن الذي كان جبشي قد اعتقله منذ عام ( ٥٣٤ = ١١٣٩ م ) ، وعيّنه حسام الدين تمراثش في الاستيفاء ورد إليه جميع الأمور<sup>(٤)</sup> . ويظهر أن هذه الخطوة التي اتخذها حسام الدين استفزت جبشي - وهو في الموصل - فاتفق مع زنككي - سراً - على

(١) الفارقى ، تاريخ آمد ١١٠ آ ، ونقل عنه ابن شداد ، الأعلان ورقة ١٠٣ آ - ب .

(٢) الفارقى ، المصدر السابق . ورقة ١٢١ آ .

(٣) ابن شداد ، الأعلان ورقة ١٠٣ ب - ١٠٤ آ .

(٤) الفارقى ، تاريخ آمد . ورقة ١٢٢ ب - ١٢٣ آ .

تسليميه ميافارقين ، ولكن المؤامرة اكتشفت ، عندما حاصر زنكى المدينة عام (١١٤٣ = ٥٣٨ م ) ، وكان جبشي مقيناً بها آنذاك ، فدخل على خيمته ليلاً اثنان من كبار مسؤولي المدينة وما مؤمل الشاقصي و محمد بن أبي المكارم و قتلاه واتجها برأسه الى ماردین<sup>(١)</sup> .

وتشير الروايات السابقة الى مدى ما كان يتمتع به الوزير الأرتقي من صلاحيات إدارية وسياسية كما كانت الحال في السابق ، حيث كان يقوم بفرض وتقدير الفرائض على أرباب الأعمال والكتاب ، ويصدر كبار الموظفين ، ويعزلهم و يولهم ، ويرأس الوفود للمفاوضة ويشارك في تنظيم الدفاع عن الواقع التي يتهددها الخطر . ولكن هذا التضخم في الصلاحيات التي مارسها الوزير حدّ من سلطة الأمير الأرتقي نفسه ، بحيث لم نعثر نرى بعد جبشي وزيراً للأراقة تمنع بهذه الصلاحيات . وقد وصل الى ماردین في العام الذي تلا مقتل جبشي الأمير إبراهيم بن منقد المصري فولاه حسام الدين الوزارة<sup>(٢)</sup> . ويظهر أن هذا حاول استغلال منصبه كسلفه فاعتقله حسام الدين عام (٥٤٠ = ١١٤٥ م ) قبل أن يتمكن من منصبه ، ولكنه استطاع أن يهرب من السجن بتدبیر من بعض أفراد الحاشية الأرتقية ومن ثم غادر ماردین سراً ، فلما علم حسام الدين بذلك أرسل فرسانه في طلبه فتمكنوا من القبض عليه وحملوه الى حسام الدين فأطلقه دون عقاب<sup>(٣)</sup> .

ولم تشر المصادر الى الوزير الذي أعقب إبراهيم بن منقد طيلة خمس سنوات

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٣ ب - ١٠٤ آ .

(٢) الفارقى ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٤ آ .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ١٢٥ آ .

من هذا الحادث ، وتقفز الى عام (١١٥٠ = ٥٤٥ م ) حيث يشير الفارقي الى أن حسام الدين استوزر خلاله زين الدين أسد بن عبد الحالـق ، شقيق المؤيد الذي كان وزيراً للبرسيـي حاكم الموصل (١١٢١ = ٥٢٠ - ٥١٥ م )<sup>(١)</sup> ، ولكن هذا لم يستمر في منصبه سوى عام واحد حيث اغتيل في العام التالي (١١٥١ = ٥٤٦ م ) ، بتدبـير من حـكام آمد<sup>(٢)</sup> ، وبـقي حـسام الدين بعد قـتل زـين الدين بـغير وزـير وـاكتفى بالـأجل مؤـيد الدين - الذي كان يـعمل في الإـشراف عـلى الـديوان - وأـغـناه عـن جـمـيع من خـدمـه<sup>(٣)</sup> . ويـظـهر أن حـسام الدين أـراد أـن يـتـخلـص مـن المشـاكل الـتي جـرـها عـلـيـه مـعـظـم وزـرـائـه ، فـقرـر أـن يـبـقـى بلا وزـير ، وـأن يـعتمد عـلـى بـعـض كـبار موـظـفـيه لـإـنجـاز ماـكـان يـقوم بـه الـوزـراء مـن مـهام رـسـمية .

وطـيلة الفـترة الـتي أـعـقبـت وـفـاة حـسام الدين (١١٥٢ = ٥٤٧ م ) وـحتـى سـقوـط آخر إـمـارـة أـرتـقـية في مـارـدـين عـام (١٤٠٩ = ٨١٢ م ) ، لم تـقدـم المصـادر روـاـيات مـتـكـاملـة وـمـتـابـعة عن الأـشـخـاص الـذـين استـوزـروا مـن قـبـل الأـرـاقـة ، وـطـبـيـعـة الأـعـمال الـتي كانوا يـمارـسونـها . فـفيـها عـدـا تـارـيخ الفـارـقـي ، وـابـن شـدادـ الـذـي نـقلـ عـنـه ، لاـ بـنـجـدـ أيـ مصدر يـهـتمـ بـالـأـمـور الإـدارـية لـلـأـرـاقـة بـالـمـقـدـار الـذـي نـجـده لـدىـ الفـارـقـي ، لـذا فإنـ الفـترة الطـوـيلـة الـتي أـعـقبـت تـارـيخ الفـارـقـي لـاتـخلـلـها سـوى روـاـيات قـلـيلـة وـمـتـبـاعـدة تـشـيرـ إلى بـعـض النـواـحي الإـدارـية . فـفي عـام (١١٨٥ = ٥٨١ م ) تـردـ إـشارـة عن مـقـتل قـوـامـ الدين عـبدـ اللهـ بنـ سـماـقة وزـيرـ نـورـ الدـينـ مـحـمـدـ بنـ قـراـ اـرـسـلـانـ أمـيرـ آـمـدـ وـحـصـنـ كـيفـاـ ، حيث اـحـتـالـ

(١) المصـدر السـابـق ، وـرـقـة ١٣٤ بـ .

(٢) انـظـرـ الفـصل الثـانـي .

(٣) الفـارـقـي ، المصـدر السـابـق ، وـرـقـة ١٣٥ بـ - ٢١٣٦ .

عليه ماليك الأمير المذكور فاستدعوه من الديوان الذي كان يجتمع فيه بكتاب رجال الدولة وقالوا له : إن الملك يطلبك ، وما أن انفرد في أحد الدهاليز حق انقضوا عليه وقتلوا<sup>(١)</sup> ، ويظهر أنه حاول أن يتجاوز حدود سلطته ، أو أنه قتل بتحرير من قبل بعض منافسيه ، ومن المرجح أن ممارسته السلطة الفعلية باسم سيده هو الذي ألباه عليه ودفعه إلى قتله<sup>(٢)</sup> .

وترد في عام (٦٥٢ = ١٢٥٤ م ) إشارة إلى وفاة أحمد بن خلوان ، نجم الدين المعروف بابن العالمة ، وأنه كان قد استوزر من قبل المسعود أمير آمد وحسن كيما فترة من الزمن ، بعد أن خدمه وحظي عنده بما كان يتمتع به من مهارات في العلوم والآداب ، ثم ما لبث الملك المسعود أن نقم عليه وصدر جميع ممتلكاته فاضطر إلى مقاضرة آمد إلى دمشق حيث توفي هناك<sup>(٣)</sup> . وفي عام (٦٨١ = ١٢٨٢ م ) ترد إشارة إلى اشتراك الصاحب شمس الدين بن شرف الدين التيفي ، وزير صاحب مardin ، في الوفد الذي أرسله السلطان أحمد بن هولاكو ، سلطان المغول ، لمقاضاة الماليك في مصر ، وانتهى الأمر باعتقالهم في دمشق ثم الإفراج عنهم فيما عدا ابن التيفي « ونفران أو ثلاثة قيل إن صاحب ماردين أشار ببابائهم لأمر نقمهم عليهم<sup>(٤)</sup> » . وكان ابن التيفي فاضلاً مشاركاً في علوم النحو واللغة والحديث ، وروى عنه عدد من العلماء<sup>(٥)</sup> ، ولكنه لم ينجع ،

(١) أبو شامة ، الروضتين ٦٧/٢ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ٣٠١ - ٣٠٢ ) .

(٢) الكامل ١١/٢٠٩ ، أبو الفدا ، المختصر ٧٣/٣ ، ابن الوردي ، تتمة ٩٤/٢ .

(٣) اليونيفي ، ذيل مرآة الزمان ٩٢/١ - ٩٥ .

(٤) المصدر السابق ٤/٢١٧ - ٢١٨ . وانظر التفاصيل في الفصل الرابع .

(٥) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣/٣٨٦ .

كمعظم زملائه من وزراء بي أرتقى من التنكيل والاضطهاد . وبعد فترة ليست بالطويلة ( ١٢٩٨ م = ٦٩٨ ) قام نجم الدين إيلفازى ، أمير ماردین ، بقتل وزيره المعروف بابن المرأة ، لدى اكتشافه بأنه كان يتآمر على قته وتنصيب أحد إخوته مكانه<sup>(١)</sup> . ويطرق ابن بطوطة لذكر وزير ماردین في عهد زيارته لها ( في حدود عام ١٣٦٧ م = ٧٦٩ ) ، وهو جمال الدين السنجاري الذي وزر للملك الصالح والذي يصفه بأنه « الإمام العامل وحيد الدهر وفريد العصر وأنه قرأ بتبريز - من بلاد فارس - وأدرك العلماء الكبار<sup>(٢)</sup> » ، مما يشير الى أن الأرتاقه كانوا يتroxون في وزرائهم العلم والثقافة . ومن ثم ترد الإشارة الأخيرة الى وزراء الأرتاقه على لسان ابن الفرات حيث يذكر أنه في العاشر من حرم من عام ( ١٣٩٣ م = ٧٩٦ ) حضر الى القاهرة الحاج محمد وزير صاحب ماردین لإطلاع السلطان على آخر تحركات تيمورلنك<sup>(٣)</sup> ، مما يشير الى أن الوزير الأرتقي كان يتمتع ، حق الفراتات المتأخرة ، بعض الصالحيات في تسخير شؤون الإمارة وفي نشاطها الخارجي .



وليس الولاية بأكثر حظاً من الوزراء فيما ورد عن أسمائهم وحدود سلطتهم ، ففيما عدا ما قدمه الفارقي ( ونقله عنه ابن شداد ) وبخاصة قائمة نواب ( أو ولاة ) حسام الدين تمتراث في ميافارقين ، فإن المصادر الأخرى لا تكاد تذكر شيئاً عن الموضوع . وأول ما يرد ذكره لدى الأرتاقه هو ابن إيلفازى ، الذي

(١) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٢) رحله ١/١٨٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ٩/٣٦١ .

نجاهه ، والذي ولاه أبوه على نصبين لدى استيلائه عليها عام (٥٠٠ = ١١٠٦ م )<sup>(١)</sup> ، وبلاق بن إسحق والي إيلغازي على الأثارب القرية من حلب والذي لعب دوراً مهماً ضد الصليبيين<sup>(٢)</sup> ، ثم يرد بعد ذلك اسم الحاجب غزغلي الذي كان والياً على ميافارقين في عهد إيلغازي ، وقد لعب هذا الوالي دوراً في مساعدة شمس الدولة سليمان بن إيلغازي في الاستيلاء على ميافارقين وتشكيل إمارة جديدة هناك ، دون حدوث أي اشتباك<sup>(٣)</sup> . ويرد بعد ذلك اسم الحاجب يونس الدنisiري الذي ولاه حسام الدين ترثاش على دارالى استيلائه عليها ، في ذي الحجة من عام (٥٤٤ = ١١٥٠ م )<sup>(٤)</sup> . ومن ثم يقدم الفارق قائمة لا يأس بها عن ولاة (نواب) حسام الدين ترثاش على ميافارقين وهم : الحاجب أبو بكر بن خمرثاش الحاج (عزل) ، بيرم بن خمرثاش الحاج (عزل) ، عثمان بن خمرثاش الحاج (عزل) بيرم ، ثانية ، (عزل) الحاج عبد الكريم بن علي (عزل) ، الحاجب يوسف ينال (عزل) قزغلي (توفي) ، الحاجب يرنقش الحسامي (عزل) ، يوسف ينال ، ثانية ، وبقي حتى عام (٥٣٩ = ١١٤٤ م ) حيث توفي فولى بعده ناصر الدولة صندل في ذي القعدة ، وبقي في الولاية الى ربيع الآخر سنة (٥٤٢ = ١١٤٧ م ) وعزل ، وعين أسر سلار حرق وفاته في ربيع الآخر سنة (٥٤٣ = ١١٤٨ م ) ، ومن ثم استقل ينال بالولاية واستمر فيها حتى وفاة حسام الدين ترثاش عام

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٣٩ آ.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب . ١٩٤/٢ آ .

(٣) الفارقى ، تاريخ آمد . ورقة ١٠٥ آ - ١٠٥ ب . ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٢ ب . وقد حور الناتخ اسم غزغلي فجعله كيفلي .

(٤) الفارقى ، المصدر السابق ، ورقة ١٣٢ آ .

(١) م ٥٤٧ = ١١٥٢ .

ويلاحظ من الاطلاع على هذه القائمة أن ولاة الأرادة كانوا ، كوزرائهم ، لا يستمرون في مناصبهم طويلاً ، إذ كانوا معرضين للعزل ، وهكذا فإن معظم الولاة الذين حكموا ميافارقين عزلوا قبل أن تمضي على توليتهم فترة طويلة، ولذا تعاقب على حكم هذه المدينة اثنا عشر واليًّا في فترة لا تزيد على الثلاثين عاماً . وربما كان هذا هو السبب الذي لفت انتباه الفارقي فقدم هذه القائمة وأغفل ذكر ولاة الواقع الأخرى . ويلاحظ أن معظم هؤلاء الولاة ، الذين وردوا في القائمة ، كانوا يلقبون بال الحاجب وهذا يشير إلى أحد احتمالين : إما أن يكون هؤلاء قد أشغلوا فعلاً وظيفة الحاجبة للأرادة قبل توليتهم ميافارقين ، وأنهم لووا بعدها على هذه المدينة تقديرأً لخدمتهم وهو المرجح . أو أن التقليد الرسمية كانت تقتضي تسمية كل وال باسم الحاجب ( فلان ... ) .

ويذكر القلقشندي أن من ضمن مهام ولاة الأرادة تلقي المكاتبات من الخارج ، حيث كانت توجه إليهم بعض المكاتبات من نواب الملك في دمشق وحلب<sup>(٢)</sup> . ولا نعرف ، بعد ذلك ، شيئاً عن طبيعة المسؤوليات التي كلف ولاة الأرادة القيام بها ، والجهاز الإقليمي الذي كان يعاونهم في شؤون الإدارة وصلاحية تعيين أعضائه ؟ . ولما كانت معظم الواقع ( الولايات ) الأرطيقية ذات قلاع وحصون فالمرجح أن أهم أعمال أولئك الولاة كانت ، حسماً ذكر القلقشندي « حفظ تلك القلاع ، وعمارة ما دعت الحاجة إلى عماراته منها ،

---

(١) المصدر السابق ، ورقة ١٣٧ آ - ١٣٨ . ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٤ ب - آ ١٠٥ .

(٢) صبح الأعشى ط ٢ ، ٢٢٥/٨ - ٢٢٩ .

وأخذه بقلوب من فيها ، وجمعهم على الطاعة بالإحسان اليهم<sup>(١)</sup> ، وتحصينها بالآلات الحصار وادخار آلات الحرب ومهاتها ، والاعتناء بغلق أبواب القلعة وفتحها وتفقد أحوالها في كل صباح ومساء ، وإقامة الحرس وإدامة العرس ، وتعرف أحوال الجماورين لها من الأعداء ، والمطالعة بكل ما يتجدد لديه من الأخبار<sup>(٢)</sup> . هذا بالإضافة إلى مهام الوالي المالية والعسكرية الأخرى ، كمساعدة الأمير الأرتقي في عملياته الحربية بشكل مباشر ، أي بامداده بالجند والميرة ، أو غير مباشر ، كأن يقوم بتوسيع منطقة ولايته ، والدفاع عنها ضد هجمات الأعداء . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قام به الحاجب يوسف والي ميافارقين عام (٥٣٥ = ١١٤٠ م) ، عندما قام داود الأرتقي ، أمير حصن كيما ، بمهاجمة ميافارقين ، حيث أحسن الوالي « تدبير الناس وسياسة البلد<sup>(٣)</sup> » واستطاع بمساعدة بعض المسؤولين ، إنقاذ المدينة من خطر محقق .

وهنالك موظف على درجة كبيرة من الأهمية وهو نائب السلطنة في ماردين ، وقد استحدث الأراثقة هذا المنصب في فترة متأخرة<sup>(٤)</sup> ، ويظهر أنهم نقلوه عن المالك في مصر والشام حيث كان نائب السلطنة هناك يتولى مهاماً خطيرة ، إذ كان يشتراك مع السلطان في توزيع الإقطاعيات ، وتعيين الموظفين ، ويعرض عليه كشفاً بأسماء الأشخاص الذين كان يجب ترشيحهم لهذه المناصب فيقرها السلطان ، ولا يرفض تعيين أحد المرشحين إلا في القليل

(١) انظر الفارقى ، تاريخ آمده (المخطوطة ١٣٨ - آ - ب) . وابن شداد ، الأعلاق (المخطوطة ١٠٥ آ) .

(٢) صبح الأعشى ٩٢/١١ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (المخطوطة ١٠٣ ب - آ) .

(٤) ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ .

النادر<sup>(١)</sup> . وكان نائب السلطنة في ماردین يتلقى المکاتبات الرسمية من نواب المالیک في دمشق وحلب<sup>(٢)</sup> ، ومن الأبواب السلطانية في القاهرة<sup>(٣)</sup> . وقد حدد المسؤولين في دواوین المالیک صيغة الكتب التي كانت ترسل الى هؤلاء<sup>(٤)</sup> . ومن أعمال النائب كذلك توقيع المراسيم والمشورات وتتفییذ القوانین<sup>(٥)</sup> . والرکوب على رأس فرق الجيش في الماکب الرسمية<sup>(٦)</sup> ، كما أن دیوان الجيش يجتمع برئاسته<sup>(٧)</sup> ، ويکاتبه نواب المدن الأخرى بقصد الأمور المتعلقة بنيابتهم<sup>(٨)</sup> . وهكذا كان النائب هو المتصرف في كل أمر حيث يراجع في الجيش والمال والجند والبريد ، وكل ذي وظيفة لا يتصرف الا بأمره ... وهو الذي يرتب الوظائف<sup>(٩)</sup> . ويدذكر (فان برشم) أن نائب السلطنة كان على رأس الموظفين لدى المالیک<sup>(١٠)</sup> ويظهر أن نائب السلطنة لدى الأراتقة ، كان يتمتع هو الآخر ، بصلاحیات واسعة فكان يمارس مهام الدفاع عن العاصمة وتحصینها ، وبلغ به الأمر أن نصب أحد سلاطین ماردین<sup>(١١)</sup> . ويبدو أن

(١) المقریزی ، خطط ٢١٥/٢ ، العمري ، التعريف ص ٩٣ - ٩٢ ، السبکی ، معید النعم ص ٣٤ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ٢٢٩ - ٢٢٥/٨ .

(٣) المصدر السابق ٢٦٩/٧ .

(٤) انظر الفصل الرابع .

(٥) المقریزی ، خطط ٢١٤/٢ ، العمري ، التعريف ص ٦٥ - ٦٦ .

(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ٤/١٧ .

(٧) المصدر السابق ١٦/٤ ، المقریزی ، خطط ٢١٤/٢ .

(٨) المقریزی ، خطط ٢١٥/٢ .

(٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٠) علي ابراهیم حسن ، المالیک البحیرية ص ٢١٥ .

(١١) ابن الفرات . تاريخ ٤٥٣/٩ . وانظر بشأن المهام الأخرى لنائب السلطنة لدى المالیک: القلقشندي ، ط ٢ ، ١٤٨/١١ ، السبکی ، معید النعم ص ١٩ .

عدهاً من أهم صلاحيات الوزير الأرتقي صارت ضمن اختصاصات نائب السلطنة، الذي غدا المسؤول الأعلى في الإمارة بعد الحاكم الأرتقي، ونما يؤكد هذا تدهور منصب الوزارة في الفترات الأخيرة من حكم الأرتقة وهي نفس الفترات التي بدأ يتردد فيها اسم نائب السلطنة.

اعتمد الأرتقة في إدارتهم على موظف مركزي آخر يدعى والي القلعة<sup>(١)</sup>، والمرجح أن اختصاصاته كانت تشبه، إلى حد كبير، اختصاصات نائب القلعة لدى المماليك، حيث كان هذا يقوم بالإشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجنود وخروجهم<sup>(٢)</sup>، ويتقادر أسوار القلعة ومناذتها ويعمل على إصلاحها، ثم أصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات<sup>(٣)</sup>، وهي أشبه بوظيفة الشرطة أو الانضباط العسكري في الوقت الحاضر، وكان يتمتع باستقلال كبير عن النائب<sup>(٤)</sup>.

اعتمد الجهاز الإداري للأرتقة على عدد آخر من الموظفين لا يقلون أهمية عن سبق ذكرهم، إلا أن المصادر، بما تقدمه من إشارات مقتضبة عنهم، لا تساعد على إعطاء صورة واضحة المعالم عن طبيعة عملهم وأشهر هؤلاء ناظر الديوان، حيث يذكر الفارقى أنه تمت في عام (٥٢٧ = ١١٣٢ م) تولية الناصح علي بن أحمد الأدمي على النظر في الديوان<sup>(٥)</sup>، وكان قبيل ذلك يقوم

(١) اليونيفي، ذيل مرآة الزمان ١ / ٤٥٧ - ٤٥٨ ، ابن شداد، الأعلاق (مخطوطة ١٣٨ آ - ب).

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى ٤/٢٢ - ٢٣ .

(٣) علي إبراهيم حسن، المماليك البحرينية ص ٢٣١ . عن الحالدي، المقصد ص ٧ .

(٤) علي إبراهيم حسن، المصدر السابق ص ٢٣١ . وانظر العمري، التعريف ص ٩٤ - ٩٦ ، ١٤٨ - ١٤٩ .

(٥) ابن شداد، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ - ب).

بها م هذه الوظيفة في آمد ، إلا أن أصحابها قبضوا عليه وصادروه بثلاثين ألف دينار فاتحه الى ميافارقين وولي أولًا الإشراف على الوقف ومن ثم النظر بالديوان<sup>(١)</sup> وكان هذا الامر يطلق ، لدى المالك ، بصورة عامة على المسؤول الأعلى للديوان سواء كان ديوان إنشاء أو بريد أو نظر (أي مالية) .. وكان يساعدته في تسيير شؤون ديوانه عدد من الموظفين كالوكيل ومستوفي الدولة وعدد من صغار المستوفين<sup>(٢)</sup> ، كما كان يطلق بشكل خاص على المسؤول عن القضايا المالية<sup>(٣)</sup> ، « وهو مخاطب عن كل ما يتم في معاملته من خلل<sup>(٤)</sup> » وقد كانت مسؤولية الناصح من الصنف الأخير كما يتضح من سياق الأحداث . وكان يساعد الناظر الأرتقي عدد من النظار على الجهات المحلية<sup>(٥)</sup> .

وفي عام (٥٢٨ = ١١٣٣) وصل الى ميافارقين المؤيد أبو الحسن بن محمد من جزيرة ابن عمر فرتب في الاستيفاء مع أخيه الناصح<sup>(٦)</sup> ، وكان قد ولي الديوان والاستيفاء في ميافارقين عام (٥١٠ = ١١١٦ م) قبيل استيلاء الأرثقة عليهم<sup>(٧)</sup> . ووظيفة الاستيفاء من الوظائف المهمة التي عرفت لدى الدولة السلجوقية . وكان المستوفى يلي الوزير في الأهمية ، وكان من واجبه الإشراف على حسابات الدولة وتدقيقها وضبط الأموال المتعلقة بالجيش وإدارة

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٠٩ آ ) .

(٢) علي ابراهيم حسن ، المالك البحرينة ص ٢١٣ .

(٣) انظر ( الحياة الاقتصادية ) فيما يلي من الفصل .

(٤) ابن مماتي ، قوانين الدواين ص ٢٩٨ .

(٥) ابن حجر ، الدرر ٣/٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٦) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠٣ آ - ب ) .

(٧) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ ، ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطة ١٠١ آ - ب ) .

ديوان الاستيفاء<sup>(١)</sup> . هذا وقد اعتقل الناصح ، ناظر الديوان ، عام (٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م) أبي بعد تعيينه بمدة قصيرة على يد حبشي بن محمد وزير الأراقة<sup>(٢)</sup> ، وولي مكانه أبو طاهر بن الحتسبي الذي كان معتقلًا آنذاك<sup>(٣)</sup> ، وأضطر المؤيد ، أخو الناصح ، إلى التخلّي عن وظيفته هو الآخر والفرار إلى جزيرة ابن عمر تخلصاً من بطش حبشي<sup>(٤)</sup> . وهذا يشير إلى السلطة الواسعة التي كان الوزير الأرتقي يمارسها تجاه كبار الموظفين . ويظهر أن العلاقات ساءت بين أبي طاهر وحبشي فقبض عليه هذا واعتقله عام (٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م) ، فلما ذهب حبشي إلى الموصل عام (٥٣٦ هـ = ١١٤١ م) في مهمة رسمية ، قام حسام الدين ترشاش بإطلاق سراحه وإعادته ثانية إلى الاستيفاء « ورد اليه جميع الأمور »<sup>(٥)</sup> ، وقد استمرّ هذا في منصبه إلى ما بعد عام (٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م)<sup>(٦)</sup> . وفي عام (٥٤٥ هـ = ١١٥٠ م) قام حسام الدين بتعيين المؤيد والمذنب في الديوان « على حاملها »<sup>(٧)</sup> ، ويظهر أنها مارسا هذه الوظيفة قبل ذلك ، والراجح أن المؤيد المذكور هو الأجل أبو منصور الذي ورد ذكره لدى توليته الديوان مجددًا من قبل أبي بن ترشاش ، الذي أعقب أباه على حكم إمارة مardin عام (٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م) ، كما قام أبي بتعيين المذنب في

(١) حسين أمين ، نظام الحكم في العصر السلاجقى (مجلة سومر ، مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤) .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (مخطوطة ١٠٣ آ - ب) .

(٣) الفارقى (مخطوطة ١١٠ آ) ، ابن شداد (مخطوطة ١٠٣ آ - ب) .

(٤) الفارقى (مخطوطة ١١٠ آ) .

(٥) المصدر السابق ١٢٢ ب - ١٢٢ آ .

(٦) المصدر السابق ١٢٤ ب .

(٧) المصدر السابق ١٣٤ ب .

الإشراف<sup>(١)</sup> ، والراجح أن الأرادة نقلوا وظيفة الإشراف هذه عن السلاجقة حيث كانت تُعد من الوظائف المهمة لديهم ولها ديوان خاص يقوم الشرف بإدارته ، وهو يعني بالإشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينها ، وهو في الحقيقة مكمل لديوان الاستيفاء ومثل الشرف كمثل المستوفي يستطيع أن ينوب عنه في كل ولاية نائبا<sup>(٢)</sup> ، وهكذا صرنا نجد لدى الأرادة عدداً من المشرفين على الدواوين المحلية<sup>(٣)</sup> ، ونظراً لما بين المستوفي والمشرف من علاقة يكون المستوفي مراقباً لديوان الإشراف<sup>(٤)</sup> . وهذا مما يفسر الرواية التي أوردها الفارقي حول قيام أبي بتعيين موظف ثالث يدعى أبو الفتح محمد بن أحمد ليساعد المذهب والمؤيد في أعمال الديوان<sup>(٥)</sup> .

وهنالك فضلاً عن الوظائف السابقة ، إشارات إلى وظائف أخرى في جهاز الأرادة الإداري كموقع السلطنة في مardin<sup>(٦)</sup> ، وكان يقوم بكتابية الأوامر<sup>(٧)</sup> ، وال حاجب<sup>(٨)</sup> ، الذي كان يقوم بالأعمال الممدوحة للحجاج<sup>(٩)</sup> ، وكاتب الإنماء<sup>(١٠)</sup> ، أما الاستادارية والخدمات فيظهر أنهم كانوا يعملون سوية مع

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ( مخطوطة ١٣٩ ) .

(٢) حسين أمين ، نظام الحكم في مصر السلاجقية ، مجلة سومر ، مجلة سومر ، مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ .

(٣) اليونيفي ، ذيل مرآة الزمان ٤١٣ / ١ .

(٤) حسين أمين ، المصدر السابق .

(٥) الفارقي ( مخطوطة ١٣٩ ) .

(٦) ابن حجر ، الدرر ٤٠٥ / ١ .

(٧) السبكي ، معبد النعم ص ٢٤ - ٢٥ .

(٨) الفارقي ( مخطوطة ١٣٩ ) .

(٩) انظر السبكي ، معبد النعم ص ٣٠ - ٣١ .

(١٠) اليونيفي ، ذيل مرآة الزمان ٤١٢ / ١ - ٤١٣ ، الكتبى ، فوات الوفيات ١٩٣ / ٢ .

المحجوب في قضائيا التشريفات والوفود وتنظيم أمور القصر وتلقي المكاليمات  
أحياناً<sup>(١)</sup>.

ولعب المحتجب دوراً مهماً في حكومات الأراقة ، وقد عين هؤلاء على كل بلد أحد المحتجبين<sup>(٢)</sup> ، وكان المحتجب يقوم بدور هام في السيطرة على الأمن الداخلي « وتسكين الناس » في فترات الاضطراب ، أو عند وفاة الأمير ، فعندما توفي حسام الدين قرتاش عام ( ١١٥٢ = ٥٤٧ھ ) ، وانتشر الخبر لدى أهالي ميافارقين ، أسرع المحتجب بالركوب وتوجه اليهم وسكنهم بحيث « اطمأنوا وطابت نفوسهم »<sup>(٣)</sup> . هذا فضلاً عن قيام المحتجب بالمهام المعتمدة التي كان يضطلع بها المحتجبون في تلك الفترة ، في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، كالنظر في الأمور المتعلقة بالنظام العام ، والجنابات التي تستدعي السرعة في الفصل ، والمحافظة على الآداب العامة ، ومراعاة تطبيق أحكام الشرع ، والإشراف على نظام الأسواق والمؤسسات التي تحتاج إلى إعمار وإصلاح<sup>(٤)</sup> ، وكان للمحتجب نواب يطوفون في الأسواق لتنفيذ تعليماته<sup>(٥)</sup> .

وفي حلب اعتمد الأراقة في إدارتهم على النظم المعمول بها سابقاً ، ولم يحاولوا أن يحرروا عليها تغييراً أساسياً ، فالحاكم الأعلى هناك هو نائب الأمير

(١) انظر القلقشendi ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٢٦٧/٧ ، ٢٦٩ ، ٢٢٥/٨ - ٢٢٩ ، ٢٢٩.

(٢) ابن العياد ، شذرات الذهب ٥/٢٥٠ .

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٣٨ آ - ١٣٨ ب .

(٤) المقريزي ، خطط ١/٤٦ ، مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٥) علي ابراهيم حسن ، المالكية البحرية ص ٣٠٤ - ٣٠٥ . وانظر القلقشendi ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٣٧/٤ ، ١٩٣ ، ٦٨/١١ ، ٧١ - ٩٦ ، ٩٧-٩٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ ، العمري ، التعريف ص ٤٩ - ٥٠ ، السبكي ، معبد النعم ص ٤٩ - ٥٠ .

الأرتقي الذي ينتمي إلى العائلة الأرتقية<sup>(١)</sup> ، ويساعده في الإدارة مجموعة من الموظفين الذين عرفتهم حلب منذ فترة ليست بالقصيرة ، كرئيس الأحداث الذي كان يمارس سلطة فعلية ، ولذا كان معرضًا أكثر من غيره للعزل والتنكيل على أيدي الأرادة<sup>(٢)</sup> . والأحداث هم جماعات مسلحة من سكان المدينة ، وقد ازداد شأنهم ، في بلاد الشام ، في مستهل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، وأصبحت لهم السيطرة على الحياة في دمشق وصار لهم رئيس اتخذ لقب رئيس الأحداث أو رئيس البلد ، ويقرر رالي المدينة اختياره ، وقد قلدت حلب أختها دمشق في ذلك ، وصارت رئاسة الأحداث فيها في عائلةبني (بديع) الذين قوي نفوذهم في حلب<sup>(٣)</sup> .

وهنالك رالي القلعة<sup>(٤)</sup> ، الذي يقوم بمهام التي سلف ذكرها لدى الكلام عن دور هذا الموظف في ديار بكر ، ورالي البلد<sup>(٥)</sup> ، الذي كان يرجح قيامه بنفس مهام الوالي المركزي لدى الأيوبيين والماليك فيما بعد ، حيث كانت مهمته « الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك<sup>(٦)</sup> » ، وهو الذي ينفذ الأحكام ويفهم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمري

(١) انظر الفصل الأول .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢ - ١٨٦ ، ١٨٧ - ١٩٨ ، ١٩٩ - ٢٠٢ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ٢١٧ - ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة / ٨٣ ) .

C. Gahen, *Mouvements Populaires*, pp. 11—16.

ابن العديم ، زبدة الحلب ٦٨/٢ - ٦٩ ، العريني ، الحروب الصليبية ٢٤/١ - ٢٥ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢ - ٢٢١ - ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة / ٨٥ ) .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب / ٢ - ٢٣٠ .

(٦) القلقشendi ، صبح الأعشى ٦٠/٤ .

الآخر . ومن اختصاصه أيضاً مراقبة أبواب المدينة ، والطواف بأحياء التجارة والمال »<sup>(١)</sup> أي أن مهمته أشبه بمهمة البلدية والشرطة في الوقت الحاضر . وبالرغم من ذلك فقد مارس كل من والي القلعة ووالى البلد الظلم والمصادرة ، وسلططاً الجندي والأتراك على مصادر الناس بحيث إنهم استصفوا أموال جماعة من الأكابر والصدور مستغلين في ذلك الإضطرابات والقلق الذي ساد حلب خلال الحصار الصليبي لها<sup>(٢)</sup> . وكان يطلق على والي البلد ، أحياناً ، اسم الشحنة<sup>(٣)</sup> ، أي حاكم البلد أو صاحب الشرطة أو الأمير المشرف على حراسة المدينة<sup>(٤)</sup> . لما بين الوظيفتين من تشابه واضح في الاختصاصات ، ومع ذلك فقد عين على حلب - أحياناً - شحنة خاصة لها<sup>(٥)</sup> دون أن يكون واليًّا للمدينة في نفس الوقت . وقد استغل هو الآخر منصبه لا لينشر الأمن بل ليؤذى الناس ويكسب على حسابهم<sup>(٦)</sup> .

ولم يسكت الأرادة على ما كان يقوم به كبار موظفيهم في حلب من ظلم وإساءة ، لذا كانوا ينكرون بهم ويعزلونهم عن مناصبهم<sup>(٧)</sup> . كما اتخذ نواب

(١) علي إبراهيم حسن ، الملوك البحريون ص ٢٣٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٣٠/٢ ، بغية الطلب ٤/٢٧٧ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٢٠/٢ - ٢٢١ .

(٤) معجم دوزي (Dozy, sup.) ٧١٣/١ ، حاشية السلوك ، للمقرizi (٣) ، ٠٩٧٩/١٣ . وحاشية النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي (٢) ٢٠١/٥ . عن القاموس الفارسي . وانظر الفصل الأول .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٠٠/٢ - ٢١٠ .

(٦) المصدر السابق ٢٠٢/٢ .

(٧) المصدر السابق ٢٠٠/٢ - ٢٠٣ - ٢٠٢ ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطة ) ٨٣/٢ .

الأرادة في حلب الوراء ليساعدوهم في الحكم ، وكان مصير هؤلاء – كرفاقهم في ديار بكر – هو العزل والتنكيل والمصادرة<sup>(١)</sup> .

وقد حظي القضاة ، وبعض المناصب المرتبطة به كالخطابة والإفتاء ، لدى الأرادة باهتمام كبير ، وأوردت المصادر عنه عدداً لا يأس به من الروايات ، حيث برزت أسماء عدد كبير من القضاة الذين انتسبوا بعضهم إلى عائلة بنى نباتة الشهيرة التي لعبت دوراً هاماً في مجال القضاة . وكان أول من تولى منصب القضاة من أفراد هذه العائلة هو أبو القاسم يحيى بن طاهر بن نباتة الملقب بفخر القضاة ، وكان يعمل في الخطابة هو وأباؤه منذ فترة طويلة قبل قيام الإمارات الأردنية ، واختير عام (٤٩٠ = ١٠٩٦ م) للقضاء في ميافارقين ، وهي ولده القاضي علم الدين أبو الحسن على الخطابة في نفس العام<sup>(٢)</sup> . ومن ثم اعتمد الأرادة عليهم فيما بعد كاسنرى .

وأول من ولي القضاة ، عند بدء حياة الأرادة السياسية في القدس ، هو محمد بن موسى التركى البلاساغونى الحنفى ، وكان مطلعًا على علوم شق ، ولكنه كان متغصباً للحنفية ، ويقال إن سيرته في القضاة كانت غير محمودة ، مما دفع أهالى القدس إلى أن يشكوه إلى سقمان بن أرتق ، فعزله ، ومن ثم اتجه البلاساغونى إلى دمشق حيث تولى القضاة هناك وتوفي عام (٥٥٦ = ١١١٢ م)<sup>(٣)</sup> .

وفي ديار بكر تألق اسم عائلة بنى نباتة . ففي عام (٥٥١٤ = ١١٢٠ م)

(١) المصدر السابق /٢ - ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ - ٢٢١ ، المظيمى ، تاريخ ، ورقة ٢٠٠ ظ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطه ٨٥/٢) .

(٢) الفارقى ، تاريخ آمد ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٣) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٤٤/٨ .

استولى إيلغازي على نصيبيين فسار إليه القاضي علم الدين أبو الحسن بن نباتة ، الذي كان إيلغازي قد أقره على قضاة ميافارقين لدى استيلائه عليها عام (٥١٢ = ١١١٨ م ) ، وجماعة من رجالات ميافارقين وهنؤوه بفتحها ، فخلع عليهم إيلغازي وأحسن إليهم وأعادهم<sup>(١)</sup> . وعندما توجه لقتال الكرج في العام التالي (٥١٤ = ١١٢٠ م ) ، استصحب معه القاضي علم الدين وولده القاضي أبو الفتح الذي ولد قضاة ماردين إلى ما بعد منتصف القرن السادس<sup>(٢)</sup> . وتشير حادثة استصحاب إيلغازي لأحد قضاطه في تلك الغزوة ، إلى احتلال الخاز الأراتقة (لقضاة العسكر) الذين عرفوا لدى الماليك ، وكأنوا يصحبون السلطان في أسفاره<sup>(٣)</sup> ويقضون في العسكر ومن يتصل به من الصناع والعمال وغيرهم<sup>(٤)</sup> . وفي عام (٥٣٩ = ١١٤٤ م ) استدعي القاضي علم الدين بن نباتة من ميافارقين إلى ماردين ليتولى قضاطها بعد عزل قاضيها مجد الدين داود بن السديد . وفي نفس العام ولد بهاء الدين أبو طاهر خطابة ميافارقين نيابة عن عمده علم الدين ، وبعد يومين من ذلك ولد خطابة ماردين أيضاً<sup>(٥)</sup> وفي عام

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٠٢ - ب ، ونقل عنه ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٢ آ .

(٢) الفارقي ، ورقة ١٠٣ ب - ٢ .

(٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ٤/٣٦ .

(٤) علي ابراهيم حسن ، الماليك البحري ص ٢٩٢ . انظر القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢٤ ، ٣٦ - ٤٢ ، ١٩٢ ، ١٩٢ ، ١١/٩٦ ، ٢٠٤ - ٢٠٧ ، والمرى ، التعريف ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٥) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٤ - ٢ - ١٢٥ . وانظر بشأن الخطابة : القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ - ٢٢٢/١١ ، ٢٢٥ ، العمري ، التعريف ص ١٢٦ - ١٢٧ . وكان الموظف الذي يتولى الخطابة لدى الأراتقة يقوم - أحياناً - بوظيفة الافتاء كذلك ، فضلاً عن القضاة ، لما بين هذه الوظائف من تشابه واستلزمها جميعاً ثقافة فقهية ولغوية . لذا كانت الأراتقة يولونها أولئك الذين عرسوا في هذه الثقافة ( انظر ياقوت ، معجم الادباء ٢٠/١٨ - ١٩ ) .

(٥٤٤ = ١١٤٩ م ) حدثت بعض الخلافات بين أفراد عائلةبني نباتة تمكن على إثرها أبو الفتح ضياء الدين بن نباتة أن يحصل على قضاء ماردين<sup>(١)</sup> . وبعد منتصف القرن السادس الهجري تضامل دور بني نباتة في القضاة ولم تعد المصادر تشير اليهم إلا نادراً ، وبرز في محلهم عدد من القضاة ينتمون إلى عوائل شق ومن أشهرهم عبد السلام المقدسي المارديني الذي ولد قضاة ماردين في أواخر القرن السادس الهجري<sup>(٢)</sup> . والحكيم شمعون الخرتبري قاضي خربت الذي بلغ النهاية في الخط العربي<sup>(٣)</sup> . وعلى بن محمد بن النجاشي الغنوي الفقيه الحنبلي الأديب الشاعر ، الذي سافر من بغداد إلى ديار بكر وولي قضاة آمد حتى وفاته عام (٦٠٩ = ١٢١٢ م )<sup>(٤)</sup> . ويحيى بن سعيد بن محمد الربعي الفقيه الشافعى ، وهو من أهل تكريت ، درس في بغداد والموصل وولي قضاة ماردين<sup>(٥)</sup> .

وعندما استولى التتر على الجزيرة والشام غدا قضاة الأراتقة في ديار بكر تابعين لقاضي القضاة الذي عينه التتر على كل مناطق الشام والجزيرة والموصى والمذى كان مركزه في دمشق ، حيث أصدر هولاكو في عام (٦٥٨ = ١٢٥٩ م ) منشوراً يقضي بتعيين القاضي كمال الدين عمر بن نصار التفلسي الشافعى قاضياً لقضاة « الشام والموصى وماردين وميافارقين والأكراد ... »

(١) الفارقى ، تاريخ آمد ، ورقة ١٣٢ آ - ب .

(٢) ابن العبرى ، مختصر ص ٤١٧ ، القسطنطى ، الحكماء ص ١٨٩ - ١٩٠ . ويشير إلى أن والد عبد السلام وهو عبد الرحمن المقدسي كان قاضياً على دنيسر .

(٣) ابن العبرى ، مختصر ٤٤٤ .

(٤) ابن العياد ، شذرات الذهب ٥/٣٧ - ٣٨ .

(٥) انسان العيون ، مجہول ص ١٦٩ .

الغ »<sup>(١)</sup> . ولكن هذا النظام لم يستمر طويلاً إذ انتهى بمجرد زوال سيطرة التتر عن الشام ، فاستقل القضاة الأرتقي من جديد وأصبح المسؤول الأعلى عنه قاضي قضاة يعينه الأرادة أنفسهم .

ومن قضاة الأرادة المشهورين ، خلال الفترة التي أعقبت السيطرة التترية ، مهذب الدين محمد بن علي الدنيسري ، قاغي قضاة ماردين منذ عام ( ٦٦٦ = ١٢٦٧ ) وحق عام ( ٦٧٢٠ = ١٣٢٠ )<sup>(٢)</sup> ، وأبوه محمد بن سليمان بن علي الدنيسري الذي ولـي قضاة ماردين طيلة خمس وثلاثين سنة وتوفي سنة ( ٦٦٧ = ١٢٦٧ )<sup>(٣)</sup> ، فعين ولده في منصبه<sup>(٤)</sup> . وسليمان بن داود بن عبد الحق الحنفي الذي اشتغل بالحديث والفقـه وسافـر إلى أماكن عـديدة وـولي القضاـء بـبغـداد وـمارـدين ، وـتسـنمـ مناصـب إدارـية في دـمـشـق وـمـصـر وـتـوفـي عـام ( ٦٧٦١ = ١٣٥٩ )<sup>(٥)</sup> . وبرهـانـ الدـينـ المـوصـليـ قـاضـيـ قـضاـةـ مـارـدينـ فـيـ عـهـدـ الـمـلـكـ الصـالـحـ ( ٦٧٩ = ١٣٦٧ ) وـهوـ يـنـتـسـبـ إـلـىـ الشـيـخـ الـوـليـ فـتـحـ الـمـوـصـلـيـ ، وـيـنـتـصـفـ بـالـدـينـ وـالـورـعـ وـالـفـضـلـ ، وـيـذـكـرـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ أـنـهـ كـانـ يـجـلسـ لـلـأـحـكـامـ بـصـحـنـ مـسـجـدـ خـارـجـ الـمـدـرـسـةـ ، كـانـ يـتـبـعـ فـيـهـ ، فـإـذـ رـآـهـ بـعـضـ مـنـ لـاـ يـعـرـفـهـ ، ظـنـهـ بـعـضـ خـدـامـ الـقـاضـيـ وـأـعـوـانـهـ<sup>(٦)</sup> . وـالـصـدـرـ أـبـوـ طـاهـرـ السـمـرـقـنـدـيـ الـذـيـ تـولـيـ قـضاـءـ مـارـدينـ قـبـيلـ سـقطـهـ<sup>(٧)</sup> وـهـوـ آـخـرـ مـنـ وـصـلـتـنـاـ أـسـمـاـهـمـ مـنـ قـضاـةـ الـأـرـادـةـ .

(١) أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ٢٠٤ ، اليوناني ، ذيل مرآة الزمان ٦٤/٢ - ٦٥ ، المقرizi ، السلوك ٤٢٤/١٢ ، ابن العياد ، شذرات ٥ - ٣٣٧ / ٣٣٨ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٥ آ ، اليوناني ، ذيل مرآة الزمان ١/٣٤٢ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق ورقة ١٣٥ آ ، اليوناني ، ذيل مرآة الزمان ١/٣٤٢ .

(٤) ابن حجر ، الدرر الكامنة ١٤٩/٢ - ١٥١ .

(٥) رحلة ابن بطوطـةـ ١٨٣/١ .

(٦) الطباخ ، تاريخ حلب ١٩٦/٥ - ١٩٩ .

كان القضاة لدى الأرادة منظماً تنظيماً دقيقاً ، وبخاصة في إمارة ماردين ، فهناك قاضي القضاة وهو المسؤول الأعلى عن السلطة القضائية ومقره في العاصمة ماردين<sup>(١)</sup> ويعين من قبل الأمير الأرتقي مباشرة ، ويقوم هو بتعيين نوابه في البلاد التابعة للإمارة<sup>(٢)</sup> . وكان قاضي القضاة يتلقى مرتباً كبيراً ، أو يقطع إقطاعاً يتناسب ومنصبه<sup>(٣)</sup> . ولا ريب أن عمل قاضي القضاة لم يكن يقتصر على النظر في قضايا الأحوال الشخصية ، بل كان يمارس أسوة برفيقه في حكومات مصر والشام ، النظر في جميع القضايا المتعلقة بهمته ، وإماماة المسلمين في الصلاة ، والإشراف على دار الضرب<sup>(٤)</sup> ، والنظر في الأوقاف والعمل على تنمية مواردتها وصرفها في وجوهها واستلام أموال المواريث<sup>(٥)</sup> . أما جلسات المحاكم فتتعدد في المساجد أو في دور القضاة<sup>(٦)</sup> .

وقد لعب القضاة لدى الأرادة دوراً هاماً في السفارات السياسية فكانوا يشتغلون أحياناً في الوفود الموجهة إلى إحدى الجهات للمفاوضة<sup>(٧)</sup> . كما كانوا

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٥ آ ، إنسان العيون ، مجهول ص ٢٧٧ - ٢٨٨ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٣٤٢/١ . ابن بطوطة ، رحلة ١٨٣/١ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٩٠/٢ .

(٣) إنسان العيون ، مجهول ص ٢٧٧ - ٢٨٨ .

(٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ٣٤٩ - ٣٥ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ١٠١/١ .  
(٥) المقرizi ، خطط ٩٢/٢ .

(٦) انظر : علي إبراهيم حسن ، المالكية البحرينية ص ٢٨٨ - ٢٩٠ ، التورري ، نهاية الإرب (القسم المخطوط) ٢٩٩/٢٩ آ ، السيوطي ، حسن الهاضمة ١٠١/٢ ، ابن سجر ، رفع الاصر ص ١٤٩ آ .

(٧) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٥ آ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٣٤٢/١ - ٣٤٤ .  
وانظر ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٩٠/٢ .

يسهمون في تقرير الصفة الشرعية لأمراء الأرادة - أحياناً - لدى تولي أحدهم الحكم بعد موت سلفه<sup>(١)</sup>. وفي حلب لعب قاضي الأرادة أبو الحسن محمد بن يحيى بن الحشاب دوراً هاماً في الصراع الذي نشب طيلة العقد الثاني من القرن السادس الهجري ، بين الصليبيين وأهالي حلب . وقد استطاع ، بما عرف عنه من مهارة سياسية وشجاعة نادرة ونشاط لا يفتر ، وما كان يتمتع به من حب شديد من قبل أهالي حلب ، أن يصد بها أمام هجمات الصليبيين المركزة . وكان يتمتع بصلاحيات القائد الأعلى للحرب والإدارة ، كما كان يقوم بالإشراف على الأمور العمرانية<sup>(٢)</sup> .



وهكذا نجد أن الإدارة الأرتقية اعتمدت إلى حد كبير على النظم المعاصرة المعمول بها لدى السلاجقه والأيوبيين والماليك ، فضلاً عن ارتكازها على الأسس الإدارية السائدة في المنطقة ( ديار بكر وشمال الشام ) ، في العقود التي سبقت قيام الإمارات الأرتقية . ولthen حدثت تغيرات بسيطة في تسمية بعض موظفي الأرادة ، إلا أن وظائفهم بقيت ، في مهماتها الرئيسية ، تعمل وفق نفس النظم التي كانت تعمل بها الدول السالفة التي تأثر الأرادة بها في مؤسساتهم الإدارية . وهكذا فإن قيام الإمارات الأرتقية في ديار بكر لا يشكل طفرة في نظمها الإدارية بقدر ما يشير إلى رغبة الأرادة في توسيع الجهاز الإداري ،

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٣٨ - ١٣٨ ب ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٠ آ .

(٢) ابن العديم ، زينة الحلب ١٨٥/٢ - ١٨٦ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، العظيمي ، تاريخ ، ورقة ١٩٧ ط ، ابن الشحنة ، المتتبّع ص ٨٢ - ٨٣ ، وانظر الفصل الثالث .

والاعتماد على مزيد من العناصر الكفؤة ، والاستفادة من كافة النظم السابقة والمعاصرة التي شهدتها الأردنية والتي أخذت تتطور وتتعدد شكلها النهائي في عهد الماليك .

### الحياة الاقتصادية :

كانت الزراعة تشكل العمود الفقري لاقتصاديات ديار بكر ، بحيث غدت التجارة والصناعة ، على أهميتها ، أمراً ثانوياً بالنسبة للمنطقة . وقد اتضح ذلك خلال الفترة التي سبقت قيام الإمارات الأردنية حيث انتعشت الزراعة في المنطقة وبلغت درجة كبيرة من الازدهار . ولقد كانت الجزيرة مصدرأً لمادة أكثر أهل العراق<sup>(١)</sup> ، وكان خراج بعض بلدان ديار بكر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري قد بلغ مئات الآلاف من الدرهم ، فكان خراج إربزن (٨٥٦٠٠٠ درهم وآمد ١٥٠٠٠ درهم وميافارقين ١٠٥٠٠ درهم وحصن كيفا ٣٥٠٠٠ درهم ، وبلغ خراج المنطقة بصورة عامية (٧٧٠٠٠ درهم) ويشير ابن حوقل (ت ٤٣٦٧) إلى كثرة خصب الجزيرة وسعة جياباتها ، وأن نصبيين يوحدها كانت تتضمن ، في أول الإسلام بائنة ألف دينار<sup>(٢)</sup> . ويذكر الفارقي بأن ميافارقين - إحدى عواصم ديار بكر - بلغت في العقد الثامن من القرن الخامس الهجري ، حداً كبيراً من

---

(١) البشاري (ت ٣٧٥) أحسن التقاسيم ص ١٣٦ . وانظر نفس المصدر ، الصفحات ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ . عن الحيوة الزراعية للمنطقة .

(٢) ابن القمي (ت ٣٦٥) ، البلدان ١٣٣ ، ١٣٥ - ١٣٦ ، ابن خرداذبة (ت ٣٠٠) ، المسالك ص ٩٥ .

(٣) صورة الأرض ص ١٩١ ، ١٩٠ - ١٩٢ .

العران الزراعي بحيث أنها لم تشاهد «أعمى ما كانت في تلك الفترة ولا أغنى  
 من أهلها»<sup>(١)</sup>، وأنه اتفق في ذلك العهد ( بمحدود عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م )  
 أن أحد المنجعين كان ينظر إلى الريض وعماره المدينة وحسن البساتين المحيطة  
 بها ، فقال للأمير ( نظام الدين حاكم الإمارة المروانية الكردية في ديار بكر ) :  
 « ما أحسن هذا البلد وأكثر العمارة فيه ، ولكن يقتضي طالعه أنه بعدك  
 وبعد بيتك يستولى عليه الخراب والجور والظلم مدة نيف وثمانين سنة » .  
 ويعلق الفارقي على الحادثة قائلاً : « وكان ما قاله - أي المنجم - صحيحاً ،  
 لأنه بعد موت نظام الدين وخروج البلاد عن يد ناصر الدين ( آخر أمراء الدولة  
 المروانية ) وصلت البلاد إلى الترك ، وتغير الولاة ، واستولى عليها الظلم والجور  
 والخراب وافتقر أهلها ، وأنه إلى الآن ( في حدود منتصف القرن السادس  
 المجري ) لم ترجع البلاد إلى عشر عشر ما كانت عليه في أيام نظام الدين<sup>(٢)</sup> .  
 وعلى الرغم مما في هذه الرواية من المبالغة إلا أنها تشير إلى الإمكانيات الزراعية  
 الواسعة لديار بكر وتقديم شهادة لأحد معاصرى الأراثة عن التدهور  
 الاقتصادي الذي أصاب المنطقة إثر استيلاء الترك والسلاجقة عليها ، وأنه على  
 الرغم من الجهد الذي بذلها الأراثة ، الذين أعقبوهم في حكم المنطقة في هذا  
 المجال ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا بالبلاد - حق منتصف القرن السادس  
 المجري - عشر عشر ما كانت عليه في أيام المروانين . ويؤكد ابن منقذ ما  
 ذهب إليه الفارقي ، فيذكر أن السلطان السلاجقى ملكشاه ( ٤٦٥ - ٤٨٥ هـ  
 = ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م ) ، أرسل لدى دخوله الشام إلى ابن مروان ، أمير ديار

(١) تاريخ آمد ص ١٩٩ .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٣ - ب

( عن الفارقي ) .

بكر يطلب ثلاثين ألف دينار ، فلما قدم الرسول الى الأمير المذكور قال له : « يا ولدي ، أما رأيت عمارة بلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضياعها ؟ أتراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار ؟ والله إن الذهب قد كيسته من يوم وصولك ، إنما انتظرت أن يتجاوز السلطان بلادي وتلحقه بالمال خوفاً من أن أستقبله بالذي طلب فيطلب مني إذا دنا من بلادي أضعافه <sup>(١)</sup> » ، فابن منقد يشير هنا الى ازدهار العمran الزراعي في ديار بكر وكمية بساتينها وضياعها وفلاحيها ، ولا بد أن شيئاً من هذا قد استمر في عهدبني أرتق رغم الاضطرابات والفتنة التي تعرضت لها المنطقة إثر سقوط الإمارة المروانية .

كان لميافارقين وحدها في مطلع القرن السادس الهجري مائتان وخمسة وستون قرية وسبعين زراعية <sup>(٢)</sup> . ووصف ابن جبير منطقة ديار بكر لدى رحلته اليها عام ( ١١٨٤ = ٥٨٠ م ) فأعطى صورة واضحة عن تقدمها الزراعي وكثرة بساتينها وخضرها وأشجارها المتعددة وكرومها ومروجها الخضر وأنها كانت تنسقى سبعاً من مياه الأنهار المجاورة وذلك برفعها بواسطة دواليب وأرحاء وتوزيعها على البساتين . وكان لهذه الأرحاء بيوت خاصة عند مسامط المياه لاستغلال الطاقة المائية في تحريك العجلات الخشبية <sup>(٣)</sup> . وكانت مياه العيون والجداول ، في بعض المناطق ، على درجة من الوفرة بحيث تساح -

(١) الاعتبار ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، نقل عنه ابن شداد ، الاعلاق ، ورقة آ - ب . ١٠١

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢١٩ - ٢٢٣ ، ياقوت ، معجم البلدان ٧٣١/٢ - ٧٣٣ ، العمري ، مسالك الابصار ٣١٠/١ ، لسترننج ، بلدان الحلة ص ١٤١ .

دولما واسطة – الى البساتين المجاورة لتسقيها<sup>(١)</sup> كما كان زراع المنطقة يعتمدون على مياه الأمطار، ليس فقط في إنتاج الغلال، بل الفواكه والكرز أيضاً<sup>(٢)</sup>. وفي ماردين حفرت القنوات واستحدثت الصهاريج والبرك لتجميع ماء المطر «حيث كثر الخلق وازدادت العمارة»<sup>(٣)</sup>.

وأشار ابن جبير الى أن القرى – وهي المراكز الزراعية – قد ملأت الطرق في ديار بكر يميناً وشمالاً<sup>(٤)</sup>، وكان لحصن كيافا مزارع يزرع بها من القمح والشعير والحبوب ما يغطي أهلها من السنة الى السنة، كما كانت تنتشر فيها الكرز وعدد كبير من البساتين<sup>(٥)</sup>، وانهارت إرزن بكثرة كرومها وفواكهها<sup>(٦)</sup>، وكانت بعض مناطق ديار بكر مغطاة بأشجار البن دق والفسق واللوز والزيتون والبطم<sup>(٧)</sup> كما كان يكثر في المنطقة نبات الزعفران ذو الشعر الفائق<sup>(٨)</sup>، وأشار القلقشندي الى كثرة الأشجار والفواكه والبساتين المنتشرة في أنحاء كثيرة من ديار بكر كالرها<sup>(٩)</sup>، وحيزان التي يكثر فيها شجر البن دق،

(١) لسترنج بلدان ص ١٢٥.

(٢) أبو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٨٩ .

(٣) ناسخ كتاب صورة الأرض لابن حوقل ص ٢٠٢ ، وقد قام هذا الناسخ بزيارة منطقة ديار بكر في منتصف القرن السادس الهجري وكتب تعليميات قيمة في هذا المجال وأطلق عليه فيما يلي اسم : ناسخ ابن حوقل .

(٤) رحلة ص ٢١٩ - ٢٢٣ .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٧ آ - ب .

(٦) المصدر السابق ١٢٧ ب . وانظر الأصفهاني ، الخريدة (قسم الشام) ، ٥٤٨/٢ العمرى ، مسالك الأ بصار ٣١٠/١ .

(٧) العمرى ، مسالك ٣٠٥/١ .

(٨) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٩) صبح الأعشى ط ٢ ، ١٣٩/٤ .

وميافارقين ، وآمد التي وصفها بأنها كثيرة الخصب ، ورأس عين التي يخرج منها ما يزيد على الثلاثمائة عين كلها صافية<sup>(١)</sup> . وكان يقع شمالي ماردين وادي يدعى وادي المرجلة معمور بالبساتين والجنان ملتفة الأشجار ، وكان في شرقي البلد ساحة حوش لها أحد أمراء ماردين الى جواسق وبساتين مستفلاً إحدى العيون هنالك وسمى ذلك الموضع (الفردوس)<sup>(٢)</sup> ، وكانت ماردين تنتاج وحدها سبعين نوعاً من العنب<sup>(٣)</sup> ، فضلاً عن وفرة إنتاجها للغلال والقطن والفاكه<sup>(٤)</sup> . وكان في نصيبين وحدهما ما يزيد على الأربعين ألف بستان<sup>(٥)</sup> ، وقد أطري المستوفى كرومها الفاخرة وفاكهها الحسنة<sup>(٦)</sup> ويشير ابن حوقل لدى استعراضه لمنتجات نصيبين أنها كانت مشهورة بكثافة أشجارها وكثرة فواكهها ، ثم حدثت في أيام بني حدان فتن قطعت بسببها الأشجار ودمرت الزروع . ثم جاء من جمل مكان الفواكه الغلات كالحبوب والسمسم والقطن والأرز ، وإن ذلك أدى الى ازدياد ارتفاعها أضعافاً مضاعفة<sup>(٧)</sup> ، ورغم ذلك فقد استعادت المنطقة أهميتها في إنتاج الفواكه فيما بعد ، فضلاً عن أن إدخال المنتجات السالفة وبخاصة الحبوب والقطن والبقول<sup>(٨)</sup> ، استمر في تحسن في

(١) صبح الاعشى ط ٢ ، ٣١٩/٤ - ٣٢٤ ، ٣٢٠ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٠ آ - ب .

(٣) القرماني ، تاريخه ص ٨٨ . وانظر ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ .

(٤) لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ - ١٢٦ ، ناسخ ابن حوقل ص ٢٠٢ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ٧٨٧/٤ - ٧٨٩ ، الفزويني ، آثار ص ٤٦٧ ، القرماني ، تاريخه ص ٤٩٠ .

(٦) لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ .

(٧) صورة الأرض ص ١٩١ - ١٩٣ .

(٨) المصدر السابق ص ١٩٥ .

الفترات اللاحقة وغدا يشكل أحد المنتجات الزراعية الرئيسية في المنطقة .

ويذكر ياقوت أن حيزان كان يكثر فيها البندق والشاه بلوط الذي تنفرد به دون غيرها من الأقاليم<sup>(١)</sup> ، وكانت سروج هي الأخرى مركزاً لزراعة الأعناب<sup>(٢)</sup> ، فضلاً عن الرمان المفضل والكمثرى والخوخ والسفرجل<sup>(٣)</sup> ، وكانت مزارع القطن تغطي مساحات واسعة من الأراضي المحيطة برأس عين<sup>(٤)</sup> ، وكانت بساتين رأس عين تسقى بثلاثمائة وستين عيناً فتجمعها كأنها بستان واحد ، وقال المستوفي إنها كثيرة القطن والقطم والعنب والكرم<sup>(٥)</sup> كما أطري وفرة فاكهة ميلافارقين<sup>(٦)</sup> وفي اسمرت انتشرت بساتين التين والرمان والكرم اعتماداً على الأمطار<sup>(٧)</sup> .

وبالإجمال ، أجمعت المصادر المختلفة ، واللحالة الذين زاروا المنطقة على كثرة بساتينها وضياعها وقرابها ورساتيقها الزراعية وتنوع إنتاجها الزراعي ولا سيما الفواكه والكرم وتليها في الأهمية الفلال ثم القطن فالبقول والخضرات<sup>(٨)</sup> .

---

(١) معجم البلدان ٢/٣٨٠ . وانظر أبو الفدا ، تقويم ص ٢٨٣ .

(٢) الاصطخري ، مسالك ص ٧٨ .

(٣) أبو الفدا ، تقويم ص ٢٧٧ .

(٤) الاصطخري ، المسالك ص ٧٤ .

(٥) لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ .

(٦) المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٧) أبو الفدا ، تقويم ص ٢٨٩ .

(٨) وانظر لسترنج ، بلدان ص ١٤٣ - ١٤٤ ( عن ناصر خسروت ٤٣٨ ) . وعن المستوفي ص ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٤١ ، ١٢٤ ، ١٤٦ ، أبو =

وقد ساعد على ازدهار المنطقة زراعياً ما كان فيها من ثروة مائية واسعة تمثل في شبكة من الأنهار والمجداول والعيون ، فضلاً عن كثرة الأمطار وجود سهول واسعة تصلح لزراعة الحبوب<sup>(١)</sup> .

استغل أهالي ديار بكر هذه الميزات فمارسوا فعاليات زراعية أخرى كرعى وتربية الحيوانات<sup>(٢)</sup> وصيد الأسماك التي تميزت بجودة أنواعها<sup>(٣)</sup> ، والاهتمام – كذلك – بتربية النحل للاستفادة من عسله كمورد نقيدي مهم<sup>(٤)</sup> .

استمرت منطقة ديار بكر على ازدهارها الزراعي حتى الفزو التترى والفترة التي أعقبته ، بحيث أن نصيبين وحدها كان يحيطهما في منتصف القرن

الفدا ، تقويم ص ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٠٢ ، ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض من ٢٠٢ ، الاصطخرى ، المسالك ص ٧٢ - ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٨ ، الفزويني ، آثار ص ٤٦٧ ، ٤٩١ ، ياقوت ، معجم البلدات ، ٢ / ٢٣٩ ، ٣٨٠ ، ٥١٦ ، ٧٣١ ، ٧٣٣ ، ٧٨٧ - ٧٨٩ ، القرمانى ، تاريخ ص ٤٢٢ - ٤٩٠ ، ٤٢٢ ، ٧٨٧ / ٤

(١) ابن جبير ، رحلة ص ٢١٩ - ٢٢٣ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ط ٤ / ٤ ، ٢١٩ - ٣٢٠ ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر ص ١٩١ ، أبو الفدا ، تقويم ص ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ياقوت ، معجم البلدات ، ٢ / ٢٣٩ ، ٣٨٠ ، ٥١٦ ، ٧٣١ ، ٧٣٣ - ٧٨٧ / ٤ ، ٧٣٣ ، ٧٨٩ ، ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، الفزويني ، آثار ص ٤٦٧ ، ٧٨٩ ، المسالك ص ٧٣ ، ٧٤ ، لسترنج ص ١٢٥ ، ١٤١ ، ١٢٢ ، القرمانى ص ٤٩٠ ، ١٢٢ .

Enc. Isl. art Artukids, New ed. (٢)

وانظر عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ١١١ - ١١٢ حيث يشير الى ان جماعة من المغireين من حلب تكثروا عام ٦٨٥ من هب ما يزيد على ثلاثين ألف رأس من الأغنام وجملة من الابقار من منطقة آمد ونصيبين .

(٣) ابن جبير ، رحلة ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٤) العمري ، المسالك ١ / ٣٠٥ .

السابع الهجري ما يربو على السبعين قرية<sup>(١)</sup> ، وكانت مigarقين وبعض الواقع الأخرى من ديار بكر تدر على التتر مائة ألف دينار سنويًا<sup>(٢)</sup> ، بالرغم من تعرض النشاط الزراعي في ديار بكر للتخريب ، بسبب ما كان يحدث في المنطقة – طيلة الحكم الأرتقى – من فتن وحروب واضطرابات كانت تلتحى أضراراً جسيمة بالإنتاج الزراعي .

وقد بدأت المنطقة تتعرض لهذه الفتن منذ مطلع القرن السادس الهجري حتى سقوط آخر إمارة أرتقية في ماردين عام ( ١٤٠٩ = ٨١٢ م ) . وكان هذا التخرير يحدث إما نتيجة « لاختلاف الولاة وتغير الدول وضعف بعض مناطق ديار بكر ) وعجز من يليها وقلة حماتها ( بحيث إنه ) كان يليها في كل قليل واحد وينهب ويصادر ويأخذ لأنه يتيقن أنه ليس بقيم «<sup>(٣)</sup> ، وإما بسبب الفتن والغارات التي كان يقوم بها أهالي المنطقة من الرعاة والجماعات غير المستقرة ، كالذجحة التي حدثت عام ( ١١٨٠ = ٥٧٦ م ) بين الأكراد والتركان شمالي ديار بكر<sup>(٤)</sup> . ويدرك ابن جبير أنه لدى دخوله ديار بكر ، في حدود عام ( ١١٨٤ = ٥٨٠ م ) ظلل هو وأصحابه « على أهبة وحدر من إغارة الأكراد الذين كانوا يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الأرض » ، وسكنهم في جبال منيعة ، ولم يعن الله سلطانها على قمعهم وكف عاديتهم ، فهم ربما

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٤١ ب .

(٢) رشيد الدين ، جامع التواریخ ٢/١٧ . وانظر – الصفحات السابقة – للاطلاع على ما أورده الجغرافيون المتأخرین عن الازدهار الزراعي لديار بكر في الفترات التي أعقبت الغزو التتری .

(٣) الفارق ، تاريخ آمد ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

Enc. Isl. art. Artukids, New ed. (٤)

ووصلوا في بعض الأحيان إلى باب نصبيين ولا دافع لهم ولا مانع إلا الله عز وجل<sup>(١)</sup>. وفي عام (١١٨٥=٥٨١) حدثت فتنة كبيرة بين التركان والأكراد في ديار بكر والموصل والجزيرة وشمال العراق وشمالي الشام ، قتل فيها من الخلق ما لا يحصى ودامت عدة سنين ، انقطعت خلالها الطرق ونهبت الأموال ، وكانت ديار بكر المسرح الرئيسي لتلك الفتنة<sup>(٢)</sup> . وفي عام (٥٩٩=١٢٠٢) ثار التركان في بعض أنحاء ديار بكر وقطعوا الطرق وأكثروا الفساد ، فتعذر سلوك الطرق إلا للقادرين على حمل السلاح<sup>(٣)</sup> . وتكرر ذلك عام (٦٢٢=١٢٢٥) على أيدي العرب الرحل الذين راحوا يقطعون الطريق وينهبون القرى ويحيفون السبيل<sup>(٤)</sup> ، وبعد عامين من ذلك (رجب ٦٢٤=١٢٢٧ م ) اجتمع عدد كبير من أكراد ديار بكر وأغاروا على بعض جهات جزيرة ابن عمر فقصدى لهم أهلها وقتلوا منهم عدداً كبيراً ونهبوا ما معهم<sup>(٥)</sup> .

وكان التحريض يحدث أحياناً كنتيجة لما تعرضت له المنطقة من هجمات الأعداء والطامعين في الاستيلاء عليها . كما حدث عام (٦٢٣=١٢٢٦ م ) عندما توجه الأشرف الأيوبي إلى ماردین فهاجم بلداتها « وأهلکه تخربیاً ونهبیاً » وقد أدى هذا إلى خراب أعمال ماردین « فإنها كان قد أجحف بها تتبع الغلاء وطول مدته وجلاء أكثر أهلها ، فأتتها هذه الحادثة فازدادت خراباً<sup>(٦)</sup> ». وكما

(١) رحلة ابن جبير ص ٢١٩ .

(٢) الكامل ١١/٢١١ ، ابن شداد ، سيرة ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن خلدون ٥/٨٣ .

(٣) الكامل ١٢ / ٧٤ . وينقل عنه أبو القدا ، المختصر ٣ / ١٠٨ ، ابن الوردي ، تتمة ١٢٠/٢ .

(٤) الكامل ١٢ / ١٧٦ .

(٥) المصدر السابق ١٩٦/١٢ .

(٦) الكامل ١٢ / ١٨٧ ، ابن خلدون ٥/٣٥٨ - ٣٥٩ .

حدث عام (١٢٣٠ = ٥٦٢٨) عند قيام التتر بطاردة جلال الدين خوارزمشاه في منطقة ديار بكر حيث أفسدوا في طريقهم ما قدروا عليه قتلاً ونهباً «وعانوا بالفساد يميناً وشمالاً»<sup>(١)</sup> ومن ثم أعادوا الكرة عام (١٢٥٢ = ٥٦٥٠) فهربوا وخربوا<sup>(٢)</sup>. وفي عام (١٢٥٨ = ٥٦٥٧) سار هولاكو بنفسه من بغداد الى ديار بكر وعاثت قواته في البلاد<sup>(٣)</sup>. وبعد ذلك بثلاث سنوات قام سلطان الشام باتخاذ إجراء اقتصادي ضد تقدم التتر باتجاه الشام، فأمر أتباعه بإحرق الزروع في المناطق التي اعتناد هولاكو أن يعسكر فيها فعمت النصار مسيرة عشرة أيام في المنطقة الواقعة بين آمد وحلب، وصارت الزروع رماداً، وقطع السبيل وهو أحضر<sup>(٤)</sup>. ومن ثم غدت ديار بكر والمناطق المجاورة لها مسرحاً للغارات والتدمير والنهب طيلة الصراع بين التتر والمهاليك<sup>(٥)</sup>. ففي عام (١٢٨٦ = ٥٦٨٥) على سبيل المثال، قام نواب حلب بتوجيه «الحشود» الى الشرق، وركنا الى الجزيرة واتفقوا على شن الغارات ودرس الزروع، وأغاروا على جبل ماردين الى الجزيرة وسنجار.. وأحرقوا، وما أبقو مكناً إلا فعلوه مما يقضي بإضعاف العدو وإذهاب ميرته<sup>(٦)</sup>. وقد تقنن التتر في تخريب الأراضي المزروعة في الجزيرة والتي تعود لأعدائهم وذلك عن طريق ترك خيولهم تبعث بها أو باحرقها، وهنالك طرق عديدة ابتكرها

(١) ابن كثير، البداية ١٢٨/١٣ - ١٢٩ ، الصائغ، تاريخ الموصل ص ٢٣٣ .

(٢) ابن كثير، البداية ١٢٣/١٣ .

(٣) المقريزي، السلوك ٤١٩/١٢ .

(٤) المصدر السابق ٤٧٣/١٢ .

(٥) انظر الفصل الرابع .

(٦) عبد الظاهر، تشريف الأيام ص ١٣٤ - ١٣٦، وانظر ص ١١١ - ١١٢ من نفس المصدر. وانظر كذلك زر ستين، تاريخ سلاطين المهدية ص ٤ .

هؤلاء لنشر الحريق في مساحات واسعة وبسرعة كبيرة<sup>(١)</sup>.

★ ★ ★

وعادت المنطقة للتعرض للتخريب ثانية على يد تيمورلنك وابنه أميرات شاه منذ عام (٧٩٦ = ١٣٩٣ م) وما تلاه ، ففي ذلك العام ترك تيمورلنك ابنه على الجزيرة لدى توجهه الى الشام ، وكان هذا أظلم من أبيه « فصيغ أرض هذه البلاد بدماء أهلها » ، وخراب معمورها<sup>(٢)</sup> ، وفي عام (٨٠٣ = ١٤٠٠ م) عاد تيمورلنك الى ماردین فخراب عماراتها وترك قائدته قرا عنان على حصار القلعة ، ولكن هذا لم يستطع الاستمرار على الحصار بسبب الحراب الذي لحق البساتين والمراعي<sup>(٣)</sup> . وفي الفترة التي تلت ذلك – وسبقت سقوط ماردین – تعرضت المناطق الزراعية المحيطة بها الى عمليات تخريب مستمرة من قبل قرا يوسف أمير دولة القراقوينلو ، وانتهى الأمر أخيراً باستسلام المدينة<sup>(٤)</sup> . ويذكر الظاهري (ت ٨٧٣ هـ) أن إقليم خربت في شمال ديار بكر كان يضم عدداً من القرى الزراعية وأن معظمها تحول الى خراب في عصره<sup>(٥)</sup> . ويشير ابن بطوطة ، لدى زيارته لديار بكر عام (٧٦٩ = ١٣٦٧ م) الى بعض المناطق التي كانت قد تحولت الى خراب<sup>(٦)</sup> . وهكذا يمكن القول بأن

---

(١) العمري ، التعريف ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، القاشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ١٤٠١ - ٤٠٢ .

(٢) الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ - ٢٥٤ (عن السمعاني : المكتبة الشرقية ، مجلد ٣ جزء ٢ ص ١٣٤) .

(٣) التاريخ الغياثي ص ٢١١ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ - ٢٥٤ عن السمعاني .

(٤) التاريخ الغياثي ص ٢٣٠ . وانظر الفصل الرابع .

(٥) زبدة كشف الممالك ص ٥٢ .

(٦) رحلة ابن بطوطة ١٨٢/٢ .

المنحدري العام للإنتاج الزراعي في ديار بكر كان يتجه نحو الانخفاض بمرور الزمن ، وأنه لعب دوراً كبيراً في توجيه الأحداث السياسية لمنطقة كاتاؤر بها في نفس الوقت .

وما حدث للنشاط الزراعي في ديار بكر من تخريب ، حدث كذلك في حلب في عهد حكم الأراثقة لها ، بسبب ما تعرضت له في الربع الأول من القرن السادس الهجري من هجمات الصليبيين التخريبية ، وقيامهم بالقبض على الفلاحين ومعاقبتهم ومصادرة أموالهم وغلامهم ، ونهب مزارعهم أو حرقها وتخريبها<sup>(١)</sup> ، ونتج عن ذلك أن تحولت معظم مناطق حلب الزراعية إلى « خراب مجده » أدى إلى زيادة أسعار المواد الغذائية زيادة كبيرة<sup>(٢)</sup> . ولا ريب أن هذا أثر على موارد الأراثقة في ديار بكر ، حيث كانت الضرائب التي تؤخذ على الحلبين تشكل جزءاً مهماً من موارد الخزينة الأرثوذكية .

وبالرغم من الحراب الذي لحق ديار بكر ، خصوصاً في الفترات المتأخرة ، فإن كلاً من ماردين وحصن كيما أصبحتا ، خلال القرن الثامن الهجري ( الرابع عشر الميلادي ) ، مركزين مهمين للهجرة<sup>(٣)</sup> ، حق إن معظم أهالي حران انتقلوا إلى ماردين فيما بين سنة ( ٦٦٠ - ٦٧٥ = ١٢٦١ - ١٢٧١ م ) ، ولما عجز التتر عن حفظها نقلوا جلّ من بقي من سكانها إلى ماردين وبعض الواقع الأخرى ، ثم خربوها<sup>(٤)</sup> ، وقد اضطر الملك السعيد نجم الدين إيلغازي ،

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٩٦/٢ - ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ١٨١/٢ - ١٨٢ . اذظر الفصل الثالث .

(٣) الباعفي ، مرآة الجنان ٤/٣٤ ، ابن حجر ، الدرر ٢/١٣٣ .

Enc. Isl. art. Artukids. (New ed.).

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ( مخطوطه ٢٠ ب ) .

حاكم ماردین ، الى إقامة الجمعة في إحدى المدارس الواسعة بعد تحويلهم الى مسجد جامع بسبب كثرة من انضوی الى ماردین من الناس عندما قصد التر البلا<sup>(١)</sup> . ولا ريب أن العامل الرئيسي لهذه الهجرة هو التدهور الزراعي الذي شهدته مناطق واسعة من الجزيرة بسبب هجمات التر ، فضلاً عن الخراب الذي لحق بعض المراكز السكنية ، والغلاء الذي اجتاحت عددًا من مناطق ديار بكر<sup>(٢)</sup> . ويمكن القول – كذلك – بأن العناصر الرعوية بدأت تطفى على المنطقة بمرور الزمن وخاصة بعد قيام قواد دولي<sup>٣</sup> الخروف الأبيض والأسود بهاجمتها باستمرار والاستيلاء على معظم مواقعها ، ولا ريب في أن القاعدة البشرية لهاتين الإمارتين كانت من الرعاة بدليل الاسم ذاته<sup>(٤)</sup> .

وفضلاً عن العوامل البشرية ، نجد أن العوامل الطبيعية والصحية لعبت دوراً كبيراً في تحديد مستوى الانتاج الزراعي في ديار بكر ، وبالتالي في تحديد مستوى المعيشة هناك . وقد تعرضت المنطقة ، بسبب تلك العوامل ، لفترات متباينة من الرخص والغلاء وارتفاع مستوى المعيشة أو انخفاضه . وفيما يلي استعراض لأهم تلك الفترات .

في عام (١٤٥٥ = ١١٢٠ م) وقع بماردين برد عظيم لم تجر بمثله عادة ولا أبصر أكثر منه ، مما أدى الى إهلاك الماشي وإتلاف أكثر النبات والشجر<sup>(٥)</sup> .

(١) المصدر السابق ١٣٠ ب .

(٢) المصدر السابق ٢٠ ب ، ابن العياد ، شذرات ٤٥٧/٥ - ٤٥٨ .

(٣) انظر التاريخ الغياني ( مخطوطة ص ٢١١ ) .

(٤) ابن القلاني ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٤٠/٧ ) .

وفي صفر من عام (٥٣٢ = ١١٣٧ م) حدثت في الجزيرة زلزلة عظيمة قيل إنها أهلكت عدة مواقع هناك وهلك فيها عدد كبير من السكان<sup>(١)</sup>. وفي شوال من عام (٥٦٥ = ١١٧٠ م) حدثت في نفس المنطقة زلزال أشد من سابقتها، وبلغت من الخطورة بحيث «لم ير الناس مثلها»<sup>(٢)</sup>. وفي رمضان من عام (٥٦٩ = ١١٧٤ م) تولالت الأمطار في موسم الربيع في ديار بكر ودامت أربعين يوماً، لم تظهر الشمس خلاها سوى مرتين، حتى إن ذلك أدى إلى خراب المساكن وإنهار بعضها وموت كثير من الناس تحت أنقاضها، كما أدى إلى ازدياد دجلة زيادة كبيرة<sup>(٣)</sup>. وفي عام (٥٧٤ = ١١٧٨ م) انقطعت الأمطار تماماً في سائر ديار بكر، والمناطق المجاورة والشام والعراق والموصل وأرمينية، فاشتد الفلاء في سائر البلاد وارتقت أممار الخنطة والشعير، وندرت الأقوات وأكل الناس الميتة، ودام ذلك إلى نهاية عام (٥٧٥ = ١١٨٠ م)، ثم تبع ذلك وباء عام شديد كثُر فيه الموت. ثم ما لبثت الأمطار أن سقطت من جديد فرخصت الأسعار<sup>(٤)</sup>. وفي عام (٥٩٧ = ١٢٠٠ م) حدثت زلزال عامة شملت معظم أنحاء العراق والجزيرة والشام وأدت إلى تخريب عدد من البلدان<sup>(٥)</sup>. وفي عام (٦٠٠ = ١٢٠٣ م) عادت الزلزال من جديد، وبعنف أشد، وشملت المناطق السالفة<sup>(٦)</sup>. وفي عام (٦٢٠ = ١٢٣٧ م) اندلع حريق في ديار بكر

(١) ابن القلانيسي، دمشق من ٢٦٣ .

(٢) ابن الأثير، الباهر من ١٤٥ ، ابن قاضي شهبة، السيرة التورية (مخطوطه ١٤٧) .

(٣) الكامل ١٦٦ / ١١ ، ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ١٧٧ .

(٤) الكامل ١٦٤ / ١١ .

(٥) ابن الساعي، الجامع المختصر ٥٣٩ ، الغزي ، تاريخ حلب ١٠٩ / ٣ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ١٦١ / ٣ ، الغزي . تاريخ حلب ١١٠ .

١٢٢٣ م ) انتشر الجراد في ديار بكر والمناطق المجاورة فأهلك كثيراً من الغلال والخضر<sup>(١)</sup> . وفي العام التالي أصيّبت المناطق السالفة بفجائع شديدة وجاءت موجة أخرى كثيفة من الجراد ، فزادت في ندرة الأقوات وارتفاع الأسعار<sup>(٢)</sup> . ثم ما لبث الغلام أن خف في العام التالي ( ٦٢٢ = ١٢٢٥ م ) ، فرخصت الأسعار بسبب ما قام به الخليفة العباسي ( الظاهر ) من السماح بنقل الأطعمة والغلال إلى الموصل والجزيرة « فحمل منها الكثير الذي لا يحصى<sup>(٣)</sup> » . ويظهر أن هذا الإجراء لم يجعل مشكلة الغلام بشكل نهائي ، فاستفحلاً ثانية في العام التالي ( ٦٢٣ هـ ) وأكل الناس الميتة والكلاب ، وغلا مع الطعام كل شيء ، وبلن ما يزيد على أربعة أضعاف منه القديم ، وبالرغم من تساقط الأمطار من أول الشتاء إلى نهاية الربيع ، فإن ضراوة الغلام لم تنكسر بسبب انتشار الأمراض واستعداد الوباء وكثرة الموت<sup>(٤)</sup> . وما أن بدأت الأسعار تتحسن حتى انتشر الجراد وقضى على الغلال القليلة التي أنتجت ذلك الموسم ، فارتفعت الأسعار من جديد ، فضلاً عن تساقط برد كبير الحجم في كثير من القرى أهلك زروعها وقضى على عدد كبير من مواسيها ودواجنها ، وانتهت السنة دون أن تخف حدة الغلام<sup>(٥)</sup> ، واستمر طيلة السنة التالية ( ٦٢٤ = ١٢٢٦ م ) وتحركت الأسعار بنسبة ضئيلة ، زيادة ونقصاناً ، وتساقط الثلوج في شهر آذار فأهلك أزهار الفاكهة<sup>(٦)</sup> . وانخفست الأسعار في العام التالي ( ٦٢٥ هـ )

(١) الكامل ١٢/١٧٢ ، المقرizi ، السلوك . ٢١٤/١١

(٢) الكامل ١٢/١٧٤

(٣) المصدر السابق ١٨٣/١٢

(٤) المصدر السابق ١٢/١٨٤ - ١٨٥

(٥) المصدر السابق ١٩٣/١٢

(٦) المصدر السابق ١٢/١٩٥ - ١٩٦ ، ابن كثير ، البداية . ١١٧/١٣

وجاءت الفلال ( الخنطة والشعير ) جيدة ، إلا أن الأسعار لم تبلغ ما كانت عليه قبل أزمة الفلاء<sup>(١)</sup> . وفي عام ( ١٢٣٠ = ٦٢٨ م ) قلت الأمطار في ديار بكر والمناطق المجاورة فارتقت الأسعار من جديد ، إلا أنها لم تكن بالشدة التي كانت عليها طوال السنين الماضية<sup>(٢)</sup> .

وفي عام ( ١٢٥١ = ٦٤٩ م ) انتشر ( الطاعون العظيم ) في أنحاء الجزيرة وبضمنها ديار بكر<sup>(٣)</sup> . وفي عام ( ١٢٧٥ = ٦٧٤ م ) حدث زلزال خطير بدأ بمنطقة أرمينية وامتد جنوباً إلى ديار بكر ، وأدى إلى تخريب مناطق شاسعة من ماردين وميافارقين<sup>(٤)</sup> .

ثم قلت حوادث الفلاء والأوبئة والمجاعات والزلزال ، بعد ذلك ، ولم تقع حوادث مشهورة من هذا النوع حتى عامي ( ٧١٧ و ٧١٨ = ١٣١٧ ، ١٣١٨ م ) ، ففي عام ( ٧١٧ م ) حدث غلاء شديد في ديار بكر اضطر عدداً من سكان ماردين إلى مغادرتها والتوجه إلى الشام ، إلا أن قوة من التتر لحقت بهم وقتلت معظمهم وكانوا حوالي ستة تاجر ، وثلاثمائة من العامة<sup>(٥)</sup> . وفي العام التالي اجتاح ديار بكر والمناطق المجاورة ، والعراق وشمال بلاد فارس ، غلاء شديد بسبب قلة الأمطار ، والتخوف من التتر الذي لعب دوره في شل النشاط الاقتصادي ، فعدمت الأقواف وارتقت الأسعار وتوفي الكثيرون

(١) الكامل ١٩٩/١٢ .

(٢) المصدر السابق ١٢ / ٢٠٨ ، ابن كثير ، البداية ١٣ / ١٢٨ ، الفزى ، حلب ١٤/٣ .

(٣) العمري ، تاريخ الموصل ص ١٧١ .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١٢٣/٣ .

(٥) ابن الوردي ، تتمة ٢٦٦ / ٢ ، ابن كثير ، البداية ١٤ / ٨٣ .

جوعاً وأكل الناس الميتات والحيوانات وباعوا أولادهم، وحاول بعضهم الهروب إلا أن الصعوبات التي جاهاهـم في الطريق قبضت عليهم<sup>(١)</sup>. ثم كانت آخر نوبات الغلاء المشهورة في ديار بكر تلك التي حدثت عام (١٣٤٢ = ٧٤٣ هـ)، حيث بلغ حداً جاوز الوصف واستمر ستة أشهر<sup>(٢)</sup>. وبعد ذلك بخمس سنوات (جادي الأولى = ١٣٤٧ هـ) انتشر وباء الطاعون مبتداً بحلب، فقطى الشام ومصر وجيبع أنحاء ديار بكر، ولعب دوراً خطيراً في شل النشاط الاقتصادي، كما أدى إلى وفاة عدد هائل من السكان<sup>(٣)</sup>. وفي عام (١٤٠٣ = ٨٠٣ هـ) انتشر الجراد في مناطق الشام وديار بكر وبغداد «فعرى كل شجراء ... وجرد ما على وجه الأرض جرداً»<sup>(٤)</sup>.

أما الفعاليات الاقتصادية الأخرى في ديار بكر، وهي التجارة والصناعة، فلا يوجد من الروايات الكافية المفصلة ما يلقي ضوءاً واضحاً عليها. وثمة إشارات متفرقة يمكن أن تستجمع لكي تعطي بعض المعالم الأساسية عن الموضوع. ولا ريب أن الإمكانيات الزراعية لディار بكر وكثرة إنتاجها من الفلال والثار والزيتون والقطن والكرز، من جهة، و حاجتها إلى بعض المنتجات والأطعمة من جهة أخرى. لعبت دوراً هاماً في تنشيط الحركة التجارية فيها تصديرأً واستيراداً، كما ساعدت على نشوء عدد كبير من الأسواق في سقّ أنحاء ديار بكر، كان يقصدها تجار الجملة والمفرد من شقّ الجهات كالشام

(١) ابن الوردي، تتمة ٢/٢٦٦، المقرizi، السلوك ١/٢٠٠، اليافعي، مرآة الجنان ٤/٢٥٧، ابن كثير، البداية ١٤/٨٦، ابن العياد، شذرات ٦/٤٧.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة ٢/٤٣٤.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ١٠/١٩٧، الفزوي، حلب ٣/١٨٦ - ١٨٧.

(٤) ابن عربشاه، أخبار تيمور ١١٥ - ١١٦.

وببلاد الروم والمناطق المتطرفة من ديار بكر<sup>(١)</sup>.

وكانت أرباض المدن الكبرى في ديار بكر ترددت بالأسواق كميافارقين<sup>(٢)</sup>، وإرزن<sup>(٣)</sup>، وحصن كيفا<sup>(٤)</sup>، وماردين<sup>(٥)</sup>، ودنيسر<sup>(٦)</sup>، وصور<sup>(٧)</sup>. ويصف ابن جبير هذه الأسواق بأنها كانت حافلة وأرزاها واسعة<sup>(٨)</sup>، ولنتابع وصفه لهذه الأسواق حيث يقول: «كان مقامنا بدنيسر إلى الجمعة الرابع من ربى الأول عام (٥٨٠ = ١١٨٤ م) - لرغبة أهل القافلة - لشهود سوقها، لأن بها يوم الخميس والجمعة والسبت والأحد سوق حفيظة يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها، لأن الطريق كلها يميناً وشمالاً قرى متصلة وخانات مشيدة، ويسمون هذا السوق المجتمع إليها من الجمادات (البازار) وأيام كل سوق معلومة...»<sup>(٩)</sup>. ويدرك ناسخ كتاب ابن حوقل والذي زار المنطقة في عهد الأراقة، بأن سوق دنيسر كانت واسعة، وأن دنيسر كانت في بدء أمرها قرية يجتمع الناس في صحرائها كل يوم أحد للبيع والشراء، ثم ما

---

(١) ابن جبير، رحلة ص ٢٢٠. وانظر ابن شداد، الأعلاق، ورقة ١٢٧ آ، وابن بطوطة، رحلة ١٨٢/١.

(٢) ناسخ ابن حوقل، صورة الأرض ص ٢٠٢، لسترنج ص ١٤٣ عن ناصر خسرو.

(٣) لسترنج، بلدان ص ١٤٤ (عن ناصر خسرو).

(٤) ناسخ ابن حوقل ص ٢٠٢، لسترنج ص ١٤٥ (عن ناسخ ابن حوقل).

(٥) ناسخ ابن حوقل ص ٢٠٢، ياقوت، معجم البلدان ٤/٣٩٠، الفزويني، آثار ص ٢٦٠ - ٢٦٠، لسترنج ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٦) ناسخ ابن حوقل ص ٢٠٢، ياقوت، معجم البلدان ٢/٦١٢، الطباخ، تاريخ حلب، ٥٨٠/٤، لسترنج ص ١٢٦.

(٧) ياقوت، معجم البلدان ٣/٤٣٥.

(٨) رحلة ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٩) المصدر السابق ص ٢٢٠ - ٢٢١.

لبث أن انتشر فيها العمران ، كنتيجة لمستلزمات التجارة ، فنشأت الحالات والفنادق والحمامات والأسواق المختلفة لتسهيل العمليات التجارية ، ومن ثم أصبحت مر كزاً تجاريًا كبيراً تجلب إليه البضائع المختلفة من سائر البلدان ، واستوطنه أناس من جهات شتى ، وكثيراً ما الارتفاع والضباب والضرائب المختلفة على التجارة<sup>(١)</sup> . ويدرك ياقوت أنه زار دنیسر في عهد صباه وكانت قرية آنداك ، ثم زارها بعد ثلاثين سنة (في عام ٦٢٣ = ١٢٢٦ م) « وقد صارت مصرأً لا نظير لها كبراً وكثرة أهل وعظم أسواق»<sup>(٢)</sup> ، مما يشير إلى مدى تأثير النشاط التجاري على نشوء المدن واتساع العمران وزيادة كثافة السكان ، بسبب ما يستلزم من مؤسسات وأيادي عاملة . كما أدى هذا النشاط التجاري إلى رخص الأسعار في المنطقة<sup>(٣)</sup> .

وكان وقوع عدد من أهم مدن ديار بكر كدنیسر ونصيبين وغيرهما على الطرق التجارية الرئيسية لشمال العراق والجزيرة وأرمينية وببلاد فارس والشام ، من العوامل المهمة التي أدت إلى انتعاش التجارة في ديار بكر<sup>(٤)</sup> . ويظهر أن التجارة في المنطقة اعتمدت أساساً على وسائل النقل البرية من الحيوانات ، ولم تستخدم الوسائل المائية على نطاق واسع ، ربما بسبب ضيق معظم الجمراري المائية في المنطقة ، وعدم إمكان تسهيل سفن النقل فيها . ومع ذلك فإن هناك مجاري مائية واسعة كانت تستخدم سابقاً في تسهيل السفن ، مثل تل فافار القريبة من آمد حيث يصير دجلة مجرى واحداً صالحاً لسير السفن<sup>(٥)</sup> . ويقول

(١) صورة الأرض ص ٢٠٢ ، وانظر الطباخ ، تاريخ حلب ٤/٥٨٠ .

(٢) معجم البلدان ٢/٦١٢ . ونقل عنه لسترنج ، بلدان ص ١٢٦ .

(٣) ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ .

(٤) انظر : ياقوت ، معجم البلدان ٤/٧٨٧ - ٧٨٩ ، الطباخ ٤/٥٨٠ .

(٥) لسترنج ، بلدان ص ١٤٥ .

ياقوت : « لم أر في رأس عين سفينة ، ولا يعرفها أهل رأس عين ». ثم يتساءل :  
ولا أدرى سبب ذلك ؟ لأن الماء كثير وهو يحمل سفناً صغيرة كما ذكروا ،  
ولعل المهم قصرت فعدم ذلك<sup>(١)</sup> . ولكن لا يمكن الجزم بأن ما أورده ياقوت  
ينطبق على كل الفترات الطويلة التي حكم فيها الأرaque ، هذا إلى أن مزارعي  
رأس عين كانوا يستخدمون هذه الجارى المتشابكة في تسخير زوارقهم الصغار  
التي كانت تحملهم إلى بساتينهم<sup>(٢)</sup> ، وربما أفادوا من هذه الزوارق ، كذلك ،  
في بعض عمليات نقل منتجاتهم الزراعية .

امتدت الجهات التي كان أهمها إلى ديار بكر يتاجرون معها فشملت الشام  
والعراق والجزيرة والموصل وببلاد الأنضول وأرمينية وفارس ( اذربيجان )  
والجهات الشالية المتطرفة القريبة من بحر الخزر<sup>(٣)</sup> ، كما شملت مصر أيضاً<sup>(٤)</sup> .  
وقد تأثرت الفعاليات التجارية للمنطقة ، شأنها شأن الزراعة ، بما كان يحدث  
فيها وفي المناطق المحيطة بها من فتن واضطربات وحروب كانت تعرقل حرية  
التجار في التنقل والأسفار<sup>(٥)</sup> ، وقد لاقى تجارة ديار بكر ، في بعض فترات  
السيطرة المغولية عليها ، أذى كبيراً ، وتعرضوا للمطاردة والقتل ، ولا ريب  
أن الحادثة ، التي سلف ذكرها ، من قيام المغول بقتل ستائة تاجر لدى محاولتهم  
مقادرة ماردين ، في إحدى أزمات الغلاء ، تعطي مثلاً واضحاً على ما حلّ  
بالتجار في تلك الفترات . وعندما ضعفت السيطرة المغولية على المنطقة ، عاد

(١) معجم البلدان ٧٣١/٢ - ٧٣٣ .

(٢) لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ .

(٣) الكامل ١٠١/١٢ Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٤) ابن تفري بودي ، النجوم الزاهرة ٤٤/١٠ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٧٩/٢ .

(٥) الكامل ١٠١/١٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٢٦٦/٢ ، ابن كثير ، البداية ٨٣/١٤ .

التجار ليأخذوا مكانتهم . وهنالك روايات تشير الى المكانة الكبيرة التي حصل عليها بعض التجار الذين كانوا يتربدون الى ديار بكر<sup>(١)</sup> . هذا وقد لعب قطاع الطرق واللصوص ، دوراً خطيراً في عرقلة سير القوافل التجارية في الفترات التي كان يحكم فيها أمراء ضعاف ، حيث كانت القوافل أحياناً « لا تسير من ميافارقين الى آمد وإرزن وحاني وماردين وحصن كيفا ، إلا ومعهم خيل تخفرم في هذه المسافة القريبة »<sup>(٢)</sup> . وفي عام ( ١٣٥٠ = ٧٥١ م ) ، على سبيل المثال ، كثر طغيان العرب والتركان في سنجار والمناطق المعاورة ، وتنادى بهم وفسادهم ، ونهبوا أموال التجار وقطعوا الطريق<sup>(٣)</sup> ، دون أن يقدر حكام المنطقة على إيقافهم عند حدم . أما في الفترات التي تولى الحكم فيها أمراء أقوية ، فإن الأمن ساد الطرق التجارية ، وتضاءل خطر قطاع الطرق واللصوص . فعندما استولى إيلفازي على ميافارقين عام ( ١١١٨ = ٥١٢ م ) ، « كانت البلاد خيفة من الحرامية والقوافل لا تسير ... إلا ومعهم خيل تخفرم في المسافة القريبة » ، فحيث ملك إيلفازي أمنت البلاد والطرق ، وانهزمت الحرامية ، وعمرت الضياع ومدت ميافارقين في العماره<sup>(٤)</sup> . ولدى دخول بلک بن بہرام حلب عام ( ١١٢٤ = ٥١٨ م ) تمكن - بما عرف من حزمه - من نشر الأمن الذي افتقد في الفترة السابقة ، وقضى على قطاع الطرق ، وأمر بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً « وحسم مادة أرباب الفساد » ، وقال للحارس: إن عدت سمعتك تصبح ضربت عنقك<sup>(٥)</sup> . ويشير ابن الأثير الى أن الطريق

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٧٩/٢ - ٣٨١ ، ٣٨١ / ٤٤٣ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٢ .

(٣) الغزي ، تاريخ حلب ١٨٧/٣ - ١٨٨ .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٢ .

(٥) ابن العميم ، زبدة الحلب ٢١٧/٢ .

بين الموصل وديار بكر - في عهده - كان آمناً لا يحتاج السائر فيه الى حراسة<sup>(١)</sup> . وكان ذلك بفضل حزم بعض الأرادة ورغبتهم في نشر الأمن . وفي أواخر عام ( ١٣٥٣ = ٧٥٤ م ) تكمن أمير ماردین من القضاة على محنة التركاني وهو أخطر قطاع الطرق في المنطقة ، وكان قد حظي بعطف بعض أمرائها وبخاصة أمير الموصل<sup>(٢)</sup> .

★ ★ ★

ولا ريب أن التجارة الأرتقية كانت تنشط - كذلك - اعتناداً على الاتفاقيات التجارية الدولية ، لا سيما تلك التي كانت تعقد بين الماليلك وحكام الأنضول والتي كانت تشمل معظم المناطق ، التي كان الأرادة يتاجرون معها ويسلكون طرقها . ونذكر - على سبيل المثال - تلك الاتفاقية التي عقدت عام ( ١٢٨٥ = ٦٨٤ م ) ، بين سلطان الماليلك وبين ( ليفون ) ملك الأرمن وجاء في نصها ... على أن التجار المتربدين من الجهتين لا يحدث عليهم حادث ، ولا تجدر عليهم مظلمة .. ويسلك بهم منهج العدل والإنصاف .. وعلى أنه من دخل بلد الأرمن من بلد الروم وبلد المشرق والمغرب والعراق وببغداد والعجم وسائر البلاد فاقصدأ البلاد السلطانية من التجار والرعاة ... يفصح لهم بالحضور الى البلاد السلطانية - أي بلاد الماليلك - ولا يعوقهم ولا يمنعهم ... !<sup>(٣)</sup> .

شملت تجارة ديار بكر - في عهد الأرادة - المنتجات الزراعية والمواد

(١) المثل السائر ص ٢٠٥ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكاملة ٤٨/٢ .

(٣) عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ٩٩ - ١٠٠ .

الخام والمصنوعات . فكانت تستورد التمر والدبس والأرز والسمسم وسائر المنتجات الزراعية التي لا تتوفر فيها ، فضلاً عن الحنطة والشعير في مواسم الجفاف والجحافات<sup>(١)</sup> ، وكذلك المواشي ، وبخاصة الأغنام لغرض الاستهلاك في بعض المواسم ، حيث كان الرعاة من التركان والأكراد ينتقلون خلال الربيع في أنحاء الجزيرة لبيع أغنامهم ، مما يساعد على انخفاض أسعار اللحم في هذا الموسم<sup>(٢)</sup> . كما كانت تستورد بعض المصنوعات من الجهات التي تجيد صناعتها كصابون حلب<sup>(٣)</sup> وغيره ، فضلاً عن استيراد المواد الخام كالذهب والفضة من الموصل وببلاد فارس لفرض سك النقود ، بسبب قلة هذين المعدين في المنطقة<sup>(٤)</sup> .

ويستفاد مما ذكره ابن جبير ، وغيره من الرحالة والمؤرخين ، أن حركة المبيعات لمنتجات ديار بكر كانت تعتمد بالدرجة الأولى على الأسواق الداخلية ، ومع ذلك فقد كانت ديار بكر تصدر إلى الخارج الكثير من منتجاتها الزراعية ومصنوعاتها الفائقة وبعض المواد الخام المتوفرة فيها . فكانت تصدر المنتجات الزراعية الفائقة بكثيات كبيرة إلى الخارج كالثار ، ولا سيما البندق والفستق واللوز والشاه بلوط والبطم والزيتون والكرום . كما كانت تصدر المخمور المشهورة بجودتها والمصنوعة على نطاق واسع بسبب كثرة الكروم في المنطقة ،

(١) الكامل ١٨٣/١٢ .

(٢) المصدر السابق ١٢ / ١٩٥ - ١٩٦ ، وانظر ابن القلافسي ، دمشق ص ٢٥٥ . ٢٥٦

(٣) ابن الشجنة ، المنتخب ص ٢٥٤ .

(٤) مجلة بغداد ، عدد ٢٥ سنة ٩٦٦ ، مقالة ( المسكوكات التي ضربها بدر الدين لولو ) محمد باقر الحسيني .

فضلاً عن نبات الزعفران ذي الشعر الفائق، والعلل حيث تكثر توبية النحل، وكذلك الكبيبات الفائضة من الغلال والخضر والبقول<sup>(١)</sup>. ومن المرجح أنها كانت تصدر الفائض عن حاجتها الصناعية من القطن الذي ينتج في المنطقة على نطاق واسع<sup>(٢)</sup>. ومن صادراتها كذلك الحلب الذي تتطيب به الأعراش<sup>(٣)</sup>، وماء الورد الذي يصنع محلياً والذي يتصنّع بكوفه لا نظير له في العطارة والطيب<sup>(٤)</sup>.

وكانَت ديار بكر تصدر عدداً من منتجاتها الصناعية كذلك وعلى رأسها المنسوجات كالأزرار والأبراد والنصفاني والبطاين<sup>(٥)</sup> والثياب المنسوبة إلى ماردين والمصنوعة من المرعز<sup>(٦)</sup> والفراند الحرزمية<sup>(٧)</sup>. كما اشتهرت المنطقة بتصدير القطيفة والطيسالسة الصوفية والثياب الملوشة والمنادل وشرائف الفرش والكلل وثياب الكتان والصوف التي تصدر إلى بغداد وسائر الجهات<sup>(٨)</sup>، كما أنها كانت تصدر البسط وأنواع أخرى من المنسوجات<sup>(٩)</sup>.

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ابن القلافي ، دمشق ص ٢٢٥ - ٢٢٧ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ - ب ، العمري ، مسالك الأبصار ١ / ٣٠٥ ، ياقوت ، معجم البلدان ٦٤١/٢ - ٦٤٢ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ عن المستوفى .

(٢) الاصطخري ، مسالك ص ٧٤ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٥ - ١٢٦ عن المستوفى .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ٥١٦/٢ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٦ .

(٤) لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٨ ب .

(٦) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٢/٢ .

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ٢٣٩/٢ .

(٨) سعيد الديوب جي ، أتابكية الموصى ص ٤٥ - ٤٦ .

(٩) انظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٤٤/١٠ .

كما كانت ديار بكر تصدر بعض المواد الخام المتوفرة فيها كالنحاس<sup>(١)</sup> ، وال الحديد الذي كان يكثر في بعض مناطقها وبخاصة حانى<sup>(٢)</sup> ، لفرض استخدامها في صناعة الأواني و سك النقود في الجهات المصدر إليها . كما كانت تصدر جواهر الزجاج الذي يكثر في جبل ماردین<sup>(٣)</sup> ، والذي يصفه ابن حوقل بأنه زجاج جيد « وأنه كان يحمل من ماردین الى سائر بلدان الجزيرة والعراق و بلد الروم » فيفضل على ما سواه بجوبهية فيه<sup>(٤)</sup> ، كما كان الطلب الخارجي شديداً على الحجارة السوداء ( الكرانيت ) المتوفرة في آمد والتي تستخدم للأرحبة و طعن الحبوب والبناء ، ويصفها ابن حوقل بأنها « ليس لها في الأرض نظير » ، ومنها ما يساوي الحجر للطعن به في العراق خمسين ديناراً<sup>(٥)</sup> . ومن المرجح أنها كانت تصدر كذلك الفحم والخطب لكثرة توفره في المنطقة<sup>(٦)</sup> . وكانت المصنوعات التي تقوم على بعض المواد الأولية السالفة ، تشكل جزءاً من صادرات ديار بكر وبخاصة الأواني النحاسية وأقداح الشرب<sup>(٧)</sup> .

- (١) ابن الأثير ، الكامل / ١٠ - ٢٣٠ ، ابن قاضي شهبة ، السيرة النورية ( مخطوطه )  
 (٢) ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٥٩/٢ ) ، الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٩ ب ، ابن كثير ، البداية / ١٢١٩١ ، وانظر ياقوت ، معجم البلدان / ١٤٨٠ - ١٨٨٢ وهو يشير الى أن حديد خاني كان يجلب الى سائر البلاد ، القرماني ، تاريخ ص ٤٩٠ .

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

- (٣) أبو الفدأ ، يقوم ص ٢٧٩ ، الاصطخرى ، المسالك ص ٧٣ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ط ٢ ، ٤/٣١٦ .  
 (٤) صورة الأرض ص ١٩٤ .  
 (٥) المصدر السابق ص ٢٠١ .  
 (٦) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٢٩٦ - ب .  
 (٧) لسترنج ، بلدان ص ١٤٥ - ١٤٦ .

قام في ديار بكر عدد من الصناعات التي اعتمدت على المهارة الفنية وعلى ما توفر فيها من مواد اولية كمعدني النحاس والخديد والزجاج ، ومواد زراعية صالحة للتصنيع كالقطن والكتان والزعفران ، فضلاً عن أصوات الغنم والماعز . وكانت المنسوجات ( الملابس والبسط والشرائف ... الخ) تشكل أهم المنتجات الصناعية لديار بكر . فقد كانت بلاد الجزيرة مشهورة بمنسوجاتها منذ الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي<sup>(١)</sup> ، وبقيت المنطقة بعد ذلك ، وبخاصة ديار بكر محافظة على صناعة الحياكة ، ومنها حياكة القطيفة<sup>(٢)</sup> . وكانت آمد تصنع الطيالسة الصوفية والثياب الملوثية والمنادل والمقارم ( شراشف الفرش والكلل ) وثياب الكتان والصوف<sup>(٣)</sup> ، كما اشتهرت بصناعة البسط والخيام<sup>(٤)</sup> ، ولا ريب أن هذه الصناعات ازدهرت في عهد الأراثقة الذين بلفت صناعات النسيج في عهدهم أوج ازدهارها . فكانت ماردين تصنع الثياب المنسوية إليها من الصوف المعروف بالمرعاز ( أي الصوف المنتشر تحت شعر العنز<sup>(٥)</sup> ) وذلك لتتوفر هذه المادة بسبب كثرة المماуз في المنطقة وجودة المراعي . وفي إرزن كانت تصنع الأزرار الرفاع والأبراد والنضافي والبطاين<sup>(٦)</sup> ، وفي حرزم القرية

(١) مجلة سومر ٨٠/٣ - ٨٥ .

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ٨٠/٢ .

(٣) الجاحظ ، التبصر بالتجارة ص ٣٠ ، ٣٣ ، البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٥ ، الديوه جي ، أثابكة الموصل ص ٤٥ - ٤٦ ، ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ١٧٠ ) .

(٤) ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ( مخطوطة ص ١٧٠ ) . وانظر : ابن راصل ، مفرج الكروب ( القسم المخطوط ٢٧٨/٢ ) .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٢/٢ .

(٦) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٨ ب .

من مازدين كانت تصنع الفرائد الحرومية التي اشتهر سكان حرزم بإجاده صنعها<sup>(١)</sup>.

وانتشرت في ديار بكر صناعة المخور التي امتازت بجودتها ، على أيدي المسيحيين وبخاصة سكان الأديره والكنائس بسبب كثرة ما كان يمتلك هؤلاء من مزارع الكروم<sup>(٢)</sup> ، وخبرتهم العريقة في هذا المجال ، كما انتشرت صناعة ماء الورد الذي كان يتتصف « بكونه لا نظير له في العطارة والطيب<sup>(٣)</sup> » وصناعة الزجاج والأواني الزجاجية<sup>(٤)</sup> بسبب كثرة المواد الزجاجية في بعض مناطق ديار بكر . وقد اشتهرت اسurtت بصناعة أقداح الشرب<sup>(٥)</sup> . وبسبب كثرة المواد المعدنية الخام انتشر في المنطقة تعدين النحاس وال الحديد وعمل سبائك الصفر لاستخدامها في سك النقود<sup>(٦)</sup> ، كما أدى توفر النحاس الى ازدهار صناعة الأواني النحاسية<sup>(٧)</sup> . وقد اشتهرت اسurtت بأواني النحاس الفاخرة التي كان يصنعمها الصفارون هناك<sup>(٨)</sup> . ولا بد من الإشارة أخيراً الى أن أحد أبناء ديار بكر وهو عبد الله بن يوسف الأصطراibi الأسرادي ، تمكن من إتقان صناعة

(١) ياقوت ، معجم البلدان ٢٣٩/٢ .

(٢) المصدر السابق ١٢/٦٤٢ - ٦٤١ ، العمري ، مسالك ١/٣١٠ .

(٣) لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ .

(٤) انظر القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤/٣٦ ، شيخ الربوة ، خبطة ص ١٩٢ ، البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٥) لسترنج ، بلدان ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٦) ابن كثير ، البداية ١٢/١٩١ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٦٥ ب ، الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٩ ب .

الأسطر لاب « ففاقت فيه وعمل أوضاعاً حسنة »<sup>(١)</sup> والى أن أحد حكام الأرانتقة (٥٩٧ = ١٢٠٠ م ) ، كان يمتلك ساعة مائية عجيبة ركبت له من قبل الميكانيكي الكبير الجزرى<sup>(٢)</sup> .

★ ★ ★

أدت هذه الإمكانيات الاقتصادية التي تعمت بها ديار بكر الى ازدياد الموارد المالية للحكومات الأرانتقة ، التي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على الضرائب المفروضة على الزراعة والتجارة بشكل خاص<sup>(٣)</sup> . وقد سبق استعراض عدد من الروايات التي تشير الى الثروات الكبيرة التي كانت تنصب في خزائن أمراء ديار بكر الذين سبقوا الأرانتقة . وينذكر الفارقي أن عميد الدولة بن جهير (أحد وزراء السلالحة) ، اتفق مع نظام الملك عام (٤٨٢ = ١٠٨٩ م ) على ضمان ديار بكر لمدة ثلاثة سنين بمليون دينار<sup>(٤)</sup> ، وأن نصارى ميافارقين عرضوا على عميد الدولة مقدار خمسين ألف دينار مقابل إعادة أحد المساجد الى دير لهم كما كان سابقاً إلا أنه رفض<sup>(٥)</sup> . وكانت الغرامات التي يقدمها الأرانتقة في بعض الأحيان لأعدائهم ، كي يتخلصوا من خطرهم ، تشير الى سعة إمكانياتهم المالية<sup>(٦)</sup> . وكان في مدينة آمد وحدها ، عندما فتحها صلاح الدين عام (٥٧٩).

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٠٨/٢ .

(٢) T. Rice, The Seljuks, pp. 181—182.

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ - ب .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٩٦ آ - ب .

(٥) الفارقي ، المصدر السابق ص ٢٢٢ ، ابن شداد ، المصدر السابق ، ورقة ٩٥ آ .

(٦) انظر ما يلي من الفصل .

= ١١٨٣ م ) وسملها للأرaqueة ، أموالاً وذخائر تساوي ثلاثة ملايين دينار . ويقال إن ابن قراً أرسلان الأرتقي باع من ذخائرها وخرائتها مما لا حاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها<sup>(١)</sup> . وقدم الملك المظفر أمير ماردِين هدية لهولاً كـو عام ( ١٢٦٠ = ٥٦٥٩ م ) من تحف ادخرها أبوه وأجداده من جملتها باطية مجواهرة قيمتها ، على ما ذكر ، أربع وثمانون ألف دينار<sup>(٢)</sup> . وبلغ ريع إحدى القرى الصغيرة في ديار بكر ، وهي حرزم القرية من ماردِين ، لمدة عشرين سنة ، مائتان وعشرة آلاف درهم<sup>(٣)</sup> .

### ★ ★ ★

ولا ريب في أن الضرائب كانت تشكل المورد الأساسي للخزانات الأرتقية . مع ذلك فإن المصادر لم تتطرق بالتفصيل إلى تلك التي فرضها الأرaqueة على رعاياهم<sup>(٤)</sup> . ويمكن القول – اعتقاداً على الروايات القليلة – بأن أهم الضرائب التي كانت سائدة في ديار بكر ، في زمن الأرaqueة وفي السنوات التي سبقتهم ، هي مؤونة الغريب والبلدي وهو ما يحصل ويدخل من المساتين التي حول المدن ، وما يدخل من الصياع من جميع الفاكهة والحضر والكروم والبقول – وكان على ذلك جميعه مؤونة – وكذلك الفوج وـ الحطب . وكانت هذه الضريبة

(١) أبو شامة ، الروضتين ٣٩/٢ ( عن العياد الأصفهاني ) .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٨ آ . ونقل عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٤٥٧/١ -

٤٥٨ -

(٣) المقرizi ، السلوك ١/٣ - ٧٣٦ - ٧٣٥/١٣ .

(٤) يشير كاهين إلى أن الضرائب الأرتقية التي أشارت إليها الروايات القليلة هي نفسها المفروضة في كل المناطق آنذاك :

مفروضة على الجميع غنيهم وفقيرهم<sup>(١)</sup> . وهنالك ضرائب تدعى الكلف ويظهر أنها سميت بهذا الاسم ، لأنها كانت تكلف دافعيها فوق طاقتهم وأنه لم تكن مألوفة أو شرعية ، وضرائب أخرى تدعى الأقساط ( أي التي تقسّط على دافعيها ) ، والأعشار ( اي العشور ) ، وحشر السور<sup>(٢)</sup> ، الذي لم تحدد المصادر طبيعته ، وضرائب على الأموال والصناعات المختلفة ، وعدد من الرسوم غير الثابتة والتي تزيد أو تنقص حسب الحاجة السياسية المالية للحاكم الأرتقى ، وكان ضمن هذه ( المكوس ) المفروضة على التجارة وهو النظام المتبع آنذاك في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، والذي كان يلقى معارضة شديدة من الأهلية والعلماء وبعض الحكام<sup>(٣)</sup> . وهنالك ضرائب مهمة كانت تؤخذ على الأسواق تدعى الضئانات وهي أشبه بالأجرة التي يؤدّيها متضمنو الأسواق للحكومة ، كما كانت تؤخذ ضريبة الارتفاع على التجارة وهي تزيد وتنقص حسب النشاط التجاري ونسب المبيعات<sup>(٤)</sup> . هذا فضلاً عن الخراج الذي يعد أكثر الضرائب أهمية في ديار بكر ، سواء ما كان يؤخذ من الفلاحين مباشرة أو من

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٢٤ - ٢٢٦ . بن شداد ، الأعلان ، ورقة ٩٦ آ - ب .

(٢) الفارقي ، المصدر السابق ص ٢٧٤ - ٥ : ابن شداد ، المصدر السابق ، ورقة ١٠١ آ - ١٠٠ ب .

(٣) انظر ابن القلansi ، دمشق ص ٢٠٢ ، ن العدم ، زبدة الحلب ٢٠٢/٢ - ٢٠٣ ، ٢٢٠ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ١١/٨ . وعندما قام نور الدين محمود بإصلاحه المالي المشهور عام ٥٦٩ أسقط ضريبة المكوس من رسوم أنحاء الشام والجزيرة والموصل التي خضعت لحكمه ( ابن الأثير ، الباهر ص ١٦٦ ، ابن شير ، البداية ٣١٣/١٢ - ٣١٤ ) ، ولم يبق من الضرائب سوى الجزية والخراج ( سبط ، مرآة الزمان ٣١٢/٨ ) .

(٤) ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ وهو يشير إلى أن هذه الضريبة ، ازدادت في دنيس - مثلًا - بسبب تضخم أعمالها التجارية .

المقطعين<sup>(١)</sup>، والجزية التي تؤخذ على أهل الذمة<sup>(٢)</sup>، والتي كانت تشكل مورداً لا يأس به بسبب كثرة المسيحيين في ديار بكر، هذا فضلاً عن المصادرات التي كان الأراثة يقومون بها ضد كبار موظفيهم – لأسباب شق – والتي كانت تشكل مورداً مهماً من مواردهم المالية. وكان الخراج والجزية يعдан أكثر الضرائب قبولاً لدى أهالي المنطقة بسبب صفتها الشرعية، وما عدتها من المكوس والأعشار والأقساط والكلف والمؤن وغيرها، فتعدد كلها من (البواشق) والظلم الذي ينزله الحكام بالأهالي، لذا كان رفع هذه الضرائب أو تقليلها يعد من الإصلاحات المهمة التي كان الحكم الجديد يفتتحون بها عهودهم<sup>(٣)</sup>.

وفي الرواية التي أوردها ابن الأثير إشارة إلى الرفق الذي عومل به فلاحو ديار بكر على الأقل في عهد حسام الدين ترقاش، وهي فترة ليست بالقصيرة (٥١٨ - ٥٤٧ = ١١٤١ - ١١٥٢ م) حيث إن زنكي حاكم الموصل (٥٢١ - ٥٤١ = ١١٤٦ - ١١٢٧ م) بلغه أن جماعة من فلاحي الموصل رحلوا إلى بلد ماردين فأرسل إلى حسام الدين ترقاش يطلب منه أن يعيدهم، فأجابه هذا «إننا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخف عنهم ونأخذ منهم في القسمة

(١) الفارقي، تاريخ آمد ص ٢٢٤ - ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٥ - ٢٧٦، ناسخ ابن حوقل، صورة الأرض ص ٢٠٢، ابن الأثير، الباهر ص ٧٩، ابن شداد، الأعلاق، ورقة ٩٦ - ب، ١٠٠ آ - ١٠١ ب.

(٢) البدليسي، شرف نامة ص ١٧٤ .

(٣) الفارقي، تاريخ آمد ص ٢٣٦ - ٢٣٧، ٢٧٤ - ٢٧٥، ابن القلانيسي، دمشق ص ٢٠٢، ناسخ ابن حوقل، صورة الأرض ص ٢٠١ - ٢٠٢، ابن العديم، زيدة الطلب ١٩٦/٢، ابن شداد، الأعلاق، ورقة ٩٧ ب، ١٠٠ آ - ١٠١ ب، ١٠٥ آ - ١٠٢ ب، ١٢٣ ب، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان ٨ / ٣١٢، ابن كثير، البداية ١٢ / ٣١٣ .

من الفلال العشر ، فلو فعلمتم أنتم مثلما فعلنا لم يفارقوكم ...<sup>(١)</sup> . ولكن هل استمر حكام الأرادة على نسبة العشر في جبائية الخراج ؟ وبالرغم من أن كاهين يشير إلى أنه يجب أن لا نعير اهتماماً كبيراً إلى هذه الرواية التي تشير إلى خفة العبء الملكي على كاهل المناصر الريفية في عهد تمرناش<sup>(٢)</sup> ، إلا أنها تعطينا صورة لا تقدمها بقية الروايات عن نسبة الخراج في بعض فترات الأرادة . وفي الرد الذي بعث به زنكي إلى تمرناش توضيح للدافع الذي جعل هذا الحاكم الأردني يقتصر على هذه النسبة من ضريبة الخراج ، وهو عدم اهتمامه بالقضايا الداعية ضد الصليبيين وما تتطلبه من نفقات باهظة . فقد قال زنكي لرسول تمرناش : « قل لصاحبك : اذا أخذت أنت من كل مائة سهم سهماً واحداً كان كثيراً لك لأنك مشغول بلدتك في ماردين ، وأما أنا فإذا أخذت الثلاثين كان قليلاً ، لما أنا بتصده من قصد الأعداء والجهاد ، ولو لاي لطال عليك أن تشرب الماء آمناً في ماردين ، ولكن الفرج قد ملكوها ...<sup>(٣)</sup> » ، ويعkin القول ، على هذا الضوء ، إن نسبة الخراج في ديار بكر كانت تعتمد إلى حد ما على السياسة العسكرية للحاكم الأردني ، وإنها - بناءاً على ذلك - ربما كانت أعلى من نسبة العشر في عهد إيلفازى وسقمان بسبب اهتمامها الشديد في قتال الصليبيين .

\* \* \*

قام الأرادة ، في أحيان كثيرة ، بإصلاحات مالية ألغوا خلاها كثيراً من

(١) الباهر ص ٧٩ .

(٢) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٣) ابن الأثير ، الباهر ص ٧٩ .

الضرائب الجحفة وخففوا بعضها الآخر<sup>(١)</sup> . ومن أهم تلك الإصلاحات إصلاح عام (١١٤٥ = م ٥١٤) ، عندما قدم أهالي حلب شكوى إلى إيلغاري حول «تجدد رسوم جددت عليهم في أيام رضوان بن تشن لم تجر بها عادة من قبل» ، من مكوس ومؤن ومظالم ، فأمر إيلغاري بكشف مقدارها ، فأخبر أنها تبلغ اثنا عشر ألف دينار كل عام ، فأمر بمحذفها ، ووقع لهم بذلك ، وكتب لوحًا على بباب الجامع<sup>(٢)</sup> . فقوبل ذلك «بالشكر والثناء والاعتزاد والدعاء<sup>(٣)</sup> » . وإصلاح عام (١١٨٣ = م ٥٧٩) الذي قام به محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيما في آمد لدى دخوله إليها عام ٥٧٩ . ويعقد أحد الرحالة ، الذين زاروا المدينة آنذاك ، مقارنة بين السياسة المالية الظالمة التي كانت سائدة فيها على يد حكامها السابقين من بني ينان وبني نيسان ، وبين ما حققه الحاكم الأرتقي من إصلاحات أساسية في هذا المجال ، فيقول : «... دخلت آمد عام (١١٣٩ = م ٥٣٤) ولم يكن بها إلا بقايا رمق ، وفيها من أرباب العلم والأدب .. وذوي الأفضال ومواساة الغريب جماعة ، ولكن جور بني نيسان والمصادرات وكثرة الرسوم والمؤن ألجأهم إلى التشتت .. فلم يبق بأسوقهم حانوت معمور .. إلى أن فرج الله عن بقيها وافتتحها الملك ... محمد بن قرا أرسلان الأرتقي وذلك أول سنة ٥٧٩ هـ<sup>(٤)</sup> ، فأطلق لهم الأبواب

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢ - ٢٠٣ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٢ آ ، ١٠٥ آ ، ١٢٣ ب ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٩١/٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/١٩٦ ، ابن القلansi ، دمشق ص ٢٠٢ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٩١/٨ ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطه ٤٠/٢ - ٤٠/٤) .

(٣) ابن القلansi ، دمشق ص ٢٠٢ ، ابن الفرات ، تاريخ (خطوطه ٤٠/٢ - ٤٠/٤) .

(٤) لم تفتح آمد على يد قرا أرسلان وإنما وهبت له من قبل الناصر صلاح الدين بعد أن حاصرها الأخير وتكون من الاستيلاء عليها في تلك السنة . وانظر الفصل الثاني .

ورفع المكوس ومحى تلك الرسوم المذمومة و فعل فعل الأكارم الأجواد ..  
 مفتئماً للذكر الجليل والأجر الجزيل . والآن قد دبت الحياة في عروق أهلها  
 إليها ، وإفراط العدل من مالكها عليها إن شاء الله تعالى<sup>(١)</sup> . وقد لعبت  
 هذه الإصلاحات دورها في تنشيط الحركة الاقتصادية في شتى مجالاتها التجارية  
 والزراعية والصناعية بحيث بلغت مستويات عالية سبق واستعرضنا جوانبها  
 المختلفة . وبالرغم من هذه الإصلاحات فإن حكام الأرaqueة وموظفيهم كثيراً  
 اتبعوا سياسات مالية ظالمة للحصول على مزيد من الأموال ، إما لأغراض  
 الشخصية ، أو لصرفها على قواتهم الحاشدة من التركان<sup>(٢)</sup> ، فظلموا الناصارى  
 وأغتصبوا أموالهم<sup>(٣)</sup> ، وصادروا الخدم والموظفين<sup>(٤)</sup> . إلا أن ذلك لم يحدد  
 دائمًا بل اقتصر على بعض الأماكن والفترات والحكام ، ولا سيما حلب لما كان  
 يتطلبها تنظيم شؤونها والدفاع عنها ضد الصليبيين من نعمات باهظة كانت تدأ  
 حكام الأرaqueة ونواحيم وموظفيهم هناك إلى الحصول على المال بأية وسب  
 كانت .



وتعود المستلزمات العسكرية وما تتطلبه من نعمات كبيرة ، أهم أبواب  
 الصرف بالنسبة للخزانة الأرaqueية<sup>(٥)</sup> ، وتلتها قضايا الإعمار والبناء التي تتطلب هـ

(١) صورة الأرض ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٠/٢ - ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٣) المصدر السابق ٢٠٠/٢ - ٢٠١ ، ٢٣٠ ، ٢٠١ ، بقية الطلب ٤/٢٧٧ و ح ٢٣٠/٢ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٥/٢ - ١٨٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ ، الكامل ١٠/١٠ ، أبو الفدا ، المختصر ٢٤١/٢ ، ابن الوردي ، تتمة ٤ / ٢٤ ، ابن خلدون ٥ / ٣٢٦ . ٣٢٧

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب ١٨٠/٢ - ١٨٥ ، ١٨٦ .

الأخرى نعمات كبيرة . وقد اهتم الأرادة بهذه الناحية اهتماماً كبيراً ، فبنيوا المدارس والمساجد والربط والمارستانات وخانقاهات الصوفية والغرباء ، وشيدوا الجسور والخانات وزرواها إطعام الطعام ، واهتموا بالأعمال البلدية كإنشاء الخدائق ، والحمامات وتوزيع المياه على الأهالي وما يتطلبه ذلك من إنشاء القساطل وحفر مجاري المياه<sup>(١)</sup> . ويشير أحد الرحالة إلى أن الأمير فخر الدين قرا أرسلان حاكم حصن كيما بني على دجلة تجاه الحصن قنطرة عالية حسنة البناء في سنة (٥١٦ = ١١١٦ م)<sup>(٢)</sup> . ويصفها ياقوت بأنه لم ير في البلاد التي زارها أعظم منها ، وهي طاق واحد يكتنفه طاقان صغيران<sup>(٣)</sup> . ويدرك الفارقي أن حسام الدين تمرشأ أمير ماردین شرع في عام (٥٤١ = ١١٤٦ م) ، ببناء جسر القرمان بالقيطوم القريبة من ميافارقين ، وكف الزاهد أبو الحسن علي بالإشراف عليه ، فبدأ هذا العمل وأسس قواعد الجسر من الجانبين ، فجاء الماء فهدى لضعف عمله ، فألزم الزاهد بالفرامة . ثم ولـه سيف الدين محمود بن علي بن أرتق ، وابتدأ في عمله وعمارته بإشراف أبي الخير ابن الحكم الفاسول ، فتم بناؤه في نهاية عام (٥٤٨ = ١١٥٤ م)<sup>(٤)</sup> .

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٧ آ ، ١٣٠ ب ، ابن بطوطة ، رحلة ١ / ١٨٣ ، ابن جبير ، رحلة ص ٢٢٢ .

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

المارديني ، تاريخ ماردین (مخطوطه ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ / ١٢٧ ، ١٢٩ / ٤ ، ٢٧٧ ، ٣٩٠ ، القزويني ، آثار ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ ، ١٤٥ .

T. Rice, The Seljuks, Appendix No. 111 pp. 196-209.

(٢) ناسخ ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢٠٢ .

(٣) معجم البلدان ٢ / ٢٧٧ .

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٦ ب - ١٢٧ آ ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٤ آ - ب وانظر ورقة ١٢٧ آ .

ويشير النص آنف الذكر إلى مدى اهتمام الأرانتقة باختيار العناصر التي تتتوفر فيها الأمانة والكفاءة للإشراف على عمليات البناء وتشددهم إزاء هؤلاء المشرفين، وتغريتهم في حالة عدم قيامهم بواجبهم على الوجه الأكمل ، مما يشير بدوره إلى مدى حرص الأرانتقة على أموال الدولة العامة . ومن الجسور المهمة التي شيدتها الأرانتقة ، ذلك الذي أقاموه على نهر الهرناس قرب نصيбин ، وكان معقوداً من صم الحجارة<sup>(١)</sup> التي تتتوفر في المنطقة والتي لها القابلية على الصمود لفترات طويلة .

وقد اهتم الأرانتقة – كذلك – ببناء المدارس وأنفقوا عليها مبالغ كبيرة ورتبوا لها الأرزاق والوظائف والأوقاف<sup>(٢)</sup> ، وأشهرها المدرسة الزجاجية التي أنشأها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق في حلب عام (٥١٦هـ ١١٢٢م) ، وهي من أولى المدارس التي بنيت في حلب ، وقد بذل جهوداً كبيرة لإنقاذ بنائها بسبب المعارضة الشديدة التي جوبه بها من قبل الحلبيين ، الذين كان يغلب عليهم التشيع آنذاك ، فكان كلما بني فيها شيئاً نهاراً خربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك ، فأحضر الشريف زهرة بن علي بن محمد الأسعحي الحسيني والتمس منه أن يباشر بناءها بنفسه ليكشف العامة عن هدم ما يبني منها . فباشر الشريف البناء وشدد المراقبة عليه حتى فرغ منه . وقد كان هذا الشريف من أكابر الأشراف وذوي الرأي والأصالة مقدماً في بلده ، يرجع إليه الناس<sup>(٣)</sup> . كما قام عبد الجبار بن أرتق بتجديد المدرسة المعروفة في حلب

(١) لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ .

(٢) الماردینی ، تاریخ ماردین (مخطوطة ص ١٢٤ ، ١٢٥) .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ص ٩٦ - ٩٧ ، ابن الشحنة ، المنتخب ص

باسم بني العجمي ، وقرر أن يوقفها على الفرق الأربع ، وقام بنقل مواد بناءها من إحدى كنائس حلب<sup>(١)</sup> . ويدرك ابن شداد في الأعلاق عدداً من المدارس التي أنشأها الأراتقة في ماردين ، والتي لم يقتصر بناؤها على الأمراء أنفسهم بل ساهم فيه كبار المسؤولين والقضاة<sup>(٢)</sup> . وقد أولى الأراتقة اهتمامهم كذلك ببناء المساجد وتجديدها ، ويدرك الفارقي أن جامع ميافارقين انهدم في ربیع الأول عام (٥٤٦ = ١١٥١ م) وانهار مكان المنبر والأروقة ، فقام المسؤولون بهدم ما تبقى منه وحفر أساس القبة وإعادة البناء . وقد انجز العمل في أواخر عام (٥٤٧ = ١١٥٣ م)<sup>(٣)</sup> . كما كانت عمليات إصلاح الأسوار أو هدمها لأغراض دفاعية واستراتيجية تقتضي مصاريف من الخزانة الأرطيقية<sup>(٤)</sup> . وكانت القصور الخاصة بالطبقة الحاكمة تستنزف أموالاً طائلة . ويدرك شيخ الربوة (ت ٧٢٧ هـ) أنه كان في ماردين – على أيامه – « قصر مبني في الماء إذا أراد حاكها أن يدخله أرسل الماء فطفى على القصر وغره من سائر أحوانه » وفيه كوى وصروح وأبواب مبردة من القوارير تشف بالماء والسمك ولا يتندى منها شيء . والدخول إلى هذا القصر في المركب على وجه الماء ، والإقامة فيه في أوقات الحر الشديد ، وإذا انتهى موسم الحر صرفوا الماء عنه»<sup>(٥)</sup> ولا ريب أن هذا يعطي مثلاً على التعقيدات العمارة التي كانت تتميز بها بعض قصور

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢٠٩/٢ - ٢١٠ .

(٢) انظر ورقة ١٣٠ ب .

(٣) تاريخ آمد ، ورقة ١٣٣ ب ، ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٠٤ آ - ب . وانظر ورقة ١٣٠ ب ب .

(٤) ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ص ١٩ ، قسم الجزيرة ، ورقة ١٠٣ ب ، ابن الشحنة ، المنتخب ص ٣٥ - ٣٦ ، الفزي ، تاريخ حلب ١٣/٢ .

(٥) نخبة الدهر ص ١٩٢ .

الأراثة ، مما كان يقتضي نفقات كبيرة من الخزانة العامة<sup>(١)</sup> . هذا فضلاً عن وجود عدد آخر من أبواب الصرف المعروفة كرواتب الموظفين والمنح والهبات ، التي تعطى للأمراء والمقربين والأدباء والعلماء الذين يغدون إلى عواصم الأراثة ويدعون أمراءهم أو يقدمون لهم خدمات في مجال اختصاصهم<sup>(٢)</sup> . ويدرك ابن بطوطة أن الشاعر محمد بن جابر الأندلسي قد صدر الملك الصالح صاحب مardin ومدحه ، فنحوه هذا عشرين ألف درهم<sup>(٣)</sup> . كما أنهم خصصوا الجرایات لكتاب الضيوف الذين كانوا يغدون لزيارة الأراثة ، ويشير الفارقي – في هذا الصدد – إلى أن جماعة من أرباب البيوت كانوا يقصدون حسام الدين تبراش من جميع البلاد ، « فيحسن إليهم ويعطيهم ويقيم عليهم الإقامة والراتب مدة مقامهم لديه »<sup>(٤)</sup> . كما كانت الصدقات تشكل إحدى أبواب الواسعة للصرف<sup>(٥)</sup> .

★ ★ ★

وكانت الفرامات التي يقدمها الأراثة لأعدائهم لإيقاف مطامعهم ، والأتوات السنوية والهدايا التي يؤدونها للدول الكبرى التي فرضت عليهم سيطرتها ، تشكل المصرف المهم الثاني بعد المصارييف العسكرية مباشرة ، ففي عام ٥٩٩ = ١٢٠٢ م ) – مثلاً – اضطر أمير ماردين إلى دفع مبلغ قدره مائة وخمسون

(١) وعن منشآت الأراثة بصورة عامة من مدارس ، طرق ، جسور ... الخ .

انظر : 209— Tamara Rice, The Seljuks, Appendix No. 111 pp. 196

(٢) انظر ما يلي من الفصل .

(٣) رحلة ١٨٣/١ وانظر الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٣٦ ب ، ابن عربشاه ، أخبار تيمور ص ٥٢ .

(٤) تاريخ آمد ، ورقة ١٣٦ ب .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٣/١ .

ألف دينار للعادل الأيوبي ، لقاء انسحاب قواته عن ماردین<sup>(١)</sup> . وفي عام (١٢٠٥ = ٥٦٠٢ م ) اضطر أمير ماردین الى دفع مبلغ قدره مائة ألف دينار ، لقاء انسحاب الأشرف الأيوبي عن ماردین<sup>(٢)</sup> . وفي عام (١٢٤٩ هـ) طلب المغول من أمير ماردین تقديم مائة ألف دينار ، ولكن وقوف سائر أمراء المنطقة ضد طلبات المغول المشابهة ساعدهم على التخلص من تأدية هذا المبلغ<sup>(٣)</sup> . وبعد أن خضعت إمارة ماردین للتتر ، منذ أواخر العقد السادس من القرن السابع الهجري ، أصبح على أمرائها أن يدفعوا لهم أتاوة سنوية يتسلّمها موظف مختص يأتي إلى المنطقة سنويًا ليكشف عنهم ويقدر المبلغ على أساس هذا الكشف ، وقد حاول أمير ماردین في إحدى المرات ، بالاشتراك مع بعض أمراء المنطقة ، رشوة هذا الموظف كي لا يقوم بعملية الكشف على الوجه المطلوب ، إلا أن هولاكو سمع بالأمر فقتل الموظف المذكور وخمسين من أعوانه<sup>(٤)</sup> . ويدرك المقرizi في أحداث عام (١٣١٥ = ٥٧١٥ م ) ، ان قراوول<sup>(٥)</sup> التتار كان يأتي إلى ماردین ، على عادته في كل سنة لجباية

(١) الكامل ١٢/٧٤ ، ابن الساعي ، الجامع المختصر ٩٩/٩ - ١٠٠ ، ابن المبرى ، مختصر ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، أبو الفدا ، المختصر ١٠٨/٣ ، ابن الوردي ، تتمة ١٢٠/٢ ، المقرizi ، السلوك ١٦١/١١ .

(٢) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٥٤٦/٨ ، ابن تغري بردي ، النجوم الراهنة ٦/١٨٩ .

(٣) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ٦٢ ب - ٦٤ ب .

(٤) اليوفيني ، ذيل مرآة الزمان ٢٣٦/٢ . وانظر رشيد الدين ، جامع التواریخ ٧٦/٢ ، والصانع ، تاریخ الموصى ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٥) القراءول (أو القراغول) جماعة من العسكريون كانوا يناظرون حراسة الطرق :

Ceux qui étaient préposés à la garde des routes:

اذظر : Dozy, sup. Dic. Art.  $\Rightarrow$  حيث يوجد مثال لاستعمال هذا اللهظ بعد تحريفه فليلاً

القطيعة<sup>(١)</sup> ، وهم في ألفي فارس<sup>(٢)</sup> . وهكذا نجد أن الخزانة الأرتقية كانت تتتحمل صرف مبالغ نقدية كبيرة ، في شق الحالات ، مما كان يوازي مواردها الفنية .

ولم تشر المصادر - بوضوح - إلى الأجهزة الإدارية والموظفين الذين يقومون بالإشراف على تنظيم الشؤون المالية للأرادة كجباية الضرائب ، وفرض الرسوم والغرامات ، وتنظيم رواتب الجنود والموظفين ، وتحديد أبواب المصاريف الأخرى . ولكن ثمة إشارات محدودة وردت عن بعض موظفي المالية كناظر الديوان ، الذي يقوم بالإشراف على الشؤون المالية للدولة<sup>(٣)</sup> ، والمستوفي الذي كان يقوم بجباية الضرائب والرسوم وضبط حساباتها ويدركر اليونيني ، في معرض حديثه عن خطط حلب ، أن المستوفين هناك كانوا يرتبطون بالنائب ويناقشونه في القضايا التي تتعلق بعملهم ، وكان كل منهم يشرف على خزانة خاصة به ، ولكل منهم معاملات معلومة ، وكانوا يلazمون أشفالهم في الحسابات<sup>(٤)</sup> ، وربما كان في هذا ما يوضع طبيعة عمل المستوفي وأختصاصاته<sup>(٥)</sup> ، وكانت مهمة المستوفي ، لدى حكومة الماليك هي الإشراف

= ونصله (وعند أرباب السياسية جماعة من الضابطين في أماكن معينة للحفاظة، وربما قالوا قراقون وكراكون) : المقرizi ، السلوك ح ١٣٠٢ / ٩٧٩ . وهناك القراغلامية وهم جماعات الضبطية ، وعلمهم مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش : المصدر السابق ح ٣ / ١٠٧ .

(١) انظر الفصل الرابع .

(٢) المقرizi ، السلوك ٢/٢ . ١٤٧ .

(٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ط ٢ ، ١٨٨/٤ ، ١٨٩ - ٤٦٥/٥ .

(٤) ذيل مرآة الزمان ٤٢٦/١ - ٤٢٨ .

(٥) انظر في هذا المجال : العمري ، التعريف ص ١١٥ - ١١٦ ، التابسي ، لمع القوانين ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٥٤ ، ٦٢ - ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٣ ، التويري ، نهاية الإرب ٨/٣٠١ - ٣٠٣ ، ابن مهاتي ، قوانين ص ٣٠١ .

على الديوان التابع له ، والشهر على تنفيذ القوانين التي تكفل ضبط أمره وزيادة موارده<sup>(١)</sup> ، كما كان يقوم باستيفاء الحسابات<sup>(٢)</sup> . وهذا يرجع أنه كان للأرادة ، أسوة بغيرهم ، عدد من المستوفين يشرف كل منهم على شعبة مالية أو ديوان خاص به يرتبط في النهاية بالناظر . وكانت وظيفتا الاستيفاء ونظر الديوان مرتبطةان ببعضهما لدى الأرادة ، مما يشير إلى أن ناظر الديوان كان يلعب دوراً خطيراً في القضايا المالية<sup>(٣)</sup> . ومن الجدير بالذكر أن ديوان النظر ، لدى حكومة المالك ، كان أشبه بوزارة المالية اليوم ، حيث ترجع إليهسائر الدواوين في كل ما يتعلق بالمسائل الخاصة بالمحصل والمتصرف من أموال الدولة ، وهذا الديوان الإشراف على حسابات الدولة وعلى أرزاق ومرتبات الموظفين الدائين والوقترين والتي كانت تدفع عيناً وغلة معاً<sup>(٤)</sup> ، ويشرف على هذا الديوان ناظر المال ويسمى أيضاً ناظر النظار وناظر الدواوين ، ويساعده عدد من الموظفين يدعون (الستوفون)<sup>(٥)</sup> . وكان لدى الأرادة موظف آخر يدعى كاتب عرصة الغلة<sup>(٦)</sup> ، ويظهر أن مهمته هي تنظيم جباية وحفظ الضرائب العينية المفروضة على الفلال .

(١) القلقشendi ، صبح الأعشى ٤٦٦/٥ .

(٢) ابن عاتي ، قوانين ص ٧ . وانظر العمري ، التعريف ص ١٤٩ ، علي حسن ، المالك البحريـة ص ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٣) انظر ما سلف من صفحات هذا الفصل .

(٤) المقريزي ، خطط ٢٢٤/٢ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، القلقشendi ، صبح الأعشى ١٩/٤ - ٣٠ ، الخالدي ، المقصد الرفيع ص ١٣٥ . وانظر علي حسن ، المالك البحريـة ص ٢٥٥ - ٢٥٧ وهوامشها .

(٦) ابن الفرات ١٨٦/٨ .

وإذا ما انتقلنا إلى الحياة الاجتماعية في ديار بكر في عهد الأراتقة ، فإن أول ما يجب أن نلاحظه هو التنوع في الأقوام والأديان التي سادت المنطقة ، وأهم تلك الأقوام التركان والعرب والأكراد<sup>(١)</sup> . ويعود تجمع هذه الأقوام الثلاث واستقرارها في المنطقة إلى الظروف التاريخية والاقتصادية لديار بكر ، حيث إنها كانت في بادئ الأمر مسرحاً لاستقرار القبائل العربية<sup>(٢)</sup> ، ثم خضعت في الرابع الأخير من القرن الرابع الهجري لإمارةبني مروان الكردية ، وما لبث الأتراك السلجوقية أن اكتسحوا المنطقة في عهد ملكشاه (٤٦٥ - ٥٤٨٥ = ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م ) ، واتخذوها مجالاً لنشاطات المختلفة السياسية والعسكرية والاقتصادية .

ويشير استمرار الطابع العربي لقطاعات واسعة من حضارة الأراتقة<sup>(٣)</sup> .

(١) الكامل ٢٤٩ / ١٠ ، الفارقي ، تاريخ آمد ص ١٩٦ ، ٧٤ / ١٢ ، ٢١١ / ١١ ، ابن شداد ، سيرة ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن العسبري ، مختصر ص ٤٣٢ - ٤٣٣ ، أبو الفدا ، المختصر ٣ / ١٠٨ ، ابن الوردي ، تتمة ١٢٠ / ٢ ، ابن خلدون ٥ / ٣٢٨ - ٤٦٦ ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤٦٧ - ٤٦٦ ، ٥٨٣ ، العياد الأصفهاني ، الخريدة ٤٨ / ٥ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٤ / ٢٣٢ ، البديليسي ، شرف نامة ص ١٧٤ - ١٧٥ ، الغزوي ، تاريخ حلب ١ / ٥٦٤ ، برصوم ، دير الزعفران ص ٦٣ - ٦٤ ، العريني ، الحروب الصليبية ١ / ٢٢ - ٣٠ ، Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

Gibb, Damascus P. 23, cahen, La Syrie du Nord pp. 190—191.

(٢) الاصطخري ، مالك ص ٧٧ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ياقوت ، معجم البلدان ٦٣٧ / ٢ ، البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٥ - ١٤٦ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ٤ / ٢٣٢ ، Enc. Isl. art. Artukids, New ed. (٣)

Gibb, The Caliphate, P. 89, Damascus chron. P. 22.

وقيام بعض الأسر العربية بتسليم مناصب هامة ، الى مدى ما كان يتمتع به العرب في المنطقة من نفوذ . ويشير كاهين الى أن منطقة ديار بكر كانت تشكل ، فيما عدا خربت ، المتطرفة باتجاه الشمال ، جزءاً من العالم الإسلامي منذ الفتح العربي ، وأن المناطق التي حكمها الأراقة استمرت تحكم من قبل نفس السكان ، ويضرب مثلاً على ذلك عائلة ( بنو نباتة ) التي تولت الحكم في ميافارقين فترة طويلة<sup>(١)</sup> ، ويشير العميد الأصفهاني الى عائلة عربية أخرى وهي ( بنو الكيت ) الذين كان لهم في أطراف إرزن من ديار بكر « الفضل والرئاسة والمضيف للمسافرين من سائر الجهات » وأنجبوا عدداً من الشعراء<sup>(٢)</sup> ، فضلاً عن أن الشعر العربي لقي رواجاً واسعاً لدى الأراقة<sup>(٣)</sup> ، فبالإضافة الى أن ديار بكر أنجبت عدداً من الشعراء غالباً بلاط الأراقة قبلة لكتاب الشعراء المعاصرين في العالم الإسلامي مثل صفي الدين الحلبي واسامة بن منقذ . وقد استمرت التقاليد الأدبية العربية على حيويتها البارزة بين سكان المنطقة ، حتى أواخر عهد الأراقة ، حيث كانت تعقد الندوات الأدبية وتمنح الجوائز للشعراء الأكثر بلاغة<sup>(٤)</sup> . ولم يقتصر نفوذ العرب في المنطقة على القضاء والأدب ، والحافظ على تقاليد الضيافة والكرم فحسب ، وإنما ساهموا كذلك في الحرب والقتال<sup>(٥)</sup> .

(١) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٢) الخريدة ، قسم الشام ٥٤٨/٢ .

(٣) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٢ - ١٨٣ ، اليوناني ، ذيل موآة الزمان ٩٢/١ - ٩٥ ، ٤١٣ - ٤١٤ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٧٩/٢ - ٣٨١ . الكتبى ، فسوات الوفيات ١٩٣/٢ ، إنسان العيون ( لمஹول ) ص ١٦٩ ، ابن عربشاه ، أخبار تيمور ص ٥٢ .

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

(٤) أنظر ما يلي من الفصل .

(٥) ابن العبرى ، مختصر ص ٤٦٦ .

ولما كانت ديار بكر تناхض في جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية والشرقية مناطق كردية واسعة ، فقد فتح ، هذه ، المجال أمام هؤلاء للتدفق على المنطقة ، وازدياد نسبة السكان الأكراد فيها بمرور الزمن<sup>(١)</sup> . وقد توج النفوذ الكردي في المنطقة بقيام الإمارة الكردية المروانية ، التي حكمت طيلة ما يقرب من القرن (٣٨٠ - ٤٧٨ = ٩٩٠ - ١٠٨٥ م) . وأتاحت للأكراد في ديار بكر مجالات واسعة للتمكن في شتى النواحي السياسية والاجتماعية والإدارية والعسكرية<sup>(٢)</sup> . واستمر الأكراد يلعبون دوراً مهماً في المجالات العسكرية<sup>(٣)</sup> والاجتماعية والإدارية<sup>(٤)</sup> ، فضلاً عن نشاطهم في الزراعة وتفوقهم على جيرانهم العرب في هذا المجال<sup>(٥)</sup> ، حتى بعد سقوط إمارتهم وخضوع ديار بكر للأتراك والسلجقة .

وقد بدأ هؤلاء يتذبذبون على المنطقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري ، واستقر قسم كبير منهم في ديار بكر ، كما استقدم مؤسسو الإمارات الأرتقية منهم عدداً كبيراً من مقاتلي التركان<sup>(٦)</sup> ، الذين حاربوا تحت قيادة الأرتقة

(١) انظر أمين ذكي ، تاريخ الكرد ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) للاطلاع على قيام تلك الإمارة ، وفعاليتها المختلفة بتفصيل انظر : القسم المنصور من كتاب تاريخ آمد وميافارقين لابن الأزرق الفارقي .

(٣) ابن العبرى ، مختصر ص ٤٣١ ، ٤٦٦ ، ابن خلدون ٥ / ٤٦٦ - ٤٦٧ ، رشيد الدين ، جامع التواریخ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

Cahen, La Syrie du Nord P. 190.

(٤) الفارقي ، تاريخ آمد ص ٢٤٩ - ٢٦٣ ، الكامل ٢١١/١١ ، ابن شداد ، سيرة ص ٤٦ ، ٤٧ ، ابن خلدون ٥ / ٥٨٣ .

(٥) أمين ذكي ، تاريخ الكرد ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٦) Cahen, La Syrie du Nord P. 190, Gibb, Damascus, P. 23, واقظر العيني ، الروض الراهن ص ٤ .

وكانوا يُكنون الطاعة المطلقة لهم ، فعوّل هؤلاء عليهم في تحقيق أهدافهم التوسعية في ديار بكر . وكان الأراطقة ينتمون إلى قبيلة تركانية غزية هي قبيلة الدقر Doger<sup>(١)</sup> ، التي لعبت دوراً هاماً في غزوات السلاجقة ، والتي استقر أهم فرع منها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري جنوبي الرها وحول قلعة جعبر على الفرات ، وكان زعيم هؤلاء في حدود عام (١٣٧١ = ٧٧٢ هـ). يدعى سالم الدوقي ، الذي لعب دوراً في الأحداث التي وقعت شمالي بلاد الشام ، وتوفي في نهاية القرن وترك ثلاثة أبناء خدموا المماليك في جهات الفرات ، واستفادوا من الفوضى التي أحدهما تيمور لنك في المنطقة ، واستولوا على بعض الواقع مثل سروج وحران والرقة ... وقد ساعدوها قبيلة القراقويين لو (الخروف الأسود) وزعيمهم قره يوسف في غزواته<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح إذاً أن الأراطقة ، باستقرارهم في ديار بكر وتأسيسهم إمارتهم هناك ، أصبحوا يمثلون الجناح المتحضر من قبيلة الدقر ، ذلك الجناح الذي اكتسب ، بفتحه على التيارات الحضارية والبشرية ، مميزات جديدة أفقدته طابعه الأصلي ، بينما مثل أتباع سالم الجناح البدوي الذي حافظ على مميزاته الأصلية .

ويشير كاهين إلى أن ديار بكر كانت إحدى نقاط البدء الكبيرة للهجرة التركانية الواسعة التي احتضنت في الفترة بين (١١٨٥ - ١١٩٠ م = ٥٨١ - ٥٨٦ هـ) معظم من كان في أواسط آسيا أو شرقها<sup>(٣)</sup> ، ومع ذلك فإن

(١) انظر F. Su mer, Oguzlarait destani mahiyette eserler, in Ank, un, DTCFD 405n. 171.

(٢) Enc. Isl. art. Diyarbaker, New ed. by: M. canard and c. cahen.

(٣) Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

وانظر عن الترك : أصلهم ، حضارتهم ، هجرتهم : الرزمي ، وقائع قران ٤/٦ ، فما بعد ، المروزي ، الصين (مخطوطة) ص ٢٦ - ١٧ ، الفزري ، تاريخ حلب ٣/١١٧ - ٥١ ، بارتلد ، الترك في آسيا الوسطى .

التركان لم يشكلوا الأغلبية الساحقة في الجهات التي استقروا فيها<sup>(١)</sup> . وتركز نفوذهم في الجهات الوسطى والجنوبية من ديار بكر ، بينما بقيت الجهات الشمالية تحت سيطرة أغلبية من الأكراد بشكل دائم<sup>(٢)</sup> . وقد بقي الترkan حتى النهاية عنصراً مهماً في نواحي الحياة المختلفة في ديار بكر<sup>(٣)</sup> . ومن جهة أخرى ، كان تدفقهم على المنطقة عاملًا من عوامل الاضطراب والقلق السياسي بما اشتهروا به من فروسيّة ورغبة في المخاطرات ، وزاد من ذلك ما اشتهر به قادتهم من الطيش والتّهور والمطامع السياسية<sup>(٤)</sup> وقد أدى قيام الإمارات الأرثقية إلى الحد من هذا الاضطراب ، إلا أنه لم يستطع إيقافه عند حده ، فضلاً عن أن توجيه الطاقات الترکانية الحربية ضد الأعداء والمنافسين خارج ديار بكر وبخاصة الصليبيين<sup>(٥)</sup> والبيزنطيين<sup>(٦)</sup> ، لعب دوراً كبيراً في تخليص ديار بكر من التعرض لكثير من الأعمال الحربية والتخربيّة على يد مقاتلي الترkan ، لتحقيق أطماعهم وطمئن حاجاتهم المعيشية .

وقد أدى خضوع جهات واسعة من شمالي ديار بكر للأكراد الأيوبيين في أواخر القرن السادس الهجري والنصف الأول من القرن السابع ، إلى تزايد

Cahen, *La Syrie dn Nord*, P. 190. (١)

Enc. Isl. art. Artukids, New ed. (٢)

*Ibid.* (٣)

(٤) العريني ، الحروب الصليبية ٢٢/١ ،

Gibb, *Damascus chron.* P. 23.

(٥) الكامل ٢٤٤/١٠ ، ابن خلدون ٣٢٨/٥ ، ٤٢٥ - ٤٢٦ وانظر فصل الأراثة والصلبيون .

Cahen, *Turkish Invations*, 1 P. 147. (٦)

Churanis : *The Byzantine Empire*, P. 191.

عدد الأكراد في المنطقة<sup>(١)</sup> . وقد كان توزيع السكان في ديار بكر وتركز الأكراد في الشمال أثر في تكهن الأيوبيين من السيطرة على تلك الجهات ، بينما بقيت الجهات الجنوبية ، التي قام أهاليها بساندة حكامهم الأراثقة ، بعيدة عن نفوذ الأيوبيين ، بالرغم من وجود عدد كبير من الأتراب في قواطعهم<sup>(٢)</sup> . وبالرغم من ذلك فإن الأراثقة لم يتبعوا سياسة ظالمة تجاه رعاياهم من الأكراد ، وبالرغم من أن علاقتهم مع بقایا الإمارات المروانية (الكردية) لم تكن طيبة . ولكن هذه المعاملة لم تمنع الأراثقة من ابتلاع الولايات الكردية ذات الاستقلال الذي في المنطقة<sup>(٣)</sup> .

وقد أدى وجود التركان والأكراد ، جنباً إلى جنب في ديار بكر ، إلى حدوث عدد من الفتن والحروب الأهلية بين الطرفين ، كتلك التي حدثت عام (٥٧٦ = ١١٨٠ م ) ، حيث تذابح الأكراد والتركان في الجهات الشمالية من ديار بكر<sup>(٤)</sup> ، وقامت فتنة أخرى عام (٥٨١ = ١١٨٥ م ) ، وشلت مناطق واسعة من الجزيرة والشام وشمالي العراق والأناضول ، ودامت عدة سنين «قتل فيها من الخلق ما لا يحصى» ، وتقطعت الطرق ونهبت الأموال وأريقت الدماء<sup>(٥)</sup> ... وشهدت نصيبين في تلك السنة مصادمات كثيرة بين الترك

(١) يشير البديسي (شرفنامة ص ١٧٤) إلى أن عدد القبائل الكردية الكبيرة التي قطنت حصن كيفا - على سبيل المثال - بلغت ثلاثة عشر ، ويورد أسماءها .

Enc. weN Isl. art. Artukids, ed. (٢)

Ibid. (٣)

Ibid. (٤)

(٥) الكامل ٢١١/١١ ، ابن خلدون ٥٨٣ هـ وانظر :

Enc. Isl. art. Artukids, New ed.

والأكراد ، وعدد كبير من القتلى من الفتنهين<sup>(١)</sup> . وقد أسمى تركان ديار بكر - أحياناً - في عرقه أعمال الأيوبيين العسكرية في المنطقة<sup>(٢)</sup> . كما كانت الفتنه تشار أحياناً من جانب واحد ، وذلك عندما كان الأكراد يقومون بغاراتهم المستمرة للنهب والسلب<sup>(٣)</sup> .

وقد استفاد بعض قادة التركان من العداء بين الأتراك والأكراد ، فاستغل الأكراد لتحقيق أطماعه السياسية<sup>(٤)</sup> . وبصورة عامة ، كان للحروب الأهلية في ديار بكر أثر في هجرة بعض تركان المنطقة الى جهات أخرى<sup>(٥)</sup> ، كما أنها أوضحت أن كلّاً من الأتراك والأكراد في ديار بكر كانوا يشكلان قوتين متكافتين لم تكن لأيٍ منها إمكانية القضاء الحاسم على الأخرى ، حق إن أمراء الأرaque وهم من التركان ، لم يستطيعوا وقف تلك المذابح ، وإيقاف الأكراد عند حدم<sup>(٦)</sup> . ولم يكن للعرب في المنطقة دور يذكر في تلك الحروب الأهلية بسبب ضعف إمكاناتهم البشرية والخربية بالنسبة للتركان والأكراد من جهة ، وانشغالهم بالأمور الإدارية والأدبية والمعاشية ، وتجمعهم في المدن وعدم اهتمامهم بالحرب والقتال من جهة أخرى .



(١) ابن شداد ، سيرة ص ٤٦ ، ٤٧ ، وأنظر ما سلف للاطلاع على استعراض لألم الفتنة في المنطقة .

(٢) الكامل ١٢/٧٤ ، أبو الفدا ، المختصر ١٠٨/٣ ، ابن الوردي ، تتمة ١٢٠/٢ .

(٣) ابن خلدون ٥/٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٤) ابن خلدون ٥/٤٦٦ - ٤٦٧ .

Enc. Isl. art. Artukids, New ed. (٥)

Ibid. (٦)

وما يقال عن العناصر التي قطنت ديار بكر في عهد الأرانتقة ، يقال عن الأديان والمذاهب التي انتشرت هناك . فقد شهدت المنطقة في هذه الفترة انتشار عدد كبير من الأديان والمذاهب ، وكان المسلمون واليسوعيون على رأس معتقداتها ، ولم يرد ما يشير إلى وجود عدد يذكر من اليهود ، ففي الإحصائية التي قدمها بنiamين التطيلي اليهودي لدى رحلته إلى المنطقة عام (٥٦١ - ١١٧٣ م ) ، إشارة إلى أن اليهود تركزوا في موقعين فقط من ديار بكر ، ففي نصبيين كان يقطن ألفاً يهودي تقريباً وفي رأس عين مائتان فقط <sup>(١)</sup> ، كما كان لهم في ميافارقين محللة تعرف بزقاق اليهود وكيسة خاصة بهم <sup>(٢)</sup> . ولم يكن في المنطقة مجوس ، وكان هنالك جماعة من الصابئين تركزوا في الرها وحران <sup>(٣)</sup> .

أما المسيحيون فكانوا ينتمون إلى طوائف عديدة ، كالنساطرة والسريان والرهبان الجرجان واليونانيين الروم والملكيانيين ، الذين انتشرت بينهم اللغة العربية لأنهم لم يكونوا من الفنسر اليوناني بل من السوريين الهمتين ، وهنالك الأرمن الجرجان واليعاقبة ، وكان لهؤلاء الآخرين عدد من الأساقة في الموضع التي تركزوا فيها من ديار بكر كاردين والرها وسروج وطور عدين ، وكانت العياقبة يشكلون أعداداً كبيرة في الجزيرة بصفة عامة ، ويعدون أكبر طائفة مسيحية في ديار بكر بشكل خاص . وهنالك – فضلاً عما سبق – المارونيون الذين بقوا على استعمالهم لغة السريانية ، والأرمن الكاثوليك الذين أقاموا لهم

(١) رحلة التطيلي ص ١٢٥ .

(٢) ياقوت ٤/٤ - ٧٠٧ ، لسترقج ص ١٤٤ .

(٣) البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٢ ، الفزوي ، تاريخ حلب ١/١٨٨ .

كنائس في جهات متفرقة من ديار بكر كإرزن وحرزم والرها وخرتبرت<sup>(١)</sup>. وبصورة عامة كان عدد المسيحيين في المنطقة كبيراً<sup>(٢)</sup>.

كانت بعض المواقع والقرى الاعمارية في ديار بكر خاصة ببعض الطوائف المسيحية ، كجبل جور الذي كان يقطنه نصارى أرمن ، وكان يرتبط به عدد من القلاع المجاورة<sup>(٣)</sup> ، وكقربي العقاب والجسر القربيتين من دنيسر<sup>(٤)</sup> . وكان جل أهالي طور عبدين من اليهودية<sup>(٥)</sup> . كما ازدادت كثافة المسيحيين في بعض المراكز مثل إرزن التي كان يقطنها اثنان عشر ألف مسيحي من الأرمن<sup>(٦)</sup> ، وحرزم القريبة من ماردين والتي كان الأرمن يشكلون أغلبيتها الساحقة<sup>(٧)</sup> ، كما كان المسيحيون يشكلون أغلب سكان الرها<sup>(٨)</sup> ، وجاء كثيراً من سكان

(١) ابن جبير ص ٢٢٠ - ٢٢١ ،

Cahen, la Syrie du Nord, pp. 191—192.

ابن شداد ، الأغلاق ، ورقة ٦٥ ب ،

Gibb, Damascus chronicle, P. 23.

و ٩٥ آ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطة ٦٤/٣ ) ،

Encyclopaedia of,

Islam, D'ohsson, Hist. des Mongols, 11/356, 2 ed.

سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٧٠/٨ ، اليونيفي ، ذيل مرآة الزمان ١٨٦/٣ - ١٨٧ ، الفارقي ، القسم المنشور ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ ، وانظر كتاب برصوم : تاريخ دير الزعفران وأبرشية ماردين .

(٢) ابن الوردي ، خريدة المجائب ص ٢٦ .

(٣) ياقوت ٢٠/٢ .

(٤) ابن جبير ص ٢٢٠ - ١٢١ . وانظر سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٦٧٠/٨ .

(٥) لسترنج ، بلدان ص ١٢٤ ،

Encyclopaedia of Islam.

(٦) البدليسي ، شرف ثامة ص ١٧٤ . وانظر ياقوت ١/٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٧) ياقوت ٢/٢٣٩ .

(٨) لسترنج ص ١٣٥ .

خرتبرت ، وفي ماردين نفسها كان يسكن عدد كبير من المسيحيين<sup>(١)</sup> .

لذا انتشرت مراكز العبادة المسيحية كالأديرة والكنائس والصومام في مختلف أنحاء ديار بكر ، وكانت تقام أحياناً في أماكن وعرة وتحاط بمحصون مانعة<sup>(٢)</sup> ، كما كانت لهم أديرة أخرى داخل المدن الشهيرة ، فكان في مدينة الرها وحدها حوالي ثلاثة عشرة كنيسة<sup>(٣)</sup> ، وكانت منطقة حصن كيما نضم كنائس عديدة<sup>(٤)</sup> ، وفي قلعة الإمرة بين ماردين ودير الزعفران كانت تقبع كنائس كثيرة ظهر منها جماعة من رؤساء الكهنة<sup>(٥)</sup> . وكان في جبل نصبيين عدد كبير من الأديرة والصومام<sup>(٦)</sup> وفي اسرعت كان يقبع دير احويشا وهو كبير جداً فيه أربعين راهب وحوله البساتين والكرور<sup>(٧)</sup> ، وكان في آمد غرب كنيسة عظيمة جليلة<sup>(٨)</sup> ، وفي ميافارقين بيعة تعود إلى عهد المسيح - كما يذكر المسيحيون - وأحد المزارات المقدسة لديهم<sup>(٩)</sup> .

---

(١) قاموس الأمكنة والبقاع ص ١٧٨ .

(٢) ابن شداد ، الأخلاق ، ورقة ٦٥ ب ، المعمري ، مسالك الأنصار ج ١ ص ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ياقوت ٦٩٧/٢ ، البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٦ .

(٣) ابن الوردي ، خريدة ص ٢٦ ، ابن شيخ الربوة ، منتخب الدهر ص ١٩١ ، أبو الفداء ، تقويم ص ٢٧٧ ، ابن الفقيه ، البلدان ص ١٣٤ ، القرماني ص ٤٥١ .

(٤) البشاري ص ١٤١ .

(٥) برسوم ، دير الزعفران ، هامش رقم ١ ص ١٣ - ١٤ عن ابن العبري ، تاريخ الدول السريانية ص ٣٠٨ . وانظر ما يلي من الفصل .

(٦) ياقوت ٦٦٣/٢ ، الاصطخري ، مسالك ص ٧٢ - ٧٣ .

(٧) ياقوت ٦٤١/٢ - ٦٤٢ .

(٨) لسترنج ، بلدان ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٩) المصدر السابق ص ١٤٤ ، ياقوت ٤/١٤٣ - ٧٠٧ ، القرماني ، تاريخ ص ٤٨٧ .

وكان أهالي ديار بكر قد اتخذوا بعض تلك الأديرة متنزهات لهم، يقضون في حدائقها وبساتينها أوقات فراغهم ويختبئون فيها خلال أعيادهم . وينذكر ياقوت أن دير الزعفران « كان ديراً نزّهاً لأهل الله فيه مشاهد »<sup>(١)</sup> ، وأن لدير مار توما القريب من ميافارقين « عيد يجتمع الناس خلاله إليه وهو مقصود لذلك ، وتنذر له النذور وتحمل له من كل موضع ويقصده أهل البطالة والخلاعة »<sup>(٢)</sup> .

وقد أسمى مسيحيو ديار بكر إلى حد كبير في النشاط الاقتصادي للمنطقة ولا سيما الزراعة وغدت قرام من أهم المراكز الزراعية هناك ، ويصف ابن جبير بعضها فيقول بأنها ذكرته « بقرى الأندلس حسنة ونضارة » وكانت تحفها البساتين والكروم وأنواع الأشجار » وكانت أراضيها واسعة قد انتظمتها البساتين<sup>(٣)</sup> . ويصف العمري بعض أديرتهم بأنها كانت محاطة بجذور ، فدير الزعفران المطل على نصيбин « فيه جنات حسنة نضرة ملوكه بشجر البندق والفسق... إلخ<sup>(٤)</sup> » ، وكانت تحيط بدير عمر أحويشا المطل على إرزن « بساتين وكرم وهو في نهاية العمارة والتزهـة وحسن الموقع وكثرة الفواكه والثمار<sup>(٥)</sup> »

— وانظر ، حول الأديرة الأخرى في المنطقة برسوم ، تاريخ دير الزعفران ، حيث يشير إلى أيام ما يزيد على الخمسة وعشرين ديراً وعدد من الأبرشيّات والكنائس والبيع ، البكري ، معجم ما استجمع<sup>(٦)</sup> - ٥٢٥ / ٥٢٧ - . وانظر ما يلي من الفصل .

(١) ياقوت ٤/٦٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٦٩٧ . ، القزويني ، ثار ص ٣٧٢ .

(٣) رحمة لبن جبير ص ٢٢١ .

(٤) مالك ص ٣٠٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٣١٠ ، ياقوت ٢/٦٤١ - ٦٤٢ وانظر : برسوم ، دير الزعفران ص ٦٨ - ١٤٩ .

وقد بذل رهبان الأديرة جهوداً كبيرة للإرواه فأنشؤوا الصهاريج التي يجتمع فيها ماء المطر ونقروها في الصخور<sup>(١)</sup> كـأقاموا الأرحـاء عند بعض المصادر المائية<sup>(٢)</sup>. وقد أدى هذا النشاط إلى ازدياد ثروة المسيحيين وإمكانياتهم المالية<sup>(٣)</sup> بسبب ما كانوا يتاجرون به من منتجاتهم ، فكانوا يحملون الخر الجيد إلى البلدان<sup>(٤)</sup> ، ويذكر العمري أن أكثر غنى رهبان دير الزعفران ، هو بسبب تجاراتهم بنبات الزعفران ذي الشعر الفائق ، وكذلك العسل<sup>(٥)</sup> . كما اهتم النصارى ببعض الصناعات المحلية ، ففي حرم اشتهروا بنسيج الفرانـد الحرزمية<sup>(٦)</sup> . ويشير كاهنـ إلى أن من أسباب تشابه العملـة الـأـرتـقـية بالعملـة البيزنطـية هو النفوـذ المـسيـحـي في المـناـطـقـ التي حـكـهاـ الأـرـاقـةـ<sup>(٧)</sup> .

وقد عـاملـ الأـرـاقـةـ رـعـاـيـاهـ منـ المـسـيـحـيـيـنـ معـالـمـةـ طـيـبـةـ وـتـسـاحـوـاـ مـعـهـمـ ،ـ بالـرـغـمـ مـنـ آـنـهـمـ لـمـ يـسـتـطـعـواـ اـتـخـاذـ أيـ إـجـرـاءـ ضدـ مـاـ لـهـمـ مـنـ أـضـرـارـ ،ـ مـنـ جـرـاءـ الفتـنـ وـالـقـلـاقـلـ الـيـ كـانـ الـأـكـرـادـ يـقـومـونـ بـهـاـ وـلـاـ سـيـاـ فيـ النـصـفـ الثـانـيـ مـنـ الـقـرـنـ السـادـسـ الـهـجـرـيـ<sup>(٨)</sup> .ـ وـهـنـالـكـ إـشـارـاتـ عـدـيـدـةـ إـلـىـ مـاـ كـانـ يـتـمـتـعـ بـهـ بـعـضـ رـجـالـاتـ الـمـسـيـحـيـيـنـ مـنـ مـكـانـةـ لـدـىـ الـأـرـاقـةـ مـنـهـمـ الـحـسـنـ بـنـ خـالـدـ بـنـ محـضـ

(١) العمري ، مـسـالـكـ صـ ٣٠٥ـ .

(٢) المصدر السابق صـ ٣١٠ـ .

(٣) الفارقي ، القسم المنـشـورـ صـ ٢٢٠ـ - ٢٢٢ـ ، ابنـ شـدادـ ، الأـعـلـاقـ ، وـرـقـةـ ٢٩٥ـ .

(٤) العمري ، مـسـالـكـ صـ ٣١٠ـ ، يـاقـوتـ ٦٤١/٢ـ - ٦٤٢ـ .

(٥) العمري صـ ٣٠٥ـ ، يـاقـوتـ ٦٦٣/٢ـ ، بـرـصـومـ ، دـيرـ الزـعـفـرـانـ صـ ٤٣ـ .

(٦) يـاقـوتـ ٢٣٩/٢ـ .

Encyclopedeia of Islam. (٧)

Ibid. (٨)

النصراني المارديني الملقب بالوحيد ، وكان قد واظب على الاشتغال بالعلم في أول شبابه ، وأتقن علم الأوائل وبرز فيه ، كا نظم الشعر ، وكان بينه وبين قطب الدين إيلغازي بن أرتقى ، أمير ماردین ، صحبة في عهد الطفولة فكان إيلغازي يعاتبه على الانقطاع عنه ويندبه لخدمته الى أن استجاب لدعوته وسرعان ما تقدم عنده « وصارت له المنزلة الرفيعة والاحترام والتقدم ». وسافر الى بغداد ثم عاد الى ماردین حيث توفي عام (١٢٠٣ هـ = ٦٠٠ م) <sup>(١)</sup> . كما قام الأراثقة بتولية بعض المسيحيين كبرى المناصب ، فكان وزير صاحب رأس عين نصريأ من آل عبدون <sup>(٢)</sup> . كما أنهم منحوا الاستقلال الذاتي لبعض المناطق المسيحية في إماراتهم <sup>(٣)</sup> .

وبالرغم من هذه المكانة التي حظي بها المسيحيون في ديار بكر ، والتسامح الذي عولوا به من قبل الأراثقة إلا أنهم لم يكفوا عن تدبير الدسائس ضد الأراثقة بالاشتراك مع ملوك أرمينية من الأرمن ، ولذا وقع هؤلاء المسيحيون فريسة لأعماهم ، وهكذا نجد أن العقاب الذي أُنزل بهم كان ذا طابع سياسي وليس بداع التعمصي <sup>(٤)</sup> . وقد لعب المسيحيون في ماردین دوراً خطيراً في سقوط هذه المدينة الحصينة بأيدي التتر عام (١٢٦٠ هـ = ٦٥٩ م) <sup>(٥)</sup> ، ولذا

(١) ابن الساعي ، المختصر ١٤١/٩ - ١٤٢ ، ابن كثير ، البداية ٤٠/١٣ .

(٢) برسوم ، دير الزعفران ص ٥٦ - ٥٧ .

Enc. Isl. art. Artukids, by cahen (New ed). (٣)

Ibid. (٤)

(٥) لدى هجوم التتر على ماردین اخذوا من الكنائس مراكز للاحتجاء قبل أن تعلن المدينة استسلامها وذلك « لباطن كان لأصحاب هذه الكنائس مع التتر » كما ذكر ابن شداد ، الأعلاق مخطوطه ١٣٧ آ - ب ) .

فإن التتر ، عندما أخضعوا ديار بكر لحياتهم ، عاملوا المسيحيين معاملة طيبة وإن كان بعض أخلاقهم قد أسوأوا - أحياناً - تلك المعاملة<sup>(١)</sup> . كما أن المسيحيين تعرضوا ، خلال الفترات المتأخرة من حكم الأرمنية ، لهجمات عديدة كانت تقوم بها عصابات من شمالي الشام بتوجيهه من المالك ما كان يؤدي إلى مقتل وأسر عدد من نصارى المنطقة ، فضلاً عن تحرير مزارعهم<sup>(٢)</sup> . وقد دمرت حروب تيمورلنك في ديار بكر عدداً كبيراً من الأديرة ولم ينج من غائلتها أكبر الأديرة كدير الزعفران القريب من ماردين وغيره<sup>(٣)</sup> .

استطاعت المسيحية في ديار بكر أن تحافظ على نشاطها طيلة الحكم الأرمني ، بفضل ما أقامته من تنظيمات دينية كنيسية أتاح لها الأرمنية حرية واسعة ولا سيما طائفة اليعاقبة التي غدت لها بديرية في المنطقة عدداً كبيراً من كبار الأساقفة . وكانت ماردين قد غدت منذ أواسط القرن السادس الهجري من أول الأبرشيات ، وديرها من أجل الأديار بفضل الإصلاحات الكنسية التي قام بها مار يوحنا الذي عينه البطريرك انطونيوس السادس مطراناً على ماردين لما يتمتع به من فضل ولباقة وذلك سنة (١١٢٥ م = ٥١٩ هـ) ، ومن ثم انهمك بالبحث ومطالعة الكتب الدينية والعلمية وبخاصة الهندسة والمساحة وذاع صيته في تحويل مياه العيون والأنهار . وسرعان ما تال الحظوة لدى أمراء المنطقة وحصل على ثروة طائلة أنفقها في الإصلاح الكنسي ، فقام بإنشاء وترميم عدد من الأديار والكنائس الخزنة ، وأقام لها الكهان والرهبان كما سعى لبناء

(١) Enc. Isl., art : Artukids.

(٢) اليوناني ، ذيل مرآة الزمان ١٨٦/٣ - ١٨٧ .

(٣) برسوم ، دير الزعفران ص ٤١ ، ٧٧ ، ٧٨ - (عن مخطوطات دير ما درمقوس عدد ٢٣٢ ) .

المعاهد الدينية والمكتبات وزودها بالكتب الدينية واللاهوتية المختلفة وأوقف لها الأوقاف . وعندما اطلع على ما لحق بالقوانين الكنسية من إهال منذ عهد بعيد ، أبدى همة كبيرة وجمع في ديره بمحما برئاسة إغناطيوس الثاني مفريات الشرق حيث قام الآباء بسن أربعين قانوناً عام ( ١١٥٣ م = ٥٤٨ هـ ) . وقد حضرت أبرشية يوحنا كلّاً من ماردين ودارا والخابور وكفرتوث وبعض الواقع المعاورة الأخرى ، وقد رسم لها سبعينات من القسس والشمامسة وتوفي يوحنا عام ( ١١٦٥ م = ٥٦١ هـ ) بعد أن جمل من دير الزعفران القريب من ماردين أملاً لأن يكون كرسى البطريركة<sup>(١)</sup> .

وعند ذلك أشار بعضهم على إثناسيوس السابع أن يتخد ماردين كرسياً للبطريركيته بدلاً من أنطاكية ، فوافق على ذلك ولكنه توفي في العام التالي ، فتم ذلك على يد خليفته ميخائيل الاول الذي انتقل الى ماردين حيث احتفل بخلوسه على الكرسي البطريركي ، وخطب ابن الصليبي العلامة خطبة بليفة بالسريانية<sup>(٢)</sup> وكان ذلك يوماً مشهوداً من أهم الأيام التاريخية التي شهدتها المنظيمات الكنسية في المنطقة . ولكن ميخائيل لم يتخد من ماردين مقراً دائمياً له واكتفى بالتردد اليها في السنوات ( ١١٧٠ م = ٥٧٠ هـ ، ١١٧٢ م = ٥٦٦ هـ ، ١١٧٤ م = ٥٧٠ هـ ، ١١٨٥ م = ٥٨١ هـ ) وكان يستقلل أعباء هذه الابرشية فأقام فيها نائباً عنه أخيه المطران صليبيا ، ثم رسم لها المطران يوحنا موريانا ، ثم عهد بها الى ابن أخيه المفريان غريغوريوس . وبعد وفاة ميخائيل عين ابن أخيه بطريركآ دخيلاً سنة ( ١٢٠٠ م = ٥٩٧ هـ ) وقد استمر هـذا ، والبطاركة

(١) برسوم ، دير الزعفران ص ٥٣ - ٥٦ - ٦٠ ، ٥٨ ، ٥٦ - ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٨ - ٧٠ ، ٧٧ .

(٢) نشرها الأب شابو ونقلها الى الفرنسية : باريس سنة ١٩٠٠ م.

الذين أعقابوه ، على اتباع سياسة سلفهم في التنقل بين ماردين وملطية وسيس وضواحيها ، وقد بقي بعضهم في ماردين مدة لا يأس بها ، كإثنايسيوس الثامن الذي أقام فيها مدة سنتين ، ويوحنا بن المدuni ، وبعضهم الآخر اكتفى بالزيارات العابرة كيوحنا الثاني عشر وإغناطيوس الرابع ، وكانت ماردين تدار في فترات تفيف هؤلاء من قبل الكرسي الاسقفي . واستمر الوضع على هذا النظام حتى كان عام ( ١٢٩٢ م = ٦٩٢ھ ) ، حيث توفي البطريرك فلوكسين غرود وأعقب وفاته انشقاق كنسى حيث جلس ثلاثة بطاركة وهم ميخائيل في سيس وقسطنطين في ملطية وإغناطيوس بن وهيب في ماردين ، وكان جلوس هذا في غرة كانون الثاني عام ( ١٢٩٣ م = ٦٩٣ھ ) ، ومن ثم أصبحت ماردين كرسياً بطريركياً فعلياً لا سيما بعد أن قام مفريان الشرق بالخطبة لبطريركها سالف الذكر ، وعين خلفه مق الأول . ومن ثم استمرت ماردين مقراً بطريركياً طيلة عهد الاراقنة مما كان له أثره الفعال في نشاط المسيحية في المنطقة طيلة تلك الفترة واتساع مؤسساتها الكنسية<sup>(١)</sup> .

كان دير الزعفران في ماردين هو المقر الذي اتخذته البطريركية كرسياً لها ومن ثم شهد نشاطاً دينياً واسع النطاق ، وعقد فيه عدد من الجامع الانتخابية وأهمها ما تم في عهد الاراقنة : الجموع الاول حيث انتخب اغناطيوس مطراناً لماردين سنة ( ١٢٩٣ م = ٦٩٣ھ ) والجمعة الثاني عام ( ١٣٣٣ م = ٧٣٤ھ ) حيث اختير إياونيس إسماعيل مطراناً آمداً والمتاخ . والجمعة الثالث عام ( ١٣٣٦ م = ٧٣٧ھ ) ، وفيه قدم باسيليوس شهاب مطران ملطية فطرركاً . والجمعة الرابعة ( ١٣٨١ م = ٧٨٣ھ ) ، ويقال إنه عقد في آمد حيث

(١) برصوم ، دير الزعفران ص ١٠٠ - ١٠٣ .

انتخب قورلس إبراهيم بن غريب مطراناً لآمد<sup>(١)</sup> . كما تم في هذا الدير عقد المفريانية لفالب أخبار المشرق وأولهم غريفوريوس مقا الأول سنة (١٣١٧ م = ٦٧١ هـ)<sup>(٢)</sup> كا تخرج منه عدد كبير من الكهنة لاسيما بعد أن أضحي كرسياً بطريركياً وكان جلهم من العلماء والادباء المتمكنين الذين اسهموا في النشاط الثقافي الكنسي بمحظ وفير<sup>(٣)</sup> . وكان دير الزعفران ، فضلاً عن ذلك مؤسسة لطبع عدد كبير من المطاراتنة والأساقفة المشهورين ، الذين شغلوا مناصب دينية هامة في ديار بكر والجزيرة والشام<sup>(٤)</sup> ، وقد دفن في هذا الدير عدد من الآباء من بطاركة أنطاكية وماردين ومن المطاراتنة الآخرين ، طيلة العهد الأرتقي<sup>(٥)</sup> .

وفضلاً عن الجامع الانتخابي السالف ، شهد دير الزعفران - طيلة الحكم الأرتقي - عدداً آخر من الجامع العامة التي اتخذت فيها قرارات على درجة كبيرة من الأهمية وسنت قوانين كنسية عديدة ، وأهم تلك الجامع ، الجامع الأول عام (١١٥٣ م = ٥٤٨ هـ) ، الذي عقده يوحنا الرابع مطران ماردين ، حيث جدد الآباء خلاله القوانين الرسولية ووضعوا أربعين قانوناً في الأسرار الدينية والوعظ وتعليم السريانية وإنشاء الملاجئ للفقراء والفرباء . والجامع الثاني الذي عقد عام (١١٦٦ - ١١٦٧ م = ٥٦٢ - ٥٦٣ هـ) ، برئاسة

(١) المصدر السابق ١٠٤ ، وكان انتخاب البطاركة يتم برخصة من الأرتقاء :

Enc. Isl. art. Artukids.

(٢) دير الزعفران ص ١١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٠ - ١١١ .

(٤) برسوم ، دير الزعفران ص ١١٨ - ١٢١ . وانظر حاشية ابن الساعي ، المختصر ، رقم ١ ص ١٤١ تعليق الأب انستاس ماري الكرملي .

(٥) المصدر السابق ص ١٢٧ - ١٢٩ .

البطيريك ميخائيل الأول حيث تم سن تسعه وعشرين قانوناً . والجمع الرابع عام ( ١١٧٤ م = ٥٧٠ هـ ) برئاسة ميخائيل ، حيث تم وضع ستة وثلاثين قانوناً ، وتقرر أن تكون إقامة رئيس الدير المذكور بأمر المفريان ، وأن يخضع هو ورهبانيه له في كل شيء ، كما حلت في هذا الجمع بعض الاشتباكات والخلافات الكنسية . والجمع السادس ( عام ١٣٠٣ م = ٧٠٣ هـ ) برئاسة البطيريك إغناطيوس بن وهيب ، حيث تم سن عشرة قوانين حول اجتماع الأساقفة السنوي ونظام الكهنة وخدمة الهياكل والصلوة وغير ذلك<sup>(١)</sup> .

وقد رافق هذا النشاط الكنسي عمليات إنشاء وإصلاح عمراني واسعة الطاق لعدد كبير من الأديرة في ديار بكر خلال العهد الأرتقي ، على يد كبار المسؤولين الدينيين هناك ، ومن أشهر تلك الأديرة : دير مار اسطفانوس شمالي ماردين ، دير مار جرجس على جانب سور ماردين ، دير مار الياس النبي في حلف جبل ماردين ، دير مار إباهي ومارتا ووطا شرقي قلعة الصور ، دير مار حنانيا قرب ماردين ، دير العذراء قرب قلعة الصور ، دير إثنايسيوس السندي فوق تلّبسم ، دير مار دانيال المشرف على قلعة البارعية ، دير مار برصوم قرب ماردين ، دير الشميطيين إلى جانب تلّبسم ، وعدد آخر من الأديرة<sup>(٢)</sup> . كما تم تشييد ما يزيد على المائة كنائس والأربع وعشرين بيعة خلال هذه

(١) المصدر السابق ص ١٣٣ - ١٣٠ ( عن نسخة قديمة في طور عبدين ) وانظر الصفحات ١٦٤ - ١٦٩ من نفس المصدر ( نقلًا عن النسخ الخطية للرهاري وميخائيل ) للاطلاع على تفاصيل تطور أبرشية ماردين في عهد الأراتقة وقائمة المطارنة الذين تعاقبوا عليها طيلة تلك الفترة .

(٢) برصوم ، دير الزعفران ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ - ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٣ - ٤٦ .

الفترة<sup>(١)</sup> ، هذا فضلاً عن الإصلاحات الواسعة التي أجريت على دير الزعفران في ماردين والتي أهلته لأن يكون كرسى البطريركية<sup>(٢)</sup> . وقد أوقفوا هذه الأديرة والمؤسسات الدينية عدداً كبيراً من مراافق الوقف لسد حاجات أهلها وضيوفها ، وقد ازدادت هذه الأوقاف إثر انتقال كرسى البطريركية إلى ماردين ، وأصبحت تشمل رحى عديدة وأراضي واسعة مغطاة بأشجار الفاكهة والكرم التي عمل البطاركة على تشجيع زراعتها . كما كانت الضرائب والرسوم تجمع لهذه المؤسسات كالعشور ، وهي الحقوق الشرعية التي تجمع منسائر الأبرشيات ، وكما وُزنة التي تجمع من ماردين وبعض نواحيها ، وهي عادة قدية<sup>(٣)</sup> .

أسممت المؤسسات الكنسية خلال العهد الأرتقى بنصيب وافر في الحركة الثقافية التي ازدهرت في ديار بكر آنذاك فألف رجال الدين المسيحيون الكتب واستنسخوها وجمعوها<sup>(٤)</sup> ، وأنشؤوا المكتبات والمعاهد الدينية في أماكن عديدة من ديار بكر ، وقد ضمت تلك المكتبات بشكل خاص الكتب المقدسة وكتب الدين والمنطق واللاهوت والفلسفة والهيئة ، فضلاً عن الكتب الأدبية والتاريخية والعلمية<sup>(٥)</sup> . وكانت مكتبة دير الزعفران تضم عدداً كبيراً من الكتب ، ولكن الفتن والأحداث التي شهدتها المنطقة أدت إلى ضياع

(١) المصدر السابق ص ٦٨ - ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ - ١٥١ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٥ هامش ١ ، ٥١ - ٤٩ ، ٧١ ، ٧٥ - ٧٧ ، ٧٨ - ٧٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ - ١٤٦ ، ١٦٩ ، ١٤٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٣ - ٥٦ ، ٧١ ، ٥٦ - ٧٧ ، ٧٥ - ٧٧ ، ٧٨ - ٧٨ ، ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٦ .

معظمها<sup>(١)</sup> ، ومع ذلك فقد بقي فيها لحد الآن نيف وثلاثة مجلد مخطوط سرياني وعربي تشمل المواضيع الفقهية واللغوية واللاهوتية والنحوية والطقوسية والأدبية والنسكية والتاريخية وغيرها من تأليف عدد من كبار العلماء من السريان والأقباط والنساطرة<sup>(٢)</sup> .

وقد لعبت المناقشات الدينية في المنطقة ، والجهات المجاورة ، دوراً هاماً في الحركة الثقافية وتأليف الكتب الجدلية واللاهوتية وعقد الجامع الثقافي ، مما تحفل بتفاصيلها مكتبات الأديرة في المنطقة<sup>(٣)</sup> . وقد قامت هذه النهضة العلمية على أكتاف عدد من كبار العلماء الذين تخرجوا من المؤسسات الدينية في المنطقة والذين لم يصرفوا اهتمامهم نحو العلوم اللاهوتية فحسب ، بل اهتموا كذلك بالأداب والعلوم التطبيقية والفنون واللغات ( وبخاصة السريانية ) ، والتاريخ والفلك<sup>(٤)</sup> . وأبرز الأمثلة على ذلك أهمية تطلع مار يوحنا بعلوم الهندسة والمساحة وذبوع صيته في مجالات الري مما أكسبه الحظوة لدى أمراء المنطقة وهيأ له ثروة طائلة<sup>(٥)</sup> .

### وهكذا أتاحت الأرائقة لسيحيي المنطقة فرصة ذهبية للنشاط الديني والكنسي

(١) وبخاصة المجمع الذي قام به تيمورلنك على المنطقة خلال عامي ٧٩٦ و ٨٠٣ هـ . والذي أدى إلى تدمير المؤسسات الدينية وضياع الكتب الثمينة : المصدر السابق ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) برصوم ، دير الزعفران ص ١٤٤ - ١٤٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٩ - ٤٥ - ٧٥ - ٧١ ، ٥١ .

(٤) المصدر السابق هامش ١ صفحات ٤٥ - ٥٣ ، ٥٦ - ١١٠ ، ١١١ - ١٣٦ ، ١٣٩ - ١٦٨ ، ١٦٩ ، مجلة الشرق المسيحي ١٠ / ٤١ - ٣١٧ ، الآداب السريانية ص ٣٩٨ ، التراجم السنوية ص ١٥١ - ١٧٠ ، ابن الساعي ، المختصر حاشية رقم ١ ص ١٤١ . تعليق الأب انتناس الكرملي .

(٥) برصوم ، دير الزعفران ص ٥٣ - ٥٦ .

والثقافي ، مما أدى إلى نمو واتساع مؤسساتهم الدينية ومعطياتهم العلمية في جو من الحرية وعدم الاضطهاد بشكل لم يشهده هؤلاء في بلاد أوروبا نفسها حيث يسود التعصب الديني وتنتشر الفتن المذهبية .

★ ★ \*

وبالرغم من ظهور طوائف عديدة بين المسلمين في ديار بكر في عهد الأراطقة كالسنة والشيعة والباطنية ... الخ إلا أن التزام الأراطقة بالمذهب السنوي وجود أكثريه سنوية ساحقة من أهالي المنطقة<sup>(١)</sup> قلل إلى حد كبير من أهمية الطوائف الأخرى وأدى إلى القضاء على بعضها الآخر قضاءً نهائياً . وقد سلك الأراطقة سبيل أسلافهم السلاجقة في الدفاع عن المذهب السنوي وتشييط مؤسسه الدينية والفكرية شأنهم في ذلك شأن معظم الإمارات والدول التركية والكردية التي قامت حينذاك في العالم الإسلامي<sup>(٢)</sup> .

وبالرغم من اعتناق الأراطقة المذهب الحنفي أسوة بالسلاجقة إلا أنهم لم يتبعصوا له ، وقاموا بإنشاء عدد كبير من المدارس خصص معظمها لتدريس

---

١ - البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٢ .

( ) بارتولد ، الترك ص ١٠٨ - ١٠٩ ،

Wiet : Le Egypte Arabe P. 330.

ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوطه ٧٧/٢ - ٧٨ ) .

و حول موقف السلاجقة عامه من السنة انظر :

C. Cahen : Turkish Invasion P. 144—145.

البريني ، الحروب الصليبية ٢ - ٤ ، ٣ - ٥ .

وانظر ما سلف من الفصل حول اهتمام الأراطقة بالمؤسسات سالفة الذكر .

المذاهب الثلاث الأخرى ، فضلاً عن الحنفية ، وبخاصة الشافعية<sup>(١)</sup> ، وربما كان ذلك بسبب اعتناق رعاياهم تلك المذاهب ، ولا سيما الشافعية التي راجت على أيدي الأكراد والأيوبيين كأن الأراطقة عينوا في المناصب القضائية قضاة من شرق المذاهب ، حق إن سقمان بن أرتق اضطر إلى عزل قاضيه على القدس البلاساغوني الحنفي ، بسبب تعصبه ضد المذاهب الأخرى<sup>(٢)</sup> . وقد تمكن الأراطقة بهذه السياسة أن يدعموا القوى السنوية في المنطقة وأن يكسبوا رضى رعاياهم ، بحيث إننا لم نسمع عن أية فتنة أو تمرد قام ضدهم من قبل القوى السنوية في ديار بكر ، فيما عدا فتن الأكراد التي لم تكن بدافع مذهبي على الإطلاق .

وبالرغم مما سبق فإن بعض حكام الأراطقة انساق وراء بعض المذاهب الفلسفية والكلامية المتطرفة<sup>(٣)</sup> ، إلا أن هذه المحاولات كانت محدودة ولم تلق أي تشجيع يذكر ، وبقيت الفاعلية العظمى من حكام الأراطقة على تسكمها وتشجيعها للذهب السنى .

وفي هذا الجو الملائم ظهر على مسرح ديار بكر عدد من المتصوفة والطرق الصوفية والشيوخ ، لقوا تشجيعاً كبيراً من أهالي المنطقة وحكامها الذين بنوا

(١) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٣٠ ب ، قسم حلب (المنشور) ص ٩٦ - ٩٧ .  
وانظر قسم دمشق (المنشور) ص ٢٢٢ ، ابن العديم ٢١٠/٢ ، ابن الشحنة ، المنتخب من ، ١٠٩ .

(٢) انظر ما سلف من الفصل .

(٣) Enc. Isl. art: Artukids.

ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٤ .

هم الربط والخالقات <sup>(١)</sup> ، فالتف الناس حولهم وافتنتوا بهم وراجت على الألسنة كرامات هؤلاء الشيوخ ومعجزاتهم وخوارقهم ، وأشهر هؤلاء الشيخ حسن بن السيد عبد الرحمن الذي نزح إلى ماردین من الشام وانصرف إلى الزهد والتقوى ، مما أدى إلى أن يجتمع حوله سكان ماردین ، ولا سيما وجهاؤها وأعيانها ، ويعتقدون فيه الخير والصلاح ، واتفق أن ابنته أمير ماردین آنذاك <sup>(٢)</sup> بمرض السوداء (الماليغوليما) حتى كاد يؤدي بها إلى الجنون ولم تُجدها معالجة الأطباء . وأخيراً أوفد من يأتيه بالشيخ حسن وطلب منه أن يكتب لها (حرزاً) فقتل الشيخ بعض التعاويذ والرقى على جرعة من الماء ورشها عليها فسببت أنقاضه الطاهرة شفاءها العاجل ، فرغب الأمير بتزويمه منها مكافأة له فرفض ، فتزوجها ابنه وأنعم عليه بإحدى المقاطعات حيث ظل هو وأحفاده يحكمونها من بعد <sup>(٣)</sup> . ومن هؤلاء الشيوخ الذين شهدهم ديار بكر : سلطان العلوی الاسعردي الذي وصل إلى مifarاقين سنة ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م ) فخرج الناس للقائه ، واستقبله الأمير حسام الدين . ترثاش وحاشيته « وكان فيه من العلم ما لا يوصف . وقد اتجه إلى الجامع ووعظ الناس وكانت يوماً مشهوداً وافتتن به الناس » ، وبلغ من ترثاش منزلة عالية وأسكنه معه في قصره . وكان مقامه حيث أقام الأمير ، وكان إذا دخل الأمير لا يقوم له ،

(١) ابن جبير ، رحلة ص ٢٢٦ .

(٢) يحيطى البديسي الذي أورد هذه الرواية في الشرفنامة ، غالباً في ضبط الأعلام والتاريخ فيقول مثلًا بأن أمير آمد وماردين آنذاك كان أرتقى بن أكسب ، بينما كان هذا قد توفي قبل أن تفتتح هذه الواقع تحت سيطرة أبنائه .

(٣) البديسي ، شرفنامة ص ٢٤٤ ، ٢٥٢ . وفي الرواية تفاصيل أخرى أعرضنا عن ذكرها لما فيها من أخطاء تاريخية واضحة ، وانتظر هذه الأخطاء ، كذلك ، نفس المصدر ص ١٩٨ - ١٩٧ .

وتحكم على الامراء أوفى تحكم<sup>(١)</sup> ، وما لبث أن قتل على يد اثنين من الإسماعيلية في ربيع الاول عام (١١٥١ = ٥٤٦ھ) ، وألقى القبض على قاتليه وأعدما<sup>(٢)</sup> .

ومنهم الشيخ محمد بن السباع ، الذي كانت له زاوية الى جانب مسجد الخضر في حصن كييفا ، يصفه ابن منقد بأنه رجل من الأولياء ، وأن كرامات عديدة حدثت على يديه ، وأن أكبر حصن كييفا كانوا يتقررون اليه ، حتى إن أحدهم بنى له زاوية في بستان وهب له<sup>(٣)</sup> . ومنهم الشيخ يونس بن يوسف الشيباني القنوي – نسبة الى القنية وهي قرية في نواحي ماردين – وهو شيخ الطائفة اليونسية الذين يصفهم ابن العياد بأنهم « أولى الشطح وقلة العقل وكثرة الجهل وكان الشيخ صاحب حال وكشف وكرامات »<sup>(٤)</sup> . ورافق كل ذلك قصصاً كثيرة عن الجن لقيت رواجاً لدى أهالي المنطقة<sup>(٥)</sup> وارتقت مكانته المنجمين<sup>(٦)</sup> .

وقد حاول الباطنية (الإسماعيلية) أن ينشروا دعوتهم في ديار بكر منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، وقضى داعييهم الحسن بن صباح فترة من الوقت داعياً في ديار بكر الى مذهب الباطني<sup>(٧)</sup> . ومن ثم تمكن دعوة

(١) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٥ ب - ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) الاعتبار ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٤) شذرات الذهب ٥/٨٧ .

(٥) اليونيفي ذيل مرآة الزمان ٣٠٩/٣ - ٣١٠ وانظر القرمانى ، تاريخ ص ١٨٤ .

(٦) ابن شداد ، الأعلاق ، ورقة ١٢٤ ب - ١٢٥ .

(٧) القلقشندي ، صبح الأعشى ط ٢ ، ١٢٠/١ .

الباطنية هناك من تحقيق نجاح كبير بسبب كثرة دعائهم وتحمسهم<sup>(١)</sup> . إلا أن ازدياد عدد هؤلاء في بعض مناطق ديار بكر استفز السكان فشاروا ضدّهم وقضوا على نشاطهم ، كما حدث عام (١١٢٤ = ٥١٨ م) حينما ثار أهالي آمد على من بها من الباطنية الإسماعيلية « وكانوا قد كثروا »<sup>(٢)</sup> فقتلوا منهم حوالي سبعمائة رجل فضعف أمرهم إثر هذه الثورة<sup>(٣)</sup> .

وقد اتبّع الأراقة إزاءهم سياسات مختلفة فوقف بذلك بن بهرام منهم موقفاً صلبياً حتى إنه ألقى القبض على نائب بهرام داعي الباطنية في حلب في أواخر ذي القعدة من عام (١١٢٣ = ٥١٧ م) ، كما أمر بإخراجهم من حلب فباعوا أموالهم ورحّلهم وخرجوا منها<sup>(٤)</sup> . ويبدو أن القوى الإسماعيلية اقتربت من نهايتها في حلب إثر هذا الإجراء<sup>(٥)</sup> . أما إيلغازي فقد تجنب الشاحن منهم ، واتبع إزاءهم أسلوباً دبلوماسياً وبذا جنب نفسه عناء الاصطدام بهم<sup>(٦)</sup> ، فضلاً عن أنه حاول استئصالهم للإفادة منهم في تحقيق أهدافه ، ولذا عول هؤلاء عليه واتخذوه سندأ لهم . ففي عام (١١١٩ = ٥١٣ م) ،

C. Cahen, *La Syrie du Nord*, P. 191. (١)

(٢) الكامل ٤٣٨/٢.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة ، ابن الجوزي ، المنظم ٩/٤٩ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/١١٣ ، ابن كثير ، البداية ١٢/١٩٤ ، ابن الفرات ، تاريخ ( مخطوط ) ، ابن قاضي شيبة ، السيرة التورية ( مخطوطة ٥٩ ) ، ٢/٨٩

B. Lewis: *The Ismailites and Assassins*, estton 1114—1115.

(٤) ابن العدم ، زينة الطلب ٢/٤١.

B. Lewis, *The Ismailites*, 1114—1115.

B. Lewis. Ibid. (٥)

(٦) ابن القلنسى ، دمشق ص ٢١٥ ، الكامل ١٠/٤٢١

B. Lewis, Ibid.

عندما نفي زعيمهم سعيد بن بادي من حلب ، من قبل أميرها المتهور ألب أرسلان ، قرر الهرب الى إيلفازي في ماردين ليرجوه العمل على إعادته الى حلب ولكنه قتل في الطريق . وفي السنة التالية أصبح الباطنية ثانية على درجة من القوة أتاحت لهم مطالبة إيلفازي بمنحهم قلعة الشريف الصغيرة القريبة من حلب ، ولم يكن إيلفازي يرغب بالتنازل عنها لهم ، ولكنه خاف في الوقت نفسه نتائج رفضه ، فقرر اتباع الحيلة وأعلن عن رغبته في تدمير القلعة بسرعة ، بحتجأً بأنه اتخذ هذا القرار منذ السابق ، وأنه يخاف استيلاء الصليبيين عليها لقربها من مواقعهم ، وقد قام القاضي ابن الخطاب بتخريبيها<sup>(١)</sup> . وكان هذا سبباً في قتله على يد الإسماعيلية فيها بعد<sup>(٢)</sup> .

وبالرغم من ذلك فقد دأب إيلفازي على سياسة المرنة تجاههم حتى إنه توسط لدى طفتكين حاكم دمشق لقبول إقامة بهرام داعي الباطنية في دمشق ، وكان هذا قد أتى من بغداد الى الشام وأصبح داعي الإسماعيلية هناك وأخذ يتنقل في البلاد ، ويدعو أبواب الناس الى مذهبة فاستجاب له عدد كبير وكثير جمعه ، وكان ينفي اسمه الحقيقي . وما لبث أن أقام في حلب فترة من الوقت في عهد إيلفازي الذي لم يقم بأية محاولة لإيقاف نشاطه بل على العكس ، حاول أن يصطنهه ويعتصد به ليتخلص هو وأهالي حلب بذلك من مكانه بهرام وأصحابه الذين دأبوا على اغتيال كل مخالف لهم . وتذكرن إيلفازي أخيراً ، وبعد مراسلات طويلة مع طفتكين من إقناع الأخير بالسماح لبهرام بدخول

(١) ابن الفرات تاريخ ( مخطوطة ٤٠ - ٤٩/٢ )

Enc. Isl., art : Artukids.

B. Lewis, Ibid.

(٢) ابن الفرات تاريخ ( مخطوطة ٤٠ - ٤٩/٢ ) .

دمشق بمحجة أن ذلك سيخلص طفتكين من نعمة الباطنية ويكتبه معاضدهم<sup>(١)</sup> وهكذا ظهر بهرام في دمشق في نهاية عام (٥٢٠ = ١١٢٦ م)<sup>(٢)</sup> مع رسالة توصية من إيلغازري فاستقبل بحفاوة ومنح الحماية . ويضع ابن الأثير لومة، إزاء المشاكل التي أحدها بهرام في دمشق، على عاتق طفتكين وإيلغازري بالذات الذي أباح لبهرام ، لدى إقامته في حلب ، إتصالات واسعة النطاق<sup>(٣)</sup> . ولم يرد بعد ذلك ما يشير الى وجود نشاط ملحوظ للباطنية في إمارات الأرaqueة، ولا الى طبيعة الموقف الذي اتخذه هؤلاء ضدهم ، فيما عدا عملية اغتيال لأحد الشيوخ المقربين لدى حسام الدين على يد اثنين من الإسماعيلية اللذين تم القبض عليهما وأعدما<sup>(٤)</sup> .

وظهر في ديار بكر بعض التشيعين ، ويعود ظهورهم هناك الى فترة متقدمة<sup>(٥)</sup> وقد غالى بعضهم في تشيعه<sup>(٦)</sup> ، وتعيز الآخرون بالاعتدال في حبهم لآل البيت رضي الله عنهم . وأبرز من يمثل هؤلاء الشاعر الديار بكري المشهور يحيى بن سلامة الحصكفي ، الذي برع في فنون عديدة ولا سيما الشعر ، وله مدائح في أهل البيت ، وقد زار بغداد ، وتوفي في ميافارقين عام (٥٥٣ =

(١) ابن القلاسي ، دمشق ص ٢١٥ ، الكامل ١/١٠ . ٢٤١

(٢) B. Lewis. The Ismailites 1/116.

وانظر في هذا المجال

Defremery, Ismael Liens de Syrie, J. A. 111/398—408.

Qnatremere, Notice Historique surles Ismaeliens, P. 345—349, C. Cahen, La Syrie du Nord, pp. 347—348 and Note 2 p. 348.

(٣) الفارقي ، تاريخ آمد ، ورقة ١٢٥ ب - ١٢٦ .

(٤) البشاري ، أحسن التقاسيم ص ١٤٢ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ١٨٣/١٠ - ١٨٨ .

(١) م ١١٥٨ = إلا أن نشاط هؤلاء جميعاً كان محدوداً ولم يشكروا قوة مذهبية تذكر في ديار بكر ، فضلاً عن أن تمسك حكام الأرانتقة بالسنة سد الطرق على نشاط الشيعة . وقد تكون هؤلاء الحكام ، خلال الفترة التي حكموا فيها حلب ، أن يقفوا بوجه النفوذ الشيعي المتزايد فيما آنذاك وبنوا عدداً من المدارس لتعضيد الاتجاهات السننية ، رغم المعارض الشديدة التي جوّهوا بها من قبل المدد الكبير من سكان حلب المتشيعين (٢) .



تميزت حياة الأرانتقة الاجتماعية باهتمامهم بالخلافات العامة ووسائل المواجهة ، فاتخذوا المفنيين والموسيقيين والجواري ، وقاموا برحلات خاصة للصيد ، وأقاموا الاحتفالات في المناسبات والأعياد (٣) . ويذكر المقرizi أن صاحب ماردين قام بشراء جارية جنكيّة من بلاد التتر في المشرق من اللواتي ي bindActionCreators على الجنك (٤) وبذل على ذلك أموالاً طائلة ، وعندما سمع سلطان

(١) الكامل ٩٧/١١ ، سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ٢٣٢/٨ ، ابن الوردي ، تمتة ٦٠-٥٩/٢ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق (قسم حلب) ص ٩٦ - ٩٧ ، ابن الشحنة ، المنتخب ١٠٩ ، ابن الفرات ، تاريخ (مخطوطة ٤٩/٢) ، الطباخ ، تاريخ حلب ٤٤٥/١ - ٤٤٦ .

(٣) انظر ديوان صفوي الدين الحلبي ، محمود رزق سليم ، صفوي الدين الحلبي من ٢٦ ، ٢٧-٢٦ ، ٣٦ ، ٣٧ - ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ - ٥١ ، ٥٢ ، ٦٧ .

(٤) آلة موسيقية محدثة اخترقت العجم منها بما لم يعهد العرب (العمري) ، التعريف من ٢١٥ . وأصل اللفظ فارسي معرب (محبط المحيط) ولا يشترط في الجنكي الضرب على الجنك فحسب وإنما على غيرها من الآلات الموسيقية أيضاً . وقد أطلق لفظ الجنكي أيضاً في عصر الماليك حل رقصات المنتديات والأفراح ، وجمه جنك ، وكان أولئك الرقصاصون من غلامان وشباب الأرمن والميهود واليونان والترك ، وبعض ثيابهم من لباس الرجال وبعضها من لبس النساء وكانت يرسلون شعورهم ويضفرونها : Dozy : sup. (السلوك للمقرizi ، حاشية رقم ٤٢٥/١٢ ، ٣) .

مصر بذلك أرسل الى صاحب ماردين عام (١٣٢٣ = ٧٢٣ م) . يطلب منه إرسالها اليه . وقد حاول هذا أن يخدع السلطان بإرسال جارية غيرها ، ولكن ذلك لم يخف عليه ، وأرسل ثانية الى صاحب ماردين يقول « مق لم يبعث بالجارية خربت ماردين على رأسه » فلم يجد هذا بدأ من إرسالها ، ومن ثم أئم الماردانيين ، أحد ندماه الملك الصالح في ماردين ، وكان قد انتهى المفني الجنكلي المارداني ، إليه حسن الطرف بالجنك العجمي ، وعندما سمع به الناصر قلاوون سلطان مصر أرسل يستدعيه فتوجه إلى مصر ولزم تعلم الجواري وخرج الكثيرات منه . وكان يتوجه من آن لآخر إلى ماردين ، فيقضي هناك مدة ثم يعود إلى مصر بطلب من السلطان . وكان كامل الأدب وافر المروءة حسن الخلق جميل العشرة<sup>(١)</sup> . وكان علي بن عبد الله المارداني من ماليك صاحب ماردين ، وكان يجيد الضرب على المعود وقد بلغ الناصر قلاوون خبره – هو الآخر – فاستدعاه من صاحب ماردين عام (١٣٢٧ = ٧٢٨ م) فأرسله هذا اليه<sup>(٢)</sup> . وقد بلغ أحمد بن أسعد المعروف بابن العالمة مكانة كبيرة لدى الملك المسعود صاحب آمد ، وحظي عنده واستوزره وكان له معرفة بالضرب على المعود<sup>(٣)</sup> . ويذكر المارداني أن الملك المنصور (ت سنة ٧١١ = ١٣١١ م) ، كان يعشق اللذة والفناء ، وكان يسكن خلال الربيع روضة الفردوس شرقى ماردين ، أما في

(١) القرىزي ، السلوك ٢٤١/٢١ .

(٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٦٤/٣ - ٢٦٥ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ٧٧/٣ - ٧٨ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ٤٤٨/٢) .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٩٢/١ .

وهذه الروايات تشير إلى المكانة التي بلغها الفنانون لدى الأرادة ، والى مدى تشجيع هؤلاء لفنون الظرف والفناء . وفضلاً عن ذلك اهتم الأرادة بالفعاليات الأخرى كالصيد . وينذكر ابن منقذ أنه صحب الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود أمير حصن كيما مراراً عديدة في رحلات صيده وشهد معه صيد الحجل والدراج وطير الماء الذي يكثر في دجلة ، وأن هذا كان كبير الحجم بحيث يجد الباز صعوبة في صيده . وكان أكثر صيدهم الأراوي ومعزى الجبل وكانت يصطادونها عن طريق نصب شباك واسعة في عرض الوديان ومن ثم يقومون بطرد الأراوي واستفزازها فتفعم في تلك الشباك ، وكانت كثيرة العدد سهلة الصيد ، كما كانوا يصدون الأرانب بكثرة<sup>(٢)</sup> .

وأقام الأرادة الاحتفالات الشعبية في المناسبات ، وبذكرا الفارق أن حسام الدين تمرّاش حيناً أمر بختان أولاد وزيره جمال الدين وزاعت الخلص واجتمع الناس<sup>(٣)</sup> ولم يرد في مجال اللهو والأعياد ما يشير إلى الفعاليات الاجتماعية لسكان المنطقة وأعيادهم ولماهيمهم وكيفية قضاء أوقات فراغهم ، ولا ريب أنهم في هذا كانوا كبقية شعوب المنطقة في تلك الفترة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن موقع ديار بكر بين القوى العسكرية والسياسية المتنافسة ، كالسلجقة والصلابيين والتركمان والأكراد والأمراء المحليين والأبيين والتتر

(١) تاريخ ماردين (مخطوطه ص ١٢٥ - ١٢٦).

الاعتبار من ١٩٦ - ١٩٧ . (٢)

(٣) تاریخ آمد ورقه ۱۳۳ ب.

والمالية ، لم يتع للمنطقة استقراراً طوياً المدى يساعد على ازدهار الحياة الاجتماعية في أبعادها المختلفة آنفة الذكر .

### النشاط الثقافي :

وإذا ما انتقلنا إلى الناحية الثقافية ، فإننا نجد كيف أن ديار بكر غدت في عهد الأرادة مدرسة كبيرة ، خرجت واستقبلت عدداً كبيراً من العلماء والأدباء والمفكرين في شتى مجالات المعرفة ، وكان التشجيع المادي والأدبي الذي قدمه الأرادة لهؤلاء أثر كبير في ازدهار الحركة الثقافية هناك<sup>(١)</sup> ، إذ كانوا ينفقون المبالغ الطائلة على الشعراء<sup>(٢)</sup> ، ويقيّمون الندوات العلمية والأدبية والمبادرات الشعرية وينحون الجوائز خلالها للمبرزين من الشعراء<sup>(٣)</sup> ، كما خصصوا

(١) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٢/١ - ١٨٣ ، ابن الأثير ، رسائل ص ٧٧ - ٧٩ و ٢٠٤ - ٢٠٧ ، إنسان العيون مؤلف مجهول ص ١٦٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ابن أبي أصيبيعة ، طبقات الأطباء ، ٣٢٨/٢ ، ٣٢٨/٣ ، ٣١٦/٣ ، ٢٨٠ ، ٢٧٧ ، الققطني ، أخبار الحكمة ص ١٢٢ ، ١٦١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، الكتباني ، وفيات ١٩٣/٢ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٩٢/١ - ٩٥ ، ٤٢٦ ، ٤١٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٣٢٨/٥ - ٣٢٩ ، ابن العياد ، شذرات ١٢٥/٥ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ٢٥١ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ - ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ - ٣٦٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢٧٧/٢ - ٢٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ - ٣٦٥ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ( المخطوط ٢١١/٢ ) ، القرشي ، طبقات الخفية ١٩٩/٢ ، سليم ، صفي الدين الحلي ص ٢٦ - ٤٠٠ ، ٢٧ .

(٢) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٣/١ ، ابن عربشاه أخبار تيمورلنك ص ٥٢ ، المارديني ، تاريخ ماردين ( مخطوطة ص ١٢٣ ) سليم ، صفي الدين الحلي ص ٢٥ - ٢٦ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ( القسم المخطوط ٢١١/٢ ) .

(٣) ابن عربشاه ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، ابن العياد ، شذرات ٢٠/٧ - ٢١ ، المارديني ، تاريخ ماردين ( مخطوطة ص ١٢٣ ) .

بعض العلماء والأطباء رواتب دائمة بسبب خدمتهم للأرادة<sup>(١)</sup> ، وولوا المناصب لأولئك الذين ألموا بأطراف عديدة من الثقافة<sup>(٢)</sup> . لذا قصدتهم عدد من مشاهير العلماء والأدباء والأطباء ، وعلى رأسهم أسامة بن منقذ الأديب الشاعر ، أحد أمراء شيزر في الشام ، والذي بقي عشرة أعوام ( ٥٦٠ - ٥٦٩ = ١١٦٤ - ١١٧٣ م ) في بلاط الأرادة في حصن كييفا انهمك خلاها بالتأليف<sup>(٣)</sup> . وصفى الدين الحلي الشاعر المشهور الذي انقطع مدة ليست بالقصيرة الى ملوك ماردين ، ومدحهم بعدد كبير من غرر قصائده التي حفل بها ديوانه ، وبخاصة تلك المجموعة التي سماها الأرتقيات والتي نظمها حسب تسلسل الحروف الأبيجية وألحقها بديوانه<sup>(٤)</sup> . وأبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسى المروي الذي قدم الى

(١) ابن أبي أصيبيعة ، الأطباء / ٣٦٣ .

(٢) ابن بطوطه ، رحلة ١٨٣/١ ، القسطنطيني ، الحكماء ص ١٦١ ، ياقوت ، معجم الأدباء ١٨/٢٠ - ١٩٠ ، ١٩٠ - ١٨٩ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٩٢/١ - ٩٥ ، ٤١٢ - ٤٢٦ ، انسان العيون ، مجھول ص ١٦٩ ، ٢٧٧ - ٢٨٨ ، الكتبى ، وفيات ١٩٣/٢ ، ابن العياد ، شذرات ١٢٥/٥ . وانظر ما سلف من الفصل . عن قضاة الأرادة وثقافتهم .

Ene. Isl. art: Artukids. (٣)

أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عهد المماليك الصليبية ص ٢٧٠ - ٢٧١ . وانظر عن  
أسامة بن منقذ

Cahen, la Syrie du Nord P. 44—45, Derenbourg, H., lavie d'Ousama,  
pp. 336—338, 543—562,

ياقوت ، معجم الأدباء ١٨٨/٥ - ٢١٤ ، الطباخ ، تاريخ حلب ٤/٤ - ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) ديوان الحلي ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٤/٢ - ٣٧٩ ، ابن بطوطه ، رحلة ١/١٨٣ - ١٨٤ .. وانظر : الشوكاني ، البدر الطالع ١/٣٥٨ - ٣٥٩ ، سليم ، صفي الدين الحلي ٢٦ - ٢٧ ، ٢٧ - ٣٧ ، ٤٣ - ٤٢ - ٤٠ ، ٣٩ - ٣٧ ، ٥٢ - ٥١ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ( القسم المخطوط ٢/٢ - ٣٢٥ ) .

ماردين ومدح حاكمها الملك الصالح فوهبه هذا عشرين ألف درهم<sup>(١)</sup> . وجمال الدين السنجاري « الإمام العالم وحيد الدهر وفريد العصر » الذي درس في تبريز ببلاد فارس وأدرك العلماء الكبار وقدم الى ماردين فولاه حاكمها الوزارة<sup>(٢)</sup> . وبرهان الدين الموصلي الإمام الكامل الذي قدم الى ماردين فعينه الأرانتقة قاضياً لقضاتها<sup>(٣)</sup> . وأبو الحمد الربيعي ، من أهل تكريت ، درس في بغداد على كبار مشائخها وقدم الى ماردين فولي قضاها<sup>(٤)</sup> . وأحمد بن أسعد نجم الدين المعروف بابن العالمة الذي ولد بدمشق عام ( ٥٩٤ = ١١٩٧ م ) ، ونبغ في الطب وألف فيه عدداً كبيراً من البحوث القيمة ، ثم قدم الى آمد وبلغ لدى صاحبها الملك المسعود منزلة كبيرة ، وانتهى الأمر بتوليته الوزارة<sup>(٥)</sup> . وشهاب الدين السهروردي المتصرف الإشرافي المشهور الذي قضى فترة مهمة من حياته في ديار بكر وألف كتاب ( الألواح العهدية ) لعماد الدين أبي بكر قرا أرسلان الأرتقيي صاحب خربت<sup>(٦)</sup> . وعز الدين يوسف بن الحسن التبريني الحلاوي ، الذي رحل الى بغداد ودرس فيها ، ثم عاد الى تبريز وأقام هناك ينشر العلم ، وعندما ساءت علاقته مع أصحابها اتجه الى ماردين فأكرمه أصحابها وعقد له مجلساً حضره علماؤها مثل شريح والهمام والصدر فأقرروا له بالفضل ، وأخذ يعمل هناك في التأليف لشرح منهاج البيضاوي ، وعمل حواشي على

(١) ابن بطوطة ، رحلة ١٨٣/١ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) إنسان العيون ، مجہول ص ١٦٩ .

(٥) اليوناني ، ذيل مرآة الزمان ٩٢/١ - ٩٥ .

(٦) ابن أبي أصييع ، الأطباء ٣/٢٨٠ . وانظر نفس المصدر ٣/٢٧٧ وياقوت معجم الأدباء ١٩/٣١٤ .

الكشاف ، .... الخ ثم انتقل الى الجزيرة وتوفي عام (٨٠٢ = ١٣٩٩ م)<sup>(١)</sup> . وزين الدين بن سريحا الملطي البارودي الذي قضى فترة من الوقت في ماردين الى وفاته عام (٧٨٨ = ١٣٨٦ م) ، وكان من أعيان ملطة في الفقه والقراءات والأدب<sup>(٢)</sup> . والعلامة بن محمد بن أحمد السيرالي ، الذي أقام بماردين مدة وأفاد الناس في علوم عديدة ، وبلغ المنهى في المعاني والبيان ، وتوفي بمصر عام (٧٩٠ = ١٣٨٨ م)<sup>(٣)</sup> . وعبد الرزاق بن أبي بكر بن خلف الرسعوني الذي ولد في رأس أعين من ديار بكر عام (٥٨٩ = ١١٩٣ م) « وكان محدثاً أدبياً شاعراً صدرأً رئيساً » أقام بماردين مدة من الزمن بلغ خلاها لدى أصحابها مكانة علية<sup>(٤)</sup> . وقام نجم الدين إيلغازي الأرتفقي باستدعاء أبي الفتح أحمد بن سري و كان عجبياً من بلاد هذان ، وكان مشهوراً بالحكمة وتتلمذ عليه في ماردين فخر الدين المارديني الذي برع في الطب ، ودخل في خدمة نجم الدين بن أرتق ردهما من الزمن<sup>(٥)</sup> . وقدم بدر الدين بن هبل البغدادي الطبيب الى ماردين في أواخر القرن السادس وأقام هناك مدة ليست بالقصيرة<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن العياد ، شذرات ٧/٢٠ - ٢١ .

(٢) المصدر السابق . ٣٠٢ - ٣٠١/٦ .

(٣) المصدر السابق ٦/٣١٤ - ٣١٣ .

(٤) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٤٥ - ٥٤ .

(٥) ابن أبي أصيحة ، الأطباء ٢/٣٢٨ وانظر نفس المصدر ٣/٢٧٠ حيث يذكر أن الذي استدعاه هو حسام الدين ترقاش وأكرمه غاية الإكرام وبقي في صحبته مدة .

(٦) ابن أبي أصيحة ، الأطباء ٤/٢ - ٣٣٤ . وانظر - في هذا المجال - الدبيشي تمهي الختصر ١/٢٣٩ ، وابن التجار البغدادي ، التاريخ المحدد لمدينة السلام (نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢١٣١) ، القرشي ، طبقات الحنفية ٢/٧٩ - ٨٠ ، ١٦٣ - ١٦٤ .

وهنالك عدد كبير من الذين قصدوا الأرaqueة فلقوا منهم كل ترحيب وتشجيع. ومن هنا يتضح خطأ كاملاً في القول بأننا لا نعرف أي كاتب ذي شهرة عاش داخل المنطقة الارaqueية أو في أطرافها<sup>(١)</sup>. وهكذا صرنا نجد مثقفين من شرق الأصناف كالشعراء والفقهاء والأطباء ... الخ يقصدون ديار بكر من العراق والشام وببلاد فارس والأندلس ، مما يشير إلى مدى ما كانت تتمتع به المنطقة في عهد الارaqueة من ازدهار علمي وأدبي . حق إنه كان في إحدى خزانات الكتب في آمد وحدها ، لدى فتحها من قبل صلاح الدين عام (٥٧٩ = ١١٨٣ م ) ، مليون وأربعون ألف كتاب<sup>(٢)</sup> ، وبالرغم مما في ذلك من مبالغة ، إلا أنه يدل على ما بلغت إليه حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب في المنطقة . وكان قسم من العلماء والأدباء يقفون كتبهم بعد وفاتهم في المشاهد التي وقفها الارaqueة والتي كانت أشبه بالمكتبات العامة<sup>(٣)</sup> .

ولم يقف الأمر عند حد استقبال ديار بكر لكتاب الأدباء والعلماء ، وإنما قامت - كذلك - بتخريج عدد كبير منهم عمّ نشاطهم العلمي والأدبي مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، حيث انتشروا في الجزيرة والموصل وبغداد والشام ومصر ، وتولوا المقادع التدريسية وحلقات الطلبة ، وأسموا في تنشيط الحركة الثقافية في تلك الجهات ، ووكلت إليهم كبرى المناصب القضائية والإدارية بما عرف عنهم من مقدرة علمية وأدبية ، رشحتهم لاسمي المناصب

١) Enc. Isl. art: Artukids.

٢) أبو شامة ، الروضتين ٤٠ - ٣٨/٢ (عن ابن أبي طيء) .

٣) ابن أبي أصيبيعة ، الأطباء ٣٢٨/٢ .

في تلك المناطق الواسعة من العالم الإسلامي<sup>(١)</sup>. وتحفل كتب التراث بعدد كبير من العلماء والأدباء الذين تخرجوا من ديار بكر ، أو قدموا إليها ومارسوا فيها نشاطهم فترة من الزمن<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر في هذا المجال : ابن أبي أصيبيعة ، الأطباء  $\frac{٣}{٣}$  ، ٢٨٧ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ،  
ابن طولون ، قضاة دمشق ص ٤٩ ، ٥٣ ، ٨٤ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،  
القرشي ، طبقات الحنفية  $\frac{٢}{٢}$  ، ٢٩٩ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،  
المقريزي ، السلوك  $\frac{١}{١}$  ، ١٣٣ ، ٨٤ ، ١٤ ، ١٣٣ ، ٣٩٦ ، ١/٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٢ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٧٣٠ ،  
ابن العياد ، شدرات  $\frac{٦}{٦}$  ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٦ ، ٦٦ ، ٦٤٢ ، ٦٤٢ ، ٦٤٠ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٧ ، ٦٤٧ ، ٦٥٩ ،  
اليونيني ، ذيل مرآة الزمان  $\frac{١}{١}$  ، ٥٤٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٢ ، ٥٤٥ ، ١٦١ ، ١٦١ ، ١٦١ ، ١٦١ ، ١٦١ ،  
القطفي ، الحكيم ، إنسان العيون ، مجھول ص ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ،  
الديبيشي ، تتمة المختصر  $\frac{١}{١}$  ، ٢٣٢ ، ٢٣٢ ، ٢٧٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧١ ،  
الدين الهمداني ، الذي يرجع إليه الفضل في اختراع الطريقة التي يقرأ العميان بوجبهها، وهي الكتابة  
البارزة (الصفدي نكت المبيان ص ٢٠٦-٢٠٨ ) ، وبهذا يكون قد سبق براي (Braille )  
الفرنسي في هذا المجال ( انظر مقدمة نكت المبيان ص ج ) وانظر كذلك نفس المصدر من  
البارزة ( الصدي نكت المبيان ص ج ) ، ٣٠٥ ، ٢٨٤ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة  $\frac{٢}{٢}$  ونشير في هذا المجال إلى علي بن أحمد فرن  
Zettersteen ، ٣٢٨ ، ٢٥٥-٢٥٧ ، أحد بدوي ، الحبّة العقلية ص ١٩٣-١٩٦ ، ١٩٦-١٩٣ ،  
تاریخ سلاطین الملایک  $\frac{٢}{٢}$  ، ١٩١ ، السبکی ، طبقات الشافعیة  $\frac{٤}{٤}$  ، ٨١ ، ١٢٩/٥ ،  
الجزری ، تاریخ ( مخطوطه  $\frac{٣}{٣}$ -٦-١٣-١٥ ) ، ١٦ ، ٧٠ ، ١٦ ، ٣٦/٢ ، ١٣٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٠ ، ٣٩ ،  
ابن تغزی بردي ، التبل الصافی (القسم المخطوط  $\frac{٢}{٢}$  ، ١١/٢ ، ٢٧ ، ٢٧ ، ٢٦٩ ، ٢٠٩ ، ٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٢٩ ، ٤٦٥ ، ٣٦٩ ، ٤٦٥ ، ٣٦٩ ) .

(٤) فيما عدا الإشارات التي سبق ذكرها يمكن للباحث أن ينظر في هذا المجال :

ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٦١ ، ١٣٠ ، ١١٩ ، ١١٤ ، ٧٤ ، ٤٧ ، ١٦ / ٢٠١٣٣ ، ١٦٩ ، ١٣٣ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٣ ، ٢١٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٦٩ ، ٣٠٤ ، ٢٧٦ ، ٤٤٩ ، ٤١٦ ، ٣٣٦ ، ٣٣٠ ، ٣٢٥ ، ٣١٥ ، ٢٦١ ، ٢٥٦ ، ٢٤٥ ، ٢١٤ ، ٧٧ ، ٤٣

ولا ريب أن الاراقنة ، في قيامهم ببناء عدد كبير من المدارس ، تكتنوا من إرساء النشاط الثقافي في بلادهم على أساس منظمة ، إذ غدت تلك المدارس مؤسسات ثقافية لتخريج واستقبال عدد من الشيوخ والمدرسين والطلاب داخل المنطقة وخارجها . وقد رأينا فيما سبق كيف أن الاراقنة خصصوا جزءاً من مواردم المالية لشؤون بناء المدارس وأشرفوا بأنفسهم على ذلك البناء . كما بلغ بعضهم درجة كبيرة في بعض جوانب الثقافة كحسام الدين ترثاش الذي برع في الحكمة والفلسفة ، ووقف في المشهد الذي بناء كتاباً حكيمية<sup>١١</sup> .

---

= ٤٣٨ ، ٤٨٩ ، ١٧/٤ ، ٣٤٢ ، ٢٩٧ ، ٢٧٥ ، ٢٥٣ ، ٢٤٦ ، ١٩٨ ، ١٤٨ ، ١٧ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٤٥١ ، ٤٢١ ، ٤٢٠ ، ٣٨٦ ، ابن الساعي ، الختصر/٢ ، ابن العداد ، شذرات ٤/٤ ، ٨٥ ، ٨٥ - ١٦٨ ، ٢٧٩ ، ٢٤٠ ، ٢١٤ ، ١٦٩ - ١٦٨ ، ٣٠٤ ، ٢٨٥ ، ٢٧٩ ، ٢٤٠ ، ٣٠٤ ، ٤٥ ، ٥ - ٥ ، ٢٠٤ ، ١٦٠ ، ١٤٥ - ١٣٣ ، ١٠٢ - ١٠١ ، ٠٥١ ، ٥٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٠ ، ٤١٠ ، ٤٠٩ ، ٣٩٧ ، ٣٩٢ ، ٣٠٦ - ٣٠٥ ، ٢٨٤ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٤٤٥ ، ٤٢٨ ، ٤٥٨ - ٤٥٧ ، ٤٥١ ، ٤٤٩ ، ٤٤٥ ، ٤٢٨ ، ٤٥٨ ، ابن تفري بردي ، النجوم الزاهرة ٧/٤ ، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١١٠ ، ٩٩ ، ٩٦ - ٩٥/١١ ، ٢٩٠/٩ ، ٢١٧ ، ٥٠/٨ ، ٣١٢ - ٣١١ ، ابن العبرى ، الختصر ص ٤٧٩ - ٤٨٠ ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ١٦٣ ، ٥١ ، ٣٥/٣ ، ٢٤٠ ، ٢١٠ ، ١٦١ ، ١٥٩ - ١٥٨ ، ٨٦ ، فوات الوفيات ٢١٣/١ ، ٢١٣ ، ٥٧٩ ، ٢٢٩ ، ٣٢٩ ، ٢٠٣/٢ ، ٥٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤٠ ، ٣٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٠٣/٢ ، ابن كثير ، البداية ١٣/١٣ ، ٣١٨ ، ١٢٨ ، ١٢٨ ، ٣٠/١٤ ، ١١٧ ، ١١٥ ، ٣٠/١٤ ، ١٦٨ ، ١٥٦ ، ١٢٠ ، ١١٧ ، ١١٥ ، ٣٠/١٤ ، ٢٢٧ ، ٧٩/٣ ، ٢٩٣ ، النهوي ، البر ١٣/٤ ، ١٨٩ - ١٨٨ ، ٧٤ ، ١٨٩ - ١٨٨ ، ٧٤ ، ابن الأثير ، اللباب ، الصدفي ، الواقي بالوفيات ١/١ - ١٨٨ ، ١٨٩ ، السمعاني ، الانساب ١ - ٨٢/١ ، هامش ١ ، ٨٣ ، ١٧٠/٢ - ١٧١ ، هامش ١ ، ٣٨٦ - ٣٨٥/٥ ، يقوت ، معجم الأدباء ١٠/١٣٠ - ١٢٦/١٠ ، معجم البلدان ٦٦ - ٦٨ - ٦٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٠ ، ١٨٨/٢ ، ١٨٨/٢ ، ٥٥٢ - ٥٥٢ ، ٧٨٧/٤ ، ٧٨٧ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ٤/١٧٧ - ١٧٨ ، وغيرهم .

(١) ابن أبي أصيبيعة ، طبقات ٢٢٨/٢ .

كان الأدب ، والشعر بشكل خاص ، والخط وعلوم اللغة والكلام والفقه وعلوم القرآن والحديث والفلسفة والتصوف والحكمة ، تشكل ألم مجالات النشاط الثقافي في ديار بكر ، فضلاً عن العلوم الحضة وخاصة الطب والهيئة والفلك والرياضيات ، والعلوم التطبيقية التي ساعدت على ازدهار الصناعة في المنطقة<sup>(١)</sup> . أما في علم التاريخ فلم يبرز أي مؤرخ مشهور فيها عدا الفارقي ( ٥١٠ - ١١١٦ = ٥٧٢ م ) ، الذي عاصر الأراثة في بداية تكوينهم السياسي ودرس مختلف العلوم وخاصة التاريخ ، وتسلم عدداً من المناصب في ميافارقين ، كما قام برحلات وسفارات عديدة إلى الخارج مما مكنته من إخراج كتابه المشهور ( تاريخ آمد وميافارقين ) ، الذي تيز بتقديمه تفاصيل دقيقة عن الفترة التي عاصر أحدهما وعن نظم الأراثة وعلاقتهم السياسية والجغرافية<sup>(٢)</sup> . هذا وقد زار ديار بكر ، في عهد الأراثة عدد من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين ودونوا ما شاهدوه من مظاهر طبيعية واجتماعية وعمرانية وثقافية وسياسية ، وأشهر هؤلاء ابن جبير ( ت ٦١٤ = ١٢١٧ م ) ، وابن بطوطة ( ت ٧٧٩ = ١٣٧٧ م ) ، وناسخ كتاب صورة الأرض لابن حوقل الذي زار المنطقة في منتصف القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) ، وكتب تعليقات كثيرة الأهمية عن نظم الأراثة ، وبينما يamen التعليقي وغيرهم . ولا بد من الإشارة هنا إلى محمد بن طلحة النصيبي صاحب كتاب ( العقد الفريد ) الذي تناول فيه ، من الناحية النظرية ، قوانين الحكم والنظم السائدة آنذاك ، وقد توفي عام ( ٦٥٢ = ١٢٥٤ م )<sup>(٣)</sup> .

(١) أنظر ما سلف من الفصل .

(٢) انظر مقدمة محمد عوض في تحقيقه للقسم الأول من كتاب الفارقي ( تاريخ آمد ) .

(٣) بدري ، الحياة المقلبة ص ٣٢٨ وانظر

كان طابع الثقافة في عهد الأرمنية ، كا يتضح مما سبق ، عربياً في لغته وأسلوبه ، خاصة وأن أهم مجالات تلك الثقافة المؤثرة في صبغة الحضارة ، ذات مصادر وجنود عربية للأدب عاممة ، والشعر بشكل خاص ، حيث كانت تقام الندوات والمبادرات الشعرية في حضرة أمراء الأرمنية ، وكان هؤلاء ينبعون الجوائز للأكثر بلاغة وتمكنها في النواحي الأدبية<sup>(١)</sup> ، هذا فضلاً عن الفقه وعلوم القرآن والحديث واللغة والكلام ، والفلسفة إلى حد ما ، بسبب من ارتباطها بالتصوف كمصدر ديني ، فضلاً عن أن قسمًا من تخصصوا في المواضيع العلمية ، التي لا علاقة لها بالعربية ، كانوا قد أققنوا العربية<sup>(٢)</sup> . كما أن اللغة السائدة في المنطقة كانت عربية ، بسبب استعمالها من قبل قطاعات واسعة من السكان المسلمين من غير الأتراك والمسيحيين اليعاقبة واليونانيين<sup>(٣)</sup> . وكانت أهم اللغات التي تليها في الأهمية هي التركية ، فالأرمنية التي اختص بها الأرمن دون غيرهم<sup>(٤)</sup> ، فضلاً عن الكلامية .

ويشير كاهين إلى أن الحفاوة والتقدير التي لقيها كل من صفي الدين الحلبي وأسامي بن منقذ لدى الأرمنية ، تدل على الحيوية التي كانت تتمتع بها التقاليد الأدبية العربية ، وعلى أن الحضارة العربية كانت تحتل موضع شرف هناك<sup>(٥)</sup> ، خاصة وأن كلاً من هذين الشاعرين كان يمثل التراثية العربية الأصلية في العطاء

(١) انظر : ابن عريشاء ، أخبار تيمور ، ص ٥٢ ، وسليم ، صفي الدين الحلبي من ٢٣ - ٢٦ - ٤٢٠ - ٤٣ .

(٢) ابن أبي أصيحة ، طبقات ٣٢٨/٢ .

C. Cahen, La Syrie du Nord. pp. 190—193. (٣)

Ibid. (٤)

Enc. Isl., art: Artukids, C. Cahen, La Syrie du Nord, P. 44. (٥)

الادبي ، والتي اصطبغت أحياناً بروح البداوة . ولكن ذلك كله لم يمنع من أن تكون المنطقة الارتقية المعن الاول للأبيات الشعرية القليلة ، التي تكون الناذج الاولى للأدب الشعبي في اللغة التركية غربي آسيا<sup>(١)</sup> ، ومن أن يحتفظ كثير من الاتراك ، الذين دخلوا الإسلام ، بلغتهم ، الامر الذي أحدث انسجاماً عرور الوقت بين الإسلام ولغة الامالي<sup>(٢)</sup> .

.. -

---

Enc. Isl. art. Artukids, (١)  
(٢) بارتولد ، الترك ص ١١٠ ،

## قائمة المصادر والمراجع



# المصادر القديمة

## آ- المخطوطات

ابن بهادر - محمد بن محمد المؤمني ( ت ٨٧٧ هـ ) .

فتح النصر في تاريخ ملوك مصر ، مجلدان ، مصور في دار الكتب رقم ٢٣٩٩ .

ابن تغري بردي - جمال الدين أبي الحasan الأتابكي ( ت ٨٧٤ هـ ) .  
المنهل الصافي والمستوفي بعد الواقي ، المجلدان الثاني والثالث ، مخطوطة في  
دار الكتب رقم ١١١٣ .

الجزري - محمد بن إبراهيم ( ت ٧٣٩ هـ ) .

تاريخ ابن الجزري ، مجلدان في دار الكتب رقم ٢١٥٩ ( صوراً عن خزانة  
باريس سنة ١٣٤٥ هـ ) ، وثلاث مجلدات أخرى تبدأ بأحداث سنة ٧٢٦ هـ في  
دار الكتب رقم ٩٩٥ ( صورت عن نسخة في مكتبة كوبيري زاده بالاستانة ) .

ابن دقماق - صارم الدين إبراهيم بن إيدمر ( ت ٨٠٩ هـ ) .

الجوهر الشمين في سير الملوك والسلطين ، مجلد واحد ، دار الكتب رقم ١٥٢٢ .

نزهة الانام في تاريخ الإسلام ، مجلدان ( مصوران ) في دار الكتب رقم ١٧٤٠ .

**سبط بن الجوزي** - شمس الدين بن يوسف بن قزا وغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ).  
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، ١٧ مجلداً ( مصورة في دار الكتب رقم ٥٥١ ) .

**ابن شاهنشاه** - الملك المنصور محمد بن عمر الايوبي ( او اخر ق ٦ ) .  
مضمار الحقائق وسر الخلائق ، مخطوطة معدة للنشر من قبل الدكتور حسن  
حبشي . ( نشرتأخيراً ) .

**ابن شداد** - عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم ( ت ٦٨٤ هـ ) .  
الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ( قسم الجزيرة ) ، مخطوطة  
أكسفورد رقم Bodl. Marsh 33 .

**ابن العديم** - كمال الدين عمر بن هبة الله ( ت ٦٦٠ هـ ) .  
بغية الطلب في تاريخ حلب ، ٣ مجلدات ( مصورة ) في دار الكتب رقم  
١٥٦٦ .

**العمري** - شهاب الدين أحمد بن فضل الله ( ت ٧٤٩ هـ ) .  
مسالك الابصار في ممالك الامصار ، ٣٠ جزءاً ( مصورة ) في دار الكتب  
رقم ٢٥٦٩ .

**العيوني** - بدر الدين محمود بن أحمد ( ت ٨٥٥ هـ ) .  
عقد الجлан في تاريخ أهل الزمان ، ٦٩ مجلداً ( مصورة ) في دار الكتب  
رقم ١٥٨٤ .

**الفياث** - عبد الله بن فتح الله البغدادي ( كان حياً سنة ٨٩٠ هـ ) .  
التاريخ الغيائي ، مخطوطة في مكتبة معهد الدراسات الإسلامية العليا -  
بغداد .

- الفارقي** – أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت ٥٧٢ هـ) .  
**تاريخ آمد و ميافارقين** ، مخطوطة : Oxford. 6, 310 .
- ابن الفرات** – ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي المصري (ت ٩٠٧ هـ) .  
**تاريخ الدول والملوك** ، ١٨ مجلداً (مصورة) في دار الكتب رقم ٣١٩٧ .
- ابن قاضي شهبة** – تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد الأسدى الدمشقى (ت ٥٨٥١ هـ) .  
**الاعلام بتاريخ أهل الإسلام** ، ٧ مجلدات (مصورة) في دار الكتب رقم ٣٩٢ .
- ابن قاضي شهبة** – بدر الدين محمد بن أحمد الأسدى الشافعى (ت ٨٧٤ هـ) .  
**الدر الثمين في سيرة نور الدين** ، ويسمى (الكواكب الدرية في السيرة النورية) ، مجلد واحد (مصور) في دار الكتب رقم ٢١١ .
- القدسى** – محمد أبي حامد الشافعى (ت ٨٩٣ هـ) .  
**دول الإسلام الشريفة البهية** ، مجلد واحد (مخطوطة) في دار الكتب رقم ١٠٣٣ .
- ابن قطلوبغا** – القاسم بن عمر بن منصور الواسطي (ت ٦٢٦ هـ) .  
**تاج الترجم في طبقات الحنفية** ، مخطوطة في مكتبة معهد الدراسات الإسلامية العليا – بغداد .
- الماردینی** – عبد السلام بن عمر بن محمد المفقى (ت ١٢٥٩ هـ) .  
**تاريخ ماردين** ، مجلد واحد (مخطوط) في دار الكتب رقم ٨١٣ .
- المقرizi** – تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .  
**السلوك لمعرفة دول الملوك** ، مجلدان (مصوران) دار الكتب رقم ٤٦٤ .

## مؤلف مجهول - ؟

إنسان العيون في مشاهير سادس القرن ، مجلد واحد ( مخطوط ) في  
مكتبة معهد الدراسات الإسلامية العليا - بغداد .

النويري - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ( ت ٧٣٢ هـ ) .  
نهاية الإرب في فنون الأدب ، ١٨ جزءاً ( مصورة ) دار الكتب رقم  
٥٤٩ .

ابن واصل - جمال الدين محمد بن سالم ( ت ٦٩٧ هـ ) .  
تاريخ الراشدين في أخبار الخلفاء والملوك والسلطانين ، ( ويسمى مفرج  
الكروب في أخباربني أيوب ) ، مجلدان ( مصوران ) في دار الكتب رقم  
٥٣١٩ .

## ب - المطبوعة

- ابن أبي أصيبيعة - أَحْمَدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْخَزْرَجِيِّ (ت ٦٦٨ م) .  
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ٣ أجزاء ، دار الفكر ، بيروت ٩٥٧ م .
- ابن الأثير - أَبُو الْحَسْنِ عَزِ الدِّينِ بْنِ عَلِيٍّ الشِّيبَانِيِّ الْجَزَرِيِّ (ت ٦٣٠ م) .  
التاريخ الباهري في الدولة الأتابكية (الموصل) ، تحقيق ، عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة - ٩٦٣ م .
- الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً ، دار الطباعة ، القاهرة - ١٢٩٠ م .
- اللباب في تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء ، مكتبة القديسي ، القاهرة ١٣٥٧ م .
- ابن الأثير - ضياء الدين (ت ٦٣٧ م) .
- رسائل ابن الأثير ، تحقيق انيس المقدسي ، دار العلم للملائين بيروت - ١٩٥٩ م .
- الأسطخري - أَبُو اسْحَاقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمِ الْفَارَسِيِّ (ت ٣٤٦ م) .  
مسالك الممالك ، ليدن ، بريل - ١٩٢٧ م .
- ابن إيلاس - مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْخَنْفِيِّ الْمَصْرِيِّ (ت ٩٣٠ م) .  
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الجلد الأول ، المطبعة الأميرية بولاق مصر - ١٣١١ م .

البدليسي - شرف خان (ألف في أواخر عام ١٠٠٥هـ) .  
الشرفنامة، ترجمه عن الفارسية ملا جميل بندي روزبياني، مطبعة النجاح ،  
بغداد - ١٩٥٣م.

البشاري - أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (ت ٤٣٧٥هـ) .  
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، بريل - ١٩٠٦م . (أعادت  
مكتبة المثنى في بغداد طبعه) .

ابن بطوطة - محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٤٧٧٩هـ) .  
تحفة الناظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزءان تحقيق أحمد  
العواجمي ومحمد أحمد جاد المولى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة - ١٩٣٤م .

البكري - عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٤٨٧هـ) .  
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، ٤ أجزاء ، تحقيق مصطفى  
السقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة - ١٩٤٥م .

البنداري - الفتح بن علي الأصفهاني (ت ٦٤٣هـ) .  
تاريخ دولة آل سلجوقي ، من إنشاء عماد الدين محمد بن محمد الأصفهاني (ت  
٥٩٧هـ) واختصار البنداري ، مطبعة الموسوعات مصر - ١٩٠٠م .

التطيلي - بننيامين بن يونة الأندلسي (ر ٥٦١ - ٥٦٩هـ) .  
رحلة بننيامين ، ترجمها عن الأصل العربي وحققتها عزرا حداد ، المطبعة  
الشرقية ، بغداد - ١٩٤٥م .

ابن تغري بردي - جمال الدين أبي الحasan الأتابكي (ت ٨٧٤هـ) .  
النهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، الجزء الأول ، تحقيق أحمد يوسف

- نجاتي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة - ١٩٥٦ م .  
 النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، ١٣ جزءاً ، طبعة سلسلة تراثنا  
 عن مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦ م .
- مورد الطاقة ، تحقيق Cantabridgie — 1792, J. D. Carlyle.
- ابن جبير - محمد بن أحمد الكنافى الأندلسى (ت ٦١٤ ، رحلته ٥٧٨ - ٥٨٠ م).
- رحلة ابن جبير ، مطبعة السعادة ، مصر - ١٩٠٨ م (عن النسخة المطبوعة بليدن) .
- ابن الجوزي - عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ م).
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ٥ أجزاء ط ١ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكـن ، الهند - ١٣٥٩ هـ .
- حاجي خليفة - مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧ م).
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مجلدان ، مطبعة وكالة المعارف ، استانبول - ١٩٤١ - ١٩٤٣ م .
- ابن حجر - شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ م).
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء ط ١ دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكـن ، الهند - ١٣٤٩ هـ .
- الحسيني - أبو الحسن علي بن أبي الفوارس (ت ٦٢٢ م).
- أخبار الدولة السلجوقية (المسمى زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقيـة) ، تحقيق محمد إقبال ، نشريات كلية فنजـاب ، لاهور - ١٩٣٣ م .

- الحلي - صفي الدين عبد العزيز بن سرايا ( ت ٧٥٢ هـ ) .  
 ديوان الحلي ، مكتبة المطبعة الأدبية ، بيروت - ١٨٩٢ م .
- ابن حوقل - أبو القاسم النصيبي ( ت ٣٦٧ هـ ) .  
 صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ( عن ليدن ١٩٣٨ م ) .
- ابن خرداذبة - أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ( ت في حدود سنة ٣٠٠ هـ ) .  
 المسالك والممالك ، أعادت طبعه مكتبة المثنى في بغداد عن طبعة برييل  
 عام ١٨٨٩ م .
- ابن خلدون - عبد الرحمن بن محمد ( ت ٨٠٨ هـ ) .  
 العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٦ مجلدات ، دار الكاتب اللبناني بيروت -  
 ١٩٥٦ - ١٩٥٩ م .
- ابن خلكان - أبو العباس أحد ( ت ٦٨١ هـ ) .  
 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مجلدان ، المطبعة الميمنية ، القاهرة -  
 ١٣١٠ هـ .
- خواندمير - غياث الدين بن همام الدين ( ت ٩٤٢ هـ ) .  
 حبيب السير في أخبار أفراد البشر ( بالفارسية ) ، طبع بيباري ١٨٥٨ م .
- ابن الدبيشي - محمد بن سعيد بن محمد ( ت ٦٣٧ هـ ) .  
 المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ بن الدبيشي ، انتقاء محمد بن أحمد بن  
 عثان الذهبي ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد  
 ١٩٥١ ، ١٩٦٣ م .

- دحلان - أحمد بن زيني ( ت ١٣٠٤ هـ ) .  
 الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، جزءان ، المكتبة التجارية ، القاهرة - ١٣٥٤ هـ .
- الدواداري - أبو بكر بن عبد الله بن إبيك ( حوالي ٧٣٥ هـ ) .  
 كنز الدرر وجامع الغرر ، جزء ٩ ( وهو باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ) ، تحقيق هانس روبرت روير ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة - ١٩٦٠ م .
- الديار بكري - حسين بن محمد بن الحسن ( ت ٩٨٢ هـ ) .  
 تاريخ الخيس في أحوال أنفس نفيس ، جزءان ، المطبعة الوهبية القاهرة - ١٢٨٣ هـ .
- النهبي - الحافظ شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز التركاني ( ت ٧٤٨ هـ ) .  
 دول الإسلام ، جزءان ، ط ٢ ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ، الهند - ١٣٦٤ هـ .
- العبر في خبر من غرب ، ٤ أجزاء ( الجزءان الأول والرابع تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار المطبوعات والنشر ، الكويت ١٩٦٠ ، والجزءان الثاني والثالث تحقيق فؤاد السيد مطبعة حكومة الكويت ، الكويت - ١٩٦١ ) .
- رشيد الدين - فضل الله الهمذاني ( ت ٧١٨ هـ ) .
- جامع التوارييخ ، تاريخ المغول ( المجلد الثاني ، الجزء الأول والثاني ) ، ( الإيلخانيون - تاريخ هولاكو ) ترجمة محمد صادق نشأت ورفاقه عن الطبعة التي نشرها كاترمير ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠ م .

- الرمزي - م . القيصري ( ت ١١٣٠ هـ ) .  
 تلخيص الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبفار وملوك التتار ، جزءان ،  
 المطبعة الكريمية والحسينية ، أورنبورغ - ١٣٢٥ هـ .
- ابن الساعي - أبو طالب علي بن إنجب تاج الدين ( ت ٦٧٤ هـ ) .  
 الجامع المختصر في عنوان التوارييخ وعيون السير ، عني بنشره مصطفى  
 جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ١٣٥٣ هـ .
- ختصر أخبار الخلفاء ، اختصر من قبل مؤرخ مجهول من أهل القرن  
 السابع للهجرة في أواخر سنة ٦٦٦ هـ ) ، المطبعة الأميرية ببولاق ، مصر -  
 ١٣٠٩ هـ .
- سبط بن الجوزي - شمس الدين يوسف بن قزا وغلي التركي ( ت ٦٥٤ هـ ) .  
 مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، جزءان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف  
 العثمانية بجیدر آباد الدکن ، الهند - ١٣٧٠ هـ .
- السبكي - تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين ( ت ٧٧١ هـ ) .  
 طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، المطبعة الحسينية ، القاهرة -  
 ١٣٢٤ هـ .
- معيد النعم ومبيد النقم ، ( في هامش كتاب تفريح المهج لابن قضيب  
 البان ) ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة .
- السعافي - عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ( ت ٥٦٢ هـ ) .  
 الأنساب ، تعليق عبد الرحمن بن يحيى الياباني ، خمسة أجزاء ، دائرة  
 المعاوف العثمانية ، حيدرآباد الهند ١٩٦٢ - ١٩٦٦ .

- السيوطى** - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) .  
تاریخ الخلفاء ، ط ٢ ، تحقيق محمد حمی الدین عبد الحمید ، مطبعة السعادة ،  
مصر - ١٣٧٨ هـ
- أبو شامة** - شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ) .  
ترجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين) ،  
تحقيق محمد زاهد الكوئي وعزت الحسيني ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ،  
دمشق - ١٩٤٧ م
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان ، تحقيق  
محمد حلمي محمد أحد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة - ١٩٥٦ م .  
**ابن الشحنة** - محمد الحلبي الحنفي (ت ٩٢١ هـ) .
- الدر المنتخب في تاریخ مملکة حلب ، تعليق يوسف بن إلیان سركيس  
الدمشقي ، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين ، بيروت - ١٩٠٩ .  
**ابن شداد** - القاضي بهاء الدين (ت ٦٣٢ هـ) .  
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، القاهرة - ١٩٦٢ م .  
**ابن شداد** - عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤ هـ) .  
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، قسم حلب تحقيق  
دومينيك سورديل ، المعهد الفرنسي ، دمشق - ١٩٥٣ ، قسم دمشق ، تحقيق  
سامي الدهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق - ١٩٥٦ م .  
**الشوکانی** - محمد بن علي (ت ١٢٥٠ هـ) .
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، جزءان ، نشرة معروف  
عبد الله باستدوه ، مطبعة السعادة ، القاهرة - ١٣٤٨ هـ

**شيخ الربوة** - شمس الدين محمد الانصاري الدمشقي (ت ١٧٢٧ هـ) .

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لإيزاك - ١٩٢٣ (أعادت طبعته مكتبة المثنى - بغداد) .

**الصالحي** - محمد بن علي بن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣ هـ) .

القلايد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، مكتبة الدراسات الإسلامية ، دمشق - ١٩٤٩ م .

**ابن صوري** - محمد بن محمد (كان حياً فيها بعد ٨٠٠ هـ) .

الدرة المضية في الدولة الظاهرية (مخطوط ش . لود ١١٢ - مكتبة بودليان ، اكسفورد) ، تحقيق د . وليم م . برینز ، جامعة كاليفورنيا بركليلوس انجلس ١٩٦٣ م .

**الصفدي** - صلاح الدين خليل بن إيبك (ت ٧٦٤ هـ) .

نكت المعيان في نكت العميان ، تحقيق أحد زكي ، المطبعة الجمالية ، القاهرة - ١٩١١ ، (أعادت طبعته مكتبة المثنى - بغداد) .

الوافي بالوفيات ، باعتماه ه . ريتور ، النشريات الإسلامية مطبعة الدولة ، استانبول - ١٩٣١ م .

**ابن الطقطقي** - محمد بن علي بن طباطبا العلوي (ت ٧٠٩ هـ) .

الفغربي في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، مطبعة محمد علي صبيح ، الأزهر - ١٩٦٢ م .

**ابن طولون** - شمس الدين (ت ٩٥٣ هـ) .

قضاء دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولی قضاء الشام) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، دمشق - ١٩٥٦ م .

**الظاهري** - غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣ هـ) .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، صححة بولس راويس ،  
المطبعة الجمهورية ، باريس - ١٨٩٤ م .

**الألطاف الحكيمية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية تحقيق**

H. Moller, A. Moberg — 1902

**ابن عبد الظاهر** - محي الدين عبد الله بن نشوان المصري (ت ٦٩٢ هـ) .

تشريف الأيام والمصور في سيرة الملك المنصور ( وتناول الحقبة ما بين  
٦٧٨ - ٦٨٩ هـ ) ، تحقيق مراد كامل ، سلسلة تراثنا .

**الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** (بيبرس) ، منشور في كتاب

Baybars the First of Egypte, by S. F. sadeque, oxford univ. pr., Pakistan,  
1956.

**ابن العربي** - غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ) .

تاريخ مختصر الدول ، وقف على طبعه الأب انطوان صالحاني اليسوعي ،  
المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين بيروت - ١٨٩٠ م .

**ابن العديم** - كمال الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ) .

زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جزءان ، تحقيق سامي الدهمان ، المهد  
الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق - ١٩٥٤ م .

**ابن عربشاه** - شهاب الدين أحمد بن عبد الله الدمشقي الانصاري (ت ٥٨٥٤ هـ) .

عجائب المقدور في أخبار تيمور ، المطبعة العثمانية ، القاهرة - ١٣٠٥ هـ .

**ابن عساكر** - أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي (ت ٥٧١ هـ) .

التاريخ الكبير ، ٥ مجلدات ، تصحيح عبد القادر بدران ، مطبعة روضة

الشام ، دمشق - ١٣٢٩ .

العظيمي - محمد بن علي ( ت ٥٥٦ ) .

تاریخ العظیمی ، خطوطه ، نشر سامی الدهان بعض أقسامها المهمة في  
حاشیة زبدة الحلب لابن العدیم ( انظر ابن العدیم ) .

العاد الأصفهاني - محمد بن محمد بن حامد ( ت ٥٩٧ ) .

جريدة القصر وجريدة العصر ، جزء ٢ ، قسم شعراء الشام ، تحقيق  
شکری فیصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق - ١٩٥٩ ، قسم شعراء العراق ،  
تحقيق محمد بهجت الأثري وجیل سعید ، مطبعة الجمیع العلمیي العراقي ، بغداد  
. ١٩٥٥ .

تواریخ آل سلجوک ( وهو الجزء المشتمل على كتاب زبدة النصرة ونخبة  
العصرة ) ، اختصره الفتح بن علي البنداري ( ت ٦٤٣ ) ، تحقيق  
( Th. Houtsma, Leiden — Brill — 1889 )

الفیح القسی فی الفتح القدسی ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة - ١٣٢١ .

ابن العاد - أبو الفلاح عبد الحمیی الحنبلي ( ت ١٠٨٩ ) .

شدرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، مکتبة القدسی القاهرة -

. ١٣٥٠

العیری - شهاب الدین أحمد بن فضل الله ( ت ٧٤٩ ) .

التعریف بالمعصطلح الشریف ، مطبعة العاصمة ، القاهرة - ١٣١٢ .

مسالك الأبصار في مالك الأمصار ، الجزء الأول ، تحقيق أحمـد زكي ، دار  
الكتب العربية ، القاهرة - ١٩٢٤ م .

- العمري - ياسين بن خير الله ، الخطيب ( ت ١٢٣٢ م ) .
- منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء ، تحقيق سعيد الديوه جي ، مطبعة المدف ، الموصل - ١٩٥٥ م .
- العینی - محمود بن أحمد المعروف بالبدر العینی ( ت ٨٥٥ م ) .
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ( ططر ) ، تحقيق هانس ارنست ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة - ١٩٦٢ م .
- الفزی - كامل بن حسين بالي الحلبي ( ت ١٢٧١ م ) .
- نهر الذهب في تاريخ حلب ، جزءان ، المطبعة المارونية ، حلب ١٣٤٢ م .
- الفارقی - أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق ( ت ٥٧٢ م ) .
- القسم المنشور بواسطة بدوي عبد اللطيف عوض ، الهيئة العامة لشئون المطبع الأهلية ، القاهرة - ١٩٥٩ م .
- أبو الفدا - عماد الدين إسماعيل بن محمد ( ت ٧٣٢ م ) .
- تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس - ١٨٤٠ ( أعادت طبعه مكتبة المثنى - بغداد ) .
- المختصر في أخبار البشر ، دار الطباعة الشاهانية ، القسطنطينية - ١٢٨٦ م .
- ابن الفرات - ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ( ت ٩٠٧ م ) .
- تاريخ ابن الفرات ، المجلدات ٧ ، ٨ ، ٩ ، تحقيق قسطنطين زريق ، الجامعة الأمريكية ، المطبعة الأميركانية ، بيروت - ١٩٤٢ م ( منشورات كلية العلوم والآداب ) .

- ابن الفقيه - أحمد بن محمد الهمذاني (ت ٥٣٦٥) .
- مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، برييل - ١٣٠٢ هـ (أعادت طبعة مكتبة المثنى - بغداد) .
- ابن الفوطي - كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق البغدادي (ت ٧٢٣) .
- الحوادث الجامدة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق مصطفى جواد ، المكتبة العربية ، بغداد - ١٣٥١ هـ .
- القرشي - حبي الدين أبي محمد عبد القادر بن أبي الوفاء الحنفي (ت ٧٧٥) .
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، جزءان ، دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن ، الهند - ١٣٣٢ هـ .
- الترماني - أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت ١٠١٩) .
- أخبار الدول وآثار الأول ، بغداد - ١٢٨٤ هـ .
- القزويني - زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢) .
- آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر - دار بيروت ، بيروت - ١٩٦٠ م .
- القططي - جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦) .
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تصحيح محمد أمين الخانجي الكتبى ، مطبعة السعادة ، مصر - ١٣٢٦ هـ .
- ابن القلانسي - أبو يعلي حمزه (ت ٥٥٥) .
- ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمد روز ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت

- ١٩٠٨ م (أعادت طبعه مكتبة المثنى - بغداد) .
- القلقشندى - أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) .
- صبح الأعنى في صناعة الإنسا ، ١٤ جزءاً ، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٣ م (سلسلة تراثنا) .
- مايو الانفاف في معالم الخلافة ، ٣ أجزاء ، تحقيق عبد الستار أحد فراج ، وزارة الارشاد والأنباء ، الكويت - ١٩٦٤ م ، (سلسلة التراث العربي) .
- الكتبي - محمود بن شاكر بن أحد (ت ٧٦٤ هـ) .
- فوات الوفيات ، جزءان ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ١٩٥١ م .
- ابن حثیر - اسحاق بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) .
- البداية والنهاية في التاريخ ، ١٤ جزءاً ، مطبعة السعادة ، القاهرة - ١٩٣٢ م .
- المرزوقي - شرف الزمان طاهر (حوالي سنة ٥١٤ هـ) .
- أبواب في الصين والترك والمهد منتخبة من كتاب طبائع الحيوان ، صورة عن مخطوطه ، تحقيق مينورسكي ، الجمعية الآسيوية الملكية ، لندن - ١٩٤٢ م .
- المقرئي - تقى الدين أحد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٦ أجزاء ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة - ١٩٣٦ م .
- المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والأثار ، جزءان ، مطبعة بولاق ، القاهرة - ١٢٧٠ هـ .

- ابن ماتي - الأسعد ( ت ٦٠٦ هـ ) .
- قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريان عطية ، مطبعة مصر - ١٩٤٣ م .
- ابن منقذ - أسامة بن مرشد الكناني الشيرازي ( ت ٥٨٤ هـ ) .
- كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنسون ، الولايات المتحدة - ١٩٣٠ م ( أعادت طبعه مكتبة المثنى - بغداد ) .
- ابن ميسور - محمد بن علي بن يوسف المصري ( ت ٦٧٧ هـ ) .
- أخبار مصر ، الجزء الثاني ، تحقيق هنري ماسيه ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة - ١٩١٩ م .
- النابسي - عثمان بن إبراهيم ( كان حيًّا سنة ٦٣٢ هـ ) .
- للمزيد من المعلومات في دواوين الديار المصرية ،  
Edition Préparée Par C. Becker et mise au Point par C. Cahen, Extrait du  
Buletin d'Etudes sur les Religions de l'Institut Français de Damas, Tome XVI,  
1958—1960.
- النسوي - محمد بن أحمد بن علي ( كان حيًّا قبل سنة ٦٣٩ هـ ) .
- سيرة السلطان جلال الدين منكوبوري ، تحقيق حافظ أحمد حمدي ، دار الفكر العربي ، القاهرة - ١٩٥٣ م .
- النعمي - عبد القادر بن محمد الدمشقي ( ت ٩٢٧ هـ ) .
- الدارس في تاريخ المدارس ، جزءان ، تحقيق جعفر الحسني ، مطبوعات الجمع العلمي العربي ، دمشق - ١٩٤٨ - ١٩٥١ م .
- النويري - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ( ت ٧٣٢ هـ ) .
- نهاية الإرب في فنون الأدب ، ١٨ جزءاً ، نسخة مصورة عن طبعة دار

الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة - ١٩٥٤ م . ( سلسلة  
تراثنا ) .

ابن واصل - جمال الدين محمد بن سالم ( ت ٦٩٧ هـ ) .

مفرج الكروب في أخباربنيأيوب ، ٣ أجزاء ، تحقيق جمال الدين الشيبال  
جامعة فؤاد الأول ، القاهرة - ١٩٥٣ م .

ابن الوردي - سراج الدين أبو حفص عمر ( ت ٧٤٩ هـ ) .

خربيدة العجائب وفريدة الغرائب ، مطبعة عثمان عبد الرزاق ، القاهرة  
- ١٣٠٦ هـ .

تمة المختصر في تاريخ البشر ، جزءان ، المطبعة الوهبية ، القاهرة -  
١٢٨٥ هـ .

اليافي - عبد الله بن أسد عفيف الدين اليمني المكي ( ت ٧٦٨ هـ ) .

مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ٤ أجزاء ، دائرة المعارف النظامية ، حيدر  
آباد الدكن - الهند - ١٣٣٨ هـ .

ياقوت الحموي - شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ( ت  
٦٦٢ هـ ) .

معجم الأدباء ، عشرون جزءاً ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة  
١٩٣٨ م ( مطبوعات دار المأمون ) .

معجم البلدان ، ٦ اجزاء ، تحقيق فستنفلد ، ليزك - ١٨٦٦ م .

ابن يحيى - صالح ( أواسط القرن التاسع الهجري ) .

كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحترين من بني الغرب ، الطبعة

الثانية ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت  
- ١٩٢٧ م .

اليونيفي - مومن بن محمد بن أحمد بن قطب الدين البعلبكي ( ت ٥٧٢٦ ) .  
ذيل مرآة الزمان ، أربعة أجزاء ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر  
آباد الدكن ، الهند - ١٩٥٤ - ١٩٦١ م .

# المراجع الحديثة

بارتولد - و .

تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة أحد السعيد سليمان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة - ١٩٥٨ م .

بدوي - أحد أحد .

الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بصر والشام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ٢ .

برسوم - الأب أفرام .

نزهة الأذهان في تاريخ دير الزعفران ، المطبعة السريانية ، ماردين - ١٩١٧ م .  
بروكمان - كارل .

تاريخ الشعوب الإسلامية ٥ أجزاء ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعليكي ط ٣ ، دار العلم للملائين ، بيروت - ١٩٦١ .  
حسبي - حسن .

أعمال الفرنجية وحجاج بيت المقدس ، مترجم عن مؤلف مجهول ، دار الفكر العربي ، القاهرة - ١٩٥٨ .

الحرب الصليبية الأولى ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٨ .  
نور الدين والصلبيون ، دار الفكر العربي ، القاهرة - ١٩٤٨ .

حسن - علي إبراهيم .

دراسات في تاريخ المماليك البحرينية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ، ط ٢  
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ١٩٤٨ .

الديوه جي - سعيد

الموصل في العهد الأتابكي ، مطبعة شفيق ، بغداد - ١٩٥٨ .  
زامباور - إدواردفون .

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، جزءان ، ترجمة  
وإخراج زكي محمد حسن ورفاقه ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة -  
١٩٥١ م .

زترستين - ك. ف.

تاريخ سلاطين المماليك ، قام بنشره

K. F. Zetter — Steen, London, 1919.

زقلمة - أنور .

المماليك في مصر ، مطبعة المجلة الجديدة ، القاهرة - ؟

زي - محمد أمين .

خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن ،  
المجلد الأول ، ترجمة محمد علي عوني ط ٢ ، مطبعة صلاح الدين ، بغداد -  
١٩٦١ .

تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي ( وهو المجلد الثاني من  
خلاصة تاريخ الكرد ) ، ترجمة محمد علي عوني ، مطبعة السعادة ، القاهرة -  
١٩٤٨ م .

سامي - ش .

قاموس الأعلام التركي ( بالتركية ) ، ٦ أجزاء ، مهران مطبعة سى ،  
استانبول - ١٣٠٦ - ١٣١٦ م .

سورو - محمد جمال الدين .

دولةبني قلاوون في مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة - ١٩٤٧ م .  
سلم - محمود رزق .

صفي الدين الحلبي ، دار المعارف ( نوابع الفكر العربي رقم ٢٧ ) ، القاهرة  
- ١٩٦٠ .

الصابوني - أحمد ( ت ١٩١٦ م ) .

تاريخ حماة ، ط ٢ ، شرح وتعليق قدرى الكيلاني ، المطبعة الأهلية ،  
حماة - ١٩٥٦ م .

الصانع - سليمان الموصلى .

تاريخ الموصل ، الجزء الأول ، المطبعة السلفية ، مصر - ١٩٢٣ م .  
الطباطخ - محمد راغب بن محمود بن هاشم الحلبي .

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، سبعة أجزاء ، المطبعة العلمية ، حلب  
- ١٩٢٣ - ١٩٢٦ م .

طرخان - إبراهيم علي .

مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية ( سلسلة  
الألف كتاب رقم ٢٧٩ ) ، القاهرة - ١٩٦٠ م .  
طلس - محمد أسعد .

تاريخ الأمة العربية ، عصر الانحدار ، دار الاندلس ، بيروت - ١٩٦٣ م .

- عاشور - سعيد عبد الفتاح .
- الحركة الصليبية ، جزاء ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة - ١٩٦٣ م.
- المصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، القاهرة - ١٩٦٥ م.
- الغربي - السيد الباز .
- الشرق الأوسط والخروب الصليبية ، الجزء الأول ، دار النهضة العربية ، القاهرة - ١٩٦٣ م.
- مؤرخو الخروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة - ١٩٦٢ م.
- الغزاوي - عباس .
- تاريخ العراق بين احتلالين ، ٨ اجزاء ، مطبعة بغداد والتفيض وشركة الطباعة ، بغداد - ١٩٣٥ - ١٩٥٥ م .
- تاريخ النقود العراقية لما بعد المهد العباسية ، شركة التجارة والطباعة ، بغداد - ١٩٥٨ م .
- التعريف بالمؤرخين ، القسم الأول في عهد المفول والتركان ، شركة التجارة والطباعة ، بغداد - ١٩٥٧ م .
- فيشنل - والترج .
- لقاء ابن خلدون لتيمور لنك ، ترجمة محمد توفيق ، تعليق مصطفى جواد ، دار مكتبة الحياة ، بيروت - ١٩٦٥ م .
- كحالة - عمر رضا .
- معجم المؤلفين ، ١٥ جزءاً ، المكتبة العربية ، دمشق - ١٩٥٧ - ١٩٦١ م .
- لسترانج - كي .
- بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة وتحقيق ، بشير فرنسيس وكوركيس عواد ،

مطبوعات الجمع العلمي ، بغداد - ١٩٥٤ م .  
الناش - زكي

العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال  
الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت - ١٩٥٨ م .  
هامرتن - جون آ . ( اعداد ) .

تاريخ العالم ، ترجمة إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ، مكتبة النهضة  
المصرية ، القاهرة .

مجلة مومن - المجلد السابع سنة ١٩٥١ ، بغداد .  
المجلد العشرون سنة ١٩٦٤ ، بغداد .

مجلة الجمع العلمي العربي - المجلد الثالث والثلاثون سنة ١٩٥٨ ، دمشق .  
مجلة الأقلاد - الجزء التاسع ، السنة الثانية .

مجلة بغداد - العدد الرابع والعشرون سنة ١٩٦٥ ، العدد الخامس والعشرون  
سنة ١٩٦٦ .

- Archer, T., Kingsford, C.  
The Crusaders, London, 1894.
- Baldwin, M.W.  
Raymond 111, of Tripolis and the Fall of Jerusalem,  
Princeton, 1936.
- Brehier, L.  
1- Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947.  
2- L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Les Croisades,  
Paris, 1928.
- Browne, E.G.  
Account of a Rare Manuscript History of Seljugs, London, 1966.
- Cahen, Claude.  
1- La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades, Paris,  
1940.  
2- Movements Populaires et Antonomisme Urbain dans  
l'Asie Musulmane du Moyen Age, Leiden, 1959.
- Chalandon, F.  
1- Essai sur la Règne d'Alexis Comnene, Paris, 1900.  
2- Histoire de la Première Croisade, Paris, 1925.  
3- Les Comnenes, Paris, 1910.
- Demobynes, G.  
La Syrie à l'Epoque des Mamelouks, Paris, 1922.
- D'Ohsson, Baron.  
Histoire des Mongols Depuis Techinguiz Khan Jusqu'à  
Timour Bey ou Tamer Lan, Vol. 111, Amsterdam, 1834-  
1835.
- Dozy, R.  
Supplement aux Dictionnaires Arabes, Leiden, 1927.
- Dussaud, R.  
Topographie Historique de la Syrie Antique et Médié-  
vale, Paris, 1927.
- Gibb, H.A.R.  
The Damascus Chronicle of the Crusades, London, 1932.
- Grousset, René.  
Histoire des Croisades et du Royaume de France de Jérusalem, 3 Vols., Paris, 1934-1936.

- Hagenmeyer, H.  
La vrai et le Faux sur Pierre L'Bermite, (tr. Fury Ray-nand, Paris, 1883).
- Howorth, Henry H.  
History of the Mongols from the 9th to the 19th Century, 3 parts, London, 1876-1888.
- Joinville  
Hist. de Saint Louis, (ed. N. de Wailly), Paris, 1874.
- King, E.J.  
The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.
- Lane-Poole, S.  
1- A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.  
2- Saladin and the Fall of the Kingdom of the Jerusalem, New York, 1898.  
3- The Mohammedan Dynasties, Paris, 1925.  
4- The Coins of the Urtukis, in Marsden Numismatic Chronicle, 1875.
- Michaud, J.F.  
Hist. des Croisades, 5 Vols. Paris, 1817-22.
- Ostrogorsky, G.  
Hist. of the Byzantine State, Oxford, 1956.
- Quatrmiere, E.  
Hist. des Sultans Mamlouks de L'Egypte, 2 Vols, Paris, 1837-1845.
- Recueil des Histriens des Croisades, bub. by Academie des Inscriptions et Belles Lettres, Paris, 1841-1906. (Albert d'Aix, Guillaume de Tyr, Mathieu d'Edessa, Michel le Syrien).
- Rice, Tamara T.  
The Seljuks in Asia Minor, London, 1961.
- Runciman, Steven.  
A History of the Crusades, 3 Vols, Cambridge, 1957.
- Setton, Kenneth, M.  
A History of the Crusades, Vol. I, Pennsylvania, 1955, 1958.

- 1- Runciman, S.  
The Pilgrimages to Palestine before 1095.
- 2- Gibb, A.R.  
The Caliphate and the Arab States.  
Zengi and the Fall of Edessa.  
The Career of Nur-ad-Din.  
The Rise of Saladin.
- 3- Lewis, B.  
The Ismailites and the Assassins.
- 4- Cahen, C.  
The Turkish Invasion : The Selchukids.
- 5- Fink, H.S.  
The Foundation of the Latin States, 1099-1118.
- 6- Nicholson, R.L.  
The Growth of the Latin States, 1118-1144.
- 7- Baldwin, M.W.  
The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143-1174.  
The Decline and Fall of Jerusalem, 1174-1189.
- Stevenson, W.B.  
The Crusaders in the East, Cambridge, 1907.
- Tanner, J.R. (ed.)  
The Cambridge Medieval History; Planned by J.B. Bury,  
ed. by J.R. Tanner and Others, Vol. V., Cambridge Univ.,  
1929.
- Vasiliev, A.A.  
History of the Byzantine Empire, 2 Vols.  
Madison, 1961.
- Wiet, G.  
L'Egypte Arabe, Paris, 1937.
- Wright, Th.  
Early Travellers in Palestine, London, 1848.
- The Encyclopaedia of Islam :
- 1ed. art : Amida, Ortakids.  
2ed. art : Artukids, Diyar Bakr.
- The Journal of the Royal Asiatic Society (J.A.)  
Vol. 1895, 1902, 1903, 1935, 1955.

# كتب للمؤلف

## آ بحاث تاريخية

(١) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الرابعة

(٢) عماد الدين زنكي ناقد الدار العلمية - بيروت

(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ دار العلم للملاتين - بيروت الطبعة الثانية

(٤) الحصار القاسي (ملامح مأساتنا في إفريقيا) مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى

(٥) دراسة في السيرة مؤسسة الرسالة - دار النفائس الطبعة الثالثة

(٦) الإمارات الأرثوذكسية في ديار بكر (أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للفزو الصليبي والتوري) مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى

(٧) نور الدين محمود : الرجل والتجربة دار القلم - دمشق الطبعة الأولى

## ب - أبحاث اسلامية

(١) لعبة اليمين واليسار مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية

(٢) سهافت العلامة مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة

(٣) مقال في العدل الاجتماعي مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية

(٤) مع القرآن في عالمه الرحيب دار العلم للملاتين الطبعة الأولى

(٥) آفاق قرآنية دار العلم للملاتين الطبعة الأولى

## ٢- أعمال أدبية

- |                     |               |   |
|---------------------|---------------|---|
| دار الارشاد - بيروت | نافذ          | (١) المؤسرون (مسرحية)                             |
| مؤسسة الرسالة       | نافذ          | (٢) في النقد الإسلامي المعاصر (نقد)               |
| مؤسسة الرسالة       | الطبعة الأولى | (٣) الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (نقد)        |
| مؤسسة الرسالة       | الطبعة الأولى | (٤) فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (نقد)    |
| مؤسسة الرسالة       | الطبعة الأولى | (٥) جداول الحب واليقين (شعر)                      |
| مؤسسة الرسالة       | الطبعة الأولى | (٦) رحلة في المصير (شعر)                          |
| مؤسسة الرسالة       | الطبعة الأولى | (٧) معجزة في الصفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد) |
|                     | قيد الطبع     | (٨) الشمس والدنس (مسرحية)                         |

# الفَهْرَسْت

٧	المقدمة
٩	١ - نطاق البحث
٢٥	٢ - تحليل المصادر والمراجع
	الفصل الأول
٥٧	ظهور بني أرتق وعلاقتهم بالسلاجقة
	الفصل الثاني
١١١	علاقات بني أرتق بالزنكيين والأيوبيين
	الفصل الثالث
١٩٧	بنو أرتق والصلبيون
	الفصل الرابع
٣١٣	علاقات بني أرتق بالتر والماليك وسقوط آخر إماراتهم
	الفصل الخامس
٣٩٧	النظم والحضارة الأرتقية
٥١٣	قائمة المصادر والمراجع

لطلب جميع منشوراته  
الشِّرْكَةُ الْمُتَحَدَّةُ لِلْمُتَوَزِّعِ  
بَلْدَةٍ - شَارِعُ سُورِيَا - بَلْيَةٌ مَكْنَى وَمَكْنَةٌ  
مَاقْفَةٌ ٢٩٥٤١ - صَفَنٌ ٢٦٤٧ - بَرْقِيَّةٌ بَيْرُن